

رفع

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
سَيِّدُ الْقُرَى الْكَرِيمِ

تأليف

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللَّهِ الْقَوِيلُ

إمام ومطرب جامع شتّى القرات الساعية بالرياض شافيا
مراقب الصالحات والقراوات بإزالة القرآن الكريم

مَدَارُ الْوَجَرِ لِلنَّشْرِ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

محتويات

سورة القرآن الكريم

٢

مدار الوطن للنشر، ١٤٢٤هـ

فهرست مكتبة الماحك هذه الوطنية أثناء النشر

الطويل، أحمد أحمد محمد عبد الله

محتويات سور القرآن الكريم / أحمد أحمد محمد عبد الله الطويل - الرياض، ١٤٢٤هـ
... ص ٢٤٨١٧ سم

ردمكة: ٨-٧-١٠-٩٠٤١٠-٦٠٣-٩٧٨

١- القرآن ٢- تفسير ٣- فهارس ٤- العنوان

١٤٣٤/٢٨٢٠

ديوي: ٢٢٧.٠١٦

رقم الإيداع: ١٤٢٤/٢٨٢٠

ردمكة: ٨-٧-١٠-٩٠٤١٠-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٤هـ/٢٠١٣م



مَدَارُ الْوَطَنِ لِلنَّشْرِ

الملكة العربية السعودية، المقر الرئيسي: الرياض - الملز

ص ب ٢٤٥٧٦٠ الرمز البريدي ١١٣١٧ هاتف ١٢٧٩٢-٤٢ فاكس ٤٢٢٢٩٤١

pop@madaralwatan.com

البريد الإلكتروني

www.madaralwatan.com

موقعنا على الإنترنت

٥٠٢١٩٢٢٩٩	التوزيع الغربي للشرقية والجنوبية	٥٠٣٢٦٩٢٦٦	الرياض
٥٠٠٤٢٦٨٠٤	التوزيع الغربي لباقي جهات المملكة	٥٠٤٤٤٢٩٩٨	الغربية
٥٠٠٩٩٦٩٨٧	التسويق للجهات الحكومية	٥٠٣١٩٢٢٦٨	الشرقية
		٥٠٤١٣٠٧٢٨	الشمالية والتصميم

مختويات

سورة القرآن الكريم

تأليف

أحمد بن محمد بن محمد عبد الله الطويل

إمام ومطبيب جامع مستشفى القوات المسلحة بالرياض سابقاً
مراقب المصاحف والقراءات بإذاعة القرآن الكريم

للتواصل :

هــوآل : ٩٦٦٥٦٣٨٩١٩٣٥ .. - هـآلف : ٩٦٦١٤٣٦٥٤١٩ ..

بريد : السعودية - الرياض ١١١٥٩ - صرآ : ٧٨٩٧ - بريد اأعأأ : ٧٦٥

مآآة الوآآة للنشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد: فإذا كان يشق على عامة المسلمين وهم يقرؤون كتاب الله عز وجل، أن يُحيطوا علماً بمعاني الآيات وما فيها من تشريع وحكم وأحكام وأسرار، وعبر وهدايات، ومفردات، فلا أقل من أن يحيط المسلم علماً بموضوع كل سورة، وما تتحدث عنه من عقائد وعبادات وأحكام وهدايات وقصص وتاريخ وأخلاق وآداب، ونحو ذلك من خصائص القرآن كالمكي أو المدني، وعدد الآي وغيرهما، ويُلَمّ القارئ بمحتويات السورة وأغراضها، والربط بين آياتها وموضوعاتها، لاسيما طوال السور، وهذا هو الهدف من هذا الكتاب، فقد وفقني الله تبارك وتعالى إلى إتمام تفسير كامل للقرآن الكريم يقع في خمسة عشر مجلداً يُسمّى «واحة التفسير» وقد استغرق هذا التفسير نحو عشرين عاماً من العمل الدؤوب، أسهبت فيه من بيان المعنى الإجمالي المدعم بالآيات المماثلة والمشابهة، وأسباب النزول، والأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين، والأحكام الفقهية، وربط ذلك بالأحداث المعاصرة وغير المعاصرة، تحت عناوين موضوعية، مع ذكر القراءات العشر المتواترة والمختلف فيه والمتفق عليه من عدد الآي، مع التوثيق من المصادر الأصلية، وذُكر ما جاء عن أهل الاختصاص في كُلِّ.

وذكرت مقدمة في أول كل سورة تناولت فيها عناصر السورة وأغراضها ومقاطعها وموضوعاتها ومحتوياتها، وعدد آياتها وكلماتها وحروفها وأسمائها وكونها مكية أو مدنية، ويستطيع القارئ من خلال هذه المقدمة أن يتعرف على ما في السورة من موضوعات، وأن يربط بين آياتها، وما تناوله من أحكام وهدايات.

ولأهمية هذه المقدمة في «واحة التفسير» أفردتها في هذا الكتاب، ليسهل تناولها، ويعم النفع بها، وفي هذا تيسير لحفظ كتاب الله تعالى أو حفظ شيء منه، وفيه مساعدة على تقوية الحفظ وتثبيته، وإعانة على فهم آيات القرآن لكل قارئ له، وتدبر معانيه والعمل بما فيه.

والله أسأل أن يجعل ذلك خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ: مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

أولاً: نزول سورة الفاتحة : الفاتحة أول سورة نزلت كاملة، دفعة واحدة، على النبي ﷺ بمكة المكرمة، على ما عليه جمهور العلماء، وقيل: إنها نزلت مرة أخرى بالمدينة المنورة حين حُولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، ونزل قبلها مطلع سورة العلق والمزمل والمدثر والقلم، فهي خامس سورة في ترتيب النزول، وفيها براعة الاستهلال لافتتاح القرآن الكريم.

ويؤكد كونها نزلت بمكة، أن الصلاة فُرضت بها، وليس هناك صلاة بدون الفاتحة.

وقد جاءت الإشارة إليها في سورة مكية هي سورة الحجر في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ [الحجر: ٨٧] والسبع المثاني هي سورة الفاتحة على الأرجح؛ لأنها تُتلى في الصلاة، فتقرأ في كل ركعة.

وجمهور العلماء على أن أول ما نزل من القرآن قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] الآيات الخمس الأول من سورة العلق.

والفاتحة أول سورة في ترتيب المصحف؛ لأنها تشبه دياجة الخطبة، وتتضمن مقاصد القرآن، وهذا الترتيب للسور في المصحف، ترتيب توقيفي على الراجح؛ لأنه بأمر النبي ﷺ، وهو يختلف عن ترتيب نزول القرآن، حسب الوقائع والأحداث.

عدد كلماتها: سبع وعشرون كلمة.

وعدد حروفها: مئة وأربعون حرفاً، وقد بين النبي ﷺ أن من يقرأ القرآن، له بكل حرف حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، والله يضاعف لمن يشاء.

وعدد آياتها: سبع آيات باتفاق، فمن عدَّ البسملة آية من علماء عدَّ أي القرآن الكريم أسقط من العدد قوله تعالى: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، ومن أسقط البسملة من العدد عدَّ قوله تعالى: ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية، وقد عدَّ المصحف المكي والكوفي «البسملة» آية، وأسقط ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ من العدد، وأسقط بقية علماء العدد «البسملة» وعدَّوا ﴿أَنعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ آية.

والمصحف الذي بأيدينا هو المصحف الكوفي؛ لأنه برواية حفص عن عاصم الكوفي، وهو أحد المصاحف التي أرسلها عثمان ؓ إلى الأمصار الإسلامية.

ثانيًا: أسماؤها: وقد ذكر المفسرون لسورة الفاتحة أكثر من عشرين اسمًا، ذكر القرطبي منها اثني عشر اسمًا، وعدّد الزمخشري في الكشف عشرةً منها، وذكر الألوسي في روح المعاني والسيوطي في الإتقان أنها ثيِّفٌ وعشرون اسمًا، ومن هذه الأسماء:

١- الفاتحة: أو فاتحة الكتاب، أي: بدايته.

٢- وتُسمّى أم الكتاب: أو أم القرآن؛ لأن القرآن يتبعها، كما يتبع الجيش أمّه، أي: رايته.

٣- وتُسمى سورة الحمد: أي السورة التي ذكر فيها الحمد، كما يُقال سورة الأنفال؛ لأن السورة تُسمّى باسم بعضها.

٤- وتُسمّى السبع المثاني: لأنها سبع آيات تُتلى، أي: تكرر وتُعاد في الصلاة.

٥- ومن أسمائها: القرآن العظيم؛ لاشتغالها على مقاصده الأساسية.

٦- وتُسمى سورة الرقية: لمشروعية قراءتها في الرقية.

٧- وتُسمّى: الشفاء والشافية والواقية؛ وكلها بمعنى الرقية.

٨- ومن أسمائها: سورة الصلاة؛ لحديث: «قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ...» الحديث. ^(١) والمراد بالصلاة: الفاتحة، وسُمّيت سورة الصلاة؛ لأنها ركنٌ وشرطٌ فيها.

٩- وتُسمّى الأساس: لأنها أساس القرآن وأصله، وأول سورة منه.

١٠- وتُسمّى الكافية: أي التي تكفي عما عداها، ولا يكفي عنها ما سواها.

١١- وتُسمّى أيضًا: سورة: الكثر، والنور، والتفويض، والمناجاة، وتعليم المسألة، وغير ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الحمد لله» أم القرآن، وأم الكتاب، والسبع المثاني ^(٢).

وعن أبي هريرة أيضًا أن رسول الله ﷺ قال: «هي أم القرآن، وهي فاتحة الكتاب، وهي السبع المثاني، وهي القرآن العظيم» ^(٣).

(١) يأتي ذكره وتخرجه في المبحث الثاني.

(٢) «صحيح سنن الترمذي» باختصار السند للشيخ الألباني (٦٦/٣) ورقم (٢٤٩٨)، وصحيح سنن أبي داود (١٣١) وهو في «المسند» (٩٧٩٠)، والبخاري (٤٧٠٤).

(٣) «المسند» (٩٧٨٨، ٩٧٩٠) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطبري (١٠٥/١) وابن أبي حاتم.

فَضْلُ الْفَاتِحَةِ وَمَشْرُوعِيَّةُ الرُّقِيَةِ بِهَا

أولاً: فضل سورة الفاتحة

١- إنها أعظم سور القرآن الكريم:

عن أبي سعيد بن المعلى رضي الله عنه قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجب حتى صليت، ثم أتيت، فقال: «ما منعك أن تأتي؟» فقلت: يا رسول الله، إني كنت أصلي، فقال: «ألم يقل الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾» [سورة الأنفال: ٢٤] ثم قال: «لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد» ثم أخذ بيدي، فلما أراد أن يخرج، قلت: يا رسول الله، ألم تقل: «لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن»، قال: «﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»^(١).

٢- وسورة الفاتحة فتحت لها باب خاص، ونزل بها ملك خاص، غير جبريل عليه السلام:

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: بينما جبريل عليه السلام قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه، فرفع جبريل رأسه فقال: هذا باب من السماء فتحت اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض، لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين قد أوتيتهما، لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة، لم تقرأ بحرف إلا أوتيته^(٢).

فسورة الفاتحة نورٌ، نزل بها ملك خاص، وفتحت لها باب خاص، وحين نزلت سُمع

(١) أخرجه البخاري بأرقام: (٤٤٧٤، ٥٠٠٦) وأبو داود (١٤٥٨) والنسائي (١٣٩/٢) برقم (٩١٢) وفي «الكبرى» (٨٠١٠، ١١٢٧٥) وهو في «جامع الأصول» (٤٦٥/٨) رقم (٦٢٣٤) و«المسند» (٤٥٠/٣)، ٤/٢١٢ برقم (١٥٧٣٠، ١٧٨٥١) باسناد صحيح على شرط الشيخين وابن ماجة (٣٧٨٥) والدارمي (٤٤٥/٢) وابن حبان (٧٧٧) والبيهقي (٣٦٨/٢) وغيرهم.

(٢) أخرجه مسلم برقم (٨٠٦) والنسائي (٦٣٨/٢) برقم (٩١١) وفي «الكبرى» (٨٠١٤، ٨٠٢١، ١٠٥٥٨) وابن حبان (٧٧٨) والطبراني (١٢٢٥٥) والحاكم (٥٥٨/١) وانظر: «جامع الأصول» حديث رقم (٦٢٣٩) والترمذي: (٢٨٧٥) و«المسند» (٤١٣/٢) عن أبي بن كعب رضي الله عنه.

لإبليس رثة^(١) أي: صيحة حزينة.

٣- وسورة الفاتحة لا يوجد مثلها في الكتب السماوية

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب رضي الله عنه: «أتحب أن أعلمك سورة لم يُنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في القرآن مثلها؟» قال: نعم، قال: «كيف تقرأ في الصلاة؟» قال: فقرأ أم القرآن، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، ما أنزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في القرآن مثلها، وإنها سبع من المثاني والقرآن العظيم الذي أُعطيت»^(٢).

٤- وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: قال الله ﻻ: «قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، ولعبي ما سأل، فإذا قال العبد ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي»، وقال مرة: «فوض إلي عبدي، فإذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قال: هذا بيني وبين عبدي، ولعبي ما سأل، فإذا قال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صرط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» قال: هذا لعبي، ولعبي ما سأل»^(٣).

٥- وعن أنس رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في مسير فتزل، ونزل رجل إلى جانبه، قال: فالتفت النبي ﷺ فقال: (ألا أخبرك بأفضل القرآن؟) قال: بلى. فتلا ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ

(١) جاء هذا عن أبي هريرة عند ابن أبي شيبة (٥٢٢/١٠) والطبراني في «الكبير» (٤٧٨٨) قال الهيثمي: شبيه بالمرفوع، ورجاله رجال الصحيح: «مجمع الزوائد» (٣١١/٦).

(٢) قال الترمذي (٢٨٧٥): هذا حديث صحيح، وهو في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٠٧) وفي «جامع الأصول» رقم (٦٢٦٣) ورواه أيضًا الإمام أحمد في مسنده برقم (٨٦٨٢، ٩٣٤٥) باسناد صحيح ورجال ثقات وبنحوه النسائي في «الكبرى» (١١٢٠٥) ومالك في «الموطأ» حديث رقم (٦٢٣٥، ٦٢٣٧) «جامع الأصول»، وعند ابن خزيمة (٨٦١) وصححه البغوي في «شرح السنة» (١١٨٦) وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٤٥٣.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٣٩٥) ومصنف عبد الرزاق (٢٧٦٧) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (٨٠١٣) و«المسند» (٧٨٣٦) وأبو داود (٨٢١) وصحيح أبي داود (٧٣٤) والترمذي (٢٩٥٣) والنسائي (٩٠٨) وفي صحيح سنن النسائي (٢٧٢) وابن ماجه (٣٧٨٤) وصحيح سنن ابن ماجه (٣٠٥١) وابن حبان (٧٧٦).

(١) الْعَلَمِينَ ﴿١﴾

وجاء في الأثر: أنزلت عليّ آية لم تنزل على نبيٍّ غير سليمان بن داود وغيري، وهي: ﴿يَسْمِ اللَّهَ الْخَزَنَ الرَّحِيمَ﴾ (٢)

ومن أجل هذا الفضل الذي اختصّت به سورة الفاتحة شرع الله لنا قراءتها في كل صلاة من بين سور القرآن كلها، وتوقّف قبول الصلاة على قراءتها، ومن لم يقرأها في الصلاة فصلاته باطلة، فضلاً عن مشروعيتها قراءتها في الصباح والمساء، والاستشفاء بها، ونحو ذلك.

ثانياً: الرقية بالفاتحة: وسورة الفاتحة يُرقي بها، ويُستشفى بها من المرض، ومن العين والحمّى، ولدغ الحية والعقرب، ومن كل داء وسُم.

ولذا فإن من أسمائها: الشفاء والشافية والرقية والواقية والكافية.

أخرج الإمام مسلم وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: نزلنا منزلاً، فأتتنا امرأة، فقالت: إن سيد الحيّ سليمٌ (لدغ) فهل فيكم من راقٍ؟ فقام معها رجل منا، ما كنا نظنّه يُحسن رقية، فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرأ، فأعطوه غنماً، وسَقَوْنا لبناً، فقلنا: أكنّت تُحسن رقية؟ فقال: ما رقيته إلا بفاتحة الكتاب، قال: قلت: لا تُحرّكوها (أي: الغنم) حتى تأتي النبي ﷺ فأتينا النبي ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: «ما كان يُذريه أنها رقية؟! اقسموا، واضربوا لي بسهم معكم» (٣).

وفي رواية البخاري: أن الرجل أُمِرَ لَهُ بثلاثين شاة، وأن النبي ﷺ قال: «خذوها واضربوا لي بسهم» (٤).

وفي البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن أحقَّ ما أخذتم عليه أجرًا

(١) صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ١٤٥٤ ورواه ابن حبان في صحيحه والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٢) البيهقي في «الشعب» (٢٣٢٨) وأبو عبيد في «الفضائل» ص ١١٥ وابن مردويه، ورواه الدار قطني برقم (٢٩) وفي سننه عبد الكريم ويزيد بن أبي خالد، متكلم فيهما.

(٣) «صحيح مسلم» برقم (٢٢٠١) وفي البخاري برقم (٥٧٣٦، ٥٧٤٩).

(٤) البخاري (٢٢٧٦، ٥٠٠٧) ومسلم (٢٢٠١).

كتابُ الله»^(١) أي: على قراءته في الرقية، على ألا يمتحن الإنسان ذلك ويتخذها وسيلة للتكسب، ومعاودة الرقية وبيع الماء والزيت والعسل وغير ذلك، وعلى ألا يختلي بمن يرقىها من النساء، ولا ينظر إلى ما لا يحل له النظر إليه، كأن ينفث مباشرة في صدر المرأة مثلاً.

وفي رواية أبي داود في حديث الرقية أن الراقي: أخذ يُثفلُ على سيد الحي، وقرأ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: سورة الفاتحة، قال: فكأنما أنشط من عقالٍ.

وفي رواية الترمذي: أن أبا سعيد هو الذي رقاها، وأنه قرأ سورة ﴿الْحَمْدُ﴾ سبع مرات.

وكان أبو سعيد ضِمنَ نَفَرٍ من الصحابة في سفر، وقد نزلوا هذا الحي، فأبى أهله أن يضيّفوهم، فلُدغ سيد هذا الحي، وبحثوا له عن راقٍ أو علاج، فأبى أبو سعيد أن يرقيه إلا بأجر؛ جزاء بُخلهم وعدم استضافتهم لهم^(٢).

قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢].

والمراد بالظالم: الكافر، فهو الذي لا ينتفع بالقرآن ولا يستفيد منه؛ لأن الله تعالى جعل هذا القرآن شفاءً ورحمةً للمؤمنين لا لغيرهم، كما قال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢].

وقال سبحانه: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ [فصلت: ٤٤].

ثالثاً: الرقية بالتسمية وحدها:

وكما تشرع الرقية بالفاتحة، فإنها تُشرع أيضاً بالبسملة وحدها.

عن عثمان بن أبي العاص الثقفي ؓ أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: «ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ: بِسْمِ اللَّهِ

(١) البخاري (٥٧٣٧) والبيهقي (١٢٤/٦).

(٢) ينظر: طرق الحديث وروايته في «جامع الأصول» (٥٦٦/٧) حديث رقم (٥٧٢٠).

ثلاثاً، وقل سبع مرات: أعوذ بالله وقدرته، من شر ما أجد وأحاذر»، وفي رواية «أعوذ بعزة الله وقدرته...»^(١).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «مَنْ عاد مريضاً لم يحضر أجله، فقال عنده سبع مرات: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك إلا عافاه الله ﷻ من ذلك المرض»^(٢).

رقية جبريل للنبي ﷺ

١- عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن جبريل عليه السلام أتى النبي ﷺ فقال: «يا محمد اشتكيت؟ قال: نعم، قال: بسم الله أريقك، من كل شيء يؤذك، من شر كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أريقك»^(٣).

٢- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل عليه السلام، قال: «بسم الله يُبريك، ومن كل داءٍ يشفيك، ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين»^(٤).

٣- وعنهما رضي الله عنهما: أن النبي ﷺ كان يقول للمريض: «بسم الله، تُربةُ أرضنا، بريقة بعضنا، يُشفى به سقيمنا بإذن ربنا»^(٥) وفي كلام النووي الآتي شرح لهذا المعنى.

قال الحافظ ابن حجر في الفتح: يدل على أنه ﷺ كان يتفل عند كل رقية.

(١) أخرجه مسلم برقم (٢٢٠٢) وابن ماجه (٣٥٢٣) ومالك في «الموطأ» (٩٤٢/٢) والترمذي (٢٠٨١) وأبو داود (٣٩١) وهو في «جامع الأصول» (٥٦٤/٧) حديث رقم (٥٧١٨) وفي «المسند» (١٧٩٠٧)، إسناده صحيح ورجاله ثقات، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة ١٠٠٠.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود (٣١٠٦) والنسائي في عمل اليوم والليلة ١٠٤٨ والطبراني في الدعاء (١١١٤) والحاكم (٤٣٢/١)، والمسند (٢١٣٧، ٢١٨٢) وهو حديث صحيح. كما قال محققوه، والترمذي (٢٠٨٣).

(٣) أخرجه مسلم (٢١٨٦) والترمذي (٩٧٢) وهو في «جامع الأصول» (٥٦٣/٧) حديث رقم (٥٧١٥) وأخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (١٠٠٥) وابن ماجه (٣٥٢٣) بأسانيد صحيحة.

(٤) في صحيح مسلم، برقم ٢١٨٥ وانظر مسند أحمد (٢٥٢٧٢) وابن سعد (٢١٣/٢) وعن أبي سعيد الخدري في مسلم (٢١٨٦) وأبي هريرة في المسند (٩٧٥٧)، وهو برقم (١٤٤٣) في «مختصر صحيح مسلم» للمندري بتحقيق الألباني.

(٥) أخرجه البخاري (٥٧٤٥) ومسلم (٢١٩٤) وأبو داود (٣٨٩٥) و المسند (٢٤٦١٧).

وَنُقِلَ عَنِ النَّوَوِيِّ: أَنَّهُ أَخَذَ مِنْ رَيْقِ نَفْسِهِ عَلَى إِصْبَعِهِ السَّبَّابَةِ، ثُمَّ وَضَعَهَا عَلَى التَّرَابِ فَعَلَّقَ بِهِ شَيْءَ مِنْهُ، ثُمَّ مَسَحَ بِهِ الْمَوْضِعَ الْعَلِيلَ، أَوِ الْجَرِيحَ.

قِيلَ: إِنْ التَّرَابُ يَنْفَعُ فِي تَجْفِيفِ الْجُرُوحِ، وَإِقْفَافِ الدَّمِ، قُلْتُ: وَالْمَوَادُّ الطَّبِيبَةُ تُؤْدِي الْغَرَضَ نَفْسَهُ، أَمَّا النَّفْثُ أَوِ الرِّيقُ: فَلِبَرَكَةِ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنَى، وَبَرَكَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَا يُتْلَى مِنَ الْقُرْآنِ، وَالْأَدْعِيَةِ مِنَ الرَّاقِي، وَالْمِرَادُ بِأَرْضُنَا: أَرْضُ الْمَدِينَةِ، وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَشْمَلُ كُلَّ أَرْضٍ، قَالَ الْقُرْطُبِيُّ: فِيهِ دَلَالَةٌ عَلَى جَوَازِ الرِّقَى مِنْ كُلِّ الْآلَامِ^(١).

رَابِعًا: تَلَاذُْمٌ وَعِلَاجٌ:

تَشْتَمِلُ سُورَةُ الْفَاتِحَةِ عَلَى الْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ، وَبِالْعِبَادَةِ وَالِاسْتِعَانَةِ تَتَحَقَّقُ السَّعَادَةُ الْأَبَدِيَّةُ لِلْعَبْدِ، وَيَنْجُو مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمَهْلَكَةِ.

فَأَعْظَمُ أَمْرَاضِ الْقَلْبِ: الرِّيَاءُ وَالْكِبَرُ، وَدَوَاءُ الرِّيَاءِ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَدَوَاءُ الْكِبَرِ: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

يَقُولُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ: وَ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تَدْفَعُ الرِّيَاءَ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَدْفَعُ الْكِبْرِيَاءَ، فَإِذَا عُوْفِيَ الْعَبْدُ مِنْ مَرَضِ الرِّيَاءِ بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وَمِنْ مَرَضِ الْكِبَرِ بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ عُوْفِيَ مِنْ أَمْرَاضِهِ وَأَسْقَامِهِ، وَرَفَلَ فِي ثَوْبِ الْعَافِيَةِ، وَتَمَّتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ، وَكَانَ مِنَ الْمُتَنَعِّمِ عَلَيْهِمْ، غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ: وَهُمْ أَهْلُ الْفَسَادِ فِي الْقَصْدِ، الَّذِينَ عَرَفُوا الْحَقَّ وَعَدَّلُوا عَنْهُ، وَلَا الضَّالِّينَ: وَهُمْ أَهْلُ فُسَادِ الْعِلْمِ الَّذِينَ جَهِلُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ، وَحُقَّ لِسُورَةِ تَشْتَمِلَ عَلَى هَذَا أَنْ يُسْتَشْفَى بِهَا مِنْ كُلِّ مَرَضٍ، وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٧، ٥٨].



(١) «فتح الباري» (١٠/ ١٧٠) ط دار إحياء التراث العربي، بيروت.

مَقَاصِدُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ

اشتملت سورة الفاتحة على أهم مقاصد القرآن الكريم على وجه الإجمال، ثم فُصِّل ما أجملته في القرآن كله؛ فقد اشتملت الفاتحة على التوحيد والعبادة وطلب الهداية، والثبات على الإيمان، وفيها أخبار وقصص الأمم السابقة، وفيها معارج السعداء ومنازل الأشقياء، وقد نزل القرآن لبيان حقوق الخالق على خلقه، وحاجة الخلق إلى خالقهم، وتنظيم الصلة بين الخالق والمخلوق.

وهذه جملة المقاصد التي جاء بها القرآن الكريم، بل التي جاءت بها الكتب السماوية والشرائع الإلهية جميعاً:

وفي ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ بيان لحقوق الله تعالى على خلقه.

وفي ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ تنظيم للصلة بين المخلوقين والخالق.

وفي طلب الهداية بمناجاة العبد ربه قائلاً: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ بيان لحاجة الخلق إلى خالقهم.

وفي ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ إشارة إلى جميع طوائف المبطلين الخارجين عن الصراط المستقيم، وبيان أسباب هذا الخروج، وهي لا تتعدى الغضب عليهم، أو وقوع الضلال منهم.

وبهذا استحققت الفاتحة أن يطلق عليها «أم القرآن» بل «القرآن العظيم».

وقبل الإشارة إلى حقوق الخلق والخالق، وتنظيم الصلة بين العباد ورب العباد قررت السورة توحيد الله تعالى، واستحقاقه لهذه العبادة وحده دون سواه.

وبيّنت سورة الفاتحة أن الناس محاسبون ومُجَزَّؤن على أعمالهم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

اشتمالها على جميع ما جاء في القرآن الكريم:
والفاتحة مُتَضَمِّنَةٌ لِمُجْمَلِ مَا فُصِّلَ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ:

١- فالإشارة إلى توحيد الألوهية جاءت في لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾.

- ٢- والإشارة إلى توحيد الربوبية جاءت في لفظ ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.
- ٣- والإشارة إلى الأسماء والصفات وجميع صفات الكمال جاءت في آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. ولفظ (الحمد)
- ٤- والإشارة إلى اليوم الآخر، وما فيه من عدل وفضل، وما فيه من بعث وحشر ونشر، وحساب وجزاء، جاءت في آية ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.
- ٥- والإشارة إلى كافة أنواع العبادات والإخلاص فيها جاءت في آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.
- ٦- والإشارة إلى إثبات النبوات، وإلى قصص الأنبياء والمرسلين والصالحين، وإلى إثبات صفة القدر، وأن العبد حرّ مختار، والرد على أهل البدع والضلال، جاء ذلك في قوله سبحانه: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.
- ٧- وجاء الحث على السير على نهج الأنبياء والصالحين والاهتداء بهديهم في قوله جل شأنه: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾.
- ٨- والحديث عن أهل الكتاب وأهل الزيغ والضلال، جاء في نهاية السورة: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وعلى هذا ففي سورة الفاتحة خمسة مقاصد:

المقصد الأول: توحيد الله سبحانه: اشتملت السورة على التعريف بالمعبود جلّ في علاه، وعلى توحيد الخالق سبحانه، وتضمنت سورة الفاتحة خلاصة وجيزة لعقائد الإسلام، واجتثاث جذور الشرك التي كانت فاشية في الأمم، ومقتضى ذلك توحيد العبادة، والتوجه بها إلى الله سبحانه، فهو جلّ شأنه المعبود بحق دون سواه، يرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

ففيها تعليم وإرشاد إلى كيفية التمجيد والثناء والحمد لله تعالى، ولا يكون ذلك إلا عن نعمة، وأهمها نعمة الخلق والإيجاد، ومن كان كذلك فهو جدير بالعبادة وحده؛ ولذلك فقد اشتملت السورة على ثلاثة أسماء لله تعالى، هي مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا، وعليها مدارها، وهي: (الله، الرب، الرحمن).

والحمد يتضمن الاعتراف بالآلوهية والربوبية والأسماء والصفات وتوحيدها . . . إلخ .

وربوبيته سبحانه لخلقه ليست مبنية على القهر والجبروت، بل مبنية على الرحمة، فهو سبحانه الرحمن الرحيم، وهذا بيان لحقيقة العلاقة بين الله تعالى وبين خلقه، وأنها مبنية على الرحمة التي تَغْمُرُ الخلائق كلهم، وبخاصة العبد المؤمن .

وقد فصل القرآن الكريم جانب التوحيد، ونهى عن الشرك في عشرات السور منه، واعتنى بذلك أيما عناية، حيث كان التوحيد هو المهمة الأساس في الفترة المكية، وهى أطول مدّتي الرسالة .

المقصد الثاني: الإيمان باليوم الآخر: واشتملت السورة على أهم أركان الإيمان، بعد الإيمان بالله تعالى؛ وهو إثبات المعاد والجزاء على الأعمال، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من بعث وسؤال وحشر ونشر وحساب وجنة ونار، وغير ذلك مما فصله القرآن الكريم في العديد من السور والآيات، لا سيما القرآن المكي، الذي يُعنى بغرس العقيدة في النفوس أولاً، في مثل جُزْأَيَّ (عمّ وتبارك) .

وإذا كان في الدنيا نوع من التقاضي بين الناس، وألوانٌ من الجزاء على الأعمال، فإن الله سبحانه هو المُتفرد بالحُكم العادل يوم القيامة، وهو سبحانه مَلِكُ هذا اليوم ومالكه .

وَمَنْ يملك مصير العباد، ومآلهم الدائم يوم الآخرة، فهو المالك الحقيقي لما قبله في الدنيا من باب أولى، وإذا كان في الدنيا نوعٌ مُلْكٍ لبعض ملوك الأرض، فإن المُلْكَ كُلَّهُ لله تعالى في الدنيا والآخرة، وهو ملك حقيقي لا يحول ولا يزول وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ .

ويوم الدين هو يوم الحساب والجزاء، الذي يُدان فيه العباد إلى ربّ الأرض والسماء .

وقد أشار القرآن الكريم إلى الإيمان بالله تعالى والإيمان باليوم الآخر، إلى جوار العمل الصالح في كثير من آياته، وبيّن أن ذلك هو أساس الفوز بالسعادة الأخروية، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] .

والمراد: إيمان كل أمة برسولها قبل أن تُنسخ رسالته، ولا يقبلُ الله تعالى إيمان أيٍّ من

أرباب الشرائع السابقة بعد مجيء الرسالة الخاتمة، إلا بالإيمان بمحمد ﷺ والعمل بشريعته.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

وما من أحد يسمع برسالة محمد ﷺ ثم لا يؤمن بها إلا مات كافراً والعياذ بالله.

المقصد الثالث: التكاليف الشرعية: أما جانب العبادات: مما يتعلق بالصلاة والزكاة والصيام والحج والأذان والذبح والنذر والدعاء والاستغاثة والاستعاذة والرجاء والخوف والتوكل والاستعانة وما إلى ذلك، وتوجيه هذه العبادات إلى الله تعالى وحده، فقد أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وقد تَضَمَّنَتْ هذه الآية عهداً وثيقاً بين الناس وربهم، يُحَقِّقُ رسالتهم في الوجود، فلا عبادة إلا لله، ولا توكل إلا على الله، ولا استعانة إلا بالله، وقد فَصَّلَ القرآن الكريم أنواع العبادة في أكثر سُورِهِ، في حديثه عن أركان الإسلام الأربعة، وفَصَّلَ القرآن الاستعانة بالله تعالى في آيات التوكل والإنابة ونحوها.

المقصد الرابع: قصص الأنبياء والمرسلين: أما جانب النبوات والرسالات في سورة الفاتحة، فيشير إليه قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ① صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ. ②

فالقرآن الكريم كتابٌ هداية وإرشاد، يهدي للتي هي أقوم، ويدعو إلى الطريق المستقيم، ويأمر بالعدل والقسط والوسطية والاستقامة، والسعادة في الدارين لا تتم إلا بترك الانحراف والضلال وسُبُلِ الغواية والاعوجاج، ولا يكون ذلك إلا عن طريق الرسل والكتب المنزلة، والرسل هم أَوَّلُ الذين أنعم الله عليهم، ولا سبيل إلى هداية البشر، ولا إلى معرفة الحق من الضلال، والخير من الشر، إلا عن طريق الرسل.

وقد فَصَّلَ القرآن الكريم ما أجملته سورة الفاتحة من الحديث عن أنبياء الله ورُسُلِهِ في عشرات السور، إلى جانب الحديث عن الصِّدِّيقين والشهداء والصالحين، مما يأخذ بيد المسلم إلى طريق الهداية وسبيل الرشاد، وطريق الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصِّدِّيقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

وهذا الجانب من قصص الأنبياء والمرسلين تناولته السور المكية، فالهداية هي التطبيق العملي لدعوة الأنبياء، وهي طريق الإنسان إلى معرفة ربه سبحانه.

ولعل هذا هو السر في اختيار هذه السورة؛ ليقراها المسلم في صلاته وجوباً في اليوم الواحد سبع عشرة مرة، ثم يُكثر منها في النوافل وغيرها ما شاء الله له.

المقصد الخامس: أهل الكتاب:

أما أهل الكتاب من اليهود والنصارى الذين فصل القرآن الكريم الحديث عنهم في سُورهِ المدنيّة، وأوضح زيغَهُم وضلالَهُم، وأسباب غضب الله تعالى عليهم، فقد أجملت سورة الفاتحة هذه المعاني في قوله تعالى: ﴿عَنِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

ومعلوم أن مقاصد القرآن الكريم تتناول جانب العقيدة والنبوة والرسالة والعبادة والهداية، التي هي الهدف من القصص والأخبار القرآنية، وهذا ما أجملته سورة الفاتحة، وفصله القرآن الكريم.

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

أ- فِي فَضْلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

١- وسورة البقرة هي سَنَامُ الْقُرْآنِ، ومن الأحاديث الواردة في فضلها، ما جاء في صحيح مسلم وغيره من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اقْرَؤُوا الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَؤُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَاتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا، اقْرَؤُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكُهَا حَسْرَةٌ، وَلَا يَسْتَطِيعُهَا الْبَاطِلُ»^(١).

والغياية: كل شيء أظلك فوق رأسك كالسحابة، والزهراء: النيرة المضئية، والغمامة: السحابة والفِرْقَانِ: بكسر الفاء، القطيعان أو الجماعتان والبطلة: هم السحرة، سُمُّوا بطلة: لأن ما يأتون به باطل، فسمُّوا بطلة باسم عملهم، وصواف: أي مصطفة متضامنة. وسورة البقرة فيها إبطالٌ للسحر، وفيها بيان أن تعليمه وتعلُّمه كُفْرٌ، وفيها إبطالٌ للعين أيضاً، ولا يستطيع السحرة أن يفعلوا شيئاً في البيت الذي يُداوم فيه على تلاوة سورة البقرة، كل ثلاثة أيام.

٢- وفي حديث بريدة رضي الله عنه مرفوعاً قال: كنت جالساً عند النبي ﷺ فسمعتَه يقول: «تَعَلَّمُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ وَآلَ عِمْرَانَ فَإِنَّهُمَا الزَّهْرَاوَانِ، تُظِلَّانِ صَاحِبَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ»^(٢).

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٤) و«المسند» برقم (٢٢١٤٦) وابن حبان (١١٦) والطبراني (٧٥٤٢) والحاكم (٥٦٤/١) والبيهقي (٣٩٥١٢).

(٢) أحمد (٣٥٢/٥) برقم (٢٢٩٥٠) بإسناد حسن، من حديث طويل، والدارمي في «فضائل القرآن» (٢/٤٥٠) وصححه الحاكم (٥٦٠/١) على شرط مسلم ووافقه الذهبي من حديث بريدة، ولفظه بزيادة (أو غيابتان، أو فِرْقَانِ مِنْ طَيْرِ صَوَافٍ) وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٦) حسن صحيح، وأخرجه البغوي في شرح السنة (١١٩٠٠) والتفسير (٢٣/١).

ففي الحديث بيان أنهما يُظْلان قارئهما يوم تدنوا الشمس من الرؤوس، ويوم لا ظل إلا ظل الله تبارك وتعالى، كما في حديث السبعة الذين يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظلة.

٣- وفي الحديث عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تَقْدُمُهُ سورة البقرة وآل عمران كأنهما غمامتان، أو ظِلَّتَانِ سَوْدَاوَانِ تُحَاجَّانِ عَنْ صَاحِبِهِمَا»^(١).

ومن فضل سورة البقرة أنها تطرد الشياطين من البيت الذي تُقْرَأ فيه، وحدّث بعض الأحاديث طرد الشياطين، بثلاثة أيام تُقْرَأ فيها سورة البقرة في البيت، كما في الحديث الآتي، كي يعاود المسلم قراءتها في بيته بين الحين والآخر، كل ثلاثة أيام.

٤- ففي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقْرَأ فيه سورة البقرة». ولفظ الترمذي «وإن البيت الذي تُقْرَأ فيه سورة البقرة لا يدخله شيطان»^(٢).

وجعلُ البيوت كالقبور، يكون أيضاً بترك صلاة النوافل فيها، وبترك قراءة القرآن فيها، وتعميرها يكون بقراءة القرآن وبالصلاة فيها، إن الشيطان لا يدخل البيت الذي تُقْرَأ فيه سورة البقرة.

ومن يحفظ سورة البقرة فهو أمير القوم ولو كان أصغرهم، وقد أمر النبي ﷺ صغير السن الذي يحفظ سورة البقرة، على كبار القوم، وكان ﷺ يُقَدِّمه على غيره في صلاة الجنائز، والقرآن يشفع لقارئه يوم القيامة.

والملائكة تشارك المسلم في الاستماع للقرآن، والدواب تخشع وتهتز حين تُقْرَأ سورة البقرة:

٥- فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما ما معناه: أن (أُسَيْدَ بْنَ حُضَيْرٍ) كان يقرأ سورة

(١) ينظر الحديث في «صحيح مسلم» (٨٠٥) والترمذي (٢٨٨٣) وأحمد (١٨٣/٤) برقم (١٧٦٣٧) والترمذي (٢٨٨٣).

(٢) أخرجه مسلم عن أبي هريرة برقم (٧٨٠) في صلاة المسافرين والترمذي في «فضائل القرآن» برقم (٢٨٧٧) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠١٥) وأحمد (٧٨٢١) وغيرهم، وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٥٨).

البقرة في الليل، وكانت عنده فرسٌ مربوطة، كلما قرأ جالت الفرس وتحركت، فإذا سكّت سكنت، وكان ابنه (يحيى) قريباً منها، فخاف على نفسه أن تطأه الفرس، فابتعد عنها، فرفع (أُسَيْدٌ) رأسه إلى السماء، فإذا مثل الظلّة فوق رأسه، فيها أمثال المصاييح، وعرجت الفرس في الجوّ ولم يرها، فلما أصبح (أُسَيْدٌ) حدّث النبي ﷺ بما حصل، فقال له النبي ﷺ «أوتدري ما ذاك؟» قال: لا، قال: «تلك الملائكة دنّت لصوتك، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم»^(١).

فهؤلاء هم الملائكة المكرمون يقتربون من (أُسَيْد) يستمعون لسورة البقرة.

وهذه هي الحيوانات تخشع وتتاثر وتهتزّ لسماع القرآن، كما أن الجبال تتصدّع من خشية الله تعالى، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْنَاهُ خَشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر ٢١] فما بالكم بالإنسان وما أودع الله فيه من عقل وفكر؟!

٦- وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «إن لكل شيء سناماً وإن سنام القرآن سورة البقرة»^(٢)

٧- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بالفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة (البقرة) لا يُقرآن في دار ثلاث ليال فيقرئها شيطان»^(٣)

(١) ينظر النص في «صحيح البخاري» معلقاً برقم (٥٠١٨) و«المسند» (٨١/٣) و«صحيح مسلم» (٧٩٥)، (٧٩٦) والنسائي في «فضائل الصحابة» برقم (١٤٠) وفي «الكبرى» (٨٠١٦، ٨٢٤٤) والطبراني في «المعجم الكبير» برقم (٥٦١) وما بعده، وابن حبان (٧٧٦) و«المستدرک» (٥٥٤/١) ولهذا الحديث ألفاظ وهو في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٤).

(٢) رواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الترمذي عن حكيم بن جبیر عن أبي صالح عن أبي هريرة وقال: حديث غريب، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦١-١٤٦٢) حسن لغيره.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب والنسائي وابن حبان والحاكم، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٦٧).

ب - مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة البقرة هي السورة الثانية في ترتيب المصحف، والسابعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة المطففين وقبل سورة آل عمران.

وسورة البقرة أطول سورة في كتاب الله عز وجل، فهي جزءان ونصف الجزء وهي أول ما نزل بالمدينة.

ابتدأ نزولها بعد الهجرة، وظل مفتوحًا حتى نزلت آخر آية في القرآن، وفيها أطول آية في القرآن الكريم، وهي آية المدائنة، وفيها أفضل آية في كتاب الله جلّ شأنه، هي آية الكرسي، وسورة البقرة ست وثمانون ومئة آية في المصحف الكوفي الذي بين أيدينا، وفق رواية حفص عن عاصم^(١).

وكلماتها: ستة آلاف ومئة وإحدى وعشرون كلمة، وحروفها: خمسة وعشرون ألفاً، وخمسة مئة حرف.

وسُمِّيت (سورة البقرة) لذكر قصة البقرة فيها.

وفي حديث عبد الرحمن بن زيد أن ناسًا كانوا يكرهون أن يقولوا: سورة البقرة، وآل عمران، حتى يقولوا: السورة التي يُذكر فيها البقرة، والسورة التي يذكر فيها آل عمران، فسمعوا عبد الله بن مسعود وهو يرمي الجمرات مستقبل الكعبة يقول: والذي لا إله غيره، رمى الذي أنزلت عليه سورة البقرة^(٢).

وما ورد في ذلك عن أنس رضي الله عنه: لا تقولوا سورة البقرة، ولكن قولوا: السورة

(١) وسبع وثمانون ومئة آية في المصحف البصري، وخمس وثمانون ومئة آية في بقية المصاحف وهي: المدني الأول، والمدني الأخير، والمكي، والشامي، وهي المصاحف التي أرسلها عثمان رضي الله عنه إلى الأمصار، وسبب هذا الاختلاف: أن النبي ﷺ وقف على آيات دائماً، ووصل كلمات دائماً، فلم يختلف في الوقف على الأول ووصل الثاني، وهناك آيات وقف عليها النبي ﷺ مرة ووصلها مرة، فأخذ بعضهم بالأول، وأخذ الآخرون بالثاني.

(٢) الحديث أخرجه أحمد في «المسند» (٤٠٨٩، ٤١١٧) والبخاري (١٧٤٧، ١٧٥٠) ومسلم (١٢٩٦) وأبو داود (١٩٧٤) والترمذي (٩٠١) والنسائي (٣٠٧١) وابن ماجه (٣٠٣٠).

التي يُذكر فيها البقرة، فهو أثر ضعيف^(١).

وقد صحَّ ذكر اسم السورة مباشرة في كثير من الأحاديث، منها حديث عوف بن مالك الأشجعي، قال: قمت مع رسول الله ﷺ ليلة فقام، فقرأ سورة البقرة؛ لا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوّذ، ثم ركع بقدر قيامه، يقول في ركوعه: «سبحان ذي الجبروت والملكوت والكبرياء والعظمة» ثم سجد بقدر قيامه، ثم قال في سجوده مثل ذلك، ثم قام فقرأ ب (آل عمران) ثم قرأ سورة سورة^(٢).

وهي سورة مدنية بالإجماع، ابتدأ نزولها على رسول الله ﷺ بعد الهجرة النبوية، بعدما أقيمت الدولة الإسلامية في المدينة النبوية واجتثت جذور الوثنية في مكة، وأصبحت الدولة بحاجة إلى منهج إلهي يرسم لها الطريق والشرعة التي تسير عليها، فكانت سورة البقرة، حيث قسّمت الناس في أولها إلى مؤمنين وكافرين ومنافقين، ثم دعت الجميع إلى عبادة الله الواحد، فقد ذكر الله سبحانه أن أصناف الخلق ثلاثة:

١- المؤمنون المستجيبون لله والرسول، وهم المتقون المقربون الأبرار.

٢- والكفار الذين جحدوا واستكبروا عن الإيمان بالله ورسوله.

٣- والمنافقون في عقيدتهم وفي سلوكهم وأعمالهم.

وبَيَّن سبحانه أن هذا القرآن يستفيد منه ويهتدى به أهل التقوى فقط، فقال تعالى: ﴿فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

وقد أنزله الله تعالى لهداية الناس كافة فهو ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

أما الكفار فإنهم لن يهتدوا به أبداً ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

ومنافقو العقيدة كفاراً أيضاً، قال تعالى ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾.

وبعد هذا التقسيم، دعاهم جميعاً إلى عبادة الله وتوحيده، فهي الغاية التي خُلِقوا من

(١) وقد أخرجه الطبراني (٥٧٥٥) والبيهقي، «مجمع الزوائد» (٢٥٨٢) قال الهيثمي: وفيه عيسى بن ميمون وهو متروك، (١٥٧/٧).

(٢) «صحيحه الألباني، سنن أبي داود» (٧٧٦) وهو في سنن الترمذي (٢٩٨) والنسائي (١٠٤٨، ١١٣١).

أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٦٥]

وقد خاطب الله المؤمنين المتقين في أربع آيات، وخاطب الكفار في آيتين اثنتين، وخاطب المنافقين في ثلاث عشرة آية، وضرب لهم الأمثال الموضحة؛ لأن المنافق مُحَيَّرٌ، له ظاهرٌ وباطنٌ، غير معلوم الحقيقة لعامة الناس، كالمؤمن والكافر، فكلاهما معروفٌ، لا يحتاج إلى عناء بحث كالمنافق.

وخُتم هذا المقطع ببيان مصير كل من المتقين والكافرين يوم لقاء رب العالمين.

وذكرت السورة بعد ذلك قصة خلق آدم، وبيان فضله بالعلم والمعرفة، وامتناع إبليس من السجود له حسداً وكبراً وعلواً.

ج - بدء الحديث عن بني إسرائيل (اليهود):

وتحدثت سورة البقرة في نصفها الأول عن بني إسرائيل، وهم أول شعب ذو رسالة كبرى، بعد الحديث عن بدء الخلق وقصة آدم وإبليس، ومن ثَمَّ إلى الحديث عن القبلة وتحويلها، فخصَّتهم بأول حديث يُوجَّه من القرآن إلى اليهود المجاورين للنبي ﷺ في المدينة وما حولها، تخاطبهم وتحديثهم وتدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وتشير في أول آية منها إلى أنهم ليسوا على شيء بما زيفوه، وأن هذا القرآن هو كتاب الهداية للبشر جميعاً.

د - اثنتا عشرة وصية لليهود بعد النداء الأول لهم في القرآن:

وفي أول نداء لبني إسرائيل أوصاهم الله تعالى باثنتي عشرة وصية، وهي:

١- وجوب الوفاء بالعهد والمواثيق ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. [الآية: ٤٠]

٢- وجوب الخوف من الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. [الآية: ٤٠].

٣- وجوب الإيمان بخاتم الرسول ﷺ ﴿وَعَامِنُوا بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ﴾. [الآية: ٤١]

٤- عدم الكفر بخاتم النبيين ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾. [الآية: ٤١].

٥- عدم بيع الآخرة بالدنيا ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾. [الآية: ٤١]

٦- الأمر بتقوى الله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾. [الآية: ٤١]

٧- عدم خلط الباطل بالحق ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾. [الآية: ٤٢]

٨- عدم كتمان أوصاف النبي ﷺ الموجودة لديهم في التوراة الأصلية ﴿وَتَكْنُبُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْمُونَ﴾. [الآية: ٤٢]

٩- الأمر بإقامة أصول الإسلام وفروعه كالصلاة والزكاة ﴿وَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾. [الآية: ٤٣]

١٠- الركوع مع الراكعين من أمة محمد ﷺ ﴿وَأَزْكَوْا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾. [الآية: ٤٣]

١١- عدم مخالفة الأقوال للأفعال ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾. [الآية ٤٤]

١٢- الاستعانة بالصبر والصلاة على أمور الدنيا والآخرة ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. [الآية: ٤٥]

هـ - عشر من نعم الله تعالى على اليهود: وتحدثت السورة في الربع الثالث منها عقب النداء الثاني لبني إسرائيل عن عشر من النعم التي أنعم الله تعالى بها عليهم ، وهي :

١ - نجاتهم من ظلم فرعون وبطشه ﴿وَإِذْ يَجْنَيْكُمْ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾. [الآية: ٤٩].

٢- فَرَّقَ البحر وجعله طرقاً يابسة بعدد أسباط بني إسرائيل ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾. [الآية: ٥٠].

٣- عفو الله عنهم بعد عبادتهم للعجل ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾. [الآية: ٥٢].

٤- نزول التوراة على موسى عليه السلام ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. [الآية: ٥٣].

٥- قبول توبتهم من عبادة العجل ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَنَابَ عَلَيْكُمْ﴾. [الآية: ٥٤].

٦- بعث من مات منهم بالصاعقة حين طلبوا رؤية الله تعالى جهرة ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِّنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. [الآية: ٥٦].

٧- تظليل الغمام لهم وهم في صحراء سيناء ﴿وَوَهَبْنَا عَلَيْكَ الْمُنَّامَ﴾. [البقرة: ٥٧]

٨- نزول المن والسلوى عليهم: ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: ٥٧].

٩- دخول أريحا أو بيت المقدس ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَزَيْدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]

١٠- تفجير الحجر وخروج الماء منه بعدد الأسباط: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾ [البقرة: ٦٠]

و - اثنتان وثلاثون مخالفة من اليهود في أوائل سورة البقرة:

وتناولت السورة إحدى وثلاثون مخالفة من مخالفات اليهود ذكرت في الجزء الأول منها، ومجمل هذه المخالفات هي:

١- عدم إيمانهم بالتوراة إلا تحت وطأة التهديد برفع الجبل فوقهم قال تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٦٣]

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ نَفَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا﴾ [الأعراف: ١٧١].

٢- صيد السمك في يوم العبادة وقد نهوا عنه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]

وقال سبحانه: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ بَلَّوْنَهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

٣- التشدد والتعنت في ذبح البقرة، مع قسوة القلب وعدم الاعتبار بإحياء الموتى:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ نَفْسًا فَاذْرَيْنَاهَا فِيهَا وَاللَّهُ يُخْرِجُ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٦﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا

كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَشْقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٣﴾ [البقرة].

٤- تحريفهم لكلام الله تعالى في التوراة، كتغيير عقوبة الزاني المحصن من الرجم إلى الجلد والتشهير به، قال تعالى: ﴿أَنْظِمُوهُمْ أَنْ يَوْمُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَلْحِقُوكَ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٧٥﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ [البقرة].

٥- رؤساء اليهود يغيرون أوصاف النبي ﷺ في التوراة، والجُهاال يتبعونهم: قال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بِغَضُوبِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذْتُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ [البقرة].

٦- دعواهم أن النار لن تمسهم إلا أياماً معدودة هي التي عبدوا فيها العجل: قال تعالى حكاية عنهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ اتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٠﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً وَغَرَّبُوا فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ ﴿٢٤﴾ [آل عمران].

٧- عدم التزامهم بمواثيق الخلق والخالق على حد سواء قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسَّكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣].

٨- أربعة أمثلة لنقض اليهود عهودهم، ومن ذلك قتل اليهودي لليهودي المتحالف مع قبيلة أخرى، وإخراج اليهودي المتحالف مع غيره من داره، وكل ذلك مخالفة لما ورد في التوراة:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِينِهِمْ تَبْطُلُونَ عَلَيْهِم بِالْإِيمِ وَالْعُدُودِ وَإِنْ يَأْتِوكُمْ أُسْرَىٰ تَقْتُلُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ

يَبْغِضُ الْكَذِبَ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أشدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ [البقرة].

٩- تكذيبهم لرسول الله وقتلهم لهم، قتل زكريا ويحيى عليهما السلام:

قال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ ﴿٨٧﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ بِمُوسَى أَنْ نَصْرِ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَافِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة]

وقال جل شأنه: ﴿... قُلْ فَلِمَ تَقُولُونَ أَنِّيَأَى اللَّهُ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩١﴾ [البقرة]

١٠- كفرهم بمحمد ﷺ وعدم الإيمان به بعد بعثته، مع اعترافهم به قبل بعثته:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مِمَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ بَشَرٌ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَتَبَ اللَّهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٠﴾ [البقرة]

١١- التعصّب الديني عند اليهود قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أُنزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحَدُ بِمَا أُنزَلَ عَلَيْنَا وَيكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ [البقرة: ٩١]

١٢- عبادتهم للعجل الذهبي قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ ﴿٩٢﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلَيفَتِهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ أَلَدَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ [الأعراف]

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ [الأعراف]

وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ ﴿٩١﴾ [طه]

١٣- ترك العمل بما في التوراة وإعلان العصيان:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ يَتَسَاءَلُونَكَ عَنِ الْبَقَرَةِ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ [البقرة].

١٤- دعواهم حق الامتياز على البشر، وأنهم شعب الله المختار:

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٤﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ يَبَنِيَّاءُ الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَكُم أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿٩٦﴾ [الجمعة]

١٥- شدة حرصهم على الدنيا: قال تعالى: ﴿وَلَنَجْذِثَنَّهُمْ أَفْرَاسَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاقٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُرَحِّحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ [البقرة]

١٦- عداوتهم لرسول الوحي جبريل - عليه السلام - لأنه ينزل على الأنبياء بالعذاب:

قال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ ﴿٩٨﴾ [البقرة]

١٧- نقض اليهود الدائم للعهود والمواثيق، فكلما عاهدوا عهدًا نبذة فريق منهم:

قال تعالى: ﴿أَوْكَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ [البقرة]

١٨- تعلم السحر وتعليمه والعمل به: قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بِبَابِلَ

هَرُوتَ وَمَرْوَتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ... ﴿البقرة: ١٠٢﴾

١٩- إساءتهم ومغالطتهم للرسول ﷺ وتلاعبهم بالمصطلحات: قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿البقرة: ١١٤﴾

٢٠- حسدهم للنبي الخاتم ﷺ لأن الرسالة قد انتقلت منهم إلى العرب:

قال تعالى: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصِرُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ ﴿البقرة: ١٥٥﴾

٢١- تشكيكهم في الإسلام والطعن فيه بسبب قضية النسخ في القرآن:

قال تعالى: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿البقرة: ١٠١﴾

وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتِرٌ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿النحل: ١١١﴾

٢٢- الكشف عن نوايا اليهود تجاه المسلمين بتمنيهم كفرهم: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ الْحَقُّ...﴾ ﴿البقرة: ١٠٩﴾

وقال سبحانه: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ ﴿النساء: ٨٩﴾

وقال جل شأنه: ﴿إِنْ يَتَفَقَّهُكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَهُمْ بِأَسْوَأَ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ ﴿المتحنة: ٢﴾

٢٣- زعمهم أن الجنة خلقت لهم: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ تِلْكَ ءَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿البقرة: ١١١﴾

٢٤- تكذيب كل من اليهود والنصارى للآخر: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ ﴿البقرة: ١١٣﴾

٢٥- تخريب مساجد الله، وعلى رأسها المسجد الأقصى:

قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُمْ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا أُولَٰئِكَ مَا كَانَ

لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ [البقرة]

٢٦- قولهم عزيز ابن الله كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ [البقرة: ١١٦]

وقال جل شأنه: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]

٢٧- مشابهة اليهود للوثنيين في جرأتهم على الله تعالى وطلبهم رؤيته عياناً:

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَمُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ نَظَرُونَ﴾ [البقرة]

وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة]

٢٨- محاولتهم إخراج المسلمين من دينهم:

قال تعالى: ﴿وَلَنْ رَضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصْرَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢]

وقال جل شأنه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُكْفِرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]

٢٩- إعراضهم عن الإيمان بمحمد ﷺ وهو دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة]

٣٠- دعواهم أن دينهم أفضل الأديان، ونبههم أفضل الأنبياء، وكتابهم أفضل الكتب: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة]

٣١- التشكيك في الإسلام بسبب تحويل القبلة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمُ الَّذِي كَانُوا عَلَيْهِ قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة]

٣٢- كفرهم بمحمد ﷺ مع شدة معرفتهم له ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة]

وَقُرْنِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى بِالْمُشْرِكِينَ الوثنيين في حسدهم للمسلمين ولصاحب الرسالة ﷺ في قوله تعالى: ﴿مَا يَوْذُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة]

وأثارت السورة الخلاف بين اليهود والنصارى وادعاء كل فريق منهم أنه المُحق:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: ١١٣]

وتحدثت السورة عن فضائل المسجد الحرام، وعن إبراهيم الخليل الذي رفع قواعد البيت، وبينت أن الإسلام هو دين التوحيد الذي جاء به إبراهيم عليه السلام، وأن اليهود والنصارى ليستا على ملة إبراهيم، كما تحدثت عن تحويل القبلة وطعنهم فيها.

وبعد الحديث عن اليهود بإسهاب رسمت السورة المنهج الرباني للبشرية جميعاً.

وبينت ما يتعلق بجانب العقيدة، وتحدثت عن أركان الإسلام الخمسة، وعن أركان الإيمان الستة، وبينت ما يتعلق بجانب العبادة: من صلاة وصيام وزكاة وصدقة وحج وغير ذلك، كما بينت أحكام المعاملات بين الناس: من بيع وشراء وربا ورهن وغير ذلك، وبينت أحكام الأسرة المسلمة: من زواج وطلاق ومُتعة وخُلَع وخطبة وعدة ورضاع وغير ذلك، وتناولت حكم الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

وتكررت مادة التقوى في هذه السورة بضعة وثلاثين مرة، ولا تشبهها سورة أخرى.

ز- وأقامت سورة البقرة أدلة محسوسة على البعث بعد الموت:

١- في توبة عبدة العجل القائلين لموسى ﷺ ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة] فكانت عقوبتهم أن أخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، فماتوا عن آخرهم

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهِمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٦]

٢- وفي قصة البقرة، في شأن القتل الذي أحياه الله تعالى حين ضرب ببعضها:

﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٧٣]

٣- وفي قصة: ﴿الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]

٤- وفي قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها، فاستعظم عودة الحياة إليها

﴿فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩]

٥- وفي قصة طيور إبراهيم الأربعة، وقد قطعها وخلطها ونثرها على رؤوس الجبال،

وقال الله له: ﴿ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ [البقرة: ٢٦٠] فأراه كيفية إحياء الموتى بعينه.

وذكرت السورة أربعة توجيهات لتربية النفس المؤمنة لمواجهة الأحداث الجسام. وهي: (ذكر الله تعالى، وشكره، والاستعانة بالصبر والصلاة، وحب الشهادة في سبيل الله). وأرسَتْ قواعد الإيمان الصحيح في السعي بين الصفا والمروة، ووجوب بذل العلم، والنظر في هذا الكون، للاستدلال به على وحدانية الخالق سبحانه، وبيئت أن محبة المؤمن لربه تفوق كل محبة، وأن المسؤولية يوم القيامة فردية، وأن التحليل والتحرير حق الله وحده.

ح - أربعون حُكْمًا تشريعيًا للمسلمين في سورة البقرة:

وقد ذكرت سورة البقرة في النصف الثاني منها أربعون حُكْمًا تشريعيًا يجب العمل بها إلى قيام الساعة، لأن السورة بدأ نزولها بعد الهجرة إلى المدينة مبشرة، وبقيت مفتوحة نحو عشر سنوات حتى نزل فيها آخر آية من القرآن ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [الآية: ٢٨١]، فَشَرَعَتْ للناس جُلَّ أحكام دينهم ودنياهم، ومنها أحكام:

١ - القصاص وحكمته ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقَصَاصُ فِي الْقَتْلِ﴾ [الآية: ١٧٨]

وجاءت الحكمة منه في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ﴾ [الآية: ١٧٩]

٢- الوصية عند الموت ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ وقد نُسخَت الوصية للوالدين بآية الموارث، وبقيت الوصية لغير الورثة من الأقارب في [الآية: ١٨٠]

٣- الصيام وأحكامه ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ [الآيات: ١٨٣-١٨٥ وآية ١٨٧]

٤- الدعاء وآدابه ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [الآية: ١٨٦]

٥- الاعتكاف وأحكامه ﴿وَلَا تُبَشِّرُوهُمْ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسْجِدِ﴾ [الآية: ١٨٧]

٦- الصيام المستمر عن أكل الحرام، بعد الصيام عن الحلال مدةً مُعَيَّنة:

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ [الآية: ١٨٨]

٧- مراحل تشريع الجهاد في سبيل الله بالنفس: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الآية: ١٨٨].

٨- مقابلة الاعتداء بمثله، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ هَرَمُوا مِنَ الْحَرَامِ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَتِ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [الآية: ١٩٥]

٩- عدم الجهاد في سبيل الله بالمال لدفع الصائل ومقاومة المحتل: إلقاء بالنفس إلى التهلكة [الآية : ١٩٥].

١٠ - تفصيل أحكام الحج والعمرة ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [الآيات : ١٩٦ - ٢٠٠]

١١ - القتال في سبيل الله فرض على الأمة ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ﴾ [الآية : ٢١٦]

١٢ - جواز القتال في الأشهر الحرم، لإزالة العوائق من طريق الدعوة، وردّ العدوان عن الإسلام وأهله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾ [الآية : ٢١٧]

١٣ - التدرج في تحريم الخمر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْلَفْعٌ لِلنَّاسِ﴾ [الآية : ٢١٩]

١٤ - إصلاح مال اليتيم بالمحافظة عليه وتنميته ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [الآية : ٢٢٠]

١٥ - النهي عن زواج الوثنيات ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ يُوْمِنَ﴾ [الآية : ٢٢١]

١٦ - النهي عن إتيان النساء في الحيض ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾ [الآية : ٢٢٢]

١٧ - بيان موضع الحرث من المرأة وتحريم إتيانها في الدبر:

﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأَتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [الآية : ٢٢٣]

١٨ - أحكام الأيمان ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾

[الآيتان : ٢٢٤ - ٢٢٥]

١٩ - حكم الإيلاء: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلَوْنَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾ [الآية : ٢٢٦]

٢٠ - عدة المطلقة، وبيان حقوق المرأة وواجباتها ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾

﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الآية : ٢٢٨]

٢١ - الطلاق الرجعي: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ﴾ [الآية : ٢٢٩]

٢٢ - الطلاق على عوض: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَفْقَهَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ [الآية : ٢٢٩]

٢٣ - طلاق البائن بينونة كبرى: ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ [الآية : ٢٣٠]

٢٤ - عضل الزوج للمرأة: ﴿وَلَا تَسْكُوهُنَّ ضَرَارًا لِّنَعْدُو﴾ [الآية : ٢٣١]

٢٥ - عضل الأولياء للمرأة: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الآية : ٢٣٢]

٢٦ - الرضاعة والحضانة: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى

الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [الآية : ٢٣٣]

٢٧- عدة المتوفى عنها زوجها: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِبْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [الآية: ٢٣٤]

٢٨- عدم التعرض الصريح للمتوفى عنها زوجها بالخطبة أثناء العدة: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [الآية: ٢٣٥]

٢٩- متعة المطلقة قبل تسمية المهر وقبل الدخول بها: ﴿وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَى الْوَسْعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ [الآية: ٢٣٦]

٣٠- المطلقة بعد تحديد المهر وقبل الدخول بها لها نصف المهر، ولا متعة لها: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوا الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ [الآية: ٢٣٧]

٣١- متعة المتوفى عنها زوجها، على القول بعدم النسخ: ﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتْنَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [الآية: ٢٤٠]

٣٢- متعة المطلقة المدخول بها: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتْنَعُ الْغَيْرِ الْمَعْرُوفِ﴾ [الآية: ٢٤١]

٣٣- التمسك بالعروة الوثقى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [الآية: ٢٥٦]

٣٤- النفقة في سبيل الله: أجزاها ومبطلاتها [آيات ٢٦١-٢٦٨] وغيرها.

٣٥- أحكام النذر: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهَا﴾ [الآية: ٢٧٠]

٣٦- أحكام الربا: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ...﴾ [الآيات: ٢٧٥ - ٢٨٠]

٣٧- أحكام الدين: ﴿إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [الآية: ٢٨٢]

٣٨- حل التجارة الحاضرة: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ [الآية: ٢٨٢]

٣٩- الرهن عند تعسر كتابة الدين: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَنَّ مَقْبُوضَةً﴾ [الآية: ٢٨٣]

٤٠- النهي عن كتمان الشهادة: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ﴾ [الآية: ٢٨٣]

هذا: وقد تحدثت سورة البقرة عن قصة طالوت وجالوت في حديث الملاء من بني إسرائيل الذين تمنوا القتال ثم تخاذلوا عنه، وذكرت السورة مبطلات أجر الصدقة: الرياء والمن والأذى.

وفي موازنة بين النفقة في سبيل الله، وأكل الربا، ضربت لهما السورة الأمثلة، ورغبت في الصدقة، وبينت أنها تضاعف إلى سبع مئة ضعف فأكثر، وأن الربا يمحقه الله ويُرَبِّي الصدقات، وشنت آيات السورة على أكل الربا حرب من الله ورسوله إن لم يتب، ورغبت في النفقة، وحرمت الربا، وذكرت أحكام الدين والتجارة الحاضرة والرهن.

ط- دعائم الاقتصاد الإسلامي: أرست سورة البقرة في ست آيات منها معالم الاقتصاد الإسلامي، وبينت أنه يتمثل في الزكاة والصدقة والتكافل الاجتماعي، ولا يقوم على الربا الذي يسود العالم، وقد جاء ذلك في أربعة عشر آية تتحدث عن آداب إنفاق المال في وجوه الخير، وتبع ذلك ست آيات تحدثت عن الربا، وهو الوجه المقابل للصدقة والتكافل الاجتماعي، وقد خُتِمت هذه الجولة بربط العبد بربه وحثه على تقوى الله تعالى، والحذر من عقابه يوم العودة إليه بعد البعث والنشر ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ ولا يكتمل قيام كيان اقتصادي عالمي إلا بعد وجود البديل عن الربا، وهو يتمثل في أحكام الذَّيْن وكتابته والإشهاد عليه، ووجود التجارة الحاضرة يدا بيد، والإشهاد على البيع والشراء وجواز الرهن عند تعسر الكتابة.

وبهذه الدعائم الثلاث: علاج مشكلة الفقر، ووجود البديل عن الربا، وحلول المضاربة والمشاركة والمراوحة ونحوها محلّ الربا، يقوم الاقتصاد الإسلامي، وهو لا يحتاج إلى تغيير مباني البنوك ولا إلى تغيير أاثانها، ولا تغيير السجلات أو الحاسوب الذي يُدَوَّن فيه المضاربات، وإنما يحتاج إلى معرفة الآلية الإسلامية، وصدق التوجّه، وعدم التعامل فيما حرّمه الإسلام، كالخمر والميسر ونحوهما، وصياغة هذه التعاملات بالصيغة الإسلامية، كالمشاركة والمراوحة والمضاربة والقرض الحسن والزكاة والصدقة، وقد ظهرت بوادر الحرب على أكلة الربا في عصرنا، في الانهيار الاقتصادي العالمي وتأثيره على أكبر البنوك في العالم، وعلى أقوى دول العالم اقتصاديا وسياسيا وعسكريا، نسأل الله السلامة والعافية.

وخُتِمت السورة بآيتين نزلتا من كنز تحت العرش، بعد دعاء شامل يتضمن الخصائص الإسلامية.

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ (٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ، وَسَبَبُ النُّزُولِ

سورة آل عمران هي السورة الثالثة في ترتيب المصحف، والثامنة والأربعون في ترتيب النزول، سُميت بهذا الاسم لذكر قصة آل عمران فيها وهم: يحيى، وعيسى، ومريم. وذكر الألوسي أنها تُسمّى سورة الأمان والكنز والمجادلة، وسورة الاستغفار، ومن أسمائها الزهراء كما في حديث: «اقرأوا الزهراوين»، فهذه ستة أسماء. وقد نزلت هذه السورة بالمدينة اتِّفَاقًا سنة ثلاثٍ من الهجرة، بعد غزوة أحد. وهي مِثْنَا آية باتفاق أهل العدد^(١) وثلاثة آلاف وأربع مئة وثمانون كلمة، وأربعة عشر ألفًا وخمسة مئة وعشرون حرفًا.

وإذا كانت سورة البقرة في نصفها الأول قد خَصَّت اليهود بالحديث عنهم، فإن سورة آل عمران تحدثت في نصفها الأول عن النصارى، وهم الشق الثاني من أهل الكتاب، والنصف الثاني من سورة آل عمران تحدث عن غزوة أحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة، وعلَّقت السورة على ما أصاب المسلمين فيها من جراح، وما يتخللها من أحكام، إلى ما قبل ختام السورة بعشر آياتٍ، أي: نحو سبعين آية.

وهكذا فإن سورة آل عمران نزل نصفها الأول -وقدره أربع وثمانون آية- بمناسبة قدوم وفد نصارى نجران على رسول الله ﷺ سنة اثنتين من الهجرة؛ لمناظرته في شأن عيسى عليه السلام^(٢) لَمَّا بلغهم مبعث النبي ﷺ، ونزل بعد ذلك ست وثلاثون آية تعقيبًا على تلك

(١) ذكر العلامة الطاهر بن عاشور في تفسيره أن المصحف الشامي يعدها مئة وتسع وتسعون آية، ولم أجد ذلك في كتب هذا الفن (علم الفواصل)، ولمعرفة علم عدّ الآي المتفق عليها والمختلف فيها ينظر: «بشير اليسر، ومعالم اليسر»، و«شرح ناظمة الزهر» للشاطبي وشرحها للشيخ عبد الفتاح القاضي، وله أيضًا: «نفائس البيان شرح الفرائد الحسان»، وللشيخ أحمد البنا: «إتحاف فضلاء البشر» وغيرها.

(٢) يستبعد (سيد قطب) -رحمه الله- أن تكون هذه الآيات نزلت في وفد نصارى نجران، سواء صحت الروايات أم لم تصح؛ لأن الوفد قدم على المدينة في السنة التاسعة من الهجرة، وجئوا السورة يشير إلى نزولها في الفترة الأولى من الهجرة، وهو كلامٌ وجيهٌ، ولكنّا لا نجد له سندًا وهو وهمٌ منه رحمة الله عليه.

قلت: وقد قدم وفد نجران على النبي ﷺ في مكة حين بلغهم خبره بعثته ﷺ كما جاء في سبب نزول آية (الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَابُ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ) [القصص: ٥٢] وذكر المفسرون أن وفد نجران قدم إلى المدينة سنة اثنتين من الهجرة؛ فلا يلزم أن تكون هذه الحادثة عام الوفود.

القصة؛ ليعتبر أهل الكتاب.

قصة وفد نصارى نجران:

قَدِمَ هذا الوفد المكوّن من ستين رجلاً فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرفهم، وثلاثة من أكابرهم: أميرهم (العاقب) ووزيرهم (السيد) وخَبَرَهُم (أبو حارثة) دخلوا مسجد رسول الله ﷺ في صلاة العصر، فلما حانت صلاتهم صلُّوا إلى جهة الشرق، فلما فرغوا تقدّموا إلى رسول الله ﷺ يناظرونه في شأن عيسى عليه السلام، وهم يمثلون في حواراتهم ومُناظراتهم فرق النصارى ومذاهبهم المختلفة.

فَقَالَتْ فرقة منهم للنبي ﷺ: إن عيسى هو الله، واستدلوا على ذلك بأنه: يُحيي الموتى، وأنه يُرى الأكمه والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه فيكون طيراً، وأنه يعلمهم بشيء من الغيب مما يأكلونه ويدخرونه في بيوتهم، وهذه الأمور من خصائص الألوهية.

والجواب على ذلك معروفٌ، فهذه الأشياء التي ذكروها أجراها الله ± على يد عيسى عليه السلام من باب المعجزة الدالة على صدقه في رسالته؛ فإن معجزة كل رسول تكون من نوع ما نبغ فيه القوم.

فقوم موسى كانوا سحرة، فجاءهم موسى عليه السلام بمعجزة خارقة للعادة من جنس السحر، لا يستطيع السحرة أن يفعلوها، وهي قلب العصا حيةً، وما إلى ذلك.

وقوم محمد ﷺ كانوا أهل فصاحة وبلاغة، فكانت معجزة الرسول ﷺ مناسبةً لحال القوم، مما نبغوا فيه من الفصاحة والبلاغة، وهي هذا القرآن الكريم، وأنه معجزة قائمة إلى يوم الساعة، وليست معجزةً كونيةً يراها الناس ثم تنصرف عنهم، ولكنها بين أيديهم إلى يوم القيامة.

وكانت معجزة عيسى عليه السلام من نوع ما نبغ فيه قومه، فقد كانوا أطباء ماهرين، بلغ الطب ذروته في عهد عيسى عليه السلام، فأراد الله سبحانه أن يُجري على يد عيسى من المعجزات من نوع ما نبغ فيه القوم، ولكنها فوق مستوى البشر؛ فمهما بلغ الطب من تقدّم، فإنه لن يصل إلى معرفة إحياء الموتى، ولن يصل إلى معرفة شيء من علم الغيب. وكان عيسى عليه السلام ينبئهم -كما ذكر القرآن- بما يأكلون، وما يدخرون في بيوتهم، فهذا الذي أجراه الله

على يدي عيسى ﷺ هو معجزة له بإذن الله تعالى، وليس من صنع عيسى ولا من قدرته.
وقالت الفرقة الثانية التي تُمثّل مذهباً آخر من مذاهب النصارى: إن عيسى هو ابن الله،
 واستدلوا على ذلك بأنه قد وُلِدَ بغير أب، وأنه قد تكَلَّمَ في المهد، وهذا أمرٌ خاصٌّ
 بعيسى في زعمهم.

والجواب على ذلك: أن خلق عيسى من غير أب - كما ذكر الله سبحانه - آيةٌ من الآيات
 الدالة على قدرة الله تعالى؛ كي تكتمل القِسْمة العقلية، فالله سبحانه أراد أن يبيّن لخلقه
 أن خلقه للإنسان لا يتوقف على تلقيح الذكر للأُنثى، فقد خلق الله آدم بغير أب ولا أم،
 وخلق حواء بغير أم، وخلق عيسى من غير أب، وخلق الناس جميعاً من أب وأم. وهذا
 هو مقتضى القسمة العقلية، أربعة أصناف لا تخرج عنها الخليفة، فخلق الله تعالى لعيسى
 من غير أب، آية دالة على قدرة الله سبحانه، وأنه لا يحتاج في خلقه للإنسان إلى هذا
 التلقيح الذي يكون بين الرجل والمرأة، وإنما الله سبحانه قد يخلق الإنسان من غير أب،
 أو يخلقه من غير أم، أو يخلقه بأب وأم، أو يخلقه بدونهما، قال سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ
 عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٥٩).

فليس عيسى ابن الله، حاشا لله عزّ وجل.

وأما كلامه عليه السلام في المهد فهذا لا يخص عيسى وحده، فقد بيّن النبي ﷺ أن
 هناك ثلاثة تكلموا في المهد وهم صغار، وقيل أربعة: عيسى ﷺ، وشاهد يوسف،
 وصاحب جريج، وابن ماشطة فرعون^(١). هؤلاء أربعة تكلموا في المهد، فهذه حجة لا
 تصلح؛ لأنها لا تخص عيسى وحده من بين البشر.

وقالت الفرقة الثالثة: إن عيسى ثالث ثلاثة، أي: أن الإله عندهم مكوّن من ثلاثة:
 الأب، والابن، والروح القدس. واستدلوا على ذلك بأن عيسى يقول: قلنا وفعلنا
 وخلقنا، وهذا يدل على جمع، ولو أنه واحد لقال: قلتُ وفعلتُ وخلقْتُ وهكذا.

والجواب على ذلك معلومٌ، فالإنسان يُعظّم نفسه، ويتحدث عنها ويقول: نحن فلان
 وهو شخصٌ واحدٌ، ويقول: قمنا بكذا، وشرحنا كذا، وفعلنا كذا... وهكذا - معبراً عن

(١) ينظر أدلة ذلك في الآية (٤٦) من هذه السورة، وفي سورة مريم عند قوله تعالى (قال إني عبد الله...) .

نفسه، ومعظمًا لها، يُعبر بهذا الضمير الذي يصلح لأكثر من واحد عن نفسه، لا سيما الملوك وكبار القوم. وهذا تعبيرٌ سائغٌ في العربية، وليس هناك وجهٌ للاعتراض عليه.

ولما ذكر الوفد للنبي ﷺ؛ أن عيسى هو الله، أو أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة:

١- قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا حيٌّ لا يموت، وأن عيسى يموت؟» قالوا: بلى.

٢- قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن كل ولدٍ يُشبه أباه»، وأن عيسى ليس له أب يشبهه؟ قالوا: بلى.

وهكذا: فالله سبحانه ليس كمثله شيء، وهو واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، لا والد له ولا ولدٌ، فمن يشبهه؟! هل هو عيسى عليه السلام؟!!

٣- قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن ربنا قيّمٌ على كل شيء يحفظه ويرزقه؟» قالوا: بلى، قال: «فهل يملك عيسى من ذلك شيئاً؟» قالوا: لا.

٤- قال لهم النبي ﷺ: «ألستم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء؟» قالوا: بلى. قال: «فهل يعلم عيسى من ذلك إلا ما علّمه الله سبحانه إياه وأخبره به؟!» كما قال سبحانه في أمور الغيب: ﴿عَلِمَ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٢٦) إِلَّا مَنْ أَرَضَيْنَا مِنْ رَسُولٍ ﴿[الجن: ٢٦، ٢٧] أي: فإنه يخبره ويُعلّمه بشيء من الغيب، وفق مراد الله سبحانه.

٥- قال النبي ﷺ لوفد نصارى نجران: «ألستم تعلمون أن الله تعالى قد صوّر عيسى في الرحم كما يشاء، وربنا لا يأكل ولا يشرب؟!» قالوا: بلى^(١).

والله سبحانه يصوّر الخلق في أرحام الأمهات كيف يشاء، وعيسى قد صوّر كذلك في رحم أمّه.

٦- قال ﷺ: «ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها، ثم غُذي كما يُغذى الصبي، ثم كان يطعم ويشرب ويُحْدِث؟» قالوا: بلى.

فعيسى قد حملته أمه بين أحشائها، ووضعتُه، وأرضعته، وغُذي كما يُغذى الصبية. وهو يأكل ويشرب، ويدخل الخلاء، فيبول ويتغوط، وليس هذا مناسبا ولا جائزا في حق الذات

(١) شرحْتُ سبب النزول بالمعنى، وأضفتُ إليه ما يوضحه. ينظر النص عند ابن اسحاق (٢/٢١٨) وما بعدها، وابن جرير (٣/١٠٨) وما بعدها، وكتب التفسير.

العليا جلّ في علاه، وربُّنا سبحانه لا يأكل ولا يشرب، ولا يُحدث ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] أي: هو وأمه، ومعنى ذلك أنهما يدخلان الخلاء، ويتبولان ويتغوطان كما يفعل البشر.

قال: فكيف يكون عيسى إلها كما زعمتم؟! فسكتوا.

أبى القوم إلا الجحود، وتداولوا أمرهم، وهم فيما بينهم معترفون بنبوة محمد ﷺ ورسالته، ولكن حب الرئاسة والكبرياء والجحود هو الذي يمنعهم من تصديق محمد ﷺ.

٧- قال ﷺ: «أَلَا تُسَلِّمُوا؟» قالوا: قد أسلمنا قبلك.

٨- قال ﷺ: كذبتُم، يمنعكم من الإسلام ثلاثة أشياء:

أ- ادّعاءكم أن لله تعالى ولداً، وهذا شرك أكبر بالله سبحانه.

ب- وعبادتكم للصليب. ج- وأكلكم لحم الخنزير.

هذه ثلاثة تُكذِّب ادّعاءكم أنكم قد أسلمتم، وكل واحدة منها تمنعكم من الإسلام.

ثم قالوا بعد حوارهم مع النبي ﷺ: نتركك على دينك، ونرجع إلى ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك أميناً نحكمه فيما بيننا، ويقوم بالقضاء فيما اختلفنا فيه.

فقال النبي ﷺ: «اتنوا في العشيّة أرسل معكم رجلاً من أصحابي». وفي المساء اجتمع أصحاب النبي ﷺ للصلاة، وأخذ كل واحد منهم يستشرف ويتطلع أن يكون هو الذي يرسله النبي ﷺ مع القوم، حتى إن عمر -رضوان الله عليه- يقول: ما أحببت الإمارة قط كما أحببتها يومئذ؛ رجاء أن أكون صاحبها، فجعلتُ أتناول بعد الصلاة -وهو في المسجد، أي: يَمُدُّ عنقه لأعلى؛ كي يراه النبي ﷺ فيؤمّره على القوم- فلما سلّم الرسول ﷺ أخذ ينظر يمنة ويسرة ثم وجد أبا عبيدة بن الجراح، فقال له: قم يا أبا عبيدة، وأمره أن يذهب معهم، ثم قال لهم: «هذا هو أمين هذه الأمة».

ولمّا قال وفد نصارى نجران للنبي ﷺ في نهاية الحوار عن عيسى: إذا لم يكن هو ابن الله، فمن أبوه؟ فصمت النبي ﷺ بعض الوقت: فأنزل الله سبحانه أربعاً وثمانين آية من صدر سورة آل عمران، تبين شأن عيسى ﷺ، وتردّد عليهم بأنه إن كانت منازعتكم معشر

النصارى في معرفة الإله فهو الله الذي لا اله إلا هو الحي القيوم، فكيف تُثبتون له ولدًا؟! فبيّن تعالى أنه لا يستحق العبادة أحدٌ سواه؛ لأنه الواحد الأحد، ليس له شريك ولا ولد، وهو الدائم الباقي الذي لا يموت، المتّصف بالحياة الكاملة، القائم على كل شيء، ومنها تدبير شؤون الخلق ومصالحهم.

مَوْضُوعَاتُ السُّورَةِ

يمكن تقسيم سورة آل عمران إلى ثلاثة موضوعات:

الموضوع الأول عن نصارى نجران:

وذلك من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ الآية الرابعة والثمانون، وهذه الآيات تتناول قصة وفد نصارى نجران الذي قَدِمَ على النبي ﷺ بالمدينة بعد معرفتهم برسالته؛ ليسألوه عن عيسى عليه السلام، وهو القسم الأول من القصة.

يلي هذه الآيات ست وثلاثون آية تُعَقِّبُ على هذه القصة، وهو القسم الثاني المتعلق بها.

وقد قدّمت السورة في أولها لهذه القصة بآيات فيها إثبات لوحانية الله تعالى، وإثبات لصدق صاحب الرسالة الأخيرة وكتابه، وفيها ردٌّ على الشبهات التي يُثيرها أهل الكتاب عن الإسلام، وتحذيرٌ لهم من الانصراف إلى غيره، ومن اتّباع شهواتهم وملذّاتهم. والإسلام يعرض دعوته عليهم، ويقرّر أن الدّين عند الله هو الإسلام، فمن استجاب له فقد فاز ونجا، وآخيناه وعاوناه، ومن أعرض عنه تصدّينا له معتمدين على الله.

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيَّةَ: أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا وَإِنْ قَوْلُوا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴿١٠﴾﴾ .

وتبيّن آيات السورة في هذه المقدمة أن أهل الكتاب لما كانوا عاجزين تمام العجز عن الارتقاء إلى مستوى الوحي الإلهي، فقسّت قلوبهم، وساءت أخلاقهم، وتشبّعوا من الدنيا، وردّوا على الله أمره ونهيه، وأشركوا معه غيره، وتطاولوا عليه بما لا يليق بجلاله.

لهذا وغيره كان لا بد من صرف الوحي عنهم إلى جنس آخر من البشر؛ خير منهم حالاً ومالاً، فكان أن تحولت منهم النبوة إلى العرب، فأثار هذا حقدهم وحسدهم وكُفْرهم

وعنادهم، ولم يتأمل القوم قول الله تعالى في مقدمة الحديث عن وفد النصارى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

وهذه الآيات سبقتها مقدمات وحيثيات الحكم في آيات قبلها:

منها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُنْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّوْا فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾.

والكلام وإن كان تقريباً لأهل الكتاب، إلا أن العبرة موجهة إلى الذين شرفهم الله تعالى بأن بدأت رسالة الإسلام منهم، حتى لا يتجرّدوا عن إسلامهم، أو ينسلخوا من العمل بتعاليمه، فتكون عاقبتهم كعاقبة الذين مسخهم الله قردة وخنازير؛ فالناس سواسية، وسنة الله في خلقه لا تتخلف.

وتمضي الآيات في ذكر آل عمران حيث ينحدر منهم عيسى، ومن ثم إلى حوار النصارى، حتى مباہلتهم.

القسم الثاني من الحديث عن وفد نصارى نجران:

يبدأ من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إلى نهاية الآية العشرين بعد المئة؛ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ وهو ست وثلاثون آية، تُعقّب على حوار أهل الكتاب، فتُعقّفهم على عدم إيمانهم بخاتم الأنبياء، وتحذّره من سوء المصير، وتردّ على شبهاتهم.

وفي هذا السياق تأتي هذه النداءات السبع إلى أهل الكتاب من اليهود:

- ١- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونِ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.
- ٢- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ [٩٨].
- ٣- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ [٩٩].
- ٤- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّاهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [٦٤].
- ٥- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [٦٥].

٦- ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠)

٧- ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٧٢)

وفي الردّ على هذه النداءات السبع يقول تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨١)

وفي هذا المقطع من السورة ردّ على الشُّبُهَات التي يثيرها أهل الكتاب، فقد قالوا: كيف نتبع دينًا يستبيح الأطعمة المحرمة علينا ونحن نبتعد عنها ولا نأكلها؟ فأجابهم الله تعالى بأن حظر هذه الأطعمة عليهم كان موقوتًا وطارئًا، فقد كانت الأطعمة كلها حلالًا لبني إسرائيل، فلما فسقوا واستمروا العدوان، عاقبهم الله بذلك ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَبْغِيهِمْ وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦] ولما نزل القرآن عاد بالتشريع إلى أصله فلم يحرم إلا الميتة والخنزير وما أهل لغير الله به والدم المسفوح.

وفيما يتعلق بشبهتهم حول تحويل القِبْلَةِ فإن البيت الحرام هو القبلّة الأولى والأخيرة للناس كافة، وقد كان التحول لبيت المقدس لظروف عارضة، وقد زالت العوارض ورجعت المياه إلى مجاريها، واستؤنف التكريم للبيت العتيق ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ (٩١).

الموضوع الثاني عن غزوة أحد:

وبعد هذا التعقيب على أهل الكتاب يأتي العنصر الثاني في السورة وهو الحديث عن غزوة أحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٦٢) إلى الآية التاسعة والثمانين بعد المئة، أي: في تسع وستين آية.

وفي ثنايا الحديث عن غزوة أحد يأتي الحديث عن الرُّبَا في إشارة إلى أن الأموال المحرمة إذا دخلت في التصنيع الحربي أو في شراء الأسلحة، فإن ذلك يكون سببا في الهزيمة، ولذا جاءت الدعوة في ثنايا الآيات إلى الإنفاق في السراء والضراء، ومن ذلك الجهاد في سبيل الله فإن الجهاد بالمال قرين الجهاد بالنفس ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴿التوبة: ١١١﴾ وجاء الأمر بالإسراع إلى التوبة بعد مقارفة الذنب، لأننا إذا استوتينا مع العدو في ارتكاب المعاصي تفوق علينا بقوة السلاح، وبعد ذلك يواصل الحديث عن نتائج المعركة.

والقرآن بهذا يشير إلى أن سبيل النصر على العدو هو إصلاح الجبهة الداخلية أولاً، وتطهيرها من كل محرّم كالربا والخمر والزنى، والتحلي بمكارم الأخلاق ﴿وَالْكُفْرَيْنَ﴾ وَالْعَظِيمِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴿آل عمران: ١٣٤﴾ فإن هذا من الانتصار على النفس، ولن ينتصر العبد على عدوه إلا إذا انتصر على نفسه، ولذا قال أحد الصحابة حين رجع من الغزو في سبيل الله (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر) فسَمِّيَ جهاد النفس جهاداً أكبر، وجهاد العدو جهاداً أصغر، لأن جهاد العدو لا بد له من جهاد النفس أولاً، ولا بد من بذل النفس والنفس لإعداد العُدَّة والأخذ بوسائل النصر المادية والمعنوية، وبهذا تكون الأمة أهلاً للانتصار، فإن هذا الانتصار ليس انتصار الأشخاص، إنما هو انتصار المبادئ السامية والمسالك القيّمة.

والخصومات الشخصية - بين الأفراد أو الشعوب والأمم، أو بين بعض الحكام - ليس لها مجالٌ في الحروب، فإن مصلحة العباد والبلاد أكبر من ذلك، ولأن خصوم الأمم قد يكونون أصدقاء الغد إذا اصطلحوا مع الله ورسوله، وزالت أسباب العداوة، ولذا عاتب الله نبيه لما دعا على بعض خصومه بقوله:

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (١٢٨).

وهزيمة أحد لم تكن من سوء التخطيط، بل كانت من التفريط في إنفاذ أوامر القيادة، حين خالف الرماة أمر نبيهم وتركوا مواقعهم، بسبب حبّ الدنيا والتطلع إليها، والرغبة في جميع الغنائم من بطن الوادي، ظنا منهم أن النصر قد تم للمؤمنين، والله تعالى قادرٌ في كل وقت أن يهزم الباطل ويخزي أهله ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْتَصَرْتُمْ وَلَكِنْ لِبَلَاغٍ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

وقد ربط الله الأسباب بالمسببات وربط النتائج بالمقدمات في مثل قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ نَصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَأُولَئِكَ أَقْدَامُكُمْ﴾ [محمد: ٧]

وبعد ذكر نتائج المعركة، أخذت الآيات تُداوي الجراح، وتشدّ العزائم، وتعيد للمؤمنين تماسكهم.

فقد كان هناك رجالٌ رَكَلُوا الدنيا بنعالهم، ومضوا إلى ما عند الله، لا يَلُتُون على شيء.
وهناك رجالٌ ثَبَتُوا إلى آخر رمق.

وهناك نساء انطلقن إلى المعركة بقلوب ملؤها البطولة والفداء، وهناك من رُزق الشهادة، وهناك، وهناك.

منهم: عبد الله بن حرام، كان له غلامٌ واحدٌ هو جابر، وست بنات، فلم تَطِب نفسه حتى خرج إلى المعركة تاركًا بناته الست وراءه، ورُزق الشهادة.

وأنس بن النضر وُجد به ثمانون، ما بين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم، لم تعرفه إلا أخته، عرفته من أطراف بنانه.

وفي ثنايا التعقيب على غزوة أحد، يُلفت القرآن نظر أتباعه إلى جُرْأَةِ اليهود على ربهم في قولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وإلى قول الله تعالى عنهم: ﴿وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١] لقد سمع الله قولهم وسجله عليهم، وعلم فعلهم، وسوف يجازيهم على ذلك عذاب الحريق، فتأتي النار على أجسادهم وجوارحهم، وفي هذا عبرة وعظة، لأن ترك مثل هذه الجرائم، يكون سببا في النصر على العدو.

وينقطع الحديث عن غزوة أحد ليتصل بأهل الكتاب مرة أخرى ليعرفنا طبيعتهم ﴿وَلَسْتُمْ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذْكَ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [١٨٦].

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران].

وفي السورة خلال آياتها يُوجّه الله تبارك وتعالى سبع نداءات للمؤمنين تُولي فيها هذه الآيات اهتمامًا بالغًا بالعناية بتربية المؤمنين تربيةً صالحةً عالية المستوى يعرفون من خلالها طبيعة عدوهم حتى يأخذوا حذرهم، ويتعدوا عن كبائر الذنوب، ويمثلوا أمر ربهم ويجتنبوا نهيه، ويصبروا عند اللقاء، ويصابروا عدوهم، ويلزموا الحدود والثغور، حتى يتحقق لهم النصر على عدوهم، ويكونوا من أهل السعادة في الدنيا والآخرة.

وهذه النداءات السبع هي قوله تعالى:

- ١- ﴿يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أَوَّلُوا الْأَكْثَبَ يَرُدُّوكُم بِعَدِّ إِيْمَانِكُمْ كَفْرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ .
- ٢- ﴿يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَزِدُّكُمْ عَلَىٰ عَاقِبَتِكُمْ فَتَقْلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٠١﴾﴾ .
- ٣- ﴿يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا ﴿١٠٢﴾﴾ [١١٨] .
- ٤- ﴿يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًى لَّوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ ﴿١٠٣﴾﴾ [١٥٦] .
- ٥- ﴿يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ .
- ٦- ﴿يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٠] .
- ٧- ﴿يَتَّيْنَاهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران] .

الموضوع الثالث في السورة عن دلائل وحدانية الخالق سبحانه :

والآيات العشر الأواخر من السورة تنتقل بالإنسان من ذكريات الماضي بحلوه ومره، فتلفت نظره إلى هذا العالم الذي يعيش فيه، ويرى خيراته ونعمه ودلالاته على وحدة الصانع سبحانه، فكأن هذه الآيات تقول للإنسان: اترك الخلاف بين الشرائع وأطرحه الآن جانباً، وأعمل عقلك الذي ستحاسب به، وفكر في مصيرك بعد هذه الدنيا، لماذا تنسى ربك؟! لماذا تبتعد عن صراطه المستقيم؟! أكثر من التسبيح والتحميد والثناء على الله سبحانه، يجب أن تلوذ بجناب الله تعالى وتلجأ إلى حماه في كل وقت وحين .

لقد جاء محمد ﷺ وأخذ يصيح بأهل الأرض: أن ثوبوا إلى رشدكم وآمنوا بربكم، أفلا يستحق هذا الداعي أن تندبر دعوته ونستجيب لها؟ ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: ١٩٣] إن الله تعالى يجيب هذا الدعاء، ولا يضيع عمل عامل من ذكر أو أنثى، لكن العُميان من عبدة الأصنام والمتعصبين من أهل الكتاب تألبوا على رسول الله وقتلوه، وأخرجوه من بلده، فليكن جزاؤهم من جنس ما فعلوا ﴿لَا يَغْرَنكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي إِلَهِدِ ﴿١٩٦﴾ مَنَعُ قَلِيلٌ ثَمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْأَهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ [آل عمران] .

ودعت آيات السورة في نهايتها أهل الكتاب أن يؤمنوا بالنبى الخاتم، وأثنت على من آمن منهم بمحمد ﷺ .

وأمر الله سبحانه المؤمنين في الختام بأربعة أوامر، هي مصدر السعادة في الدنيا والآخرة، وتحقيق العزة والكرامة بالنصر على أعداء الله، الذين يجحدون وحدانية الله تعالى، ويكفرون بخاتم رسله، وهذه الوصايا الأربع هي: الصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله، ورتّب الله على ذلك الفوز والفلاح في الدارين، فهل من مُجيب؟

فَضْلُ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مَعَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ:

١- في صحيح مسلم وغيره عن أبي أمامة الباهلي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اقرأوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وآل عمران، فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف، تُحَاجَّانِ عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة، فَإِنَّ أَخْذَهَا بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة»^(١).

قال معاوية -أحد رواة الحديث-: بلغني أن البطلة السحرة، والغياية السحابة والمَظَلَّة، وفرقان يعني: قطعتان.

٢- وعن ابن بريدة عن أبيه مرفوعاً: «تعلموا البقرة وآل عمران، فإنهما الزهراوان، يُظَلَّانِ صاحبهما يوم القيامة، كأنهما غمامتان، أو غيايتان، أو فرقان من طير صواف»^(٢).

٣- ومن ذلك حديث النواس بن سمعان وغيره سبق ذكره في أول سورة البقرة.

(١) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٤) وابن حبان (١١٦) والطبراني في «الكبير» (٧٥٤٢، ٨١١٨) والحاكم (١/ ٥٦٤) والبيهقي في «السنن» (٣٩٥/٢). وجاء مثله عن النواس بن سمعان في مسلم (٨٠٥) والترمذي (٢٨٨٣) وأحمد برقم (١٧٦٣٧، ٢٢١٤٦).

(٢) رواه الحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٦٦) حسن صحيح.

سُورَةُ النِّسَاءِ (٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النساء هي السورة الرابعة في ترتيب المصحف، والثالثة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة الزلزلة.

وعدد آياتها مئة وسبع وسبعون آية في المصحف الشامي، ومئة وست وسبعون في المصحف الكوفي الذي عليه رواية حفص، ومئة وخمس وسبعون في بقية المصاحف العثمانية.

والسبب في ذلك أن المصحف الشامي اعتبر ﴿فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [١٧٣] آية.

ولم يعدها غيره كما عدَّ المصحف الشامي والكوفي ﴿أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ﴾ [٤٤] آية.

وأسقطهما من العدد المصحف البصري والحجازي (المكي والمدني الأول والأخير).

وهي ثلاثة آلاف وخمس وأربعون كلمة، وستة عشر ألفاً وثلاثون حرفاً.

وسورة النساء من السور المدنية، قالت عائشة رضي الله عنها: ما نزلت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ ^(١).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول ما نزل بالمدينة سورة البقرة، ثم آل عمران، ثم الأحزاب، ثم الممتحنة، ثم النساء.

أطول سورة بعد سورة البقرة:

وسورة النساء أطول سورة في القرآن الكريم بعد سورة البقرة، وقد سميت كذلك؛ لأن بعضها يتحدث عن أحكام تشريعية تتعلق بالنساء.

ولذا: فهي تسمى سورة النساء الكبرى أو الطولى، في مقابلة سورة النساء الصغرى أو القصوى، المعروفة بسورة الطلاق.

وقد استغرق نزول سورة النساء على رسول الله ﷺ نحو ثمانية أعوام، وظلت مفتوحة

(١) من حديث طويل في «البخاري» (٤٩٩٣).

طوال هذه المدة، حيث ابتدأ نزولها بعد أحداث الهجرة، وأحداث غزوة أحد، واستمرت الآيات والأحكام تنزل حسب الوقائع والحوادث ومقتضى الحاجة على رسول الله ﷺ حتى يوم أن فُتحت مكة في العام الثامن من الهجرة، حيث نزل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [الآية: ٥٨] يوم فتح مكة، في شأن مفتاح الكعبة، وأن مقتضى الأمانة أن يُردّ المفتاح إلى بني شيبه، وكان العباس قد تطلعت نفسه إلى سدانة البيت، فطلبه من النبي ﷺ .

ولما نزلت سورة النساء جاء في الأثر: «لا حبس بعد سورة النساء»^(١) وهو يشير إلى ما كانوا يفعلونه في الجاهلية من حبس مال الميت ونسائه، فقد كانوا إذا كرهوا النساء لقبح فيهن، أو لقلّة مال، حبسوهن على أولياء الأزواج من غير عدل في صداقهن؛ لأن أولياء الميت كانوا أولى بهن من غيرهم .

والمعنى: أنه بعد نزول السورة لا يوقف مال ولا يمنع عن وارثه، وليس هناك حبس للمرأة حتى تموت فيرثها ولي الزوج والهاء من (حبس) يجوز فتحها وضمها .

ثماني آيات خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت :

وفي السورة خمس آيات أحب إلى العبد من الدنيا وما فيها كما ورد عن ابن مسعود رضي الله عنه (٢) . وهذه الآيات هي : قوله تعالى :

﴿إِنْ تَحَبَّبُوا كِبَارَهُ مَا تَهْنَوْا عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلَكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [٣١] .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظِلُّمُ مَثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يُّضْعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [٤٠] .

وقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [٤٨] .

وقوله : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ﴾ الآية [٦٤] .

(١) أخرجه ابن مردويه عن عكرمة عن ابن عباس بإسناد فيه عبد الله وعيسى ابنا لهيعة، وقد ضعفهما الدارقطني في «الميزان»، ويُظَر: ابن الأثير في معنى الحبس، وهو في «السنن الكبرى» للبيهقي (٦/ ١٦٢) و«المعجم الكبير» للطبراني (٣٦٥/١١) والدارقطني في «السنن» (٦٨/٤) وهو في الطبراني (١٢٠٣٣) والبيهقي (١٦٢/٦) و«السلسلة الضعيفة» (٢٧٣) .

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرک» (٣٠٥/٢) بإسناد فيه ضعف .

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ [١١٠].
 زاد ابن عباس ثلاث آيات هي قوله تعالى: (١) ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَ الصَّافِينَ﴾، والآيتين بعدها [٢٦-٢٨]، وقال: هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت.

من خصائص الآية الأولى في هذه السورة:

والله ﷻ يأمر الناس جميعًا في الآية الأولى من سورة النساء بتقوى الله مرتين، في بداية الآية وفي نهايتها.

وقد كان النبي ﷺ يقرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ . .﴾ الآية بعد الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، ويقرأ معها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

وآيتين من أواخر سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [٧٠، ٧١].
 كان عليه الصلاة والسلام يقرأ هذه الآيات الثلاث في بدء خطبة الجمعة، وفي خطبة عقد النكاح، وغير ذلك، ثم يسمي أو يذكر حاجته بعد قوله ﷺ: أما بعد (٢).
 وكذلك كان السلف الصالح.

قلت: والالتزام بذلك في كل خطبة يجعلها واجبة، ويخرجها عن كونها سنة، فينبغي تركها أحيانًا، وكذا الالتزام بقراءة سورتي الأعلى والغاشية في صلاة الجمعة، ونحو ذلك.

ولما قَدِمَ قوم من الفقراء على رسول الله ﷺ قام في المسجد، ثم قرأ هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَحِدَةٍ﴾ الآية، بعد حمد الله تعالى، والصلاة والسلام على رسوله ﷺ، وقرأ أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مِمَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨]. ثم دعا الناس إلى الصدقة، فجاء كل منهم بما يستطيع، حتى إن أحدهم

(١) الحاكم، كتاب التفسير (٢/٣٠٥) وأخرجه عبد الرزاق عن الطبري (٨/٢٥٧) وفيه ابن بشير، وهو ضعيف.

(٢) وتسمى خطبة الحاجة، وقد جمع طرقها وحققها الشيخ ناصر الألباني بعنوان (خطبة الحاجة) وهي في

«صحيح سنن أبي داود» (١٨٦٠) والترمذي (١١٠٥) والنسائي (٣٢٧٧) وابن ماجه (١٨٩٢) وابن أبي

شيبه (٤/٣٨١) عن ابن مسعود، وانظر أول هذا التفسير.

جاء بَصْرَةً فيها دنائير لا تكاد من ثقلها أن تُحمل، ووضعها بين يدي رسول الله ﷺ، وتتابع الناس حتى أتوا بكومين من طعام وثياب؛ فتهلل وجه النبي ﷺ^(١).

سورة النساء تطهر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية:

وهي سورة تُعنى بالعلاقات الاجتماعية؛ فيتناول ثلثها الأول قضايا الأسرة، وتطهيرها من رذائل الجاهلية، ويتناول بقيتها قضايا المجتمع وشؤون الأمة؛ فهي مليئة بالتشريع الذي ينظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين.

ومن خلال السورة يتبين ملامح المجتمع الجاهلي، ورواسب الجاهلية، ومن ذلك أنه مجتمع يُجارُ فيه على الصغار والضعاف والنساء؛ فلا يأخذون حقهم في الميراث، ويستأثر به الرجال الأقوياء القادرون على حمل السلاح، والمرأة تعامل بالعسف والجور، محرومة من الميراث، بل إنها تُورث كما يُورث المتاع.

والسورة تقرر أن التنظيمات الاجتماعية كالزواج والميراث، هي شعائر تعبُدية يثاب المرء على فعلها ويعاقب على تركها، ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٣﴾ وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾.

وتبين السورة أنه ينبغي على المؤمن أن يكون ولاؤه لله تعالى وإخوانه المسلمين ﴿بَشِّرِ الْمُتَّقِينَ﴾ بِأَنَّهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَخْذُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَبِئِنَّهُمْ عِنْدَهُمُ الْغَزَا فِإِنَّ الْغَزَا لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ [الآيتان: ١٣٨، ١٣٩].

وأن الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام قائمة إلى يوم الساعة ﴿وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [الآية: ١٠٠]

وأنه يجب على المسلمين نصرة المستضعفين من إخوانهم الذين لا يستطيعون الهجرة، والذين يعيشون أقلية مع غير المسلمين مضطهدين مظلومين، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ أَمْلَكُكُمْ ظَالِمِينَ

(١) رواه أحمد في «المسند» (٤/ ٣٥٨) برقم (١٩١٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، (محققه) وهو في «صحيح مسلم» برقم (١٠١٧) من حديث جرير بن عبد الله البجلي، وهو حديث طويل، وأوله (كنا عند رسول الله في صدر النهار..).

أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ [الآية: ٩٧]

والسورة تطهر المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية، وتقيم علاقته مع ربه ومع الناس على أساس من التقوى والأخلاق، والآداب وحسن الصلة.

ومهمة هذه السورة أنها رفعت النساء من حضيض الجاهلية إلى عدل الإسلام وحضارته، حيث إنهم كانوا يأكلون أموال اليتامى منهم، ويتزوّجون ما لا يُحصى من النساء، وكانت المرأة تُورث كالمتاع والمال، فجاء الإسلام بأحكام تشريعية في هذه السورة رفع فيها من شأن المرأة، وأعلى من قدرها ومكانتها، وجعل لها حق في الميراث بدلاً من أن كانت تُورث قبل الإسلام.

وهكذا فإن محور سورة النساء: هو تنظيم العلاقات الاجتماعية في المجتمع الصغير، وهو محيط الأسرة، والمجتمع الكبير، وهو شؤون الأمة، فتنتقل السورة من القضايا الداخلية للمجتمع، إلى وضع قواعد العلاقات والمعاملات الدولية بين المسلمين وغيرهم من المسالمين والمعادين والمحاربين، ومن ثمّ إلى الاستعداد للأمن الخارجي الذي يحفظ على الأمة استقرارها وهدوءها، ويبدأ التنبيه على هذه العلاقات الداخلية والخارجية في السورة بتذكير الناس أنهم جميعاً أقارب من أب واحد، ومن أمّ واحدة، وأن بينهما رحمًا قريبة أو بعيدة، كما جاء ذلك في الآية الأولى من السورة، وهي تعتمد في هذا النص على الأمر بتقوى الله تعالى مرتين في الآية الأولى؛ ليصلوا ما بينهم من رحم.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]

والحديث عن الأسرة يتناول الثلث الأول من السورة، بالإضافة إلى آيات منها تتوسط السورة وتُختم بها.

وآيات السورة تتحدث في هذا الثلث عن المهور والزواج والميراث، والمحرمات بالنسب والرضاع والمصاهرة، وبيان الحقوق الزوجية، وعلاج الشقاق والنزاع بين الزوجين، وغير ذلك، ويتخلل كل ما ذُكر الأمر بتقوى الله تعالى وحفظ حدوده.

وفي السورة من الأحكام التشريعية ما يلي :

- ١- المحافظة على ما اليتيم .
 - ٢- تعدد الزوجات .
 - ٣- مشروعية الصداق .
 - ٤- الحجر على السفیه والصغير .
 - ٥- دفع مال اليتيم إليه عند بلوغ رشده .
 - ٦- أحكام المواريث .
 - ٧- مَنْ حَضَرَ الْقِسْمَةَ فَلْيَقْتَسِم .
 - ٨- عدم الإضرار بالضعاف .
 - ٩- عقوبة آكل مال اليتيم .
 - ١٠- ميراث الأصول والفروع والأزواج والحواشي .
 - ١١- عقوبة السحاق .
 - ١٢- عقوبة اللواط .
 - ١٣- التوبة وشروطها .
 - ١٤- النهي عن أخذ شيء من مهر المرأة المدخول بها عند طلاقها .
 - ١٥- المحرمات من النساء .
 - ١٦- نكاح الرقيقات .
 - ١٧- العلاقات المالية في الإسلام .
 - ١٨- اجتناب الكبائر يكفر الصغائر .
 - ١٩- النهي عن تمنى المرأة خصائص الرجل .
 - ٢٠- نسخ الميراث بالتبني والحلف والأخوة .
 - ٢١- قوامة الرجل وأسبابها .
 - ٢٢- عدم صحة صلاة السكران والجنب .
 - ٢٣- عدم صحة صلاة الحائض والنفساء .
 - ٢٤- أحكام التَّيْمُم .
- ويتناول ثلثا السورة تنظيم شؤون الأمة داخليًا وخارجيًا .
وفي هذا المقام تتحدث عن اليهود والمنافقين والنصارى :

حديث السورة عن اليهود :

وفيما يتعلق باليهود وهم الطائفة الأولى - الذين جاء ذكرهم في السورة في ثلاث عشرة آية منها ، وكانوا قد اتخذوا لهم مستوطنات بجوار المدينة المنورة انتظارًا لمجيء النبي ﷺ إليها ، كما هو مقرر في توراتهم - فإن السورة تشنُّ عليهم حملة عنيفة ، وتستنكر أنهم أضاعوا كثيرًا من الوحي الذي نزل إليهم ، فحرفوه وغيروه وبدّلوه ، وقالوا : هو من عند الله ، وما هو من عند الله ، وقالوا : سمعنا وعصينا ، والله تعالى يهددهم بأن يطمس على

وجوهمهم فيردها على أدبارها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَلْكَتِبَ عَلَيْكُمُ اتِّعَازُكُمْ بِأَمْوَالِكُمْ الَّتِي نَزَّلْنَا بِهَا عَلَىٰ خُلَاقِكُمْ قُلْ إِنَّ الْأَمْوَالَ وَالْأَنفُسَ وَنِجَاسَ أَجْزَائِهَا كَانَتْ لِلَّهِ تَكْوِينًا قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ الزِّنَىٰ وَمَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجِهِ وَالْبَغْيَ بِأَمْوَالِكُمْ الَّتِي نَزَّلْنَا بِهَا عَلَىٰ خُلَاقِكُمْ قُلْ إِنَّ الْأَمْوَالَ وَالْأَنفُسَ وَنِجَاسَ أَجْزَائِهَا كَانَتْ لِلَّهِ تَكْوِينًا قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ الزِّنَىٰ وَمَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَزَوْجِهِ وَالْبَغْيَ بِأَمْوَالِكُمْ الَّتِي نَزَّلْنَا بِهَا عَلَىٰ خُلَاقِكُمْ قُلْ إِنَّ الْأَمْوَالَ وَالْأَنفُسَ وَنِجَاسَ أَجْزَائِهَا كَانَتْ لِلَّهِ تَكْوِينًا﴾ [الآية ٤٧]، وقد محا الله آثارهم من المدينة وما حولها، وطمس وجودهم بها.

ولما سئل اليهود: أي من المسلمين والوثنيين أقرب إلى الحق؟ كان جوابهم: أن الوثنية خير من الإسلام! ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْطَفُوا وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ (٥١) ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [الآيتان: ٥١، ٥٢] وقد حملهم على هذا حسدهم لخاتم النبيين ﷺ وللعرب؛ أن انتقلت النبوة إليهم بعد ما ظلت فيهم ردحًا من الزمن، فحسدوا الناس على ما أتاهم الله من فضله، ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا﴾ (٥٤) ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا﴾ [الآيتان: ٥٤، ٥٥]

وسمعناهم في عصرنا حين دخلوا القدس ١٩٦٧م يهتفون بالثارات القديمة قائلين: محمد مات، وخلف بنات!

فهل نعود إلى ربنا؟ ونوحّد صفوفنا؟ ونسخر طاقاتنا المادية والعلمية لبناء جيش إسلامي موحد؟ وتصنيع مختلف وسائل الحرب؛ كي نستقل عن عدونا، فنستردّ مقدساتنا، ونحمي ديارنا، ونشر دين ربنا؟

حديث السورة عن المنافقين:

والطائفة الثانية التي تتحدث عنها السورة؛ لما لها من خطر على الإسلام وأهله، هي طائفة المنافقين الذين يُظهرون ما لا يُطنون، ويبدأ الحديث عنهم بقصة المنافق الذي رفض التحاكم إلى الرسول ﷺ فيما بينه وبين خصمه اليهودي؛ لعلمه أن النبي ﷺ يقضي بالحق، ولا يأخذ رشوة، وطلب التحاكم إلى طاغوت من طواغيت الكفر والشرك ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أَزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [الآية: ٦٠].

وقد يكون المنافق قريبًا منك ببدنه، ولكنه بعيد عنك بقلبه وروحه، والمنافقون يكرهون

الحكم بما أنزل الله، ويكرهون الدفاع عن الحق، ويكرهون القتال في سبيل الله ﴿وَلَوْ أَنَّا كُنَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أَخْرِجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [الآية: ٦٦].

والسورة تنفي الإيمان عن كل من لم يقبل حكم الله تعالى، أو يكون في نفسه منه شيء ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [١٥].

والمنافقون يشطون الهمم لرفع راية الجهاد في سبيل الله ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيَبْغِطَنَّ﴾ [٧٢]. ثم هم يفرحون بما يصيب المؤمن من نكبات، ويحزنون لما يسرهم، وهم يروجون الإشاعات في قضايا الدولة الكبرى؛ لتمزيق الصف وتفريق الأمة وإذاعة الفتنة ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [٨٣].

وكثيرًا ما ينخدع المؤمنون بظاهر المنافقين، فيفضحهم الله تعالى ويكشف سترهم ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسُهُمْ بِمَا كَسَبُوا﴾ [٨٨].

والمنافقون لا يبالون بتجريح علماء الإسلام، والتشكيك في الإسلام بصورة، أو بأخرى. ولذا: فإن الله تعالى نهانا أن نجالس أمثال هؤلاء ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [١٠١]. وَإِذَا مَثَلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [١٠٢].

ومن شأنهم أنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يبتغون عندهم العزة والحماية والقوة، وهم يظنون أنهم يخادعون الله تعالى، والله تعالى يجازيهم على أعمالهم، ومن شأنهم أنهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى، يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلًا، مذبحين بين هؤلاء وأولئك.

حديث السورة عن النصارى:

أما الطائفة الثالثة فهم النصارى الذين غالوا وبالغوا في شأن عيسى عليه السلام حتى غلبت عليهم الحيرة، فزعموا أنه إله وعبدوه، ومع هذا فقد زعموا أنه قد صُلب وقُتل، مع اعتقادهم بأنه إله! كما زعموا أنه ابن للإله، واخترعوا فكرة التثليث، وصاروا فرقًا وشيعًا وأحزابًا، والمسيح لن يستنكف أن يكون عبدًا لله ولا الملائكة المقربون، وسبحان الله تعالى أن يكون له ولد، له ما في السموات وما في الأرض، فهو الذي خلق ورزق، وهو

الذي خلق النطفة والبويضة، وهو الذي يدبر شئون خلقه ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ﴾ [١٧١] .

هذا: إلى جانب كثير من الموضوعات التي تناولتها السورة: كالجهاد، والهجرة، وصلاة الخوف، وحكم القتل الخطأ والعمد، والحث على التوبة، والوصية بالوالدين والأقارب واليتامى والمساكين والجيران، وأحكام الغسل والتميم، والأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وطاعة الله والرسول وأولي الأمر، ورد التحية بمثلها أو أحسن، ومغفرة الذنوب عدا الشرك بالله تعالى في آيتين من السورة، والنهي عن تغيير خلق الله، والإيمان برسول الله وأنبيائه جميعاً، وخُتِمت السورة بآية الكلالة.

موضوعات السورة: ويمكن تقسيم موضوعات السورة على النحو التالي:

١- جاء الحديث عن أحكام الأسرة وتطهير المجتمع من رواسب الجاهلية، بإقامة حدود الله تعالى وامثال أمره واجتناب نهيه، وهذا من أول السورة إلى الآية الثالثة والأربعين، يتبعها أربع آيات في وسط السورة من ١٣٧-١٤٠ وآخر آية في السورة. ويتخلل ذلك: الترغيب فيما عند الله تعالى من ثواب، والترهيب مما عنده من عقاب، فالقرآن كتاب هداية يتخول الناس بالموعظة والتذكير.

٢- ويبدأ الحديث عن أهل الكتاب من الآية الرابعة والأربعين إلى الآية السبعين، وما يتخللها ويعقبها من آيات الوعظ والتذكير، ومن الآية الثالثة والخمسين بعد المئة إلى الآية الخامسة والسبعين بعد المئة، وما يتخللها من الحديث عن رسل الله تعالى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣- أما آيات الهجرة والجهاد فهي من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الرابعة بعد المئة تنتهي بصلاة الخوف.

٤- والآيات التي تتحدث عن المنافقين تبدأ من الآية السابعة والثلاثين بعد المئة إلى الآية السابعة والأربعين بعد المئة، وهي تشمل قواعد المعاملات المحلية والدولية، والعدل في الإسلام.

إلى جوار آيات الربط والتذكير بالله تعالى التي تتخلل هذه الموضوعات للترغيب فيما عنده من ثواب والترهيب مما عنده من عقاب للوصول إلى ما يهدف إليه القرآن من هداية البشر.

سُورَةُ الْمَائِدَةِ (٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- سورة المائدة هي السورة الخامسة في ترتيب المصحف، والحادية والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الفتح على الأرجح. وهي مئة وعشرون آية في العدد الكوفي^(١).

وهي ألفان وثمان مئة وأربع كلمات، وأحد عشر ألفاً وسبع مئة وثلاثة وثلاثون حرفاً.

٢- وتسمى (سورة المائدة) و(سورة العقود) و(المنقذة)؛ لأنها تنقذ العبد من ملائكة العذاب، ويقال لها: (سورة الأخيار)، أي: الذين يوفون بالعهد، فهذه أربعة أسماء لها.

وسميت سورة المائدة؛ لذكر قصة نزول المائدة فيها، وقد طلبها الحواريون من عيسى ﷺ للدلالة على صدق نبوته، وجاء ذكرها في أربع آيات من آخر السورة [١١٢-١١٥].

والأولى أن تُسمى سورة العقود؛ لأنها افتتحت بذكر العقود، واشتملت على عدد منها صراحة أو ضمناً؛ فالصريح منها: عقود الأنكحة، وعقد الصداق، وعقد الحلف، وعقد المعاهدة والأمان.

ومن الضمني: عقد الوصية، والوديعة، والوكالة، والعارية، والإجارة، وغير ذلك.

وفي السورة ستة عشر نداء للمؤمنين؛ كل نداء يتضمن أمراً، أو نهياً، أو توجيهاً، أو حُكماً، وفيها خمس نداءات لأهل الكتاب، ونداء خاص بالنبي ﷺ.

٣- وسورة المائدة سورة مدنية باتفاق، نزل كثير منها بعد العام السادس من الهجرة بعد سورة الممتحنة، وبعد نزول سورة الفتح التي نزلت بعد صلح الحديبية، وبعد عَقْد شروط الصلح التي وقَّع عليها النبي ﷺ بينه وبين المشركين، ونزل ضمن الآية الثالثة من هذه السورة قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ في يوم عرفة في حجة الوداع من السنة العاشرة للهجرة.

(١) ومئة واثنان وعشرون آية في العدد المكي والمدني والشامي، ومئة وثلاث وعشرون آية في العدد البصري.

٤- وسورة المائدة - كالسور الثلاث التي قبلها- تهدف إلى إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع يقيم منهج الله، ويتحاكم إليه في جميع شؤون، وتُبَيِّن علاقة المسلم بغيره، وعلاقة الأمة الإسلامية بغيرها من الأمم.

٥- والسورة كلها تشريع، وكلها حلال وحرام، فقد اشتملت على كثير من أحكام التشريع، كما ذكرت: أحكام الصيد، والذبائح، والإحرام، ونكاح الكتابيات، والردة، والطهارة، وحد الحراية، والسرقه، والحكم بغير ما أنزل الله تعالى، وكفارة اليمين، وقتل الصيد في الحرم، وفي أثناء الإحرام، وذكرت حكم الخمر، والميسر، والبحيرة والسائبة والوصيلة والحام، والوصية عند الموت.

وَحُتِمَت السورة بذكر الموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر، وهي تتحدث كثيرًا عن أهل الكتاب. لا سِيَّما اليهود وتَخَاذُلُهُم عن دخول الأرض المقدسة، وتحدث عن عقيدة الولاء والبراء في الإسلام.

وسورة المائدة من آخر ما نزل على الرسول ﷺ، وقد نزل بعدها سورة التوبة، وسورة النصر. عن جبير بن نفير قال: حججتُ فدخلتُ عليَّ عائشة رضي الله عنها فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، قالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلُّوه، وما وجدتم من حرام فحرموه^(١).

وعن أسماء بنت يزيد رضي الله عنها قالت: إني لآخذة بزمام العضباء - ناقة رسول الله ﷺ - إذ نزلت عليه المائدة كلها، فكادت من ثقلها تدق عنق الناقة^(٢).

وكل سُور القرآن يجب أن يُحَلَّ حلالها ويحرم حرامها، وإنما خُصت سورة المائدة

(١) الحديث سنده حسن، وفيه معاوية بن صالح، صدوق، له أوهام، وقد رواه الحاكم في «المستدرک» (٢/ ٣١١) وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، ورواه أحمد في «المسند» (٦/ ١٨٨) برقم (٢٥٥٤٧) قال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الصحيح، وأخرجه النسائي في التفسير رقم (١٥٨) وفي «السنن الكبرى» برقم (١١١٣٨) والبيهقي في «السنن» (٧/ ١٧٢).

(٢) أخرجه أحمد برقم (٢٧٥٧٥، ٢٧٥٩٢) فيه لُيْث بن أبي سليم، وشهر بن حوشب، ضعيفان، وباقي رجاله ثقات، والطبري (٨/ ٨٩) والطبراني في الكبير (٤٤٨) والبيهقي في الشعب (٢٤٣٠) قال محققو المسند: حسن لغيره، وجاءت أحاديث أخرى بنحو هذا المعنى في المسند (٢٧٥٩٢) وعن عبدالله بن عمرو (٦٦٤٣).

بالذكر؛ لزيادة الاعتناء بها، ولأن فيها كثيرًا من أحكام التشريع لم تنزل في غيرها، ولم ينزل ناسخ ينسخ هذا التحليل أو هذا التحريم، فهي آخر ما نزل في التشريع والحلال والحرام.

والصحيح أنها لم تنزل جملة، وإنما نزلت متفرقة بعد صلح الحديبية، وبعد غزوة ذات الرقاع، والمريسيه، وفي حجة الوداع، وغير ذلك.

فقد نزلت آية التيمم بالبيداء عند دخول الصحابة المدينة بعد انتهائهم من غزوة المريسيع، ونزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ اٰن يَبْسُطُوٓا۟ اِلَيْكُمْ اَيْدِيَهُمْ﴾ [١١] بيطن نخلة.

ونزل ﴿وَاللَّهُ يَعْصُمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [٦٧] في غزوة ذات الرقاع.

وكان بعض السورة معروفًا لدى الصحابة قبل غزوة بدر، فقد قال المقداد بن الأسود: يا رسول الله، امض لما أمرك الله، فوالله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكننا نقاتل عن يمينك وعن شمالك، وبين يديك ومن خلفك^(١).

ومن المعلوم أن قوة اليهود، ونفوذهم في المدينة قد انتهى بعد فتح خيبر في أوائل السنة السابعة من الهجرة، وقد ذكرت السورة ألوانًا من تعنت اليهود وتحاكمهم إلى النبي ﷺ لا لأجل الوصول إلى الحق، وإنما من أجل إظهاره بمظهر الجاهل بأحكام التوراة، ومن ذلك أنهم كانوا ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنِ اُوْتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُوْتُوهُ فَاحْذَرُوْهُ﴾ [٤١]. ومع هذا فإن جانبًا كبيرًا من السورة نزل بعد صلح الحديبية وبعد فتح مكة، وفي حجة الوداع.

٦- وقد نزلت هذه السورة ولم يبق معاند للإسلام سوى اليهود المستوطنين في المدينة وما حولها، والنصارى المتأخمين لحدود الشام؛ حيث بلغ الفتح الإسلامي.

ولأن نزول السورة كان في آخر عهد اليهود بالمدينة، فقد كان نطاق المجادلة معهم قليلًا، ولأن الاختلاط مع النصارى أصبح أشد من اليهود، فقد اتسع نطاق المجادلة معهم في السورة.

(١) «صحيح البخاري» (٩٢/٥) برقم (٤٦٠٩) من حديث عبد الله بن مسعود وانظر: (٣٩٥٢).

وقد جاء في السورة خمس نداءات لأهل الكتاب: اثنين منها مباشرين وهما قوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [١٥].

﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [١٩]

وثلاث نداءات بواسطة النبي ﷺ، وهي:

﴿قُلْ يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ هَلْ تَقِيمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ مِن قَبْلُ﴾ [٥٩].

﴿قُلْ يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾ [٦٨].

﴿قُلْ يَتَأْهَلِ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوبُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [٧٧].

وذكرت السورة تاريخاً موجزاً لموقف أهل الكتاب من شرائع الدماء والأعراض، فبينت أنها أحكام نزلت في التوراة ليلتزم بها اليهود، وتأكدت هذه الشرائع في الإنجيل؛ ليحكم بها النصارى، فمن ترك هذه الأحكام جحوداً أو جوراً أو فسقاً؛ فهو داخل في الكفر؛ أو الظلم؛ أو الفسق.

وهذه الأحكام كانت صالحة للعمل لمدة صلاحية التوراة، ثم انتقل الأمر إلى الإنجيل، وبعد مجيء القرآن وجب على اليهود والنصارى وغيرهم الانتقال إلى الوحي الجديد، والرسالة الخاتمة ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [٤٨]. ﴿وَأِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا نَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [٤٩].

فالدين الأخير قد اكتملت فيه العقيدة والشرعة، وقد ارتضاه الله لعباده إلى يوم القيامة، ناسخاً لجميع الشرائع التي سبقته.

وقد ذكرت السورة فتنتين من اليهود والنصارى، ونهتتا عن موالاتهم ومودتهم:

الفئة الأولى: فئة تكره الإسلام وتفضل عليه أي شَرع آخر، وقد امتلأت قلوبهم بالضغائن، حتى قال بعضهم أخيراً: نحن نقبل تشريعات استراليا أو أمريكا، ولا نقبل شريعة محمد، وفيهم وفي أمثالهم يقول تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمْنَا أَنَّهُ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [٤٩].

الفئة الثانية: فئة تسخر من شعائر الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا

الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيْتُم إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ .

وقد ذكرت السورة في نحو أربع صفحات منها، تناقض أهل الكتاب في أقوالهم وأفعالهم، وضرورة استنكار ما يفعلون، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسْرِعُونَ فِي الْآثِمِ وَالْعُدْوَنِ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (١٦٦) لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَ وَأَكْلِهِمُ الشَّحْتُ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٦٣﴾ .

وقوله سبحانه: ﴿تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) .

هذا فضلاً عما نعتة السورة عليهم بسبب نقضهم العهود والمواثيق، وفي ذلك يقول تعالى عن اليهود: ﴿فِيمَا نَقُضُّهُمْ مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً﴾ .

ويقول عن النصارى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَا أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ [١٤] .

ولن يدخل أهل الكتاب ساحة الإسلام إلا إذا ضمُّوا إلى التوراة والإنجيل ما جاء به النبي الخاتم، فأمنوا وعملوا بما جاء به، واعترفوا بأن رسالته تؤمن برسالة موسى وعيسى في زمانهما ومكانهما، ولكنها رسالات لا تصلح بعد بعثة خاتم المرسلين والنبين .

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [٦٨] .
 ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (٦٥) وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ [٦٥، ٦٦] .

إن تراث أهل الكتاب السابق يشبه دواء محدد الصلاحية، بمدة معينة لا يصلح بعدها للاستشفاء، بل يكون ضاراً ومضاعفاً للآلام بعد انتهاء تاريخ صلاحيته، وشرعية الإسلام تضمنت أسباب بقائها إلى آخر الدهر، فهي ثوائم طباع البشر، وتتجاوب مع نداء الفطرة، وبها يصلح كل زمان ومكان .

وقد ذكرت السورة قصّتين في سياق الحديث عن أهل الكتاب:

القصة الأولى: قصة بني إسرائيل عندما كُفّوا بمُقاتلة الجبارين ودخول الأرض المقدسة، بعد أن أثار موسى حماسهم وذكّرهم بنعم الله تعالى عليهم، ثم دعاهم للجهاد فقال: ﴿يَقْوَمُوا ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْيَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ (٢١) ولكنهم جَبُنُوا وتخاذلوا، وظنوا أنهم مقبولون عند الله تعالى مهما كانت أقوالهم وأفعالهم، وعندئذ تَقَرَّرَ طردهم وتشيتهم في أرجاء الأرض دون أن يكون لهم وطن خاص يجمعهم إلى يوم القيامة؛ حيث حُرِّم عليهم دخول الأرض المقدسة إلى الأبد، وحُرِّم عليهم إقامة وطن لهم فيها كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [٢٦].

وقد جعل الله تعالى أرض سيناء مصيدة لهم، يتيهون فيها ويحتسبون داخلها أربعين عامًا، فقال تعالى: ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةً يَلِيهُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [٢٦]. فلم يعرفوا طريقًا للخروج منها، حتى هلك أكثرهم داخلها، عقوبة لهم على جُرأتهم على الله تعالى، وعلى عدم إجابتهم أمر نبيهم، وعلى جُبْنهم عن قتال أعدائهم.

القصة الثانية: قصة ابني آدم اللذين قتل أحدهما الآخر حسدًا له؛ لأنه رأى أنه أفضل منه، وبعد أن تخلص منه لم يعرف كيف يدفنه بعد مماته ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوْءَ أَخِيهِ﴾ [٣١].

ولقد عدَّ الله سبحانه هذه الجريمة ضد الإنسانية كلها، بدءًا ببني إسرائيل فقال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [٣٢].

٧- هذا: وتقوم سورة المائدة على أصلين كبيرين:

الأصل الأول: تقرير وحدانية الله تعالى، ونفي كل شرك عنه سبحانه، جاء ذلك في مثل قوله تعالى:

١- ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [٧٢].

٢- وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثُ ثُلُثٍ﴾ [٧٣].

٣- وقوله جل شأنه: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ [١٥].

٤- وقوله أيضًا ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ [١٩].

الأصل الثاني: التعدي على خصائص الألوهية والعبودية، وما دام الله سبحانه واحداً في ذاته وصفاته، فلا يجوز لكائن من كان أن يتعدى على خصائص الألوهية والعبودية على الإطلاق، فالله تعالى هو الخالق، وهو المالك، فهو الذي يشرع، وهو الذي يحلل ويحرم، وهو وحده الذي يطاع فيما أمر ونهى، وهو وحده الذي يتوجه إليه الناس بالعبادة، ومنها الوفاء بالعقود والعهود، والذبح لله، والنذر لله.

ومن خصائص الألوهية ما يتعلق بتحقيق العدل بين الناس؛ إقامة الحدود على المجرمين من السارقين، وشاربي الخمر، وأمثالهم... إلخ.

ومن التعدي على خصائص الألوهية الحكم بغير ما أنزل الله؛ لإقامة المنهج غير الرباني بين الناس، وعدم تقرير أن الذين يحكمون بغير ما أنزل الله هم الكافرون والظالمون والفساقون، وهم الذين ييغون حكم الجاهلية، وقد تعرضت السورة لهذا الجانب بما لا يوجد في سورة أخرى.

والآيات التي تقرر ذلك وإن جاءت في سياق الحديث عن أهل الكتاب، إلا أنها تعني المسلمين أساساً؛ لأنها موجّهة إليهم في كتابهم، ولذلك فإن الآيات التي بعدها وجّهت الأمر المباشر إلى النبي ﷺ؛ لتقرير هذه القضية، فقال تعالى: ﴿وَأَن أٰحْكَمَ بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ [٤٩]. وقال سبحانه: ﴿وَمَن أَحْسَنُ مِّنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُّٰقِنُونَ﴾ [٥٠].

وفي جانب التشريع الذي هو من خصائص الألوهية يقول القرطبي:

قال أبو ميسرة: المائدة من آخر ما نزل، ليس فيها منسوخ، وفيها ثماني عشرة فريضة، ليست في غيرها، وهي: ﴿وَالْمُنْحَفَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمَرْدِيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ ﴿وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ ﴿وَالْخَصَنَتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ وإتمام الطهور: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ أي: إتمام ما لم يُذكر في سورة النساء ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ ولا تقتلوا الصيد وأنتم حرم إلى قوله: ﴿عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ ﴿وَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِّنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وِصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾

وقوله تعالى: ﴿شَهِدَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾.

ثم قال القرطبي: قلت: وفريضة تاسعة عشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إذ ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السورة، أما ما جاء في سورة الجمعة فمخصوص بالجمعة، وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات^(١).

أقول: وفي السورة أحكام تشريعية أخرى؛ كتحرим الخمر والميسر، والأنصاب والأزلام، وأحكام التيمم والغسل، والسرقه وقطع الطريق والإفساد في الأرض، وكفارة اليمين، وحفظ شعائر الله في الحج، والأشهر الحرم، وأحكام القصاص في النفس والجوارح، وأصول التعامل بين المسلمين وغيرهم من أهل الكتاب وسائر المشركين والمنافقين، والولاء والبراء، والتنويه بالكعبة وبكرامتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والوصية عند الموت.

أما حظ المؤمنين في سورة المائدة فقد وُجِّهت إليهم ستة عشر نداء، وهي تفوق النداءات التي وُجِّهت للمؤمنين في سورة البقرة، وقد تضمن كل نداء فيها: تشريعاً، أو توجيهاً، أو أمراً، أو نهياً لتربية المؤمنين على منهج الله تعالى، وهذه النداءات هي قوله تعالى:

- ١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [١].
- ٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ﴾ [٢].
- ٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُتِلْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [٦].
- ٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ [٨].
- ٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [١١].
- ٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [٣٥].
- ٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [٥١].
- ٨- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [٥٤].

(١) «تفسير القرطبي» (٦/٣٠).

- ٩- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا﴾ [٥٧].
- ١٠- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [٨٧].
- ١١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ﴾ [٩٠].
- ١٢- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَتَبْلُوَكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ﴾ [٩٤].
- ١٣- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ [٩٥].
- ١٤- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن بُدَّ لَكُمْ سُؤُوكُمْ﴾ [١٠١].
- ١٥- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [١٠٥].

١٦- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهِدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [١٠٦].

ووجهت السورة ندائين بوصف الرسالة للنبي ﷺ خاصة، وهما قوله تعالى:

- ١- ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ [٤١].
- ٢- ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [٦٧].

وبعد ذكر قصة المائدة، تأتي دعوة للنصارى أن يُخلصوا دينهم لله، وأن يُنقُوا التوحيد من الأوهام والأباطيل التي ألصقوها به.

وُخِّمَتِ السورة بتذكير القارئ لها بكل ما حوته من عقود وعهود، هل حفظوها ووفَّوا بها، أم ضيَّعوها وفرطوا فيها؟ ففي يوم القيامة تشهد الرسل على الأمم، ويشهد عيسى على النصارى، ويجمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، وهو يوم ينفع فيه الصادقين صدقهم في جنات تجري من تحتها الأنهار، والمُلك يومئذ لله، كما كان الحال في الدنيا ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [١٢٠].

وقد اشتمل الربع الأول من السورة على خمس نداءات موجهة للمؤمنين، تناول:

١- وجوب الوفاء بالعقود.

٢- وتعظيم شعائر الله.

٣- وأحكام الطهارة.

- ٤- وواجبات المسلم وغير المسلم.
- ٥- والتذكير بنعمة الله تعالى الذي كف أيدي الأعداء عن الفتك بالمسلمين في مواطن عدة.
- هذا: وفي السورة موضوعات ثلاث، تستغرق آيات السورة كلها:
- الموضوع الأول: أحكام التشريع، وهي تأتي في الثمن الأول من السورة، إلى جوار الآيات (٣٨، ٣٩) ومن الآية (٨٩-١٠٩).
- الموضوع الثاني: الكلام عن أهل الكتاب، وذلك من الآية (١٢-٢٦) ومن الآية (٤١-٨٦) والثمن الأخير يتحدث عن النصارى.
- الموضوع الثالث: قصة ابني آدم، وهي في الثمن الثالث من السورة.

سُورَةُ الْأَنْعَامِ (٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأنعام هي السورة السادسة في ترتيب المصحف، والخامسة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات، وهي مئة وخمسون وستون آية في العدد الكوفي، ومئة وسبع وستون آية في العدد المكي والمدني، ومئة وست وستون آية في العدد الشامي والبصري، وهي ثلاثة آلاف واثنان وخمسون كلمة، واثنان عشر ألفاً وأربع مئة واثنان وعشرون حرفاً.

وقد أوردَ بعضُ المفسرين كثيراً من الآثار الضعيفة التي تُحدِّدُ وقت نزول السورة وكيفيتها، وثبُّنَ فضلها، كتفسير ابن كثير، وفتح القدير للشوكاني، وكلها لا تخلو من مقال، وأقوى هذه الآثار ما جاء عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «نزلت سورة الأنعام ومعها موكب من الملائكة تسدُّ ما بين الخافقين، لهم زجل بالتسبيح والتقديس، والأرض ترتج، ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم»^(١).

وعن جابر وابن عباس وأنس وابن مسعود وغيرهم: لما نزلت سورة الأنعام سبَّح رسول الله ﷺ ثم قال: «لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سدَّ الأفق»^(٢).

وقد نزلت سورة الأنعام ليلاً جملة واحدة، ودعا الرسول ﷺ كُتَّابَ الْوَحْيِ فكتبوها من ليلتهم^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢٢١٠) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢٣/٧): رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي السلمي ولم أعرفه، وبقي رجاله ثقات، ورواه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٤٧) وابن مردويه.

(٢) «المستدرک» (٣١٤/٢) وهو صحيح على شرط مسلم كما قال الحاكم، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» برقم (٢٤٣١) وقد ردَّ الذهبي قولَ الحاكم بأن في إسناده جعفر، ولم يدرك الشدي، قال: وأظنه موضوعاً، ولكن وفاة السدي كانت سنة (١٢٧ هـ)، وولادة جعفر كانت سنة (١٠٩ هـ)، فاللقاء بينهما مُحْتَمَلٌ، ولا وجه لكلام الذهبي، انظر تعليق سامي بن محمد السلامة على «تفسير ابن كثير» في أول السورة، وانظر موسوعة فضائل سور آيات القرآن (٢٥٥/١) واللفظ لجابر، ورواه عبد بن حميد عن محمد بن المنكدر.

(٣) جاء هذا في أثرٍ منسوبٍ لابن عباس في «المعجم الكبير» للطبراني (٢١٥/٢) وفي «فضائل القرآن» لأبي عبيدة ص ١٢٩، و«فضائل القرآن» لابن الضريس ص ١٥٧، وفي إسناده علي بن زيد، وهو ضعيف، ورواه أيضاً إسحاق بن راهويه في مسنده برقم (١٦) وعبد بن حميد عن شهر بن حوشب.

ولم يَنْزِلْ من السور السبع الطوال جملة واحدة غيرها، ولعل أسباب النزول لبعض آياتها قد تجمعت عند نزول السورة في مدّة قصيرة متلاحقة.

قال الفخر الرازي: والسبب في إنزالها دَفْعَةً واحدةً أنها مُشتملةٌ على دلائل التوحيد، والعدل، والنبوة، والمعاد، وإبطال مذاهب المعطّلين والملحدين.

فإنزال ما يتعلق بالأحكام والتشريع، قد تكون المصلحة في نزوله على قَدَرِ الحاجة حسب الحوادث والأحوال، أما ما يدل على علم الأصول فقد أُنزِلَ جملةً واحدةً، ومن ذلك سورة الأنعام.

وقد نزلت سورة الأنعام غالبًا في السنة الرابعة للبعثة بعد الأمر بالجهر بالدعوة، وهي فترةٌ عنيفةٌ في تاريخ الدعوة؛ لأنها تواجه الشرك والمشركين، وتقاوم عقائد فاسدة، لاقتلاع جذور الشرك من نفوسهم، وتصحيح العقيدة لديهم.

وسُمِّيتْ بسورة الأنعام؛ لذكر الأنعام فيها ست مرات، في أربع آيات؛ هي الآيات: (١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٢)، ولم يُعرَف لها اسمٌ آخر.

والمراد بالأنعام: كل ما له خُفٌّ وظلف من الحيوانات، وهي: الإبل والبقر والغنم.

وقد سُبقت سورة الأنعام بسورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة، وهي السور الأربع الأولى بعد سورة الفاتحة.

وقد نزلت هذه السور الأربع على رسول الله ﷺ بالمدينة المنورة، وهي سُورٌ تخاطب المؤمنين، وترسمُ لهم منهج الحياة، ومنهج الحُكم الإسلامي، وتضعُ لهم قواعد العبادات والمعاملات المالية، وأحكام الأسرة، ومعاملة أهل الكتاب، والجهاد في سبيل الله، وتبيِّنُ أحوالَ النفاق والمنافقين وغير ذلك من الأحكام التشريعية.

وأكبر ما تعالج سورة الأنعام قضية العقيدة، وتعريف العباد برب العباد، وقد سلكتِ السُورةُ في هذا مسلكين:

المسلك الأول: أسلوب التقرير؛ بعرض الأدلة المتعلقة بتوحيد الله تعالى، مصدّرة بضمير الغائب، واسم الموصول المفرد، مع التسليم بدلائل وجود الله تعالى وقدرته، بما لا يشك في ذلك عقلٌ راشدٌ.

وضمير الغيبة يجعل المستمع في حالة حضور، كأن الله تعالى يُخاطبه، ويضع يده على مظاهر عظمته: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ [٢]

﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [٣] ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [١٨]

﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾ [٦٠]

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [٧٣]

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا﴾ [٩٧]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [٩٨]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ [٩٩]

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ [١٤١].

المسلك الآخر: أسلوب التلقين والتعليم؛ حيث يُلقِّن الله تعالى رسوله الحُجَّة التي يقذف بها في وجه الباطل، بما يملك على الإنسان سمعه وقلبه، وذلك عن طريق السؤال وتلقين الجواب، وربما تكرر ذلك أربع مرات في آية واحدة.

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [١١] ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [١٢]

﴿قُلْ غَيْرَ اللَّهِ أَنْجِدْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [١٤].

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي﴾ [١٥] ﴿قُلْ أَتَى شَيْءٌ أَكْبَرَ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [١٩]

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَنْتُمْ السَّاعَةُ غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ﴾ [٤٠]

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ﴾ [٤٦]

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً﴾ [٤٧]

﴿قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ﴾ [٥٧].

﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعِجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ [٥٨]

﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [٥٦]

﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [٦٣]

﴿قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [٦٤]

﴿قُلْ هُوَ الْفَاعِلُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا﴾ [٦٥]

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [٧١].

﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [٧١] ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ﴾ [١٣٥]

﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً﴾ [١٤٥]

﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَلِغَةُ﴾ [١٤٩]

﴿قُلْ هَلَمْ شَهِدْكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا﴾ [١٥٠]

﴿قُلْ تَمَآلَوْا أَتُلُوا مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [١٥١]

﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ﴾ [١٦٢]

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْنَى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [١٦٤].

وهكذا يكثر أسلوب التلقين في أوّل وأطول سورة مكية في القرآن؛ عن طريق السؤال والجواب في جوانب متعددة تتعلق بالعقيدة، والعبادة، والأخلاق، والتشريع، وغير ذلك.

والسبب في كثرة هذا الأسلوب في السورة، أنها نزلت في ذروة المعركة المحترمة بين الحق والباطل، فهي تلقينات متتابعة، يقول الله تعالى فيها لنبيه وهو يجادل المشركين: قل لهم كذا وكذا، ولمناقشة المشركين وإفحامهم بالحُجج القاطعة، وتفنيد شبه المعارض، وبيان وجه الحق فيها، وقد بلغ هذا الأسلوب أربعاً وأربعين مرة في السورة.

وسورة الأنعام أوّل سورة مكية في ترتيب المصحف، وهي والتي بعدها (سورة الأعراف) أطول سورتين مكيتين في القرآن الكريم، وخصائص القرآن المكي يختلف عن خصائص القرآن المدني.

ونحن لا نجد في سورة الأنعام نداءً ولا خطاباً واحداً للمؤمنين، فليس فيها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، ولا نجد فيها حديثاً يخاطب أهل الكتاب من اليهود والنصارى؛ لأن

ذلك كان في المدينة، ولا نجد فيها حديثاً عن النفاق والمنافقين؛ لأن النفاق ظَهَرَ في المدينة، ولا نجد في السور المكية حديثاً عن القتال وأحكام الجهاد؛ لأن الجهاد شُرِعَ في المدينة أيضاً، ولا نجد تفصيلاً لأحكام العبادات؛ كالصوم والزكاة والحج، وأحكام المعاملات؛ كالرِّبَا وأحكام الأسرة والجنايات من القتل والسرقة والجرائم وغيرها.

والقرآن المكي في ترتيب المصحف بدأ من سورة الأنعام، على خلاف في سورة الفاتحة، هل هي مكية أم مدنية، أو نزلت مرتين؟

والفترة المكية استمرَّت نحو ثلاثة عشر عاماً، نزل فيها أربعٌ وثمانون سورة؛ منها سبعٌ وأربعون سورة متوالية، هي جزأ (تبارك) و(عمّ) غالباً؛ أي: من سورة الملك إلى سورة الناس، وهي من متوسط وقصّار السور.

ويتناول القرآن المكي ثلاث قضايا؛ وهذه القضايا الثلاث هي:

القضية الأولى: قضية تصحيح العقيدة، وتوحيد الإله المعبود، ونُبذ الشرك، والتنديد بالمشركين، وكلّ ما يُعبَد من دون الله.

القضية الثانية: تتناول الوحي والرسالة؛ بمعنى أن الوحي المنزل من عند الله تعالى على نوح، وعلى إبراهيم، وعلى موسى وعيسى ﷺ، هو نفسه الذي نَزَلَ به جبريل ﷺ على محمد ﷺ، ومن آمن بالوحي الذي نَزَلَ على الرُّسُل السابقين، عليه أن يؤمن بالوحي الذي نَزَلَ على خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، وهذا يستلزم الإيمان به ﷺ.

القضية الثالثة: قضية البعث والحشر والنشور والحساب والجزاء يوم القيامة، فالقرآن يَغرس في نفوس الخلق أن هناك يوماً آخرًا، يبعث الله فيه العباد، ويُحاسِبهم على ما قَدَّمَت أيديهم من خيرٍ أو شرٍّ، وأن الدنيا ليست نهاية المطاف، وفترة البرزخ يَتِم فيها استيفاء الأعمال، ثم يكون البعث والحساب، والجنة أو النار، نسأل الله حسنَ الخاتمة.

هذه القضايا الثلاث هي المحاور التي يدورُ حولها القرآن الذي نَزَلَ بمكة على رسول الله ﷺ، وفي مقدمة ذلك سورة الأنعام، وهذه القضايا ذكرتها سورة الأنعام في الآيات الأربع الأولى منها على وجه الإجمال؛ حيث جاءت قضية التوحيد في الآية الأولى منها، وقضية البعث والنشور في الآية الثانية، وقضية الوحي والرسالة في الآية الرابعة منها.

وقد اشتملت سُورَةُ الْأَنْعَامِ عَلَى هَذِهِ الْقَضَايَا الثَّلَاثِ فِي مَشَاهِدٍ مُخْتَلِفَةٍ :

١- فَأَقَامَتِ الْأَدْلَةُ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي كَثِيرٍ مِنَ الْآيَاتِ، الَّتِي تَتَنَاوَلُ جَوَانِبَ الْكَوْنِ كُلِّهَا :

﴿قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ أَخْبَدُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [١٤]

﴿وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [١٧]

﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [٥٩]

﴿قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ [٧١]

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ﴾ [٩٥].

وَمِنْ دَلَائِلِ التَّوْحِيدِ حِوَارُ إِبْرَاهِيمَ لِقَوْمِهِ، وَهُوَ يُقِيمُ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، وَيَأْخُذُ بِأَيْدِيهِمْ خُطْوَةَ خُطْوَةٍ، حَتَّى يَعْتَرِفُوا بِوَحْدَانِيَةِ الْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، وَقَدْ جَاءَ هَذَا فِي أَسْلُوبِ تَرْبُوِيِّ بَدِيعٍ .

٢- وَأَقَامَتِ سُورَةُ الْأَنْعَامِ الْأَدْلَةَ عَلَى قَضِيَّةِ الْبَعْثِ وَالْحِسَابِ وَالْجَزَاءِ فِي مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا آيِنَ شُرَكَائِكُمْ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [٢٢]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [٢٧]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا﴾ [٣٠].

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْشَرُنَا عَلَى مَا فَرَطْنَا فِيهَا﴾ [٣١]

﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [٩٣]

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [٩٤]

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمِزُهُمُ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ [١٢٨].

٣- وَأَقَامَتِ السُّورَةُ الْأَدْلَةَ عَلَى قَضِيَّةِ الْوَحْيِ وَالرِّسَالَةِ فِي كَثِيرٍ مِنْ آيَاتِهَا ؛ مِنْهَا قَوْلُهُ تَعَالَى :

﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [٧]

﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَفُصِّي الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يَبْطَرُونَ﴾ [٨]

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ [٢٥].

﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ [٢٦]

﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَايَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٣٣]
 ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبْرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَنلَهُمْ نَصْرًا﴾ [٣٤] ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنَّا تَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [٥٠].

وإلى جوار هذه القضايا الثلاث فنَدَّتِ السورة شبهات المشركين بأسلوب يُقنع العقول ويهدي القلوب، ويرضي العواطف، وذلك في مثل قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [١٣٦]

﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَفْعَدْنَا وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعُمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بَرَعِيهِمْ﴾ [١٣٨]

﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا﴾ [١٣٩].

﴿ثُمَّ نَبَيَّةٌ آتَتْهُمْ بِنَاصِيئَتِهِمْ وَآتَتْهُمْ مِّنَ اللَّحْمِ مَتَاعًا وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ حَرَمٍ أَمِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [١٤٣]

﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ أَكْثَرُ حَرَمٍ أَمِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [١٤٤]

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي طُفْرٍ﴾ [١٤٦]

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن شَيْءٍ﴾ [١٤٨].

وسورة الأنعام أجمع سورة في القرآن لأحوال العرب في الجاهلية، وأشدّها مقارعة لجدالهم، واحتجاجاً على سفاهة أحوالهم.

في صحيح البخاري أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إذا سرك أن تعلم جهل العرب؛ فاقرأ ما فوق الثلاثين ومئة من سورة الأنعام ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا﴾ إلى قوله ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (١).

إلى جوار الآيات التي تناولت مقترحات المشركين بنزول معجزات كونيّة على النبي ﷺ تُصدّق دعوته، وردّ الله عليهم في آيات؛ منها:

﴿وَنُقَلِّبُ أَفْعَادَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَدْرُهم فِي طُعْنِهِمْ يَمْمَهُونَ﴾ (١١٠) وَلَوْ

أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴿١١٠، ١١١﴾.

والآيات التي تناولت القرآن الكريم تصفه بأنه كتاب مبارك مصدق لما قبله من الكتب، وتأمّر نبيه ﷺ باتباع ما فيه ﴿أَتَبِعَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [١٠٦]. وعلى هذا الأساس تمضي السورة.

فتبدأ: بإقامة أدلة التوحيد في مواجهة المشركين ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [١]. وتثني: بموقف المكذبين بآيات الله في هذا الكون الفسيح ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ [٥]. وتثالث: بتعريف الناس بحقيقة الألوهية ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [١٢]. ورابعاً: تُخبر أن أهل الكتاب يعرفون محمداً ﷺ، وكتابه حق المعرفة. ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَرُ يَفْقَهُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ﴾ [٢٠].

وخامساً: تُسلي الرسول ﷺ، وتُسرّي عنه ما يحدث له من تكذيب المكذبين. ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَيَحْزَنُونَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ إِنَّمَا يُكَذِّبُونَ اللَّهَ بِمَا يَحْذَرُونَ﴾ [٣٣]. وسادساً: تُقيم السورة أدلة، مادية لا يسع العاقل أمامها إلا أن يوحد الخالق سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى﴾ [٩٥] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ [٩٨] ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [٩٩].

وسابعاً: تُفند السورة مزاعم أهل الجاهلية في الأنعام والثمار؛ لاقتلاع جذور الشرك، وتصحيح العقيدة ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [١٣٦] ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾ [١٣٨].

﴿ثُمَّ نَبِئَةَ أَزْوَاجٍ مِنْ الضَّالِّينَ أَنتَنَ وَابِ الْمَعْرِزِ أَنتَنَ قُلْ الْمَكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأَنْثَيْنِ﴾ [١٤٣].

وثامناً: تذكّر الوصايا العشر التي جاءت بها كل شريعة من عند الله عز وجل، وفي ثانياً ذلك حديث عن مفاتيح الغيب، وحوار إبراهيم لقومه، وذكّر ثمانية عشر رسولاً من رسل الله، والأمر بالافتداء بهم، وإحياء كل من شياطين الجن والإنس للآخر.

ولم تَخُلُ السورة من مشاهد القيامة وأهوالها ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَى النَّارِ﴾ [٢٧]
 ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُفِّقُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [٣٠].

وتختتم السورة بابتهاال وإنابة إلى الله تعالى وحده لا شريك له .

فسورة الأنعام أقامت الأدلة على وحدانيّة الله تعالى ، وبينت أنه المستحق للعبادة دون
 سواه ، وأقامت الأدلة على صدق النبي ﷺ في دعوته ، وأقامت الأدلة كذلك على أن يوم
 القيامة حق ، وأن الحساب والجزاء فيه حق ، وفندت السورة الشبهات التي أثارها
 المشركون حول هذه الأمور الثلاثة .

سُورَةُ الْأَعْرَافِ (٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأعراف هي السورة السابعة في ترتيب المصحف، والتاسعة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (ص)، وقبل سورة (الجن).

وهي مئتان وست آيات في العدد المدني الأول والثاني والكوفي^(١).

وهي ثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمسة وعشرون كلمة.

وسورة الأعراف أربعة عشر ألفاً وثلاث مئة وعشرة أحرف.

وسُمِّيت سورة الأعراف؛ لعدم ورود هذا اللفظ في غيرها.

وسمّاها بعضهم^(٢) سورة الميقات؛ لاشتغالها على ذكر ميقات موسى عليه السلام.

وتُسَمَّى سورة الميثاق؛ لاشتغالها على الميثاق المأخوذ على بني آدم وهم في عالم الذر.

وهي سورة مكية عدا الآيات من [١٦٤-١٦٧] وآية رقم [١٧٢] فهي مدنية، وهي من السور السبع الطوال في أول القرآن.

وأخرج النسائي وغيره عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قرأ في صلاة المغرب بسورة الأعراف، فرّقها في ركعتين^(٣).

وعن ابن أبي مليكة عن عروة عن زيد بن ثابت رضي الله عنه أنه قال لمروان بن الحكم: ما لي أراك تقرأ في المغرب بقصار المفصل، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقرأ فيها بأطول الطولين، قال مروان: يا أبا عبد الله، ما أطول الطولين؟ قال: الأعراف^(٤).

(١) ومئتان وخمسة آيات في العدد البصري والشامي.

(٢) وهو الفيروزآبادي في كتاب «بصائر ذوي التمييز».

(٣) صححه الألباني في «صحيح سنن النسائي» برقم (٩٤٧).

(٤) «المسند» (٢١٦٤١، ٢١٦٤٦) وإسناده صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين غير مروان بن الحكم فمن رجال البخاري، (محققوه) والبخاري (٧٦٤) مختصراً وأخرجه أبو داود (٨١٢) والنسائي (٩٨٩) وفي «الكبرى» (١٠٢٢) وابن خزيمة (٥١٥، ٥١٦) والطبراني في «الكبير» (٤٨١١، ٤٨١٢) وصحيح النسائي (٩٤٦) وصحيح سنن أبي داود (٧٢٨).

وفي لفظ آخر عن حديث زيد بن ثابت أيضًا أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في المغرب بطولى الطولين (المص)^(١).

وسورة الأعراف هي أطول سورة في القرآن الكريم الذي نزل بمكة على رسول الله ﷺ، وهي أطول من سورة الأنعام المكية التي قبلها.

وسورة الأعراف كسورة الأنعام، كلاهما يعالج قضية العقيدة والتوحيد، ولكن سورة الأنعام تعالج قضية العقيدة ذاتها، وتعالج أوضاع الجاهلية في كل زمان ومكان، الجاهلية التي كانت عند مبعث الرسول ﷺ، وجاهلية الأمم التي لم تتشرف بالوقوف على معالم الرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، فتبين للناس العقيدة الصحيحة، وما أحله الله لهم، وما حرّمه عليهم من الذبائح وغيرها.

وسورة الأعراف تعالج موضوع العقيدة والتوحيد من زاوية أخرى، تعالجها في رحلة الرسل الكرام مع التاريخ البشري الطويل، رحلة الموكب الإيماني مع رسل الله الكرام، الذي يبدأ من لدن آدم إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهي سورة تُفَصِّلُ بتوَّسع قصص الأنبياء والمرسلين، وقد سبق قبل ذلك إشارات عابرة في سور القرآن المكي الذي نزل قبل هذه السورة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رَسُولًا شَهِيدًا عَلَيْكَ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [المزمل] إلى آخر الآيات، وكما في سورة الفجر، وسورة القمر، وهي إشارات عابرة إلى قصص الأنبياء والمرسلين، وجاءت هذه السورة؛ لتُفَصِّلَ وتُوسِّع الحديث عنها.

وفي هذا الصدد تتناول السورة سبع قصص؛ هي: قصة آدم، وقصة نوح، وقصة هود، وقصة صالح، وقصة لوط، وقصة شعيب، وتتناول بالإطناب قصة موسى بما لم يُذكر في غيرها، ففي هذه السورة بيان أن الله سبحانه أنزل الكتاب على موسى؛ لهداية أهل مصر، ولهداية بني إسرائيل، وتذكر السورة عشر حَلَقَاتٍ من قصة موسى مع بني إسرائيل لا يوجد غيرها في القرآن الكريم، وتحدث عن الفراعنة، وعن اليهود بإسهاب وإطناب.

اشتملت سورة الأعراف على مقاصد السور المكية، وهي إقامة الأدلة على وحدانية الله

(١) ينظر: «الدر المنثور» (٦/٣١١).

تعالى، وعلى صِدْقِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وعلى أن يوم القيامة حقٌّ لا رَيْبَ فيه.

واهتمتِ السورةُ بأسلوبين بارزين:

أحدهما: أسلوب التذكير بنعم الله تعالى؛ فتلفت أنظار الناس إلى نعمة خَلْقِهِم، وتصويرهم وتمكينهم في الأرض، وتمتّعهم بما في هذا الكون من خيراتٍ سَخَّرَهَا الله تعالى لهم.

وثانيهما: أسلوب التخويف من العذاب والنقم؛ فتستعرض سورة الأعراف في أكثر من نصفها ما نزل بالأمم الذين لم يستجيبوا لنصائح الرسل من سوء المصير.

وتبدأ السورة بافتتاحية عن القرآن العظيم ألا يكونَ في صَدْرِ الرسول ﷺ حَرْجٌ من إبلاغه للناس، فيخَوْفُ به الكافرين، ويذكُرُ به المؤمنين، وأن تَتَّبِعَ الأُمّةُ ما أنزل الله فيه، ولا تَتَّبِعَ غَيْرَهُ.

ثم تشير السورة في بدايتها إلى ما جاء فيها من الأمم التي كَذَّبَتْ رسلها؛ فأهلكها الله ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ ﴿١﴾ وأعقبَتْ ذلك بأن الله تعالى سيسأل الأمم ويسأل الرسل، وسوف يقص على الجميع أخبارهم، ويزن أعمالهم، فمنهم أهل الجنة، ومنهم أهل النار.

وبعد هذه المقدمة تذكُرُ السورة قصة بدء الخلق بآدم وحواء، وما كان من إغواء الشيطان لهما، وتحذُرُ بني آدم من كيده وعداوته في أربعة نداءات متوالية.

وتنتقل السورة من المنشأ إلى المعاد، فتذكُرُ أهل النار وهم يتلاحقون فيها جماعة بعد جماعة، الضالين والمضلين، وتبيّن استحالة دخولهم الجنة، وعدم خروجهم من النار.

ثم تعرض مشاهد الفِرَقِ الثلاث يوم القيامة: وهم أهل النار، وأهل الجنة، وأصحاب الأعراف، وتعقّب على ذلك بذكُرِ شيء من صفحات الكون وتسخيرهِ للإنسان؛ السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم، والرياح، والماء، والزرع والثمار؛ للاستدلال بها على وحدانية الخالق سبحانه، وقدرته على البعث والنشور، وتضرب مثلاً للمؤمن بالأرض الطيبة الخصبة، ومثلاً للكافر الذي لا ينتفع بالحجج والبراهين بالأرض الرديئة السبخة.

ثم تأخذ السورة في ذكر الأمم التي تمردت على وحي الله؛ فصرعها بغياها، ويلاحظ أن أغلب هذه الأمم في المناطق العربية؛ فقوم نوح بالعراق، وقوم عاد باليمن وما جاورها، وقوم ثمود بأطراف الحجاز، وقوم مدين بين سيناء والأردن، وقوم لوط في شرق فلسطين، وهؤلاء جميعاً قاوموا المرسلين، وجحدوا ما جاؤوا به من عند الله.

ويعرض السياق إلى قصة موسى في مواجهته لفرعون، وفي تحدّيه للسحرة، وفي أخذ آل فرعون بالسنين، وفي إغراق فرعون وقومه.

كما يعرض لدعوة بني إسرائيل، وطلبهم من نبهم أن يجعل لهم إلهاً صنماً كغيرهم، بعد أن نجّاهم الله من الغرق، ويعرض أيضاً إلى ميقات موسى مع ربه؛ لنزول التوراة عليه، وطلبه الرؤية من ربه، ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ...﴾ [الأعراف: ١٤٣] وإلى ميقاته مع نقباء بني إسرائيل السبعين الذين قالوا له: ﴿أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣] فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون.

﴿وَأَخَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]

وتتحدث السورة عن مخالفة بني إسرائيل لأمر ربهم في دخول القرية، وفي صيد السمك يوم السبت، وعن رَفْعِ جبل الطور فوقهم؛ حتى يقبلوا التوراة و يعملوا بما أنزله الله فيها على موسى ﷺ.

ومن ثَمَّ يأتي ذِكْرُ الميثاق الفطري الذي أخذه الله على بني آدم لتوحيد الله، ويتَّبَع ذلك مثل الذي آتاه الله آياته فانسَلخ منها؛ كبني إسرائيل، وكلِّ مَنْ تَأْتِيهِ هِدَايَةُ اللَّهِ فَيَزْهَد فِيهَا ويُعْرِضُ عَنْهَا.

إن الأمم التي أبادها الله تعالى -مَنْ جَاءُوا فِي هذه السورة وغيرها- هي التي حُفِرَتْ قَبْرُهَا بِيَدِهَا ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

ولقد كان الجدير بِمَنْ أَتَى بعدهم أن يتعظوا بمصارع الآباء والأجداد، ولكنهم لم يعتبروا ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾.

إن الصهاينة من يهود اليوم معتدون ظالمون مضادون لله تعالى في إقامة الكيان الصهيوني، وقد كَتَبَ الله عليهم التَّشَرَّدَ في البلاد؛ بسبب تقاعسهم عن نُصْرَةِ نبيهم موسى ﷺ، فخالفوا ذلك، وأقاموا وطنًا لهم، وهم كفارون برسولين بعد موسى، مقاتلون للعرب، محتلون لأرضهم، وإن الطغاة من النصارى ملأوا الأرض ظلمًا وفسادًا واستعبادًا، واستبدادًا، ونصَّبوا أنفسهم شُرَطيًّا على العالم، يولُّون مَنْ شاؤوا، ويعزلون مَنْ شاؤوا، ويحتلُّون ما شاؤوا.

وإن جُلَّ المسلمين معطلون لحدود الله، مستبيحون لحرماته، تاركون لواء محمد ﷺ، سائرون تحت ألوية الغدر والعصيان، فلا عجب أن ينطبق على هؤلاء وأولئك ما انطبق على غيرهم؛ مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إن كلَّ أمةٍ يبتليها الله تعالى بالمحن، ثم لا تلجأ إلى الله تعالى وترجع إليه؛ يأخذها ربُّها على غِرَّةٍ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالصَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَعُونَ﴾ ١٩٤ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَاءَنَا الصَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٩٥﴾ [الأعراف] ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

هذا هو شأن الأمم التي خذلت أنبياءها ممَّن قص الله علينا قصصهم في هذه السورة ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ ١٢١ [الأعراف].

فالقلوب المحجوبة والعيون المغلقة تقود أصحابها إلى جهنم، وعلى كلِّ مَنْ يريد النجاة من النار أن يفتح قلبه وعينه؛ فيفكر وينظر ويتأمل في ملكوت السموات والأرض، ويتدبر ما جاء به رسول الله ﷺ، فإن حرية الإرادة البشرية لا جدالَ فيها، وإلا سقط تكليفُ الله لخلقه، ولم يعد هناك حاجة للثواب والعقاب في الآخرة.

وقد نصح الله المسلمين أن يتجنبوا مصارع الأولين، وأن يُحسِّنوا علاقتهم بالله تعالى؛ فيدعونه بأسمائه الحسنى، ويبتعدون عن الشرك والضلال والإلحاد ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف].

وعلى المسلم ألا يحاول كشف المجهول من الأمور الغيبية، وقد أخفى الله تعالى

موعد قيام الساعة؛ لأن قيامها يهم المعاصرين لها، ولو علموها لاستعدّوا لها ساعة قيامها، أما غير المعاصرين لها، فإن قيامتهم تقوم من لحظة وفاتهم، ومعرفة وقت قيامها لا يفيدهم في قليل ولا كثير، وكما بدأت سورة الأعراف بالحديث عن آدم، فإنها تعود قرب نهايتها فتتحدث عن ذرية آدم؛ لتبين أن الله تعالى قد غمر أبناء آدم بأنعمه، فبدل أن يشكروه أشركوا به ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلِقُونَ﴾ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ [الأعراف].

ثم يتجه الخطاب إلى الدعاة إلى الله، وإمامهم ﷺ، فينددُ بجمود المكذّبين بالرسالة الخاتمة، ويبيّن كيفية التعامل معهم، وأن على سيّد الدعاة وكلّ مَنْ قام بالدعوة أن يصبر ويتحمل الأذى ﴿خُذِ الْعَقْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (١٩٩) [الأعراف] ففي هذا استعانة على متاعب الطريق، واقتحام لأصعب المسالك وُصولًا إلى النجاح، وإذا كان الشيطان يحاول إضلال بني آدم فإنه لا يملك إلا الوسوسة، والإنسان المؤمن يدحّر الشيطان، ويهزم هذه الوسوس ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ (٢١٦) [الأعراف].

إن هذا الذّكر يعصم من الزلل، ويستبقي الإيمان في قلب العبد، ويجعله أهلاً لرحمة الله ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ (٢٤١) [الأعراف].

وذكّر الله تعالى يجب أن يكون موصولاً غير منقطع، ومسيطرًا على السرّ والعلانية، وباعثًا على الرغبة والرغبة؛ حتى ينتظم العابد مع الكون كلّ، وهو يسبح بحمد الله ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ نَضْرَعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ (٢٥٥) وهكذا ملائكة الله لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون.

سُورَةُ الْأَنْفَالِ (٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأنفال هي السورة الثامنة في ترتيب المصحف، والتاسعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة آل عمران وقبل سورة الأحزاب، وهي خمس وسبعون آية في العدد الكوفي^(١).

وعدد كلماتها: ألف وست مئة وإحدى وثلاثون كلمة.

وعدد حروفها: خمسة آلاف ومئتان وأربعة وتسعون حرفاً.

وسورة الأنفال سورة مدنية، نزلت في غزوة بدر الكبرى في شهر رمضان من العام الثاني للهجرة، بعد تسعة عشر شهراً من الهجرة، وبعد تحويل القبلة بشهرين، ابتداءً نزولها قبل قسمة غنائم بدر، واستمر نزولها إلى الانصراف من بدر، وهي ثاني سورة ابتداءً نزولها بالمدينة بعد نزول بعض سورة البقرة، وانتهى نزولها بعد نزول بعض آي سورة آل عمران.

وقد عُرفت هذه السورة باسم (سورة بدر)، وعُرفت أيضاً باسم (سورة الأنفال)، وغلبت هذه التسمية عليها بعدما كُتبت أسماء السور في المصاحف في عهد الحجاج.

ووضَّعها في هذا المكان من المصحف هي وسورة براءة أمرٌ توقيفي كسائر السور على الأرجح.

مَوْضُوعُ سُورَةِ الْأَنْفَالِ

نزلت سورة بدر؛ لتوجِّه المؤمنين، وتبيِّن لهم عوامل النصر على العدو في خوضهم للمعارك المستقبلية معه، وجاء ذلك في نداءات ستة موجهة للمؤمنين، هي بمثابة الترتيب والإعداد للمعارك:

١ - فحذَّرت من الفرار عند لقاء العدو؛ فإن ذلك من كبائر الموبقات، وتوعَّدت الفارِّين

(١) وست وسبعون آية عند أهل مكة والمدينة والبصرة، وسبع وسبعون عند أهل الشام، والآيات المختلف في عددها ثلاث هي: (ثم يغلبون) [٣٦] عددها الشامي والبصري وتركها غيرهما، (كان مفعولاً) [٤٢] تركها الكوفي وعددها غيره، (وبالمؤمنين) [٦٢] تركها البصري وعددها غيره.

بأشد العذاب ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ ١٥﴾ .

٢- وأمرت بالسمع والطاعة، والبعد عن المعاصي والذنوب، فإن ذلك من أهم عوامل النصر على العدو ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ ١٦﴾ .

٣ - وبيئت أن سرعة الاستجابة لأوامر الله ورسوله فيها عز الدنيا وسعادة الآخرة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ٢٤﴾ [٢٤] .

٤- كما بيئت أن الحرب خدعة؛ ولذا: فإن أسرار الخطط الحربية، وإفشاء سر المسلمين، وبيان توجهاتهم ونياتهم، وتحركاتهم للعدو، خيانة عظمى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٧﴾ .

٥- وحثت على تقوى الله تعالى في السر والعلن، وامتنال أمره واجتناب نهيه، وتحكيم شرعه، والخوف من لقائه، وبيئت أن ذلك من أكبر عوامل النصر على العدو، ومن أسباب السعادة في الدنيا والآخرة ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ٢٩﴾ [٢٩] .

٦- و يأتي النداء السادس في سورة الأنفال؛ ليحدد سبعة أسس هي مفاتيح النصر على الأعداء، وهي:

(أ) الثبات في مواجهة العدو وعدم الفرار من ساحة القتال ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا ٤٥﴾ [٤٥] .

(ب) الإكثار من ذكر الله تعالى وطلب النصر منه، ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا ٤٨﴾ .

(ج) طاعة الله والرسول؛ لأن الاستواء في المعصية مع العدو تجعله يفوقنا بقوة السلاح، ويتنصر علينا ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ٤٦﴾ [٤٦] .

(د) وحدة الصف ووحدة الكلمة بين الأمة الإسلامية في مواجهة العدو ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ٤٩﴾ [آل عمران: ١٠٣] وهذا من لوازم عدم الفرقة .

(هـ) عدم الفرقة، وعدم الاختلاف والتنازع فيما بين المسلمين؛ فهو سبب الفشل، وذهاب القوة ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُلُوا وَتَذْهَبَ رِجَاكُمْ ٤٦﴾ [٤٦] .

(و) الصبر عند لقاء العدو، وتحمل المشاق، والمصابرة، والمرابطة ﴿وَأَصْبِرُوا ٥٠﴾ .

(ز) عدم الغرور بالنفس، وعدم الفرح والبطر والتكبر؛ فإن الغرور يحصد النصر على العدو، ويؤدي إلى الهزائم والنكسات ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ﴾ [٤٧].

جاءت هذه التوجيهات السبعة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٤٥] والآيات بعدها.

وكما تحدثت السورة عن المؤمنين تحدثت عن غير المسلمين الذين يكرهون الجهاد في سبيل الله، ويستهنون بالإسلام وأهله، ويُمعنون في الجحود واللَّغَط عند تلاوة القرآن الكريم، ويسارعون إلى إنفاق أموالهم في وجوه الشر، وصد الناس عن دين الله، والتأمر على الإسلام وأهله. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسُيْفَقُونَ ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةٌ ثُمَّ يَغْلِبُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [٥٥].

وقد شبههم القرآن بالصم البكم الذين لا يعقلون ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ فهم خونة؛ ينقضون عهدهم في كل مرة.

وقد أمر الإسلام بقتالهم، ومعاملتهم بالمِثْل في نبذ عهودهم، وإعداد العدة المستطاعة لهم؛ حتى يستسلموا ويطلبوا الصلح ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [٦١]. ﴿وَأِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَبْذُؤْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨]

سورة بدر:

وموضوع سورة الأنفال هو الجهاد؛ ولذا فإنها تبدأ بالحديث عن تقسيم غنائم المعركة من العدو، وتُفَصِّل ما أجمَلته في أولها بقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ﴾ [٤١].

وتُشَيِّ بأوصاف المؤمنين المستحقين للنصر على العدو، وتذكر عوامل النصر في جميع المعارك، وتبيِّن أن المحادِّين لله والرسول ليسوا أهلاً للنصر، وتصف غزوة بدر بالتفصيل، وتبيِّن وجوب الإعداد للعدو في كل زمان ومكان، وتذكر حكم الأسرى، وحكم الولاء والبراء في الإسلام.

والجهاد ركن عظيم من أركان الإسلام، وهو ذروة سنام الإسلام (أعلى شيء فيه)، وهو الذي يحمي الحق ويدعمه، ويقيم العدل بين الناس في الأرض، وبالجهاد تنتشر

دعوة محمد ﷺ، وبالجهاد يُنصر الحق، ويُدفع عدوان العدو.

ويوم يتخلّى المسلمون عن الجهاد، وتُحذف هذه الكلمة المباركة من مناهج تعليم الأبناء تكون بطن الأرض خيراً لهم من ظهرها.

هذا: وقد كف الله المسلمين عن قتال المشركين في مكة، ثم أذن لهم بالقتال في المدينة، ثم فرض عليهم القتال لمن قاتلهم، دون من لم يقاتلهم، ثم فرض عليهم قتال المشركين كافة كما يقاتلونهم كافة، فكان القتال ممنوعاً في بدء الدعوة، قبل قيام الدولة الإسلامية، ثم أذن الله لهم به دفعاً للظلم، ثم أمر به لمن بدأ بالقتال، ثم أمر به بصفة عامة؛ لنشر الدعوة، وإزالة العقبات من طريقها، وقبل غزوة بدر وبعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة وقعت مناوشات وسرايا بين المسلمين وغيرهم، لم يحضرها رسول الله ﷺ، وكانت هذه السرايا بمثابة جس النبض واستطلاع قوة العدو.

وسورة الأنفال تتحدث عن أول وأعظم معركة في الإسلام، ولذا: سماها بعض الصحابة سورة بدر، فقد نزلت في أعقاب أحداث غزوة بدر، وقد كان النصر الذي أعطاه الله ومَنَحَهُ للمؤمنين في هذه الغزوة المباركة؛ مُكَافَأَةً من الله سبحانه على الأذى الذي لقيه المستضعفون في الأرض من ضعاف المؤمنين طوال مدة تزيد على عشر سنوات؛ حيث اضطهدوا في مكة، وأخرجوا من ديارهم وأموالهم، فكانت مكافأة الله تعالى لهم بعد هذا الصبر الطويل أن أعطاهم هذا النصر العظيم، وكان هؤلاء الجند هم أدوات النصر، مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة]

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣] قال تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [١٧]

وقال سبحانه: ﴿سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَأَضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [١٢]

وقال جل شأنه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُبْدِّمُ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [٩]

وقال عز وجل: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنُصْرِهِ﴾ [٢٦].

ولتبيّن أيضًا الجهد البشري الذي قام به هؤلاء الرجال في الجهاد في سبيل الله، وتخاذل غيرهم ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ (٦) وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ﴿٦﴾ [٧، ٦].

أسباب النزول

١ - عن محمد بن عبد الله الثقفي، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عُمير، وقُتلْتُ سعيد بن العاص، وأخذتُ سيفه، وكان يُسمَّى ذا الكَتِيفَةِ، فأُتيت به النبي ﷺ، فقال: «أذهب فاطرحه في القَبْضِ» قال: فرجعتُ وبني ما لا يعلمه إلا الله مِنْ قُتل أخي، وأخذتُ سَلْبِي، فما جاوزتُ إلا يسيرًا حتى نزلت سورة الأنفال، فقال لي رسول الله ﷺ: «أذهب فخذ سيفك»^(١).

والقَبْضُ بفتح الباء: ما جُمع من الغنيمة قبل أن تُقسَمَ.

والسَلْبُ: ما يأخذه المحارب ممن يقاتله.

٢ - وعن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «من فعل كذا وكذا، فله كذا وكذا، فذهب شباب الرجال، وجلس الشيوخ تحت الرايات، فلما كانت الغنيمة جاء الشباب يطلبون نفلهم، فقال الشيوخ: لا تستأثروا علينا، فإننا كنا تحت الرايات، ولو انهزمتم كنا لكم رداءً، فأنزل الله: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ فقسَّمها بينهما بالسواء»^(٢).

(١) «مسند أحمد» (٧٨/٣) برقم (١٥٥٦) و«تفسير الطبري» (١١٧/٩) وفيه انقطاع؛ لأن محمد بن عبد الله الثقفي لم ير سعدًا، وقال الحافظ ابن حجر: الصواب أنه العاص بن سعيد بن العاص، وأخرجه ابن أبي شيبه (٣٧٠/١٢) وابن مردويه، وقال محققو «المسند»: حسن لغيره، رجاله ثقات رجال الشيخين، غير أن فيه انقطاعًا، وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (٢٦٨٩) وأبو عبيد في الأموال (٧٥٦).

(٢) «سنن البيهقي» (٢٩١/٦) و«سنن النسائي الكبرى» (١١١٩٧) و«المستدرک» للحاكم (٣٢٦/٢) وصححه، و«سنن أبي داود» برقم (٢٧٣٧) و«تفسير الطبري» (٣٦٧/١٣) برقم (١٥٥٢، ١٥٦٥٠) بتصحيح أحمد شاكر وابن حبان في الإحسان برقم (٥٠٩٣) وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» برقم (٢٣٧٦، ٢٣٧٧) وابن المنذر في «الأوسط» (١٤٦/١١) والبيهقي في «الدلائل» (١٣٥/٣) وقوله: كذا وكذا، أي: أن من قتل قتيلاً فله سلبه، ومن أسر أسيراً فله كذا.

٣ - وعن عطاء بن رباح **﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾** قال: يسألونك فيما شذ من المشركين إلى المسلمين بغير قتال من دابة، أو عبد، أو أمة، أو متاع، فهو نفل للنبي ﷺ يصنع به ما يشاء^(١).

وهذا يعني أن المراد بالأنفال: الفيء، وهو ما أخذ من الكفار من غير قتال.

٤ - وأخرج الإمام أحمد وغيره بسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ فشهدت معه بدرًا فالتقى الناس، فهزم الله العدو، فانطلقت طائفة في آثارهم يهزمون ويقتلون، وأكبَّت طائفة على العسكر يحوونه ويجمعونه، وأحدثت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرّة، حتى إذا كان الليل، وفاء الناس بعضهم إلى بعض، قال الذين جمعوا الغنائم: نحن حويناها فليس لأحد فيها نصيب، وقال الذين خرجوا في طلب العدو: لستم بأحق بها منا، نحن نفينا عنها العدو وهزمناهم، وقال الذين أهدقوا برسول الله ﷺ: لستم بأحق بها منا، نحن أهدقنا برسول الله ﷺ، وخفنا أن يصيب العدو منه غرة، فاشتغلنا به؛ فنزلت **﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾** فقسّمها رسول الله ﷺ بين المسلمين^(٢).

٥ - في صحيح مسلم وغيره أن سعدًا قال: نزلت في أربع آيات، وذكر منها أنه أصاب سيفًا فأتى به النبي ﷺ، وطلب منه أن يأخذه لنفسه - ثلاث مرات - والرسول ﷺ يقول له: «ضعه من حيث أخذته» فنزلت: **﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾**^(٣).

والآيات الثلاث الباقية في بر الوالدين، والوصية بالثلث، وتحريم الخمر.

٦ - وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر، قال رسول الله ﷺ: «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أتى بأسير فله كذا وكذا» فجاء أبو اليسر بن عمرو الأنصاري بأسيرين، فقال: يا رسول الله، وعدتنا، فقام سعد بن عبادة فقال: يا رسول الله، إن أعطيت هؤلاء

(١) وهذا الأثر في «تفسير الطبري» (١٣/٣٦٥) بسند صحيح وعند ابن أبي شيبة (١٢/٤٢٦) والنحاس ص ٤٥٧.

(٢) «المسند» (٢٢٧٦٢) وقال محققوه: حسن لغيره، ورواه الترمذي برقم (١٥٦١) وقال: حديث حسن، وكذا ابن ماجه برقم (٢٨٥٢) وكلاهما من حديث سفيان الثوري، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، و«المستدرک» (٢/١٣٦) و«صحيح ابن حبان» في الموارد برقم (١٦٩٣) وسعيد بن منصور (٩٨٢) و«سنن الدارمي» (٢٤٨٢) وابن أبي شيبة (١٤/٤٥٦).

(٣) يُنظر: «صحيح مسلم» برقم (١٦٢٨، ١٧٤٨) و«مسند الطيالسي» برقم (٢٠٥) والبخاري (٢٤) والبيهقي في «الشعب» (٧٩٣٢).

لم يبقَ لأصحابك شيء، وإنه لم يمنعنا من هذا زهادة في الآخرة، ولا جبن عن العدو، وإنما قمنا هذا المقام محافظة عليك، نخاف أن يأتوك من ورائك فتشاجروا، ونزل القرآن ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾ ونزل ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾^(١).

وجاءت روايات أخرى في أسباب نزول الآية وما بعدها، وعلى كلٍّ فإن جمهور العلماء على أن الآية نزلت في غنائم بدر لما اختلف الصحابة فيها، فقال بعضهم: نحن الذين حرزنا الغنائم، وقال آخرون: نحن الذين تتبعنا العدو فهزمناه وقتلناه، وقال غيرهم: نحن أهدقنا برسول الله حتى لا يمسه العدو، فاختصموا إلى النبي ﷺ، فأنزل الله الآية.

وصح عن رسول الله ﷺ أنه كان يقرأ في صلاة المغرب بسورة الأنفال في الركعتين^(٢).

(١) رواه عبد الرزاق في «المصنف» برقم (٩٤٨٣) عن الثوري وابن عساكر (٢٠/٢٥٠) وانظر حديث ابن عباس السابق.

(٢) يُنظر: حديث أبي أيوب عند الطبراني (٣٨٩٢) وحديث زيد بن ثابت عند الطبراني أيضًا (٤٨٢٤) كلاهما بسند صحيح كما قال الهيثمي فيهما «مجمع الزوائد» (١١٨/٢).

سُورَةُ التَّوْبَةِ (٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة التوبة هي السورة التاسعة في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، وعدد آياتها مئة وتسع وعشرون آية عند أهل الكوفة، ومئة وثلاثون آية عند غيرهم. وهي ألفان وأربع مئة وسبع وتسعون كلمة، وعشرة آلاف وثمان مئة وسبعة وثمانون حرفاً.

أَسْمَاءُ السُّورَةِ

وسورة التوبة لها أكثر من ستة عشر اسماً، أشهرها:

١- التوبة. ٢- وبراءة.

وقد جاء هذان الاسمان في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه في جمع القرآن، قال: فتبعت القرآن حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري رضي الله عنه ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ حتى خاتمة سورة براءة^(١).

وفي صحيح البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: آخر سورة نزلت كاملة سورة براءة^(٢). ولعل المقصود آخر سورة طويلة، وإلا فقد نزل بعدها سورة النصر في منى في حجة الوداع. وهذه تسمية لها بأول كلمة منها (براءة).

١- وسميت سورة التوبة؛ لأن الله تعالى أنزل فيها التوبة للذين تخلفوا عن غزوة تبوك، وأنزل فيها توبة المؤمنين الصادقين، وفيها أيضاً دعوة للمشركين للتوبة كما في أولها (فإن تابوا...).

٢- وسميت سورة براءة؛ لأن فيها البراءة من المشركين إلى يوم القيامة.

٣- وتسمى أيضاً السورة الفاضحة؛ لأنها فضحت أحوال المنافقين، وكشفت أسرارهم.

(١) «صحيح البخاري»، باب جمع القرآن برقم (٤٩٨٦).

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٤٣٤٦) وانظر: رقم (٤٦٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (١٦١٨).

كما في البخاري وغيره عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس رضي الله عنه: سورة التوبة، قال: التوبة هي الفاضحة، ما زالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبقِ أحدًا منهم إلا ذُكروا فيها^(١).

٤- وتسمى المخزية. أي التي أخزت المنافقين وأذلّتهم.

٥- والمنكّلة، لأنها نكّلتُ بالمنافقين.

٦- والمُبْعَثَةُ؛ لأنها كشفت من أسرار الناس.

٧- والمثيرة، لأنها أثارت ما انطوت عليه سرائر المنافقين.

٨- والمشدّدة، أي التي شددت على المنافقين الخارجين عن طاعة الله والرسول.

٩- والمدمّمة، أي المدمرة التي تعم المنافقين بعقاب.

١٠- والحافرة؛ لأنها تحفر عما في القلوب.

١١- والمدمّرة، التي أُنذرت المنافقين بالهلاك.

١٢- والمنقّرة، أي التي نقرت وأخرجت ما في صدور أهل النفاق.

١٣- والمقشّقة، أي: التي تُبرئ من الشرك والنفاق كإبراء المريض من علته.

١٤- والباحثة عن النفاق وأهله.

١٥- والمشرّدة. ١٦- وسورة العذاب.

عن حذيفة رضي الله عنه قال: يسمونها سورة التوبة وهي سورة العذاب، والله ما تركت واحدًا إلا نالت منه^(٢).

وهي سورة مدنية باتفاق، واستثنى بعضهم ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا﴾

(١) «صحيح البخاري» برقم (٤٨٨٢) و«صحيح مسلم» برقم (٣٠٣١).

(٢) الطبراني في «الأوسط» برقم (١٣٥٢) وفي «الكبير» (١٣٣٠) وابن أبي شيبة (٥٥٤/١٠) و«المستدرک»

(٣٣٠/٢) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٨/٧): ورجاله ثقات وأبو

عبدة برقم (٤٤٦) وإسناده حسن.

لِلْمُشْرِكِينَ ﴿١١٣﴾ فإنها نزلت لما وعد النبي ﷺ أبا طالب بالاستغفار له وهو في مرض الموت، كما سيأتي عند تفسير الآية.

عن عطية الهمداني قال: كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه: تعلّموا سورة براءة، وعلمّوا نساءكم سورة النور^(١).

ترك البسملة في أولها: وسورة براءة هي السورة الوحيدة في القرآن الكريم التي لا توجد البسملة في أولها، والقول الصحيح في ذلك: أن جبريل لم ينزل بالبسملة في صدر سورة براءة، فلم توجد فيها البسملة في المصحف لذلك، دون غيرها من السور، وموافقة رسم المصحف شرط في صحة القراءة، والأصل في ذلك التوقيف، وفي هذا دليل قاطع على وجوب قراءة البسملة في أول كل سورة عدا سورة براءة، سرًا في الصلاة السرية، والقراءة السرية، وجهرًا في الصلاة الجهرية، والقراءة الجهرية، على تفصيل فقهي في ذلك بالنسبة للصلاة، سبق ذكره في سورة الفاتحة.

ومما يُذكر في عدم ذكر البسملة في أول براءة:

١- أن من عادة العرب أنهم كانوا إذا كتبوا نقضًا للعهد حذفوا منه البسملة، ولمّا أرسل النبي ﷺ علي بن أبي طالب رضى الله عنه؛ ليقراً على المشركين نقض عهودهم لم يقرأ البسملة في أول براءة، جرياً على عادة العرب أنهم كانوا لا يذكرون البسملة في الوثيقة التي تُنقض فيها العهود.

عن عَسَّس بن سلامة قال: قلت لعثمان: يا أمير المؤمنين، ما بال الأنفال وبراءة ليس بينهما: (بسم الله الرحمن الرحيم)؟ قال: كانت تنزل السورة، فلا تزال تكتب حتى تنزل: (بسم الله الرحمن الرحيم)، فإذا جاءت: (بسم الله الرحمن الرحيم) كُتبت سورة أخرى، فنزلت الأنفال، ولم تكتب (بسم الله الرحمن الرحيم)^(٢).

(١) أبو عبيدة في «فضائل القرآن» ص ١٢٩ وما بعدها وسعيد بن منصور في «التفسير» (١٠٠٣) والبيهقي في «الشعب» (٢٤٣٧، ٢٤٥٢)

(٢) أخرجه الدارقطني في الأفراد، يُنظر: «علل الدارقطني» (٤٣/٣) مختصرًا على أوله، وانظر: «الدر المنثور» (٧/٢٢٤).

٢- وأيضًا: فإن المشركين في السنة السادسة من الهجرة عند كتابة صلح الحديبية مع رسول الله ﷺ لما أراد أن يكتب في بداية شروط الصلح: (بسم الله الرحمن الرحيم) قالوا: لا، نحن لا نعرف (الرحمن الرحيم)، ولكن اكتب: (باسمك اللهم)، فردّوا البسملة، ولم تُكتب في شروط صلح الحديبية، فلما نقض الله هذا الصلح كما جاء في مطلع سورة براءة لم يرّد عليهم البسملة التي ردّوها، فالله سبحانه لم يذكرها لهم في نقض العهد؛ لأنهم لم يقبلوها حين كتبت شروط صلح الحديبية.

٣- وقال علي بن أبي طالب لابن عباس ؓ: (بسم الله الرحمن الرحيم) أمانٌ وبشارة، و(براءة) نزلت بالسيف وبند العهود، فلذلك لم تبدأ بالأمان^(١).

٤- قال القرطبي: والصحيح أن التسمية لم تكتب؛ لأن جبريل ؑ ما نزل بها في هذه السورة^(٢). قلت: هذا هو الصواب.

- وقال الفخر الرازي: الصحيح أنه ﷺ أمر بوضع هذه السورة بعد سورة الأنفال وحيا، وأن حذف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ من أولها وحيا^(٣).

- وقال الجمل: لا مدخل لرأي أحد في الإثبات والترك، وإنما المتبع في ذلك هو الوحي والتوقيف^(٤).

فالقاريء يبدأ سورة التوبة بالاستعاذة ولا يبسم، وله أن يبسم بعد الاستعاذة في أثنائها، وإذا وصل آخر الأنفال بأول براءة فله أن يأتي بوجه من ثلاثة وجوه هي: وصل السورتين ببعضهما هكذا ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ ﴿٧٥﴾ بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ... ﴿٧٦﴾ أو يقف

(١) «تفسير ابن عطية» (٣/٣) وقد أخرجه أبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس كما في «الدر» (٧/٢٢٧).

(٢) «تفسير القرطبي» (٦١/٨) ويذكر المفسرون في ذلك حديثًا يُنسب إلى النسائي والترمذي عن يزيد الفارسي، وهو مجهول الحال، وفيه ما ينسب إلى عثمان ؓ أنه قال: إن النبي ﷺ قُبض ولم يبين موضع سورة التوبة من الأنفال، فقرنها عثمان بها، ولم تكتب البسملة في أولها. وهذا حديث لا يصح، قال عنه السيوطي في تدريب الراوي: عليه أمارات الوضع، وكلٌّ من الأنفال والتوبة سورة مستقلة، وبينهما زمن في النزول يقدر بسبع سنوات.

(٣) «تفسير الفخر الرازي» (٢١٦/١٥).

(٤) حاشية الجمل على «الجلالين» (٢٦١/٢).

مع التنفس على آخر الأنفال ثم يبدأ (براءة . .) أو يسكت على آخر الأنفال سكة خفيفة بدون تنفس ثم يبدأ (براءة . .) فهذه ثلاثة أوجه .

والأنفال والتوبة سورتان وإن لم تذكر البسملة في أول التوبة، وبينهما في النزول نحو سبع سنين، فقد نزلت سور الأنفال في السنة الثانية للهجرة، ونزلت سورة التوبة في السنة التاسعة للهجرة.

مناسبة سورة التوبة لما قبلها

وجاء ترتيب سورة التوبة بعد سورة الأنفال؛ لما بينهما من تناسب وتشابه في المعنى :

١- فقد أجملت سورة الأنفال عهود المشركين ونقضها، فهم الذين ينقضون عهدهم في كل مرة، وهم لا يتقون، وسورة التوبة فضّلت هذه العهود، ووضحت نقضها .

٢- وذكرت سورة الأنفال نقض العهد عند الخوف من خيانة الأعداء، ﴿وَأَمَّا تَخَافَتْ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَأَنذِرْهُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ [الأنفال: ٥٨] وبيّنت هذه السورة قتال المشركين وأهل الكتاب لخيانتهم .

٣- وذكرت سورة الأنفال صدّ المشركين للناس عن المسجد الحرام، وبيّنت هذه السورة أن المشركين ليس لهم أن يعمروا مساجد الله، وإنما يعمروهم المؤمنون بالله ورسوله .

٤- وذكرت سورة الأنفال وجوب إعداد العدة لقتال العدو، ونعت هذه السورة على المنافقين أنهم لو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدة .

٥- وقد ذكرت سورة الأنفال صفات المؤمنين في أولها، وذكرت صفات الكافرين بعد ذلك، وبيّنت حكم الولاية بينهم، وصرحت هذه السورة بوجوب البراءة من الكفار بالكلية .

٦- وكما تحدثت سورة الأنفال عن غزوة بدر تحدثت هذه السورة عن غزوة تبوك، وهكذا، كما ما بيّن السورتين من تشابه، وصور تاريخية .

وقت نزولها : وسورة براءة لم ينزل بعدها سورة كاملة إلا سورة النصر: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ وكان نزولها بعد سورة الفتح، وفيها نعي لرسول الله ﷺ بقرب وفاته، كما فهم ذلك الصديق رضوان الله تعالى عليه فبكى، وذكر أن الله جلّ شأنه نعى

رسوله للأمة، وبَيَّن أن الله تعالى أكمل له الدين، وأتم عليه النعمة، وتم له النصر، وفتح مكة، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فلم يبق إلا الاستغفار والتسبيح.

وقد سمع أعرابي سورة براءة فقال: أظنُّ هذه من آخر ما أنزل الله على رسوله، فقل له: لم تقول ذلك؟ فقال: أرى أشياء تُنقض وعهودًا تُنبذ.

وسورة التوبة نزل بعضها قبل غزوة تبوك، ونزل بعضها بعد الغزوة وفي أثنائها، وغزوة تبوك كانت في السنة التاسعة من الهجرة، وهي آخر غزوات النبي ﷺ، وكانت هذه الغزوة في شهر رجب، في شدة الحر، حين طابت الثمار، وفي أبعد سفر من المدينة وقتها، وهذا التاريخ من العام التاسع كان قبل وفاة النبي عليه الصلاة والسلام بخمسة عشر شهرا، وبعد اثنين وعشرين عاما من نزول الوحي على رسول الله ﷺ.

محتويات السورة: وكان نزول هذه السورة على النحو التالي:

١- من الآية الأولى إلى الآية الثامنة والعشرين في العلاقة بين المسلمين والمشركين.

٢- ومن الآية التاسعة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين في العلاقة بين المسلمين وأهل الكتاب.

٣- ومن الآية الثامنة والثلاثين إلى الآية الخامسة والأربعين في المتناقلين عن غزوة تبوك وفضح شأنهم.

٤- ومن الآية الثامنة والأربعين إلى الآية السادسة والستين في فضح المنافقين ومن ذلك، أكثر من نصف السورة في أماكن متفرقة.

٥- ومن الآية السابعة والستين إلى نهايتها صُنِّفَت الناس إلى: مهاجرين، وأنصار، وأعراب، ومنافقين، ومتخلفين، ومخلصين.

أبو بكر أمير على الحج عام نزول السورة:

فقد كانت غزوة تبوك في شهر رجب، ونزلت أول سورة براءة في آخر السنة التاسعة، أي: قُبيل موسم الحج، في آخر شهر ذي القعدة من السنة التاسعة من الهجرة، بعد أن خرج أبو بكر ﷺ من المدينة متوجهاً إلى مكة أميراً على الحج.

لماذا لم يحج الرسول ﷺ قبل العام العاشر؟

وكان النبي عليه الصلاة والسلام لم يؤدّ فريضة الحج إلى العام التاسع من الهجرة على أصح الأقوال، وعزم عليه الصلاة والسلام أن يحج قبل وفاته، ولكنه تذكّر أن هناك سببين يمنعه من الحج في العام التاسع من الهجرة:

السبب الأول: هو التقديم والتأخير الذي حصل في الأشهر، وهو ما يسمى بالنسيء ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾ [٣٧] وقد كان المشركون إذا أرادوا أن يستحلوا القتال في الأشهر الحرم آخروا فيها وقدموا، فترتب على ذلك أن يأتي شهر المحرم مكان شهر صفر، ويأتي شهر ذي القعدة مكان شهر ذي الحجة، أي: في غير موعده، فكان الحج في العام التاسع، في شهر ذي القعدة، ولذا خرج أبو بكر رضي الله عنه أميراً على الحج في هذا العام، وكانت وقفة عرفة في غير التاسع من ذي الحجة، وكان يوم النحر في غير العاشر من ذي الحجة، بل كان في شهر ذي القعدة.

ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام لمّا حج في العام التالي -أي: في السنة العاشرة- خطب في الناس في حجة الوداع، وقال: «ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض» ومعنى: استدار كهيئته، أي: جاءت وقفة عرفة يوم التاسع، وجاء يوم النحر في موعده يوم العاشر من ذي الحجة.

هذا هو السبب الأول الذي لم يجعل الرسول عليه الصلاة والسلام يخرج بنفسه للحج في العام التاسع.

والسبب الآخر: أن القرآن ظل يتنزل على رسول الله ﷺ، ويعامل أعداء الإسلام معاملة هيّئة، يسالم مَنْ سألّمه، ويدعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ومع أن الأصنام كانت قد حُطّمت من جوف الكعبة عام الفتح إلا أنه بقي من أعمال المشركين مخالفات، منها:

- ١- أنهم يخالطون المسلمين في الحرم.
- ٢- وأنهم يشركون في التلبية، فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك.
- ٣- ومنهم من يطوف بالبيت وهو عارٍ، ليس عليه شيء من الملابس.

٤- وكان بين النبي ﷺ وبين المشركين عهد لم يزل قائماً.

وكان ﷺ قد صالح قريشاً عام الحديبية على وضع الحرب عشر سنين فنقضوها.

ثم فتح الرسول ﷺ مكة في العام الثامن، وكان المشركون يطوفون بالبيت عرايا، ولذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام أرسل أبا بكر في العام التاسع من الهجرة أميراً للحج؛ ليظهر البيت من أعمال المشركين وليقيم للناس مناسك الحج، وبعث معه أربعين آية يقرؤها على الناس في الحج، ثم أردفه بعلي بن أبي طالب؛ ليقرأ على الناس من أول السورة إلى نهاية الآية الأربعين قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

نزول صدر سورة براءة لنقض عهد المشركين

ولما ذهب أبو بكر رضي الله عنه ووصل إلى ذي الحليفة أنزل الله سبحانه على رسوله ﷺ صدر سورة براءة، وفيها البراءة من المشركين.

والأمر بأن لا يدخل البيت الحرام بعد هذا العام مشرك ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ [٢٨]

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾ [١٧]

وألا يطوف بالبيت عريان.

وسورة براءة لم تنزل بالسيف كما يقال، وإنما ظل الإسلام طوال اثنين وعشرين عاماً ينزل بمثل هذه الآيات:

١- ﴿وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٍ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ وَمَا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ وَمِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس].

٢- وقوله: ﴿قُلْ لَا تَسْتَوُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا تَسْتَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [سبا]

٣- وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون].

٤- وقوله: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

٥- وقوله: ﴿فَدَجَاءَكُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ [الأنعام: ١١٤].

٦- وقوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِئٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩]

٧- وقوله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: ١٠٨].

بمثل هذه الآيات ظل الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ وكانت هذه هي السياسة المتبعة في معاملة أعداء الإسلام، ولكنهم رفضوا أن تشق الدعوة طريقها، فاشتبكوا مع الإسلام في قتال انتهى بهزيمتهم، ولكنهم لم يعترفوا بالواقع ولم يتراجعوا عن العدوان، وظلوا يستأنفون الغدر بالإسلام والفتك بأهله، فكان لا بد من تأديب العابثين وإلزامهم حدود الأدب، فصدرت البراءة من الله ورسوله ضد هذه القوى الظالمة، فالإسلام لم يتعسف معهم.

المَقَاصِدُ الإِجْمَالِيَّةُ لِسُورَةِ التَّوْبَةِ

أَوَّلًا: نَقْضُ عُهُودٍ مِّنْ نَّقْضِ الْعَهْدِ

عرضت السورة إلى عهود المشركين فوضعت لها حداً، وقطعت الولاية بينهم وبين المسلمين، ووضعت الأساس لقبول بعض أهل الكتاب في جزيرة العرب، وذلك في مثل قوله تعالى ﴿قَتَلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [الآية: ٢٩] فجعلت الآية دفع الجزية مشروطاً بذلك.

وألغت السورة العهود والمواثيق التي كانت بين الرسول ﷺ وبين اليهود، فليس من الحكمة أن يحتفظ الإسلام بعهود قوم نكثوها مرات ومرات؛ ومن ذلك عهد المشركين الذي أبرموه عام الحديبية مع رسول الله ﷺ ولم يلتزموا بما فيه.

وفي أثناء تأديب المعتدين يظهر أقوام لا يريدون قتالاً، ولا يفكرون فيه، فيأمر الإسلام بتأمينهم وطمأننتهم وإعادتهم سالمين إلى أرضهم ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة: ٦] وسماع كلام الله يتحقق بكل وسيلة من وسائل الدعوة والإسلام.

لقد أعطى الإسلام المشركين مهلة قدرها أربعة أشهر؛ ليرجعوا عن خطيئتهم، وأفهمهم

أن ذلك ليس عن ضعف، فلا تنخدعوا بقوتكم المزعومة؛ فإن الغدر له عواقب وخيمة، فكيف تُحفظ عهودهم، وهم لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة؟! ولذا لزم تأديبهم ﴿فَقَتِلُوا أَيْمَةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ﴾ [١٢]، وهم قوم نكثوا أيمانهم وهُمُوا بإخراج الرسول، وبدؤوا بالغدر والخيانة، وأسأؤوا للمسلمين مدة طويلة، تقترب من ربع قرن، وألحقوا بهم إهانات وجراحات، وملؤوا صدورهم غيظًا وحنقًا عليهم.

لقد عاملهم الإسلام خلال اثنتين وعشرين سنة بأرحم ما يعامل به البشر، وإزاء خيانتهم ونقضهم للعهود لم يكن بدًّا من إعلان البراءة منهم، ونبد عهودهم، وإمهالهم مدة ينتهي فيها وقت الأمان، مع بيان الأسباب التي دعت إلى البراءة منهم ووجوب قتالهم، ومن ثمَّ حرّضت المؤمنين على قتالهم، وبيّنت أنهم لا يحق لهم عمارة بيوت الله، ولا دخول حرم الله الآمن.

ووجهت السورة إلى ترك محبتهم، وبيّنت أن من يقدّم محبة الدنيا بما فيها ومن فيها على الجهاد في سبيل الله؛ فإن عاقبته وخيمة في الدنيا والآخرة.

وقد نعت السورة على المتكاسلين عن الجهاد وحذرّتهم من سوء العاقبة: ﴿إِلَّا نَفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٣٩) التوبة.

ثَانِيًا: مُعَامَلَةُ أَهْلِ الْكِتَابِ:

وبعد الهجرة إلى المدينة خاض المسلمون مع أعدائهم نحو ثلاثين غزوة وسريّة، فكم بلغت خسائر الأعداء في هذه المعارك؟ إنها لا تبلغ عُشر معشار مذبحه قانا، أو صبرا وشاتيلا، أو البوسنة والهرسك، أو العراق، أو فلسطين، أو أفغانستان، أو الجمهوريات الإسلامية تحت الحكم الشيوعي، أو ...، أو ... لم يُقتل من الأعداء في معارك الإسلام أكثر من مئتي قتيل، فإذا أضفنا إليهم يهود بني قريظة فإنهم لم يبلغوا الألف في تاريخ الغزوات، والسرايا النبوية.

والفتوحات العمرية في مصر والشام والعراق كانت في مواجهة احتلال دولتي الفرس والروم لهذه البلاد لتحرير شعوبها من الذل والاستغلال، حتى قضى الإسلام على نفوذ هاتين الدولتين في تلك البلاد وغيرها.

وكان الرومان قد أوصدوا باب الدعوة في شمال الجزيرة.

والإسلام لا يعترض طريق الآخرين الذين لم يعترضوا طريقه، ولا طريق الذين سالموكم ولم يقاتلوكم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا عَنْكُمْ فَلَمْ يَقْبَلُوا إِلَيْكُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدًا﴾ [النساء: ٩٠].

والجزية لم تُفرض على مُحايد ترك قتال المسلمين، ولم تُفرض على من انخرط في الجيوش التي تحمي الوطن، وشاركت في أمن البلاد والدفاع عنها، وإن كان مختلفاً في عقيدته، وإنما فرضت الجزية عليهم مقابل حمايتهم والدفاع عنهم وانتفاعهم بالأمن والأمان في بلاد المسلمين، وعدم مشاركتهم للمسلمين في الدفاع عن الوطن، فإن فعلوا ذلك فلا جزية عليهم.

ومحمد ﷺ قد بُعث هادياً، ولم يُبعث جايئاً، ولذا فقد نَصَبت موارد الخزانة من طريق الجزية لكثرة من دخلوا في دين الله من مصر وخراسان وأقطار أخرى، ولم يبقَ للجزية وجود، كما هو الحال في شأن الأرقاء.

وكما انتهت الوثنية في الجزيرة فقد خرج اليهود من آخر معاقلهم في خير سنة سبع من الهجرة، وجاء وفود النصراني إلى المدينة يستمعون إلى الوحي الجديد، فأسلم بعضهم وانشرح صدره، ومنهم من لم يُسلم، حتى طلب النبي ﷺ منهم المباهلة فأبوا ودفعوا الجزية.

ومع أن الإسلام كان الصوت الوحيد الذي بشر بنصر الروم على الفرس مرة أخرى بعد هزيمتهم، وأنه أمر المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة، فقد كان الإسلام واضحاً كل الوضوح في إنكار التثليث، ورفض ألوهية عيسى أو بنوته، واعتبر عيسى وأمه وجبريل من عباد الله الصالحين، مع التأكيد على نبوة عيسى ﷺ.

وكان مما نزل من ذلك في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُفَعَتُهُمْ أَزْكَاءَ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢١٦).

ثَالِثًا: الْكَشْفُ عَنْ نَوَايَا الْمُنَافِقِينَ:

فقد فضحت السورة المنافقين وأخزتهم، وأظهرت ما تنطوي عليه نفوسهم، وبيّنت مسالكهم الخبيثة، وصفاتهم الذميمة في مجالات كثيرة، منها:

- ١- الفرار من مواطن الجد والجهاد، والتعلل بالأعذار الكاذبة، والتستر بالأيمان الفاجرة، كقوله تعالى عنهم: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ﴾ [٤٢] وقوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَرْذَنَ لِي وَلَا نَفْتِي﴾ [٤٩] وقوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ [٨١].

- ٢- إشاعة الفتنة بين صفوف المجاهدين متى وُجدوا، وأينما حلّوا ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعِفُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمْعُونُ لَهُمْ﴾ [٤٧].

- ٣- محبة السوء للمسلمين، وكراهية الخير لهم ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [٥].

- ٤- التظاهر بالإسلام تقيّة وجُبْنًا عن التصريح بالكفر ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ﴾ [٥٦].

- ٥- طعنهم في جناب النبي ﷺ عند قسمة الأموال، وتوزيع الصدقات لإشاعة التهم الباطلة ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْتَخْطُونَ﴾ [٥٨].

- ٦- وصفهم للرسول ﷺ بأنه يستمع إلى كل ما يقال له دون تثبّت ﴿وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [٦١].

- ٧- استهزاؤهم بالإسلام وأهله، واعتذارهم بأنهم لم يكونوا جادين ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ [٦٥].

- ٨- سخريتهم من فقراء المسلمين الذين يتصدّقون بما لديهم من القليل ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ [٧٩].

- ٩- نقضهم للعهد، وبخلهم بالمال، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ﴾ [٧٥، ٧٦]

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ [٥٣].

١٠- خداع المسلمين للإضرار بهم، والتفريق بينهم في إقامة مسجد الضرار وغيره. ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْكَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الآية: ١٠٧]

وهكذا رسمت السورة المنهج الذي يسير عليه المسلمون مع غيرهم في الداخل والخارج، إلى جوار الحديث عن الزكاة ومصارفها، وقصة الثلاثة الذين خُلِفُوا، والكلام عن الأشهر الحرم، والتأخير والتقديم فيها، ووجوب طلب العلم.

ثم تحدثت السورة قُرب نهايتها عن المؤمنين الصادقين الذين باعوا أنفسهم لله بجنة عرضها السموات والأرض، وأمرتهم ألا يستغفروا للمشركين، وأن يكابدوا الشدائد في جهاد الأعداء، وحكمت على المتخلفين عن الغزو في سبيل الله، فمنهم المنافقون، ومنهم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ومنهم المرجون لأمر الله.

وخُتمت السورة بالثناء على رسول الله ﷺ فوصفته بالرفقة والرحمة ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١٢٩)

سُورَةُ يُونُسَ (١٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يونس هي السورة العاشرة في ترتيب المصحف، والحادية والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الإسراء، وقبل سورة هود، سنة إحدى عشرة من البعثة غالباً، وهي مئة وعشر آيات عند أهل الشام، ومئة وتسع آيات عند بقية علماء العدَدِ، وهي ألف وثمان مئة واثنان وثلاثون كلمة، وتسعة وتسعون حرفاً.

وقد انفردت هذه السورة بأن قوم يونس لما آمنوا قبل نزول العذاب بهم؛ عفا الله عنهم، ورفع عنهم العذاب.

وسُمِّيت سورة يونس لهذه الخصوصية، وإلا فقد ذُكِرَ يونس عليه السلام في آيات أخرى، في سور: النساء والصفات وغيرها، وجاء ذكره هنا في آية واحدة من السورة.

وسورة يونس والسورتان بعدها (هود ويوسف) من السور التي نزلت على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، فهي تُخاطب مشركي مكة وقتها، وتُخاطب الكفار والمشركين إلى يوم الساعة، وأحسب أن القول بمدنيّة بعض آياتها ناشئ عن ظن أن ما في القرآن من مجادلة أهل الكتاب لم يَنْزِلْ إلا بالمدينة، وهو قولٌ ليس على إطلاقه، وفي هذه السور الثلاث قَصَصٌ من القرآن الكريم، وفيها المهمة الأساس التي يتعرض لها القرآن الذي نزل في مكة، وهو يعالج ثلاث قضايا:

الأولى: قضية الإيمان بالوحي المنزّل من السماء، وأن هذا القرآن من عند الله سبحانه، أنزله على رسوله محمدٍ ﷺ، وهذه هي قضية الوحي والرسالة.

والثانية: قضية تصحيح العقيدة، فقد كان المشركون يعترفون بوجود الله سبحانه، وأنه الخالق الرازق، ولكنهم يعبدون أصناماً يزعمون أنها تشفع لهم عند الله سبحانه، وأنها تقربهم من الله، فالقرآن المكيّ يُصَحِّحُ العقيدة، وبقيم الأدلة والبراهين العقلية والنقلية على أن الله سبحانه خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، وهو وحده جل شأنه الذي تُصرف إليه العبادة دون سواه.

والثالثة: قضية الإيمان بالبعث بعد الموت، والحساب والجزاء على الأعمال من جنة أو نار.

هذه القضايا الثلاث، هي المحور الأساس الذي تدور حوله السور المكية، أو القرآن المكي.

وسورة يونس ستة أثمان، أو ستة أرباع، يقال: ربع الحزب، أو ثمن الجزء؛ في الربعين الأخيرين منها طَرَف من قصة يونس عليه السلام.

وسُميت السورة باسمه؛ لذكره فيها، والأربعة أرباع الأولى من السورة تتناول القضايا الثلاث التي تحدثت عنها، وهي السورة المكية الثالثة في ترتيب المصحف، وقبلها سورتا الأنعام والأعراف مكيتان، وما عدا ذلك ممّا سبق فهي سور مدنية.

قضايا السورة: وبعد بدء سورة يونس ببعض حروف الهجاء، أشارت إلى القرآن الكريم في أول آية منها، وأتبع ذلك بإثبات رسالة محمد عليه السلام، ومن ثمّ إلى توحيد الله سبحانه، وانفراده بالخلق، ثم بإثبات البعث والحشر والجزاء، وهذه الثلاثة هي أصول الشرك، ومقاصد السور المكية.

وقد تخلل ذلك قيام الدلائل على كل منها، والتذكير بما حلّ بالقرون المشركة بالله تعالى، المكذبة لرسول الله صلوات الله عليهم أجمعين، والاعتبار بآثار القدرة الإلهية في البر والبحر، مع ضرب المثل بالحياة الدنيا، واختلاف أحوال الناس في الآخرة، وإثبات أن القرآن مُنزّل من عند الله سبحانه، وإنذار المشركين، وتبشير المؤمنين، والاعتبار بما حَدَث للأمم السابقة؛ من قوم نوح، وموسى، وهارون... إلخ.

وبعد ذكر مصارع الظالمين يُلفِت القرآن نَظَرَ أمةٍ محمد عليه السلام إلى الاستفادة بما حدث لمن قبلهم ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ [يونس].

وتدعو السورة الناس جميعاً إلى الإقبال على الله تعالى، والدخول في مظلة خاتم الرسل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ [يونس].

وهاتان الآيتان من السورة توضحان أن هداية الإنسان تعود عليه، وضلاله يعود عليه ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [الآية: ١٠٨].

وعلى الرسول ﷺ وكل داعية إلى الله تعالى أن يصبر على جهود الدعوة، ويتحمل الأذى في سبيل الله، فإن مصيره إلى خير، وفصل القضاء في صالحه ﴿وَأَصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الآية: ١٠٩].

وقد رفض بعض الناس هداية القرآن كما في قوله تعالى من السورة: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَأْتِنَا بِشُرَءٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ﴾ [الآية: ١٥]

أي: قل يا محمد، كلاماً آخر تمدح فيه آلهتنا، وتقر في أحوالنا وتقاليدنا.

والجواب: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَايَ نَفْسِي﴾ [الآية: ١٥].

ويبين لهم الرسول ﷺ أنه قد مكث فيهم أربعين سنة دون أن يتلوا عليهم وحياً، أو يصحح لهم ديناً ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الآية: ١٦].

ويرد القرآن عليهم في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ﴾ [الآية: ٣٩]

وفصل القرآن تكذيبهم هذا في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ (٤١) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بِرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٤٢) وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الْأَعْمَى وَلَوْ كَانَُوا لَا يَعْقِلُونَ (٤٣) وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْأَعْمَى وَلَوْ كَانَُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٤) [يونس].

لقد كابر أهل مكة وقاوموا الإسلام مقاومة شديدة من أول ظهوره، وقادوا المعركة ضده نحو عشرين سنة، ثم دخلوا فيه بعد ذلك، وأخلصوا له أشد الإخلاص، وحملوا لواءه، وحموا كعبته.

والسبب في ذلك أن القرآن نزل عليهم يُحرِّك عقولهم، ويشغل فكرهم، ويدفعهم بقوة نحو ربهم.

ومن العجيب أن العلمانيين والملاحدة والماديين، لم ينتفعوا بما انتفع به عبدة الأوثان والأصنام؛ ذلك أن الناس في أورباً وأمريكا وأمثالهم هنا وهناك حيث تمتد الحضارة المادية المعاصرة، لا يهتمون بالله تعالى ولا ببلقائه، إنهم يعملون للحياة المادية فحسب ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (٧) [الروم].

لم يكلف هؤلاء أنفسهم النظر في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [الآية: ٣]

ولا في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ فَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ [الآية: ٣١].

إِنَّ الْمُزَارِعَ يَضَعُ حَبَّةً فِي الْأَرْضِ؛ فَتُخْرِجُ أَلْفَ حَبَّةٍ، فَمَنْ يَنْبُثُ مِنَ الطِّينِ كَرِيمَ الطَّعْمِ وَالرَّائِحَةِ مِثْلَ قَصَبِ السَّكَّرِ، وَأَصْنَافِ الْفَاكِهَةِ، وَالْوَلَوَانِ الْحُبُوبِ وَالْخَضِرَاوَاتِ؟ وَمَنْ يَحْوِلُ ذَلِكَ إِلَى أَزْهَارٍ وَوُرُودٍ تَفُوحُ مِنْهَا رَائِحَةُ الْعُطُورِ؟ ﴿فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ﴾ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴿[الآية: ٣٢].

إِنَّ الْإِنْسَانَ تَمُرُّ بِهِ أَيَّامٌ وَسَاعَاتٌ عَصِيبَةٌ، يَغْتَصِرُ فِيهَا أَلَمًا وَعُجْزًا وَحُزْنًا؛ فَيَهْرَعُ طَالِبًا النُّجْدَةَ مِنَ الْكَرُوبِ؛ فَإِذَا انْكَشَفَ هَمُّهُ وَغَمُّهُ؛ فَتَرَتْ حَرَارَتَهُ وَنَسِيَ مَنْ كَانَ يَدْعُوهُ ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى صُرِّ مَسْمُومٍ﴾ [الآية: ١٢].
﴿فَلَمَّا أَنْجَلْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الآية: ٢٣].

هذا هو الإسلام، يربط العبد بربه، ويبعده عن الشرك، ويعلق رغبته ورهبته بالله، ويجعله يتعامل مع الناس على هذا الأساس، وإلى هذا دعا نوح، وهود، ويونس، وموسى، وهارون أقوامهم.

سُورَةُ هُودٍ (١١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة هود هي السورة الحادية عشرة في ترتيب المصحف، والثانية والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يونس وقبل سورة يوسف، وهي في المصحف الكوفي مئة وثلاث وعشرون آية^(١)، وهي ألف وست مئة كلمة، وتسعة آلاف وخمسة مئة وسبعة وستون حرفاً.

وسميت سورة هود؛ لتكرار لفظ هود فيها خمس مرات.

وهي سورة مكية، واستثنى ابن عطية ثلاث آيات ﴿فَلَمَّا كُنَا نَارُكُ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ [١٢] و﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ [١٧] فقد نزلت في عبد الله بن سلام، و﴿وَأَقْرِصْ أَلْصَلَوَةَ﴾ [١١٤] نزلت في أبي البسر^(٢).

والصحيح أن السورة كلها مكية، نزلت بعد رحلة الإسراء والمعراج تسليّة للنبي ﷺ في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الدعوة التي لقي فيها النبي ﷺ ألواناً من الأذى والاضطهاد.

وذلك أنه بعد بدء الدعوة الإسلامية في مكة المكرمة بأكثر من عشرة سنوات، ماتت أم المؤمنين خديجة رضي الله تعالى عنها، ومات أبو طالب عم النبي ﷺ، وكان لهما منزلة في نفوس المشركين، يُمنع بسببها الأذى عن رسول الله ﷺ، وُسُمي هذا العام بعام الحزن، وامتدت أيدي المشركين بالأذى للنبي ﷺ بعد موتهما، وتعثّرت الدعوة، حتى نثر بعضهم التراب على رأسه الشريفة، ودخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته وأخذت تنفضه عنه وهي تبكي، فيقول لها: «لَا تَبْكِي فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ أَبَاكَ»^(٣).

وكان ذلك قبل أن يفتح الله على رسوله ببيعة العقبة الأولى والثانية، وقبل أن تبدأ ملامح

(١) ومئة وإحدى وعشرون آية في العدد المكي والبصري والمدني الأخير، ومئة واثنان وعشرون آية في المدني الأول والشامي.

(٢) «تفسير ابن عطية» (٣/١٤٨).

(٣) ذكره ابن إسحاق في «السيرة» عن عروة بن الزبير. قال الألباني: أخرجه ابن إسحاق بسنده الصحيح عن عروة بن الزبير، وهو حديث مرسل (دفاع عن الحديث النبوي ص ٢٠).

الهجرة، فكانت رحلة الإسراء والمعراج في هذا الوقت ترويحًا وتسليّةً للرسول الكريم.

وقبل ذلك أرسل الله تعالى له عالمًا آخر، هو عالم الجن، يؤمن به، عوضًا عن الذين كذبوه من الإنس، وأنزل الله تعالى في هذه الفترة سورة الفرقان وسورة الإسراء، وسورة يونس، وأنزل بعدها سورة هود.

ونقل ابن عطية أن سورة هود نزلت قبل سورة يونس؛ لأن التحدي في سورة هود وقع بعشر سور، وفي سورة هود وقع بسورة واحدة.

وفي السورة تفصيلٌ لسبع من قصص الأنبياء والمرسلين؛ وهم: نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى، عليهم جميعًا أفضل الصلاة وأتم السلام، وفي هذه القصص بيان صبر الأنبياء على أذى أقوامهم، وفيها العبرة والعظة بهلاك الأمم التي كذبت رسلها.

ففي كل قصة يذكر الله تعالى ما حدث فيها من العناد والتكذيب لرسول الله، ويبين سبحانه مصير الأمة المكذبة.

وفي نهاية القصة يعقب الله تعالى عليها لرسوله ﷺ أن يصبر ويتحمل، فهذا حال من سبقوك من الرسل، صبروا وأوذوا، فليكن لك فيهم عبرة وحكمة، تثبت فؤادك، وتقوي عزيمتك.

وفي الربع الأول من سورة هود مقدمة لما فيها من القصص القرآني، تبين الأساس الأول الذي من أجله أرسل الله تعالى الرسل جميعًا؛ وهو توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

وفي الربع الأخير من السورة يعقب سبحانه على كل ما جاء فيها من قصص.

ثم يُقسّم الله تعالى الناس إلى صنفين: أهل شقاء، وأهل سعادة، ويبين مصير كل منهم في الدار الآخرة.

وتتكون السورة من ثلاثة عناصر رئيسة:

العنصر الأول: يتضمن جانب العقيدة والعبادة، وهو يشغل حيّزًا محدودًا في مقدمة السورة وفي نهايتها، وفي بداية كل قصة فيها.

العنصر الثاني: العرض التاريخي لسبعة من رسل الله وأنبيائه مع أقوامهم، وهو يشغل معظم السورة.

العنصر الثالث: التعقيب على كل قصة منها، وهو يشغل حيزًا محدودًا من السورة.

وقد ابتدأت السورة بالإشارة إلى أن علاج قضايا البشر، وحلّ مشكلاتهم لا يكمن في الحضارة العمرانية، والصناعية، والتجارية، ولا في سباق التسلح بأنواعه مجردة عن الإيمان، فإن الحضارات المادية سرعان ما تهوي وتسقط، ما لم تأخذ بما جاء في مطلع هذه السورة ﴿أَلَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [٢] ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [٣].

فإن في العبادة والتوبة: المتاع الحسن، والوصول إلى أفضل المنازل ﴿وَإِنْ قُلُوا فَإِنَّ خَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ [٣] وفي هذا ترغيبٌ للناس في الطاعة، وتحذيرٌ لهم عن المعصية؛ ولذا فإن كل رسول من الرسل الذين جاء ذكرهم في السورة قال لقومه أول ما قال: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [٥، ٦١، ٨٤].

وفي ثانيا السورة بعد المقدمة وقبل الخاتمة يأتي قصص الأنبياء والمرسلين، بدءًا بقصة نوح أبي البشر الثاني، ثم بقصة هود التي سميت السورة باسمه، ثم تلتها قصة صالح، ثم قصة لوط، ثم قصة شعيب، ثم قصة موسى ﷺ.

وإلى هذا القصص يشير قوله تعالى في نهاية السورة: ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [١٢].

وفي التعقيب على قصة نوح يقول سبحانه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَذَابَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [٤٩].

وفي التعقيب على قصة هود يقول سبحانه: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [٥٩].

وفي التعقيب على قصة صالح يقول سبحانه: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جِثِيمٌ ﴿٧﴾ كَانُوا يَنْفَتُونَ فِيهَا﴾ [٦٧، ٦٨].

وفي التعقيب على قصة لوط يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰهَا سَافِلَهَا﴾ [٨٢].

وفي التعقيب على قصة شعيب يقول سبحانه: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيرِهِمْ جِثِيمٌ لَا كَانَ لَمْ يَنْفَتُوا فِيهَا﴾ [٩٤، ٩٥].

وفي التعقيب على هذا القصص كله يقول جل ذكره: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْفُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [١٠٠، ١٠١].

وبعد ذلك تناول السورة جانبًا هامًا من الحديث عن يوم القيامة، فهو يوم مجموع له الناس، وهو يوم مشهود، وله موعد محدود، وهو يوم لا تسمع فيه إلا همسًا ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾ [طه: ١١١].

والناس فيه إما سعداء مخلَّدون في الجنة، وإما أشقياء مخلَّدون في النار، ومن أسباب السعادة: الاستقامة، وعدم السير في ركاب الظلمة، والمحافظة على أداء الصلاة في أوقاتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وسورة هود تستعرض مسيرة الدعوة الإسلامية في التاريخ البشري كله، من لدن نوح إلى محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وتبين أنها قامت على التوحيد الخالص، وإفراد الله تعالى بالعبادة، إلى جوار مهام الشُّور المكية من غرس الإيمان بالوحي والرسالة في قلوب الناس، وكذا الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب، وجزاء على الأعمال، من جنة أو نار.

وعناصر القرآن المكي تبدو واضحة في السورة؛ فعنصر الوحي والرسالة يوجد في مثل هذه الآيات ﴿كَتَبَ أُعْكَمْتُ﴾ [١١] ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ [١٣].

وقال سبحانه تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [١٤].

وعنصر الإيمان باليوم الآخر جاء في مثل قوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [٤].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنْ الْأَحْزَابِ فَأَلْتَارُ مَوْعِدُهُ﴾ [١٧].

وقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ [١٦] وهذا في الربع الأول من السورة.

أما قبل نهاية السورة ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [١٠٣] ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ سُفٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [١٠٥].

﴿وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَنَمَسْكُمْ النَّارُ﴾ [١١٣] ﴿وَالَّذِينَ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلَّهُ﴾ [١٢٣].

أما عنصر التوحيد وإخلاص العقيدة فقد جاء في مثل قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا يُيْرَتُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [٥] ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ [٧].

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [١١٨].

١- وقد ورد في سورة هود آثار؛ منها قول أبي جحيفة للنبي ﷺ: نراك قد شئت؟ قال: «شيتني هود وأخواتها»^(١).

٢- وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، لقد أسرع إليك الشيب، فقال: «شيتني هود، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»^(٢).

٣- وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رجلاً قال للنبي ﷺ: قد شئت؟ قال: «شيتني هود وأخواتها»^(٣).

ولعل ذلك بسبب ما في السورة من ذكر أحوال القيامة ومصارع الظلمة والمكذبين.

وقد تطرق المفسرون إلى بيان السبب الذي شيب النبي ﷺ في سورة هود؛ فقال بعضهم: الأمر له بالاستقامة الوارد في السورة في قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَقِمَّ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [١١٢] وقال بعضهم: الذي شيبه ﷺ هو ما فيها من مصارع الظالمين وإهلاكهم.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: ولعل ما فيها من عودة الضمائر إلى رسول الله ﷺ، وكثرة الخطاب والتوجيه للرسول ﷺ - هو الذي شيبه، فإنك قد تجد في الآية الواحدة أكثر من ضمير، ففي قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضُ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾ [١٢]^(٤) ثلاثة ضمائر متصلة، وضمير منفصل.

فهذه أربعة ضمائر في آية واحدة، وهكذا يتكرر الضمير عشرات المرات في السورة حتى آخر آية منها ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [١٢٣] وهو قول له وجاهته.

فالله تعالى يوجه رسوله في هذه السورة كثيراً، ويعلمه ويؤدبه ويقول له: اصبر وتحمل كما فعل غيرك من الرسل.

(١) أبو يعلى عن أبي جحيفة (٨٨٠) وإسناده ضعيف؛ حيث إن علي بن صالح متأخر السماع من أبي إسحاق السبيعي، ورواه الطبراني (٣١٨) وابن عساكر (١٧٣/٤) والحكيم الترمذي، وله شواهد كثيرة من طرق متعددة تقويه.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٠٠٩١) وفي «الأوسط» (٧٩٠) وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، ينظر: «مجمع الزوائد» للهيتمي (٤٠/٧) وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣٢٩٧) وصححه الحاكم (٣٤٧/٢) على شرط البخاري ووافقه الذهبي، وهو عند ابن عساكر (١٧٢/٤) والدارقطني في «العلل» (١٩٣/١) والبيهقي في «الشعب» (٧٧٦)، وصححه الألباني عن ابن عباس في صحيح الترمذي (٢٦٢٧) وفي السلسلة (٩٥٥).

(٣) الطبراني (٧٩٠) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٧/٧): رجاله رجال الصحيح.

(٤) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، سورة هود.

سُورَةُ يُوسُفَ (١٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يوسف ﷺ هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف، والثالثة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر، وهي مئة وإحدى عشرة آية باتفاق، وألف وتسع مئة وست وتسعون كلمة، وسبعة آلاف ومئة وستة وسبعون حرفاً، وهي سورة مكية، اشتملت على قصة يوسف كاملة، ولم تتكرر في القرآن.

ويوسف هو ابن يعقوب بن إسحاق من زوجه (راحيل)، وهو أحد الأسباط الاثني عشر الذين تشعبت منهم قبائل بني إسرائيل.

أسماء الأسباط: والأسباط: هم روبيل، وشمعون، ولاوى، ويهوذا، ويساكر، وزبولون (وهؤلاء أهمهم ليثة)، ويوسف، وبنيامين (أهمها راحيل)، ودان ونفتالي (أهمها بلهة)، وجاد وأشير (أهمها زلفة)^(١).

يوسف ﷺ: وكان يوسف أحب أبناء يعقوب إليه، وكان هذا سبب غيرة إخوته منه، وتديبرهم المكائد له، ومنها إلقاءه في الجُب، ثم التقطه أناس من العرب الإسماعيليين وهم في طريقهم إلى مصر، وباعوه رقيقاً في سوق العاصمة المصرية للوجه البحري، وكان ذلك في زمن الهكسوس، في حدود سنة تسع وعشرين وسبع مئة وألف قبل الميلاد، فاشتراه رئيس شرطة فرعون (أي: رئيس المدينة) الملقب بالعزيز.

وبسبب رؤيا رآها الملك وعبرها يوسف، قرّبه المَلِكُ إليه، وزوّجه (أسنات) بنت أحد الكهنة، وعمره يومئذ ثلاثون عاماً، وولّاه على جميع أرض مصر، وفي فترة حكمه جلب أباه وأقاربه من بادية الشام إلى مصر، وكان ذلك سبب إقامة بني إسرائيل في مصر، إلى أن خرجوا منها نهائياً مع نبيهم موسى ﷺ.

وتوفي يوسف ﷺ بمصر في حدود سنة خمس وثلاثين وست مئة وألف قبل الميلاد، وكان قد أوصى قبل موته، أنهم إذا خرجوا من مصر يأخذون جسده معهم، وكانوا قد

(١) «تفسير التحرير والتنوير» (١/ ٧٣٢).

حَنَطُوهُ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمِصْرِيَّةِ، وَوَضَعُوهُ فِي تَابُوتٍ، وَلَمَّا خَرَجَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنْ مِصْرَ حَمَلُوهُ مَعَهُمْ، وَدَفَنُوهُ فِي (شَكِيم) فِي مَدَةِ يَوْشَعَ بْنِ نُونٍ.

وُصِفَتْ قِصَّةُ يُوسُفَ ﷺ فِي الْقُرْآنِ بِأَنَّهَا أَحْسَنُ الْقِصَصِ؛ لِمَا فِيهَا مِنَ الْعِبَرِ وَالْحِكَمِ وَالْفَوَائِدِ.

قَالَ خَالِدُ بْنُ مَعْدَانَ: سُورَةُ يُوسُفَ وَسُورَةُ مَرْيَمَ يَتَفَكَّهُ بِهِمَا أَهْلُ الْجَنَّةِ فِي الْجَنَّةِ.

وَقَالَ عَطَاءٌ: لَا يَسْمَعُ سُورَةَ يُوسُفَ مُحْزُونٌ إِلَّا اسْتَرَّاحَ إِلَيْهَا^(١).

وَهِيَ الْقِصَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي ذُكِرَتْ مُتَكَامِلَةً فِي سُورَةٍ وَاحِدَةٍ.

نزول السورة: وَقَدْ نَزَلَتْ سُورَةُ يُوسُفَ فِي عَامِ الْحُزْنِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَبُو طَالِبٍ عَمُّ النَّبِيِّ ﷺ، وَمَاتَتْ فِيهِ زَوْجَتُهُ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَاشْتَدَّ كَرْبُ النَّبِيِّ وَوَحْشَتُهُ، وَاشْتَدَّ إِذْيَاءُ الْمُشْرِكِينَ لَهُ فِي الْفَتْرَةِ قَبْلَ بَيْعَةِ الْعُقْبَةِ الْأُولَى وَالثَّانِيَةِ.

وَقَدْ نَزَلَ قَبْلَ سُورَةِ يُوسُفَ سُورَةُ هُودَ وَيُونُسَ بِمَا فِيهِمَا مِنَ الْقِصَصِ الْقُرْآنِيِّ؛ تَسْلِيَةً لِقَلْبِ الرَّسُولِ ﷺ، وَبَيَانًا لِلْعِبَرَةِ وَالْعِظَةِ مِنْ هَذَا الْقِصَصِ، فَضْلًا عَمَّا فِيهِ مِنَ الْحَثِّ عَلَى الصَّبْرِ، كَمَا صَبَرَ مَنْ سَبَقَهُ مِنَ الرُّسُلِ.

ابتلاءات يوسف: وَقَدْ ابْتُلِيَ يُوسُفَ ﷺ بَعْدَ ابْتِلَاءَاتٍ؛ مِنْهَا: كَيْدُ إِخْوَتِهِ لَهُ، وَالْقَاوَةُ فِي الْجَبِّ، وَبَيْعُهُ رَقِيقًا، وَهُوَ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَأَبُوهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَجَدَهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَجَدَهُ الْأَعْلَى خَلِيلُ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِمْ جَمِيعًا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَقَدْ قَالَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ»^(٢).

لَقَدْ بَاعَ يُوسُفَ سَلِيلُ الْأَنْبِيَاءِ عَبْدًا رَقِيقًا، وَالَّذِينَ بَاعُوهُ كَانُوا زَاهِدِينَ فِيهِ، كَأَنَّهُ حَمْلٌ ثَقِيلٌ، وَانْتَقَلَ ابْنُ الْأَنْبِيَاءِ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ؛ لِيَعْمَلَ فِيهِ خَادِمًا، وَيُوَاجِهَ أَنْوَاعًا مِنَ الْابْتِلَاءَاتِ.

(١) «حاشية الصاوي على الجلالين» (٢/٢٣٣).

(٢) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْمَنَاقِبِ، بَابُ مَنْ انْتَسَبَ إِلَى آبَائِهِ فِي الْإِسْلَامِ وَالْجَاهِلِيَّةِ، وَفِي كِتَابِ التَّفْسِيرِ بِرَقْمِ (٤٦٨٨) وَرَاجَعَ (٣٣٨٢، ٣٣٩٠) وَهُوَ فِي «الْمُسْنَدِ» (٥٧١٢) بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ وَرِجَالُ ثِقَاتٍ (مُحَقَّقُوهُ) وَ«صَحِيحُ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ» (٢٤٩٠) وَالْحَاكِمِ (٣٤٦/٢)، وَالْبَغْوِيُّ فِي شَرْحِ السَّنَةِ (٣٥٤٧).

وقد ابتلي يوسف -أيضاً- بالفتنة والشهوة من امرأة العزيز، وابتلي بالسجن، وابتلي بالسلطان، والرخاء بعد الشدة، وتولى وزارة الخزانة في مصر، وابتلي بملاقاته لإخوته. والله تعالى يقص للنبي ﷺ ذلك ويقول له: هذا نبي الله يوسف، قد حدث له ما حدث، فاصبر وتأس به.

ويوسف الصديق هو أصغر أبناء يعقوب عليهما السلام، وقد أنجب يعقوب اثني عشر ولداً، هم الأسباط، وأصول عشائر بني إسرائيل، منهم ستة أولاد من زوجته الأولى، ابنة خاله (ليا بنت ليان)، وبعد أن توفيت تزوج يعقوب بأختها (راحيل) وأنجب منها بنيامين ويوسف، وهو أصغر الأبناء، والأربعة الباقون أبناء جاريتين له، اسمهما (زلفة وبلهة).

نبوة يوسف عليه السلام: ذكر يوسف ﷺ في السورة التي سميت باسمه أربعاً وعشرين مرة، وذكر مرة واحدة في سورة الأنعام في الآية [٨٤] ومرة أخرى في سورة غافر في الآية [٣٤] وهو أحد الأسباط، وليس من أبناء يعقوب -على الصحيح- نبي مرسل إلا يوسف عليه السلام، والبقية من أبنائه لم يكونوا أنبياء؛ لأن النبوة لا يستقيم معها التآمر على القتل، وهؤلاء الإخوة تأمروا على قتل يوسف وإلقائه في البئر، وهذه الأفعال تتنافى مع عصمة النبوة، وليس هناك من دليل قطعي على أن أبناء يعقوب كانوا أنبياء، إلا ما يُستدل به من قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ﴾ [البقرة: ١٣٦] ومثلها في [آل عمران: ٨٤] فيستدل بعضهم بهذه الآية على أن الأسباط من الأنبياء، ويوسف من الأسباط، والصحيح أن الآية لا تعني الأبناء الاثني عشر، ولكن تعني الأنبياء من بني إسرائيل، وكانوا كثرة، فالمراد بالأسباط (شعوب بني إسرائيل)، وفيهم أنبياء كثيرون.

لقد حظي يوسف بميراث النبوة عن أبيه وأجداده دون إخوته، وهو أصغرهم، وقد ساق الله إليه هذه البشرى في رؤيا رآها وهو صغير، وخشي عليه أبوه من إخوته الذين حقدوا عليه وطاردوه؛ حتى ألقوه في بئر بين الموت والنجاة، وقد أعلمه الله تعالى أن هؤلاء الإخوة المتآمرين عليه سيقفون بين يديه يوماً؛ ليوبخهم على ما صنعوا ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِآمْرِهُمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [١٥] وقد تحقق ذلك بعد أربعين عاماً، يوم أن دخلوا عليه -وهو على خزائن مصر- يطلبون منه الصدقة، ويقولون له: ﴿مَسْنَا وَأَهْلْنَا أَفْئُرُ﴾ [٨٨]

فعرّفهم وهم له منكرون، لقد خرج يوسف من قعر الجب إلى سُدة الحُكم وتدير شؤون الدولة، فما أعجب أقدار الله!!

موضوعات سورة يوسف:

وبعد افتتاح سورة يوسف بجانب من خصائص القرآن الكريم، تناولت الموضوعات التالية:

- ١- تحدثت عن مكر إخوة يوسف به، وحسدهم له، وتآمرهم على إيذائه، وإلقائه في الجب، ومن ثم انتشاله منه وبيعه بخمسة دراهم معدودة.
- ٢- تحدثت السورة عن كيد امرأة العزيز له، وشيوع الخبر بين نسوة المدينة، ودخوله السجن بعد أن استجار بربه، وأحب دخول السجن عن فتنة النساء.
- ٣- اشتهر يوسف بتعبير الرؤى في السجن، ودعا الناس إلى الواحد القهار، وأخلص العبادة لله، وكانت رؤيا الملك سبباً في إخراجه من السجن، وظهور براءته، وتعيينه أميناً على خزائن مصر.
- ٤- تحدثت السورة عن لقاءات يوسف الأربع بإخوانه، وجمع شمله بأخيه الشقيق وأبويه في أرض مصر.
- ٥- التعقيب على السورة بما تحمله من عبر وعظات وآداب وهدايات.

حوار السورة يدور حول ثماني شخصيات:

أبطال القصة:

- والحوار الذي في السورة يدور بين ثماني شخصيات، كل منهم له دوره في القصة:
- ١- يوسف عليه السلام: وهو بطل القصة، وصاحب الدور الرئيس الذي تدور عليه أحداث السورة.
 - ٢- يعقوب عليه السلام: يمثل عنصر الحب الأبوي لولده، الملهوف عليه، المطمئن على الوصول إليه.
 - ٣- إخوة يوسف: يمثلون عنصر الغيرة والحسد، والتآمر والمكر والخداع، ومواجهة آثار الجريمة.
 - ٤- امرأة العزيز: تمثل عنصر النزوة، والشهوة، واندفاع الغريزة، وتسلب الشيطان، ثم الندم والتوبة.
 - ٥- عزيز مصر: يمثل مواجهة جريمة الشرف داخل مجتمعه، حيث تضعف نخوته

ويتغلب عليه الرياء وستر الظواهر.

٦ - شخصية الملك: وهو يلقي بظلاله على يوسف، فيخرجه من السجن ويعينه وزيراً للمالية؛ لإصلاح الوضع الاقتصادي في البلاد وما جاورها.

٧- النسوة: وهن يمثلن عنصر الطبقة الراقية في المجتمع، ويستنكرون على امرأة العزيز سلوكها، ثم يقعن في الافتتان به، ويعذرنها فيه.

٨ - شاهد يوسف: وهو الذي كشف عن الحقيقة التي دارت في دهاليز القصر، ولم يطلع عليها إلا رب العالمين.

إن قصة يوسف ﷺ ليست خيالاً، ولا رواية مصطنعة، وليست تاريخاً خطه أقلام البشر، إنها قطعة من تاريخ الأحياء، تفيض بالحقائق لمن يُحسِن الإفادة والاعتبار، وليس لخاتم المرسلين ﷺ دخل فيما أوحى الله إليه به ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾.

يوسف في بيت العزيز: لقد أحب عزيز مصر يوسف؛ لشمائله النبيلة، ودماثة خلقه، وحفظ بيته، وصيانة محارمه، وأحبته امرأة العزيز؛ لروعة جماله، وحسن مظهره ومخبره؛ فطمعت فيه، وتعرّت له، وراودته عن نفسه، ولكن إيمان يوسف ومواثيق الشرف التي ورثها عن آبائه، وحرمة رب البيت الذي أكرمه، انتصرت على المراودة الخاطئة، فأخذ يفرّ منها وهي تشدّ قميصه؛ حتى بلغت المعركة نهايتها.

وقد اعترفت امرأة العزيز بذلك وصرحت به في قولها: ﴿وَلَقَدْ زَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ [٣٢] ومع ذلك فقد كادت له حتى أدخلته السجن، وجاءته الرسالة وهو فيه فيقول:

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ (٣٧) وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانُوا لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ﴾ [٣٧، ٣٨]

﴿يَصْصَحِي السَّجْنِ مَآزِيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ حَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٣٩).

وكان تأويل الرؤيا هو الطريق لإبراز يوسف ﷺ من بين المساجين.

يوسف يعبر الرؤيا: وفي سورة يوسف ثلاث رؤى:

١- رؤيا يوسف. ٢- رؤيا السجن. ٣- رؤيا الملك.

الرؤيا الأولى: هي التي قصها على أبيه في أول السورة؛ من سجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكبًا، وأحداث السورة كلها تفسير لهذه الرؤيا.

وقد خُتِمت هذه الأحداث بهذا المشهد المعبر عنها ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مَصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (٩٩) وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتْ هَذَا تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رُبِّي حَقًّا ﴿[٩٩، ١٠٠].

الرؤيا الثانية: وهي التي قصها عليه رفيقاه في السجن، حيث رأى أحدهما أنه يعصر خمراً، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه.

وقد فسر يوسف هذه الرؤيا بأن مصير الرفيقتين متناقض، فالأول سينجو ويخرج من السجن، أما الآخر فيُسْقَتَل ويُصَلَّب حتى تأكل الطير من رأسه.

الرؤيا الثالثة: هي التي رآها الملك؛ فأفزعته وعجز الناس عن تأويلها.

وفسرها يوسف الصديق بأن السبع بقرات السماء هي سبع سنوات يكثر فيها الخير ويعمُّ، والسبع بقرات العجاف هي سبع سنوات كلها قحط وجوع، تتجاوز أرض النيل حتى بلغ أرض الشام وغيرها، ثم يأتي بعد ذلك عام يزول فيه الهم والغم ويكون خصباً كثير الخير والنعم.

ووضع لهم يوسف خطة اقتصادية: أن يزرعوا سبع سنوات متواصلة، ويتركوا الحب في سنبله حفاظاً عليه من السوس إلا ما يلزم للضروري من الطعام، فإذا جاءت السبع سنوات العجاف أكلوا مما خزنوه في السنوات الخصبة كثيرة الخير.

وكان هذا سبباً في ظهور براءة يوسف مما دبرته له امرأة العزيز، حيث قالت: ﴿الْقَنَ حَصَحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَدَدْتُهُ عَنْ نَفْسِيهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصّٰدِقِينَ﴾ [٥١] كما كان سبباً في اختياره وزيراً للمالية ﴿وَكَذٰلِكَ مَكَّنَا لِيُوسُفَ فِي الْاَرْضِ يَتَّبِعُوْا مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [٥٦].

رحلات إخوة يوسف الأربع إلى مصر:

١- وبسبب المجاعة التي وصلت إلى الشام وتجاوزتها؛ قَدِمَ إخوة يوسف عليه أربع مرات:

لقد كان إخوة يوسف من بين القادمين عليه في السنوات العجاف؛ فأكرمهم وأحسن وفادتهم في المرة الأولى دون أن يُعرّفهم بنفسه، وطلب منهم أن يأتوا معهم في المرة القادمة بأخ لهم من أبيهم وإلا فلا كيل لهم عنده، وقد أشار إلى الرحلة الأولى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ [آية: ٥٨].

٢- وجاءوا إليه في المرة الثانية؛ فاستقبل أخاه الشقيق استقبالا خاصا، حيث آواه وقرّبه إليه، وعرفه بنفسه، ثم احتال في حَجْزِهِ عنده؛ حتى يفرض عليهم العودة إلى أبيهم بدونهم، بعد أن احتجزه بسبب مكيال الملك الذي حَبَّاهُ في متاع أخيه.

وأشار إلى دخولهم مصر في هذه المرة قوله تعالى ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ [آية: ٦٨]

أما لقاءهم بيوسف للمرة الثانية فقد جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [آية: ٦٩].

٣- وقَدِمَ إخوة يوسف عليه بمصر في المرة الثالثة بقلوب منكسرة ذليلة، وفي هذه المرة أَمَاطَ يوسف اللثام عن شخصيته بعدما لمس من إخوته الضعف والهوان، فقال لهم في نبرة هزّت قلوبهم ومشاعرهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ﴿٩٨﴾ قَالُوا إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ [٨٩، ٩٠].

وقد جاء هذا اللقاء في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَإَيَّأُ الْعَزِيزُ مَسْنَاً وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُّزْجَلَةٍ فَأَوْفٍ لَّنَا الْكِيلَ وَنَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [آية: ٨٨].

وعاد الركب إلى الشام ومعهم قميص يوسف، وما أن تحرك الإخوة بالقميص من أرض مصر حتى سمع الذين حول يعقوب وهو يقول: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُون﴾ [٩٤] أي: لولا أن تكذبوني وتنسبوني إلى الحماقة.

٤- وجاء إخوة يوسف إليه في المرة الرابعة ومعهم أبوه وأمه، وكان في هذا تأويل رؤياه وهو صغير، قال تعالى ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَاهُ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ [آية: ٩٩].

إذن فقد قام إخوة يوسف بأربع رحلات من بادية الشام (العربات من أرض فلسطين)

إلى مصر للقاء أخيه يوسف عليه السلام، وكان معهم أبوه في المرة الأخيرة، وعاش معه أربعًا وعشرين سنة، ثم مات ودُفن في الشام لوصيته، وعاش يوسف مئة وعشرين عامًا، وفُسرت رؤياه في أربعين عامًا.

وكان النبي ﷺ يعلم أصحابه هذه السورة في بدء إسلامهم، كما أخرج الحاكم بسنده أن رفاعه بن رافع الزُرقي ومعاذ بن عفراء قدما مكة قبل بيعة العقبة الأولى؛ فأتيا النبي ﷺ، وطلبا منه أن يعرض عليهما الإسلام؛ فسألهما من خلقهما، ومن صنع الأصنام التي يعبدونها؟ وبيّن لهما أن الخالق أحق بالعبادة من المخلوق، وأنهم قد عملوا الأصنام بأيديهم، فهي أحق أن لا تُعبد، ثم قال لهم: «وأنا أدعو إلى عبادة الله، وشهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وصلة الرحم، وترك العدوان، وبُغض الناس».

فقالا: لو كان الذي تدعونا إليه باطلا؛ لكان من معالي الأمور ومحاسن الأخلاق، ثم إنهما أتيا الكعبة فطافا وضربا الأقداح سبعا.

قال رفاعه: فَصِحْتُ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ؛ فاجتمع الناس عليّ وقالوا: مجنون، رجل صبا، قلت: بل رجل مؤمن، ثم جئت أعلى مكة، فلما رأيَني معاذ قال: لقد جاء رفاعه بوجه ما ذهب بمثله، فجئت وآمنت، وعلمنا رسول الله ﷺ سورة يوسف وسورة العلق، ثم رجعنا إلى المدينة^(١).

سبب النزول:

قيل: إن اليهود قالوا لمشركي مكة: سلوا محمداً عن أمر يعقوب وقصة يوسف؛ فنزلت السورة^(٢).

وعن سعد بن أبي وقاص أن أهل مكة قالوا للنبي ﷺ: لو حدثتنا - وكان القرآن قد تلي عليهم - فأنزل الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا يَفْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣].

وقالوا له: لو قصصت علينا؛ فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾.

(١) الحديث في «المستدرک» (١٤٩/٤).

(٢) رواه الضحاك عن ابن عباس «زاد المسير» (١٧٧/٤).

أي: عن طريق الوحي المنزل وكنت قبله لا تعرف شيئاً عن هذه القصة وغيرها.

ثم قالوا: يا رسول الله، لو ذكّرنا؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾^(١) [الحديد: ١٦].

وورد أن اليهود سألوا النبي الكريم -عن طريق مشركي مكة- سألوه عن قصة نبي ذهب ابنه من الشام إلى مصر ولحقه أبناؤه، وكيف أنه أخذ يبكي حتى عمي؛ فأنزل الله ﷻ هذه السورة^(٢).

(١) ينظر: البزار (١١٥٢) وأبو يعلى (٧٤٠) وابن حبان (٦٢٠٩) والحاكم (٣٤٥/٢) و«المطالب العالية» (٤٠١٣) والطبري (٨/١٣) وهو حديث حسن.

(٢) ينظر: «تفسير الخازن» والبعوي.

سُورَةُ الرَّعْدِ (١٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف، والسابعة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يوسف، وقبل سورة إبراهيم على القول بأنها مكية، وبعد سورة القتال، وقبل سورة الرحمن على القول بأنها مدنية.

وهي ثلاث وأربعون آية في المصحف الكوفي^(١).

وثمان مئة وخمسة وخمسون كلمة، وثلاثة آلاف وخمسة مئة وستة حروف.

ولذكر الرعد فيها سُمِّيَتْ به.

وسورة الرعد نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة في أصح القولين، وهي من السور المختلف فيها بين كونها مكية أو مدنية، وموضوعها هو موضوع السور المكية.

فهي تتناول جانب العقيدة والتوحيد كما في الآيات الأربع الأولى، والآية الثامنة وما بعدها، وتتناول جانب الوحي والرسالة كما في الآية الثلاثين وما بعدها، وتتناول جانب البعث واليوم الآخر كما في الآية الخامسة وما بعدها.

والسورة تقيم الأدلة الكثيرة من هذا العالم الفسيح على قدرة الله سبحانه، وعلى صنع الصانع جلَّ شأنه في هذا الكون؛ كي يستدل بها الكافر على توحيد الله سبحانه، ويقر ويعترف بأن الله تعالى واحد أحد، وأنه خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، ورازقه ومدير أمره، وهذا حال المشركين الذين تخاطبهم السورة في كل مكان وزمان؛ فالمجتمع الجاهلي في مكة كان يضم المسلمين والمشركين في عهد رسول الله ﷺ.

وبعد قيام الدولة الإسلامية في المدينة، كان فيهم المسلم وغير المسلم، وهذا المزيج من المسلمين وغيرهم في المجتمعات، موجود في كل مكان من عالمنا الفسيح، على

(١) وأربع وأربعون آية في المصحف المدني، الأول والثاني والمكي، وخمسة وأربعون آية في المصحف البصري، وسبع وأربعون آية في المصحف الشامي.

مختلف عقائده وطبقاته .

وهذه الأدلة التي وردت في السورة -وهي تشير إلى كمال القدرة الإلهية- من شأنها أن تزيد إيمان المؤمن، وتَحْمِل من يعترف بوجود الله تعالى ولا يفرده بالعبادة، أن يتوجّه بدعائه ونذره وذبحه واستغاثته وسائر العبادات إلى الله وحده، ويعتقد أن النفع والضرر منه ﷻ.

١- وهكذا بدأت السورة بقضية الإيمان والتوحيد، وهي بداية تلخيص الموضوع الأساس للسورة وتركز عليه؛ فالحق -الذي جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى- واضح وضوح الشمس في رابعة النهار، ولكن فاقد البصر لا يُنتظر منه إيمان صحيح، ومن لم يحسن النظر في نفسه، وفي أجهزة جسمه وعقله، لا يُتوقع منه أن يعرف الله تعالى معرفة حقيقية، ولو سار مع جمهور المقلدين من المؤمنين، فالحق يضل عنه كثيرون، وليس هناك عذر لهذه الكثرة التي أعرضت عن الحق، ورفضت الانقياد له.

لقد أقامت السورة أدلة متنوعة على كمال قدرة الله تعالى، وعظيم حكمته:

أ- تارة عن طريق التأمل في هذا الكون وما فيه من سموات مرتفعة بغير عمد، وأرض صالحة للاستقرار فيها، وشمس وقمر، وليل ونهار، وجبال لتثيت الأرض، وأنهار لسقي الزرع، وكلها لمنافع الناس.

ب- وتارة عن طريق علم الله تعالى المحيط بكل شيء؛ فهو العليم بما تنقص الأرحام وما تزداد، وهو العليم بأحوال العباد، وهم مُسْتَخْفُونَ بالليل وظاهرون بالنهار.

ج- وتارة عن طريق المنع والعطاء لمن يشاء من عباده؛ فهو سبحانه يسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

د- وتارة عن طريق المصائب والقوارع التي تنزل بالجاحدين المكذبين لوحداية الله تعالى، ولصاحب الرسالة الأخيرة؛ فتصيبهم بما صنعوا، أو تحل قريباً من دارهم.

- وكما أن القرآن دليل ناطق يقود إلى الإيمان بالله تعالى؛ فإن الكون دليل صامت يُعرّف برب العزة والجلال، وكلا الدليلين يحتاج إلى يقظة العقل، ودقة الشعور.

وفي إيقاظ الحس النائم، يذكر القرآن الكريم أن في الأرض قطعاً متجاورات، القطعة الواحدة من الأرض تشتمل على ألوان من: الزروع، والثمار، والفاكهة؛ كالعنب،

والليمون، والتفاح، والحنظل، والبرتقال، والشوك، وهكذا، وكلها تُسقى بماء واحد، ويختلف المذاق واللون والأثر.

وهذا يشبه الدودة تأكل من ورق التوت فتُخرج حريراً، وتأكل منه النحلة فتُخرج عسلًا، وتأكل منه الشاة فتُخرج بعرًا!! فسبحان الخالق العظيم.

ومن الأرض إلى الفضاء الكبير، فقد اكتشف علماء الفلك ما يعتقدون أنه ثُقب أسود في مجرة نائية، أكبر مئة مرة من أي ثُقب أسود تم اكتشافه من قبل، ويعتقد علماء الفلك أن هذا الثقب يضم ألف مليون نجم.

فإذا كان هذا مجرد ثُقب صغير في هذا الكون الكبير، فماذا يكون الكون نفسه؟

لقد ختم الله الآيات التي تُلقت النظر إلى التأمل وإعمال العقل بمثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَنْفَكُونَ﴾ ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وهكذا.

٢- كما تناول السورة إثبات البعث والعزاء، فتعجب ممن ينكرون الحشر والنشر، والثواب والعقاب، وممن يستبعدون ذلك فيستعجلون نزول العذاب، لقد قصُرت أنظارهم عن إدراك أن الذي خلق هذا الكون الهائل قادر على إعادة الخلق في بعث جديد، وعلى إثابة المطيع وعقاب العاصي، وكان عليهم أن يطلبوا هداية الله ويرجوا رحمته، بدلًا من أن ينكروا قدرة الله تعالى، ويطلبوا نزول العذاب بهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [٦].

٣- وتحدث السورة على الوحي النازل من السماء، وعن قيام النبي ﷺ بتبليغه قال تعالى: ﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾ [١].

وقال سبحانه: ﴿أَمْنَ يَعْلَمُ أَنَّما أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [١٩].

وقال جل شأنه: ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [٣٠].

وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَلْكَتَبَ يَفْرُحُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَخْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُمْ﴾ [٣٦].

وتردُّ السورة على المكذبين بالرسالة، الذين يطلبون معجزة غير القرآن تدل على صدق محمد ﷺ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [٧، ٢٧].

ويمضي هؤلاء في كفرهم حتى يصلوا إلى هذه النتيجة ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ ﴿٣٧﴾.

وترد عليهم أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [٣٨].

أ- وتتضمن السورة عشرة أوصاف للمؤمنين، من الآية التاسعة عشرة إلى الآية الرابعة والعشرين، من استجمع هذه الوصايا العشر، كان أهلاً للجزاء الأوفى في جنات عدن، تسلم عليه الملائكة، وينعم فيها بعقبى الدار.

ب- وتضرب السورة مثلين للحق والباطل:

أحدهما: بالماء النازل من السماء، فتسيل به الأودية والشعاب، ثم يجرف في طريقه الغناء، فيطفو الزبد الذي لا فائدة فيه على وجهه، ثم يذهب سريعاً ويبقى الماء الصافي.

وثانيهما: المعادن التي تذاب؛ لتصاغ منها الأواني والحلي من الذهب والفضة، وما يعلو هذه المعادن من الزبد الذي سرعان ما يذهب ويتلاشى، ويبقى المعدن النقي الصافي، وهكذا ثبات الحق وذهاب الباطل.

ج - كما تذكر السورة مثلين لأهل السعادة والشقاء، فتشبه السعيد بالمبصر، والشقي بالأعمى ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ [١٩].

د- وقد أشارت السورة إلى زيادة الرقعة الإسلامية، ونقصان أرض الشرك والكفر، وفي ذلك نبوءة قد تحققت، فقد قرع الإسلام أبواب: مصر، والشام، والعراق، وإيران، وباكستان، وأفغانستان، والأندلس، والمغرب العربي، وغيرها، وسرعان ما دخل الناس في دين الله أفواجا، فاعتنقوا الإسلام وصاروا حماة له وحملوه إلى العالم ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَكُفُّ لَكُمْ لَا مُعِيبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ ﴿٤١﴾.

سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ (١٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف، والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الشورى، وقبل سورة الأنبياء، وهي اثنتان وخمسون آية في العدد الكوفي برواية حفص^(١).

وعدد كلماتها ثمان مئة إحدى وثمانون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة وأربعة وثلاثون حرفاً.

وسورة إبراهيم نزلت على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، ولا يُعرف لها اسم آخر.

وموضوع هذه السورة موضوع السور المكية في القرآن كله، والسور المكية تتناول ثلاثة عناصر، هذه العناصر الثلاث هي:

العنصر الأول: جانب العقيدة والتوحيد:

فأقامت السورة عشرة أدلة على توحيد الخالق سبحانه في ثلاث آيات، من الآية الثانية والثلاثين إلى الآية الرابعة والثلاثين.

والعنصر الثاني: جانب الرسالة والوحي:

وقد جاء ذكرهما في الآيات السبعة عشر الأولى من السورة.

والعنصر الثالث: هو جانب اليوم الآخر:

وما فيه من بعث وحساب وجزاء، وهو من الآية الحادية والأربعين إلى نهاية السورة.

وهذه العناصر بعد أن تحدثت السورة عن وظيفة القرآن، وعن جانب من مظاهر قدرة الله تعالى، وسوء عاقبة المكذبين.

(١) وإحدى وخمسون آية في العدد البصري، وخمسة وخمسون في المصحف الشامي، وأربع وخمسون في المصحف المدني الأول والثاني والمكي.

وسورة إبراهيم تتميز عن السور المكية بأسلوب خاص في عرضها للعنصر الثاني؛ فهي حين تتكلم عن وحدة الرسالة لا تتناول دعوة كل رسول مع قومه، وإنما تتناول دعوة الرسل جميعاً، ووحدة الرسالات كلها، كأنها تجعل الرسل في جانب، وتجعل الأقوام، أو الأمم، أو أهل الجاهلية من كل أمة، في جانب آخر.

وتوجّه السورة الخطاب أولاً لرسول الله ﷺ المنزل عليه هذا القرآن، ثم تخص من بين الرسل موسى وإبراهيم عليهم جميعاً أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ لأن إبراهيم هو أبو الأنبياء، و خليل الله، ولأن موسى من أولي العزم من الرسل، ومن أكثرهم مكابدة ومثابرة لقومه، ولأن أمته كانت أكثر الأمم قبل أمة محمد ﷺ.

وضربت السورة الأمثال للمكذّبين بالرسل من الأمم السابقة؛ كقوم نوح، وعاد، وثمود، ومثلت لكلمة التوحيد بالشجرة الطيبة، ولكلمة الكفر بالشجرة الخبيثة، ومثلت أيضاً للكفر والإيمان بقبول أعمال المؤمن، وعدم قبول أعمال الكافر.

وأبرزت السورة بعض مشاهد القيامة في التلاوم الذي يكون بين الضعفاء والمستكبرين، كما أبرزت خطبة الشيطان البتراء يوم القيامة في التبرؤ من أتباعه، وبيّنت سوء مصير الظالمين في نهاية السورة، وتنقسم السورة إلى مقطعين:

المقطع الأول: يصوّر المعركة بين الرسل والأمم المكذبة، أو حقيقة الرسالة والرسول.

والمقطع الثاني: يتحدث عن نعم الله تعالى على البشر، فذكرتهم بنعم الله عليهم، وحرّضتهم على شكرها، وحذّرتهم من كفرها وجحودها، وبيّنت أن شكر النعم يزيدّها، وأن جحودها يستوجب العقاب الشديد، وضربت لهم المثل بمن بدّلوا نعمة الله كفرًا، وهم الذين كفروا بالنعمة بدل أن يشكروها ويؤدّوا حق الله فيها، فجروا بذلك الوبال عليهم وعلى أقوامهم.

وبيّن جلّ شأنه في سورة إبراهيم أنه أعطانا من كل النعم، وأن نعمه تعالى لا تُعدّ ولا تحصى، ولكن الإنسان كثير الظلم لنفسه، شديد الكفر بربه.

وذكرت الفريقين من أهل الإيمان والكفر بحال إبراهيم ﷺ؛ ليعلم كل منهما من يسلك طريق الحنيفية السمحة، ومن يتنكب الطريق القويم.

وتناولت السورة سوء عاقبة الظالمين في الدار الآخرة، وأنهم يودّون العودة إلى الدنيا لإجابة دعوة الرسل، فيجابون: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّنْ قَبْلِ مَا لَكُم مِّنْ زَوَالٍ ۖ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِنٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ۖ﴾ [الآيتان: ٤٤، ٤٥].

و﴿يَوْمَ﴾ القيامة ﴿تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [الآية: ٤٨].
﴿وَ﴾ عندئذ ﴿تَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمِئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِلُهُمْ مِّنْ فَطْرَانٍ وَتَعْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ﴾ [الآيتان: ٤٩، ٥٠].

وكل نفس توفى جزاء عملها يوم القيامة ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وخُتمت السورة بكلمات جامعة فيها بلاغ للناس، وإنذار لهم، وتوحيد لخالقهم، وتذكير لأولي الألباب منهم.

سُورَةُ الْحَجَرِ (١٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الحجّر هي السورة الخامسة عشرة في ترتيب المصحف، والرابعة والخمسون في ترتيب النزول، وهي تسع وتسعون آية باتفاق، وست مئة وأربع وخمسون كلمة، وألفان وسبع مئة وستون حرفاً.

والْحَجَرُ: هي ديار ثمود (مدائن صالح) بين المدينة والشام، وقد جاء ذكر لفظ الحجّر في هذه السورة؛ فسمّيت باسمه، ولم يُعرف لها اسم آخر.

وسورة الحجّر نزلت على رسول الله في مكة المكرمة بعد سورة يوسف، وقبل سورة الأنعام في الفترة بين عام الحزن، وعام الهجرة؛ حيث تعثّر مسار الدعوة، واشتد إيذاء المشركين لرسول الله ﷺ بعد موت أبي طالب، وخديجة ؓ، فأُنزل الله سبحانه هذه السورة؛ لتخفف عن رسول الله ﷺ، ولتنذر المشركين، وتبيّن مصارع المكذّبين لرسول الله، وقيل: إنها نزلت عند خروج النبي ﷺ من دار الأرقم في آخر السنة الرابعة من البعثة، وفيها آية الأمر بالجهر بالدعوة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾.

وتكشف هذه السورة أن كُفْر من كَفَرَ، وتكذيب من كَذَّب ليس قدحاً في القرآن، ولا في رسول الإسلام، ولكن العناد والكبرياء في نفوس القوم هو الذي منعهم من الإيمان بمحمد ﷺ.

وهذا الكلام لا يخص أهل الشرك في زمن الرسول ﷺ فقط، بل ينسحب على المشركين والمكذّبين بخاتم المرسلين في كل زمان ومكان، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وهذه السورة تشبه سورة الأعراف؛ فهي تبدأ بالحديث عن القرآن، وفيها إنذار، ووعيد، وتهديد للمكذّبين لرسول الله ﷺ، وفي كل منهما -الأعراف والحجر- قصة آدم وإبليس، وفي نهايتها في هذه السورة بيان مصير أهل الضلال والغواية ﴿وَلِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٣﴾ لها سبعة أبوابٍ لكل بابٍ منهم جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ومصير أهل الهدى والرشاد ﴿إِنَّ

الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٠﴾ عِيُونَ السَّلْسِيلِ وَالْكَافُورِ وَالتَّنِيمِ وَالرَّحِيقِ الْمَخْتُومِ بِالمَسْكِ،
ويقال لهم ﴿١١﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿١٢﴾ وقد نزع الله من صدورهم الغل والحقد والحسد
وجعلهم إخوة متحابين، وهم مخلدون في الجنة بلا تعب ولا مرض ولا كآبة ولا نصب.

وفي السورة لمحات من قصة كل من: إبراهيم، ولوط، وشعيب، وصالح عليهم
السلام، وفيها عرض لمشاهد الكون، ودلائل الوجدانية، والقدرة الإلهية: مِنَ السَّمَوَاتِ،
وما فيها من بروج، والأرض الممدودة، والرواسي الراسخة، والماء والسقيا، والحياة
والموت، وحشر الخلائق أجمعين، والشمس والقمر، والرياح اللواقح.

وفي سورة الجِجْر خمس جولات:

١- سُنة الله مع المكذبين لرسل الله [١ - ١٥].

٢- استعراض بعض آيات الله في الكون [١٦ - ٢٥].

٣- قصة البشرية [٢٦ - ٤٨].

٤- مصارع الغابرين [٤٩ - ٨٤].

٥- لم يخلق الله هذا الكون عبثاً [٨٥ - آخر السورة].

أما عن الجولة الأولى: وهي سُنة الله تعالى مع المكذبين لرسله، فتبدأ مباشرة بعد
التنويه بمكانة القرآن الكريم، وفضله، وهديه؛ حيث يعقبه الإنذار والتهديد مُلقفاً بظل من
التحويل، والوعيد لمن أضاعوا أعمارهم سُدى، ولم يستعدوا للمستقبل الأبدي، لقد
استغرقوا في عبادة الدنيا ومُتعتها، وأفنوا فيها أعمارهم، حتى لكان الآخرة -في نظرهم-
وهم، وضرب من الخيال ﴿ذَرَّهُمْ يَافِكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِمِ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

لقد انغمسوا في شهواتهم وملذاتهم، فشغلهم هذا عن الهداية والعمل للدار الآخرة.

وتشير السورة في مطلعها إلى هلاك الأمم الذين كذبوا رسل الله، فاعترضوا طريقهم،
وظنوا أن الدنيا باقية لهم ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرِيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ (٤) مَا نَسِيقُ مِنْ أُمَّةٍ
أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَعِجِرُونَ ﴿٥﴾.

الجولة الثانية: أما عن استعراض بعض آيات الله تعالى في الكون، فيأتي هذا بعد أن
أخبر سبحانه أنه قد تكفل بحفظ كتابه، وصيانته من أي تحريف، أو تبديل، وبيان أن

المكذبين لرسل الله إنما يكذبون عن عناد، وجحود:

حيث تستعرض السورة ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وقدرته الباهرة، وسابغ نعمه على عباده، وهو حديث شائق عن الكون، وأسراره وقُواه الدالة على عظمة الخالق سبحانه.

وتبدأ هذه الأدلة بمشهد السماء، فمشهد الأرض، فمشهد الرياح اللوَّاح، فمشهد الحياة والموت، فمشهد الحشر والنشر، وكلها مشاهد ناطقة بعظمة الله تعالى، شاهدة بوحدانيته وقدرته، ينظر المرء إلى أعلى، فيرى شروق الأفلاك وغروبها في فضاء لا نهاية له ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (١٦).

وينظر إلى الأرض، وما أودع الله فيها من: الجبال، والبحار، والأنهار، والأشجار، والنبات فيرى ألوانًا من نعم الله لا حصر لها ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ﴾ (١٩).

والرياح من نعم الله تعالى، تنتقل من مكان إلى مكان، فتلقح السحاب بالماء وتلقح النخيل والثمار ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوْفِحَ فَاَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَادِرِينَ﴾ والحياة والموت من آثار قدرة الله تعالى ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ﴾.

أما عن الجولة الثالثة: وهي قصة خلق آدم، وتكليف الملائكة بالسجود له، وامثالهم جميعًا لأمر الله تعالى، وامتناع إبليس وحده عن الطاعة، وما ترتب على ذلك من لغنه وطرده من الجنة، فإن هذه القصة، تشير إلى قصة الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وعداوة إبليس لبني آدم إلى يوم القيامة.

لقد خلق الله الإنسان من طينة مُنْتَنَة ﴿مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ﴾ [٢٦] وعند ما يعود إلى التراب بعد رحلة العمر، يُدفن تحت التراب، لأن راحته تكون أشد إزعاجًا، وكأن الناس يتدافنون؛ حتى لا يشمئز بعضهم من بعض.

وفترة البرزخ مسكن مؤقت، أو جسر يعبر عليه الإنسان إلى مصيره الدائم!

والمخدوع: من نسي ربه، ونسي مبدأه ومعاده.

إن عناصر الجسم البشري هي عناصر التربة الأرضية، فكيف يتحول اللحم، والعظم

إلى تراب؟! ثم كيف يتحول التراب مرة أخرى إلى لحم، وعظم؟!

إن الله وحده هو الذي يحيي ويميت، ويخلق ويرزق، وقدرة الله في ذلك فوق مستوى العقل البشري!

الجملة الرابعة: أما مصارع الغابرين في السورة، فهي تقصُّ علينا كيف أهلك الله قوم لوط، وأصحاب الأيكة، وأصحاب الحجر، فتذكر الأسباب والتائج؛ فقوم لوط لما فسقوا بالضيوف، وأرادوا فعل فاحشة اللواط بهم كانت النتيجة أن قلب الله قُراهم، فجعل عاليها سافلها، وأمطرهم بحجارة من سجيل.

وقوم ثمود عقروا الناقة، وكذبوا رسولهم، فأخذتهم الصيحة بدءًا من الفجر إلى الإشراق.

وأصحاب الأيكة كذبوا نبيهم شعيبًا، فانتقم الله منهم بأن أخذتهم الصيحة، فأصبحوا في ديارهم ميّتين كأنهم لم يكونوا فيها.

وهذه الأماكن في طُرُق الناس يمرُّون عليها في أسفارهم صباح مساء، ﴿وَإِنَّكُمْ لَمَعْرُونٌ عَلَيْهِمْ مُّصْبِحِينَ﴾ (١٣٧) ﴿وَبَالَيْلٍ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصفات] وهذا تفصيل لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شَيْعِ الْأَوَّلِينَ﴾ (١٣٦) ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ (١١).

الجملة الخامسة: والله تعالى لم يخلق هذا الكون عبثًا، وإنما خلقه؛ كي يتعرف الخلق على ربهم، فيعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا، ويوم القيامة يحاسب الله سبحانه الخلائق، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي.

وعليه: فإن الكافر إذا عاش لحياته يأكل، ويتمتع، ويلهيه الأمل وطول البقاء في الدنيا، فإنه يتمنى يوم لقاء الله أن يكون قد سلك طريق الهداية في دنياه كي ينجو من العذاب الشديد في أخراه، كما جاء في الآية الثانية من السورة، ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾.

وعلى هذا فإن على المؤمن ألا يتطلع إلى هذا المتاع الزائل، فإن الله تعالى قد أعد له من النعيم الأخروي ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وقد شرفه بالوحي المنزل على رسوله ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ [٨٨]. لقد خص

الله المسلمين بالوحي الأخير المهيم على الوحي السابق، ونعيمهم يوم القيامة بلا حدود، والسؤال يوم القيامة سيعم الجميع ﴿فَوَرَّيْكَ لَشَتْلَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَمْلُونُ.

وفي نهاية السورة يأمر الله رسوله ألا يحزن لتكذيب المكذبين له، ولا يضيق صدره لجحودهم، ويستعين على ذلك بالتسبيح وكثرة السجود، والثبات على توحيد الخالق، وعبادته إلى الممات ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾ (٩١) وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ. ﴿٩٩﴾

سُورَةُ النَّحْلِ (١٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف، والثانية والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الأنبياء وقبل سورة السجدة، وهي ألفان وثمان مئة وأربعون كلمة، وسبعة آلاف وسبع مئة وسبعة حروف.

وآيات السورة ثمان وعشرون ومئة آية بلا خلاف.

وهي مشهورة باسم سورة النحل، ويقال لها: سورة النعم.

وسورة النحل من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ في مكة بعد الهجرة إلى الحبشة، أي: في آخر العهد المكي، بعدما احتدم العراك بين المؤمنين والمشركين، وطال الأمد، ولم يظفر المؤمنون بنصر، ولم ينزل بالمشركون قاصمة الظهر، وكان المشركون يقولون للمؤمنين: أين ما تعدوننا به؟ فيقولون لهم: إن غدا لناظره قريب.

والآيات الثلاث الأخيرة من السورة قيل: إنها نزلت في المدينة بعدما انصرف النبي ﷺ من غزوة أحد بعد مقتل حمزة عم رسول الله ﷺ وهي قوله تعالى ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ [١٢٦] وما بعدها، والأصح أنها مكية.

وقال قتادة، وجابر بن زيد: إن الآيات من ﴿وَإِنْ عَاقِبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ﴾ إلى آخر السورة، مدنية.

وقد ورد في أسباب النزول: أنه لما نزل قول الله سبحانه: ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةُ وَأَسْفَقَ الْقَمَرُ﴾ [القمر] قال المشركون لبعضهم: أمسكوا وكفوا عما أنتم عليه حتى ننظر، فإن محمداً يخبر أن الساعة قد اقتربت، فلما لم يروا شيئاً قالوا: يا محمد، ما نرى شيئاً، فأنزل الله سبحانه ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء] فأشفقوا وانتظروا، وامتدت بهم الأيام، ولم يروا شيئاً ينزل بهم، ولم تقم الساعة، فقالوا: يا محمد، لم نر شيئاً مما تخوفنا به، فأنزل الله سبحانه ﴿إِنِّي أَمُرُّ اللَّهَ﴾ فوثب رسول الله ﷺ، ورفع الناس رؤوسهم، فنزل ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ فاطمأنوا فقال ﷺ: «بعثت أنا والساعة

كهاتين» وأشار بالسبابة والتي تليها^(١).

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تطلع عليكم عند الساعة سحابة سوداء من المغرب، مثل الترس، فما تزال ترفع في السماء، ثم ينادي مناد فيها: يا أيها الناس، فيقبل الناس بعضهم على بعض: هل سمعتم؟ فمنهم من يقول: نعم، ومنهم من يشك، ثم ينادي الثانية ويقول مثل الأولى، ثم ينادي الثالثة: يا أيها الناس ﴿أَفَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْعَ جُلُودُكُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: فالذي نفسي بيده، إن الرجلين لينشُران الثوب فما يطويانه أبدًا، وإن الرجل ليمدُّ حوضه فما يسقى فيه شيئًا أبدًا، وإن الرجل ليحلب ناقته فما يشربه أبدًا»^(٢).

وسورة النحل كسائر السور المكية تعالج قضية العقيدة والوحدانية، فتقيم العديد من دلائل القدرة على وحدانية الله تعالى في هذا الكون الفسيح من السموات والأرض، والبحار والجبال، والسهول والوديان، والماء النازل من السماء، والنبات الخارج من الأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنجوم والكواكب، والفلك التي تجري في البحر بأمر الله.

وتبدأ السورة هذا الحشد الهائل من الكائنات بخلق الإنسان، النموذج المصغر لهذا الكون، وتُقرن بدايته بمصيره ونهايته.

وتثنَّى بخلق الأنعام من: الإبل، والبقر، والغنم، ومن الخيل والبغال والحمير، وتذكر بعض منافعها، وكيف أن الله تعالى سخرها للإنسان.

وهذه الوسائل للتنقل والمواصلات مشاهد حية ماثلة أمام أعين من نزل عليهم القرآن.

ثم تُقرن إلى جوار ذلك ما يجدُّ في العالم من وسائل المواصلات المختلفة مما يظهر في حينه.

(١) كما في «أسباب النزول» للواحدي (١٥٩) بدون سند، ورواه ابن جرير عن ابن جريج (٧٥/١٤) و«زاد المسير» (٤/٤٢٦). والحديث في البخاري (٦٥٠٣) ومسلم (٢٩٥٠).

(٢) رواه الحاكم في «المستدرک» (٥٣٩/٤) وقال: صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه، ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣٢٥/١٧) برقم (٨٩٩) وقال الحافظ المنذري في الترغيب والترهيب (٤/٣٨٢): رواه الطبراني بإسناد جيد ورواه ثقات مشهورون، وكلاهما عن يحيى بن آدم قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٣١/١٠): رجاله رجال الصحيح غير محمد بن عبد الله مولى المغيرة، وهو ثقة.

وَتُجَرِّجُ السُّورَةَ عَلَى خَلْقِ الْعَقْلِ فِي الْإِنْسَانِ، وَاسْتِعْدَادِهِ لِلْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ تَرَكَ الْإِنْسَانَ لِإِرَادَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، وَلَوْ شَاءَ لَقَصَرَهُ عَلَى الطَّاعَةِ ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [الآية ٩].

ولم تهمل السورة خلق المعادن والجواهر من الأرض، والأسماك واللؤلؤ والمرجان من البحار. وبعد استعراض آيات الخلق، وآثار القدرة التي في أوائل السورة يقول سبحانه: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [١٧].

وكلها ألوان متعددة من النعم يألفها الإنسان، ولا يشعر بها إلا إذا افتقدها ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [الآية ١٨]

ثم يعقّب سبحانه على ذلك بقوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [٢٢].

ولذا: فإن هذه السورة تُسَمَّى سورة النِّعَم؛ لكثرة ما فيها من تعديد نِعَمِ اللَّهِ تَعَالَى على خلقه، كما قال قتادة، فقد ذكرت في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها.

ومع كثرة الأدلة على تفرد الله تعالى بالإلهية، تُظهر السورة شناعة الشرك وفساده، وتُبَيِّنُ مصير أهله المحتوم، وتضرب لهم كثيراً من الأمثلة في السورة ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا﴾ [٧٥].

وتتناول السورة القضية الثانية من قضايا القرآن المكي، فتقيم الأدلة على إثبات رسالة محمد ﷺ وصدق القرآن، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ [١١٣].

وقوله: ﴿يُنْزِلُ الْمَلَكُ الْمَلَكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرٍ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [٢].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [١٤].

وقوله جلّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَبَرٌ﴾ [٣].

وتبيّن السورة وظيفة الرسل في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ يَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [٣٦].

وتبيّن أن رسالة محمد ﷺ قامت على أصول ملة إبراهيم ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

إِبْرَاهِيمَ كَانَتْ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ خَنِيفًا [١٢].

وُثِّبَتِ السُّورَةُ الْبَعْثُ، وَالْحِسَابُ، وَالْجِزَاءُ فِي بَدَايَتِهَا ﴿أَنَّى أَمُرُّ اللَّهَ﴾ [١] وَفِي أَثْنَائِهَا ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [٨٤] وَفِي الْآيَةِ الْآخَرَى ﴿فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ [٨٩] وَتَبَتُّهَا أَيْضًا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ [١١]

وَهَذَا الْآخِرُ هُوَ الْقَضِيَّةُ الثَّلَاثَةُ مِنْ قَضَايَا الْقُرْآنِ الْمَكِّي فِي السُّورَةِ، وَهِيَ الْإِيمَانُ بِالْيَوْمِ الْآخِرِ.

وَأَغْلَبَ آيَاتُ السُّورَةِ تَتَحَدَّثُ عَنْ أَمْرَيْنِ:

الأمر الأول: الْحَدِيثُ عَنِ الْوَحْيِ الَّذِي تَنَزَّلَتْ بِهِ الْمَلَائِكَةُ، وَبَيَانُ مَوْقِفِ النَّاسِ مِنْهُ، وَأَنَّ مِنْهُمْ مَنْ أَقَرَّ بِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَنْكَرَهُ، فَهُمْ فَرِيقَانِ:

١ - فَرِيقٌ ضَالٌّ فِي نَفْسِهِ مُضِلٌّ لْغَيْرِهِ، وَهَؤُلَاءِ وَزُرُهُمْ مُضَاعَفٌ، فَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيَحْمِلُونَ أَوْزَارَ مَنْ أَضَلُّوهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ؛ فَإِنَّ مَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْآثَامِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا.

وَمِثْلُهُمْ فِي ذَلِكَ مِثْلُ إِنْسَانٍ أَلَفَ كِتَابًا فِي الْإِلْحَادِ وَالْكَفْرِ، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ جَرِيمَتَهُ قَدْ انْتَهَتْ بِصُدُورِ الْكِتَابِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَدْرِي أَنَّ لَهُ رَصِيدًا مَفْتُوحًا إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ، يَضِيفُ إِلَى جَرِيمَتِهِ كُلِّ مَنْ انْخَدَعَ بِقَوْلِهِ، وَاتَّبَعَ إِلْحَادَهُ وَكَفْرَهُ ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [٢٥] أَمَا أَتْبَاعُهُ الَّذِينَ قَلَّدُوهُ فَهُمْ مُجْزِئُونَ عَلَى غَفْلَتِهِمْ، وَكَانَ عَلَيْهِمْ أَلَّا يُسَاقُوا كَالْأَنْعَامِ.

وَهَؤُلَاءِ هُمْ ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّيهِمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ [الآيَةُ ٢٨]

وَهَذَا الْفَرِيقُ مِنَ النَّاسِ هُمُ الَّذِينَ يُسُوُّونَ بَيْنَ مَنْ يَخْلُقُ وَمَنْ لَا يَخْلُقُ، وَيَصِفُونَ الْقُرْآنَ بِأَنَّهُ أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ.

وَهُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الآيَةُ ٣٥].

وَهُمُ الَّذِينَ مَكْرُوا السَّيِّئَاتِ، وَقَالُوا بِتَعَدُّدِ الْآلِهَةِ، وَنَسَبُوا الْوَلَدَ لِلَّهِ تَعَالَى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) [الآيَةُ] ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [الآيَةُ ٦٢].

وهم الذين يثيرون الشبهات حول رسول الإسلام، فيقولون عنه: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [الآية ١٠٣].

وهم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الآية ٨٨]

وهم الذين جحدوا نعم الله عليهم ﴿أَفَيَا بَلِّغِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾.

وقد هددهم الله سبحانه بما يبعث الرعب في القلوب، ويدعو إلى التأمل في الملكوت، فلعل هذا التأمل يكون سبباً في هدايتهم.

٢- والفريق الثاني هم الذين يُحسِنون الإجابة عندما يقال لهم: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ﴾ فيقولون: ﴿خَيْرًا﴾ [الآية ٣].

وهم يعلمون أن العاقبة الحسنة للمتقين في الدنيا والآخرة، فهم ﴿الَّذِينَ تَوْفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةَ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الآية].

وهؤلاء قد قضوا أعمارهم في الإيمان والعمل الصالح، وثابروا على فعل الخيرات وترك المنكرات، فطابت أرواحهم عند الممات، وفي درجات الجنات.

أما الأمر الثاني الذي نتحدث عنه السورة فهو عن آيات الله تعالى في الكون، وآلائه على عباده. ومنها قوله تعالى:

١- ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ [الآية ٣].

٢- ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ [الآية ٥].

٣- ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ [الآية ١٢].

٤- ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الآية ٦٥].

٥- ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [الآية ٦٦].

٦- ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [الآية ٦٨].

٧- ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَوَفِّقُكُمْ﴾ [الآية ٧].

٨- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْوَادِكُمْ بَيْنَ وَحَفَدَةٍ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [الآية ٧٢].

٩- ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [الآية ٧٨].

١٠- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ [الآية ٨٠].

١١- ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا﴾ [الآية ٨١].

وقد بدأت هذه النعم بنعمة القرآن، وبيّنت أن نعم الله تعالى لا تُعدُّ ولا تُحصى، وقرب نهاية السورة بيّنت عقوبة الذين كفروا بأنعم الله، فأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

وهكذا أقامت السورة ثلاثة وعشرين دليلاً من البراهين القاطعة الدالة على توحيد الله سبحانه، وعلى مظاهر القدرة الإلهية؛ لبيان أن خالق هذا الكون وما فيه من النعم هو المستحق للعبادة دون سواه.

وهذه الأدلة جاءت في ثلاث مجموعات من السورة متفرقة، في كل مجموعة منها عدد من نعم الله علينا.

في أول السورة اثنا عشر دليلاً، وفي وسطها سبعة أدلة، وبعدها أربعة أدلة، وكلها نعم لله تعالى على خلقه.

وبقية آيات السورة تحاور المشركين بالله تعالى، فهي سورة النعم، وسورة التوحيد، وهذه النعم هي:

١ - نعمة نزول الوحي ونزول القرآن؛ لإحياء القلوب التي أماتها الكفر والضلال [٢].

٢ - نعمة خلق السموات والأرض، وما فيهما، وما بينهما لغاية عظمى، هي معرفة الخلق لربهم وعودتهم إليه في الدار الآخرة؛ ليجازي كل إنسان بما عمل، كما في الآية [٣].

٣ - نعمة خلق الإنسان من نطفة، ومع ذلك فإن بعض الناس ينكر البعث والنشور كما في الآية [٤].

٤ - نعمة خلق الإبل، والبقر، والغنم؛ للانتفاع بلحومها، وألبانها، وجلودها، وصوفها، ووبرها، وللتنقل بها، والزينة الآيتان [٥، ٧].

٥ - نعمة خلق الخيل، والبغال، والحمير؛ للركوب والزينة، وفتح الباب أمام كل جديد يؤدي دورها كما في الآية [٨].

- ٦ - خلق نعمة العقل للإنسان؛ لمعرفة الخير من الشر، والاهتداء به عن طريق النظر، والتأمل للوصول إلى الطريق القويم كما في الآية [٩].
- ٧ - نعمة إنزال الماء من السحاب؛ لحياة الإنسان، والحيوان، والنبات، والأشجار، والطيور، والأسماك الآيتان [١٠، ١١].
- ٨ - نعمة تذليل الليل والنهار، والشمس والقمر والنجوم؛ لمصلحة الإنسان ونفعه الآية [١٢].
- ٩ - خلق جميع ما في الأرض من خيرات، ونعم؛ لصالح الإنسان وخدمته، كما في الآية [١٣].
- ١٠ - تسخير البحر وتذليله للإنسان؛ لينتفع به وبخيراته، كما في الآية [١٤].
- ١١ - تثبيت الأرض بالجبال، وإيجاد المياه العذبة فيها، وشق الطرق؛ للسير فيها، والسعي على الرزق وغيره، كما في الآية [١٥].
- ١٢ - خلق معالم من جبال ونجوم في العالم العلوي والسفلي؛ لهداية الإنسان في أسفاره ومعيشته، كما في الآية [١٦].
- ١٣ - نعمة الماء، كما في الآية [٦٥].
- ١٤ - نعمة خروج اللبن من بين الفرث والدم، كما في الآية [٦٦].
- ١٥ - نعمة الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأنعام، كما في الآية [٦٧].
- ١٦ - نعمة العسل يخرج من النحل، كما في الآية [٦٨].
- ١٧ - نعمة الحياة والموت، كما في الآية [٦٩].
- ١٨ - نعمة الرزق، كما في الآية [٧١].
- ١٩ - نعمة الزواج والتناسل، كما في الآية [٧٢].
- ٢٠ - نعمة الحواس والإدراك، كما في الآية [٧٨].
- ٢١ - نعمة تسخير الفضاء للإنسان، كما في الآية [٧٩].
- ٢٢ - نعمة السكن والأثاث، كما في الآية [٨٠].

٢٣ - نعمة الظلال والجبال واللباس، كما في الآية [٨١].

فسورة النحل هي سورة النِّعَم بحق؛ لأن الله سبحانه قد ذكر في أولها قواعد النعم وأصولها، وذكر في آخرها كمال النعم وتمامها؛ فهي تُسَمَّى آيات وتُسَمَّى نِعَمًا، وهي نِعَم من الله تعالى، وآيات دالة على وجوده سبحانه.

وقد أمرنا سبحانه أن نتأمل في عظيم قدرته تعالى في خلق الكون، ونقلب النظر فيه، فقال سبحانه: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [يونس: ١٠١].

وقال جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾ [الأعراف: ١٨٤]

وقال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات].

ومن أجل ما يتعبد به العبد إلى ربه أن ينظر ويتأمل، ويتدبر ويفكر في هذا الكون وما فيه؛ ليستدل بفكره على وحدانية الله سبحانه، فيقوى إيمانه ويثبت، ويصله بالواحد القهار.

وسورة النحل فيها ميدان رحب فسيح، للنظر في ملكوت الله في سمائه وأرضه، وليله ونهاره، وشمسه وقمره ونجومه، وبرّه وبحره وجوّه، وغير ذلك.

والنبي ﷺ حينما نزل عليه قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخِلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران] وما بعدها، قال ﷺ: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر»^(١).

قال الحسن البصري: تَفَكَّرْ ساعة خير من قيام ليلة^(٢).

أي: خير من النوافل المستحبة؛ لأن هذا التفكير يُقَوِّي الإيمان، ويصل العبد بربه.

وقد أمرنا الله ﷻ على وجه الخصوص أن نَمَعَن النظر في أمرين مهمين:

الأمر الأول: أن ننظر في الأصل الذي خُلِقْنَا منه، قال سبحانه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾ [الطارق] ينظر الإنسان إلى أصله، إلى النطفة التي خُلِقَ منها ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ﴾ [٥] يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ [٧] [الطارق] هذا هو أصله، وليست القبيلة، ولا العشيرة، ولا المال، ولا الجاه، بل الماء الدافق هو نسب الإنسان وما ينتمي إليه.

(١) رواه الأصبهاني في «الترغيب والترهيب» برقم (٦٦٦) وفي إسناده أبو جناب الكلبي وهو ضعيف.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١٨٤/٢).

الأمر الآخر: أن ننظر إلى الطعام الذي نأكله صباحًا ومساءً، ممّ يتكون هذا الطعام؟ وكيف خلقه الله سبحانه؟

قال جلّ شأنه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (٢٤) أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَفَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَبْثْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعَبْنَا وَقَضَبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلَبًا (٣٠) وَفَيْكَةً وَأَبَا (٣١) مَنَعًا لَكُمْ وَلَآتَعْمَلُكُمْ ﴿٣٢﴾ [عبس].

هذا النظر، وهذا التفكير أو التأمل تدعو إليه سورة النحل أكثر من غيرها؛ لاستشعار فضل الله تعالى، فيكون هذا حافزًا على أفراد الله تعالى بالعبادة، إلى جوار امتنان الله تعالى على خلقه بهذه النعم.

وقد ضربت السورة الأمثال للمؤمن والكافر، والحق والباطل، ولمن قابلوا نعم الله عليهم بالشكر والعرفان، أو بالجحود والكفر.

واعتنت السورة بمكارم الأخلاق وأمّهات الفضائل: كالعدل، والإحسان، وإيتاء ذي القربى، والوفاء، والصبر، والشكر.

ونهدت عن الرذائل، والمنكرات؛ كالغدر، والجحود، ونقض العهود، والاستكبار، والظلم.

وحفّلت السورة بالترغيب والترهيب، والتبشير والإنذار، والوعد والوعيد.

وقد خُتِمت السورة ببيان أن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على الحوار والإقناع، والأخذ بالرد، ولا تتخذ من الإكراه طريقًا لانتشارها.

ولا يستطيع القيام بذلك إلا فقيه في الكتاب والسنة، عارف بالداء والدواء، يفرق بين حوار الكافر والمسلم والعاصي، قدوة في نفسه، عامل بالكتاب والسنة، على اطلاع بأحوال الناس وسياسة الأمور وعلوم الكون.

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ (١٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الإسراء) هي السورة السابعة عشرة في ترتيب المصحف، والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة القصص، وقبل سورة يونس.

وهي سورة مكية كما جاء في صحيح البخاري وغيره، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بنو إسرائيل والكهف، ومريم، إنهن من العتاق الأول، وهنّ من تِلَادِي^(١).

وجاء عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ كل ليلة ببني إسرائيل والزمر^(٢).

وعدد آياتها إحدى عشرة ومئة آية في المصحف الكوفي، ومئة وعشر آيات في بقية المصاحف.

وهي ألف وخمسة مئة وثلاث وثلاثون كلمة، وستة آلاف وأربع مئة وستون حرفاً.

وهذه السور الثلاث: الإسراء، والكهف، ومريم من السور العتيقة، أي: من أوائل ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، ومن أول ما تعلّم ابن مسعود من القرآن، وأن لهن فضلاً؛ لما فيهن من القصص، وأخبار الأنبياء والأمم.

فالعتاق: جمع عتيق، وهو القديم، أو أنه الذي بلغ الغاية في الجودة، ومعنى تِلَادِي: أي مما حُفِظ قديماً.

(١) البخاري في التفسير برقم (٤٧٠٨، ٤٧٣٩).

(٢) رواه أحمد في «المسند» (١٨٩/٦) برقم (٢٤٣٨٨، ٢٤٩٠٨، ٢٥٥٥٦) قال محققوه: حديث صحيح، دون قوله (وكان يقرأ...). الخ، وابن خزيمة في صحيحه برقم (١١٦٣) من طريق أبي لبابة، وقد وثقه ابن معين، وتوقف ابن خزيمة في تصحيحه، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٧١١) و«صحيح الجامع الصغير» (٢٥٠/٤) وقال الترمذي: حديث حسن غريب كما في «السنن» برقم (٢٩٢٠) ولفظه عنده (كان النبي صلى الله عليه وسلم لا ينام على فراشه حتى يقرأ بني إسرائيل والزمر) وسكت عنه الحاكم والذهبي في «المستدرک» (٤٣٤/٢) وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة برقم (٧١٢) وفي «السنن الكبرى» (١١٤٤٤) ويُنظر: «السلسلة الصحيحة» (٦٤١).

شهرتها: تسمى: سورة الإسراء، لذكر حادثة الإسراء في الآية الأولى منها.

وتسمى: سورة بني إسرائيل، للحديث السابق ذكره، وللحديث عنهم في سبع آيات بعد الآية الأولى.

وتسمى أيضًا: سورة سبحان، لافتتاحها بالتسبيح، ولا يكون هذا إلا الأمر جليل عظيم يأتي ذكره بعد التسبيح، وهو هنا إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى في لحظة من الليل، وهذا كمن يذكر أمرًا غريبًا، فيقول المستمع متعجبًا (سبحان الله).

وفي القرآن الكريم ست سور أخرى افتتحت بمادة التسبيح:

١- منها ما جاء بفعل الأمر ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ والأمر الجليل بعده هو الخلق والتقدير لهذا الكون.

٢- ومنها ما جاء بالفعل الماضي وهو سور: الحديد والحشر والصف، أما سورة الحديد، فلذكر اثنين وعشرين اسمًا وصفة لله تعالى في مطلع السورة.

وأما سورة الحشر، فلاخراج بني النضير من ديارهم لأول الأرض التي حُشروا إليها.

أما سورة الصف، فلأن الله تعالى يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً.

٣- ومنها ما جاء بالفعل المضارع، وهو سورة الجمعة، والأمر الجليل في أولها هو بعثة محمد ﷺ إلى هذه الأمة، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم.

وفي سورة التغابن، كان التسبيح لخلق الإنسان وتصويره في أحسن صورة، وخلق العالم العلوي والسفلي.

والآية الأولى من سورة الإسراء هي الآية الوحيدة المختومة بحرف الراء، وبقية آيات السورة مختومة بالألف.

موضوعات السورة:

وقد تحدثت الآية الأولى عن الإسراء، وأما الحديث عن المعراج فقد جاء في أول سورة النجم ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ﴾ [النجم]

وتحدثت السورة في أوائلها عن إفساد بني إسرائيل في الأرض، كما تحدثت عن القرآن

الكريم في أحد عشر موضعاً منها .

وتحدثت عن أحكام وآداب إسلامية كثيرة، ذُكر في الربع الثاني منها بضعة وعشرون تكليفاً شرعياً في ثماني عشرة آية، بدأت بالأمر بتوحيد الله تعالى، وانتهت بخُلُق التواضع وعدم الكبر، وهي الوصايا التي ذُكرتها ألواح موسى ﷺ .

وتحدثت السورة أيضاً عن موقف المشركين من رسالة محمد ﷺ، وطلبهم منه خوارق العادات، كما تناولت بعض الآيات الكونية الدالة على وحدانية الله تعالى، كالليل والنهار، وتحدثت عن البعث والنشور، والحساب والجزاء .

وذكر فيها قصة آدم وإبليس وإغوائه بني آدم، وعوده لهم بالمرصاد، وسأقت السورة ألواناً من نعم الله تعالى على خلقه في البرّ والبحر، وبيّنت سنن الله تعالى التي لا تتخلف في شأن الهدى والضلال بالنسبة للعباد، وخُتِمت السورة بالحمد، كما افْتُتِحت بالتسبيح .

وبذلك فإن السورة تناولت شؤون العقيدة، والرسالة، والمعاد، وهذه الثلاثة هي عناصر القرآن المكي .

وباستعراض مجمل آيات السورة نجدها تشير -بعد الافتتاح بالحديث عن الإسراء- إلى التوراة التي أنزلها الله تعالى على موسى ﷺ؛ لتكون هداية لبني إسرائيل، ولكنهم حرّفوها وبذلّوها، وأفسدوا في الأرض إفسادتين كبيرتين، بتحريفهم للتوراة، وقتلهم لأنبياء الله: شعيا وزكريا ويحيى عليهم السلام، وكفرهم بمحمد ﷺ بعد اعترافهم به ووعدهم بالإيمان به حين يُبعث، ولا يزال إفسادهم متجدداً متواصلاً بأهل فلسطين وغيرهم، وبمحاولاتهم هدم المسجد الأقصى وبناء الهيكل المزعوم، وهذا الإفساد مصحوب بخُذْلان الله تعالى لهم، وانتقامه منهم .

وبعد الحديث عن كتاب موسى ﷺ أشارت السورة إلى كتاب محمد ﷺ الذي أنزله الله عليهم هداية للبشر إلى التي هي أقوم، وليبشر المؤمنين بالأجر الكريم، وبيّن لهم أن كل إنسان محاسب يوم القيامة، ومجزئ بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، وأن كل نفس لا تتحمل إثم نفسٍ أخرى .

ثم أشارت السورة إلى أن سُنة الله تعالى في خلقه، أن تكون عاقبة أهل البطر والفسق

هي الدمار والهلاك، ومن يَسْعَ للدنيا تكن نهايته جهنم، ومن يَسْعَ للآخرة تكن نهايته الجنة، وهذا مجمل ما جاء في الربع الأول من السورة.

الأوامر والنواهي في الربع الثاني من السورة:

ثم ذكرت السورة أربعة عشر من الأوامر والنواهي الإلهية، جاء ذكرها في ثماني عشرة آية من الآية ٢٢-٣٩، وهي:

- ١- النهي عن الشرك بالله تعالى في قوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ [٢٢]
- ٢- الأمر بالتوحيد: وَقَدّْمَ النهي عن الشرك على الأمر بتوحيد العبادة لله في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [٢٣]؛ لأن التولية تكون قبل التحلية.
- ٣- ثم أمر سبحانه بالإحسان إلى الوالدين في قوله تعالى: ﴿وَيَا أُولَٰئِكَ الْوَدَّاعِ إِحْسَانًا أَلَدْنِي﴾ [٢٣] وخفض الجناح لهما، ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ ونهت عن أدنى ما يؤذيهما، لا سيما عندما يتقدم بهما العمر، وتشتد الحاجة إلى الأبناء ﴿فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُمٌّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا﴾.
- ٤- وتلا ذلك الأمر بصلة الرحم، ومدد يد العون إلى المسكين، وابن السبيل، وحسن القول عند فقد المادة. ﴿وَأَتَتْ ذَا الْقَرْيَةِ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾. ﴿وَأَمَّا نَعُزُّنَ عَنْهُمْ أَبْعَا رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.
- ٥- ونهت آيات الله تعالى في السورة عن الإسراف والتبذير، وصورت المبذرين في أقيح صورة؛ حيث جعلتهم إخواناً للشياطين، والشيطان كافر بربه: ﴿وَلَا تُبْذِرْ بَذِيرًا ۖ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾.
- ٦- كما نهت عن التقدير والبخل، وأمرت بالتوسط والاعتدال في الإنفاق. ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾.
- ٧- ونهت أيضاً عن جريمة الإجهاض، وتحديد النسل، ونحوهما، خوفاً من الفقر؛ فإن الرزق بيد الله تعالى، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ حَسْبَهِ إِمْلَاقٌ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾.
- ٨- ونهت عن جريمة الزنى وسائر الفواحش ما ظهر منها وما بطن. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾.

٩- كما نهت عن قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وبيّنت أن المقتول ظلماً منصور ولا بُدَّ، ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾.

١٠- ونهت عن أكل مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾.

١١- وأمرت الآيات بالوفاء بالعهد والوعد، وبيّنت مسؤولية ذلك عند الله تعالى.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾.

١٢- كما أمرت الآيات بوفاء الكيل والميزان في البيع والشراء، وسائر الأمور المادية والمعنوية. ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْقِئِ﴾.

١٣- ثم نهت عن القول بغير علم؛ فقد جاء ذلك قرين الشرك في كتاب الله تعالى.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾.

١٤- وأشارت إلى أن الإنسان مسؤول عن سمعه وبصره وفؤاده، فلا يستعملهم إلا في طاعة الله سبحانه. ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾.

١٥- وختمت هذه الوصايا بالنهي عن الكبر، والغرور، والخيلاء، سواء أمشى الإنسان على الأرض بقدميه، أم بدابته، أم بسيارته، أم بطائرته، أم بغير ذلك.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾.

وكما بدأت هذه الأحكام بالنهي عن الشرك بالله تعالى وختمت كذلك بالنهي عن الشرك به جل شأنه ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [٣٩].

ذِكْرُ لَفْظِ الْقُرْآنِ فِي السُّورَةِ أَحَدُ عَشَرَ مَرَّةً:

وقد جاء ذكر لفظ القرآن في السورة في إحدى عشرة آية بما لم يقع في سورة أخرى:

١- فقد أشارت في الآية التاسعة من السورة إلى أن هذا القرآن يهدي إلى أقوم الطرق وأعدلها. ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾.

٢- وأشارت الآية الحادية والأربعون إلى أن الله تعالى قد صرّف وجوه الهدايات في هذا القرآن ونوعها؛ ليتذكر الناس ويعتبروا، ولكن الكافرين لا يزدادون إلا نفورًا:

﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ .

٣- وذكرت الآية الخامسة والأربعون أن غير الموحّد تشمئز نفسه إذا ذكر اسم الله وحده، فينصرف مُدْبِرًا نَافِرًا، فإذا انضم إليه غير الله سبحانه فرح واستبشر.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ .

٤- وَبَيَّنَّتْ الآية السادسة والأربعون أن قلوب غير المسلمين عليها أغطية، وحجاب ساتر، يحجب عقولهم عن الانتفاع بما في القرآن، والاهتداء بهديه: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ .

٥- وفي الآية الستين ذُكِرَ شجرة الزقوم، وهي الشجرة الملعونة في القرآن، وجاء ذكرها ابتلاءً للناس وتخويفاً لهم؛ كي يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا إلى ربهم:

﴿وَمَا جَعَلْنَا الزُّرِّيَّةَ الَّتِي آَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ﴾ .

٦، ٧- وذكر لفظ القرآن مرتين في الآية الثامنة والسبعين؛ للإشارة إلى إطالة القراءة في صلاة الفجر؛ لأن الملائكة تحضر هذه الصلاة:

﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِكَ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ .

٨- وأشارت الآية الثانية والثمانون إلى أن القرآن علاج لأمراض القلوب، والأبدان، والأرواح، وهذا العلاج لا يستفيد منه غير المسلم؛ لأنه قد حَرَمَ نفسه الهداية، ففسق عن أمر ربه، وضل الطريق الموصِّل إلى رضوان الله تعالى:

﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ .

٩- وأشارت الآية الثامنة والثمانون إلى أن الإنس والجن لو اجتمعوا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلن يتسنّى لهم ذلك، ولو تعاونوا وتضافروا بجميع ما يملكون من قُدْرَاتٍ، وأموال، ومهارات. ﴿قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ .

١٠- وأشارت الآية التاسعة والثمانون إلى أن الله تعالى قد ضرب الأمثال، ونوع الأساليب في هذا القرآن فأبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق، ونكراناً لحجج الله على خلقه. ﴿وَلَقَدْ صَرَفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾ .

١١- وَبَيَّنَّتِ الْآيَةُ السَّادِسَةُ بَعْدَ الْمِئَةِ أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يُقْرَأُ بِتَوْدَةٍ، وَتَمَهُّلٍ، وَتَدْبِيرٍ، كَمَا أَنَّهُ نَزَلَ مَفْرَقًا، وَمَوْزَعًا وَفَقِ الْحَوَادِثِ، وَمَقْتَضَى الْأَحْوَالِ:

﴿وَقَرَأْنَا لَهُ فَرَقَاتِهِ لِقِرَاءٍ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكِّ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾.

وقد ذُكِرَ الْقُرْآنُ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِالْفَافِ أُخْرَى كَثِيرَةً؛ كَلَفِظَ الْوَحْيَ، وَالرُّوحَ، وَأَسْمَاءَ الْإِشَارَةِ، وَالْمَوْصُولَ، وَعَوَّدَ الضَّمِيرَ عَلَيْهِ.

مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِيُفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَا ذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾﴾.

وقوله سبحانه: ﴿وَلَيْنَ شَيْئًا لَنُذَهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [٨٦].

وَفِي أَعْقَابِ ذَلِكَ تَأْتِي اقْتِرَاحَاتُ الْمَكْذِبِينَ بِالْقُرْآنِ، الَّذِينَ يَطْلُبُونَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ لَهُمْ بِبَدَائِلِ أُخْرَى غَيْرِ الْقُرْآنِ، بِأَنْ يَفْجُرَ لَهُمُ الْأَرْضَ، أَوْ تَكُونَ لَهُ حَدَائِقُ وَبَسَاتِينُ، أَوْ يَنْزِلَ السَّمَاءُ عَلَيْهِمْ قِطْعًا، أَوْ يَأْتِيَ لَهُمُ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ عِيَانًا، أَوْ يَكُونَ لَهُ قَصْرٌ مِنْ ذَهَبٍ، أَوْ يَصْعَدَ إِلَى السَّمَاءِ وَيَأْتِيَ لَهُمْ مِنْهَا بَكْتَابٌ مَنْشُورٌ يَقْرَءُونَ فِيهِ أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ رَسُولَهُ أَنْ يَجِيبَهُمْ عَلَى كُلِّ ذَلِكَ قَائِلًا: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [٩٣]. وَهَذِهِ الْآيَاتُ مِنْ [٩٠-٩٦]،

وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ [٥٩].

وَمِنْ حَدِيثِ السُّورَةِ عَنِ الْقُرْآنِ يَتَبَيَّنُ أَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ عَرَفُوا الْحَقَّ، وَلَمْ يَنْكُرُوهُ وَأَنَّهُمْ إِذَا تَلَّى عَلَيْهِمْ هَذَا الْقُرْآنَ خَرُوا سَجْدًا وَبِكِيًّا، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ، وَزَادَهُمْ ذَلِكَ خَشُوعًا وَإِيمَانًا مِنْ [١٠٧-١٠٩].

أَمَّا حَدِيثُ السُّورَةِ عَنْ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَمِنْهُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ لِرَبِّهِ طَائِفَةٌ عُنُقِهِ وَخُجِرَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمْئِهِمْ فَمَنْ أُوِّقِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾.

ومن ذلك إنكار الكفار والملحدين لليوم الآخر قائلين: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفْنًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ ﴿٤٩﴾ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لِّئِنَّتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ﴿٥٢﴾ .

ومن حديث السورة عن الشرك والمشركين، ما جاء في قوله تعالى:

﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٩﴾ .

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ ﴿٥٧﴾ .

ومن الأدلة على وحدانية الله تعالى في السورة قوله: ﴿رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ ﴿٦٦﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَٰهَهُ﴾ ﴿٦٧﴾ ويأتي بعد هاتين الآيتين وعيد لكل من عصى الله تعالى أن يخسف الله بهم الأرض، أو يرسل عليهم قاصفاً من الريح يهلكهم ويبيدهم.

وجاء ختام السورة مشيراً إلى إنكار الكفار أن يدعو المسلم ربه بقوله: يا أله، يا رحمن، فبيّن سبحانه أن له الأسماء الحسنى، وأن للمسلم أن يدعو ربه بما شاء منها، وأن له تعالى الثناء الحسن، والذكر الجميل، وأنه جل شأنه ليس له شريك في ملكه، وهو الغني عن خلقه، والخلق كلهم محتاجون إليه، فكبره تكبيراً.

سُورَةُ الْكَهْفِ (١٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الكهف هي السورة الثامنة عشرة في ترتيب سور المصحف، والسورة الثانية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الغاشية، وقبل سورة الشورى، وهي سورة مكية. وعدد آياتها مائة وعشر آيات في المصحف الكوفي^(١) وهي ألف وخمسة مئة وسبع وسبعون كلمة، وستة آلاف وثلاث مئة وستون حرفاً.

سماها النبي ﷺ سورة الكهف كما في حديث أبي الدرداء: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال»^(٢)، ويقال: سورة أصحاب الكهف.

وروى الديلمي في مسند الفردوس أنها نزلت جملة واحدة معها سبعون ألفاً من الملائكة. وهذه السورة تقع في منتصف المصحف، وقد قالوا: إن حرف التاء من قوله تعالى: ﴿وَلَيْتَ أَطْفَ﴾ هو نصف حروف القرآن الكريم، وإن حرف النون من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ هو نهاية خمسة عشر جزءاً من القرآن الكريم وفق التقسيم الحرفي للمصحف.

فضل سورة الكهف:

وقد وردت أحاديث في فضل سورة الكهف بصفة عامة، ووردت أحاديث في فضل الآيات العشر الأولى منها، وأحاديث أخرى في فضل الآيات العشر الأواخر منها بصفة خاصة، وأنها تعصم من فتنة المسيح الدجال، من ذلك:

١- ما جاء في الصحيحين، وغيرهما، عن البراء رضي الله عنه قال: قرأ رجل سورة الكهف،

(١) ومئة وخمس آيات في المصحف الحجازي (المكي والمدني) ومئة وست آيات في المصحف الشامي، ومئة وإحدى عشرة آية في المصحف البصري.

(٢) «صحيح مسلم» برقم (٨٠٩) من حديث أبي الدرداء، زاد أبو عبيد في فضائل القرآن ص ٢٤٥: «ومن حفظ خواتيم سورة الكهف كانت له نوراً يوم القيامة» والحديث في «المسند» (٢١٧١٢) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققوه)، وأبي داود (٤٣٢٣) والترمذي (٨٨٦)، وابن حبان (٧٨٥) والنسائي (١٠٧٨٧) والحاكم (٣٦٨/٢).

وفي الدار دابة جعلت تنفر، فنظر فإذا ضبابية، أو سحابة قد غشيته، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «اقرأ فلان؛ فإن السكينة نزلت للقرآن»^(١).

والذي كان يقرأ السورة هو أُسَيْدُ بن حضير، كما بيَّنه الطبراني، وكان له حصان مربوط، فغشيته سحابة، وجعلت تدنو منه وتدنو، والحصان ينفر، فلما أصبح ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «تلك السكينة تنزلت بالقرآن».

٢- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف كانت له نوراً من مقامه إلى مكة، ومن قرأ عشر آيات من آخرها ثم خرج الدجال لم يضره»^(٢).

وفي لفظ: لم يسلط عليه، ومن توضعاً ثم قال: (سبحانك اللهم وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك) كتب في رقٍّ ثم طُبع بطابع فلم يكسر إلى يوم القيامة.^(٣)

٣- وعن أبي سعيد أيضاً أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»^(٤).

٤- وعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة سطع له نور من تحت قدمه إلى عنان السماء يضيء له يوم القيامة، وغُفر له ما

(١) البخاري برقم (٣٦١٤، ٤٨٣٩، ٥٠١١) ومسلم برقم (٧٩٥) والترمذي برقم (٢٨٨٥) وقال: حسن صحيح و«المسند» (٢٨١/٤) برقم (١٨٤٧٤، ١٨٥٠٩، ١٨٥٩١) والنسائي (١١٥٠٣) وابن حبان (٧٦٩) وغيرهم.

(٢) صححه الحاكم على شرط مسلم (٥٦٤/١) وقال الذهبي: ووقفه ابن مهدي عن الثوري عن أبي هاشم، وأخرجه البيهقي موقوفاً (٢٤٩/٣) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٥٦/٧): رواه الطبراني في الأوسط من حديث طويل (١٤٥٥) وهو بتمامه في كتاب الطهارة ورجاله رجال الصحيح.

وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٩٠/١) عند الحديث رقم (١٤٧٣): الصواب (من أولها) كما حققه في السلسلة الصحيحة (٢٦٥١)، وذكر أن رواية (من آخرها) جاءت في النسائي من رواية شعبة الشاذة، وأنه بين ذلك في الصحيحة (٥٨٢).

(٣) ينظر: صحيح الترغيب (١٩١/١) حديث رقم (١٤٧٣) صحيح لغيره قال: والموقوف صحيح لذاته. (الألباني).

(٤) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٢٤٩/٣) وصححه الحاكم في «المستدرک» (٣٦٨/٢) وقال الذهبي: قلت: نعيم ذو مناكير، قلت: له شواهد بمعناه تقويه كالحديث الذي يليه، وصححه الألباني في «الإرواء». (٦٢٦) و«صحيح الترغيب والترهيب» (٧٣٦).

بين الجمعتين»^(١).

٥- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة، أضاء له من النور ما بينه وبين البيت العتيق»^(٢).

٦- وعن أبي هاشم بإسناده: «من قرأ سورة الكهف كما أنزلت كانت له نوراً يوم القيامة»^(٣).

٧- وعن علي رضي الله عنه مرفوعاً: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة فهو معصوم إلى ثمانية أيام من كل فتنة تكون، وإن خرج الدجال عُصِمَ منه»^(٤).

٨- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال»^(٥). وهذا بالنسبة لحفظ عشر آيات من أولها.

٩- وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أيضاً: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال»^(٦). وهذا لمن قرأ العشر آيات من آخرها حفظاً أو نظراً.

فهذه أحاديث وآثار تنص على أن من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة لاسيّما الآيات العشر من أولها وآخرها فإنه يُعَصِمُ من الدجال، ويضاء له نور إلى عنان السماء، وإلى

(١) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (٥١٣/١) وقال: رواه ابن مردويه بإسناد لا بأس به، وضعف الألباني رفعه في «ضعيف الترغيب» (٤٤٧) وقال ابن كثير: في رفعه نظر، وأحسن أحواله الوقف.

(٢) رواه سعيد بن منصور، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣١ والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١٠٧٩٠) ورجح الفاضل محمد طرهوني في «موسوعة فضائل القرآن» (١/٣٣٧) أنه موقوف له حكم الرفع وأخرجه الدارمي (٢/٤٥٤) وابن الضريس (٢١١) والحاكم (١/٥٦٤) والبيهقي في الشعب (٢٤٤٤).

(٣) رواه الطبراني في «المعجم الأوسط» برقم (٤٢٨) وقد رُوي مرفوعاً وموقوفاً وهو في «شعب الإيمان» عن أبي سعيد برقم (٢٤٤٦).

(٤) رواه الضياء المقدسي في «المختارة» برقم (٤٣٠) وابن مردويه، وفي تخريج «الإحياء» (١/٤٤٧): سنده مجهول.

(٥) أخرجه أحمد (٦/٤٤٩، ٤٥٠) برقم (٢١٧١٢، ٢٧٥٤٠) بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات ومسلم برقم (٨٠٩) وأبو داود برقم (٤٣٢٣) والترمذي برقم (٢٨٨٦) وقال: حسن صحيح، إلا أنه قال: ثلاث آيات بدلاً من عشر آيات، وأخرجه النسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠٢٥) و(١٠٧٨٧) وأبو داود (٤٣٢٣) وابن حبان (٧٨٥، ٧٨٦) والحاكم (٢/٣٦٨) وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٢).

(٦) «المسند» (٦/٤٤٦) برقم (٢٧٥١٦) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٠٩/٢٥٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة (١٠٧٨٥) وابن حبان (٧٨٣) وأبو عبيد في فضائله ص (١٣٢).

البيت العتيق، ويُغفر له ما بين الجمعيتين، وتُنزل السكينة عليه، ولا يضره شيطان ولا آفة.

سبب نزول السورة:

ذكر ابن إسحاق، والطبري، وغيرهما بسند فيه رجل لم يذكر اسمه، عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن كفار قريش أرسلت النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط، من مكة إلى أحبار اليهود بالمدينة، يقولون لهم: أنتم أهل كتاب، وعلى علم بالأنبياء وصفاتهم وعلاماتهم وأحوالهم أكثر منا، وقد جئنا نسألکم عن أمر محمد ﷺ فوصفوه لهم، وذكروا أخباره وأقواله.

ثم قالوا لهم: سلوه عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في غابر الزمن ما قصتهم؟ وسلوه عن رجل طاف الأرض مشرقاً ومغرباً ما نبؤُهُ؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أجابكم عنها فهو نبي مرسل، وإن لم يجبكم فهو متقول، أي: كاذب في أقواله، فلما سألوا النبي ﷺ قال: سأخبركم غداً ولم يستثن، فانصرفوا عنه.

ثم مكث ﷺ خمس عشرة ليلة، وانقطع الوحي خلال هذه المدة، وشق ذلك على رسول الله ﷺ وحزن كثيراً، ثم نزل الوحي بسورة الكهف، وفيها جوابهم بقصة أصحاب الكهف، وقصة ذي القرنين، وبقوله تعالى من سورة الإسراء: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾^(١).

وأهم غرض نزلت له سورة الكهف هو قصة أصحاب الكهف، وقد ذكرت القصة في أول السورة، ثم ذكرت قصة ذي القرنين في آخر السورة، أما الإجابة عن الروح فقد نزلت لتلحق بسورة الإسراء التي نزلت قبل سورة الكهف بتفويض العلم فيها إلى الله تعالى.

ويُحتمل أن نزول سورة الإسراء ظل مفتوحاً إلى وقت نزول سورة الكهف.

وفي رواية أخرى: أن اليهود قالوا للمشرّكين من قريش: سلوه عن الروح، فإن أخبركم به، فليس بنبي، وإن لم يخبركم به فهو نبي، كما سبق ذكره عند آية الروح في سورة الإسراء.

وقد عاتب الله سبحانه رسوله ﷺ بآيتين في هذا المقام: الآية السادسة وهي تتعلق

(١) يُنظر: «تفسير الطبري» (١٥/١٢٧) وابن كثير (١٤) و«سيرة ابن هشام» (١/٣٠٢) وأبو نعيم في «الدلائل» والبيهقي في «الدلائل» أيضاً (٢/٢٧٠).

بحزنه ﷺ وحرصه الشديد على إيمان القوم ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِعْجٌ تَفْسَكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾، أي: لعلك قاتلها ومهلكها على عدم إيمانهم، وإنما أنت رسول تبلغ عن الله أمره ونهيه فحسب، وهذا معنى: ﴿إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

وعاتبه ربه أنه لم يستثن حين قال: سأخبركم غداً، أي: لم يقل (إن شاء الله)، ولذلك فإن الوحي قد انقطع، قيل: ثلاثة أيام، وقيل: خمسة عشر يوماً، ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ (٣٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ. .

أغراض السورة:

وسورة الكهف فيها ثلاث قصص: قصة أهل الكهف في سبعة عشر آية، من الآية (٩-٢٩) وهي قصة الإيمان والكفر، وإثبات البعث والحساب والجزاء في يوم القيامة.

وقصة موسى والخضر في اثنين وعشرين آية، من الآية (٦٠-٨٠)، وهي قصة فيها آداب طلب العلم، وبيان أن فضل موسى ﷺ لا يمنع أن يكون الله سبحانه قد أطلع الخضر ﷺ على ما لم يُطلع عليه موسى وهو نبي مرسل.

وجاءت قصة ذي القرنين في ثماني عشرة آية، من الآية (٨٣-١٠١) وهي قصة المَلِكِ العادل، الذي يحول دون وصول الأذى إلى رعيته، ويسوس الناس بالعدل والقسط، ويفتح البلاد، ويقيم الحضارات، فيعمل لخير العباد والبلاد، ولا يحرص على بقاء المنصب وتوريث الحكم.

وفي السورة ضرب الله سبحانه ثلاثة أمثلة: ضرب مثلاً بالرجل الغني المغرور المفتون بأمواله، في مقابل الرجل الفقير، المعتر بدينه وعقيدته، وذلك في اثنتي عشرة آية، من الآية (٣٢-٤٤).

وضرب مثلاً ثانياً للحياة الدنيا في زينتها وبهجتها، ثم تصير إلى زوال وفناء.

وذلك في الآية (٤٥).

وضرب مثلاً ثالثاً للتكبر والاستعلاء، يتمثل في إباء إبليس وامتناعه عن السجود لآدم وفق أمر الله سبحانه له، وذلك في الآية (٥٠).

وبعد كل مثل وقصة تعليق شافٍ رائع يهدي إلى الله سبحانه، ويُعدُّ للقاءه:

ففي نهاية قصة أهل الكهف يعقب الله تعالى عليها بقوله: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ الآية [٢٦].

وفي نهاية مثل أصحاب الجنتين يعقب الله تعالى عليها بقوله: ﴿هَٰذَاكَ الْوَلِيُّ لِلَّهِ الْخَوَّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ الآية.

ويأتي ذكر المثل بالحياة الدنيا وسرعة زوالها بعد ازدهارها عقب قصة المفتون بجنته، وفي التعقيب على مثل الحياة الدنيا وزينتها يقول سبحانه: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الْصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ الآية [٤٦].

وفي التعقيب على قصة ذي القرنين يقول تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْلَمُ مَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ الآية [١٠٢].

وقد مثل القصص في السورة أكثر من سبعين آية من مجمل آيات السورة، وهي عشر ومئة آية في المصحف الكوفي.

ولأن سورة الكهف مكية، فهي تُعنى بالدرجة الأولى بتصحيح العقيدة في إعلان التوحيد وإنكار الشرك، وإقامة منهج القيم والنظر والفكر على ميزان العقيدة الصحيحة.

ويرتبط أول السورة بآخرها وثناياها برباط التوحيد:

ففي أول السورة قوله تعالى: ﴿وَنُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ الآية.

وفي آخرها يقول سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الآية [١١٠].

وفي ثنايا السورة: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ الآية [١٥].

وفيها: ﴿وَلَا يُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [٢٦].

وفيها: ﴿لَنَكُونَنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ الآية.

ويوم القيامة يصيح الكافر ندمًا قائلاً: ﴿يَلْبِسَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ الآية [٤٢].

والقرآن كله جاء لدعم عقيدة التوحيد:

ومنه ما جاء في أول السورة: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ۖ﴾ .
وفي نهاية القصة الأولى: ﴿وَأَنْزَلَ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجْعَلَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۖ﴾ الآية .

والناس بالنسبة لهذا القرآن فريقان: مؤمن، وكافر، وقد أمر الله رسوله أن يُصَبِّرْ نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وهم المؤمنون، وأن يبتعد عَمَّنْ أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطاً .

وبعد أن بَيَّنَّ سبحانه مصير كل فريق في الجنة أو النار، قال سبحانه: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ۖ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ۚ﴾ الآية [٢٩] .

مع موضوعات السورة:

وسورة الكهف إحدى خمس سور بُدِئَتْ بِـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وهي سور: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر، وكلها تبتدئ بتمجيد الله تعالى وتقديسه، والثناء عليه بصفات الجلال والكمال، والآيات الأربع الأخرى هي على التوالي:

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢] .

٢- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام] .

٣- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَمَلِكْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [سبأ] .

٤- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِيَّةِ رَسُولًا أُولَىٰ أَجْنَحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبْعًا يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر] .

وكان افتتاح هذه السورة بحمد الله تعالى على إنزاله القرآن على عباده؛ ليبشر المؤمنين بالنعيم المقيم، وينذر الذين نسبوا الشريك والولد لله تعالى، بنار جهنم وبئس المصير، ولتقرير أن ما على وجه الأرض من زينة ومتاع إنما هو للابتلاء والاختبار، والنهاية إلى زوال وفناء .

ويلي هذا الافتتاح قصة فتية آمنوا بربهم، وآثروا هذا الإيمان على زخرف الدنيا وبهجتها، فهربوا بعقيدتهم من جور المَلِك الطاغية، واتخذوا من الكهف مأوى لهم، فَرَعَتْهُمُ العناية الإلهية، حتى إن شعاع الشمس كان يميل عن فم الكهف في الصباح يمينا، وفي المساء شمالا؛ حتى لا يشعر المارة بأن في هذا الكهف أحدا، وبعد ثلاث مئة سنة، يستيقظون ليجدوا أن الزمن قد تغير، فرالت دولة الشرك، وجاءت دولة التوحيد، وذهب الخوف والبطش، وحلَّ الأمن والأمان.

وبعد هذه القصة يوجه الله سبحانه رسوله ﷺ إلى أن يكون مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي من أهل التقى والإيمان، وإن كانوا أفقر الناس وأضعفهم، وأن يتعد عن الغافلين عن ذكر الله، وإن كانوا أهل ثراء وجاه.

ثم بيّن سبحانه المصير العادل لكلا الفريقين في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ﴾ الآية [٢٩].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۖ ﴿٣٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ الآيتان [٣٠، ٣١].

ثم يعقُب ذلك حوار بين مؤمن قليل المال، وكافر على جانب من الثراء، يتناول فيه الكافر على المؤمن مغترًا ومفاخرًا بماله، فتأتي جوائح السماء لتجعل جنته قاعًا صفصفاً.

﴿فَأَصْبَحَ يَقُودُ كَهَنِيهِ عَلَىٰ مَا أَتَّفَقَ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلَغْتَ لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ الآية [٤٢].

لقد كان عليه أن يتأدب بأدب الإسلام وينسب الفضل إلى الله وحده، ويقول: «اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»^(١)

إن الحضارة الحديثة صنعت أجيالاً من طراز هذا الثري، فارتبطت بالتراب، واستبعدت الدار الآخرة وما فيها من حساب وجزاء، وجنة ونار، وفُتِنُوا بالدنيا وزخرفتها، فانهزموا أمام حب الدنيا، وتعلّقوا بالحطام، وليس للدار الآخرة حساب في منظورهم، وهم في انتظار يوم الحساب حيث تكون المفاجآت، ويوقنون أنهم كانوا على خطأ بين.

(١) يُنْظَرُ: البخاري (٨٤٤، ٦٣٣٠، ٦٤٧٣) ومسلم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة.

ولذا: فإن الله سبحانه يحذرنا من عداوة الشيطان أثناء الحديث عن مشاهد القيامة؛ لنكون على حذر من كيده ومكره.

وبعد قصة موسى مع الخضر، وقصة ذي القرنين، تُختم السورة ببيان ما أعدّه الله سبحانه للكافرين من سوء العذاب، وما أعدّه للمؤمنين من جزيل الثواب؛ لإبراز عنصر الموازنة بين حُسن عاقبة الأخيار، وسوء عاقبة الأشرار.

وبعد تقرير جزاء المحسن والمسيء تأتي آية تتحدث عن كلمات الله تعالى؛ لتبيّن أنه ليس في مقدور أحد إحصاؤها، وأن البحار لو كانت مدادًا، والأشجار أقلامًا لنفد البحر، وفنيت الأقلام، دون أن تفنى كلمات الله.

وبيّنت السورة -في نهايتها- التوحيد الصحيح، عن طريق إفراد الله تعالى بالعبادة، فأشارت إلى أن العمل الصالح المقبول يحتاج إلى توافر شرطين فيه، هما:

١- إخلاص العبادة لله وحده وعدم الإشراك به سبحانه.

٢- وأن يكون العمل موافقًا لهدي النبي ﷺ.

٣- أي: أن يكون العمل خالصًا لله، صوابًا وفق سنة رسول الله.

﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ الآية [١١٠].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثمانية أقسام:

١- من أول السورة إلى الآية الثامنة: حديث عن الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ، وأسف النبي ﷺ على عدم إيمان من لم يؤمن.

٢- ومن الآية (٩-٢٦) عن قصة أصحاب الكهف.

٣- وحديث عن خفض جناح الداعية إلى الفقراء والضعفاء، وبيان نعيم المؤمنين وعذاب الكافرين بعد البلاغ والإنذار، وذلك من الآية (٢٧-٣١).

٤- ومن الآية (٣٢-٤٤) مثل الرجلين، المعتزّ بدينه، والمفتون بدنياء.

٥- ومن الآية (٤٥-٥٩) حديث عن الدنيا والآخرة، وآدم وإبليس والقرآن، ومهمة الرسل، ووعد من لم يؤمن منهم بالعذاب المؤلم.

٦- أما قصة موسى والخضر فهي من الآية (٦٠-٨٢).

٧- يليها قصة ذي القرنين من الآية (٨٣-١٠١).

٨- ثم ختام السورة من (١٠٢-٢١٠) عن جزاء أهل الكفر والإيمان، وعدم نفاذ كلمات الله تعالى، وبشرية النبي ﷺ وشرطا قبول العمل.

سُورَةُ مَرْيَمَ (١٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة مريم هي السورة التاسعة عشرة في ترتيب المصحف، والرابعة والأربعون في ترتيب النزول، وسورة مريم سورة مكية عند الجمهور، وهي تسعون وثمانين آيات بالعدد الشامي والمدني الأول والبصري والكوفي الذي هو على رواية حفص، وفي غيرها أي المكي والمدني الأخير تسع وتسعون آية.

وهي سبع مئة واثنان وستون كلمة، وثلاثة آلاف وثمان مئة حرف وحرفان.

وهي أول سورة في القرآن يُذَكَّرُ فيها لفظ: ﴿كَلَّا﴾ الذي يدل وجوده في السورة على أنها مكية.

وعن أبي بكر بن عبد الله بن أبي مريم الغساني، عن أبيه، عن جده أبي مريم، قال: أتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إنه وُلِدْتُ لي الليلة جارية، فقال: «والليلة أنزلت عليّ سورة مريم، فسَمَّها مريم»^(١).

ووجه التسمية: أن السورة بسطت قصة مريم وابنها قبل سورة آل عمران وغيرها، ويقال لها: (سورة كهيعص)، وقد نزلت بعد سورة فاطر، وقبل سورة طه، أي: أنها نزلت سنة أربع من البعثة.

وقد تكرر اسم مريم في القرآن ثلاثين مرة، ولم تُذكر امرأة بالاسم الصريح في القرآن سواها، ردًا على الذين يفترون على الله الكذب بقولهم: عيسى ابن الله، حيث إن من عادة العرب الذين نزل فيهم القرآن أنهم يستحيون من ذكر اسم المرأة أمام الرجال، فِذْكَرُ اسمها الصريح في القرآن ينفي بنوة عيسى لله تعالى، كما يزعمون، ولذلك اهتمت السورة بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى، ونفي الشريك والولد عن ذاته سبحانه، وهذا هو العنصر الأول من عناصر القرآن المكي ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا ۝٨٩ تَكَادُ السَّمَوَاتُ مِنْهُ وَنَشْأُ الْأَرْضُ وَخَرُّوا سُجَّدًا ۝٩٠﴾ أن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۝٨٩ .

كما اهتمت السورة بالعنصر الثاني، وهو إقامة الأدلة على أن البعث حق، وأن الناس

(١) رواه الطبراني في «الكبير» برقم (٨٣٤) وأبو نعيم في «المعرفة» برقم (٧٠٣٠) والحاكم والديلمي، وابن مندة.

سيحاسبون على أقوالهم وأعمالهم يوم القيامة، ويجزون عليها بالإحسان وإحساناً وبالسوء سوءاً ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًا﴾ ﴿٦٨﴾ وقال سبحانه ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴿٧٢﴾ .

أما العنصر الثالث للقرآن المكي، وهو: إثبات الوحي والرسالة، فيتجلى في ذكر شيء من تفصيل قصتي مريم وإبراهيم مع أبيه، والإشارة المركزة إلى موسى وإسماعيل وإدريس بالإضافة إلى زكريا ويحيى في أول السورة صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وهذا مما جاء به محمد ﷺ في القرآن .

وسورة مريم جاءت فواصلها غالباً مختومة بحرف الياء المشدد المنصوب، عدا الصفحة الأخيرة منها، فقد جاءت بحرف الدال المشدد المنصوب .

وقد افتتحت السورة بكلمة الرحمة: ﴿ذَكَرْ رَحْمَتَ رَبِّكَ عَبْدُكَ زَكَرِيَّا﴾ ﴿٢﴾ .

وكررت هذه الكلمة أربع مرات أثناء السورة، في الآيات: ٢ و ٢١ و ٥٠ و ٥٣ .

وذكر اسم ﴿الرَّحْمَنِ﴾ في السورة ست عشرة مرة في قوله تعالى:

١- ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ ﴿١٨﴾ .

٢- ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [٢٦] .

٣- ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا﴾ [٤٤] .

٤- ﴿يَتَابَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ﴾ [٤٥] .

٥- ﴿إِنَّا نُنَادِي عَلَيْهِمْ ءَايَتُ الرَّحْمَنِ خُزُوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ [٥٨] .

٦- ﴿جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [٦١] .

٧- ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِثًّا﴾ ﴿٦٩﴾ .

٨- ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا﴾ [٧٥] .

٩- ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ ﴿٧٨﴾ .

١٠- ﴿يَوْمَ تَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ ﴿٨٥﴾ .

١١- ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ۖ﴾ (٨٧).

١٢- ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ۚ﴾ (٨٨).

١٣- ﴿أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ۚ﴾ (٩١).

١٤- ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۚ﴾ (٩٢).

١٥- ﴿إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ۚ﴾ (٩٣).

١٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۚ﴾ (٩٦).

وذكر اسم الرحمن في السورة بهذا العدد، مع بدئها بصفة الرحمة وتكراره أربع مرات - إشارة إلى أن جوَّ السورة هو ظل الرحمة والرضا والاتصال، وهي تقرر عقيدة التوحيد وتُنزِّه الله تعالى عما لا يليق بجلاله، وتُثبِّت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء، إلى جوار استنكار الكون كله، وارتجافه لوقع كلمة الشرك التي لا تطيقها الفطرة.

وسورة مريم نزلت في السنوات الأولى للدعوة بمكة المكرمة قبل الهجرة إلى الحبشة، ولما هاجر بعض أصحاب رسول الله ﷺ إلى الحبشة قرأ جعفر بن أبي طالب صدر سورة مريم على النجاشي، فبكى حتى ابتلت لحيته وأسلم، وبكت الأساقفة حوله حتى ابتلت الصحف التي بين أيديهم، ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة^(١).

فشأن سورة مريم شأن السور المكية، تدعو إلى توحيد الله سبحانه، وتغرس في الناس معالم الرسالة الإلهية، وتتحدث عن البعث والنشور والجنة والنار.

وهي من السور ذات القصص القرآني، فقد ابتدأت بذكر قصة نبي الله زكريا، وابنه يحيى عليهما السلام، وذكر قصة مريم، وقصة ولادة عيسى عليه السلام، واختلاف النصارى في شأنه، وهي القصة الرئيسة في السورة، وذكر الحوار المصحوب بالأدب الجم بين خليل الله إبراهيم الابن، وأبيه عابد الوثن، وهو يدعو إلى عبادة الله وتوحيده.

(١) تُنظَر القصة في: «المسند» (٢٠١/١) برقم (١٧٤٠، ٢٢٤٩٨) بإسناد حسن، ورجال ثقات رجال الشيخين غير ابن إسحاق وقد صرح بالتحديث، (محققوه) والبيهقي في «الدلائل» (٣٠/٢) وأبونعيم في الدلائل (١٩٤) وابن إسحاق (٣٦٠/١) من حديث أم سلمة.

وأشارت السورة إلى عدد من الأنبياء منهم: إسحاق، ويعقوب، وموسى، وهارون، وإسماعيل، وإدريس، وآدم، ونوح.

وبيّنت السورة أن هؤلاء من الذين أنعم الله عليهم جميعاً، وأنهم من أهل الجنة، وأنه سبحانه قد خلّف من بعدهم خلُفٌ أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأنهم أهل النار، وقد استغرق هذا نحو ثُلثي السورة، ثم تحدثت في نهايتها عن أهل الضلال والشقاء، وأهل الهداية والسعادة، وبعض مشاهد القيامة.

ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: يشتمل على قصة زكريا ويحيى، وقصة مريم وعيسى، ويستغرق هذا من أول السورة إلى الآية الخمسين منها.

وقد تحدث هذا المقطع من السورة عن معجزة ولادة يحيى عليه السلام من شيخ كبير قد وهن عظمه، وخارت قواه، ومن أم عجوز عقيم، وكان لزكريا عليه السلام أقارب لا يصلحون لميراث النبوة في بني إسرائيل وهم يتطلّعون لها، فسأل ربه أن يرزقه مَنْ يسدُّ الطريق عليهم، فوهبه الله يحيى بعد ثلاث ليالٍ من التسبيح والتحميد والانقطاع للعبادة.

وتحدث هذا المقطع من السورة عن معجزة ولادة عيسى عليه السلام بدون أب، كما وُلد آدم بدون أب ولا أم، ووُلدت حواء بدون أم، ووُلد سائر البشر من أب وأم، وقد أنطق الله عيسى عليه السلام وهو في المهد، ليُريء أمه من تهمة اليهود لها.

المقطع الثاني: يتضمن قصة إبراهيم مع أبيه، وإشارة إلى قصص النبيين ومن اهتدى بهديهم، ثم مَنْ جاء بعدهم من الخلف الغواة، وهذا من الآية الحادية والخمسين إلى الآية الخامسة والستين.

وفي هذا المقطع يدور حوار بين إبراهيم وأبيه المشرك، حيث يناشد الابن أباه أربع مرات أن يدع الأصنام، ويُسلم وجهه لله تعالى، ومع أدب الحوار فإن أباه يهدده بالرجم واعتزاله إن بقي على عقيدته الصحيحة.

المقطع الثالث: يتحدث عن قضية البعث وبعض مشاهد القيامة، مع التعرض لمن أنكر ذلك من المكذبين بلقاء الله تعالى وشبهاتهم في ذلك، وينتهي هذا القسم بمشهد مؤثر من

مصارع الظلمة في القرون المكذبة، ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِئًا﴾ (٧٤) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحْشِ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا﴾ (٧٥).

وقد استغرق هذا من الآية السادسة والستين إلى نهاية السورة.

وفي هذا المقطع خطاب موجه إلى منكري البعث إلى قيام الساعة، وموازنة بينهم وبين المؤمنين الصالحين الذين يظفرون بالنجاة ويأمنون من الفزع، إلى جوار تنفيذ عقيدة كل من زعم أن لله تعالى شريكًا، فكل ما عدا الله سبحانه من إنس وجن ومَلَك، عبْدٌ لله تعالى، لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فكيف يملك شيئًا لغيره؟ والله سبحانه ييغض كل من أشرك به، ولا يغفر له جريمته إن مات وهو مُصِرٌّ عليها، ويحب الموحّدين ويُقبل عليهم بالودِّ والرحمة.

سُورَةُ طهَ (٢٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (طه) هي السورة العشرون في ترتيب المصحف، والخامسة والأربعون في ترتيب النزول. وهي سورة مكية: نزلت بعد سورة (مريم)، وقبل سورة (الواقعة) في السنة الخامسة من البعثة. وعدد آياتها في المصحف الكوفي مئة وخمسة وثلاثون آية^(١).

وهي ألف وست مئة وإحدى وأربعون كلمة، وخمسة آلاف ومئتان وأربعون حرفاً. وشهرتها: سورة (طه)، وتسمّى: سورة (موسى)، أو سورة (الكليم)؛ لأن معظم السورة تحدثت بالتفصيل عن قصة موسى ﷺ، بدءاً من رسالته، بعد قضائه الأجل في مدين، إلى عبادة بني إسرائيل للعجل الذهبي بعد خروجهم من مصر، بما في ذلك موقف الجدل بين موسى وفرعون، والمباراة بين موسى والسحرة.

وقد ذكرت قصة موسى ﷺ في حلقات موزعة في أكثر من عشر سور في القرآن الكريم، منها سور: (البقرة)، والمائدة، والأعراف، ويونس، والإسراء، والكهف، والشعراء، والنمل، والقصص، والذاريات، والنازعات)، وهي حلقات يُكَمِّل بعضها بعضاً، وليس فيها تكرار.

فقصة ولادة موسى ورضاعه، وقتله القبطي، وخِدْمَتُهُ لَصِهرِهِ عشرة أعوام مهراً لابنته، ذُكِرَتْ هذه القصة في سورة القصص فقط.

وقصة الرسالة، والعصا، واليد، والسحرة، وعبادة بني إسرائيل للعجل، ذُكِرَتْ أكثر من مرة، في أكثر من سورة، بأساليب تناسب مقام السورة، وسياق الكلام، والعبرة المطلوب الاستفادة منها في كل مقام بإيجاز، أو إطناب.

وقد اعتنى القرآن بها؛ لأنها تشبه السيرة النبوية في كثير من مراحلها.

(١) وعند أهل المدينة ومكة: مئة وأربع وثلاثون آية، وعند أهل الشام: مئة وأربعون آية، وعند أهل البصرة: مئة واثنان وثلاثون آية، وفي العدد الحمص مئة وثمان وأربعون آية.

وتبدأ هذه السورة، وتُختم ببيان وظيفة النبي ﷺ ومهمته، وبيان التكاليف التي أمر بها، وأن هذه الرسالة لم تنزل عليه ﷺ ليشقى بها، وإنما مهمته هي البشرى والإنذار، والدعوة والتذكرة والبلاغ، أما الهداية فهي من الله سبحانه، المهيمن على هذا الكون وخالقه، وخالق العباد جميعاً، ورازقهم ومدير أمرهم.

وبعد هذه المقدمة من السورة، تأتي حلقة طويلة من قصة موسى ﷺ، وكأن الله سبحانه يُعيدُ رسوله محمداً ﷺ؛ ليتحمل أعباء الرسالة، ويقول له: لك فيمن سبقك من الرسل أسوة، فتأسَّ بهم، وانظر ماذا فعل موسى ﷺ مع قومه، وكيف واجه فرعون على جبروته وطغيانه، وكيف لاقى من المشقة والعنت والأذى في تبليغ الدعوة ما لاقى، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ؛ كي يحتسب ويصبر، ويتحمل ما يجده من أذى قريش، وليتأسى به الدعاة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان.

وهذه الحلقة من قصة موسى ﷺ في سورة طه، تُذكر بإطناب وإسهاب، وتبدأ من نزول الرسالة على موسى ﷺ، وتنتهي بعبادة بني إسرائيل للعجل بعد خروجهم من مصر، ثم تختم السورة بحديث يروي مشاهد من يوم القيامة، ومصير أهل الضلال وأهل الهدى يوم لقاء رب العالمين، وفي ثنايا ذلك نبذة يسيرة عن قصة آدم وحواء عليهما السلام.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: يخاطب الله تعالى فيه النبي ﷺ؛ ليشدَّ أزره، ويُقوّي رُوحه في مواجهة المكذبين لدعوته، ويرشده إلى وظيفته التي اصطفاه لها، وفي هذا المقطع تنويه بشأن القرآن، وأنه نزل لهداية القابلين للهداية، وفيه إثبات أن رسالة محمد ﷺ أعمُّ وأشمل من رسالة أعظم رسول قبله، شاع ذكره في الناس، فضرب الله المثل على نزول القرآن على محمد ﷺ بكلام الله تعالى لموسى ﷺ، وهذا المقطع من أول السورة إلى الآية الثامنة منها.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية التاسعة إلى الآية الثامنة والتسعين، وهو عن بسطِ قصة نشأة موسى ﷺ ووحى الله إليه، ونَصْرِهِ على فرعون بالحجة والمعجزة، ونجاة موسى وقومه بإخراجهم من قبضة فرعون، وإيمان السحرة، وصناعة السامري للعجل، وتنتهي القصة بإحراق العجل وإلقائه في اليم.

وفي هذا تعريض بأن رسالة محمد ﷺ ستصير إلى ما صارت إليه رسالة موسى ﷺ من النصر على مُعانديه ونشرها في الآفاق.

والمقطع الثالث: يبدأ من الآية التاسعة والتسعين إلى نهاية السورة، وفيه وعيد لمن أعرض عن القرآن، ولم ينتفع بمواعظه وأمثاله، ثم تذكر ما أعدّه الله لهؤلاء المعرضين من عقاب مؤلم، إلى جوار بيان ما في يوم القيامة من مشاهد وأهوال، وتذكر السورة بعداوة الشيطان للإنسان، وموقفه من آدم أبي البشر.

وتختتم السورة بما بدأت به من خطاب الله تعالى لرسوله ﷺ وتحديد معالم الرسالة له، وعدم التطلع إلى ما مَتَّع الله به الآخرين من زينة الحياة.

وفي النهاية يكون انتظار العقبى؛ ليعلم من أصحاب الصراط السوي ومن اهتدى.

قصة إسلام عمر ؓ:

وقد نزلت سورة (طه) قبل إسلام عمر بن الخطاب ؓ؛ لما رواه الدارقطني عن أنس بن مالك، وابن إسحاق في سيرته^(١) أن عمر بن الخطاب كان قبل أن يُسلم شديد العداوة للإسلام، وأنه قد خرج يوماً متوشّحاً سيفه يريد قتل النبي ﷺ فلقبه في الطريق نُعَيْم بن عبد الله، قال: إلى أين تريد يا عمر؟ قال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها فأقتله، قال له نُعَيْم: أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض، إذا أنت قتلت محمداً؟ أفلا ترجع إلى أهلِكَ فتقيم أمرهم؟ قال: ومن هم أهل بيتي؟ قال: ختنك -والختن: هو زوج الأخت- وابن عمك، سعيد بن زيد، وزوجه فاطمة أختك؛ فإنهما والله قد أسلما، وتبعا دين محمد، فعليك بهما، فرجع عمر إليهما، وبالقرب منهما سمع صوتاً خفياً، وكان خبّاب بن الارت، يقرأ من صحيفة فيها صدر سورة (طه)، فلما سمعوا صوت عمر، اختبأ (خبّاب) في غرفة لهما، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فوضعتها تحت فخذها، فلما دخل عمر قال: ما هذه الهمهمة -أي: ما هذا الكلام الخفي- الذي سمعت، فأنكرا، فقال: لقد أُبلغتُ أنكما تبعتما محمداً على دينه.

(١) وهو عند ابن سعد في «الطبقات» (٣/٢٦٧) والحاكم (٤/٥٩) والبيهقي في الدلائل (٢/٢١٩) وغيرهم.

ثم ضرب ابن عمه وأخته حتى شجها، فقالا: والله قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، وتبعنا محمدًا، فاصنع ما بدا لك، قال: فأرني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأونها آنفًا، أنظر ما جاء به محمد، قالت: إننا نخشى عليها منك، فأقسم بآلهته أن يردها عليهم، وألا يمسها بسوء، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: إنك مشرك نجس، ولا يقرب هذه الصحيفة إلا طاهر، فذهب واغتسل، ثم جاء فأعطته الصحيفة، فقرأ فيها صدر سورة (طه)، فقال: ما أحسن هذا الكلام! وما أجمله! فلما سمع خباب هذه المقالة وهو مختبئ، تجرأ وخرج، فقال: إني والله لأرجو أن يكون الله سبحانه قد خصك بدعوة نبيه ﷺ فإنني سمعته بالأمس وهو يقول: «اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، فكان أحبهما إليه عمر»^(١) قاله الله يا عمر، فقال عمر: يا خباب، أين محمد؟ دُلّني عليه، فجاء إلى النبي ﷺ، وأسلم وحسن إسلامه ﷺ، وكان هذا بسبب قراءة عمر ﷺ لأوائل سورة طه.

(١) جامع الترمذي برقم (٣٦٨١) عن ابن عمر ﷺ وقال: حديث حسن صحيح غريب من (اللهم أعز الإسلام..). وصححه الألباني برقم (٢٩٠٧) وفي مشكاة المصابيح (٦٠٣٦) التحقيق الثاني وصححه ابن حبان (٦٨٨١) وانظر المسند برقم (٥٦٩٦) من (اللهم أعز الإسلام..). قال محققوه: خارجه ابن عبد الله الأنصاري، ضعفه أحمد والدارقطني والذهبي وقال ابن معين وابن عدي: لا بأس به، وقيل: غير ذلك، وبقيّة رجاله ثقات رجال الشيخين.

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ (٢١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأنبياء هي السورة الحادية والعشرون في ترتيب المصحف، والحادية والسبعون في ترتيب النزول، وهي سورة مكية نزلت بعد سورة السجدة، وقبل سورة النحل. وعدد آياتها في المصحف الكوفي الذي هو على رواية حفص، اثنا عشرة ومئة آية، وإحدى عشرة ومئة آية في بقية المصاحف.

وهي ألف ومئة وثمان وستون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة وتسعون حرفاً.

وقد سماها الصحابة سورة الأنبياء، ولم يُعرف لها اسم آخر، كما جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: بني إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، هُنَّ من العتاق الأول، وهُنَّ من تِلَادِي ^(١).

وبنو إسرائيل: يعني سورة الإسراء، والعتاق الأول، أي: من السور العتيقة التي نزلت بمكة، وهُنَّ من تِلَادِي، أي: من أوائل ما نزل من القرآن.

وهي من أواخر السور النازلة بمكة قبل الهجرة.

وسُميت سورة الأنبياء؛ لأنه ذُكر فيها ستة عشر نبياً، بالإضافة إلى مريم، وهم: موسى وهارون، وإبراهيم، ولوط، وإسحاق، ويعقوب، ونوح، وأيوب، وداود، وسليمان، وإسماعيل، وإدريس، ويونس، وزكريا، ويحيى، وذو الكفل.

ولم يُذكر في سورة من القرآن مثل هذا العدد من الأنبياء عدا سورة الأنعام، فقد جاء فيها ذكر ثمانية عشر نبياً في أربع آيات متوالية، وهي مجرد سرد للأسماء في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝٨٢ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝٨٣ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّن

الْمَلَكِ ۖ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُوشَعَ وَلُوطًا وَكَثِيرًا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ ۚ [الأنعام]

ونظرًا لطول سورة الأنعام، وتفصيل أحكام الأنعام فيها، بما لم يذكر في غيرها، ولأن أسماء الأنبياء الذين ذكروا فيها لم يصاحبهم قصة كل منهم؛ لذلك سميت سورة الأنعام، كما أن عدد الأنبياء في سورتي: هود، والشعراء، أقل بكثير مما جاء في هذه السورة، لذا كانت هي الأجدر بتسميتها: سورة الأنبياء.

ولم تتبّع السورة في ذكر هؤلاء الأنبياء ترتيبًا زمنيًا، ولا تحديدًا مكانيًا، فقد بدأت بذكر موسى وهارون، وثنت بالكلام عن إبراهيم، وهما من ذريته، وهذا عكس ما جاء في سورة مريم؛ حيث ذكرت إبراهيم أولًا، وأتبعته بموسى وإسماعيل وإدريس عليهم السلام.

والجانب الذي فصلت فيه هذه السورة القول من قصة إبراهيم، هو ما يتعلق بتحطيم الأصنام، وهي أطول قصة في السورة من غيرها، وجاء ذكر لوط بعد إبراهيم؛ لأنه ابن أخيه، وشريك له في الهجرة من العراق إلى أرض الشام، ثم عاد الكلام إلى نوح، وتبعه الكلام عن داود، وسليمان، وهما من أنبياء بني إسرائيل، ثم ذكرت السورة ابتلاء أيوب، وتلاه إسماعيل، وإدريس، وذو الكفل، ويونس، وزكريا، ويحيى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإلى جوار هؤلاء الرسل الكرام جاء ذكر مريم، كما ذكرت أم موسى في سورة القصص.

وبيّنت سورة الأنبياء أن الله تعالى لم يرسل رسولًا إلا من الرجال؛ لأنهم أقدر على تحمل أعباء الرسالة، ومقارعة صناديد الكفر، فقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾ [٧].

«وأغلب الأنبياء الذين ذكروا في القرآن الكريم، ظهوروا في شرق البحر المتوسط وجنوبه، في مناطق قامت بها أهم الحضارات القديمة، ويمكن وصفهم بأنهم أعضاء هيئة تدريس في معهد، عميده محمد بن عبد الله، وطلابه أهل الأرض كلهم»^(١).

ويلاحظ أن الحديث عن الأنبياء في السورة، سبقه حديث عن اليوم الآخر ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ

(١) يُنظر: الشيخ محمد الغزالي في كتابه: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٢٥٦.

الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴿٤٧﴾ وأعقبه حديث مستفيض عن اليوم الآخر، كذلك بُدئَ بقوله تعالى: ﴿وَنَقْطَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلُّ إِلَيْنَا رَجْعُونَ﴾ ﴿٩٣﴾.

والحديث عن هؤلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً يُمثِّلُ أحد جوانب ثلاثة هي موضوع السور المكية، بالإضافة إلى الشبهات التي يثيرها الكفار حول الرسالة والرسول، والتي تصدَّرت السورة؛ لتنفيذها وإبطالها.

وبيَّنت السورة أن أمة الإسلام أمة واحدة، وربها واحد؛ فكل الأنبياء دَعَوْتُهُمْ هي التوحيد ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿١٥﴾ ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدٌ﴾.

أما الجانب الثاني للسور المكية: فهو أصل الشرائع، وأساس الرسالات، وهو جانب العقيدة، وتوحيد الله تبارك وتعالى، وقد أقامت السورة أدلة متعددة على ذلك، منها قول الله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا إِلَهًا مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُشْرُونَ﴾ ﴿٦٦﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ رَبَّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿٦٧﴾.

وقوله: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ ﴿٢٤﴾.

وذكرت السورة عددًا من النعم والأدلة الكونية على وحدانية الخالق سبحانه، كالسموات، والأرض، والجبال، والماء، والطرق.

أما الجانب الثالث للسور المكية: فهو الحديث عن القيامة، والبعث والنشور، والحساب والجزاء، وهو الذي بدأت به السورة ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ ﴿١﴾ ﴿وَأَقْرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾ ﴿٩٧﴾ ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكِتَابِ﴾ ﴿١٠٤﴾.

وأرض الجنة يرثها عباد الله الصالحون، وهم أيضًا الذين يعمرُونَ الأرض في الدنيا، وذكَّرت السورة من مقدمات يوم القيامة ظهور يأجوج ومأجوج.

وهذه العناصر الثلاثة للسورة جاءت على النحو التالي:

١- من أول السورة إلى نهاية الآية الثالثة والثلاثين، يتناول عنصر العقيدة، وردَّ شبهات الملحدين، وذكر مصارع المكذبين.

٢- ومن الآية الرابعة والثلاثين إلى الآية الثانية والتسعين، يتناول عنصر الوحي والنبوة والرسالة.

٣- ومن الآية الثالثة والتسعين إلى نهاية السورة، يتناول عنصر البعث والنشور والحساب والجزاء.

وتُخَتَمُ السورة ببيان أن رسالة النبي محمد ﷺ هي رسالة رحمة للعالمين جميعًا: الإنس، والجن، والملائكة، والحيوانات، والهوام، والطيور... إلخ.

وجاء بيان الحكم العدل، والقضاء الفصل في نهاية السورة: ﴿قُلْ رَبِّ أَعْمُرْ بِالْحَقِّ﴾ [١١٢] وهذا الحكم يكون في الحساب الذي اقترب مجيئه وافتتحت به السورة.

سُورَةُ الْحَجِّ (٢٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الحج هي السورة الثانية والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النور، وقبل سورة (المنافقون)، وعدد آياتها ثمان وتسعون آية في المصحف الكوفي^(١).

وهي ألف ومئتان وإحدى وتسعون كلمة، وخمسة آلاف ومئة وخمسة وسبعون حرفاً. وسمّيت سورة الحج؛ لأن الله تعالى أمر إبراهيم فيها بالدعوة إلى الحج، بالإضافة إلى ذكر بعض المناسك والفضائل والمنافع وذبح الهدي، وتقريع من يصدون المسلمين عن المسجد الحرام.

ونزول السورة كان قبل فرضية الحج بالاتفاق؛ فقد فُرض الحج بآيات سورتي البقرة [١٩٦-٢٠٣] وآل عمران [٩٦، ٩٧].

وتسميتها بهذا الاسم توقيفي، فقد جاء في الحديث والآثار أن سورة (الحج) حُطيت عن سائر سور القرآن الكريم بما فيها من سَجْدَتَيْن: السجدة الأولى في الآية الأخيرة من الربع الأول، والسجدة الثانية في الآية قبل الأخيرة من السورة.

سأل عقبة بن عامر رسول الله ﷺ قال: قلت: يا رسول الله، أَفُضِّلْتُ سورة (الحج) على سائر القرآن بسجْدَتَيْن؟ قال: «نعم، فمن لم يسجدهما فلا يقرأهما»^(٢).

وسورة (الحج) سورة مختلطة: مكية ومدنية، فالآيات التي تتحدث عن الحج والهدي والجهاد والتشريع، آيات مدنية، والآيات التي تتحدث عن التوحيد والبعث والجزاء

(١) وسبع وسبعون آية في العدد المكي، وأربع وسبعون آية عند أهل الشام، وخمس وسبعون آية عند أهل البصرة، وست وسبعون آية عند أهل المدينة.

(٢) رواه الترمذي (٥٧٨) وأبو داود (١٤٠٢) والحاكم (٣٩٠/٢) والبيهقي (٣١٧/٢) وأحمد (١٥١/٤) قال الشيخ أحمد شاكر: الحديث صحيح، يُنظر تحقيقه للدكتور عبد الرحمن عميرة، على «فتح القدير» للشوكاني (٤٣٣/٣).

ومشاهد القيامة، مكية.

ومن أعاجيب هذه السورة أن منها ما نزل ليلاً، ومنها ما نزل نهاراً، ومنها ما نزل في الحضر، ومنها ما نزل في السفر، ومنها ما نزل في الحرب، ومنها ما نزل في السلم، ومنها ما نزل في مكة، ومنها ما نزل في المدينة، ومنها ما نزل في غيرهما، ومنها الناسخ والمنسوخ، ومنها المحكم والمتشابه.

فالآيات الخمس الأولى نزلت ليلاً، والأربع التي تليها نزلت نهاراً، والثلاث التي بعدها نزلت في السفر، ومن الآية الثالثة عشرة إلى الآية العشرين، نزلت في الحضر^(١).

ولأن السورة منها ما نزل قبل الهجرة، ومنها ما نزل بعدها، فقد تعددت موضوعاتها وتنوعت وفق خصائص القرآن المكي والمدني.

وقد اشتملت السورة على أربعة أشواط، فمع أنها تتناول جوانب التشريع، كأنها سورة مدنية، إلا أن مشاهد القيامة وأحوالها عنصر بارز فيها، كأنها سورة مكية:

الشوط الأول منها: يتعلق بالبعث والنشور في مشاهد مُرْعبة رهيبة، ترتجف لها القلوب، وتطيش لهولها العقول: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [١].

﴿فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾ [١٩].

فالله تعالى يحيي الأرض بعد موتها، والساعة آتية لا ريب فيها، ومن الناس المجادل المكابر، ومنهم من يعبد الله على حرف.

وبيّنت السورة مصير المؤمنين والكافرين، وقرّرت أن الهدى والضلال بيد الله تعالى، وأن الجدال والانحراف عن منهج الله طريق أهل الضلال، وينتهي هذا الشوط بالآية (٢٤) وهو أشبه ما يكون بالقرآن المكي.

والشوط الثاني من السورة: يتناول الحديث عن المسجد الحرام، وبناء البيت العتيق، وتعظيم حرّمات الله وشعائره، وتطهير البيت من رجس الشرك.

وفصّلت السورة القول في الهدى والأضاحي، وينتهي هذا الشوط بالإذن للمؤمنين

(١) «زاد المسير» لابن الجوزي (٤٠٢/٥).

الذين أخرجوا من ديارهم في القتال، وهي أول آية تأذن بالقتال بعد قيام دولة الإسلام في المدينة، وينتهي هذا الشوط بالآية (٤١) وهو أشبه ما يكون بالقرآن المدني.

أما الشوط الثالث من السورة: فيعرض أمثلة من مصارع المكذبين، ومشاهد القرى المدمرة ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُورُ مُعَظَلُهَا وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ﴾ (٤٥) وهو درس للمكذبين برسالة الإسلام في كل زمان ومكان، وفيه بيان لسنة الله في خلقه، وفيه أيضاً تسرية عن الرسول ﷺ، وهذا القسم أشبه ما يكون بالقرآن المكي وينتهي بنهاية الربع الثالث من السورة.

أما الربع الأخير: فهو يمثل الشوط الرابع في السورة، وهو يتناول جانب التوحيد وبطلان ما يُعبد من دون الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ﴾ [٧٢]، إلى جوار دلائل القدرة في صفحات الكون، وفي بداية هذا الربع بيان وعد الله تعالى بنصر من يقع عليه البغي، ويدفع العدوان عن نفسه.

أبرز موضوعات السورة:

١- ومن أبرز ما تناولته السورة أنها أمرت الناس في بدايتها بتقوى الله تعالى، وخشية يوم الحساب والجزاء، ثم بيّنت أنواع الناس في هذه الحياة وعاقبة كل نوع: فمنهم من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد، ومنهم من يشك في البعث ويرتاب، ومنهم من يكابر ويجحد على غير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ومنهم من يعبد الله على حرف، وفي خلال ذلك تنطق الآيات بدلائل التوحيد، والبعث، والنشور.

٢- ثم يعقّب هذا التنويع من اختلاف أحوال الناس، بشارة للمؤمنين بجنات تجري من تحتها الأنهار، وأن على غير المؤمن الذي يظن أن الله تعالى لن ينصر دينه وكتابه، أن يتحرر ويخنق نفسه بحبل، فإن الله تعالى مُعَلِّ كَلِمَتِهِ، وناصرٌ نَبِيَّهَ لا محالة، وليذهب هو إلى دار الجحيم.

٣- وبعد أن بيّنت السورة انقياد جميع المخلوقات لله تعالى عقدت مقارنة بين خصوم الإسلام وأوليائه، وبيان ما أعده الله للفريقين من جزاء عادل، وذلك في قوله تعالى:

﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ إلى نهاية الآية الثالثة؛ فقد جاء في الصحيح: أنها نزلت في غزوة بدر في مبارزة حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث، لشيبة وعتبة ابني ربيعة، والوليد بن عتبة، وكان أبو ذر يقسم على ذلك.

٤- ثم تحدثت السورة عن بناء البيت وفريضة الحج وأحكام البُدن، وذلك من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية السابعة والثلاثين. والآيات الأربع بعد ذلك تحدثت عن مشروعية القتال في الإسلام، وأسباب التمكين للأمم الصالحة في الأرض. وفي عشر آيات بعد هذه الآيات الأربع بيان لمصير الأمم التي كذَّبت رُسُل الله تعالى في وعيد صريح لكل من يكفر بخاتم المرسلين.

٥- وأعقب ذلك حديث عن قصة الغرانيق التي جاء ذكرها في سورة النجم، وهي هنا من الآية الثانية والخمسين إلى الآية السادسة والخمسين.

٦- وقبل الحديث عن الشرك بالله تعالى وضرب المثل له، تذكر السورة في مطلع الربع الأخير منها عَشْرَ من دلائل التوحيد وخصائص الإلهية، ومنها إيلاج كل من الليل والنهار في الآخر، وإمساك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله، وأن الإحياء والإماتة بيد الله تعالى إلخ.

٧- وختمت السورة بتذكير الناس بنعم الله عليهم، وبيان أن الله تعالى اصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس، وأنه سبحانه قد ارتضى لنا الإسلام ديناً، وأن إبراهيم عليه السلام سَمَّانا المسلمين في هذا القرآن وقبله، وأن الرسول سيشهد على هذه الأمة بالبلاغ، وقد اختار الله هذه الأمة لتشهد على سائر الأمم أن رسلهم قد بلغتهم، فوجب عليها أن تُوثَّق الصلة بالله، وأن تستمسك بحبله، وتستعين به في كل أمورها.

سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ (٢٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة المؤمنون هي السورة الثالثة والعشرون في ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الطور، وقبل سورة الملك.

وهي ألف وثمان مئة وأربعون كلمة، وأربعة آلاف وثمان مئة حرف، وحرفان.

وسورة المؤمنون نزلت على رسول الله ﷺ في مكة المكرمة.

وهي ثمان مئة وعشرة ومئة آية في العدد الكوفي والحمصى، ومئة وتسع عشرة آية عند غيرهم، فقد أسقطوا ﴿الْوَرِثُونَ﴾ من العدد.

عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه بإسناد فيه مقال، أن النبي ﷺ كان إذا أنزل عليه الوحي يُسمع عند وجهه دَوِيٌّ كدَوِيِّ النحل، قال: فأنزل الله عليه يومًا، فمكثنا ساعة، ثم سُرِّي عنه فاستقبل القبلة، ورفع يديه إلى السماء، وقال: «اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وأكرمنا ولا تُهنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا»، ثم قال ﷺ: «لقد أنزلت عليَّ عشرة آيات من أقامهن - أي: من عمل بما في هذه الآيات العشر - دخل الجنة».

وقرأ ﷺ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى آخر الآيات العشر الأولى من سورة المؤمنون^(١).

وأخرج النسائي وغيره أن أم المؤمنين عائشة ؓ سئلت عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: كان خلقه القرآن.

وقرأت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ إلى قوله تعالى:

(١) يُنظر طرق الحديث في: «المسند» (٣٤/١) برقم (٢٢٣) قال محققوه: وإسناده ضعيف لجهالة يونس بن سليم، وهو في «سنن الترمذي» برقم (٣١٧٣) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١٤٣٩) والحاكم (٣٩٢/٢) و«مصنف عبد الرزاق» (٣٨٦٠) والبخاري (٣٠١). والبغوي في شرح السنة (١٣٧٦) وعبد بن حميد (١٥).

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ (١) قالت: هكذا كان خلق رسول الله ﷺ (٢).

وجاءت آثار من طرق عدة، فيها أن الله ﷻ لَمَّا خلق الجنة، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نظر الله تبارك وتعالى إليها، ثم قال لها: تكلمي، فقالت: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢).

وقد ابتدأت السورة بذكر صفات المؤمنين الذين تحقق لهم الفوز بالجنة والنجاة من النار، ثم ذكرت أدلة الإيمان في الأنفس، وفي الكون والآفاق، وأتبع ذلك بذكر مصائر بعض الأمم التي كذبت دعوة الله سبحانه؛ كقوم نوح، وقوم هود، وقوم موسى، وتحدثت عن أدلة التوحيد، وعن البعث واليوم الآخر، ومصير الكفار الأشقياء في الدار الآخرة، وهذه هي موضوعات القرآن المكي.

وتسميتها بهذا الاسم، جاءت بها السُّنَّة، وسماها بعضهم سورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾.

عن عبد الله بن السائب ؓ قال: صَلَّى بنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة، فاستفتح سورة المؤمنون، حتى إذا جاء ذُكْرُ موسى وهارون، أو ذُكْرُ عيسى، أخذت النبي سَعْلَةً، فركَع (٣). والسَعْلَةُ: هي السعال، فعبي فركَع.

ولفظ النسائي عنه أيضًا قال: حضرت رسول الله ﷺ يوم الفتح، فصلَّى في قِبَلِ الكعبة، فخلع نعليه فوضعهما عن يساره، فافتتح سورة المؤمنون، فلما جاء ذكر موسى أو عيسى أخذته سَعْلَةً فركَع.

(١) البخاري في «الأدب المفرد» (٣٠٨) و«سنن النسائي الكبرى» برقم (١١٣٥، ١١٢٨٧) والحاكم (٢/ ٣٩٢) والبيهقي (٣٠٩/١) و«صحيح الأدب المفرد» (٢٣٤)، والحديث بدون الآيات في المسند (٢٥٣٠٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين كما قال محققوه.

(٢) رُوي مرفوعًا وموقوفًا على أبي سعيد، وابن عباس، وغيرهما، والموقوف أصح، يُنظر: مسند البزار برقم (٣٥٠٨) «كشف الأستار» قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٣٩٧/١٠): رجال الموقوف رجال الصحيح.

(٣) أخرجه أحمد (٤١١/٤) برقم (١٥٣٩٣، ١٥٣٩٥، ١٥٣٩٧) حديث صحيح بإسناد صحيح على شرط مسلم، وهو في مسلم في الصلاة (١٦٣/٤٥٥) برقم (٤٥٥) وأبو داود في الصلاة (٦٤٩) وابن ماجه (٨٢٠) وابن خزيمة (٥٤٦) وعبد الرزاق (٢٧٠٧) وابن أبي شيبة (٥٠٥/١٤) وابن حبان (١٨١٥)، والبيهقي في «السنن» (٣٨٩) والشافعي في «شفاء العي» (٢٤١) والبخاري في تاريخه (٨/٥، ١٥٢).

ولفظ (سورة) مضاف إلى المؤمنين، ويقال: سورة المؤمنون، على حكاية اللفظ القرآني، وهكذا في سائر السور، إما أن تُجَرَّ على الإضافة، وإما أن تبقى على حكاية اللفظ القرآني.

محتويات السورة: وسورة المؤمنون تربط بين الجزاء والعمل، فتعلّق أبصار عباد الله الصالحين بالآخرة، وتطمئنهم إلى مستقبلهم الطيب، ولو كانت حياتهم قاسية.

وفي مقابل ذلك تذكّر السورة في نهايتها مستقبل الأشرار السيئ الذي ينتظرهم، وإن كانت حياتهم في بحبوحة من العيش، فهو سراب خادع، صرفهم عن المستقبل المشرق، وحجّب أبصارهم عن الحق.

وذكرت السورة مصائر الأمم المكذبة لرسول الله، مع المناقشة والتوبيخ لكل من كان مثلهم إلى يوم القيامة.

وقد تكررت صفات المؤمنين في السورة في ثوب آخر؛ لتوضيح جانب من سيرتهم، ولون من شمائلهم التي استحقوا بها النجاة والفلاح ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَثِيبَت رَيْبَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾﴾.

وقد وصفهم الله تعالى وصفاً يبعث على الإيمان، ويصرّح بعظمة الخالق سبحانه.

أما الذين هم في غفلة عن ربهم ممن جحدوا رسالاته، وكفروا بالرسول الخاتم، فإن مصيرهم كالح.

إن البلاد العربية كانت أقرب من غيرها لرسالات الله، وأكثر وعياً بحقائق الوحي؛ فقد كان نوح في شمالي العراق، وهبط إبراهيم من العراق إلى الحجاز، ومراً بمصر، واستقر في الشام، وخرج موسى من وادي النيل يريد الفرار بقومه، ومات بالتيه، ووُلد عيسى بفلسطين، وزار مصر.

وكان صالح وشعيب في شمال الجزيرة العربية، وكان هود بالأحقاف في الربع الخالي من المملكة العربية السعودية.. الخ.

ولم يكلف هؤلاء الرسل أقوامهم ما لا يطيقون، بل كلفوهم أن يدعوا الخبيث، ويفعلوا

الطيب، ويداوموا على العمل الصالح: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [٥١].

وجاءت الرسالة العالمية بعد الرسائل المحلية؛ ليشوق للبشر خلاصة الوحي الإلهي كله في هذا القرآن، فشرعة الأنبياء جميعًا شريعة واحدة في أصولها وعقائدها، ولكن كثيرًا من الناس أغمض عينيه، وصمَّ أذنيه ﴿أَفَلَمْ يَذَبُّوا أَلْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَمْ مُنْكَرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَكَثُرُوا لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٠﴾

ورفضهم للحق يكلفهم ثمنًا باهظًا يوم لقاء الله ﴿حَقَّ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَخِرُّونَ﴾ (٦٤) لَا يَخْتَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصَرُونَ ﴿٦٥﴾ فَذَكَرْتُ آيَاتِي تُنَلِّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَدِكُمْ نَكِصُونَ ﴿٦٦﴾ .

لقد دعا محمد ﷺ البشر قاطبة إلى الإيمان بالله ورسوله الخاتم، فكان منهم من آمن ومنهم من كفر، وبيَّن الله تعالى في السورة مصير الجميع يوم القيامة، وردَّ على شبهات الكفار ودعاويهم الفاسدة، ولكنهم تنكبوا الطريق ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٧٣) وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَيِّبُونَ ﴿٧٤﴾ .

لقد عرضت السورة لدلائل القدرة والوحدانية في هذا الكون العجيب، فبدأت بالإنسان، وانتقلت إلى خلق السموات، ثم لفتت الأنظار إلى مخلوقات الله التي تحيا بالماء من الحيوان، والأنعام، والنبات، والأشجار، وكيف أن الله تعالى سخرها لنفع الإنسان.

وبعد نحو ثلاثين آية من أول السورة تعرضت لجوانب من قصص نوح، وهود، وموسى، ومريم البتول، وعيسى ابن مريم، ثم وجَّهت نداءً عامًا إلى الرسل جميعًا تأمرهم بالمواظبة على أكل الحلال الطيب، والمداومة على العمل الصالح، ومن ثم بيَّنت أن دعوة الرسل جميعًا واحدة في أصولها وعقائدها ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ (٥٦) .

وذكر سبحانه وتعالى في السورة ألوانًا من الأدلة على وحدانية الله تعالى، وهو موضوع السورة الأساس ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) .

وصوَّرت السورة حال الكفار يوم القيامة وهم يتمنون العودة إلى الدنيا مرتين: مرة عند

سكرات الموت، ومرة عند الحساب لتدارك ما فاتهم، دون جدوى، مع توبيخهم على سخريتهم من الإسلام والمسلمين.

وُخِّمَتِ السُّورَةُ بِأَمْرِ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَغْضُضَ الطَّرْفَ عَنْ سُوءِ مَعَامِلَةِ الْأَشْرَارِ، وَيَسْأَلَ رَبَّهِ الْمَغْفِرَةَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: يتضمن صفات المؤمنين، أهل الفوز والفلاح والنجاح، ثم بيان أطوار خلق الإنسان ونهايته، والاستدلال على البعث والنشور بخلق السموات، وما ينتج عن نعمة الماء من إخراج الفواكه والبساتين والأشجار والنخيل من الأرض، وبخلق الأنعام وما فيها من ألبان ومنافع، وتسخير السفن لحمل الناس والمتاع، وجاء هذا من أول السورة إلى الآية الثانية والعشرين منها.

المقطع الثاني: يتناول جوانب من قصص أنبياء الله تعالى، وهم: نوح، وهود، وصالح، ﷺ، وبغدهم عدد آخر من الرسل، ذكر إجمالاً، ثم إشارة إلى أنبياء الله: موسى، وهارون، وعيسى ﷺ، وقد جعلهم الله أمة واحدة، فاختلف الناس بعدهم وتنازعوا، وهذا المقطع من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية السادسة والخمسين.

المقطع الثالث: يتضمن أوصافاً لفريقين من الناس:

أحدهما: المؤمنون المشفقون من عذاب ربهم. **وثانيهما:** المغرورون الغافلون عن ربهم، المفتونون بما هم فيه من ترف ومتاع، فُتِّبَ مصير الفريقين، وتستنكر على الفريق الثاني موقفهم العجيب من صاحب الرسالة العالمية، فتردُّ على شبههم بالعقل والمنطق، وتضرب لهم مثلاً بمصير من كذبوا رسول الله ﷺ، وتقيم مجموعة من الأدلة الكونية على وحدانية الخالق سبحانه، ويستغرق هذا المقطع من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الثانية والتسعين.

المقطع الرابع والآخر: يوجه الخطاب للنبي ﷺ ولكل داعٍ إلى الله تعالى على بصيرة، أن يدفع السيئة بالحسنة، وألاً يغضب ولا يضيق صدره.

ويتناول حال المكذبين عند الاحتضار، إلى البرزخ، إلى النفخ في الصور، إلى خفة

الميزان وثقله، مع التركيز على حال الأشقياء يوم لقاء الله، وأنهم عند الحساب ينسون الماضي ويذهب الزمن من عقولهم، فلا تتماسك الحياة الأولى في ذاكرتهم إلا للحظات قصيرة مبهمه، وهذا المقطع من الآية الثالثة والتسعين إلى نهاية السورة.

وقد ذكرت السورة عشرة أوصاف للمؤمنين: ستة في أولها، وأربعة في وسطها من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الحادية والستين.

كما ذكرت أحد عشر دليلاً على وحدانية الله تعالى من الآية الثانية عشرة إلى الآية الثانية والعشرين، ومن الآية الثامنة والسبعين إلى الآية التاسعة والثمانين.

وتفصيل ذلك كله واضح في فهرس السورة.

سُورَةُ النُّورِ (٢٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة النور هي السورة الرابعة والعشرون في ترتيب المصحف، والمئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الحشر، وقبل سورة الحج، وهي سورة مدنية، وعدد آياتها أربع وستون آية في العدد الكوفي والبصري والشامي، واثنان وستون آية في عدد أهل مكة والمدينة وثلاث وستون آية في العدد الحمصي.

وهي ألف وثلاث مئة وست عشرة كلمة، وخمسة آلاف وست مئة وثمانون حرفاً.

وقد نزلت آيات أحداث غزوة بني المصطلق، بعد شهر شعبان من السنة السادسة للهجرة، ونزل بعض أوائل السورة قبل ذلك بثلاث سنوات، أيام أن كان المسلمون يتلاحقون في الهجرة، ويأسر المشركون بعضهم بعضاً، ونزلت قبلها سورة الأحزاب.

وسميت بسورة النور أخذاً من قول الله سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [٣٥]. وهذه التسمية من عهد النبي ﷺ، ولم يُعرف لها اسم آخر.

عن حارثة بن مضرب قال: كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن تعلّموا سورة النساء، والأحزاب، والنور^(١).

وهذا النور ماديٌّ ومعنويٌّ، وهو من أسماء الله الحسنى.

ومما رُوى في دعاء النبي ﷺ يوم آذاه المشركون بالطائف: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحلّ بي غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

ومن دعائه ﷺ وهو يقوم الليل: «اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن

(١) أخرجه أبو عبيدة في «الفضائل» ص ١٢٨.

(٢) يُذكر هذا من دعاء النبي ﷺ حين رجع من الطائف، وانظر: الطبراني في «الكبير» (١٠٦٠٠) بنحوه، وهو في السلسلة الضعيفة للألباني عن عائشة برقم (٢٩٣٣).

فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن»^(١).

ومن دعاء النبي ﷺ إذا خرج إلى الصلاة: «اللهم اجعل لي في قلبي نورًا، وفي لساني نورًا، واجعل لي في سمعي نورًا، واجعل لي في بصري نورًا، واجعل لي من خلفي نورًا، ومن أمامي نورًا، واجعل من فوقي نورًا، ومن تحتي نورًا، اللهم أعطني نورًا»^(٢).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: إن ربكم ليس عنده ليل ولا نهار، نور العرش من نور وجهه...

وقد صَدَّرَ الله سبحانه سورة النور بهذا العنوان ﴿سُورَةٌ﴾ وكل سورة في القرآن اسمها سورة، ولكن لم تحظْ سورة سواها بهذا التصدير؛ وذلك لبيان فضلها وعِظَمَ ما فيها من الأوامر والنواهي، والأحكام، والحلال والحرام، ولكي ينتبه المسلم لما في هذه السورة مما يُلقِيه الله سبحانه عليه فيها.

ويبين الله جلَّ شأنه أن من هذه الأحكام: العقوبة للزاني، وللقاذف، وآداب الاستئذان والسلام، وغض البصر، وكلها فرائض وحدود، وسبل لوقاية المسلم من الوقوع في جريمة الزنى.

وقد تكرر لفت النظر إلى ما أنت به السورة من أحكام مرتين: في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكَ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣).

وفي قوله جلَّ شأنه: ﴿لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٤). بالإضافة إلى الآية الأولى في بدء السورة، فتكون ثلاثًا، وذكر تبين الآيات في سبع مواضع منها.

وبهذا فإن السورة أقامت تنظيمًا كاملاً لبناء المجتمع الإسلامي على الفقه والطهارة، وأقامت سياجًا منيعًا حول المحارم التي يخاف المسلم من الوقوع فيها.

(١) من حديث ابن عباس في البخاري برقم (٦٣١٧) ومسلم برقم (٧٦٩).

(٢) من حديث طويل لابن عباس في البخاري (٦٣١٦) ومسلم (٧٦٣) و«المسند» (٢٥٦٧) و(٣١٩٤) وأبي داود (١٣٥٣) والترمذي (٣٤١٩)، قال محققو المسند: وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه الطيالسي (٢٧٠٦) وابن ماجه (٥٠٨) وابن خزيمة (١٢٧) وابن حبان (١٤٤٥).

وسورة النور تتحدث أساسًا عن جريمة الزنى والقذف به، بمناسبة قصة الإفك الذي رُميت به أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها.

فالسورة تبدأ بالحديث عن الزنى وحده المقرر شرعًا، وتذكر بعده حدَّ القذف والملاعنة بين الرجل والمرأة، وكأن هذا بمثابة المقدمة أو التوطئة لذكر حادثة الإفك، ثم تذكر حادثة الإفك في عشر آيات، وجاء التعقيب عليها في ست آيات بعد ذلك.

وتتناول آيات السورة الوسائل التي تقي المسلم من الوقوع في جريمة الزنى، سواء أكانت آدابًا أم أخلاقًا، ونحو ذلك، فتتحدث عن صيانة البيوت وحرمتها، وأنه لا يجوز الاطلاع على ما في داخلها، وَيَشْرَعُ اللهُ سبحانه في السورة: الإذن والسلام قبل الدخول في البيوت، ويوجب غضَّ البصر من الرجل والمرأة على حد سواء؛ لأن النظر بريد الزنى، وسهم إبليس، وهو مقدمة الزنى وأوله.

ثم تتحدث السورة عن حدود إبداء المرأة لزيبتها عند المحارم وعند غير المحارم، وتبين أن الطريق الوحيد المشروع للغريزة الجنسية وإشباعها في الإنسان، هو الزواج المشروع.

وتتحدث السورة بعد ذلك عن تعليم الأطفال -وهم صبية قبل سن البلوغ- ألا يدخلوا على آبائهم وأمهاتهم في وقت النوم والخلوة والراحة إلا بإذن؛ حتى لا تقع أعينهم على عوراتهم، أو على ما لا يجوز لهم الاطلاع عليه.

وَيَشْرَعُ اللهُ سبحانه الإذن في الدخول للأبناء على الآباء بعد سن البلوغ، وأنه يجب عليهم أن يستأذنوا كغيرهم عند إرادة الدخول على الأمهات والآباء.

ويخفف الله سبحانه في السورة -أي: يرفع الحرج- عن المرأة الكبيرة المُسِنَّة، في وضع الحجاب مع عدم إظهار الزينة، فلها أن تخفف من ملابسها الخارجية في بيتها، وألا تتبرج بزينة، وتبين مَنْ يجوز للمسلم أن يتناول معه الأكل من الأقارب والأصدقاء.

وفي منتصف السورة تُربط كل هذه الأحكام بنور الإيمان الذي يقذفه الله سبحانه في قلب المؤمن، وتضرب المثل لهذا النور في قلب المؤمن، وتذكر أنه ظلمة في قلب الكافر، وتبين مجافاة المنافقين لهذه الأحكام التي نزلت على رسول الله ﷺ وجاءت في

كتابه الكريم، وفي ثانيا هذه الأحكام يربط الله سبحانه العبد بربه ربطاً إيمانياً، فيبين عاقبة المؤمنين والكافرين.

وتتحدث الآيات في السورة عن جانب من مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، وأنه يقلّب الليل والنهار، ويحوّل السحاب إلى مطر لا غنى للخلق عنه، وهو جلّ شأنه خلق كل دابة من ماء: فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، ويَعِدُّ الله عباده المؤمنين المقيمين لمنهج الله تعالى أن يمكن لهم في الأرض، وأن يبذل خوفهم أمناً، كما ذكرت السورة صفات المؤمن الحق في نهايتها.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: يتناول العلاقة الخاصة بين الرجال والنساء، والعقوبات على الجرائم الجنسية، والوقاية من الزنى بتشريع الحد فيه، وتحريم نكاح الزانية التي لم تتب، وحدّ القذف، وتشريع اللعان، وتحريم خطوات الشيطان، ويتناول هذا المقطع، حديث الإفك، ومشكلة الخبيثين للخبيثات، والطيبين للطيبات، وينتهي هذا المقطع بالآية السادسة والعشرين من السورة.

المقطع الثاني: يتناول وسائل الوقاية من جريمة الزنى، والآداب الخاصة بدخول البيوت، ومنها: الأمر بغضّ البصر، والنهي عن إبداء زينة المرأة لغير محارمها، والحضّ على إحصان الفرج بالزواج، وهذا المقطع من الآية السابعة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين من السورة.

المقطع الثالث: يتناول جانب الربط بين تشريع الأحكام ودلائل وحدانية الله تعالى، ويظهر أثر ذلك على المعمّرين لبيوت الله تعالى بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ويقابل مثلّ النور للمؤمنين بمثلّ الظلمات للكافرين في ثانيا الأدلة على وحدانية الله تعالى، من تسبيح الخلائق بحمده، وتقلّب الليل والنهار، وإزجاء السحاب، وخلق الدواب على اختلاف أنواعها وأشكالها، وهذا المقطع من الآية الخامسة والثلاثين إلى الآية السادسة والأربعين من السورة.

المقطع الرابع: يتحدث عن مسلك المنافقين الرافضين لحكم الله ورسوله ﷺ، المتقولّين بالإفك على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وفي مقابلهم المؤمنون المطيعون لله

والرسول، أهل الاستخلاف في الأرض والتمكين فيها، والنصر على غير المسلمين، وهذا المقطع من الآية السابعة والأربعين إلى الآية السابعة والخمسين من السورة.

المقطع الخامس: يتحدث عن آداب الاستئذان بالنسبة للصبيان والبالغين وأحكام الضيافة، وحكم القواعد من النساء.

وتختتم السورة بوصف جامع للمؤمنين، والنهي عن نداء النبي ﷺ باسمه المجرد، وإعلان أن الله تعالى هو مالك هذا الكون بما فيه، وهذا المقطع من الآية الثامنة والخمسين إلى نهاية السورة.

سُورَةُ الْفُرْقَانِ (٢٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الفرقان) هي السورة الخامسة والعشرون في ترتيب المصحف، والثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (يس)، وقبل سورة (فاطر).

وآياتها سبع وسبعون آية باتفاق أهل العدد، وثمان مئة واثنان وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وسبع مئة وثلاثة وثمانون حرفاً، وهي سورة مكية.

وسميت سورة (الفرقان)؛ لوقوع لفظ الفرقان فيها ثلاث مرات: في أولها، ووسطها، وآخرها، وهي تسمية توقيفية أقرها النبي ﷺ، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدتُ أن أعجلَ عليه، ثم أمهلته حتى انصرف، ثم لبيتُه بردائه، فجنثُ به رسول الله ﷺ، فقلت: إني سمعت هذا، يقرأ على غير ما أقرأنيها، فقال لي: «أرسله»، ثم قال له: «اقرأ»، فقرأ، فقال: «هكذا أنزلت»، ثم قال لي: «اقرأ» فقرأت، فقال: «هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»^(١). ولم يُعرف لها اسم غير هذا.

عناصر القرآن المكي:

والقرآن الكريم الذي نزل على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، كان يخاطب في الغالب أقواماً كفّاراً مشركين بالله سبحانه، ولذلك فإن القرآن المكي الذي نزل في نحو ثلاثة عشر عاماً كان يتكوّن من ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: غرسُ الإيمان والتوحيد في نفوس الكفار المشركين؛ لأنهم كانوا يشركون بالله - سبحانه - في عبادتهم، ويتقربون إليه بالأوثان والأصنام، وكانوا يكفرون

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢٤١٩) وهذا لفظه، وانظر: أرقام (٤٩٩٢، ٥٠٤١، ٦٢٣٦، ٧٥٥٠)

و«صحيح مسلم» برقم (٨١٨).

بمحمد ﷺ، وبالوحي الذي جاء به من عند الله، ويكفرون باليوم الآخر، فكان العنصر الأول في السور المكية هو عنصر التوحيد، أي: إفراد الله سبحانه بالعبادة، وإخلاص التوجه له وحده.

والعنصر الثاني: هو الإيمان بمحمد ﷺ، وبالقرآن الذي جاء به من عند الله، وبالوحي الذي حمله إليه، وهو نفس الوحي الذي نزل على سائر الرسل.

والعنصر الثالث: هو الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال. وسورة (الفرقان) من هذا القبيل، من القرآن المكي الذي خاطب المشركين والكفار في وقت النبي ﷺ، ويخاطب المشركين والكفار في يومنا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يطالبهم بإفراد العبادة لله وحده.

ويطالبهم بالإيمان برسول الله ﷺ، وبالقرآن الذي نزل عليه من عند الله.

كما يطالبهم بالإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحساب، وجزاء على الأعمال.

عناصر السورة

١- وهكذا أثبتت السورة أن القرآن منزل من عند الله تعالى، ونُوِّهَتْ بشأن الرسول ﷺ، فأقامت دلائل صدقه، وبَيَّنَتْ أنه على طريقة الرسل السابقين، وأنه فوق حظوظ الدنيا، وأن قومه كذَّبوه، وضَرَبَتْ على ذلك الأمثلة ببعثة الرسل السابقين، وتكذيب أقوامهم لهم، مثل: قوم موسى، ونوح، وهود، وصالح، وأصحاب الرس، وقوم لوط، وقد افتتحت هذه الجولة برسالة محمد ﷺ في أول آية من السورة: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ ﴿١﴾ وهذا هو عنصر الوحي والرسالة من عناصر القرآن المكي.

٢- وأثبتت السورة بعد ذلك البعث والحساب والجزاء، وبَشَّرَتْ الصالحين بالثواب، وأنذرت المشركين والمكذبين بسوء المصير، وبَيَّنَتْ ندمهم وتحشرهم على شركهم، وتكذيبهم للرسول ﷺ.

وقد ابتدأت هذه الجولة بقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِن شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيجعل لك فُصُورًا﴾ ﴿١٠﴾. وهذا هو عنصر الإيمان باليوم الآخر.

٣- ثم استدلت السورة على وحدانية الله تعالى، وتفردّه بالخلق، وتنزهه سبحانه أن يكون له شريك، أو ولد، وقد ابتدأت هذه الجولة بقوله تعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (١١).

فكل عنصر منها ابتداءً بجملة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي﴾ وهذا هو عنصر التوحيد ونبذ الشرك.

شبهات المكذبين بالقرآن:

وفي سورة (الفرقان) إحصاء لشبهات خصوم الإسلام فيما يأتي ذكرها:

١- منها: تكذيب أعداء الإسلام بالوحي المنزل على محمد ﷺ ودعوته إلى التوحيد، فقالوا في شبهتهم الأولى: ما هذا القرآن إلا كذب ملفق، اختلقه محمد ﷺ، وأعانه على افتراءه قوم آخرون.

وقالوا أيضًا: هذا القرآن من أساطير الأولين التي أُملِيت على محمد ﷺ.

وتكذيب الرسل من أقوامهم أمر شائع في الناس من قديم، فلا غرابة في هذا.

٢- وقالوا في شبهتهم الثانية: هذا الرسول بشر، يأكل الطعام ويمشي في الأسواق.

وهذه شبهة قالتها جميع الأمم لجميع الرسل.

٣- وقالوا في شبهتهم الثالثة: إن تتبعون إلا رجلاً مسحورًا.

واتهام الرسل بالسحر أمر شائع من قديم، فهكذا قال قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم موسى لرسولهم.

٤- وقالوا في شبهتهم الرابعة: لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا؟

وقد ردّت سورة (الأنعام) في آياتها [٧-١٠]، وسورة (الإسراء) في آياتها [٥٩، ٩٣-٩٦]، وغيرهما، على هذه الشبهة بما مفاده أن الله تعالى لو فعل لهم ما أرادوا ما لانت قلوبهم، ولا آمنوا بدعوة خاتم الرسل ﷺ.

٥- وقالوا في شبهتهم الخامسة: لولا نزل هذا القرآن على محمد جملة واحدة؟

وقد غاب عنهم أن لكل حادث حديثًا، ولكل سؤال جوابًا يأتي في وقته، وأن نزوله

منجماً أثبت لفؤاد النبي ﷺ.

٦- واعترفوا في شبهتهم السادسة بأن القرآن قد زلزل معتقداتهم، وكشف زيفها، وأن باطلهم قد اتضح، وأنهم كادوا يعترفون بالحق فقالوا:

﴿إِنْ كَادَ لَيُضِلَّنَا عَنْ إِلَهِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الآية ٤٢].

٧- لقد عزَّ على المشركين أن يطلب منهم الرسول ﷺ السجود لإله واحد، ويتركوا أوثانهم التي ألفوها، فأنكروا السجود للواحد الأحد، وقالوا للرسول ﷺ: ما نُطِيع أمرك، وانصرفوا عنه في نفور شديد.

وسورة (الفرقان) تعرِّض على المكذبين بالقرآن، مصارع الأمم التي كذبت رسلها، فتحذره وتخوفهم أن يحقق بهم مصير الفراعنة، ومصير عاد وثمود، وأصحاب الرس، وما حدث لقوم لوط.

وتعرض عليهم سلسلة من مشاهد القيامة، كالذين يُحشرون على وجوههم إلى جهنم، والذين يدعون على أنفسهم بالشبور والهلاك، وبالذي يعض على يديه، يقول:

﴿يَلَيْتَنِى أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً﴾ [الآية: ٢٧].

وتعرض السورة سوء مصير الذين استهزؤوا بخاتم الرسل ﷺ في الدنيا، حين يرون العذاب بأعينهم، ويقال لهم: من أضل سبيلاً؟ أنتم أم هم؟ إلى جوار ما يسأل الله به نبيه بأن شأنه شأن الرسل السابقين قبله، يأكلون ويمشون في الأسواق، ويكلفه ربه في النهاية بأن يصبر ويجاهد، ويتحمل مشاق الدعوة، ويتوكل على مولاه وخالقه.

وبعد تخويف المكذبين بخاتم المرسلين بذكر أمثلة من مصارع السابقين، تتجه السورة إلى أسلوب آخر في علاجهم، وهو إعمال العقل والفكر في آثار قدرة الله تعالى، فهو - سبحانه - مرسل الرسل، ومنزل الكتب، ولذلك فإن السورة تهيب بالعقل أن يفكر في ملكوت السموات والأرض.

دعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت الله:

١- فينظر العبد أولاً كيف مدَّ الله الظل، ولو شاء لجعله ساكناً لا يتحرك، ولكنه يمتد

ويتقلّص، فيكون أمام وخلف، ويقع تحت قدم الإنسان، إن قدرة الله تعالى تفعل ذلك دون جُهد ولا تكلف.

٢- وينظر الإنسان ثانيًا في حركتي الليل والنهار، كيف يَسْكُن الليل ويهدأ، فيغمضُ جفن الإنسان، ولكن قلبه ينبض وصدره يعلو ويهبط، وجهازه الهضمي في شغل موصول، وسرعان ما يأتي النهار لمواصلة أعباء الحياة، ومواجهة مشكلاتها.

٣- وينظر المرء ثالثًا إلى السحب وهي تحمل الرياح، وتوزعها شرقًا وغربًا، وشمالًا وجنوبًا، وتحمل الغيث لتأمين حاجتنا، وحاجات الأرض الهامدة، وحاجات الحيوان والطيور وسائر الدواب ﴿لِنُخَيِّ بِهٖ بَلَدَةً مَّيْتًا وَنُشْقِيهِم مِّمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا ۝٤٩﴾ [٤٩، ٥٠].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [الآية: ٥٣].

٤- وينظر رابعًا كيف خلق الله من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا، ومع ذلك فإن كثيرًا من الخلق يعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم.

٥- وينظر المرء خامسًا كيف خلق الله هذا الكون بعالميه العلوي والسفلي، وخلق ما هو أعظم منهما وهو العرش ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الآية: ٥٩].

٦- وينظر المرء سادسًا إلى آيات الله في الآفاق فهو ﴿الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [٦١]. وهو الذي جعل كُلاً من الليل والنهار يخلف الآخر في حركة متواصلة متعاقبة ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ [يس: ٤٠]. والمتنفعون بذلك هم عباد الرحمن الذين ذكر الله تعالى لهم عشر خصائص في هذه السورة، استحقوا بها المنزلة الرفيعة في الجنة، ويلقون فيها تحية وسلامًا.

موضوعات السورة:

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية الثانية والعشرين، وهذا المقطع يتضمن غالبًا مزاعم الطاعنين في القرآن، فيفندّها ويردُّ عليها بالبرهان القاطع، والحجة الدامغة، ويتخلل ذلك

الثناء على الرسالة، وعلى صاحب الرسالة، وعلى القرآن الذي نزل عليه من عند الله تعالى .

المقطع الثاني: من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الثانية والستين، وهذه الجولة تبدأ بالحديث عن مشاهد القيامة، وهو يوم عسير على الكافر، تشقق فيه السماء، ويعض الظالم فيه على يديه حسرة وندماً، ويشكو الرسول إلى ربه هجر أمته للقرآن، والعمل لهذا اليوم يقتضي التذكير بمصير الأمم الغابرة، ويقتضي التأمل في آيات الله الكونية؛ كي يستعدَّ المرء لهذا اليوم.

أما المقطع الثالث فهو من الآية الثالثة والستين إلى نهاية السورة، وهو يتناول أوصاف عباد الرحمن، وما أكرمهم الله به من التوحيد الخالص، والأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم.

وتختتم السورة بتقرير هوان البشرية على الله تعالى، لولا القلوب الطائعة المستجيبة لربها، فإن هي جحدت وكذبت فإن عذاب الله تعالى سيكون ملازماً لها لا ينفك عنها .

سُورَةُ الشُّعَرَاءِ (٢٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الشعراء) هي السورة السادسة والعشرون في ترتيب المصحف، والسادسة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الواقعة)، وقبل سورة (النمل). وهي مثنان وسبع وعشرون آية في العدد الكوفي^(١).

وهي ألف ومئتان وتسع وسبعون كلمة، وخمسة آلاف وخمسة مئة وأربعون حرفاً. وسمّيت سورة (الشعراء)؛ لأنها تفرّدت بذكر كلمة (الشعراء)، وقد كان شعراء مكة: كالنضر بن الحارث، والعوراء بنت حرب، زوج أبي لهب، يهجون النبي ﷺ وهم المعنيون - وقت التنزيل بآية: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (١١٢) وكان في مكة شعراء مسلمون من الذين هاجروا إلى الحبشة، أما شعراء المدينة فقد أسلموا قبل الهجرة، ومنهم: حسان بن ثابت، وعبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وهم المعنيون - وقت التنزيل - بالذين آمنوا وعملوا الصالحات في آخر السورة.

وشأن علماء بني إسرائيل كان مشهوراً بمكة، وكان لأهل مكة صلوات ومراجعة مع اليهود بالمدينة في شأن بعثة محمد ﷺ.

نزلت سورة (الشعراء) على رسول الله ﷺ بمكة المكرمة، وهو مُهْتَمٌّ بأمر المشركين، يُجْهِدُ نفسه في إيمانهم، وكان ﷺ يَلْقَى مِنْهُمْ الْعِنْتَ، والتكذيب، والأذى في صباحه ومساءه، فنزلت سورة (الشعراء) كغيرها من السور المكية التي تُعْزِي الرَسُولَ ﷺ وَتُطَيِّبُ خَاطِرَهُ مِنْ تَكْذِيبِ الْمَشْرِكِينَ لَهُ وَلِلْقُرْآنِ.

فهي تقصُّ على رسول الله ﷺ سبع قصص من قصص الأنبياء والمرسلين على غير ترتيبهم التاريخي، كما جاء في السورة: موسى، وإبراهيم، ونوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب صلوات الله عليهم أجمعين.

(١) والشامي والمدني الأول، ومثنان وست وعشرون آية في العدد المكي والبصري والمدني الأخير.

وكل رسول منهم جاء ليقول لقومه ما قاله نوح عليه السلام كما ذكرت السورة: ﴿أَلَا نَنْفُثُ ۝١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝١٧٩ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٨٠﴾. فكلُّ رسول لا يطلب من قومه إلا الإيمان والتقوى، وإفراد الله تعالى بالعبادة، وأنه لا يطلب منهم أجراً على تبليغ الرسالة، ومع ذلك فقد قبلوا بالرفض، وعوملوا بغلظة، وقُتِل بعضهم وهو يبلغ رسالة ربه، فكانت عاقبتهم ما نطقت به الآية: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْنٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ۝٢٠٨ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ۝٢٠٩﴾.

وكل قصة من هذه القصص انتهت بما يُلفت الانتباه إلى أخذ الموعظة والعبرة مما لحق بهذه الأمة، جرّاء تكذيبها لرسول من رسل الله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فانتهت كل قصة بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾، تعقيباً على أحداثها.

وقد تكرر هذا التعقيب ثماني مرات في السورة: سبع مرات منها بعد ذكر أحوال الأمم الماضية، ومرة واحدة في أول السورة بعد ذكر الأرض التي نعيش فوقها، ومنها بدأنا، وإليها نعود.

وشأن سورة (الشعراء) شأن السور المكية في عناصرها الأساسية، فقد عالجت أصول الدين من إخلاص التوحيد، وعدم الشرك بالله تعالى، في مثل قوله جلّ شأنه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُكْفِرَ مِنَ الْمَعْدِنِ ۝٢٢﴾.

وعالجت قضية البعث والحساب والجزاء، في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْزِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ۝٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝٨٨ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٩﴾.

وعالجت قضية الوحي والرسالة في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَاهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ۝٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝٩٥﴾.

وخوّفت من عاقبة التكذيب بالله ورسله بعذاب يدمر المكذبين ويهلكهم في الدنيا، أو بعذاب ينتظرهم في الآخرة ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٦﴾.

والدعوة الإسلامية تلقى مقاومة شديدة من أعداء الإسلام في كل زمان ومكان؛ فهم لا يُصدّقون بالآخرة، ولا يُصدّقون بالوحي المنزل على رسول الله ﷺ.

ولذا: أعرضوا عن الإيمان بالرسالة الخاتمة، ومنهم من جعل الإسلام رسالة خاصة بالعرب، وبمقدار ما يحرص الإسلام على دعوتهم وإيمانهم بمقدار ما يُكذَّبون ويُكابرون. وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن تكون معجزة محمد ﷺ الدالة على رسالته وَحْيًا يُتلى، حيث تستمع الأجيال المتقدمة والمتأخرة إلى هذا القرآن الذي يخاطب العقول، ويهاجم الخرافات الشائعة.

وتنقسم آيات سورة (الشعراء) إلى ثلاثة أقسام، وهي:

١- مقدمة السورة التي جاءت في تسع آيات من أولها.

٢- ثم موضوع السورة الذي اشتمل على سبع قصص من الأمم القديمة مع أصحاب الشرائع السماوية، وهي: قصة موسى مع فرعون، وإبراهيم مع قومه، ونوح مع قومه، وقصص: عاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

وقد استغرقت هذه القصص السبع من الآية العاشرة إلى الآية الحادية والتسعين بعد المئة.

٣- أما القسم الثالث فهو التعقيب على ما جاء في السورة، من الآية الثانية والتسعين بعد المئة إلى نهاية السورة، الآية السابعة والعشرين بعد المئتين، وهو يتضمن حال المتقين والغاوين، والسعداء والأشقياء، ومصير كلٍّ من الفريقين يوم الدين، بالإضافة إلى التنويه بشأن القرآن ونزوله بلغة العرب.

سُورَةُ النَّملِ (٢٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سور: الشعراء، والنمل، والقصص، هذه السور الثلاث سور مكية، نزلت متتابعة - كترتيبها في المصحف - وموضوعها واحد، وأسلوبها واحد، ومنهجها واحد، فهي تهتم بأصول العقيدة: التوحيد، والرسالة، والبعث، وكلُّ منها يشتمل على مقدمة وتعقيب، وبينهما موضوع السورة.

وكلها تبدأ بمقدمة عن القرآن الكريم، تتناولها في بضع آيات، ثم تذكر عددًا من قصص الأنبياء والمرسلين، فقد ذكرت سورة (الشعراء) سبع قصص، وذكرت سورة النمل أربع قصص عن: موسى، وسليمان، وصالح، ولوط عليهم السلام، وانفردت سورة القصص بقصة واحدة هي قصة موسى عليه السلام، وهي القصة الأولى في السور الثلاث، فكل سورة منها تتناول حلقة منها، وبعد نهاية القصص القرآني يأتي التعقيب في نهاية السورة.

وسورة (النمل) هي السورة السابعة والعشرون في ترتيب المصحف، والثامنة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الشعراء)، وقبل سورة (القصص).

وهي ألف وثلاث مئة وسبع عشرة كلمة، وأربعة آلاف وسبع مئة وتسعة وتسعون حرفاً. وعدد آياتها عند الكوفيين ثلاث وتسعون آية^(١).

وتسمى سورة (النمل)، كما في صحيح البخاري، وجامع الترمذي، ولفظ النمل لم يذكر إلا في هذه السورة، ودَّكر أبو بكر بن العربي في أحكام القرآن أنها تسمى سورة (الهدهد)، ولفظ سليمان دُكر في عدة سور، ومع ذلك فقد ذكر بعضهم أنه يسميها سورة (سليمان)؛ لأن ما دُكر فيها عنه لم يُذكر في سورة أخرى.

وقد حوت سورة (النمل) المكية عجائب عن عالم الحيوان، بما في ذلك كلام النمل والهدهد، وتفريقه بين التوحيد والشرك في شهادته على (بلقيس) وقومها، وأنهم يسجدون

(١) وأربع وتسعون آية في العدد الشامي والبصري، وخمس وتسعون آية في العدد المدني والمكي.

للشمس من دون الله، وهذا مما يشير إليه قوله تعالى في آخر السورة: ﴿سُبْحَانَكَ أَيُّهَا فَعَرَفُونَهَا﴾ [٩٣]. فربما يكشف المستقبل عن منطق: الطير، والدواب، والهوام.

موضوعات السورة:

وفي صدر السورة بيان موجز لمصائر المؤمنين والكافرين، فالهedy والبشرى للمؤمنين، والضياع والخسران للكافرين، وقد أشارت السورة إلى هداية المؤمنين، وضلال الكافرين في أولها.

وفي قصص: موسى وفرعون، وسليمان وبلقيس، وصالح مع قوم ثمود، ولوط مع أهل المؤتفكة، ذكر الله لنا مصائر هذه الأمم التي كذبت رسلها؛ ليكون لنا فيها عبرة وعظة، فنؤمن بخاتم المرسلين ﷺ، ولا تبقى ديانة أخرى على وجه الأرض إلا انضوت تحت لوائه.

ثم وجهت السورة خمسة أسئلة تُرسي فيها قواعد التوحيد، وتشرحها لكل ذي لب وبصيرة. وعلى هذا يمكن تقسيم السورة إلى:

مقدمة: وهي الآيات الست الأولى منها.

وموضوع: وهو أربع قصص لأنبياء الله ورسله، وهم: موسى وسليمان وصالح ولوط عليهم السلام، وهذا من الآية السابعة إلى الآية الثامنة والخمسين منها.

وتعقيب: وهو من الآية التاسعة والخمسين إلى الآية الثالثة والتسعين، وهي نهاية السورة.

وقد تضمنت المقدمة خلاصة لمصير كل من المؤمنين والكافرين، وتضمن التعقيب تفصيلاً لهذه الخلاصة، بدأها بخمسة أدلة تقرر وحدانية الخالق سبحانه. وثنتها ببيان أن علم قيام الساعة عند الله وحده، وأن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون.

وساقت بعض المشاهد والأحوال التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر حين يفزعون ويرهبون، ويكونون على قسمين: السعداء الأبرار، والذين يُكَبُّون في النار على وجوههم.

وبيّنت السورة في آخرها أن لواء الدعوة في آخر الدهر معقود لصاحب الرسالة العظمى الذي صنع بالقرآن أمة، وظيفتها أن تُبلغ الدعوة، وتصنع به أمماً على غرارها.

وسيكشف المستقبل الكثير عن مستقبل الإسلام، ومستقبل الكفر في هذه الدنيا وما بعدها.

أما القصص الأربع:

فأولها: طرف من قصة موسى ﷺ يتعلق ببدء نزول الوحي عليه في طور سيناء، ومن ثم تكليفه بالرسالة إلى فرعون وملئه، ثم تكذيبهم له، وهم على يقين بصدقه، مع الإشارة إلى سوء عاقبتهم، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا﴾ أي: برسالة موسى ﷺ ﴿وَأَسْتَفْتَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ وهذه الآية هي نهاية قصة موسى ﷺ في هذه السورة.

وثانيها: وراثه نبي الله سليمان للملك من أبيه، وتعليم الله له لغة: الطيور، والحشرات، والحيوانات، وقصته مع النملة، ومع بلقيس ملكة سبأ، وإسلامها على يديه في نهاية الأمر، بعد أن كانت تعبد الشمس من دون الله، وهي قصة لأصحاب الملك والجاه، فقد استخدم سليمان سلطانه في الدعوة إلى الله تعالى، ولم يترك حاكمًا حائرًا إلا دعاه إلى الله، وانتهت هذه القصة بالآية الرابعة والأربعين من السورة.

وثالثها: طرف من قصة نبي الله صالح ﷺ، فقد أرسله الله إلى قوم ثمود، فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، وتآمروا على قتله، ولكنهم بدل أن يقتلوه قتلوا الناقة، فأذاقهم الله العذاب الأليم ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

وانتهت هذه القصة بالآية الثالثة والخمسين.

والقصة الأخيرة: هي قصة نبي الله لوط ﷺ، مع أهل مدينة (سدوم) الفسقة الذين استمروا الشذوذ الجنسي علنًا في مجالسهم ونواديهم، ولما دعاهم لوط ﷺ، لترك هذا الفجور هموا بإخراجه ونفيه من البلاد، فدمر الله القرية وجعل عاليها سافلها، وانتهت هذه القصة بالآية الثامنة والخمسين، وجاء التعقيب على هذا القصص بقوله تعالى:

﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ [٥٩].

وختمت السورة بالحديث عن الآخرة والحساب، ومن ذلك خروج الدابة التي تكلم الناس قرب قيام الساعة.

وتبين السورة في النهاية أن المستقبل سيكون للإسلام، وأن مستقبل الكفر محدود في الدنيا بمعرفة ظواهر الأمور، والغفلة عن العلم الحقيقي الموصول إلى سعادة الدارين.

سُورَةُ الْقَصَصِ (٢٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (القصص) هي السورة الثامنة والعشرون في ترتيب المصحف، والتاسعة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النمل، وقبل سورة الإسراء. وهي ثمانٍ وثمانون آية باتفاق، وألف وأربع مئة وإحدى وأربعون كلمة. وخمسة آلاف وثمان مئة حرف.

وهي سورة مكية إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [٨٥]. فقد نزلت بالجُحْفَةِ والنبي ﷺ في طريقه إلى المدينة مهاجرًا.

عن يحيى بن سلام قال: بلغني أن النبي ﷺ حين هاجر، نزل عليه جبريل بالجُحْفَةِ، وهو متوجه من مكة إلى المدينة، فقال له: أتشتاق يا محمد إلى بلدك التي وُلدت فيها؟ قال: «نعم»، فقرأ عليه الآية^(١).

قيل: وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَّا بِهِمْ آلَتْهُمْ أَلْسِنَتُهُمْ﴾ إلى ﴿لَا يَنْبَغِي لِلْجَاهِلِينَ﴾ الآيتان [٥٢، ٥٣]. فقد نزلتا مع آخر سورة (الحديد) في أصحاب النجاشي حين قدموا المدينة، وشهدوا وقعة أحد.

ولا يُعرَفُ للسورة اسم آخر، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ الآية [٢٥].

والطواسين الثلاث، نزلت متتابعة، كترتيبها في المصحف، وهي متماثلة في أن القصة الأولى في كل منها، هي قصة موسى ﷺ.

وقد نزلت سورة (القصص) والمسلمون في مكة قلة مستضعفة، والمشركون هم أصحاب الجاه والقوة والسلطان؛ نزلت لترفع من معنويات المسلمين، وتطمئنهم على مستقبلهم، فكما منَّ الله على الذين استضعفوا في الأرض، ووعدهم بأن يجعلهم أئمةً ويجعلهم الوارثين، طمأن الله رسوله ﷺ أن يعود إلى مكة بعد أن خرج منها مكرهاً مطارداً.

(١) «تفسير الألوسي» (٤١/٢٠).

وقد عاد المهاجرون إليها فاتحين بعد أن خرجوا منها مقهورين مكسورين، وهكذا فميزان القوة عند الله تعالى هو الإيمان، فمن كانت قوة الله معه فلا خوف عليه، وإن خذله أهل الأرض جميعاً.

ولذا اهتمت السورة بتثبيت قلوب المؤمنين وتقوية عزائمهم، وتبشيرهم بأن العاقبة لهم، وأن الله تعالى سيجعل من ضعفهم قوة، ومن قلتهم كثرة، كما جعل من موسى وقومه. واهتمت السورة ببيان مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، ومنها إهلاك الظالمين ولو ساندتهم جميع قوى الأرض.

وسُنن الله تعالى لا تتخلف ولا تتبدل على مدار الزمان، فقد اعتذر المشركون لرسول الله ﷺ عن اتباع الهدى بخوفهم من تخطُّف الناس لهم لو تركوا عقائدهم القديمة، فساق الله لهم قصة موسى وفرعون؛ تُبَيِّن لهم أن الأمن من المخاوف يكون في جوار الله تعالى، ثم ساق لهم قصة قارون في صورة أخرى تؤكد هذا المعنى، وعَقَّبَ الله سبحانه على ذلك بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجِئُ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ الآية [٥٧]. وسُنَّه الله تعالى في إهلاك الطاغين لا تكون إلا بعد إعدارهم وإنذارهم.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا﴾ الآية [٥٩].

فسورة (القصص) اشتملت على قصتين هما: قصة موسى وفرعون، وقصة قارون، وبينهما حُثٌّ على الاعتبار والاتعاظ بما جاء في القرآن من قصص، وبما لحق بالأمم المكذَّبة لرسول الله من مصير مؤلم، وفي السورة لفت الأنظار إلى آثار قدرة الله تعالى في الكون بما يستلزم توحيده سبحانه، وعدم تقليد من أشركوا مع الله غيره.

وقد بدئت السورة بالإشارة إلى أن هذا القرآن مُنَزَّل لتوحيد الخالق سبحانه، وخُتِمت بالنهي عن الإشراك بالله تعالى.

فالتوحيد الخالص، وتصديق الوحي المنزل، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، هو موضوع السورة الذي بدئت وختمت به في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا ءَاخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الآية.

والقصة الأولى في سورة القصص: هي قصة موسى وفرعون، وفيها ثلاث حلقات لم

تذكر إلا في هذه السورة، وكأنَّ المسلمين ودُّوا أن تُفصِّل لهم قصة موسى ﷺ التي جاء ذكرها في سورتي: الشعراء، والنمل، فكانت هذه الحلقات الثلاث:

وأولها: حلقة ولادة موسى، ونشأته، وتربيته في قصر فرعون؛ ليكون هلاكه على يديه.

وثانيها: حلقة وكز موسى للقبطي وكزة أدت إلى قتله خطأ، وهو يدفع العدوان عن الإسرائيليين.

وثالثها: حلقة هجرة موسى إلى مدين، وزواجه من ابنة الرجل الصالح، وعودته إلى مصر بعد أكثر من عشرة أعوام.

ثم ذكرت السورة نبوة موسى وموقف فرعون من دعوته، وبيان عاقبة ظلمه وتكذيبه ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَكُونُونَ إِلَى الْكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُبْصَرُونَ ﴿٢٦﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

وهذه القصة تمثل قصة حاكم جائر يدعي الربوبية والألوهية، فيقول للناس: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤]. ويقول لهم: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهِ غَيْرِي﴾ [٣٨].

وهذا الحاكم الطاغية يواجه بجبروته طفلاً رضيعاً لا حول له ولا قوة، ولكن هذه القوة وهذا الجبروت لم يغنيا عنه من الله شيئاً، فيترى الطفل في حجر عدوه بأمواله وتحت رعايته، ورعاية امرأته التي انفتحت قلبها له.

ولمَّا كان موسى في حراسة العناية الإلهية، والقوة القاهرة، فقد كانت نهاية فرعون على يد هذا الرضيع الذي نشأ في بيت عدوه.

وهكذا ربطت السورة بين هذه القصة، وبين عودة النبي ﷺ إلى مكة فاتحاً منتصراً، بعد أن خرج منها نتيجة التآمر على قتله ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ﴾ الآية [٨٥].

وفي كل زمن يوجد فراعنة يظلمون الناس، ويستعبدونهم، ويكون لهم أعوان وبطانات سوء، فإذا استكان الناس للظلم، وقبلوا الضيم، وشاع المنكر بينهم، وارتضوا حياة الذل والمسكنة، فإن الله تعالى يسلط الظلم وأهله عليهم حتى تستيقظ ضمائرهم، ويأخذوا

بأسباب الخلاص، وحينئذ يحل بهم نصر الله وتأييده، فيجعلهم سادة بعد أن كانوا عبيدًا، وحاكمين بعد أن كانوا محكومين، ويسلط الله على الطاغية من ينغص عليه عيشه، ويقض مضجعه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ومحور قصة موسى مع فرعون يدور حول الحق والباطل، والخير والشر، وجند الرحمن وجند الشيطان، وتبين أن عاقبة الظلم وخيمة، وأن عاقبة الصبر والتقوى جميلة، وتبين أن المستضعفين في الأرض ستنكسر قيودهم، ويستردون حرياتهم ما داموا يأخذون بالأسباب، ويفضلون الموت على الحياة، ولم يكونوا عبيدًا لثرواتهم، أو نزواتهم، أو مناصبهم، أو شهواتهم.

ولذا: فإن القصة الثانية في سورة (القصص)، تمثل طغيان الثروة والمال، وادعاء أن قارون قد أوتي المال عن جدارة، أو خبرة، أو وراثة، وأنه مستحق له، نظرًا لما أوتي من علم ودراية، هذا هو قارون وأشباهه في طول الأرض وعرضها.

لقد بغى فرعون وتطاول بجبروته وحُكمه وسلطانه، وبغى قارون وتطاول بعلمه وماله، وكانت النهاية واحدة، ففرعون أغرقه الله في اليم وهو مليم، وقارون خسف الله به وبداره الأرض، ولم توجد قوة على وجه الأرض حالت بينهما وبين هذا المصير الذي وضع حدًا للبغي والفساد في الأرض.

وقد استغرقت قصة موسى وفرعون خمسين آية من السورة، وجاء التعقيب عليها في خمس وعشرين آية، واستغرقت قصة قارون ثماني آيات، وجاء التعقيب عليها في خمس آيات.

سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ (٢٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (العنكبوت) هي السورة التاسعة والعشرون في ترتيب المصحف، والخامسة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الروم)، وقبل سورة (المطففين)، وهي من آخر ما نزل بمكة.

وعدد آياتها تسع وستون آية عند الجميع عدا الحمصى، وعدّها الحمصى سبعون آية، وكلماتها تسع مئة وثمانون كلمة، وحروفها أربعة آلاف ومئة وخمسة وستون حرفاً، وسميت سورة (العنكبوت) لذكره فيها.

وهي سورة مكية على الأرجح، وقيل: ما عدا الآيات العشر الأول منها فإنها مدنية، وهي كالسور المكية تتناول العقيدة، والرسالة، والبعث:

١- أما جانب التوحيد فهو في بدء السورة، حيث الحديث عن الإيمان، وما يتعرض له المؤمنون من فتن. ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢).

٢- وأما جانب النبوة، والوحي، والرسالة فيشير إليه مثل قوله تعالى في السورة:

﴿وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمَعِيبِ﴾ (٧).

٣- وأما جانب البعث والحشر والنشر، والحساب والجزاء، فيشير إليه مثل قوله تعالى في السورة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (١٩).

والجهاد الذي تتحدث عنه السورة هو جهاد النفس، وجهاد الدعوة، والصبر على الفتن وأذى أعداء الإسلام.

جاء في أول السورة قوله تعالى ﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾ [٦]. وقد رُبط هذا الجهاد بآخر آية في السورة، وفيها وعد بجني ثمرة هذا الجهاد ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ الآية [٦٩].

والجهاد في الآيتين: هو جهاد النفس والهوى والشیطان، وجهاد الدعوة والصبر على الأذى.

وهذا الجهاد هو المحور الذي تدور حوله السورة، وهو موضوعها الأصيل، وفي إطار هذا المحور تتكون السورة من ثلاثة عناصر:

العنصر الأول: عن حقيقة الإيمان، وجهاد النفس، وجهاد الدعوة، وسنة الابتلاء والفتنة، ومصير كل من: المؤمنين والمنافقين والكافرين، وهذا العنصر اشتملت عليه الثلاث عشرة آية التي في أول السورة.

العنصر الثاني: لمن يستعجل ثمرات الجهاد، ويستبطئ مراحلها، ويتمثل هذا في جهاد الرسل الكرام، وصبرهم على أقوامهم، مع قلة الثمرة، وطول المدة، وهم: نوح، وإبراهيم، ولوط، وشعيب، وموسى، ومحمد، عليهم السلام.

وتشير السورة في هذا العنصر إلى بعض الطغاة، وهم: عاد، وثمود، وقارون، وفرعون، وهامان، فتبين ما لحق بمن كذب الرسل من هلاك، وتبين ضخامة جهد الأنبياء، وضآلة الحصيلة، وهذا العنصر من الآية الرابعة عشرة إلى الآية الخامسة والأربعين.

العنصر الثالث: يتناول أسلوب دعوة أهل الكتاب، ومجادلتهم بالحسنى إلا من ظلم منهم واعتدى.

ثم تربط السورة هذا كله بجملة من الآثار الكونية التي تدعم جانب التوحيد كخلق السموات والأرض، ونزول الماء من السماء، وتسخير السفن في البحار... إلخ، وهذا إلى نهاية السورة.

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يصلي في كسوف الشمس والقمر أربع ركعات، وأربع سجعات، يقرأ في الركعة الأولى بالعنكبوت أو الروم، وفي الثانية بـ (يس) ^(١).

(١) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٤١٨/٢) برقم (١٧٩٢) وفيه سعيد بن حفص النفيلى، قال ابن حجر في «تقريب التهذيب» (٢٩٣/١): صدوق تغير في آخر أيامه، وقال ابن القطان: لا أعرف حاله، وهو في «المسند» (١٩٧٥، ٣٢٣٦) وهو حديث ضعيف، ولكنه صحيح بدون ذكر هذه السور كما في حديث صفة صلاة الكسوف والخسوف في «سنن الدارقطني» برقم (٧٨٩).

سُورَةُ الرُّومِ (٣٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الروم) هي السورة الثلاثون في ترتيب المصحف، والرابعة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الانشقاق)، وقبل سورة (العنكبوت).

وهي تسع وخمسون آية في المصحف المكي والمدني الأخير، وستون آية عند غيرهما.

وهي ثمان مئة وتسع عشرة كلمة، وثلاثة آلاف وخمسمئة وأربعة وثلاثون حرفاً.

وسميت سورة (الروم) في عهد النبي ﷺ، ولم يرد ذكر اسم الروم في غيرها من القرآن.

وهي سورة مكية، قال ابن عباس: نزلت سورة الروم بمكة^(١).

وقد نزلت سنة إحدى عشرة من البعثة غالباً؛ لأن انتصار الروم على الفرس كان في عام بيعة الرضوان^(٢).

وكان هذا الانتصار بعد سبع سنوات من غلبة الفرس للروم، كما ذكر القرآن الكريم.

وقال أبو سعيد الخدري رحمه الله: لما كان يوم بدر ظهرت الروم على فارس، فأعجب ذلك

المؤمنين وفرحوا، فنزلت ﴿الْمَ غَلَبَ الرُّومُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَنْصُرِ اللَّهُ﴾^(٣).

وهذه الرواية على قراءة فتح الغين من (غَلَبَ الروم)^(٤) وهي قراءة شاذة، والرواية التي

قبلها على قراءة ضم الغين وهي القراءة المتواترة.

فيكون المعنى: وهم من بعد غلبهم فارس سيغلبهم المسلمون^(٥).

(١) أخرجه ابن الضريس ١٧ والنحاس ص ٦١١ والبيهقي (١٤٣/٧).

(٢) قاله قتادة وغيره، وقد استفاضت الروايات بهذا كما في «تفسير ابن عطية» (٣٢٨/٣) وغيره.

(٣) جاء هذا عند الترمذي برقم (٢٩٣٥) و«صحيح سنن الترمذي» برقم (٢٣٣٨) ورقم (٣٤٢٠) وهو حديث صحيح كما قال الألباني.

(٤) وهي قراءة شاذة وردت عن أبي سعيد، وعلي بن أبي طالب، ومعاوية بن قرة، وعبد الله بن عمر، يُنظر: «تفسير ابن عطية» (٣٢٧/٤).

(٥) يُنظر: «أسباب النزول» للسيوطي ٢١٦ و«تفسير الطبري» (١١/٢١).

فالأية تحتمل أن تكون بشارة للمؤمنين بالنصر على عدوهم، وقد تحقق هذا في يوم بدر، أو في بيعة الرضوان.

وتَحْتَمِلُ أن تكون بشارة للمؤمنين في صدق نبئهم من أن الروم ستغلب فارس. وجاء من عدة طرق، أن النبي ﷺ قرأ في صلاة الصبح بسورة الروم^(١).

وموضوع سورة (الروم) هو موضوع السور المكية، فهي تعالج قضايا العقيدة، والرسالة، والبعث والجزاء:

١- وقد ابتدأت السورة في موضوع العقيدة بالحديث عن قصة معيّنة، هي قصة الحرب التي دارت بين الفرس والروم، وانتهت في أول الأمر بانتصار الفرس، ثم كان النصر بعد ذلك للروم.

وكان ذلك في وقت قد احتدم فيه الجدل حول العقيدة، بين المسلمين السابقين إلى الإسلام في مكة قبل الهجرة، وبين المكذبين بالله ورسوله واليوم الآخر.

وكان الروم أهل كتاب، والفرس مجوسًا يعبدون النار، وأهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من المجوس، فنزلت هذه الآية لتبشر بنصر الروم على الفرس.

وفي هذا السياق وبّخت السورة الكافرين؛ لعدم تفكيرهم في دلائل التوحيد، والبعث، والنشور.

وأول ذلك التفكير في الكون الصغير، وهو نفس الإنسان المليئة بدلائل التوحيد، ثم التفكير في الكون الكبير بسمواته وأرضه، وما فيهما، وما بينهما.

ومن الدعوة إلى التفكير في النفس والكون إلى وجوب التأمل والنظر في أحوال السابقين الذين كانوا أشد منهم قوة وأكثر جمعًا.

وفي هذا السياق تقيم السورة اثني عشر دليلًا على وحدانية الله تعالى في ست آيات منها، وهي من الآية الحادية والعشرين إلى الآية السادسة والعشرين، وتضرب السورة المثل بعد

(١) أخرجه عبد الرزاق برقم (٢٧٢٥) وأحمد في «المسند» برقم (١٥٨٧٣) قال محققوه: إسناده حسن ورجاله ثقات رجال الشيخين، غير أبي روح فهو حسن الحديث، وأخرجه البزار (٤٧٧) زوائد والطبراني في الكبير (٨٨١).

ذلك على التوحيد والشرك، ثم تأمر الناس باتباع الدين الحق، وإسلام الوجه لله تعالى .

ومن دلائل التوحيد في السورة: أن الله تعالى يرسل الرياح بمشرات بالمطر، والسفن تمخر في عباب البحر بإذنه تعالى، وقد جاء ذلك في الآية [٤٦] حيث يرسل الله الرياح فتثير السحاب مثقلًا بالماء، فينشره في السماء، ويجعله قطعًا متفرقة فينزل المطر من بين السحاب، كما في الآية [٤٨]. ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ ءَاثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُخَيِّ الْمَوْتِ﴾ الآية ٥٠ من سورة الروم .

وتُخْتَمُ دلائل التوحيد هذه بالآية السابعة والعشرين من السورة ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ .

٢- وموضوع البعث والنشور في السورة يتقدم دلائل التوحيد، وذلك من الآية الحادية عشرة إلى الآية السادسة عشرة، بالإضافة إلى الآيات [٥٥-٥٧] قرب نهاية السورة، وهو يوم لا ينفع فيه عذر، ولا تُقبل فيه رجعة ﴿فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [٥٧] .

وقد أفاضت السورة في الاستدلال على البعث؛ لإبطال مزاعم المشركين المنكرة للحساب والجزاء، ومن ذلك ما جاء مفصلاً في أربعة استثنافات متماثلة الأسلوب، ابتدأ كلٌّ منها بلفظ الجلالة، وجاءت جارية مجرى الإخبار عن الحقائق التي لا قبل لهم بدحضها، ولا يسعهم إلا الإقرار بها مع العجز عن نقضها .

والاستئناف الأول: مبدوء بقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [١١] .

ولا يناع أحد في أن الله تعالى هو خالق الخلق، فالكفار يعترفون بهذا، وإذا سألتهم: من خلق السموات والأرض؟ فيكون جوابهم: هو الله .

قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ [الرعد: ١٦] .

والاستئناف الثاني: هو المبدوء باسم الجلالة، في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَٰلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ [٤] .

والاستئناف الثالث: قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [٤٨] .

وَيُعْقِبُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ، فيقول: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَرِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنِجٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ﴿٥٥﴾ .

والاستئناف الرابع: جاء في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ ﴿٥٤﴾ .

٣- وقد أشارت السورة إلى العنصر الثالث من عناصر القرآن المكي، وهو عنصر الوحي والرسالة، وبدأت ذلك بالتنبؤ بحديث غيبي هام، وهو انتصار الروم على الفرس، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي، ومن ثمَّ إلى دمج الرسول ﷺ في موكب الرسالات الإلهية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ﴿٤٧﴾ .

وتبيّن السورة أن الرسول ﷺ لا يملك إلا البلاغ، فهو لا يهدي العمى، ولا يُسمع الصم، والكفار كالموتى لا يسمعون ولا يُبصرون، ولا ينتفعون بالآيات الباهرة، والبراهين الساطعة، فاصبر -يا رسول الله- على أذى من لم يؤمن حتى يأتي نصر الله. ويمكن تقسيم السورة على النحو التالي:

١- مقدمة تتناول غلبة الروم للفرس، وذلك في الآيات السبع الأولى.

٢- دعوة إلى النظر والتأمل في ملكوت الله، لغرس عقيدة التوحيد واقتلاع جذور الشرك، وقد استغرق هذا معظم السورة، من الآية الثامنة حتى الآية الثانية والثلاثين.

٣- جولة مع الإنسان حين يمسه الخير أو الضر، ويسط الرزق أو قبضة، وذلك من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية الرابعة والخمسين.

٤- حديث عن الساعة والاستعداد لها في الآيات الخمس الأخيرة.

سُورَةُ لُقْمَانَ (٣١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة لقمان هي السورة الحادية والثلاثون في ترتيب المصحف، والسابعة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الصافات، وقبل سورة سبأ.

وهي أربع وثلاثون آية عند أهل الشام والبصرة والكوفة، وثلاث وثلاثون آية عند الحجازيين.

وكلماتها خمس مئة وثمان وأربعون كلمة، وألفان ومئة وعشرة أحرف.

ولم يُعرف لها اسم آخر غير (سورة لقمان)، وسُمِّيت كذلك لاشتغالها على قصة لقمان الحكيم.

وسبب نزول السورة: أن قريشاً سألوا رسول الله ﷺ عن قصة لقمان مع ابنه، على وجه الاختبار والتعنت والتعجيز.

وفي حديث البراء قال: كنا نصلي خلف النبي ﷺ الظهر، نسمع منه الآية بعد الآية من سورة لقمان والذاريات^(١).

وسورة لقمان سورة مكية، نزلت على قوم وثنيين يعبدون الحجارة والأصنام، شأنها شأن السور المكية، فهي تغرس في نفوس الناس أصول الإيمان المتعلقة بالتوحيد، والوحي والرسالة، واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء. فتخاطب الفطرة البشرية والعقل البشري بدلائل الإيمان، ومؤثرات الكون الناطقة بوحداية الخالق العظيم، المستحق للعبادة دون سواه.

١- فيذكر الله سبحانه وتعالى في السورة دلائل الوحدانية والقدرة في خلق السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والجبال والبحار، والنبات والأشجار. إلخ وهذا بالإضافة إلى ما جاء في المقطع الثالث من السورة بذكر جملة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تبارك وتعالى.

(١) «السنن الكبرى» للنسائي برقم (١٠٤٥، ١١٤٦١) في صفة الصلاة، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٨٣٠). وإسناده ضعيف.

وعن هذا وذاك يقول سبحانه ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾.

٢- وتذكر السورة دلائل النبوة والرسالة في هذا الكتاب المحكم، ومعارضة المشركين للوحي والنبوة.

٣ - وتذكر اليوم الآخر، فتحذر من هذا اليوم الرهيب، الذي لا ينفع فيه والد ولده، ولا مولود والده.

والناس تجاه هذه العناصر الثلاث منهم المؤمن المنعم يوم لقاء الله ومنهم الجاحد المعذب في نار الجحيم.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع رئيسة:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الحادية عشرة، وهذه الآيات التي صُدّرت بها السورة تمهّد لقصة لقمان، وهي تنوّه بهدي القرآن الكريم في جعل الناس قسمين:

أ- المحسنون المقيمون للصلاة، المؤمنون بالله واليوم الآخر، مع بيان الجزاء الحسن، المعدّ لهم في الدار الآخرة.

ب- والمجرمون الذين يشتركون الضلالة بالهدى، ويصدون الناس عن سبيل الله، مع بيان الجزاء السيء المعدّ لهم في الدار الآخرة كذلك.

وذلك ليعلم الناس أن الهدى هدى الله، وأنه لا يُلْتَفَت إلى أخبار أهل الضلال.

إلى جوار تذكير الناس بالمؤثر النفسي، والعامل الروحاني، وهو أن الخالق لهذا الكون هو المستحق للعبادة دون سواه.

المقطع الثاني: يتناول قصة لقمان الحكيم في وصايا لابنه في جانب العقيدة، والعبادة، والأخلاق، والآداب، وذلك في ثماني آيات، من الآية الثانية عشرة إلى الآية التاسعة عشرة من السورة، وجاء في ذلك أربع وصايا هي: النهي عن الشرك بالله، والأمر بالإحسان إلى الوالدين، وتقرير عقيدة الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من حساب دقيق وجزاء عادل، وجاء في الوصية الرابعة: سبعة من التكاليف الشرعية، هي: إقامة الصلاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على المكروهات، وعدم التكبر، وعدم

الإعجاب بالنفس، والتواضع والسكينة، وخفض الصوت بالكلام..

المقطع الثالث: يسوق جملة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تبارك وتعالى، في تسخير السَّمَوَات والأَرْض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والفُلُك التي تجري في البحار بقدرة الله تعالى، إلى جوار بيان علم الله تعالى الشامل المحيط، ونعم الله تعالى الظاهرة والباطنة، ويتخلل ذلك الحض على إسلام الوجه لله، وبيان أن الله تعالى هو الحق، وأن ما يدعون من دونه هو الباطل.

ومن ذلك وجوب اللجوء إلى الله تعالى في حالات الشدة والرخاء معًا.

وقد استغرق هذا المقطع من الآية العشرين إلى الآية الثانية والثلاثين.

المقطع الرابع: يمثل ختام السورة، ويهدف إلى معالجة القلوب بدعوة الناس إلى تقوى الله تعالى، والخوف من لقائه في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، وتقرير المسؤولية المستقلة، ومن ثم إلى علوم الغيب الخمسة التي ذُكرت في نهاية السورة، وهي: وقت قيام الساعة، ووقت نزول المطر، وعلم ما في الأرحام، قبل تكوينه وبعد تكوينه، وعلم ما يحدث في المستقبل، وفي أيِّ مكان يموت الإنسان، وهذا المقطع جاء في الآيتين الأخيرتين من السورة.

سُورَةُ السَّجْدَةِ (٣٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة السجدة هي السورة الثانية والثلاثون في ترتيب المصحف، والثالثة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النحل، وقبل سورة نوح.

وهي سبع وعشرون آية عند البصريين، وثلاثون آية عند غيرهم.

وثلاث مئة وثمانون كلمة، وألف وخمس مئة وثمانية عشر حرفاً.

وشهرتها سورة (السجدة)، وتسمى سورة (ألم تنزيل)، أو (ألم تنزيل السجدة)، أو (ألم السجدة)، وتسمى أيضاً: سورة (المضاجع).

قراءتها في فجر الجمعة وعند النوم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يقرأ في الفجر يوم الجمعة ﴿أَلَمْ نَنْزِلْ﴾ السجدة، و ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾^(١).

ويُقصد بقراءتهما في صلاة الصبح يوم الجمعة حصول الشئنة، ويكون السجود تبعاً لذلك، ولا يلزم قراءتهما في كل يوم جمعة، ولا يقرأ بعضهما، ولا يُقرأ بسورة السجدة في الركعتين، فإن الشئنة لا تحصل بذلك.

وعن جابر رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقرأ ﴿أَلَمْ نَنْزِلْ﴾ السجدة، و ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَبْدِيهِ الْمَلِكُ﴾^(٢).

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة، «فتح الباري» (٢/٤٣٨٠) وفي البخاري (٨٩١، ١٠٦٨) و«صحيح مسلم» (٢/٥٩٩) برقم (٨٨٠) والنسائي (٩٥٤) وابن ماجه (٨٢٣) وابن أبي شيبة (٢/١٤٠) وله طرق أخرى عن ابن عباس وغيره.

(٢) أحمد في «المسند» (٣/٣٤٠) برقم (١٤٦٥٩) قال محققوه: حديث صحيح، و«صحيح سنن الترمذي» (٢٣١٦) و«السنن الكبرى» للنسائي (١٠٥٤٢) و«السلسلة الصحيحة» (٥٨٥) وابن أبي شيبة (١٠/٤٢٤) وعبد بن حميد (١٠٤٠) والدارمي (٣٤٠٤).

أغراض السورة: وسورة السجدة، سورة مكية، تعالج قضية الوحي وصدق الرسول ﷺ، كما تعالج قضية التوحيد، وقضية البعث والمصير، وهذا الأخير هو المحور الذي تدور عليه السورة، وكل السور المكية تعالج هذه القضايا الثلاث بأسلوب خاص ومؤثرات خاصة، تلتقي كلها في مخاطبة العقل والقلب البشري؛ لإيقاظ الفطرة، وإحياء الإيمان في النفوس:

١- تبدأ السورة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم، فتردُّ على الذين زعموا أن محمدًا ﷺ افترى القرآن من عند نفسه، وتُدحضُ هذا البهتان بروائع الحجة والبرهان، وتُفيد في صَدْرها أن هذا القرآن قد نزل من عند الله تعالى يقينًا إلى أمة لم تألف الوحي من قبل، فصاغها في قالب جديد، وحملها رسالة عالمية، وكانت الرسائل قبله رسائل محلية قديمة في بعض القبائل، أو البلاد، أو الشعوب، انتهت هذه الرسائل في مكانها، و زمانها، أو بانتهاء المدة التي من المفروض لها أن تنتهي فيها، أما رسالة محمد ﷺ فهي رسالة عالمية، تحرَّك بها العرب، فغيَّروا وجه العالم.

٢- وبعد الحديث عن الوحي والرسالة في الآيات الثلاث من أولها، تتناول السورة جانب العقيدة والتوحيد في ست آيات بعدها، فتلقت النظر إلى خالق هذا الكون الرُّب، وهيمته عليه وتدير أمره، ورفع الأمر إليه من الأرض إلى السماء.

كما تلقت النظر إلى نشأة الإنسان وأطوار خلقه، وما وهبه الله من السمع والبصر والإدراك، والناس بعد ذلك قليلًا ما يشكرون.

٣- وفي الجولة الثالثة للسورة، تتناول جانب البعث والحساب، والثواب والعقاب، فتردُّ على المنكرين بَعْثهم، بعد تفرق ذرَّاتهم في التراب، بصيغة الجزم واليقين أنهم راجعون إلى ربهم في يوم يشتد فيه الحساب، وأنهم سيندمون على إلحادهم وكفرهم عندما يُنكسون رؤوسهم عند ربهم، ويعلنون يقينهم بالحق الذي أنكروه من قبل، فيقولون: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ رأينا بأعيننا، وسمعنا بأذاننا أنَّ البعث والحساب حق ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [١٢]. ولكن هذا اليقين جاء بعد فوات الأوان.

والقرآن الكريم يوقظ عقول وقلوب الأشقياء بهذه الآيات وأمثالها، قبل فوات الأوان وهم في الدنيا.

وقد استغرقت هذه الجولة خمس آيات من السورة من الآية العاشرة إلى الآية الرابعة عشرة.

٤- وبعد ذمّ الجاحدين للتوحيد، المكذبين بيوم الدين، يأتي الوجه المقابل بالثناء على المؤمنين الصادقين، وهو مشهد ساطع مضيء في مقابل المشهد البائس المكروب، وتصف السورة هؤلاء المؤمنين بأنهم لا يقضون ليلهم في ارتكاب الجريمة، ولا في السهرات الحمراء، والمتع الحرام، إنهم ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [١٦].

إن الصلاة لا مكان لها - غالبًا - عند أهل المدينة المدنية.

أما المؤمنون المخلصون فهم يقيمون الصلاة سحابة النهار وبعض الليل، ولن يفلح إلا من قدم الإيمان والعمل الصالح ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ﴾ ﴿٨﴾.

وسينتقم الله من المجرمين الكافرين، ويذيقهم من عذاب القبر وعذاب الآخرة.

٥- ثم ذكّر الله تعالى نبيه ﷺ بما لقيه المرسلون قبله من العنت والتكذيب وتحمل المشاق، وعلى رأسهم موسى عليه السلام، فما عليك -يا محمد- إلا أن تصبر وتحمل؛ فإن الله تعالى سيفصل بينك وبينهم يوم لقائه.

٦- ويعقب ذلك إشارة إلى مصارع المكذبين لرسلمهم في الأمم السابقة.

وكما أن الله تعالى يحيي الأرض الموات بنزول الماء عليها، فإنه تعالى يحيي قلوب عباده بالوحي المنزل من السماء، ويبعثهم بعد موتهم للحساب والجزاء، فأعرض -أيها الرسول- عن المكذبين بك وبدعوتك، وانتظر الفرج والفتح عليك بالنصر من الله تعالى، فإنه آتٍ لا محالة.

سُورَةُ الْأَحْزَابِ (٣٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الأحزاب) هي السورة الثالثة والثلاثون في ترتيب المصحف، والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الأنفال)، وقبل سورة (المائدة)، وهي ثلاث وسبعون آية باتفاق أهل العدد، وألف ومئتان وثمانون كلمة. وخمسة آلاف وتسع مئة وتسعون حرفاً.

وسُميت سورة (الأحزاب)؛ لتحزُّب اليهود والمشركين من قريش، وكنانة، وغطفان، ضد الإسلام وأهله، وكانوا عشرة آلاف، أرادوا غزو المسلمين في المدينة، فردَّ الله كيدهم، وكفى المؤمنين القتال.

وسورة (الأحزاب) سورة مدنية باتفاق، وكان نزولها سنة خمسٍ من الهجرة، وقيل: سنة أربع، وهي السنة التي وقعت فيها غزوة الأحزاب، وتسمى غزوة الخندق.

وقد نُسخ من سورة (الأحزاب) (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما ألَبَتَهُ نَكَالاً من الله والله عزيز حكيم)^(١) وبقي حكمها والعمل بها، كما هو ثابت في صحيح السُّنَّة، غير أن الرجم لا يختص بالشيخين، بل يشمل الشابتين أيضاً، لأن المراد بالشيخ والشيخة: الزاني المحصن، كبيراً كان أو صغيراً ولهذا فإن (عمر) ﷺ لَمَّا طلب كتابتها في المصحف قال له النبي ﷺ «لا أستطيع»^(٢).

والخلاصة: أن فريضة الرجم للزاني الثيب، ثابتة بالسنة القولية والفعلية، للكبير والصغير، ورفض النبي ﷺ كتابتها في المصحف لعلمه أنها ستنسخ لفظاً.

(١) يُنظر: «المسند» (١٣٢/٥) برقم (٢١٢٠٧) عن أبي بن كعب، بإسناد فيه عاصم بن بهدلة، وبقيّة رجاله ثقات، انظر (٢١٥٩٦) عن زيد بن أرقم، ورجاله ثقات رجال الشيخين غير كثير بن الصلت، فقد روى له النسائي وهو ثقة (محققه) وهو في «مسند الطيالسي» برقم (٥٤٠) والنسائي في «السنن الكبرى» (٧١٥٠) ورقمه في ط الرسالة (٧١٠٨، ٧١٠٩، ٧١١٢) وابن حبان (٤٤٢٨) «الإحسان» (١٣٣٦٣) وعبد الرزاق (٥٩٩٠) و«المستدرک» (٣٥٩/٤) كلهم عن عاصم عن زُرِّ بن حُبَيْش، وصححه الحاكم.

(٢) انظر كلام الشيخ محمد الصادق عرجون، في كتابه (محمد رسول الله) (١١٩/٤) وكلام البخاري في صحيحه في تحقيق الحديث (٦٨٢٩) من المسند، وابن حجر في الفتح (١٤٣/١٢) وانظر كلامنا في أول سورة النور.

ومن سورة الأحزاب ما نُسخ حكمه وتلاوته معاً .

وافقد زيد بن ثابت ؓ آية ﴿مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [٢٣] .

وهو يُنسخ مصحف عثمان ؓ، والآية محفوظة في صدره وصدور كثير من الصحابة ؓ، ولكنه لم يجدها مكتوبة إلا عند خزيمة بن ثابت الأنصاري .

وكان لابد من وجود الآية مكتوبة عند اثنين على الأقل من الصحابة، فجعل النبي ﷺ شهادته بشهادة رجلين .

كما افتقد زيد ؓ الآيتين الأخيرتين من سورة (التوبة)، فوجدهما عند أبي خزيمة بن أوس .

عن ابن عباس ؓ أن عمر ؓ قام فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: أيها الناس، إن الله بعث محمداً ﷺ بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان مما أنزل عليه، آية الرجم، فقرأناها وعقلناها ووعيناها: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما آلبتة) ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل: لا نجد آية الرجم في كتاب الله، فيضلوا بترك فريضة أنزلها الله^(١) .

والأحاديث تشير إلى أن سورة الأحزاب كان فيها قرآن، ثم نسخ لفظه وحكمه .

ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع :

المقطع الأول: يأمر الله تعالى فيه الأمة في شخص نبيها ﷺ بطاعة الله وحده، واتباع أمره والتوكل عليه، وتنهاه عن طاعة الكافرين والمنافقين، وفيه إبطال لما كان عليه الناس قبل الإسلام فيما يتعلق بالظهار والتبني، وفيه تقرير أن النبي ﷺ هو الوالد الروحي للأمة، وهو أحرص الناس على هداها، ورمز الإسلام الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور .

وهو ﷺ أولى بهم من أنفسهم ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ وكان النبي ﷺ لا يصلي على الميت الذي يتحمل ديناً عليه، فلما نزلت هذه الآية، وفتح الله على رسوله ﷺ بالغنائم أخذ يتحمل ديون الناس، ويصلي على المؤمنين، ويواسي الفقراء، ويكفل

(١) الإمام مالك في الموطأ (٢/٨٢٣) ورقمه في رواية أبي مصعب عن أبي بن كعب (١٧٦٦) بنحوه ويُنظر: البخاري (٦٨٣٠) ومسلم (١٦٩١) .

اليتامى...، وكما اعتُبر النبي ﷺ أباً للمؤمنين، فإن زوجاته أمهات لهم في البرِّ والحُرمة وعدم الزواج بهن.

وفي هذا المقطع إبطال التوارث عن طريق المؤاخاة، وفيه ميثاق التوحيد الذي أخذه الله تعالى على الخلق، وعلى رأسهم أولو العزم من الرسل، وقد جاءت هذه الأحكام في الآيات الثماني الأولى من السورة.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية التاسعة إلى الآية السابعة والعشرين، وهو في وصف ردِّ كيد الأحزاب المهاجمين ودفع جيوشهم، وفيه وصف لحال المؤمنين الصادقين، والمنافقين الذين في قلوبهم مرض، وهو وصف يكشف عن القيم الصحيحة والزائفة.

المقطع الثالث: يتناول الحديث عن زوجات النبي ﷺ، وتخييره لهن بين الصبر على شظف العيش، أو التسريح بإحسان، والأمر لهن بعدم الخروج من بيوتهن إلا لحاجة مشروعة، وعدم اللين في مخاطبة الرجال، وعدم التبرج، فإنهن في موضع القدوة لغيرهن من سائر النساء، وقد ساوى الله تعالى بين الرجال والنساء في الثواب والعمل، وقد تناول هذا المقطع زواج النبي ﷺ بزَيْنَب بنت جَحْش ؓ؛ لإبطال ما كان يترتب على قاعدة التَّبَنِّي التي أبطلها الإسلام.

وأعقب ذلك بعض الأحكام المتعلقة بالزواج، وتنظيم الحياة الزوجية للنبي ﷺ، ومن ثم إلى تشريع الحجاب، وبيان محارم النساء.

ويُختم هذا السياق بأمر النساء جميعاً بالتستر والاحتشام عن طريق الثياب الواسعة السمكة غير اللافتة للنظر؛ حتى لا تشيع الفاحشة بين الناس، ولا يتعرضن للأذى، وحتى تُصان أعراض المسلمين، وتنقطع ألسنة المرجفين. وقد استغرق هذا المقطع معظم السورة من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الثانية والستين.

المقطع الرابع: يتناول الحديث عن القيامة، وما يتبع ذلك من سلوك الطريق القويم، وعدم التقليد واتباع أهل الضلال، وحمل الأمانة التي عجزت عن حملها السموات والأرض والجبال، وذلك في الإحدى عشرة آية التي انتهت بها السورة.

تلخيص أغراض السورة في ثلاث نقاط:

أولاً: الأحكام التشريعية: كأحكام الظَّهَار والطلاق والتَّبَيُّ وما يترتب عليه من أحكام، وقصر الإرث على الأقارب، وتعدد الزوجات، والحجاب الشرعي، والصلاة على الرسول ﷺ وما يتعلق بشؤون الدعوة.

ثانياً: الحديث عن غزوتي: الأحزاب وبنو قريظة، وكشف خفايا المنافقين.

ثالثاً: التوجيهات والآداب الاجتماعية: كآداب الوليمة، والستر، وعدم التبرج، وآداب احترام الرسول ﷺ وزوجاته، ورضا الناس بما رزقهم الله تعالى، وحمل الأمانة، وغير ذلك.

خمسـة نداءات للنبي ﷺ:

وقد تضمنت السورة خمسـة نداءات للنبي ﷺ بصفته هادي الأمة، وقائدها لتنفيذ ما يُطلب في كل نداء مما يخصه، أو يخص الأمة:

النداء الأول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾

وهو بغرض تحديد واجبات الرسالة ووجوب الانتماء إلى الله وحده، وعدم الركون لغير المسلمين وفي هذه الآية، وفي الآيتين بعدها ثلاثة توجيهات للنبي ﷺ، تحمل نهياً وثلاثة أوامر، كلها زيادةً تثبيتاً للنبي ﷺ، كما تقول للمتفوق: دُم على هذا التفوق، ولا تتراخ، فالنبي ﷺ لم يُقَرِّط في تقوى الله تعالى، ولم يهادن أهل الكفر والنفاق، ولم يتبع غير الوحي المنزل، ولم يتوكل على غير الله سبحانه، والخطاب في كل ذلك يراد به الأمة.

النداء الثاني: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ﴾ [٢٨]

وهو بغرض التنويه بمقام أزواجه ﷺ فينبئ النبوة يبيث يكتفي بأيسر الزاد، ولا مكان فيه للشهوات والملذات، وهو غير بيت الملوك.

وقد كان النبي ﷺ خارجاً عن سلطان بطنه، ولا مجال في حياته للاستكثار من أطايب الطعام والشراب واللباس، لكن زوجاته ﷺ جئن من بيوت ثراء وسيادة، أُلْقن فيها رغد العيش، ولذا فسرعان ما اجتمعن ضده ﷺ يطلبن نفقة أوسع، ومتاعاً أرغد، فجاء الوحي يصادر هذا كله! وقد خيَّرهنَّ الله تعالى بين الطلاق، أو الرضا بمعيشة الكفاف، فاخترن الله ورسوله.

وقد اختارت أمهات المؤمنين عيش الكفاف على ترك بيوت النبوة، واستحققن شرف الصحبة الكريمة.

النداء الثالث ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ [٤٥].

وهو بغرض تحديد تقلبات شؤون الرسالة في معاملة الناس؛ فجاء هذا القرآن ليخاطب الناس كافة إلى قيام الساعة.

فلا يوجد قبل محمد ﷺ نبوة عامة للبشر كلهم، وكان كل نبي يُرسل إلى قومه خاصة. أما الشمس التي طلعت على الكون كله، فهي شمس النبوة الخاتمة.

وإذا كان محمد ﷺ شاهداً على أمته، فإن أمته شاهدة على الناس أجمعين بهذا الكتاب المبين.

النداء الرابع ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ [٥٠].

وهو بغرض سيرته ﷺ مع زوجاته، فليست كل امرأة تصلح لعظيم، وهناك طبقات معينة، اختار الله منها أمهات المؤمنين، فكنَّ مؤمنات قانتات تائبات عابدات.

وقد جاء الإسلام فوجد الرجال لا يقفون عند حد في تعدد الزوجات، فحدده الإسلام بأربع.

وقد أسلم رجل وعنده عشر زوجات، فأمره النبي ﷺ بإمساك أربع، وتسريح الباقيات.

والنبي ﷺ لم يطبق ذلك العدد المحدد بأربع على نفسه بأمر ربه؛ وذلك لأن نساء النبي ﷺ قد اخترنّه على أهلهن، وآثرنّ البقاء معه على شطف العيش، فلا يسوغ ترك إحداهن، وزواجهنّ بغير النبي ﷺ مستحيل؛ لأن الله تعالى حرمهنّ على الأمة، ولو عاد بعضهن إلى أهلهن لأجبروهنّ على الكفر، فالحلّ هو البقاء في عصمته ﷺ، وكان بينهم عجايز، ثم قال له ربه: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ﴾ [٥٢].

وقد تزوج النبي ﷺ زوجاته جميعاً بعد موت خديجة رضي الله عنها، وتم ذلك خلال سبع سنوات فحسب، أي: في الفترة من سنّ ٥٣ إلى ٦٠ من عمره الشريف، وهي فترة الأسفار والغزوات، وبعد أن ولّى الشباب، وكثرت الأشغال، ولم يُنجب ﷺ منهنّ جميعاً، ولم يتزوج النبي ﷺ في السنوات الثلاث من آخر عمره ﷺ.

وليس للحضارة المعاصرة أن تخوض في شأن تحديد عدد الزوجات بأربع، باستثناء ما

خصَّ الله به رسوله ﷺ بأكثر من ذلك لصالح نشر الدعوة، وتألف القلوب المختلفة، دون معرفة الحال التي كان عليها الناس قبل الإسلام، ودراسة الحكمة من تعدد زوجات النبي ﷺ، على أن الصعلوك من أبناء الحضارة المعاصرة ينال أكثر من ذلك العدد سفاخاً لا نكاحاً!

النداء الخامس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْنَّ مِنْ جَلْبِيزِهِنَّ﴾ [٥٩].

وهو بغرض تبليغ آداب التستر لأهل بيته ﷺ وجميع المؤمنات، ووجوب التستر وعدم التسكع في الطرقات أو الأسواق أو النوادي؛ لأن الرجال يطمعون في المرأة المبتذلة! والحق أن المرأة المتبرجة المبتذلة لسان حالها يدعو الرجال للتعرض لها، والمرأة المحتشمة الجادة، تصون نفسها عن الطامعين فيها.

سنة نداءات للمؤمنين:

ومع هذه النداءات الخمسة التي وُجِّهت للنبي ﷺ، فإن في السورة ستة نداءات أخرى وُجِّهت للمؤمنين:

النداء الأول: يتناول الموقف شديد الحرج، عند هجوم الأحزاب على المدينة، حين جاؤوا من فوق المسلمين ومن أسفل منهم، وقد زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الآية [٩]. فلم يفقد المؤمنون رباطهم، وأحكموا الدفاع عن المدينة، وهبت رياح النكبة، فأطارت الخيام، وأكفأت القدور فقرروا الرحيل، واكتفوا من الغنيمة بالإياب، وردَّ الله غيظهم في نحورهم، وكفى المؤمنين القتال.

النداء الثاني: للمؤمنين الذين يذكرون الله تعالى، ويسبحونه في صباحهم ومساءهم، ويصلُّون على رسوله ﷺ ويسلمون، ولا يؤذون الله ورسوله والمؤمنون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾.

فإن هذه الرسالة تقوم على الانتماء إلى الله تعالى، وإعلاء شعائر دينه، واليقين بلقائه، فإذا نسي المسلمون ربهم، ولم يستعدوا للقاءه، كانوا أهلاً لأن يطأهم الأعداء بأقدامهم! **النداء الثالث:** في حكم فقهي يتعلق بطلاق المرأة قبل الدخول بها، فلها حق الزواج

بِأَخْرَ، دُونَ أَنْ تَعْتَدَ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَةٍ تَعُدُّوهنَّ﴾ [الآية: ٤٩].

والإسلام يوجب الالتزام بأصول الطاعات وفروعها، وتطبيق أحكامه قلباً وقالباً.

النداء الرابع: في آداب الوليمة، وأن الدخول لها يكون بإذن، بعد إعداد الطعام، والخروج يكون بعد تناول الطعام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ [الآية: ٥٣].

ويلزم لذلك تنظيم وقت الزيارة وتحديدها، واحترام أوقات الناس، وعدم تضييعها سدى، والالتزام بآداب الشرع في الاستئذان، وعدم إحراج أهل البيت وتبعية عوراتهم، ومن دُعي فليجب، ومن لم يُدع فليحتجب، وشرّ اللوائم يُدعى لها الأغنياء دون الفقراء.

النداء الخامس: يحمي أعراض الأنبياء وسيرتهم من تطاول الرعاع عليهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا﴾ [الآية: ٦٩].

النداء السادس للمؤمنين في السورة: يأمرهم بالتقوى والصدق:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ (٧٠).

وقد حُتمت السورة بخلاصة وجيزة لأعمال البشر، تتعلق بحمل أمانة التكليف الذي يُميز الأخيار من الأشرار^(١).

(١) استفدت في هذه النداءات من كتاب «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم». للشيخ محمد الغزالي.

سُورَةُ سَبَأٍ (٣٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (سبأ) هي السورة الرابعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثامنة والخمسون في ترتيب النزول، وعدد آياتها أربع وخمسون آية عند جمهور أهل العدد، وخمس وخمسون آية في المصحف الشامي.

وهي ثمان مئة وثلاث وثمانون كلمة، وألف وخمس مئة واثنان عشر حرفاً.

وهي سورة مكية، نزلت بعد سورة (لقمان)، وقبل سورة (الزمر).

وسُمِّيَتْ هذه السورة، سورة (سبأ): لذكر قصة أهل سبأ فيها.

وهي رابع سورة بُدِئَتْ بحمد الله تعالى والثناء عليه وتمجيده سبحانه، فهو -جلّ شأنه- مالِكُ هذا الكون وخالقه، وحصاد هذه الدنيا راجع إليه بعدله ورحمته.

وشأن سورة (سبأ) شأن السور المكية:

فهي تعالج أولاً: قضية الشرك، والتوحيد، فتُبطل قواعد الشرك، وتقيم الأدلة على انفراده تعالى بالإلهية، وتنفي الإلهية عن أصنامهم، أو أن تكون لهم شفعاء عند الله تعالى، ويأتي ذلك في تقرير أن لله تعالى ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ في الآية الأولى من السورة.

ومن الآيات التي تبطل الشرك في أثناء السورة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمَا مِنْ شَرِكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٣٢).

وفي إبطال إلهية الملائكة والجن قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُؤَلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (٤١) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنُونَ﴾ (٤١).

وفي نفي شفاعة الملائكة عند ربهم إلا بإذنه تعالى يقول سبحانه: ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَاعَةَ

عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُمْ ﴿٢٣﴾ .

أما القضية الثانية من قضايا السور المكية: فهي قضية البعث والجزاء التي يستبعضها كفار الأمم واليوم، وقد جاء ذلك في مواطن كثيرة من السورة، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ﴾ قال تعالى: ﴿قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [٣].

وقوله سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُكُمُ عَلَىٰ رَجُلٍ يَبْتَئِكُمُ إِذَا مَرَقْتُمْ كُلُّ مُمْرِقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفَرَأَيْتُمْ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾ .

وفيما يكون بين الضعفاء والأقوياء يوم القيامة من تلاؤم وعتابٍ مريع، يقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ .

وتُخْتَمُ السورة بالحديث عن القيامة في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ ، إلى آخر السورة.

وتقرير قاعدة الجزاء العادل يوم لقاء رب العالمين، جاء في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَُولَٰئِكَ هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي ءَايَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ .

أما القضية الثالثة: وهي قضية الوحي والرسالة:

فقد جاءت في مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [٣١].

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ﴾

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّيْنٌ﴾ [٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرِيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [٣٤].

كما تحدثت السورة عن جوانب من قصة داود وسليمان، وتسخير الجن له في الرد على من

يعبدون الجن من دون الله، إلى جوار قصة أهل سبأ التي لم تُذكر في غير هذه السورة.

هذا، ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية التاسعة، نهاية ثلاثة أرباع الحزب، ويشتمل هذا المقطع على تقرير وحدانية الله تعالى، وملكه لهذا الكون بما فيه، وأنه سبحانه يعلم ما في جوف الأرض وما هو فوق ظهرها، وما يهبط من السماء وما يصعد إليها.

ويحكي هذا المقطع إنكار الكفار في كل زمان ومكان للبعث والنشور، ويرد عليهم بأن الذي يعلم حركة كل ذرة سيبعثهم يوم القيامة؛ ل يتم جزاء المؤمنين بمغفرة الذنوب والرزق الحسن في جنات النعيم، وجزاء الكافرين بعذاب شديد الألم.

ومع أن الكفار يُنكرون البعث والحساب والجزاء، ويستبعدون عودة الإنسان إلى الحياة بعد أن تمزقت أشلائه وتقطعت أوصاله، فإن أصحاب العلم الحقيقي يعلمون أن ما في القرآن من حقائق وثوابت، هو الحق الذي أخبر به رب العالمين، ولو شاء الله لخسف بهم الأرض، أو أسقط السماء عليهم كسفاً، فتقلب النعمة إلى نقمة.

المقطع الثاني: يبدأ من الآية العاشرة إلى الآية الحادية والعشرين، وهذا القدر من الآيات اشتمل على ثلاث قصص:

القصة الأولى: فيها إشارة سريعة إلى نبي الله داود عليه السلام، وقد جاءت هذه الإشارة في آيتين اثنتين من السورة، تشير الآية الأولى إلى تسبيح الطيور والجبال مع داود عليه السلام.

وتشير الآية الثانية إلى اشتغاله عليه السلام بصناعة الحديد لاستخدامها في الحروب وغيرها.

القصة الثانية: فيها إشارة سريعة إلى تسخير الريح والجن لسليمان عليه السلام، وأنها ظلت تعمل في الصناعات الشاقة إلى ما بعد موته، وهي لا تعلم عن موته شيئاً، وقد جاء هذا في ثلاث آيات متتابعة.

القصة الثالثة: عن أهل سبأ، وقد جاء ذكرها في سبع آيات تليها.

المقطع الثالث: جاء في آيات ست، تقيم الأدلة الكونية والعقلية على وحدانية الله تعالى وإبطال الشركاء والشفعاء من دون الله تعالى، وهذا في الآيات من [٢٣-٢٧].

وفي المقطع الرابع والأخير من السورة: حديث عن الوحي والرسالة وموقف المترفين منهما في كل زمان ومكان.

ويأتي تعقيب على كل آية في هذا المقام، بذكر مصير المؤمنين والمكذبين، مع ذكر عدة مشاهد لهم يوم القيامة، حين يُبْرَأ المتبوعون من التابعين، وتبْرَأ الملائكة ممن عبدوهم، وحين يذوق المكذبون عذاب النار، ويصيبهم الفزع الأكبر، ويحال بينهم وبين ما يشتهون، وهو مقطع متنوع يدور في هذا الفلك، وهو من الآية الثامنة والعشرين إلى الآية الرابعة والخمسين، نهاية السورة.

سُورَةُ فَاطِرٍ (٣٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (فاطر) هي السورة الخامسة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الفرقان)، وقبل سورة (مريم).

وعدد آياتها خمس وأربعون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني الأول، وست وأربعون آية في العدد المدني الأخير والدمشقي، وأربع وأربعون آية في العدد الحمصي.

وهي تسع مئة وسبعون كلمة، وثلاثة آلاف ومئة وثلاثون حرفاً.

وتُسمَّى سورة (فاطر) لوجود لفظ: ﴿فَاطِرٌ﴾ في أولها دون غيرها من السور الأخرى.

وفي صحيح البخاري، وجامع الترمذي، أنها تُسمَّى (سورة الملائكة) لِذِكْرِ وصف الملائكة فيها دون غيرها.

وهي سورة مكية نزلت قبل الهجرة، وهي آخر سورة مفتتحة بلفظ ﴿الْحَمْدُ﴾ من خمس سور في القرآن هي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

أغراض السورة:

(أ) وقد اشتملت هذه السورة على الدعوة إلى توحيد الله تعالى، وإقامة البراهين على وحدانيته سبحانه، وهدم قواعد الشرك، جاء ذلك في الآيات الدالة على قدرة الله تعالى، مثل قوله تعالى:

١- ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ﴾ [١].

٢- وقوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَنِيْرُ سَحَابًا﴾ [٩].

٣- وقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [١١].

٤- وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ [١٢].

٥- وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ فِطْمِيرٍ﴾ [١٣].

٦- وقوله سبحانه: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [١٤].

٧- وقوله جلّ شأنه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا﴾ [٢٧].

وقد أحصت السورة كثيراً من نعم الله تعالى وفضله على خلقه، وبيّنت أن الله تعالى هو المعطي المانع، لا مانع لما أعطى ولا مُعطي لما منع ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [٢].

فالخير كله منبعه رب العالمين، وما عدا ذلك أصفار على الشمال، وعدم الاعتراف بهذه النعم مصدر من مصادر الشرك والإلحاد.

إن التفكير في ذات الله تعالى، لا يصل به العبد إلى نتيجة، ولا سبيل إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر والتأمل في المُلْك والملكوت، ومن ذلك خلق الإنسان وموته، وجعلُ النبات والزرع مختلف الطعم والشكل والرائحة، ومن خلق الله تعالى: الدواب والأنعام، والشجر والجبال، وطبقات الأرض.

وهكذا تحدثت السورة عن خلق: الملائكة والإنس والجن، ونزول الغيث، وخروج الزرع والفواكه والثمار، وتعاقب الليل والنهار، وأشكال الجبال وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار.

ولذا: فإن السورة تحدثت عن الفارق الكبير بين: المؤمن والكافر، والظلمات والنور، والظل والحرور... فالإيمان بالله تعالى وليد عقل باحث متأمل، والإيمان التقليدي ليس له قرار في قلب المؤمن، بخلاف الإيمان الناتج عن عقل وتفكير وروية، ومن هنا فإن الذين ورثوا الكتاب، كان منهم: الظالم لنفسه، ومنهم المقتصد، ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله.

(ب) كما اشتملت السورة على الرسالة والوحي (ميراث الأمة) في مثل.

١- قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [٤].

٢- وقوله سبحانه: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ [٣] إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا

خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿١٤﴾

٣- وقوله : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالْزُبُرِ وَإِلَّا كَتَبَ الْغُيُوبَ﴾ ﴿٢٥﴾ .

٤- وقوله سبحانه : ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ﴿٣١﴾ .

٥- وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ ﴿٣٢﴾ .

(ج) واشتملت السورة على اليوم الآخر وما فيه من بعث وحساب، وجنة ونار، في مثل :

١- قوله تعالى : ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ ﴿٥﴾ .

٢- وقوله سبحانه : ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ ﴿٧﴾ .

٣- وقوله تعالى : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ ﴿٣٣﴾ .

٤- وقوله سبحانه : ﴿الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نُصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ ﴿٢٥﴾ .

٥- وقوله جلَّ شأنه : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوْنُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ ﴿٣٦﴾ .

وقد رفض المكذبون عقيدة التوحيد والبعث، والإيمان بخاتم الرسل ﷺ، ولقي الرسول ﷺ من قومه عنادًا وتكذيبًا وجدلاً وخصومة، فواساه ربه مرتين في هذه السورة، بيان أن الرسل قبله قد كُذِّبوا وأوذوا، وأن الله تعالى قد يُمهِّل العباد أمدًا طويلاً حتى يَضْحُو النَّائم، ويفيق الغافل، ولكنه لا يهملهم، وهو سبحانه قادر على مَحْوِ الْعَالَمِ بما فيه ومن فيه، ولكنه سبحانه يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

وسورة فاطر، تشبه سورة النحل في إحصاء عدد كثير من النعم، وبيان فضل الله تعالى على خلقه .

وقد خاطبت السورة الناس بصفة عامة ثلاث مرات :

١- تسألهم في أول نداء عن مصدر هذه النعم :

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿٣﴾ .

٢- وتحذّرهم في المرة الثانية من إغواء الشيطان لهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [٥، ٦].

٣- ويأتي النداء الثالث لبيان فقر الناس إلى ربهم وغناه عنهم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۚ﴾ [١٥].

وقد خُتِمت السورة ببيان سعة رحمة الله بخلقه: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [٤٥].

سُورَةُ يَسْ (٣٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة يس هي السورة السادسة والثلاثون في ترتيب المصحف، والحادية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الجن، وقبل سورة الفرقان.

وعدد آياتها عند الكوفيين ثلاث وثمانون آية، وعند غيرهم اثنتان وثمانون آية. وهي سبع مئة وتسع وعشرون كلمة، وثلاثة آلاف وعشرون حرفاً.

أَسْمَاؤها:

١- وسميت سورة ﴿يَس﴾ بِمَسْمَى الحرفين في أولها، فكانا مُمَيِّزَيْنِ لها عن سائر السور، وصار ذلك علماً عليها واشتهرت به.

٢- وعُتِنَ لها بعضهم بسورة حبيب النجار^(١) وهو صاحب قصة (أصحاب القرية).

٣- وذكر أنها تسمى: المِعْمَةُ. ٤- والمدافعة. ٥- والقاضية.

ومعنى المِعْمَةُ: التي تعم صاحبها بخير الدارين، والمدافعة، أي: التي تدفع عن صاحبها السوء، والقاضية، أي: التي تقضي كل حاجة بإذن الله^(٢).

٦- وسماها بعض السلف (قلب القرآن)، فهذه ستة أسماء لها، أشهرها الأول. وسورة يس سورة مكية بالإجماع.

وقد حَفَلَتْ سورة يس بآثار كثيرة لم تصح، تتعلق بقراءتها عند خروج الروح، وفي مكان خروجها، وقراءتها على الميت، وأنها تخفف عنه سكرات الموت.

(١) قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره (٣٤١/٢٢): رأيت مصحفاً مشرقياً نسخ سنة ١٠٧٨هـ

أحسبه في بلاد العجم، عنوانها: سورة حبيب النجار، قال: وهي تسمية غريبة ليس لها سند.

(٢) «تفسير الألوسي» (٢٠٩/٢٢) وقد جاء ذلك في أثر ضعيف عند البيهقي في «الشعب» برقم (٢٢٣٧) والخطيب (٣٨٧/٢).

وشاع عند العامة في بعض البلاد ما يطلقون عليه اسم (عِدِّيَّة يس) بمعنى أن جمعًا من القراء يقرؤونها عددًا معينًا على ظالم، فيموت، أو يصاب بسوء، ولا شك أنه إذا حصل شيء من هذا فهو من باب إجابة دعوة المظلوم.

كما أن بعض الجهال يقرأ عددًا منها بنية كفارة الصلاة عن الميت، لا سيَّما إذا كان لا يصلي، ويقرؤونها كذلك لقضاء الحاجة، ولمغفرة الذنوب، وأنها قلب القرآن، وأن من قرأها فكأنما قرأ القرآن عشر مرات، ومن داوم على قراءتها مات شهيدًا، ومن قرأها في ليلته يسّر الله عليه، . . . ، وهكذا، وكل هذا من باب البدع والجهل والتقليد الأعمى.

فالأحاديث التي وردت في فضل قراءة سورة يس، أو للمعاني السابقة، أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وهي مذكورة في أول السورة من تفسير ابن كثير والشوكاني وغيرهما.

وأغلب الظن أن هذه الأحاديث مما وضعها الذين أرادوا أن يصرفوا همة الناس إلى تلاوة القرآن، لَمَّا رَأَوْهُمْ قد انصرفوا عنه إلى دراسة السنة في وقت من الأوقات، وقالوا: نحن نَكْذِبُ للنبي ﷺ ولا نكذب عليه، وهو كلام لا يصح، فقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

ومثل ذلك جاء في بعض السور، وقد انفردت مؤلفات بيان الصحيح والضعيف من ذلك. وحديث قراءة يس لتسهيل خروج الروح، أو قراءتها على الميت، أو أنها لما قرئت له، كل هذا ضعّفه الشيخ الألباني وغيره، وقال الدارقطني: لا يصح في هذا الباب حديث^(٢).

أغراض السورة: وسورة يس تتكون من مقدمة وثلاثة عناصر:

أما المقدمة فهي حديث عن القرآن ومستمعيه، والمؤمنين به، والرافضين له، وهذا يستغرق من أول السورة إلى الآية الثانية عشرة.

(١) من حديث أنس في صحيح مسلم ٢ وأحمد في المسند (١٢/٥٤) وابن حبان (٣١) وهو حديث متواتر ورد عن جمع من الصحابة.

(٢) تُنظَر هذه الأحاديث في: كتاب «أحكام الجنائز»، للشيخ الألباني و«سلسلة الأحاديث الضعيفة» و«ضعيف الترغيب والترهيب» و«ضعيف الجامع الصغير» و«ضعيف سنن أبي داود» و«ضعيف سنن الترمذي» وكتاب «تلخيص الحبير» وغيرها.

والعنصر الأول يبدأ من الآية الثالثة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين، وهو دليل تاريخي على صدق ما جاء به محمد ﷺ يتضمن قصة موجزة عن قرية أنطاكية، وهي تشبه أم القرى، حيث عاند أهلها رسل الله صلوات الله عليهم، وضاقوا ذرعًا بوحى الله إليهم، فقد ظن أعداء المرسلين، أن الرسل جاؤوا ليسلبوهم سلطانهم، ويأخذوا ما في أيديهم، فسرعان ما تبرؤوا منهم، وهذدوهم وتشاءموا من قدومهم عليهم، مع أن الرسل لم ينشدوا جاهًا ولا مالًا، وهم يدعون خلق الله إلى عبادة الواحد الديان، وترك ما لا يضر ولا ينفع.

وقد تأمر أهل هذه القرية على قتل من قام فيهم ناصحًا أمينًا! فكان نصر الله تعالى حليفًا للمرسلين، وخذل الله المكذبين، فدفعوا الثمن غاليًا، وهكذا كل من كذب خاتم المرسلين ساءت عاقبته وباء بالخسران والبوار.

أما العنصر الثاني في السورة، فهو من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية السابعة والأربعين، وهو مجموعة من دلائل وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، وبديع صنعه في هذا الكون العجيب.

وتبدأ هذه المجموعة بمشهد الأرض الجذباء، والحياة التي تدب فيها، إننا نعطي الأرض أسوأ ما عندنا من فضلات الإنسان والحيوان والطيور، فتعطينا أحسن ما عندها من الفواكه والثمار والزروع والنبات والشجر، فمن الذي أخرج من الحمأ المسنون هذه الخيرات؟ ﴿سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦).

ونصعد بنظرنا من الأرض إلى السماء، لتأمل النظام الفلكي فيها! فإذا الظلام بعد أن يسود أرجاء الكون تُرسل الشمس أشعتها فتستقبلها الأرض، فإذا جمع الله أشعة الشمس عادت الظلمة الأولى، وهذا هو مشهد الليل والنهار.

ولكل من الشمس والقمر مداره الذي لا ينفك عنه، ولا يلتقيان، فالشمس في مدارها، والقمر يتدرج في منازلها، فمن الذي يمسك الكواكب في فضاءها؟ ومن الذي يدفعها في مجراها؟ وبأي طاقة تسير؟ ومن الذي أحكم نظامها، فضبط مكانها وزمانها وشرقها وغربها، وهي ألوف؟ ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (٤١).

إننا نرى البحار تسبح فيها السفن في عالمها الواسع، وهي أكبر من مساحة الأرض أربع مرات، إنها تجري وتغوص بقدرة الله تعالى، وإذا تعرّض الناس لأخطار في البحر فلا مُغيث لهم إلا الله، فهل يفزع الناس إلى ربهم في الرخاء كما يهرعون إليه في الشدة؟

وقد تبعت هذه الأدلة على أدلة أخرى قرب نهاية السورة، تتعلق بأنواع أخرى من المخلوقات: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِنَّا عَمَلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَمًا فَهُمْ لَهَا مَلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾﴾.

أما العنصر الثالث والأخير، فهو يتضمن الحديث عن البعث والجزاء، وهما عمدة التربية الدينية، وهذا من الآية الثامنة والأربعين إلى نهاية السورة.

وكما يأتي الموت فجأة، تأتي الساعة بغتة، دون ترقب ولا انتظار، وعلى هذا فقيام الساعة لا يعطي فرصة لعمل شيء مّا، ولا التوجيه بشيء مّا، فهي تقوم والرجل قد نشر الثوب بينهما، فلا يَتِمُّ البيع ولا الشراء، ولا يعود الإنسان إلى بيته!! ثم يقوم الناس لرب العالمين بعد موتهم جميعاً، وبعد الحساب يفرق بين المؤمنين والمجرمين، فيستقر السعداء في روضات النعيم، والأشقياء في دركات الجحيم.

وبهذا فإن السورة جمعت عناصر القرآن المكي الثلاثة، وهي: الوحي والرسالة في مقدمتها، وفي العنصر الأول منها، وجمعت أدلة التوحيد في العنصر الثاني، وجمعت أدلة البعث والحساب والجزاء في العنصر الثالث^(١).

والسورة قررت أمهات أصول الدين على أبلغ وجه وأتمه، وقررت أصول الطاعة بالاعتقاد والعمل، أما الحشر والحساب فهو مقرر في هذه السورة بأبلغ وجه، فهي سورة جامعة لأصول التدبر، ومنها تتشعب شرايين القرآن.

(١) استفدت في هذا التقسيم من كتاب الشيخ محمد الغزالي: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم».

سُورَةُ الصَّافَّاتِ (٣٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الصافات هي السورة السابعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والسادسة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الأنعام، وقبل سورة لقمان، في السنة الرابعة أو الخامسة من البعثة، وهي سورة مكية بالإجماع.

وعدد آياتها مئة وإحدى وثمانون آية في العدد البصري والمدني الأول، ومئة واثنان وثمانون آية عند غيرهما، وهي ثمان مئة وستون كلمة، وثلاثة آلاف وثمان مئة وستة وعشرون حرفاً.

وسُمِّيت سورة الصافات لانفرادها بذكر صفوف الملائكة في أولها، وسماها بعضهم سورة الذبيح؛ لانفرادها بذكر قصة الذبيح إسماعيل عليه السلام فيها.

وشأن سورة الصافات كشأن سائر السور المكية، تتعرض لقضايا الإسلام الثلاث وهي: التوحيد، والبعث، والرسالة؛ لغرس عقيدة الإيمان بالله واليوم الآخر، والوحي المنزل على رسوله ﷺ في نفوس غير المؤمنين، وتقوية ذلك في نفوس المؤمنين:

١- أما إثبات التوحيد، فقد أقسم الله تعالى عليه بثلاثة أيّمان عظيمة في أولها، وكان جواب القسم ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾.

وساقت الآيات على ذلك كثيراً من دلائل القدرة الإلهية، والمخلوقات التي لا قبل لغير الله تعالى بخلقها وصنعها، من العوالم السماوية بأجزائها وسكّانها.

وفي ثنايا السورة -أوائلها ووسطها ونهايتها- بيانٌ لكثير من معتقدات غير الموحدين بالله تعالى، ونسبة الشريك والولد له جلّ شأنه، فذكرت: أنهم كانوا إذا قيل لهم: لا إله إلا الله يستكبرون، وأنهم قالوا: الملائكة بنات الله، فزعموا أن الله تعالى تزوج من الجنة، فولدت له الملائكة، وقد كذّبتهم الملائكة على رؤوس الأشهاد ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾.

ونسبوا لله تعالى البنات، ونسبوا لهم البنين على حدّ زعمهم: ﴿فَاسْتَفْتِهِمَ أَلْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ﴾.

وأثبتوا الولد لله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥٦﴾ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ وقد تصدّت السورة في مطلعها للرد على هذه الخرافة، فذكرت طرفي القصة، وهما الملائكة في أولها، ونوّهت بشأنهم ومنزلتهم عند الله تعالى، أما الطرف الآخر وهم الجن، فقد جاء ذكرهم في آخرها وأولها، تاليًا لذكر الملائكة، فقَبَّحْتَهُمْ وَبَيَّنْتُ أَنَّهُمْ مَرْجُومُونَ مَدْحُورُونَ.

٢- أما إثبات البعث والحشر والحساب والجزاء، فقد تناولته السورة في أعقاب الحديث عن التوحيد، بدءًا من قولهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أُنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦٦﴾﴾. ومن ثمّ تعرض السورة إلى مشهد طويل فريد من مشاهد القيامة، حافل بالأحداث والوقائع والمفاجآت، متضمنًا لحوار واقعي مكرر، يدور بين المؤمن والكافر، وبيان ما آل إليه كل منهما من خلود المؤمن في الجنة، وخلود الكافر في النار ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّاقُومِ ﴿١٦٧﴾﴾.

٣- وتناولت السورة دعوة محمد ﷺ قومه إلى توحيد الله تعالى، وتناولت كذلك دعوة الرسل إلى أقوامهم وحدانية الله تعالى، وبيّنت كيف نصر الله رسله، ورفع شأنهم، وبارك عليهم ﴿إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧٧﴾ وَلَئِن جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٨﴾﴾ وقد وعد الله تعالى رسوله محمدًا ﷺ بالنصر كدأب المرسلين قبله.

وبيّنت السورة أن عذاب الله نازل بالمشرّكين، وأن العاقبة الحسنى للمؤمنين ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

ومن الرسل الذين ذكرت السورة قصتهم: نوح، وإبراهيم، وإسماعيل، وموسى، وهارون، وإلياس، ولوط، ويونس صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. وأدمجت السورة خلال ذكر قصص هؤلاء الرسل الثمانية، ذكر مناقبهم وفضائلهم، وقوّتهم في دين الله، وإنجاء الله لهم من الكروب التي حَقَّتْ بهم.

عن عبد الله بن عباس ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ يس والصافات يوم الجمعة ثم سأل الله أعطاه سؤاله»^(١).

(١) أخرجه أبو داود في «فضائل القرآن» وابن النجار في تاريخه عن الضحاك عن ابن عباس ؓ كما في «الدر» (١٢/٣٨٢).

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بالتخفيف ويؤمّننا بالصافات ^(١). ولما قدم ملوك حضرموت على النبي ﷺ، وطلبوا منه أن يقرأ عليهم شيئاً مما أنزل الله، قرأ أوائل سورة الصافات ^(٢).

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

المقطع الأول: يبدأ من أول السورة إلى الآية السبعين، وهذا المقطع يتناول الحديث عن الملائكة والشياطين، ومنكري البعث والحساب والجزاء، ومن ثمّ إلى وصف نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار.

المقطع الثاني: من الآية الحادية والسبعين إلى الآية الثامنة والأربعين بعد المئة، وهذا المقطع يتناول قصص ثمانية من المرسلين، وقد بدأ هذا القصص ببيان أن الضالين من خلق الله في كل زمان ومكان لهم نظائر في الأمم السابقة الذين أرسل الله إليهم الرسل، فحذّروهم وأنذروهم، وبيّنت الآيات كيف كانت عاقبة المرسلين، وعاقبة المنذرين.

المقطع الثالث: من الآية التاسعة والأربعين بعد المئة إلى نهاية السورة، وهو مقطع يعيد إلى الأذهان ما سبق في أول السورة من الحديث عن الجن والملائكة، ووعد الله تعالى بنصر رسله وعباده المؤمنين، إلا أن هذا النصر يأتي بعد زمان يتم فيه التمحيص، ويرتفع فيه مستوى الإيمان والأخذ بالأسباب.

وتُختم السورة بتنزيه الله تعالى، والسلام على رسله، والإقرار بربوبيته وإلهيته، وهي القضايا التي تناولتها السورة ﴿وَسَلِّمْ عَلَى الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨١﴾ [١٨٢].

(١) «المسند» (٢٦/٢) وصححه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه عليه برقم (٤٧٩٦) وقال محققو المسند: إسناده حسن، وفيه الحارث بن عبد الرحمن القرشي، صدوق، روى له الأربعة، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه النسائي (٨٢٥) وفي الكبرى (١١٤٣٢) و«صحيح سنن النسائي» (٧٩٦) وأبو يعلى برقم (٥٤٤٥) وابن حبان (٤٧٠) وابن خزيمة (١٦٠٦) والطبراني (١٣١٩٤) والبيهقي (١١٨/٣).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الدلائل» (١٩٠) عن أنس بن مالك.

سُورَةُ ص (٣٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (ص) هي السورة الثامنة والثلاثون في ترتيب المصحف، والثامنة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (القمر) وقبل سورة (الأعراف)، كان نزولها في آخر حياة أبي طالب، فتكون قد نزلت قبل الهجرة بثلاث سنوات تقريباً، وسُمِّيت السورة باسم أول حرف فيها، وتسمَّى: سورة (داود)؛ لذكر جانب هام من قصة داود عليه السلام فيها، لم يذكر في غيرها من السور.

وعدد آياتها ثمان وثمانون آية في العدد الكوفي^(١).

وهي اثنتان وثلاثون وسبع مئة كلمة، وسبعة وستون وثلاثة آلاف حرفاً، وهي سورة مكية.

سبب النزول: وجاء في سبب نزول السورة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما مرض أبو طالب دخل عليه رهط من قريش، فيهم أبو جهل، فقال: إن ابن أخيك يشتم آلهتنا، ويفعل ويفعل، ويقول ويقول، فلو بعثت إليه فنهيته؟ فبعث إليه، فجاء النبي صلى الله عليه وآله فدخل البيت، وبينهم وبين أبي طالب قدر مجلس رجل، فخشى أبو جهل أن يجلس الرسول إلى جوار أبي طالب ويكون أرقى عليه، فوثب أبو جهل فجلس في ذلك المجلس، فلم يجد رسول الله صلى الله عليه وآله مجلساً قرب عمه، فجلس عند الباب، فقال له أبو طالب: أي ابن أخي، ما بال قومك يشكونك؟ يزعمون أنك تشتم آلهتهم، وتقول وتقول، قال: وأكثروا عليه من القول، وتكلم رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «يا عم، إنني أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب، وتؤدي إليهم بها العجم الجزية» ففزعوا لكلمته ولقوله، فقال القوم: كلمة واحدة؟ قال: نعم، وأبيك عشراً، قالوا: فما هي؟ قال: «لا إله إلا الله» فقاموا فزعين ينفضون ثيابهم، وهم يقولون: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ

(١) وخمس وثمانون آية عند الجحدري من البصريين، وست وثمانون آية عند أهل الحجاز، وأهل الشام، وأهل البصرة، عن يعقوب الحضرمي وأيوب بن المتوكل.

مَجَابٌ ﴿٥﴾ فنزلت الآيات الثماني الأولى من هذه السورة^(١).

وفي سبب النزول هذا توبيخ للمشركين على شركهم، وتوبيخ لهم على تكذيب الرسول ﷺ فيما بلغه لهم، وتهديد لهم حتى لا يحلّ بهم ما حلّ بغيرهم.
وفيه تسلية وتصبير للنبي ﷺ؛ كي يقتدي بمن سبقه من الرسل.

قضايا السورة الثلاث:

والقرآن المكي، يتناول قضايا ثلاث، يجرسها في قلوب الناس؛ حتى يأخذ بأيديهم إلى الإيمان بالله ورسوله، والعمل لما في اليوم الآخر من حساب وجزاء على الأعمال، وهي: التوحيد، والرسالة، واليوم الآخر:

١- أما قضية التوحيد ونبد الشرك بألوانه فهي في الآيات السبع الأولى من السورة.

٢- وقضية الإيمان بالوحي المنزل من عند الله تعالى على خاتم الرسل ﷺ تبدأ من الآية الثامنة التي يتعجب فيها المشركون من بعثة النبي ﷺ ﴿أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا﴾ إلى الآية الثامنة والأربعين، ويتخلل ذلك ذكر عدد من الأمم التي كذبت رسل الله، فلحق بهم ما أصابهم من الهلاك والدمار، وهم: قوم نوح، وعاد، وفرعون وقومه، وقوم ثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

والمكذبون للرسول الخاتم من هذه الأمة، لا يحتاجون إلا إلى صيحة واحدة تأخذهم، فيحل بهم مثل ما حل بهذه الأمم.

ثم تعرضت السورة لذكر جانب هام من قصة ثلاثة من رسل الله تعالى هم: داود، وسليمان، وأيوب عليه السلام، وأشارت -مجرد إشارة- بذكر أسماء ستة آخرين من رسل الله،

(١) يُنظر: ابن أبي شيبة في المغازي (١٨٤١٣) وأحمد (٢٢٧/١) برقم (٢٠٠٨، ٣٤١٩) قال محققوه: إسناده ضعيف، فقد تفرد به يحيى بن عباد عن الأعمش، فهو في عداد المجهولين، وباقي رجاله ثقات رجال الشيخين، وأخرجه الترمذي في التفسير (٣٢٣٢) وقال: هذا حديث حسن، والنسائي في «السنن الكبرى» (٨٧٦٩) والطبري (٧٩/٢٣) وصححه الحاكم (٤٣٢/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في «الدلائل» (٣٤٥/٢) وعبد الرزاق (٩٩٢٤) وأبو يعلى (٢٥٨٣) والواحدي (٢٠٩) والسيوطي في «الدر» (٢٩٥/٥) وأخرجه ابن حبان (٦٦٨٦) وقال محققه: إسناده صحيح على شرط مسلم، ورجاله ثقات رجال الشيخين، قلت: ولعله حديث حسن بإسناد حسن، كما قال الترمذي.

هم: إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسماعيل، واليسع، وذو الكفل، وكلُّ من المصطفَيْن الأخيار، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

٣- ثم تناولت السورة في القضية الثالثة، يوم القيامة وما فيه من حشر ونشر، وجنة ونار، وذكرت في خلال ذلك ما يحدث بين أهل النار - وهم فيها - من تخاصم وتلاؤم وتلاعن، كل منهم يُلقي باللائمة على الفريق الآخر، من الأتباع والمتبوعين ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ﴾ (٦٤).

ثم ذكرت السورة أول غواية من الشيطان لبني آدم، ممثلة في قصة آدم وإبليس.

وفي أثناء قضايا السورة الثلاث، تجدها تهتم اهتماماً واضحاً بإقامة الأدلة على وحدانية الله تعالى وقدرته، لربط العباد بربهم وجذبهم إليه سبحانه كلما ابتعد الفكر قليلاً، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [١٠].

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا﴾ [٢٧].

وقوله جلَّ شأنه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنِّ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْفَهَّارُ﴾ (١٥).

هذا: ويتضح من السورة ومن سائر السور المكية أن أصول الكفر ثلاثة هي:

١- الإشراف بالله تعالى، وهو ما تعالجه هذه الآية ﴿أَجْعَلِ الْإِلَهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (٥).

٢- تكذيب الرسول ﷺ وتكذيب القرآن الذي جاء به، وهو ما يعالجه قوله تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ﴾ (٤).

وقوله سبحانه: ﴿أَمْ نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ فِي سَكِّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (٨).

٣- إنكار البعث والحساب والجزاء في الآخرة، وهو ما جاء في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنِ مَّكَارٍ﴾ (٤٩) جَنَّتْ عَذْبٍ مَّفْنَحَةٌ لَهُمُ الْأَنْوَابُ (٥٠).

وقوله أيضاً: ﴿وَإِنَّ لِلظَّالِمِينَ لَشَرَّ مَكَارٍ﴾ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَنَسَ الْمِهَادُ (٥١).

وذكر سبحانه بعد هاتين الآيتين شيئاً من نعيم الجنة وعذاب النار، نعوذ بالله من النار ومن عذاب النار.

وفي مقابل أصول الكفر الثلاثة، أصول الإيمان الثلاثة وهي :

١- توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له، ويتبع ذلك العمل الصالح.

٢- التصديق بالنبى الخاتم ﷺ، وبالوحي المنزل عليه من الله تعالى.

٣- الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث، وحشر ونشر، وحساب، وصراط، وميزان للأعمال، وجنة ونار.

وقد جاء ذلك مفصلاً في كتاب الله تعالى في مواطن كثيرة.

ويجمع هذه الأصول الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّبِيَّانَ مِنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة]

وكذا الآية التاسعة والستون من سورة المائدة، مع ما بينهما من تقديم وتأخير.

والإيمان بالله تعالى، مع العمل الصالح، يدخل فيه بالضرورة، الإيمان بالشق الثاني لكلمة التوحيد: (لا إله إلا الله) محمد رسول الله، فإن هذا مقتضى الشهادتين، ولا يحصل الإسلام إلا بهما معاً، فلو آمن العبد بالله تعالى وكفر برسوله ﷺ فليس مؤمناً، وهذا يشمل كل من لحق بدين الإسلام وأدركه واتبعه من سائر الملل والنحل: اليهود، والنصارى، والصابئين، والمجوس، والمشركين، وغيرهم.

أما من لم يدرك رسالة محمد ﷺ في كل ملة من الملل، ومات مؤمناً برسول زمانه، من بين رسل الله جميعاً فهو في الجنة، ومن بقي منهم على دينه بعد مجيء النبى الخاتم ولم يؤمن به ﷺ فهو في النار.

سُورَةُ الزُّمَرِ (٣٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الزمر) هي السورة التاسعة والثلاثون في ترتيب المصحف، والتاسعة والخمسون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (سبأ)، وقبل سورة (غافر)، سنة خمس من البعثة، قبل الهجرة إلى الحبشة.

وسُمِّيت سورة (الزمر)؛ لأن لفظ: «الزمر» لم يرد في غيرها من القرآن، وتُسَمَّى سورة (الْغُرَف) لقوله تعالى فيها: ﴿لَمَّا عُرِفَ مِنْ فَوْقَهَا عُرْفٌ مَبْنِيَّةٌ﴾ [٢٠]. وعدد آياتها عند أهل الكوفة خمس وسبعون آية^(١).

وهي ألف ومئة واثنان وسبعون كلمة، وأربعة آلاف وتسع مئة وثمانية أحرف. وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات، قيل: إنها نزلت في وخشي قاتل حمزة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [٥٣] وما بعدها، وقيل: إنها نزلت في هشام بن العاص، وكان قد تأخر عن الهجرة إلى المدينة بعد أن استعدَّ لها، وفي رواية: أن عياش بن ربيعة كان قد استعدَّ معه إلى الهجرة، ففُتِنَ فافتتن، وكلها روايات ضعيفة.

والأصح أن الآيات الثلاث نزلت في المشركين الوثنيين، وحكمها عام في كل من تاب إلى الله تعالى من شركه وكفره ومعاصيه، وأن السورة كلها مكية على الصحيح.

ومما ورد في فضل هذه السورة ما جاء عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله يصوم حتى نقول: ما يريد أن يفطر، ويفطر حتى نقول: ما يريد أن يصوم، وكان يقرأ في كل ليلة بني إسرائيل والزمر^(٢).

(١) وثلاث وسبعون آية عند أهل الشام، واثنان وسبعون آية عند أهل مكة وأهل المدينة وأهل البصرة.
(٢) النسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٤٤) وفي التفسير برقم (٤٦٤) من حديث عائشة وهو في ط الرسالة ل«السنن الكبرى» برقم (١١٣٨٠) وعند أحمد في المسند (٦٨/٦) برقم (٢٤٣٨٨) بسند ضعيف، قال محققوه: لضعف شريك النخعي، وجهالة شيخ سماك بن عميرة، وهو على شرط الشيخين من طرق كثيرة دون (وكان يقرأ .) وأخرجه الحاكم (٤٣٤/٢)، وسكت عنه ووافقه الذهبي.

وفي لفظ: كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يقرأ الزمر وبني إسرائيل^(١).

والجانب الرئيس الذي تعالجه السورة هو قضية التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، وتُقيم على ذلك الأدلة والبراهين من: خلق السموات والأرض، واختلاف الليل والنهار، وتشير الشمس والقمر، وأطوار خلق الإنسان في الأرحام، وغير ذلك من البراهين الساطعة الدالة على وحدانية الله تعالى، بما يوجب إفراده سبحانه بالعبادة.

وتوضح السورة الفارق بين من يعبد إلهاً واحداً، ومن يعبد آلهة متعددة، فالأول كعبد يملكه سيد واحد، والآخر كالعبد المملوك لعدد من الشركاء، فهم يتنازعون فيه ويتخاصمون.

وتبين السورة جزاء الكافر والمشرِك في الدار الآخرة، حيث تغشاه النار من فوقه ومن تحته.

ولإيقاظ القلب الإنساني واستجاشته، لحمله على الإيمان يقول تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ۚ﴾ [١٧، ١٨].

ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْخَبَرِ كُنَّا مُتَشَدِّهِا مَثَانِي نَقْشِرُهُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ۚ﴾ [٢٣].

ويقول جلَّ شأنه: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ﴾ [٣٦].

ويقول أيضاً: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۚ﴾ [٤٥].

أ- وجانب التوحيد هو العنصر الأول من عناصر القرآن المكي.

ب- أما العنصر الثاني فهو الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب، وجنة ونار.

ويتجلى ذلك واضحاً في الربع الأخير من السورة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْأَلُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ۝ وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَعْتَهُ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۚ﴾ [٥٥].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُسْوَدَّةٌ ۚ﴾ [٦٠].

(١) الترمذي برقم (٢٩٢٠) وقال: حديث حسن غريب.

وبعد النفخ في الصور لموت الخلائق، ثم النفخ فيه لبعثهم، تُشرق الأرض بنور ربها، وتوضع صحائف الأعمال، ويؤتى بالنبیین والشهداء، ويُقضى بينهم بالحق، فيدخل المتقون الجنة أفواجا وجماعات، ويدخل الكفار النار أفواجا وجماعات، ويقال في النهاية: الحمد لله رب العالمين، وهو الجانب الثاني من قضايا القرآن المكي.

ج - أما الجانب الثالث وهو: قضية الوحي والرسالة، فإنه يتجلى في تلقين الرسول ﷺ الحجج والبراهين للرد على شبهات المشركين الباطلة، ومن ذلك قوله تعالى:

١- ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

٢- ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِي قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴿٣٨﴾﴾.

٣- ﴿قُلْ يَقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِبِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾ مَنْ يَأْنِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ.

٤- ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴿٤٤﴾﴾.

٥- ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

والقرآن سيد الكتب، وهو الذي حرر الخلق من الشرك والضلال.

وقد ذكر القرآن سبع مرات في هذه السورة لبيان هذه الحقيقة، وهي قوله تعالى:

١- ﴿تَزِيلُ أَلِكُتَابٍ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾﴾.

٢- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ بِالْحَقِّ فَاَعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴿٢﴾﴾.

٣- ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانٍ ﴿٢٣﴾﴾.

٤- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٧٧﴾﴾.

٥- ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ ﴿٤١﴾﴾.

٦- ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مَنْ قَبِلَ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ﴿٥٥﴾﴾.

٧- ﴿بَلَى قَدْ جَاءَ نَكَائِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

وسورة (الزمر) -وهي بصدد توضيح سرائر الناس، واختلاف وجهاتهم، تضمنت أحوالاً شتى لأفواج من البشر، فيها تبائن واختلاف، قوبلت كل زمرة منها بزمرة أخرى مضادة، وهي تعقد لذلك ثلاث عشرة مقابلة بين أصناف الناس، مؤمنهم وكافرهم:

١- فالله تعالى يرضى لعباده الشكر، ولا يرضى لهم الكفر كما في الآية [٧].

٢- ولا يستوي عند الله من يُشغل ليله بالعبادة بمن يشغله باللهو واللذة المحرمة، فمثلهما كمثل الجاهل والعالم، والمؤمن والكافر الآية [٩].

٣- ولا يستوي مَنْ عبد الله حق العبادة -فسجن نفسه عن الهوى والشهوات- بمن عبد الدنيا وعاش يلهث وراء شهواتها، انظر الآيات [١٣، ١٥، ١٧، ١٨].

٤- ولا يستوي من اتقى وأحسن، بمن عصى وأساء ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾ [١٩].

٥- ولا يستوي من ينشرح صدره، فيتسع لسماع القرآن والحديث، وإذا جلس في المسجد أو في درس علم شرعي كأنه في روضة من رياض الجنة، لا يستوي هذا بمن يضيق صدره بذلك، وكأنه سجين يتنفس الصعداء ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِٖٓ قَوْلٌ لِّلنَّفْسِیَّةِ قُلُوْبُهُمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ الآية [٢٢].

٦- ولا يستوي من صان وجهه عن النار يوم القيامة بمن عرض وجهه لعذاب النار ﴿أَفَمَنْ يَنْتَقِیْ بِوَجْهِهِٓ سُوءَ الْعَذَابِ یَوْمَ الْقِیَمَةِ﴾ الآية [٢٤].

وكثيراً ما يطوي السياق الطرف الآخر للمقابلة، لكونه مفهوماً من السياق.

٧- ولا يستوي الموحّد والمشرک، والكافر والمؤمن ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِیهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ یَسْتَوِیَانِ مَثَلًا﴾ الآية [٢٩].

٨- ولا يستوي أهل الكذب مع أهل الصدق، ولا أهل الحق وأهل الباطل، فشتان بين مَنْ كذب على الله وكذب بالصدق، ومن جاء بالصدق وصدّق به، الآيتان [٣٢، ٣٣].

٩- ولا يستوي من ينفع ويضر، بمن لا يملك نفعاً ولا ضرراً، الآية [٣٨].

١٠- وما أبعد الشُّقَّةَ بين الموحّد والمشرِك، فالمشرِك عابد وثن يعكف على عبادة حجر ويهابه، وينفّر من التوحيد، ويضيق صدره منه، لا يستوي ذلك بالموحد، قرير العين ساكن النفس، كما في الآيتان [٤٥، ٤٦].

١١- وهناك مقابلة بين الإنسان ونفسه حينما تعرّض له حالتا النعماء والسراء، في مقابل البأساء والضراء ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية [٤٩].

١٢- وهناك مقابلة بين من يحدّوهم الأمل في عفو الله تعالى، فيسارع ويبادر إلى رضا الله - سبحانه -، وبين من يستولي عليه اليأس، فيتقاعس عن العمل، ويندم حين لا ينفع الندم ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَتٍ عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جُنُبِ اللَّهِ﴾ الآية [٥٦].

فيجواب: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ ءَايَتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿٥٩﴾.

١٣- وبعد السؤال والحساب يستقر أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار.

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ [٧١].

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَىٰ الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [٧٣].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السابعة، وهذا المقطع يتناول جانب التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده، وقيام الأدلة الكونية على وجوب ذلك، ونفى الشريك والولد عن الله تبارك وتعالى.

المقطع الثاني: من الآية الثامنة إلى الآية الثانية والخمسين، وهذا المقطع يتناول مختلف أحوال الإنسان بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال، وما يعترّيه من فرح وبطر، ورضا وجزع، مع قيام الأدلة، وضرب الأمثلة، ويتخلل ذلك وعظ وإرشاد، وترغيب وترهيب، وثواب وعقاب.

المقطع الثالث: من الآية الثالثة والخمسين إلى الآية السادسة والستين، وهو يتعلق بالحث على التوبة من كل ذنب، وما يتعلق بذلك من تسويف وتعجيل، وثواب وعقاب.

والمقطع الرابع والأخير، من الآية السابعة والستين إلى نهاية السورة، وهو مقطع شيق، يتحدث عن يوم القيامة ومُقدّماتها وأحوال المتقين والفجار وهم يساقون إلى مصيرهم المحتوم، حيث يرث المتقون أرض الجنة ويحمدون الله على ذلك، وتحفُّهم الملائكة من حول العرش مسبِّحين مهلِّلين، حامدين رب العالمين أن قضى بين عباده بالحق، ونال كل منهم جزاءه، والحمد رب العالمين.

سُورَةُ غَافِرٍ (٤٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (غافر) هي السورة الأربعون في ترتيب المصحف، والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الزمر) وقبل سورة (فصلت).

وعدد آياتها خمس وثمانون آية في المصحف الكوفي^(١).

وعدد كلماتها ألف ومئة وتسع وتسعون كلمة.

وعدد حروفها أربعة آلاف وتسع مئة وستون حرفاً.

وهي سورة مكية بلا استثناء على الصحيح.

قال سُمرة بن جُنْدُب: نزلت الحواميم جميعاً بمكة^(٢).

وقال مسروق: آل حم أنزلت بمكة^(٣).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أنزلت الحواميم السبع بمكة^(٤).

واستثنى الحسن قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾^(٥) الآية [٥٥].

واستثنى أبو العالية رضي الله عنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ فِي عَائِشَتِ اللَّهِ يَغَيِّرُ سُلْطَانِ أَتَهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كَبُرٌ مَّا هُمْ بِبَلِيغِيَّةٍ﴾ الآية [٥٦] على زعم أنها نزلت في بعض يهود المدينة، جادلوا النبي ﷺ في أمر الدجال^(٦).

وقد قرأ أبو بكر رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿أَفْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ الآية [٢٨] حين أذى نفر من قريش رسول الله ﷺ حول الكعبة، وكان ذلك سنة ثلاث قبل الهجرة، عندما اشتد

(١) وأربع وثمانون آية في المصحف المكي والمدني الأول والثاني والحمصي، واثنان وثمانون آية في المصحف البصري، وست وثمانون آية في العدد الدمشقي.

(٢) رواه الديلمي (٦٨١٣) وبذلك قال ابن عباس وابن الزبير ومسروق.

(٣) الطبري (١٢٥/٢١).

(٤) ابن الضريس (١٧) والنحاس (٦٤٩) والبيهقي (١٤٢/٧).

(٥)، (٦) يُنْظَرُ: «تفسير التحرير والتنوير» (٧٥/٢٣) و«فتح القدير» للشوكاني (٤/٤٦٢).

إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب، وخديجة .ﷺ

أَسْمَاؤها

١- وسميت سورة (غافر) لقوله تعالى في أولها: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ﴾ واشتهرت بذلك.

٢- وتسمى سورة (الطَّوْل) لقوله تعالى فيها: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾.

٣- وتسمى أيضًا سورة (المؤمن) لانفرادها بقصة مؤمن آل فرعون.

قال ابن الزبير: نزلت سورة (المؤمن) بمكة^(١).

٤- وتسمى سورة حم (المؤمن)^(٢).

سور آل حميم السبع:

وهي السور السبع التي تبدأ بقوله تعالى: ﴿حَمْدٌ﴾ وقد رُبِّتْ في المصحف وفق ترتيب نزولها هكذا: غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف.

وتسمى سور آل حميم لاتحاد فواتحها، ومثلها السور المفتحة بقوله تعالى: ﴿طَسَّ﴾ و﴿طَسَّ﴾ يقال لها: طواسين بالنون تغليبا، وربما جُمعت على حواميم جاء ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، وسُمرة بن جندب، وغيرهم.

قال عبد الله بن مسعود ؓ: آل حميم ديباج القرآن^(٣).

وقال ابن عباس ؓ: إن لكل شيء لُباب، ولُباب القرآن آل حميم، أو قال: الحواميم^(٤).

ورأى رجل أبا الدرداء يبني مسجداً فقال له: ما هذا؟ فقال: أُنَبِّئُه من أجل آل حميم.

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٥/١٣).

(٢) وقد ورد بذلك حديث ضعيف عن أبي هريرة في «ضعيف سنن الترمذي» برقم: (٥٤٠) والبيهقي (٢٤٧٣) وابن نصر في «مختصر قيام الليل» ص ٦٨ وفيه: أن من قرأ آيتين من أولها وآية الكرسي حفظ بهما في صباحه ومساءه.

(٣) قال الألباني في «السلسلة الضعيفة» (٣٢/٨): إسناده صحيح، ورواه البيهقي (٢٤٧١) والحاكم (٢/٤٣٧) وأبو عبيد (١٣٧) وابن الضريس (٢) وجاء مثله عن أنس ؓ.

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» ص ١٣٧.

قال ابن كثير: وقد يكون هذا المسجد هو المسجد المنسوب إليه داخل قلعة دمشق^(١). وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ آية الكرسي، وأول حم المؤمن عَصِمَ ذلك اليوم من كل سوء»^(٢).

موضوعات سورة (غافر)

وسورة (غافر) تخلو من الأحكام، وتقتصر على المواعظ والزواجر، والحديث عن الدار الآخرة، وهي سورة لا يلحق قارئها ملل ولا سامة.

والسورة تعالج قضية العقيدة: الإيمان والكفر، والحق والباطل، والهدى والضلال، والدعوة والتكذيب، كما تعالج قضية الطغيان والتجبر في الأرض بغير الحق.

وفي ثنایا ذلك تَعْرِضُ آيات السورة لمصارع الغابرين، فيقول تعالى:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ الآية [٥].

ويدعو الله عز وجل في هذه السورة إلى السياحة في الأرض للتأمل في أحوال المكذبين، ويأتي ذلك مرتين ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية [٢١].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ الآية [٨٢].

وتُفَرِّد السورة بالذكر، قصة موسى وفرعون، الذي زين الشيطان له سوء عمله، فطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحاً ليطلع إلى إله موسى!

وفي ثنایا القصة يَبْرُزُ دَوْرُ مؤمن آل فرعون في صورة مُحَامٍ قدير يدافع عن قضايا الإيمان، فينصح الفراعنة بأن يوسف عليه السلام قد جاءهم قبل موسى ليهاجم الوثنية السائدة فيهم، ويدعوهم إلى التوحيد الخالص، فلم يزالوا في شك من دعوته حتى مات، فلما أرسل الله موسى من بعده تكررت المأساة، وامتدَّ حبل الكفر فيهم، كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب، ومن هو مسرف كذاب.

(١) «تفسير ابن كثير» (١٢٦/٧).

(٢) «سنن الترمذي» برقم: (٢٨٧٩) والبيهقي في «الشعب» برقم: (٢٢٤٥) وقد ضعّفه الألباني في «ضعيف سنن الترمذي» برقم: (٥٤٠).

وتتحدث السورة عن يوم التلاقي والفصل والجزاء ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ الآية [١٦].

﴿الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ الآية [٧].

وبعد بيان أن فرعون وآله يُعْرَضُونَ على النار صباحًا ومساءً وهم في قبورهم، يقال عنهم يوم القيامة: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ الآية [٤٦].

بعد ذلك يأتي بيان مفصل للتلاوم الذي يحصل يوم القيامة بين مَنْ يُعَذَّبُونَ في النار من الضالين والمضلين، أو الأتباع والمتبعين، أو الرؤساء والمرؤوسين.

وتستعرض السورة جانبًا كبيرًا من دلائل التوحيد، ومنها: خلق السموات والأرض، والليل والنهار، وجعل الأرض قرارًا والسماء بناءً، وأطوار خلق الإنسان، والحياة والموت.

ثم يأمر الله سبحانه بالتوحيد في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ الآية [٦٥].

ويُنْهَى سبحانه عن الشرك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [٦٦].

ويُبين الله عز وجل أن عدم التوحيد هو السبب في خلود الكافر في النار، وأنه لا يوجد له سبيل إلى الخروج منها ﴿فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (١١) ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ تُؤْمِنُوا ﴿[١١، ١٢].

وفي هذا السياق تردُّ آيات ثلاث، مفتحة باسم الجلالة تُعرِّف وتذكِّر بحق الله تعالى على خلقه:

١- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [٦١].

٢- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [٦٤].

٣- ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ (٧٩) [٧٩].

وفي هذا الصدد أيضًا تعرض السورة خمس مرات لمن يكابر ويجادل بالباطل، ويتعامى عن وحدانية الله تعالى فيصفه الله تبارك وتعالى بالكفر والجدال بالباطل:

١- ﴿مَا يُجَدِّلُ فِيَّ عَايَتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [٤].

- ٢- ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَدَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [٥].
- ٣- ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [٣٥].
- ٤- ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [٥٦].

٥- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنَّهُمْ يُصَرِّفُونَ﴾ [٦٩].

وجاء الأمر بالصبر في السورة، مرتين للنبي ﷺ في الآيتين ٥٥ و ٧٧.

كما جاء فيها الأمر بالتوجه إلى الله تعالى بالدعاء مرتين في الآيتين ٦٠ و ٦٥.

وأسلوب سورة (غافر) أسلوب المحاجة، والاستدلال على صدق القرآن، وأنه منزل من عند الله تعالى، وإبطال ضلال المكذبين، وضرب مثلهم بالأمم المكذبة، وترهيبهم من التمادي في ضلالهم، وترغيبهم في التبصّر ليهتدوا.

ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الثانية والعشرين منها، وهو يشتمل على افتتاح السورة بصفات الله الحسنى وآياته العظمى.

ثم تعرض السورة إلى المجادلين في آيات الله مع وضوح الحق وسطوعه.

وتبيّن وظيفة الملائكة واستغفارهم للمؤمنين، أما الكفار فإن غضب الله تعالى وملائكته عليهم أكبر من مقتهم لأنفسهم بسبب وقوعهم في الشرك بالله تعالى، ومن ثمّ وجب عليهم إخلاص العبادة لله وحده قبل أن تُجزى كل نفس بما كسبت، وعلى غير المسلمين أن يعتبروا بما حدث لغيرهم من سوء المصير.

المقطع الثاني: وهو من الآية الثالثة والعشرين إلى الآية الخامسة والخمسين، وفيه الحديث عن رسالة موسى ﷺ، ومحاربة فرعون لها، ومناصرة مؤمن آل فرعون لدعوة التوحيد، ونصيحته لقومه ودفاعه عن موسى ﷺ وصّدّعه بكلمة الحق في تلطّف وحذر، ثم في صراحة ووضوح، ويحذّرهم الرجل المؤمن من عقاب الله تعالى، ويذكّرهم برسالة يوسف ﷺ وموقفهم منها، ويبيّن مصيرهم في الدار الآخرة.

ويتناول هذا المقطع قصة المتخاصمين في النار، والحوار بين الضعفاء والمستكبرين، ويُختم بما بدأ به من الإشارة إلى رسالة موسى ﷺ، وأمر الله تعالى لنبيه ﷺ أن يصبر على أذى قومه، كما صبر موسى على أذى بني إسرائيل وفرعون وقومه.

المقطع الثالث: وهو من الآية السادسة والخمسين إلى الآية السابعة والسبعين، وهو مقطع يقيم مجموعة من الأدلة الكونية على وحدانية الله تعالى من السموات والأرض، والليل والنهار، وأطوار خلق الإنسان، في مواجهة المجادلين في آيات الله بغير حجة ولا برهان.

وفي ثنايا ذلك تُعرض آيات السورة إلى الأمر بتوحيد الله تعالى وذم الشرك وأهله.

ويُختم هذا السياق بما خُتم به المقطع السابق من أمر النبي ﷺ بالصبر على أذى قومه، فإن الله تعالى ناصره ومعذب الكاذبين به إن عاجلاً أو آجلاً.

أما المقطع الرابع والأخير فهو من الآية الثامنة والسبعين إلى نهاية السورة، وهو ثماني آيات، فيها مواساة للنبي ﷺ بأن الله تعالى قد أرسل قبله رسلاً كثيرين، وأن الله تعالى قد أهلك المكذابين لهم من سائر الأمم، فهم لم يصدقوا الرسل ولم يشكروا نعم الله عليهم، ولكي تعتبر هذه الأمة بغيرها فإن عليها أن تدرس التاريخ، وأن تتعرف على مصارع الأمم المكذبة لرسول الله، فإن سُنَّةَ الله تعالى ماضية في خلقه جميعاً بهلاك المكذابين ونجاة المؤمنين ﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾.

سُورَةُ فَصَّلَتْ (٤١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (فصلت) هي السورة الحادية والأربعون في ترتيب المصحف، والحادية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة غافر وقبل سورة الزخرف. وعدد آياتها أربع وخمسون آية عند أهل الكوفة^(١).

وفيها سبع مئة وست وتسعون كلمة، وثلاثة آلاف وثلاث مئة وخمسون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق.

أسمائها: وسميت سورة (فصلت) لوقوع كلمة ﴿فُصِّلَتْ﴾ في أولها، وتسمى سورة **حم السجدة**، وبذلك ترجم لها البخاري والترمذي، ولها أسماء أخرى هي: **السجدة**؛ لأن فيها آية سجدة، و**سجدة المؤمن**، و**المصابيح** لقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [١٢]، و**الأقوات** لقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا﴾ [١٠]. فهذه ستة أسماء للسورة.

وموضوعاتها هي موضوعات السور المكية التي هي: الوحي والرسالة، والوحدانية، والبعث والجزاء، وهي تتجلى واضحة في آيات هذه السورة:

١- ففي جانب الوحي: تبتدئ السورة بالحديث عن القرآن، فتُنوّه بشأنه، وتشير إلى عجز مُعارضيه، وتذكّر بهديّه، وتبيّن أنه معصوم من تطرق الباطل إليه، وأنه مؤيد بما أنزل على الرسل من قبله.

وقد تلقاه المشركون بالإعراض وصَمَّ الآذان، فأبطل القرآن مطاعنهم، وذكّرهم بأنه نزل بلغتهم، فلا عذر لهم في عدم الانتفاع بهديّه، وأنذرهم بما حلّ بالأمم المكذبة لرسل الله، من عذاب الدنيا.

وقررت السورة أن الرسول بشر، خصّه الله بالنبوة، واختاره ليختم به الرسالات، فأنزل عليه الوحي بالحجج الواضحة، والبراهين الساطعة، والمعجزة الخالدة.

(١) واثنان وخمسون آية عند أهل البصرة والشام، وثلاث وخمسون آية عند أهل مكة والمدينة.

٢- وتحدثت السورة في مطلعها عن وحدانية الله تعالى: ﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [٦].

وفي وسطها: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ﴾ [٣٧].

وفي نهايتها: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا ءَاذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ [٤٧].

وبيّنت السورة جانبًا من آثار قدرة الله تعالى الدالة على وحدانيته سبحانه، كخلق السموات والأرض، والليل والنهار، والشمس والقمر، والنفس البشرية.

٣- وتناولت السورة جانب اليوم الآخر، ففي أولها تهديد ووعد للمشركين المنكرين لليوم الآخر، وفي أثنائها عرض لبعض مشاهد القيامة من شهادة السمع والبصر والجلود على الإنسان يوم القيامة، وفي نهاية السورة: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ فِي مَرِيعَةٍ مِّن لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ [٥٢].

هذا: ويمكن تقسيم سورة (فصلت) إلى مقطعين:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية السادسة والثلاثين، وهي آيات تتضمن الحديث عن القرآن الكريم، وأنه منزل من عند الله تعالى بلغة العرب، وقد عجز البشر عن معارضته، ولم يسع كبار الكفار وقت التنزيل إلا أن يشهدوا له بأنه يعلو ولا يُعلَى عليه، وأنه ليس بقول بشر، ومع هذا فقد أعرضوا عنه ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا نَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي ءَاذَانِنَا وَقَرْ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنَكَ حِجَابٌ﴾ [٥].

فتوعدهم القرآن بعذاب كعذاب عاد وثمود مع قوتهم وشدة بأسهم، ويوم القيامة تشهد عليهم جوارحهم وأعضاؤهم بما كانوا يعملون، وقد كان السبب في ضلالهم أن الله تعالى قيّض لهم قرناء السوء من الجن والإنس، فزيّنوا لهم سوء أعمالهم فأروها حسنة، وذلك أنهم استحبوا العمى على الهدى، وانحرفوا عن الفطرة، فضلّوا وأضلّوا، وصدّوا الناس عن سبيل الله، ومن ذلك قولهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [٢٦].

وفي ثانيا ذلك يوبخهم القرآن على كفرهم ببيان أن الذي يكفرون به هو خالق هذا الكون بما فيه ومن فيه، وأنه كان عليهم تجاه دلائل التوحيد وآثار القدرة الإلهية أن يفرّدوه سبحانه بالعبادة دون سواه ولكنهم لم يفعلوا.

وفي مقابل هذا الفريق تذكّر السورة حال المتقين الذين استقاموا على شرع الله، فأكرمهم الله بالأمن والأمان في دار الجنان، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

المقطع الآخر: من الآية السابعة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يبدأ بجملته من آيات الله في الكون: الليل والنهار، والشمس والقمر، والملائكة المقربين، وهي من دلائل تفرد الله تعالى بالخلق، ودلائل بعث الناس بعد موتهم، وموقف الملحدين من هذه الدلائل، وتعاميهم عن آيات الله الباهرة، وكتابه العظيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وتبيّن السورة أن حملَ العرب لهذه الرسالة هو حملٌ لرسالة الأنبياء قاطبة، وأن أهل الكتاب قد أضاعوا ما لديهم من تراث، ونشوا قواعده، كما تبيّن السورة أن مردّ علم الساعة إلى الله تعالى، وتوضح طبيعة الإنسان في حالتي العسر واليسر.

وتُختتم السورة بوعد من الله تعالى أن يكشف للناس عن أسرار هذا الكون في آخر الزمان ليستدلوا على صدق ما أخبر به القرآن، وتزداد نبوة محمد ﷺ صدقاً ورسوخاً.

سبب النزول:

١- روى ابن إسحاق عن يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حَدَّثْتُ أَنَّ عُتْبَةَ بن ربيعة -وكان سيِّداً- قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده، قال: يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرضُ عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء، ويكفُّ عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أن أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، فقم فكلّمه، فقام إليه عتبة، حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا بن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السُّطَّة (الوسط) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أثبتَ قومك بشيء عظيم، فرقتَ به جماعتهم، وسفّهتَ به أحلامهم، وعبتَ به آلهتهم ودينهم، وكفّرتَ به مَنْ مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منا بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: «قل يا أبا الوليد، أسمع».

قال: يا بن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئتَ به من هذا الأمر مالا، جمعنا لك من

أموالنا حتى تكون من أكثرنا أموالاً .

وإن كنت تريد به شرفاً سوّذناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به مُلكاً ملكناك .

وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُدَاوَى منه -أو كما قال له .

حتى إذا فرغ عُتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أفرغت يا أبا الوليد؟» قال: نعم، قال: «فاستمع مني» قال: أفعّل، قال: «بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿حَمْدٌ تَزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ① كُنْتُ فُصِّلْتُ ءَايَتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ② ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ ③» ثم مضى رسول الله ﷺ يقرأها عليه، فلما سمع عُتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد، ثم قال: «قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك» .

فرجع عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض -وهو يقسم بالله-: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنني قد سمعت قولاً، والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها لي، خلّوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعترلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ نبأ، فإن نصّبه العرب فقد كُفّيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فمُلكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه! قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم^(١) .

وفي هذا روايات أخرى تدل على اجتماع قريش وإرسالهم عتبة بن ربيعة، وتلاوة الرسول عليه أول السورة إلى ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ ④ .

٢- ففي رواية جابر عن عبد الله ﷺ أن قريشاً اجتمعت يوماً لاختيار أعلم رجل فيهم

(١) هذه رواية ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/٢٩٣) والبيهقي (٢/٢٠٤) وابن عساكر (٣٨/٢٤٦) .

حتى يرسلوه إلى النبي ﷺ ليُراجعه في دعوته، فوقع اختيارهم على عُتْبَةَ بن ربيعة، فأتاه وكَلَّمَهُ في شأن الرسالة، وقال له: أنت لست خيرًا من عبد الله ولا من عبد المطلب، ولقد فرقت جماعتنا، وشئت أمرنا، وعِبت ديننا، وفضحتنا في العرب، حتى قال الناس: إن في قريش ساحرًا وكاهنًا، وقد أوشكنا أن يقوم بعضنا على بعض بالسيوف، فإن كان بك حاجة إلى المال جمعنا لك أموالًا حتى تكون أغنى قريش، وإن كان بك باءة، فاختر أي نساء قريش شئت، فلنزوِّجك عشرا، فقال رسول الله: «فرغت؟» قال: نعم، فقرأ ﷺ أول سورة فصلت حتى وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فقال عتبة: حسبك، حسبك، ما عندك غير هذا، قال: لا، فرجع إلى قريش، وأخبرهم بأنه لم يترك شيئًا يريدون أن يكلموه فيه إلا كَلَّمَهُ، قالوا: فبماذا أجابك؟ قال: والله ما فهمت شيئًا مما قال، غير أنه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود... (١).

٣- وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ لما قرأ على عتبة أول سورة (فُصِّلَتْ) أتى أصحابه فقال: يا قوم، أطيعوني في هذا اليوم، واعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلامًا ما سمعتُ أذنائي قط كلامًا مثله، وما دريتُ ما أرد عليه (٢).

(١) يُنظر النص في: ابن أبي شيبة (٢٩٥/١٤) (١٨٤٠٩) وأبي يعلى في «الدلائل» (١٨١٨) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي (٢٥٣/٢) وأبي نعيم في «الدلائل» (١٨٢) والبيهقي (٢٠٢/٢) وابن عساكر (٢٤٢/٣٨) قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢/٦): فيه الأجلح الكندي، وثقه ابن معين وغيره، وضعفه النسائي وغيره، وبقيته رجاله ثقات.

(٢) البيهقي (٢٠٥/٢) وأبو نعيم (١٨٥) كلاهما في «دلائل النبوة».

سُورَةُ الشُّورَى (٤٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الشورى هي السورة الثانية والأربعون في ترتيب المصحف، والتاسعة والستون في ترتيب النزول، كما رُوي عن جابر بن زيد، نزلت بعد سورة فصلت وقبل سورة الزخرف، في حدود سنة ثمان بعد البعثة، وقت انحباس المطر عن أهل مكة، واستمر نزولها إلى سنة تسع من البعثة، أي: بعد أن آمن نُبَّاء الأنصار ليلة العقبة.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة ثلاث وخمسون آية، وعند أهل حمص واحد وخمسون آية، وعدّها غيرهم خمسين آية.

وعدد كلماتها ثمان مئة وستون كلمة، وعدد حروفها ثلاثة آلاف وخمسة مئة وثمانية وثمانون حرفاً.

وتسمى عند السلف سورة ﴿حَمْدٌ﴾ ﴿عَسَقَ﴾ ﴿٢﴾، كما ترجم لها البخاري والترمذي، وقد يُختصر الاسم فيقال سورة ﴿عَسَقَ﴾ ﴿٢﴾، وتسميتها بسورة الشورى هو الأشهر.

وهي سورة مكية عند الجمهور، واستثنى بعضهم أربع آيات من قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ الآية [٢٣] وما بعدها، وقيل: إن آية ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ﴾ الآية [٢٧] نزلت في أهل الصُّفَّة، فتكون مدنية.

وقيل أيضاً: إن آية ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ ﴿٢٩﴾ مدنية، والأصح أنها مكية كلها.

وموضوعات سورة الشورى هي موضوعات السور المكية، والمحور الأساس الذي تدور عليه هو الوحي والرسالة، فتبدأ السورة وتنتهي بالحديث عن الوحي، ويتخللها تقرير مصدر الوحي والرسالة، وهي الحقيقة البارزة في محيط السورة:

١- ففي أول السورة بيان لمصدر الوحي، وأنه منزل من عند الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ﴿٢﴾.

ثم يأتي تقرير لمركز القيادة الجديدة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِنُنذِرَ

أَمْ الْفَرْى وَمَنْ حَوْلَهَا ﴿الآية [٧].

ثم تبين الآيات وحدة الرسالة بين جميع الرسل: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [١٣].

وأشارت الآيات إلى أن الناس خالفوا هذه الوصية، وأن التفرق في الدين قد وقع ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾ الآية [١٤].

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوْرُوا أَلْكَتَبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٌ﴾ الآية [١٤].

ويأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى الله، تاركًا هذا الخلاف وراءه، وما على الرسول إلا الدعوة والبلاغ:

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ الآية [٤٨].

وتختتم السورة ببيان طرق نزول الوحي على رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِشَرٍّ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ الآية [٥١].

ويقرر الله سبحانه أمية الرسول ﷺ في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا أَلْكَتَبُ وَلَا الْإِيمَنُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ الآية [٥٢].

أما كيفية نزول الوحي على رسول الله ﷺ فقد بينه حديث عائشة ؓ: أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتي مثل صلصلة الجرس - وهو أشده عليّ - فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول». قالت عائشة ؓ: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقًا^(١).

وقد بينت آية الوحي الثانية في السورة أن الإسلام دين عام خالد، وأنه لقارات الدنيا جميعًا إلى آخر الدهر، ونقطة البداية كانت ﴿أَمْ الْفَرْى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ فميدان البلاغ هو العالم كله، شرقه وغربه، ولم يمضِ نصف قرن على البعثة حتى بلغ الإسلام المشارق

(١) «صحيح البخاري» برقم (٢) وهذا لفظه، وانظر (٣٢١٥) و«صحيح مسلم»: (١٨١٦/٤) برقم (٢٣٣٣) و(الموطأ) (٢٠٢/١) والترمذي (٣٦٣٤) و«المسند» (٢٤٣٠٩) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٣٨) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٠٨).

والمغرب، وأسقط أعلام الأمم التي استعمرت آسيا وأفريقيا.

وكان نزول الوحي على محمد ﷺ بعدما انقطعت صلة اليهود بالدعوة إلى الله تعالى، وجعلوا الدين ميراثًا قوميًا، أما النصارى فقد غلب عليهم تعدد الآلهة وقصة الفداء، والحديث الطويل عن ابن الله كما يزعمون!!

جاء الإسلام فأعلن صلته الوثقى بموسى وعيسى ﷺ، وأكد أنه يقرر الوحي الذي نزل على جميع الرسل، ومضى النبي ﷺ في طريق الدعوة، فاستجابت له جماهير أهل الكتاب في آسيا الوسطى وشمال أفريقيا، كما ثاب الوثنيون إلى رشدهم في إيران وآذربيجان والهند والصين، وانزاحت السدود أمام الفيضان فانطلق.

والإسلام ينتشر حاليًا بصورة سريعة في أوروبا وأمريكا، مخترقًا الحواجز والقيود، يدحض حجج الخصوم وينفذ فيهم على قدم وساق ﴿وَيَمَحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُخَوِّدُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ الآية [٢٤].
﴿مُجَنَّمٌ دَاخِضٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ الآية [١٦].

وقد شقَّ الإسلام طريقه حتى بلغ ما بلغ الليل والنهار، والأذان يرتفع في كل قطر يشهد لله تعالى بالوحدانية، ولمحمد ﷺ بصدق الرسالة، كأنه ساعة لا يتوقف لها دقٌّ، ولقد كذب على الله بعضُ الناس وزوَّروا وخيًّا مُضْحِكًا، فسرعان ما انمحي أثرهم، وانقضى زيفهم، وبقي الخلود للحق وحده^(١).

٢- وقد ساقَت السورة عددًا من آيات الله الكونية الدالة على وحدانيته سبحانه:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ الآية [٢٩].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ﴾ الآية [٢٦].

﴿إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ﴾ الآية [٣٣].

﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ﴾ الآية [٢٨].

٣- وفي مضممار الفضيلة والعدالة ذُكرت السورة بعدة خصال ينجو بها العباد من غضب

(١) يُنْظَرُ: «التفسير الموضوعي لسور القرآن» ص ٣٧٤ وما بعدها.

ربهم، تشمل: العمل للآخرة، وتفويض الأمر إلى الله تعالى، واجتناب كبائر الإثم والفواحش، والعفو عن أساء، والاستجابة لله رب العالمين، وإقام الصلاة، وتحكيم الشورى بين الناس، والإنفاق من رزق الله، وذلك في الآيات من السادسة والثلاثين إلى الأربعين.

وحين يزداد اليهود تعلقًا بموارثهم، ويقاثلوننا تديُّنًا، فلا بدَّ لنا من الاستجابة لأمر الله تعالى حتى ينصرنا الله عليهم ﴿أَسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْفَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِّنَ اللَّهِ﴾ الآية [٤٧].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى قسمين:

القسم الأول: من أول السورة إلى الآية السادسة والعشرين، وهو يتناول جانب الوحي والرسالة، وما يتصل بها، وذلك بعد افتتاحها بخمسة حروف من حروف الهجاء، فتقرر وحدانية الموحى به إلى الرسول ﷺ وإلى الرسل قبله، وفي هذا إشارة إلى أن الإسلام دين عام خالده إلى قارات الدنيا، وأن دين الله واحد يدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك، ولو شاء الله لفسر الناس على التوحيد وجعلهم أمة واحدة، ولكنه سبحانه ترك لهم حرية الاختيار، وقال لهم: أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، وجعل الناس فريقين: فريقًا في الجنة، وفريقًا في السعير.

ولأن هذا الموضوع هو محور السورة، فقد جاء ذكره في أولها وفي أثنائها وفي آخرها، حيث ابتدأت السورة ببيان أن الوحي قد نزل على محمد ﷺ كما نزل على الرسل قبله ﴿كَذَٰلِكَ يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ الآية [٣].

وبعد ثلاث آيات من هذه الآية جاء ذكر الوحي خاصًا بمحمد ﷺ مع بيان أنه نزل بلسان العرب إلى عموم الخلق، وأن مكة المكرمة هي مركز انطلاق الدعوة العالمية ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الآية [٧].

ثم جاء ذكر أولي العزم من الرسل، لبيان أن شرع الله الذي أوحاه إلى جميع الرسل واحد، وذلك في قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ الآية [١٣].

وفي نهاية السورة جاء الحديث عن أنواع الوحي إلى جميع الرسل ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكَلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ الآية [٥١].

وقررت الآية بعدها أمية محمد ﷺ، وأنه قبل نزول الوحي عليه لم يكن يدري ما الكتاب ولا الإيمان.

وقد تناول هذا القسم إلى جوار ذلك ما يتصل بالوحي من عموم الرسالة الخاتمة، وتفرق الناس فيها، ووجوب التحاكم إلى ما أنزل الله تعالى عند الاختلاف، وأمرُ النبي ﷺ أن يمضي في طريق الدعوة إلى الله، ولا يتبع أهواء الضالين، وقد وعد الله من اتبع طريق الوحي سعادة الدنيا والآخرة، ويُحرم منها من انغمس في الشهوات في دنياه وترك الآخرة وراء ظهره، أو أشرك بالله تعالى وظلم نفسه.

القسم الثاني: من الآية السابعة والعشرين إلى نهاية السورة، وهو يتعلق بدلائل التوحيد في الكون، وفيه حشد لعدد من آيات الله تعالى في الكون من الرزق، ونزول الغيث، وخلق السموات والأرض وما فوقها من دواب، والسفن في البحار، والرياح المسخرة بإذن الله تعالى.

يصف الله تبارك وتعالى المؤمنين بأوصاف، منها: التوكل على الله، واجتناب الكبائر والفواحش، والعفو والصفح، والاستجابة لأمر الله تعالى، وإقام الصلاة، والأخذ بمبدأ الشورى، والإنفاق في سبيل الله، وعدم قبول الظلم، وعدم مقابلة الإساءة بمثلها.

وقرر سبحانه أنه لا حرج في الانتصار بعد الظلم، وأن الصبر والعفو من عزائم الأمور.

وتخلل ذلك وعيد شديد وتخويف من النار، ووجوب الاستجابة لأمر الله تعالى قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، وأشارت السورة إلى أن الله تعالى هو المعطي الوهاب، يهب لمن يشاء الذكور والإناث أو يقتصر على أحدهما.

وختمت السورة ببيان أن مهمة النبي ﷺ هي هداية الخلق إلى صراط الله، وإليه المرجع والمصير فيجازي كلًّا بما يستحق.

سُورَةُ الزُّحْرِفِ (٤٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الزخرف هي السورة الثالثة والأربعون في ترتيب المصحف، والثانية والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الدخان. وعدد آياتها تسع وثمانون آية في جميع المصاحف، إلا المصحف الشامي فهي فيه ثمان وثمانون آية.

وعدد كلماتها ثلاث وثلاثون وسبع مئة كلمة.

وعدد حروفها ثلاثة آلاف وأربع مئة حرف.

وسُمِّيت سورة (الزخرف) لقوله تعالى فيها: ﴿وَزُحْرَفًا﴾ الآية [٣٥] ولم ترد هذه الكلمة في غيرها من السور، وسَمَّاهَا البخاري: سورة حم الزخرف.

وهي سورة مكية، وقيل: إن آية ﴿وَسَلِّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا﴾ الآية [٤٥] نزلت بالمسجد الأقصى.

وحادثة الإسراء والمعراج كانت قبل الهجرة، فهي آية مكية أيضًا.

وموضوع سورة الزخرف كالسور المكية تناولت:

(أ) جانب التوحيد: فذكرت تناقض المشركين في اعترافهم بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، مدبر شؤون الخلق، يحيي ويميت ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾.

ومع ذلك فقد عبدوا غيره، وزعموا أن الملائكة بنات الله، مع اعتقادهم بأن البنات أقل شأنًا من الأولاد! وجمعوا بين الإقرار بوجود الله تعالى واتخاذهم آلهة يعبدونها شركاء لله تعالى.

وقد أبطلت السورة حججهم ومعاذيرهم، وصححت انحراف العقيدة لديهم، وردَّتْهم إلى الفطرة السليمة، وبرأت عيسى عليه السلام من قولهم، كما برأت الملائكة من افتراءاتهم ﴿قُلْ

إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴿٨١﴾ .

وأقامت السورة عددًا من دلائل القدرة والوحدانية مُنبِّئَةً في هذا الكون الفسيح: في السماء والأرض، والجبال والوهاد، والبحار والأنهار، والماء الهائل من السماء، والسفن التي تسير فوق سطح الماء، والأنعام التي سخرها الله تعالى للبشر ليأكلوا لحومها، ويركبوا ظهورها.

(ب) وتناولت السورة مصدر الوحي، وصدق القرآن، وفنَّدت الشبه التي أثارها المشركون حول رسالة محمد ﷺ، فقد اقترحوا أن ينزل القرآن على زعيم مكة أو زعيم الطائف، لا على يتيم قريش، فبيَّن سبحانه أن الجاه والثراء ليسا ميزانًا لاصطفاء العبد واختياره، فلو شاء الله لجعل ﴿لَمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقْفًا مِّنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (٢٣) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُورًا عَلَيْهَا يُتَكَوَّنُ ﴿٢٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢٥﴾ .

وأمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يستمسك بما أوحى إليه به، فهو على صراط مستقيم، وبيَّن له أن هذا القرآن شرف رفيع له ولقومه، والرسالة فضل الله يؤتيه من يشاء.

﴿أَمَرَ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ الآية [٣٢].

(ج) وفي الحديث عن البعث والجزاء بيَّنت السورة مصير المؤمنين، حيث يقال لهم عند قيام الساعة: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ﴾ (٧٠) .

كما بيَّنت مصير المجرمين الأسود ﴿إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ (٧٤) لَا يُفَرِّجُهُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَنَنْتُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٦﴾ .

وأهل الجنة يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب، ولهم فيها ما تشتهيهِ الأنفس، وتلذ الأعين، وهم فيها خالدون.

أما أهل النار فإنهم يحاولون الخروج من النار فلا يستطيعون ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا﴾ [السجدة: ٢٠].

ثم يستغيثون بخزنة النار فلا يغاثونهم ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخِزْنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ﴾ (٩٩) [غافر]

فيلجؤون في النهاية إلى الخازن الأكبر ﴿وَنَادُوا بِمَلِكٍ لِّيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ فيجيبهم بعد وقت طويل: ﴿إِنَّكُمْ مَكِيدُونَ﴾ ﴿٧٨﴾ لَقَدْ جَحَنَكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَذِبُونَ ﴿٧٩﴾ .

(د) وتذكر السورة جانباً من أحوال الأمم السابقة مع رسلهم ليُذكر كل رسول أمته بما حدث لهم من عواقب؛ حتى لا يغترّوا بإمهال الله تعالى لهم، ويخص بالذكر طرفاً من رسالة إبراهيم عليه السلام، وكيف أنه جعل كلمة التوحيد أثراً باقياً في عقبه، والمشركون يقولون إنهم على ملّته، وهم يخالفونها، فيشركون مع الله غيره.

(هـ) كما تناولت السورة طرفاً من قصة موسى مع فرعون، وكيف أن فرعون كذب موسى وطارده هو وقومه حتى بلغوا البحر الأحمر، وعبر بنو إسرائيل البحر يقودهم موسى عليه السلام، وأراد فرعون اللحاق بهم، فغرق في اليم، هو ومن معه جميعاً، ولما أحس فرعون الغرق ﴿قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠].

وعن ابن عباس عليه السلام: أنه لما أغرق الله فرعون، ونطق بكلمة التوحيد، جعل جبريل يأخذ من طين البحر المستقر في قعره ويدشه في فمه، ثم لفظت الأمواج جُثَّة الملك السابق، ورأى الناس على شاطئ البحر رُفَاتًا مكسُوةً بالوحل، وفما مليئاً بالطين!

أين أساور الذهب التي كانت في معصميه؟ لقد اختفت مع الألوهية المزوّرة! لقد كان الرجل المغرور مثلاً للتكبر والجبروت ﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَبْقَوْمُ آلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ﴿٥١﴾ .

وهكذا يختفي المبطلون عن دنيا الناس لتستقبلهم عرصات القيامة بنارها المؤججة.

(و) وتذكر السورة طرفاً من سيرة عيسى عليه السلام، يدور حول الجدل في شأنه، حيث يقول بعضهم: إنه إله ثانٍ، فهو الإله الابن، وإن جبريل -روح القدس- إله ثالث، والإله الأول هو الأب.

وفتنة ولادة عيسى من غير أب، رشحت عيسى عليه السلام ليكون ابناً لله كما يزعمون، فشاء الله سبحانه أن يعيده إلى الأرض مرة أخرى ليُكذّب بنفسه أنه إله أو ابن للإله، ويؤكد أنه عبد مرسل من عند الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَاُمٌ لِلْسَّاعَةِ فَلَا تَمَازُتُ بِهِا وَاتَّبِعُونْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ ﴿١١﴾ .

وعلى الدعاة إلى الله تعالى أن يثابروا في إرشادهم دون يأس ولا ملل.

وقد خُتِمت السورة بهذا المعنى بعد بيان حال السعداء وحال الأشقياء.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: الآيات السبع الأولى من السورة، بالإضافة إلى الآيات من ٢٣-٤٥ وهذه الآيات تتحدث عن الوحي والرسالة، ويبدأ ذلك بالحديث عن القرآن، ويُثْنَى بالحديث عن خاتم النبيين، وفي ثانياً ذلك يأتي ذكر خليل الرحمن أبي الأنبياء، ليقرر عقيدة التوحيد ونفي الشرك وأهله.

المقطع الثاني: من الآية ٨-٢٢ وفيه براهين التوحيد والرد على أشرك مع الله غيره.

المقطع الثالث: يتناول طرفاً من رسالة موسى عليه السلام إلى فرعون وقومه، وكيف أن الله تعالى أيدته بالمعجزات الدالة على صدقه في دعواه، ولكن فرعون وَصَفَهُ بالساحر، وادّعى أن له مُلْك مصر، وطلبَ معجزات أخرى، كنزول الملائكة عليه، أو يُلقى عليه أسورة من ذهب، وقد استغرق هذا من الآية ٤٦-٥٦ في السورة.

المقطع الرابع: من الآية ٥٧-٦٥ وفيه تقرير أن عيسى عليه السلام عبد ورسول، وأنه سينزل قرب قيام الساعة، وأن الله تعالى سيحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه من شأن عيسى وغيره.

أما المقطع الخامس: فهو من الآية ٦٦ إلى نهاية السورة، وفيه حديث عن مصير المتقين والمجرمين، وما يوعدون به من الجنة والنار، وهو مقطع فيه ترغيب وترهيب، ووعد ووعيد، وتنديد بالمشركين والمكذبين في كل زمان ومكان، وَلَفَّتْ أَنْظَارَهُمْ إِلَى صفحة الكون المرئية، والمقروءة، فإن هذا من شأنه أن يأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة.

سُورَةُ الدُّخَانِ (٤٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الدُّخَانِ) هي السورة الرابعة والأربعون في ترتيب المصحف، والثالثة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الزخرف) وقبل سورة الجاثية.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة تسع وخمسون آية^(١).

وعدد كلماتها ثلاث مئة وست وأربعون كلمة.

وعدد حروفها ألف وأربع مئة وواحد وثلاثون حرفاً.

وسُمِّيت سورة (الدُّخَانِ) لوقوع لفظ الدُّخَانِ فيها، على أنه آية من آيات الله تعالى، وتسمى سورة (حم الدُّخَانِ).

وهي سورة مكية عند الجمهور، واستثنى بعضهم ﴿إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾ [١٥]. بناء على أن مشركي مكة أرسلوا إلى النبي ﷺ وفدًا وهو في المدينة يطلبون الدعاء لهم، لرفع ما هم فيه من قحط وجذب وجوع.

وافتحاح السورة يُشبه السورة التي قبلها، من القسم بالقرآن، والتنويه بشأنه وشرفه، وبيّنت هذه السورة أن وقت نزوله هو ليلة القدر، التي يُفْرَق فيها كل أمر حكيم ويُبرَم، فهي الليلة التي تُفْصَل وتُدَبَّر فيها أمور الخلق من كل عام، فتظهر هذه الأمور للملائكة.

وقد بُوركت هذه الليلة لنزول الوحي فيها، وبركة هذا القرآن لأنه يصنع من البشر ملائكة، ولأنه صنع من العرب أمة ذات حضارة لا تغيب عنها الشمس.

ثم أضربت آيات هذه السورة عن هذا الحديث المتعلق بالقرآن ونزوله، لتتناول شأن القوم الذين قاوموا الدعوة، وكانوا في شك وارتياب منها، فعاقبهم الله تعالى في الدنيا بعذاب الجوع، بسبب دعاء النبي ﷺ عليهم، جزاء إعراضهم عن تدبر القرآن، ليعلموا أن إجابة دعوة

(١) وست وخمسون آية عند أهل المدينة ومكة والشام، وسبع وخمسون آية عند أهل البصرة.

النبي ﷺ دليل على أنه رسول من عند الله تبارك وتعالى، كما انتقم الله منهم يوم بدر.

ثم تحدثت الآيات في هذه السورة عن حملة الوحي قبل هذه الأمة، وما حلَّ بهم من العذاب نتيجة الطغيان والجبروت، فقد ناشد موسى فرعون أن يطلق سراح قومه، وأن يتركهم يرحلون معه من مصر، ولكن فرعون أبى إلا حبسهم على الأذى، فكانت العقابة أن أهلكه الله ومن معه جميعاً، وتركوا بعد هلاكهم: القصور والدور، والحدائق والبساتين، والأنهار والعيون. . فقد أورثها الله بني إسرائيل في أرض أخرى، بعد هلاك فرعون وقومه، وسرعان ما حاد بنو إسرائيل عن تراث أنبيائهم، فعاثوا في الأرض فساداً، وعاقبة الظلمة واحدة في كل عصر ومصر.

وقد اختار الله تعالى العرب بعدهم، وأورثهم القرآن العظيم، فساروا به أشواطاً، ثم تخلَّوا عنه إلا قليلاً، فأصبحوا شراذم ينال منهم كلُّ جبار؛ لأن الله تعالى قد وعد المؤمنين الصالحين الذين أخلصوا للوحي المنزل عليهم أن يرثوا خير الدنيا والآخرة.

ومن لا يعمل للدار الآخرة، ويسخر من الحياة بعد الموت، ويُعَدِّ ذلك خُرافة -فهو في جاهلية عمياء، مهما أوتي من الحضارة المادية والعلم الدنيوي ﴿إِنَّ هَؤُلَاءَ لَيَقُولُونَ ۖ إِنَّا بِإِلَهِهِمْ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ ٢٥ .

والله تعالى سيجمع الآباء والأبناء ليحاسبهم على ما قدمت أيديهم، فليست هذه الحياة الدنيا عبثاً ولا لهواً ولا لعباً ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ٤١ .

ومنكرو البعث والنشور ليسوا بأكرم على الله تعالى ممن سبقهم من الأمم الطاغية، وسُنَّة الله لا تتخلف.

إنها سورة ذات آيات قصيرة، تُبْرِز ألواناً متعددة من تهديد المكذبين بالرسالة الأخيرة، فتذكِّرهم بالقحط تارة، وبما حلَّ بالأمم المكذبة تارة، وبما ينتظرهم من العذاب المهين إن استمروا على كفرهم تارة أخرى.

وآيات هذه السورة تطوف بالمسلم في عوالم شتى: بين السماء والأرض، والدنيا والآخرة، والجحيم والجنة، والماضي والحاضر، والغيب والشهادة، والموت والحياة، وكل هذا لبيان الحق والحكمة التي خلق الله هذا الكون من أجلها.

وقد خُتِمت السورة بما ينتظر الأشرار والأخيار من النعيم أو العذاب .

أما مصير الكفار فقد صورته هذه الآيات : ﴿إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ الْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْيِ الْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ .

ومصير المتقين صَوَّرَتْهُ هذه الآيات : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٥٣﴾ .

وعلى هذا فيمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع :

المقطع الأول : من أولها إلى الآية السادسة عشرة، وهذا المقطع فيه الثناء على القرآن الكريم، وأن الله تعالى قد أنزله في ليلة مباركة، يدبر فيها شؤون الخلق إلى مثلها من العام التالي، وقد نزل هذا القرآن رحمة من عند الله رب العالمين، أما من كذب بالقرآن فشكَّ وارتاب فيه، فقد أُنذِرَتْهُ الآيات بعذاب أليم يعمُّ الناس، ويستغيثون فيه إلى ربهم؛ ليكشف عنهم ما هم فيه من العذاب جزاء تكذيبهم لخاتم المرسلين، ووضفهم له بما لا يليق بجناحه، وإعراضهم عنه ﷺ .

المقطع الثاني : من الآية السابعة عشرة إلى الآية السابعة والثلاثين، وهي آيات تتحدث عن قوم فرعون وما حلَّ بهم من العذاب، لتبيِّن لنا أن عاقبة الظلم واحدة في كل عصر ومصر، وأن ما حدث لقوم فرعون من ضياع وتشردُّ يحدث لكل من طغى وتجبر وأنكر البعث والنشور، فكذب بالله ورسله واليوم الآخر .

أما المقطع الثالث : فهو من الآية الثامنة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهو مقطع يبيِّن الحق الذي خلقت من أجله السموات والأرض، وأن الله تعالى سيجمع الأولين والآخرين في يوم يشتد فيه الحساب ليحاسب كلًّا على ما قدمت يداه، فيأكل الأشرار من شجرة الزقوم، ويُصب فوق رؤوسهم الحميم، يُضهر به ما في بطونهم والجلود، ويأكل الأخيار مما ينتظرهم من النعيم المقيم، وكل ما يشتهون من فاكهة وطعام وشراب، ويلبسون السندس والإستبرق، ويتزوجون الحور العين، ونعيمهم دائم لا ينقطع بفضل الله تعالى ورحمته .

وقد بُدِئت السورة بالحديث عن القرآن، وخُتِمت بالحديث عنه أيضًا .

إِنْ هَذَا الْقُرْآنُ يَوْقُظُ الْغَافِلِينَ، وَيَصْنَعُ أُمَّةً ذَاتَ رِسَالَةٍ عَظِيمَةٍ ﴿فَإِنَّمَا يَسْتَرْزِقُهُ بِلسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٥٨) فَأَرْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾ . وهذا مؤذن بانتهاء السورة.

من الآثار الواردة في سورة الدُّخَانِ:

عن الأسود بن يزيد، وعلقمة: أن رجلاً أتى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فقال: قرأتُ المُفَصَّلَ في ركعة، فقال عبد الله: بل هذَذْتُ كهذا الشعر -أي: أسرعت في القراءة- وكثرتُ الدَّقْلَ -الدَّقْلُ: هو التمر الرديء اليابس، أي: إن قراءتك غير جيدة- ولكن رسول الله ﷺ كان يقرأ النظائر في ركعة، فذكر عشر ركعات بعشرين سورة، عن تأليف عبد الله -أي: وفق ترتيب السور في مصحف ابن مسعود- آخرهن: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ (٦١) والدُّخَانُ^(١).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لقد علمتُ النظائر التي كان يصلي بهن رسول الله ﷺ: الذاريات والطور، واقتربت والرحمن، والواقعة و ن، والحاقة والمزمل، ولا أقسم بيوم القيامة وهل أتى على الإنسان، والمرسلات، وعم يتساءلون، والنازعات وعبس، وويل للمطففين وإذا الشمس كورت، وحم الدُّخَانُ^(٢).

وقد وردت جملة من الأحاديث في فضل سورة الدُّخَانِ تركناها لضعف سندها.

(١) الطبراني في «الكبير» (٩٨٥٥) وهو مطوّل في «المسند» (٣٩٦٨) وهو حديث صحيح، وأبي داود (١٣٩٦) و«صحيح سنن أبي داود» (١٢٤). وانظر نحوه مطوّلًا دون ذكر الآية في المسند (٣٦٠٧).

(٢) الطبراني (٩٨٦٢، ٩٨٦١) وهو في البخاري (٧٧٥، ٤٩٩٦) ومسلم (٨٢٢) دون سرد السور.

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ (٤٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الجاثية) هي السورة الخامسة والأربعون في ترتيب المصحف، والرابعة والستون في ترتيب النزول، نزلت في مكانها هذا بعد سورة (الدخان) وقبل سورة الأحقاف.

وعدد آياتها عند أهل الكوفة سبع وثلاثون آية، وست وثلاثون آية عند غيرهم؛ لأنهم لم يعدُّوا ﴿حَمِّ آيَةٍ﴾، وعدّها الكوفي وحده.

وعدد كلماتها أربع مئة وثمان وثمانون كلمة.

وعدد حروفها ألفان ومئة وواحد وتسعون حرفاً.

وتسمّى سورة الجاثية لورود هذا اللفظ فيها دون غيرها، كما تسمى: سورة (الشرية) لورود لفظ شريعة فيها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ الآية [١٨].

ويقال لها: سورة حم الجاثية، و سورة الدهر لورود لفظ الدهر فيها في قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿وَمَا يَهْدِيكُمْ إِلَّا لَلْذَهْرِ﴾ الآية [٢٤].

فهذه أربعة أسماء، أشهرها سورة (الجاثية).

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ﴾ الآية [١٤]. وقالوا: إنها مدنية.

والسورة تتناول موضوعات السور المكية الثلاثة، وهي: جانب التوحيد، ونُبُوَّة محمد ﷺ، والإيمان بالبعث والجزاء.

والمحور المهم الذي تدور حوله السورة هو جانب التوحيد، فهي تقيم الأدلة والبراهين على وحدانية الله تعالى، وتحث على دراسة الكون واكتشاف آياته، وتلفت النظر إلى ملكوت السموات والأرض وما حويا من عجائب، وتأخذ بيد المتأمل فيهما إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ففي السموات آيات، وفي الأرض آيات، وفي خلق البشر والدواب وسائر المخلوقات

آيات، وفي تعاقب الليل والنهار آيات، وفي تسخير الرياح والأمطار آيات، وكلها شواهد ناطقة بقدرة الله تعالى ووحدانيته، تدل على أن الله وحده هو مصدر هذه النعم الظاهرة والباطنة، وأنه لا خالق ولا رازق إلا هو.

وفي هذا دعم البناء العقلي للإيمان، وإقامته على الفكر السوي، والبصر النافذ.

وهذه الدراسة النظرية لآيات الله في الكون تقود إلى الإيمان بالله تعالى، إلى جانب توظيف كل ما في الكون لمصلحة الإنسان وإسعاده: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لَتَجْزِيَ أَلْفُكُ فِيهِ يَمْرُوهَ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (٢٢) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢٣).

(وإلى جانب العلوم العقلية والكونية، توجد علوم شرعية نقلية، تقود البشر إلى سبيل الرشاد، ومع ذلك فإن من قاموا بغزو الفضاء بقوا على كفرهم، وكثير ممن يرون الأجنة تتخلق في البطون، بدل أن يعترفوا بالخالق سبحانه، قالوا: إن الفاعل مجهول! وهو إلحاد يعم الحضارة الحديثة في غرب أوروبا وشرقها، ويمتد دُخانها إلى بقية القارات، ومن هنا فهو علم ظاهري لا يَهْدُب نفسًا، ولا يَضُقُّ فكراً، كالدواب التي تحمل صناديق الكتب ولا علم لها بما حوت).^(١)، وتبين السورة مواقف الناس من استقبال الدعوة:

١- فمنهم شديد العناد، المكابر في الحق، المصِرُّ على الضلالة ﴿وَبَلِّغْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٧) ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تَنَزَّلُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرُهُ يَعَذَابُ أَلِيمٍ﴾ (٨).

٢- ومنهم من لا يشعر بالفرق بين مَنْ يعمل السيئات ومن يعمل الصالحات، فينتج عن هذا التصور السيئ أنه لا يقيم وزناً للإيمان الخالص، وكأن المكتسب للصالحات والمكتسب للسيئات في ميزان الله واحد ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ (٢١).

٣- ومنهم من ليس له مرجعية في سلوكه وعبادته إلا اتباع هواه ونفسه الأمارة بالسوء، ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ الآية [٢٣].

٤- ومنهم من يُنكر الآخرة ولا يؤمن بالبعث والنشور ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ

(١) يُنظَر: «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» للشيخ محمد الغزالي، ص ٣٨٨.

وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ﴿٢٤﴾ الآية [٢٤].

﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنَّ نَظْرُنَا إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُصْتَفِينَ﴾ ﴿٢٢﴾ الآية.

ويجوز أن يكون هؤلاء جميعاً فرقة واحدة، ويجوز أن يكونوا فرقا متعددة^(١).

وجاء في ختام السورة بيان عاقبة الأخيار والأشرار ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ﴾ الآية [٣٠].

﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسِفُكُمْ كَمَا نَسِفْنَا لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوُكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّصِيرٍ﴾ ﴿٣٤﴾ الآية.

هذا : ويمكن تقسيم السورة إلى مقطعين :

المقطع الأول: يتحدث عن القرآن ومصدره، واستقبال المعارضين له بالرفض والاستكبار ﴿يَسْمَعُ ءَايَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ الآية [٨].

ومن ثم عن طريقة القرآن في علاجهم بالوعيد الشديد، ولفت النظر إلى آيات الله الكونية، المنبثة في هذا العالم الفسيح.

ويتضمن هذا المقطع رحمة الله بعباده في عدم التعجيل بعقوبة الضالين عن الحق، ووجوب التريث في عرض الدعوة عليهم، وإعطائهم الفرصة، وتخفيف الوطأة عليهم ﴿قُلْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ الآية.

كما يتضمن هذا المقطع الحديث عن علماء بني إسرائيل، ومقابلتهم لفضل الله عليهم بالجحود والعصيان والبغي والاختلاف ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَزَكَّيْنَهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿١١﴾ وءَاتَيْنَاهُمْ يَبْنَوت مِّنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِّن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴿الآيتان.

وقد استغرق هذا المقطع من أول السورة إلى الآية الثالثة والعشرين منها.

أما المقطع الآخر فهو يتناول الحديث عن اليوم الآخر، فيواجه منكري البعث والمتشككين فيه بالأدلة الدامغة والبراهين القاطعة، على أن الله تعالى يحيي الخلائق بعد

(١) يُنْظَرُ: «في ظلال القرآن» (٥/٣٢١٩).

موتهم، وتنطق صحف أعمالهم بما قدموه لأنفسهم، فيحاسبهم الله تعالى، ويدخل المؤمنون في رحمته، وينسى الكافرين في نار جهنم كما نسوا لقاء يومهم هذا، ثم لا يخرجون من النار ولا يُقبل منهم عذر.

وفي نهاية السورة ينطلق صوت التوحيد، ليحمد الله تعالى كلُّ من في أرضه وسمائه وملكوته، على الخلق والرزق والتدبير، وينحني كل طاغية وجبار أمام صاحب الكبرياء المطلق، صاحب العزة والقدرة والحكمة، فهو العزيز الحكيم في بداية السورة ونهايتها. ويطابق آخر السورة أولها في تمجيد الله تعالى، وذكر اسمين من أسمائه الحسنی، هما العزيز الحكيم، وفي ذلك إيدان بانقضاء السورة.

سُورَةُ الْأَحْقَافِ (٤٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الأحقاف هي السورة السادسة والأربعون في ترتيب المصحف، والخامسة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الجاثية وقبل سورة الذاريات، وهي آخر سور آل حميم السبع، وقد نزلت السور السبع وفق ترتيبها الحالي في المصحف.

وعدد آياتها خمس وثلاثون آية في المصحف الكوفي، وأربع وثلاثون آية في بقية المصاحف.

وعدد كلماتها ست مئة وأربع وأربعون كلمة.

وعدد حروفها ألفان وخمس مئة وخمسة وتسعون حرفاً.

وسُمِّيت بسورة الأحقاف لورود كلمة الأحقاف فيها دون غيرها من السور.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: أقرأني رسول الله ﷺ سورة من آل حم وهي الأحقاف^(١).

وهي سورة مكية، قال ابن عباس والزبير رضي الله عنه: نزلت سورة حم الأحقاف بمكة^(٢).

وذكر ابن عطية^(٣) استثناء آيتين، هما قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ آيَةٌ [١٠] فَإِنِهَا أَشَارَتْ إِلَى إِسْلَامِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ، وَإِسْلَامِهِ كَانَ بَعْدَ الْهَجْرَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَرَ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الآية ٣٥].

والأسس التي يقوم عليها بناء الإسلام ثلاثة هي: التوحيد، والرسالة، والبعث، وهذه العناصر الثلاثة يعالجها القرآن في كل السور المكية علاجاً أساسياً؛ وذلك لأن قضية

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» من حديث طويل بسند جيد (٨٨/٧) (٣٩٨١) قال محققوه: إسناده حسن من أجل عاصم بن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين غير ابن عياش فمن رجال البخاري وأخرجه أحمد أيضاً مختصر (٣٧٢٤) بإسناد صحيح، وأخرجه الحاكم (٢٢٣/٢). وأبو يعلى (٥٠٥٧) وابن حبان (٤٧٦) والطبري (١٢/١).

(٢) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٣١٠/١٣) وذكره الألوسي في تفسيره.

(٣) في تفسيره (٩١/٥).

الإيمان بوحدانية الله تعالى، وبعثة محمد ﷺ، والإيمان باليوم الآخر وما فيه من حساب وجزاء، هي المحور الذي تدور عليه آداب الإسلام ونظمه وشرائعه كلها:

١- ومن الآيات التي تناولت جانب التوحيد قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ الآية [٤].

فإن آلهة المشركين عجزت عجزاً تاماً عن خلق أي شيء، ولم يقل أحد: إن الله تعالى خلق قارة آسيا، وإن هناك رباً آخر خلق قارة أفريقيا، ولم يقل أحد: إن الشمس من خلق الله، والقمر من خلق رب آخر، فدعاء غير الله تعالى لا وزن له، ولو بلغ دعاء المشركين لآلهتهم عنان السماء ما رجعت بشيء ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفَیْمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾ الآية [٥].

٢- وفيما يتعلق بصاحب الرسالة ﷺ فإن المشركين يقولون: إن القرآن من وضع محمد ﷺ ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُمْ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً﴾ [٨].

وكانت الإجابة على قولهم هذا في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾ الآية [٩].

وليس لأهل مكة عذر في إنكار النبوات، فإن اليهود في المدينة يتبعون موسى ﷺ، والصالحون منهم آمنوا بمحمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرُوا﴾ الآية [١].

ويذكر الله تعالى رسوله ﷺ في هذه السورة برسالة أخيه هود ﷺ إلى أهل الأحقاف، ولما كذبوه استأصل الله شأفتهم، وأتى عليهم، فاحذروا -أيها المسلمون- عقاب الله، وآمنوا بالرسول الخاتم.

وإذا كان بعض الإنس لم يستجب لداعي الله، فإن نفراً من الجن استمع إلى القرآن واهتدى بهديه، أفلا يدفعهم ذلك إلى التأمل؟ وإذا كان بعض بني آدم قالوا: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانِ وَالْفَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] فإن الجن رجعوا إلى قومهم بعد أن استمعوا للقرآن منذرين ومخوفين لهم عذاب الله إن لم يؤمنوا.

٣- وفيما يتعلق بالبعث، فإن لهذا العالم أجلاً ينتهي عنده، ثم تبدأ حياة ثانية، نحصد

فيها ما غرشنا ﴿مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الآية [٣].

ويوم القيامة يُعرض الكفار على النار، بسبب انغماسهم في الشهوات، واستفراغ الجهد في الاستمتاع بالملذات ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذَهَبْتُمْ طِبْعَكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمَنَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الآية [٢٠].

وعند العرض على النار، يُسأل الكفار عن الحق الذي أنكروه في الدنيا، وهو البعث والنشور، فيعترفون بعد فوات الأوان ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الآية [٢٤].

والقرآن يُعرض بمنكري البعث، ويهددهم بسوء المصير ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَمَيِّضْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدْرِ عَلَىٰ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾ الآية [٣٣].

وفي نهاية السورة يُطلب من محمد ﷺ التآسي بمن سبقه من أولي العزم من الرسل ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية [٣٥].

وعندما يطول الكفاح، فإن ذكريات الماضي كلها تكون كأنها لحظات، وهكذا مجيء الساعة بعد رحلة الدنيا ﴿كَانَتْهُمْ يَوْمَ بَرَزَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ﴾ الآية [٣٥].

وكل ما سبق ذكره بلاغ للناس ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الآية [٣٥].

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أولها إلى الآية الرابعة عشرة، وفيه إشارة إلى كتاب الله تعالى والوحي المنزل على رسول الله ﷺ، ومن آيات القرآن، إلى آيات الكون في السموات والأرض، ثم تشرع السورة في المناظرة بين الرسول ﷺ والمشركين بالله تعالى، فتبين أنهم لا يستندون في عقيدتهم الباطلة إلى حق من القول، ولا مآثور من العلم.

وتنفذ آيات السورة شبه المكذبين بالقرآن، فتردُّ عليها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع، وتقيم الدليل على المكذبين بالوحي المنزل على خاتم المرسلين بمن اهتدى من بني إسرائيل للحق، فأسلم عندما عرف أن القرآن مُصدِّق لما في التوراة، كما قال تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَقَامَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾ الآية [١٠].

وقال جل شأنه: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كَتَبْتُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانِ عَرَبِيًّا﴾ الآية [١٢].

المقطع الثاني: من الآية الخامسة عشرة إلى الآية التاسعة عشرة، وفي هذا المقطع تعرض السورة إلى مثالين للابن الصالح، المستقيم في فطرته، البار بوالديه، كلما ازداد عمراً ازداد تقى وصلاً وإحساناً لوالديه.

والابن الشقي، المنحرف عن الفطرة، العاق لوالديه، الذي يَسْخَرُ من الإيمان، ويهزأ بالبعث والنشور، وتبين السورة مصير كل منهما يوم لقاء الله تعالى.

المقطع الثالث: من الآية العشرين إلى الآية السابعة والعشرين، وفيه عرض لقصة قوم هود عليه السلام، الذين كَذَّبُوا رسولهم وطغوا في البلاد، واغتروا بقوتهم وجبروتهم، وأصرُّوا على كفرهم، فأرسل الله عليهم الريح العقيم ﴿تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَكِنُهُمْ﴾ الآية [٢٥].

وكما أهلك الله قوم عاد، أهلك ما حولهم من القرى، ولم تستطع آلهتهم أن تدفع عنهم شيئاً من عذاب الله تعالى، فظهر إفكهم وافترائهم.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقَرْيِ وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [آية]

المقطع الرابع: من الآية الثامنة والعشرين إلى نهاية السورة، وهو يتناول قصة نفر من الجن صرفهم الله لاستماع القرآن من الرسول محمد ﷺ فآمنوا به وبلغوه لأقوامهم، وشهدوا له بأنه الحق، وأنه يصدق التوراة التي قبله، فعادوا إليهم منذرين يحذرونهم عذاب الله تعالى إن لم يؤمنوا.

ويتضمن هذا المقطع الإشارة إلى بدء الخلق وإعادته، وأن الكافرين بالله ورسوله يُعرضون يوم القيامة على النار فيُقررون بما كانوا به ينكرون، ولكن الوقت قد فات، فلا رجعة ولا توبة ولا ندم، فهذا يوم الحساب والجزاء.

سُورَةُ مُحَمَّدٍ (٤٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (محمد) هي السورة السابعة والأربعون في ترتيب المصحف، والسادسة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الحديد) وقبل سورة (الرعد).

واشتهرت بأنها سورة (محمد) لورود اسم النبي ﷺ في الآية الثانية منها، وتُسمى أيضًا سورة (القتال) لورود لفظ القتال في الآية العشرين منها؛ ولأن القتال هو العنصر البارز فيها، كما تسمى سورة (الذين كفروا)، والأول هو الأشهر.

وعدد آياتها -عند أهل الكوفة- ثمان وثلاثون آية، وأربعون آية عند أهل البصرة وأهل حمص، وتسع وثلاثون آية عند غيرهم.

وهي خمس مئة وتسع وثلاثون كلمة، وألفان وثلاث مئة وتسعة وأربعون حرفاً.

وهي سورة مدنية، وقد نزلت الآية الثالثة عشرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ﴾ في الطريق أثناء الهجرة، فتوهم بعضهم أن السورة مكية، وقيل: إنها نزلت عام الفتح، أو سنة الحديبية.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأ بهذه السورة في صلاة المغرب^(١).

وقد تناولت السورة: أحكام القتال، والأسرى، والغنائم، وأحوال المنافقين، والمحور الأساس الذي تدور عليه هو الجهاد في سبيل الله، وهذا شأن السور المدنية.

أَتْبَاعُ الْحَقِّ وَأَتْبَاعُ الْبَاطِلِ

وتبدأ السورة ببيان حقيقة الذين كفروا، وحقيقة الذين آمنوا، وأن الله تعالى ولي الذين آمنوا؛ لأنهم اتبعوا الحق من ربهم، وأن الكافرين أعداء الله لا مولى لهم، ثم تأمر السورة المؤمنين أن يخوضوا الحرب ضد أعداء الله ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ الآية [٤].

(١) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٢٣٩، ١٧٤٢) وفي «الكبير» (١٣٣٨٠) وفي «الصغير» (٤٥/١) وهو عند ابن حبان (١٨٣٥) قال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وتبيّن هذه الآية الحكمة من القتال في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾ الآية [٤]. وتكرّم السورة الشهداء، فتبيّن أن الله تعالى لن يضيع أعمالهم، فيهديهم ويصلح بالهم، ويدخلهم الجنة، فيعرفون الطريق إليها بأنفسهم.

أما الكفار فتعسّأ لهم وأضل أعمالهم، وطريق النصر عليهم يكمن في التمسك بشرع الله ونصر دينه، وإعداد العدة المادية والمعنوية.

وتتحدث السورة عن المؤمنين والكافرين والمنافقين، فتصف متاع المؤمنين في الجنة، ومنه ألوان الأشربة في الأنهار الجارية من: اللبن والعسل والخمر والماء.

أما الكفار، فيتمتعون في الدنيا ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنار في الآخرة مثوى لهم. وتمضي السورة في جولة مع المنافقين، فتكشف أستارهم، وتبيّن هلّهم وجبنهم، وتفضّحهم في موالاتهم، وتأمّرههم مع اليهود، وتبيّن ملامحهم وصفاتهم وخطرهم على المجتمع المسلم.

وفي عصرنا الحاضر يجدد المنافقون سيرة المخادعين القدامى، فهم يتلقّون التعليمات من منابر التنصير العالمي، أو من مراكز الغزو الثقافي، ويندشّون بين جماهير المسلمين يشيرون الفتن، ويطلقون الشائعات، ويرجّحون وجهات النظر المعادية، ويخذّلون أصحاب الكفاح، ويداهنون المسلمين من جهة والأعداء من جهة أخرى، فيتنازلون عن بعض المبادئ الإسلامية -إن كانوا في موقع المسؤولية- إرضاء للعدوّ، مع التعتيم الإعلامي حتى لا ينفضحوا ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ (٢١).

والله تعالى يكشف خباياهم على ألسنتهم، وما تدلّ عليه أعمالهم ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٢٢).

الجهاد ضرورة حتمية لرد العدوان وتأمين طريق الدعوة:

وقد حذّرت السورة من الدعوة إلى الصلح مع الأعداء، حرصاً على شهوات الدنيا ومتاعها، فإن ما عند الله خير وأبقى، فإن بادر العدو إلى طلب الصلح فلا بأس بذلك،

قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١].

وذلك لأن طلب السَّلَم - من جهة المسلمين تخاذلاً وضعفاً - هوان وذلة، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَِّ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ [٣٥].

ولا بأس من مهادنة العدو إذا كان عددهم وعدّتهم أكثر من ضعف عدد المسلمين وعدّتهم، وهو أدنى حدّ لمجابهة العدو ﴿أَلَنْ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال: ٦٦] ولا تجوز في أكثر من ذلك.

وفي السورة تهديد للمسلمين إن بخلوا ببذل النفس والمال للقتال في سبيل الله، فتحدّروهم باستبدال قوم غيرهم إن هم تخاذلوا عن الجهاد لنشر الدعوة، وإزالة العقبات من طريقها.

وبهذا يتضح أن النبي ﷺ هو نبي الرحمة، وهو نبي الملحمة، وأن المسلم من شأنه ألا يقبل الظلم ولا الضيم ولا الذل، ولا ينبغي له أن يترك الباغي يمشي في الأرض متكبراً، بل يُرغم أنفه ويُقلّم أظافره، فماذا نتوقع أن يقول القرآن للمغلوب المستباح دمه وماله وعرضه ووطنه حين يلقي خصمه في الميدان؟ وماذا يُكنُّ أهل فلسطين لليهود الذين أخرجوهم من دورهم واسترخصوا دماءهم وحقوقهم؟ وماذا يُكنُّ أهل الشيشان للروس؟ وماذا يُكنُّ أهل البوسنة للصرب؟ وماذا يُكنُّ أهل السودان للجنوب؟ وماذا يُكنُّ أهل العراق لأمريكا؟ وماذا؟ وماذا؟ إنهم لا يُكْتَنُون لهم إلا الحقد والبغض الدفين ﴿قَتَلُوهُمْ يَعْذِبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيَضْرِبُهُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ (٤) وَيَذْهَبَ غِيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ﴾ [التوبة].

وحين يُثخن المسلم جراح الكفار، ويقعون في قبضته، ويأخذهم أسرى، فإن رحمة الإسلام تتجلى في أنه إما أن يأسرهم، وإما أن يأخذ منهم الفدية، ولا يستأصلهم كما يفعل العدو، وهكذا تتجلى أخلاق الإسلام في السلم والحرب ﴿فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَرَقْتُمُوهُمْ﴾ أي: أكثرتم فيهم القتل ﴿فَشُدُّوا أَلْوَتَاكُ﴾ أي: اجعلوهم في الأسر ﴿فَإِذَا مَنَّ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ فَأَمَّا أَنْ يَأْتِيََنَّكُمْ مِنْهُمُ بَأْسٌ فَضَرْبُ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَتَخْتَرَقْتُمُوهُمْ﴾ أي: تمنون عليهم وتطلقون سراحهم ﴿وَأَمَّا فِدَاءٌ﴾ تقبلون أخذ الفدية منهم ﴿حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ الآية [٤].

والنصر على العدو، مرهون بإعداد العدة المكافئة لعدة العدو في البر والبحر والجو،

وعدم مساواتهم في معصية الله تعالى، فإنما إن ساويناهم في معصية الله تفوقوا علينا بقوة السلاح ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن نَّصُرُوا اللَّهَ يَصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (٧).

لقد كان المسلمون يتلون هذه السورة جماعات في ميادين القتال بصوت مرتفع؛ ولأن آياتها تنتهي بميم ساكنة فإن الوقوف عليها له دويٌّ يخلع قلب العدو.

ويوم يتخلى المسلمون عن فريضة الجهاد لردّ العدوان، وحماية البلاد، وتأديب من يقفون في وجه نشر الدعوة، وعدم إعداد العدة لذلك، فإن باطن الأرض خير لهم من ظهرها.

مجمل ما في السورة:

- ١- وهكذا: فإن السورة بدأت بذكر الكافرين في الآية الأولى، وهذا من براعة الاستهلال؛ لأن موضوعها يتعلق بقتال من صدّ الناس منهم عن دعوة الإسلام.
- ٢- ثم ثبّت في الآية بعدها بذكر من آمن بما أنزل على محمد ﷺ وعمل صالحاً.
- ٣- ومضت تتحدث عن قتال الكافرين وثواب المؤمنين إلى الآية الخامسة عشرة منها.
- ٤- وعوداً على بدء تعود السورة من الآية الثانية والعشرين إلى نهايتها لتبيّن مصير الفريقين: فالكفار لن يغفر الله لهم وسيُحبط أعمالهم، والمؤمنون يؤتيهم أجورهم ولن يترهم أعمالهم.
- ٥- وعن المنافقين وكشف خفاياهم تتحدث السورة من الآية السادسة عشرة إلى الآية الحادية والثلاثين.
- ٦- ثم تختم بتهديد بالغ لمن يتولى عن دين الله ويتقاعس عن الجهاد في سبيله.

سُورَةُ الْفَتْحِ (٤٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الفتح) هي السورة الثامنة والأربعون في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة الصف وقبل سورة (التوبة).

وَصُلِحَ الْحَدِيثُ هُوَ سَبَبُ نَزْلِهَا .

وعدد آياتها تسع وعشرون آية باتفاق، وهي خمس مئة وستون كلمة .

وألفان وأربع مئة وثمانية وثلاثون حرفاً .

وسميت سورة (الفتح)؛ لأنها بُدِئَتْ بقوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ .

وهي سورة مدنية، نزل صدرها سنة ست من الهجرة في كُراع الغَمِيم -موضع بين مكة والمدينة- على بُعد ثلاثة أميال من عُسْفَانَ بِمَكَّةَ، وكان نزول هذه السورة ليلاً عقب انصراف النبي ﷺ من صلح الحديبية .

وقد نزلت سورة الفتح في أعقاب صلح الحديبية .

ونزلت سورة الأنفال في أعقاب غزوة بدر .

ونزلت عشرات الآيات من سورة (آل عمران) في أعقاب غزوة أحد، من الآية الحادية والعشرين بعد المئة إلى الآية السادسة والثمانين بعد المئة، ونزلت آيات من سورة (الأحزاب) في أعقاب غزوة الأحزاب من الآية التاسعة إلى الآية السابعة والعشرين .

تحدثت سورة (الفتح) عن صلح الحديبية الذي تَمَّ بين الرسول ﷺ والمشركين سنة ست من الهجرة، وكان بداية للفتح الأكبر -فتح مكة- لِمَا ترتب على هذا الصلح من الأمن ورفع الحرب، وتمكّن الناس من الدخول في الإسلام، وتم الفتح المبين .

كما تحدثت السورة عن الذين تخلفوا عن الخروج مع الرسول ﷺ يوم الحديبية، من الأعراب الذين في قلوبهم مرض، ومن المنافقين الذين ظنوا ظن السوء، ولم يخرجوا مع النبي ﷺ، ففضحهم الله تعالى وكشف سرائرهم .

وتحدثت السورة أيضاً عن (بيعة الرضوان) التي بايع الصحابة فيها رسول الله ﷺ على الثبات حتى الموت.

وتناولت آيات السورة الرؤيا التي رآها النبي ﷺ في منامه، وحدث بها أصحابه ففرحوا بدخول النبي ﷺ وأصحابه مكة آمنين مطمئنين، وقد تحققت هذه الرؤيا ودخلها النبي ﷺ وأصحابه.

قال الزهري: لم يكن فتح أعظم من صلح الحديبية، وذلك أن المشركين اختلطوا بالمسلمين، فسمعوا كلامهم، فتمكن الإسلام في قلوبهم، فأسلم في ثلاث سنين خلق كثير، فعز الإسلام بذلك، وأكرم الله رسوله ﷺ^(١).

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع، تشتمل على التمهيد والموضوع والخاتمة:

١- ففي الآيات التسع الأول: تَجْبُرُ آيَاتُ السُّورَةِ قُلُوبَ الْمُسْلِمِينَ الْكَسِيرَةِ، بسبب صلح الحديبية، فتبشّر النبي ﷺ وتملاً قلبه بالفرح، بتحقيق ما يؤمّله من زيارة المسجد الحرام والفتح المبين، ومغفرة ما تقدم من الذنوب وما تأخر، والاهتداء إلى أقوم الطرق.

ويمتنّ الله تعالى في هذه السورة على المؤمنين بنزول السكينة عليهم، وتبشيرهم بالمغفرة والأجر العظيم، والنصر على عدوهم، والويل ثم الويل لأعدائهم من المنافقين والمكذّبين والمشركين، مما أعدّه الله لهم من العذاب والغضب واللعنة، وهذا هو التمهيد لموضوع السورة.

٢- ثم تتحدث آيات السورة في موضوعها عن بيعة الرضوان من الآية العاشرة إلى الآية السادسة والعشرين منها، فتُتَوّه في البدء بمبايعة المؤمنين لرسول الله ﷺ، وتفصح معاذير الذين ينكثون عهودهم، وتبيّن أن وبال ذلك سيعود عليهم.

ثم تناول آيات السورة الأعراب الذين تخلّوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ، وتعلّلوا بمعاذير واهية كاذبة، فتكشف حالهم، وتُنبئ عما في قلوبهم، وظنهم أن المؤمنين لن يعودوا إلى أهلهم أبداً، وتفتح لهم باب التوبة، وتقبل عذر غير المؤهلين للجهاد.

وتتحدث آيات السورة عن غنائم وفتوحات قريبة، يسيل لها لعاب المخلفين المتباطئين، وهي غنائم خيبر وغيرها.

(١) «تفسير الخازن» (٤/١٤٤).

وتُثْنِي آيَاتُ السُّورَةِ بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِيهَا عَلَى أَهْلِ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، وَتُبَيِّنُ الْحِكْمَةَ الْإِلَهِيَّةَ فِي رَفْضِ الرَّسُولِ ﷺ مَقَاتِلَةَ الْمُشْرِكِينَ فِي مَكَّةَ بِمَا يَقَاسُ عَلَيْهَا غَيْرُهَا فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، وَمُرَاعَاةَ مُشْكَلَةِ الْأَقْلِيَّاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي الْعَالَمِ وَالْحِفَازَ عَلَيْهِمْ.

وَتَعُودُ آيَاتُ السُّورَةِ إِلَى الْحَدِيثِ عَنِ الْحَرَمِ الْمَكِيِّ، لِتَذْكُرَ مَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ فِيهَا عَنْ رُؤْيَا النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي رَأَاهَا عَقِبَ مَرْجِعِهِ مِنَ الْحَدِيثِيَّةِ لِتُبَشِّرَهُ هُوَ وَأَصْحَابُهُ بِدُخُولِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ آمِنِينَ مَطْمَئِنِينَ، مُحَلِّقِينَ وَمَقْصُرِينَ.

٣- وَتَخْتَمُ آيَاتُ السُّورَةِ بِبَيَانِ أَنَّ النَّصْرَ حَلِيفُ الْمُسْلِمِينَ فِيمَا مَضَى وَفِيمَا هُوَ آتٍ، وَلَكِنَّ النَّصْرَ لَهُ مُؤَهَّلَاتٌ، لَا بَدَّ مِنْ تَوَافُرِهَا فِي الْجِيلِ الَّذِي يَحْرُزُهُ، فَمَنْ فَقَدَ هَذِهِ الْمُؤَهَّلَاتِ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَفِي هَذَا الْخَتَامِ ثَنَاءُ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِأَنَّهُمْ أَشَدَّاءُ عَلَى الْكَفَّارِ، رَحَمَاءُ بَيْنَهُمْ، وَأَنَّهُمْ رُكَّعٌ سُجَّدٌ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا؛ كَيْ يَعْطِيَهُمْ مُؤَهَّلَاتِ النَّصْرِ فِي زَمَانِهِمْ، فَهَلْ يَتَحَقَّقُ ذَلِكَ فِينَا؟ أَرْجُو اللَّهَ!

وهذا بعض ما ورد فيها من أحاديث:

١- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُعَفَّلٍ ؓ قَالَ: قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَامَ الْفَتْحِ فِي مَسِيرِهِ سُورَةَ الْفَتْحِ عَلَى رَاحِلَتِهِ، فَرَجَّعَ فِي قِرَاءَتِهِ^(١).

والترجيع: هو ترديد الصوت بالقراءة أكثر من مرة.

٢- وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؓ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، قَالَ: فَسَأَلْتُهُ عَنْ شَيْءٍ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ- فَلَمْ يُرِدْ عَلَيَّ، قَالَ: فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ يَا بَنَ الْخَطَّابِ، نَزَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ -أَيَّ: أَلَحَحْتُ عَلَيْهِ فِي الْمَسْأَلَةِ الْوَاحِدَةِ- فَأَدَّبَكَ بِسُكُوتِهِ عَنْ جَوَابِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ فَلَمْ يُرِدَّ عَلَيَّ؟ قَالَ: فَرَكِبْتُ رَاحِلَتِي، فَتَقَدَّمْتُ مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ، قَالَ: فَإِذَا أَنَا بِمَنَادٍ يَنَادِي: يَا عُمَرُ، أَيْنَ عُمَرُ؟ قَالَ: فَارْجَعْتُ وَأَنَا أَظُنُّ أَنَّهُ نَزَلَ فِيَّ شَيْءٌ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَقَدْ نَزَلْتُ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ سُورَةُ هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا

(١) «المسند» (٢٤/٥) (٢٠٥٤٢، ٢٠٥٥٨) والبخاري برقم (٤٨٣٥) ورقم: (٥٠٣٤) ورقم: (٧٥٤٠) ومسلم برقم (٧٩٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (٨٠٥٥) وأبو داود (١٤٦٧) والترمذي (٣٠٤) والبيهقي في «السنن» (٥٣/٢).

فيها: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١).

٣- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: نزلت على النبي ﷺ ﴿لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ مرجعه من الحديث، فقال النبي ﷺ: «لقد أنزلت علي آية أحب إلي مما على الأرض»، ثم قرأها عليهم النبي ﷺ، فقالوا: هنيئًا مريئًا يا نبي الله، لقد بين الله ماذا يفعل بك، فماذا يفعل بنا؟ فنزلت عليه: ﴿لِيَدْخُلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفَّرُ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٢) [٥].

٤- وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يصلي حتى ترم قدماه، فقيل له: أليس الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا» (٣).

٥- وعن عائشة رضي الله عنها أن نبي الله ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبدًا شكورًا» (٤).

٦- وعن أنس رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ (١) مرجعه من الحديث، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحروا الهدى بالحديث، فقال: «لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعها» (٥).

(١) «المسند» (٣١/١) (٢٠٩) بإسناد صحيح على شرط البخاري ورجال ثقات (محققوه)، وصحيح مسلم (٤٨٣٣) والبخاري برقم (٤٨٣٣) ورقم: (٤١٧٧) ورقم: (٥٠١٢) والترمذي برقم (٣٢٦٢) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٤٩٩) وفي ط الرسالة (١١٤٣٥) وابن حبان (٦٤٠٩). والبزار (٢٦٥) وموطأ مالك (٢٠٣/١) وأبو يعلى (١٤٨).

(٢) «المسند» (١٩٧/٣) (١٣٠٣٥) والبخاري برقم (٤١٧٢)، (٤٨٣٤) ومسلم برقم (١٧٨٦) والترمذي برقم (٣٢٦٣) وقال: حسن صحيح، وعبد الرزاق (٢٢٥/٢) وابن أبي شيبه (٥٠١/١٤) والطبري (٢٤١/٢١) وأبو نعيم (٢٥) وعبد بن حميد (١١٨٦) في «المنتخب».

(٣) «المسند» (٥٥/٤) برقم (١٨١٩٨) والبخاري برقم (١١٣٠)، (٤٨٣٦)، (٦٤٧١) ومسلم برقم (٢٨١٩)، (٢٨٢٠) والترمذي برقم (٤١٢) و«سنن النسائي»: (٢١٩/٣) وابن ماجه برقم (١٤١٩) وابن حبان (٢٥٩٠) و«سنن النسائي الكبرى» (١٣٢٧).

(٤) البخاري برقم (٤٨٣٧) ومسلم برقم (٢٨٢٠).

(٥) «صحيح مسلم» ١٧٨٦ و«صحيح البخاري» ٤١٧٢ و«المسند» ١٣٠٣٥ والترمذي ٣٢٦٣ وغيرهم.

٧- وأخرج مسلم وغيره بسنده: عن سهل بن حنيف أنه قام يوم صفين، فقال: يا أيها الناس، اتَّهَمُوا أَنْفُسَكُمْ، لقد كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالاً لقاتلنا، وذلك في الصلح الذي كان بين رسول الله ﷺ والمشركون، فجاء عمر بن الخطاب، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى باطل؟ قال: «بلى»، قال: أليس قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قال: «بلى»، قال: ففيم نعطى الدِّينَةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ، وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فقال: «يَا بَنَ الْخَطَابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يَضِيعَ عَنِّي اللَّهُ أَبَدًا»، قال: فانطلق عمر فلم يصبر متغيِّظًا، فأتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر، أَلَسْنَا عَلَى حَقٍّ وَهُمْ عَلَى باطل؟ قال: بلى، قال: أليس قَتَلْنَا فِي الْجَنَّةِ وَقَتَلَاهُمْ فِي النَّارِ؟ قال: بلى، قال: فعَلَامَ نُعْطَى الدِّينَةَ فِي دِينِنَا وَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟ فقال: يَا بَنَ الْخَطَابِ، إِنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، وَلَنْ يَضِيعَ اللَّهُ أَبَدًا، قال: فنزل القرآن على رسول الله بالفتح، فأرسل إلى عمر فأقرأه إياه، فقال: يا رسول الله، أَوْفَتْحَ هُوَ؟ قال: «نعم، فطابت نفسه ورجع»^(١).

٨- وعن البراء بن عازب ؓ قال: تَعُدُّونَ أَنْتُمْ الْفَتْحَ فَتَحَ مَكَّةَ، وَقَدْ كَانَ فَتَحَ مَكَّةَ فَتَحًا، وَنَحْنُ نَعُدُّ الْفَتْحَ بَيْعَةَ الرِّضْوَانِ يَوْمَ الْحَدِيبَةِ. كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ عَشْرَةَ وَمِئَةً، وَالْحَدِيبَةُ بَثْرٌ، فَتَرَحَّنَا، وَلَمْ نَتْرِكْ فِيهَا قَطْرَةً، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَأَتَاهَا فَجَلَسَ عَلَى شَفِيرِهَا، ثُمَّ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ مَاءٍ فَتَوَضَّأَ، ثُمَّ تَمَضَّمْضَ وَدَعَا، ثُمَّ مَجَّهَ، فَتَرَكْنَاهَا غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ إِنَّهَا أَصْدَرَتْنَا -أي: رَجَعْنَا وَقَدْ ارْتَوَيْنَا- وَمَاشَيْتَنَا وَرَكَابَنَا^(٢).

٩- وعن مُجَمِّعِ بْنِ جَارِيَةِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: شَهِدْنَا الْحَدِيبَةَ، حَتَّى بَلَغْنَا كُرَاعَ الْغَمِيمِ، إِذِ النَّاسُ تُسْرِعُ بِالْذَوَابِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: مَا لِلنَّاسِ؟ قَالُوا: أُوحِيَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: فَاسْرِعْنَا مَعَ النَّاسِ، فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَاحِلَتِهِ عِنْدَ كُرَاعِ الْغَمِيمِ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَقَرَأَ عَلَيْهِمْ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ فقال رجل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَوْ فَتَحَ هُوَ؟ قَالَ: «إِي وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ إِنَّهُ لَفَتْحٌ» فَكُتِبَتْ خَيْبَرُ عَلَى أَهْلِ الْحَدِيبَةِ، لَمْ يَدْخُلْ مَعَهُمْ فِيهَا أَحَدٌ، فَكُسِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَمَانِيَةَ عَشْرَ سَهْمًا، وَكَانَ الْجَيْشُ أَلْفًا

(١) «صحيح مسلم» برقم (١٧٨٥) والبخاري برقم (٤٨٤٤).

(٢) «صحيح البخاري» (٣٤٠/٧) (٤١٥٠) والطبري (٢٤٣٢١).

وخمس مئة، منهم ثلاث مئة فارس، فأعطى الفارسَ سهمين، وأعطى الراجلَ سهمًا^(١).

نبذة عن صلح الحديبية:

روت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رأى في النوم كأن قائلًا يقول له: لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم هذا، واستنفر النبي ﷺ أصحابه للعمرة، وخرج بهم من المدينة في شهر ذي القعدة سنة ست من الهجرة، وكان معه نحو ألف وخمس مئة من المهاجرين والأنصار، ومن دخل في الإسلام من الأعراب، ولم يكن معهم سلاح إلا السيوف في القرب؛ لأنهم خرجوا للعمرة ولا يريدون حربًا، وساقوا معهم الهدى بعد أن قلّدوها وأشعروها، فصلّوا الظهر بذي الحليفة، وأحرموا ولّبوا، وكان مع النبي ﷺ من نسائه أم سلمة رضي الله عنها، فبلغ المشركين خروجُه، وأجمع رأيهم على صده عن المسجد الحرام.

ولما وصل النبي ﷺ إلى عُسفان قرب مكة، وكان ﷺ قد كلف بشر بن سفيان الكلبي لمعرفة أخبار قريش، فجاء بِشْر يُخبر بأن قريشًا قد لبست جلود النمر واستعدّوا لقتاله، ونزلوا بذي طوى قرب مكة، وعاهدوا الله ألا يدخلها عليهم أبدًا! فسلّك النبي وأصحابه طريقًا وعرًا غير طريقهم انتهى بهم إلى الحديبية، وكان به شجرة حدباء، أو بئر تسمى الحديبية، فسُمّي المكان باسم الشجرة أو البئر، وكان النبي ﷺ يركب ناقه اسمها القصواء وكانت لا تُسبق، فلما وصلت الحديبية، حرنت وأبت المشي، فقال الصحابة خلأت القصواء -أي: توقفت عن المسير- فقال ﷺ: «ما خلأت، وما هو لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة».

وأمر الناس بالنزول في المكان الذي توقّفت فيه الناقة عن المشي، وقال ﷺ: «والله لا يسألوني حُطّة فيها تعظيم حرمة الله وصلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها»، ولما علمت قريش بنزوله ﷺ في الحديبية أرسلوا بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي ليسأل عن سبب مجيئه، فأخبره أنه

(١) ابن أبي شيبة (٤٣٧/١٤) و«المسند» (١٥٤٧٠) بإسناد ضعيف لانفراد يعقوب بن مُجمع به (محقّقه) قال الحافظ في الفتح (٨٦/٦): في إسناده ضعف وبقيّة رجاله ثقات، والحاكم (١٣١/٢) والبيهقي في «الدلائل» (١٥٦/٤) وضعّفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٥٨٧) وقد ذُكرت بعض ألفاظه بالمعنى، ومعناه صحيح، وإن كان في بعض رواه مقال.

جاء معتمرًا، ولا يُريد حربًا، ولكن قريشًا أرسلت عُروة بن مسعود الثقفي ليقول له: والله لن تدخل مكة عنوة أبدًا، وكان عروة خلال حديثه مع النبي ﷺ يمد يده على لحيته، فكان المغيرة بن شعبة يقرع يده، ويقول له: اكف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل ألا تصل إليك، ورجع عروة يصف لهم ما شاهده من احترام المسلمين لرسول الله ﷺ، فقال: يا معشر قريش، إني قد جئت كسرى في ملكه، والتجاشي في ملكه، وإني والله ما رأيت مَلِكًا في قوم قطُّ مثل محمد في أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يُسلمونه لشيء أبدًا، فرؤا رأيكم، فقالوا: نردّه من عامنا هذا، ويرجع من قابل، فيدخل مكة ويطوف بالبيت.

فأرسل النبي ﷺ عثمان بن عفان ؓ إليهم ليخبرهم أنه إنما جاء لزيارة البيت، ومعهم الهدي ينحرونه وينصرفون، فقالوا له: إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُفْ وحدك، قال: والله ما كنت لأطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ، فحبسوا عثمان، وأشيع أنه قد قُتل، فقال ﷺ: «لا نبرح حتى نناجزهم» ودعا المسلمين إلى بيعة الرضوان، فبايعوه تحت الشجرة على الموت، قال سلمة بن الأكوع: بايعناه وبايعه الناس على عدم الفرار، وأنه إما الفتح وإما الشهادة، وضرب النبي ﷺ بشماله على يمينه، وقال: هذه بيعة عثمان، إنه ذهب في حاجة الله ورسوله، وعاد عثمان دون أن يمسه أذى.

وأقام النبي وأصحابه بالحديبية نحو عشرين يومًا، يتم فيها تبادل السفراء بينهم، فأجمعت قريش رأيها على الصلح، وأرسلوا سهيل بن عمرو لَمَّا علموا ببيعة الرضوان، وقالوا له: صالِحُهُ على أن يرجع من عامه هذا؛ حتى لا تتحدث العرب أنه دخلها عنوة، فلما رآه النبي ﷺ مقبلًا، قال: «لقد أرادت قريش الصلح حين بعثت هذا الرجل».

وتم الصلح على الآتي:

أَوَّلًا: أن يرجع محمد ﷺ وأصحابه من عامهم هذا دون زيارة البيت على أن يأتوا العام القادم، وليس معهم إلا السيوف في غمدها، وتترك قريش لهم مكة ثلاثة أيام ليطوفوا بالبيت.

ثَانِيًا: أن يكفَّ الفريقان عن الحرب عشر سنين، يأمن فيها الناس دون قتال ولا عدوان.

ثَالِثًا: من جاء من قريش مسلمًا بدون إذن وليه، ردّه النبي ﷺ إليهم، ومن جاء قريشًا

من المسلمين لم يردوه .

رابعًا: من أحبَّ أن يدخل مع الرسول ﷺ من القبائل فله ما أراد، ومن أحب أن يدخل مع قريش من القبائل فله ما أراد .

وقد سارعت قبيلة خزاعة فدخلت مع النبي ﷺ وحالفته، وسارعت قبيلة بني بكر فدخلت مع قريش وحالفوها .

تنازلات في صلح الحديبية لحفظ الدماء :

وفي حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية في أصل الشجرة التي قال الله تعالى في القرآن، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله ﷺ فرفَعَتْهُ عن ظهره، وعلي بن أبي طالب وسُهَيْل بن عمرو، بين يديه، فقال رسول الله ﷺ لعلِّي: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، فأمسك سهيل بيده، وقال: ما نعرف الرحمن الرحيم، اكتب في قضيتنا ما نعرف، قال: اكتب باسمك اللهم . وكتب: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة»، فأمسك سهيل بن عمرو بيده، وقال: لقد ظلمناك إن كنت رسوله، اكتب في قضيتنا ما نعرف، فقال: اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فيينا نحن كذلك، إذ خرج علينا ثلاثون شابًا عليهم السلاح، فثاروا في وجوهنا، فدعا عليهم رسول الله ﷺ فأخذ الله بأبصارهم، فقمنا إليهم فأخذناهم، فقال رسول الله ﷺ: «هل جئتم في عهد أحد؟ أو هل جعل لكم أحد أمأنا؟» فقالوا: لا، فخلَّى سبيلهم، فأنزل الله الآية^(١).

وكان النبي ﷺ قد ساق معه إلى الحديبية سبعين بدنة، قلدها وأشعرها، وأرسل عيَّنًا له من خزاعة يأتي له بأخبار قريش، فجاء عُتْبَةُ الخزاعي يخبر النبي ﷺ أن قريشًا قد جمعوا له جموعًا، وهم مقاتلوه وصادُّوه عن البيت، فاستشار أصحابه في أن يقصد البيت، فإن منعه أحد قاتله، أو يُغِيرَ على بيوتهم فيصيب مَنْ فيها، فقال أبو بكر: إنهم جاؤوا معتمرين ولم يجيئوا لقتال أحد، فمن حال بينهم وبين البيت قاتلوه، فقال: «امضوا على اسم الله»،

(١) أخرجه النسائي في التفسير برقم (٥٣١) والحاكم (٤٦٠/٢) وصححه، ووافقه الذهبي، وأحمد (٢٧/٣٥٤) (١٦٨٠٠) و«صحيح مسلم» عن أنس مختصرًا برقم (١٧٨٤) وهو في الترمذي (٣٢٦٤) وابن أبي شيبه (٤٩٢/١٤) والنسائي في «السنن الكبرى» برقم (١١٥١١) والطبري (٢٨٨/٢١).

فلما كانوا ببعض الطريق قال: إن خالد بن الوليد بالغميم في طليعة خيل لقريش، فخذوا ذات اليمين، فلم يشعر بهم خالد إلا وهم قريب منه، فانطلق خالد إلى قريش يخبرهم.

ولما كان النبي ﷺ بالثنية بركت ناقته، فقال الناس: حل حل، أي: توقفت عن المسير، ثم زجرها فوثبت، حتى نزل بالحديبية على بئر فيها ماء قليل، فنزحه الناس سريعاً، ثم اشتكوا العطش، فنزع النبي سيفاً من كنانته وأعطاه سائق بُدنه، فنزل في البئر فغرز في جوفها، فامتلأت البئر بالماء وكفاهم، وزاد عن حاجتهم، حتى رجعوا عنه.

وبينما هم كذلك إذ جاء بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءِ الْخَزَاعِي فِي نَفَرٍ مِنْ قَوْمِهِ يَخْبِرُونَ النَّبِيَّ ﷺ أَنَّ الْقَوْمَ يَسْتَعِدُّونَ لِقَاتِهِ وَصَدَّهُ عَنِ الْبَيْتِ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِْ لِحَرْبٍ بَلْ جِئْنَا مَعْتَمِرِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا إِلَّا الْقِتَالَ فَلَهُ الْأَمْرُ»، فَأَخْبَرَهُمْ بُدَيْلٌ بِهَذَا.

فانبرى للسفارة بين الفريقين عروة بن مسعود الذي أخذ يرْمُقُ النَّبِيَّ ﷺ بعينه، فقال لقومه حين رجع إليهم: والله لقد وفدتُ على كسرى وقيصر والنجاشي، فما رأيتُ مَلِكًا يَعِظُّهُ أَصْحَابُهُ مَا يَعِظُّهُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا، وَاللَّهِ مَا تَنْخَمُ نُخَامَةً إِلَّا وَقَعَتْ فِي كَفِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ، وَإِذَا أَمَرَهُمْ ابْتَدَرُوا أَمْرَهُ، وَإِذَا تَوَضَّأَ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ عَلَى وَضُوئِهِ، وَإِذَا تَكَلَّمَ خَفَضُوا أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَهُ، وَمَا يَحْدُثُونَ النَّظَرَ إِلَيْهِ تَعْظِيمًا لَهُ.

وجاء بعده رجل من بني كنانة، وبعده مِكَرَزُ بْنُ حَفْصٍ، ثُمَّ جَاءَ سَهِيلُ بْنُ عَمْرٍو، وَتَمَّ الصَّلْحُ عَلَى يَدَيْهِ بَيْنَ الْفَرِيقَيْنِ، وَفِي أَثْنَاءِ تَوْقِيعِ شُرُوطِ الصَّلْحِ جَاءَ أَبُو جَنْدَلُ بْنُ سَهِيلِ بْنِ عَمْرٍو مُسْلِمًا، وَهُوَ مَقِيدٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْمَشْيَ بِسَبَبِ قَيْدِهِ، فَأَبَى النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يَرْدَهُ إِلَى الْمَشْرَكِينَ قَائِلًا: «إِنَّا لَمْ نَقْضِ الْكِتَابَ بَعْدُ».

قصة أبي بصير:

ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة، جاءه أبو بصير من قريش مُسْلِمًا، وَكَانَ مِمَّنْ حُبِسَ بِمَكَّةَ، فَأَرْسَلَتْ قَرِيشٌ فِي طَلْبِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: يَا أَبَا بَصِيرٍ، إِنَّا قَدْ أَعْطَيْنَا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ مَا عَلِمْتَ، وَلَا يَصْلُحُ لَنَا فِي دِينِنَا الْغَدْرُ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ فَرْجًا وَمَخْرَجًا، ثُمَّ أَعْطَاهُ إِلَى الرَّجْلَيْنِ، فَلَمَّا وَصَلَا بِهِ إِلَى ذِي الْحَلِيفَةِ تَمَكَّنَ أَبُو بَصِيرٍ مِنْ قَتْلِ أَحَدِهِمَا، وَفَرَّ الْآخَرُ، وَرَجَعَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ مَتَوْشَحًا سَيْفَهُ،

وقال: يا رسول الله، لقد رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، فَأَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، فقال ﷺ: «وَيْلٌ أُمَّه، مُسَعَّرٌ حَرْبٌ، لَوْ كَانَ مَعَهُ أَحَدٌ» ثم خرج أبو بصير حتى نزل العيص، وبلغ ذلك المسلمين الذين كانوا محبوسين معه بمكة، فخرج جماعة منهم إليه، وانضم إليه أبو جندل، حتى اجتمع نحو سبعين رجلاً، وأخذوا يعترضون غير قريش وأموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم لَمَّا أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ، فَمَنْ أَتَاهُ مِنْهُمْ فَهُوَ آمِنٌ، فأرسل إليهم النبي ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ^(١).

وهكذا يلتزم أبناء الإسلام بالوفاء بالعهود والعقود حتى مع أعدائهم، ولو كان هذا العقد جائراً بالنسبة للمسلمين، فأين هذا مما نراه اليوم من حُكَّامِ إسرائيل؟! كلما عاهدوا عهداً في اتفاقهم مع أهل فلسطين نبذه فريق منهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿أَرْكَلَمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠].

وقد أمرنا سبحانه أن نعامل العدو بالمثل، فقال: ﴿فَمَا اسْتَقَمُّوْا لَكُمْ فَاسْتَقِمْوْا لَهُمْ﴾ [التوبة: ٧].

وقد عزَّ على بعض المسلمين - لا سيَّما عمر ؓ - قبول هذه الشروط، خاصة الشرط الثالث منها، وأخذ يراجع النبي ﷺ ويراجع أبا بكر قائلاً: أَلَسْنَا عَلَى الْحَقِّ وَهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ؟ فقال له النبي ﷺ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَغْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي» وقال أبو بكر: الزم غرزه يابن الخطاب، فإنه رسول الله.

وبعد ذلك طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يتحللوا من عُمرتهم، فينحروا هديهم، ويحلِّقوا أو يُقَصِّرُوا، ولكن أحداً منهم لم يفعل، فدخل النبي ﷺ على أم سلمة وقد ظهر الغضب على وجهه، فقالت له: يا رسول الله، اعذرهم، وابدأ بما تأمرهم به دون أن تُكلم أحداً، فقام ﷺ ونحر هديه وحلق رأسه، ففعلوا مثله، وأقاموا بضعة أيام في الحديبية، ثم رجعوا إلى المدينة، وعندما سمع النبي ﷺ بعضهم يقول: لقد رجعنا ولم

(١) يُنْظَرُ: حديث صلح الحديبية في «صحيح البخاري» من حديث طويل عن المُسَوِّرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، وَمُرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ بِأَرْقَامِ (٢٧٣١، ٢٧٣٢، ٤١٨٠) وَعَبْدَ الرَّزَاقِ (٩٧٢٠) وَ«المُسْنَدَ» (١٨٩١٠) (١٨٩٢٨) مِنْ حَدِيثِ طَوِيلٍ جَدَا صَحِيحِ الْإِسْنَادِ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ، وَأَبُو دَاوُدَ (٢٧٦٥، ٤٦٥٥) وَ«السنن الكبرى» لِلنسائي (٨٨٤٠) وَغَيْرِهِمْ.

نصنع شيئًا، قال ﷺ: «بل فتحتم أعظم الفتح»^(١).

عاد المسلمون من عمرتهم وقلوبهم كسيرة، فقد كانوا يؤمّلون في زيارة البيت الحرام، والطواف بالكعبة، والسعي بين الصفا والمروة، فلم يتحقق أملهم، وما هم يعودون من مكة بعد مفاوضات شاقة مع المشركين ذاقوا فيها العنت، وبينما هم في طريقهم إلى المدينة نزلت سورة الفتح حافلة ببشريات النصر المبين، والفتح الأعظم، حيث اتسعت دائرة البلاغ، وزاد الداخلون في الإسلام، وصار للدولة الإسلامية في المدينة كيان قائم معترف به، ولم يمض عامان حتى استسلمت مكة لصاحب الرسالة ﷺ، وهو يقود عشرة آلاف مقاتل، وتحطمت الأصنام التي ظلّت قرونًا تُعبد من دون الله، وعلّت راية التوحيد، ورفع بلال الأذان فوق الكعبة المشرفة.

لقد علم الله سبحانه صدق نيات أصحاب رسول الله ﷺ، الذين بايعوه على الثبات وعدم الفرار تحت الشجرة في ساعة الحرج، ولم يتخلف منهم أحد؛ لأنهم يحبون الله تعالى، ويحبون الموت في سبيل الدعوة إليه، ولذا فقد أعلن الله تعالى رضاه عنهم، وكافأهم بالخير العاجل والآجل، وقد كشف الله لرسوله عن الذين تخلفوا عن الخروج معه، وقالوا في أنفسهم: لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبدًا!!

والمسلمون الذين مُنعوا من أداء النسك في السنة السادسة، تمكّنوا من أدائه في السنة السابعة، ثم دخلوا مكة فاتحين لها في السنة الثامنة.

وقد حُتمت السورة ببيان خواص الأمة التي تريد النصر على عدوها فهم ﴿أَشَدَّاءَ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءَ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [٢٩].

فإذا انتقلت هذه الخواص إلى غيرنا، فكيف يقترب النصر منا؟

(١) يُنظر: «سيرة ابن هشام» (٣/٣٥٥) وما بعدها، و«البداية والنهاية» لابن كثير (٤/١٧٣) وما بعدها، و«صحيح البخاري» (٥/٢٢٤١) و (٧/٣٤٨) وغيرها من كتب الحديث والسير بألفاظ مختلفة.

سُورَةُ الْحُجُرَاتِ (٤٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الحجرات) هي السورة التاسعة والأربعون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المئة في ترتيب النزول، وقد نزلت سنة تسع من الهجرة في وفد بني تميم، بعد سورة (المجادلة) قبل سورة (التحریم).

وهي ثمانی عشرة آية باتفاق، وثلاث مئة وثلاث وأربعون كلمة.

وألف وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً.

وتسمى سورة (الحجرات) لذكر هذا اللفظ فيها، وقد تُسمَّى سورة (الأخلاق)؛ لما تضمنته من قواعد التربية الصحيحة، وأُسِّس السلوك والحضارة الرفيعة.

وهي سورة مدنية باتفاق.

ومن قواعد التربية في السورة أنها تعلِّم المسلم الأدب مع الله تعالى، والأدب مع رسول الله ﷺ، وأدب الإنسان مع نفسه، في هواجس ضميره، وحركات جوارحه، وفي أدبه مع غيره من الناس؛ كي يكون المرء نقي القلب، نظيف المشاعر، عَفَّ اللسان، عَفَّ السريرة.

وفي السورة خمسة نداءات موجهة للمؤمنين، تتضمن أمهات الفضائل ومكارم الأخلاق:

النداء الأول: أدَّب الله تعالى به المؤمنين تجاه ربهم، وتجاه رسوله ﷺ، فلا يُقدِّمون شريعة على شريعة الله، ولا يُرمون أمراً، أو يُبدون رأياً، أو يَقْضون حُكماً على حكم الله تعالى، وهذا ما تضمنته الآية الأولى.

النداء الثاني: فيه أدب خاص مع رسول الله ﷺ، فلا يرفعون أصواتهم على صوته ﷺ في شريعته ومنهجه، ولا يعلو أصواتهم على صوته ﷺ وهو حي، ولا عند قبره وهو ميت، ولا يذكرون اسمه بينهم كما يذكر كلُّ منهم الآخر، بل يُجلُّونه ويوقِّرونه، ولا ينادونه باسمه المجرد، وهذا ما تضمنته الآية الثانية.

الداء الثالث: يؤدب الله فيه المؤمنين أدبًا عامًا، تقوم عليه دعائم المجتمع الفاضل، فيأمرهم بالتثبت من الأقوال والأخبار، لاسيما إن صدرت عن شخص متهم، وهذا ما تضمنته الآية السادسة.

الداء الرابع: يحذر الله فيه المؤمنين من السخرية، والهمز واللمز والتنازير بالألقاب، فإن في ذلك تقطيعًا لأواصر الأخوة، وانتقاصًا من شأن الآخرين، وقد يكونون عند الله تعالى خيرًا ممن سخرؤا منهم، وهذا ما تضمنته الآية الحادية عشرة.

الداء الخامس: يحذر الله فيه المؤمنين من سوء الظن؛ فإن الظن أكذب الحديث، وينهى عن التجسس، وتتبع عورات المؤمنين؛ فإن من تتبع عورة أخيه تتبع الله عورته حتى يفضحه في جوف بيته، وينفر في هذا النداء من الغيبة، ويشبه المغتاب بمن ينهش لحم أخيه الميت ويأكله، وفيه وجوب مجانبة أخلاق الكافرين والفاسقين.

وفي هذه النداءات الخمسة، إما أن يكون العبد مع الله ورسوله، وإما أن يكون مع غيرهما من أبناء جنسه، وهم على قسمين: إما أن يكونوا من أهل الطاعة، وإما من أهل الفسق، وأهل الطاعة إما أن يكونوا حاضرين معهم، وإما أن يكونوا غائبين عنهم.

فهذه خمسة أقسام، وحاصلها فيما يأتي:

أولًا: وجوب الطاعة والانقياد لأوامر الله ورسوله، وعدم التقدم عليه بقول أو فعل أو رأي ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾.

ثانيًا: احترام الرسول ﷺ وتعظيم شأنه ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾.

ثالثًا: وجوب التثبت من الأخبار ﴿إِنْ جَاءَكُمُ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾.

رابعًا: النهي عن السخرية بالناس، وعن اللمز والتنازير بالألقاب.

خامسًا: النهي عن التجسس والغيبة وسوء الظن.

وبعد هذه النداءات الخمسة يأتي نداء عام للإنسانية جميعًا ليتبين للناس أن أصلهم واحد، يجب أن يتعاونوا ويتآلفوا، وهم عند الله سواء، لا يتفاضلون إلا بالتقوى.

وفي أثناء هذه النداءات دعوة إلى الصلح بين المتخاصمين، وردّ الباغي عن بغيه، وكأن

الآية التاسعة من السورة تشير إلى أنه ينبغي أن توجد محكمة عدل إسلامية للقيام بالصلح بين كل فريقين اختصما من المسلمين.

وأن يوجد جيش إسلامي موحد ليقوم بردع الفئة الباغية، والدفاع عن حوزة الإسلام والمسلمين، والتصدي لدفع الصائل على كل دولة إسلامية، ولتأمين نشر الدعوة في كل مكان من العالم.

وفي العالم أناس مسلمون بالهوية، أميون في أحكام الإسلام وآدابه، شأن الأعراب الذين لم يتمكن الإيمان من قلوبهم، وهؤلاء بحاجة إلى تدعيم إيمانهم والتوجه نحوهم بالقول الرشيد والحكمة السديدة، وتأليف قلوبهم لتقوية عرى الإسلام فيها، حتى ينخرطوا في سلك الذين آمنوا بالله ورسوله، ثم لم يرتابوا، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، فليس الإسلام كلمة تقال، ولا أمني تُمنى، والله تعالى يعلم ما ظهر وما بطن، يرى مكاننا، ويطلع على أحوالنا.

وآيات سورة (الحجرات) الثماني عشرة اشتملت على لفظ الجلالة ثمان وعشرين مرة بما فيها البسملة، وجاء ذكرها ثلاث مرات في الآية الواحدة أحياناً، كما في الآية الأولى والآية السادسة عشرة.

وحزب المفصل من القرآن الكريم يبدأ من سورة (الحجرات)، أو من سورة (ق) على خلاف في ذلك، وعلى وجازة هذه السورة فهي سورة جليلة ضخمة، تتضمن حقائق كبيرة من حقائق العقيدة والشريعة، ومناهج التنظيم، وقواعد التهذيب والتوجيه، وهي تهدف إلى قيام مجتمع راقٍ ينتسب إلى الله ورسوله، بقلب نقيّ ولسان عفٍّ، متأدّب بأدب الإسلام مع نفسه ومجتمعه في غياب أفراد وحضورهم، فلا يجرح مشاعرهم، ولا يؤاخذهم بظن، ولا يتتبع عوراتهم، ولا يمسّ كرامتهم وحرّيتهم، ولا يحقرّ ضعيفهم ولا فقيرهم، ويحترم صغيرهم، ويوقّر كبيرهم..

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع:

١- فالآيات الخمس الأول تتضمن حسن الأدب مع الله ورسوله، فلا يقدم العبد أمراً ولا نهياً ولا حكماً ولا قضاءً ولا اقتراحاً على أمر الله ورسوله، ولا يجعل لنفسه ولا

لغيره رأيًا يخالف تعاليم الله ورسوله، مع لزوم الأدب وحسن التلقي والتوقير والتبجيل.

٢- وفي الآيات الثماني بعد هذه الخمس، جملة توجيهات إسلامية للمجتمع النظيف الحضاري، وهذه التوجيهات تتمثل في: وجوب التثبت من الأخبار قبل الحكم عليها، ووجوب الصلح بين المتخاصمين من الأفراد والجماعات والأمم الإسلامية، واحترام بعضهم لبعض، فلا يسخر أحد من أحد، ولا ينتقص أحد أحدًا لا بالإشارة، ولا عن طريق غمز، ولا لمز، ولا سوء ظن، ولا كلمة في غياب أخيه أو حضوره.

وتشير الآية الأخيرة في هذا المقطع إلى وحدة الإنسانية على مختلف أجناسها وشعوبها، فهم جميعًا على قدم المساواة، ذكورًا وإناثًا، أثرياء وفقراء، حكماء ومحكومين، ضعفاء وسادة، لا يتمايزون عند الله إلا بالتقوى والعمل الصالح.

٣- والآيات الخمس الأخيرة تبين أن الإسلام ليس كلامًا يقال باللسان، ولا أمانيًا، أو ادعاءات يدّعيها العبد دون أن تكون لها حقيقة واقعية، ومن هنا تُبين الآيات حقيقة الإسلام والإيمان، وتذكر شروط الإيمان الكامل الذي يجمع بين إخلاص التوحيد ودعمه بالعمل الصالح، والجهاد في سبيل الله، وطاعة الله والرسول، فإن خذل بعض الناس الإسلام، وتركوا شمائله، وضعف يقينهم في الأزمات، فليسوا بمسلمين، وهم ممن ينتمون إلى الإسلام ولا يلبثون له نداء، ولا يؤازرونه في محنة، والله تعالى يعلم الحقائق، ولا يغيب عنه شيء، وهو بصير بعباده، مطلع على نواياهم، محيط بأقوالهم وأفعالهم.

سُورَةُ ق (٥٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (ق) هي السورة الخمسون في ترتيب المصحف، والرابعة والثلاثون في ترتيب النزول.

عن جابر بن زيد: أنها نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة البلد.

ومعظم السور التي نزلت قبلها كانت من قصار السور في الجزء الثلاثين.

وسورة (ق) خمس وأربعون آية باتفاق، وثلاث مئة وسبع وخمسون كلمة.

وألف وأربع مئة وأربعة وتسعون حرفاً.

وهي من السور التي سُمِّيت بأسماء الحروف التي في أولها لانفرادها بها، فلا تلتبس بغيرها، مثل: طه، يس، ص، ن، وتسمى سورة الباسقات لذكر هذا اللفظ فيها.

وهي سورة مكية كلها، واستثنى بعضهم^(١) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ فقالوا: إنها مدنية، نزلت ردًّا على اليهود في قولهم: إن الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام، واستراح يوم السبت.

قلت: ولا يلزم أن يكون هذا قد حدث بعد الهجرة؛ لأن أهل مكة كانوا يسألون اليهود في المدينة بعد البعثة عن أمر النبوة والأنبياء عن طريق المسافرين إليها منهم، وهذه الآية من هذا القبيل، ولها نظائر نزلت بمكة مما يتعلق باليهود، فقد كانت بين أهل مكة ويهود المدينة اتصالات وتجارات ومقابلات.

وقد يُعَلِّمُ الله نبيه ﷺ عن طريق الوحي ما كان يتحدث به أهل مكة قبل الإسلام، وما يتلقَّونه من القصص والأخبار عن يهود المدينة...

وقد ورد في (سورة ق) جملة من الأحاديث، من ذلك:

١- أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأل أبا واقد الليثي رضي الله عنه: ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في

(١) كما في القرطبي و«الإتقان» عن ابن عباس والضحاك وقتادة.

العيد؟ قال: ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾، واقتربت^(١).

٢- وعن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنه قالت: لقد كان تتورنا وتثور النبي ﷺ واحداً سنتين، أو سنة وبعض سنة، وما أخذتُ ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ إلا على لسان رسول الله ﷺ، كان يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس^(٢).

٣- وروى مسلم وغيره، عن جابر بن سمرة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾^(٣).

٤- وقالت خولة بنت قيس الجُهَنِيَّة: كنت أسمع خطبة رسول الله ﷺ يوم الجمعة، وأنا في مؤخرة النساء، وأسمع قراءته ﴿قَدْ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ على المنبر، وأنا في مؤخرة المسجد^(٤).

لقد انتقشت كلمات سورة (ق) في أذهان من سمعوها من فم النبي ﷺ وهو يخطب بها يوم الجمعة، وثبتت في أذهانهم بالتكرار، ثم تحولت إلى خُلُق وعبادة ومنهج حياة.

فقد كان ﷺ يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار -كالعيد والجمع- لاشتمالها على بدء الخلق وإعادته، والحساب والجزاء، والجنة والنار، والترغيب والترهيب.

والمحور الذي تدور حوله السورة هو البعث والنشور، وهي تسوق في أولها جملة من الآيات الكونية الدالة على وحدانيته تعالى، بعد أن تُقرر تعجب المكذبين المنكرين لرسالة محمد ﷺ، وهذه الأسس الثلاثة: التوحيد، والرسالة، والبعث، هي منهج السور المكية وخصائصها.

(١) «المسند» (٢١٧/٥) (٢١٨٩٦، ٢١٩١١) حديث صحيح، و«صحيح مسلم» برقم (٨٩١) وأبو داود برقم (١١٥٤) والترمذي برقم (٥٣٤، ٥٣٥) والنسائي (١٨٣/٣) (١٥٦٦) وابن ماجه برقم (١٢٨٢) والنسائي في «الكبرى» (١١٥٥٠، ١١٥٥١).

(٢) «المسند» (٤٣٥/٦) (٢٧٤٥٦، ٢٧٦٢٨) حديث صحيح، و«صحيح مسلم» برقم (٨٧٣) وأبو داود برقم (١١٠٠) والنسائي: (١٥٧/٢) برقم (١٤١٠) وفي «الكبرى» (١٧٢٠) وابن أبي شيبه (١١٥/٢) والبيهقي (٢١١/٣).

(٣) «صحيح مسلم» (٤٥٨) وابن أبي شيبه (٣٥٣/١) ومن حديث قطبة بن مالك في مسلم (٤٥٧) وابن ماجه (٨١٦).

(٤) أخرجه ابن سعد (٢٩٦/٨).

أغراض السورة: تبدأ السورة بالقسم على أن القرآن حق، وبالتالي فإن الرسالة حق، ثم تذكر تعجب الكفار من أمرين:

الأول: أن يكون الرسول بشراً منهم.

الثاني: العودة إلى الحياة بعد الموت.

بالإضافة إلى دلائل وحدانية الله تعالى في الكون، وهذه الوحدانية هي الأمر الثالث الذي يتعجب منه الكفار الملحدون، وإليك بيانها في السورة:

أولاً- فيما يتعلق بإنكار الرسالة الخاتمة، وإنكار أن يكون الرسول واحداً من البشر، فقد بدأت السورة بتعجب الكفار من أن يرسل الله إليهم واحداً منهم، وتذكر السورة بأحوال الأمم التي كذبت رسلها وما حلَّ بها من وعيد، مثل قوم نوح، وأصحاب الرس، وثمود، وعاد، وفرعون، وإخوان لوط، وأصحاب الأيكة، وقوم تبع:

﴿كُلُّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ﴾ الآية [١٤].

وكم أهلك الله من الأمم التي كذبت رسلها قبل محمد ﷺ، وكانوا أقوى منهم وأشد بطشاً، ورغم ذلك لم يكن لهم مفرٌّ من عقاب الله لهم. الآية [٣٦].

ومن ثمَّ يأمر الله تعالى رسوله ﷺ بالصبر على تكذيبهم، وأن يستعين على ذلك بالصلاة قبل طلوع الشمس وقبل الغروب، وفي جوف الليل البهيم، ويكثر من التسبيح في أدبار السجود، وذلك في الآيتين التاسعة والثلاثين والأربعين.

ثانياً- وفيما يتعلق بالبعث والنشور، فإن لهذه السورة طابعاً خاصاً، يهزُّ القلب هزاً، ويرجُّ النفس رجاً، ويثير روعة الإعجاب، ورغشة الخوف، فهي شديدة الوقع على الحس، مع البرهان الناصع، والحجة الدامغة على إحياء الموتى، ومن ذلك:

(أ) قياس إعادة الخلق بعد الموت على خلق السموات والأرض، وهما أكبر من خلق الإنسان، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية [٣٨].

(ب) وقياس إعادة الناس بعد موتهم على إحياء الأرض بالنبات والزرع بعد موتها قال تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ الآية [١١].

(ج) وقياس الإعادة على البدء كما في قوله تعالى: ﴿أَفَعَبْنَا بِالْحَلْقِ الْأَوَّلِ﴾ الآية [١٥].

وجاء الحديث عن البعث والنشور في السورة عند الحديث عن النفخ في الصور، وحضور الإنسان بعد بعثه مع سائق يسوقه، وشاهد يشهد عليه يوم القيامة.

وعند تفصيل مشاهد القيامة تظهر الخصومة بين القرين وقرينه، فيقول القرين:

﴿رَبَّنَا مَا أَطَفَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ الآية [٢٧].

ثم تأتي صفات أهل الجنة وجزاؤهم، وصفات أهل النار وجزاؤهم، فجهم تقول لأهلها: هل من مزيد؟ والجنة تُقَرَّبُ لأهلها غير بعيد، بالإضافة إلى ذُكْر سكرات الموت والحساب، وما يلقيه المجرم في هذا اليوم العصيب.

إن الموت عند كثير من الناس هو نهاية الوجود، ولذا: فليس للآخرة حساب في حياتهم، وستنتهي الدنيا حتمًا، وتقع المفاجأة التي لم يُحسب لها حساب:

﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ الآية [٢٢].

وسوف يحصد الناس ثمرة ما قدّموا، فيأتي الكافر ومعه الملك الذي أحصى عليه أعماله ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنِي﴾ الآية [٢٣].

وهنا يقول قرينه من الشياطين الذي كان يُغويه ويضله في الدنيا: ﴿رَبَّنَا مَا أَطَفَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ لقد كان قريني فاسدًا ضالًّا قبل أن أقوم بوظيفة الإغواء وتزيين الشر له.

ومع أن الدنيا دار ابتلاء إلا أن الله تعالى قد يُعَجِّل فيها بعض العقوبات للمجرمين؛ كي يرتدع الطغاة، ويثوبوا إلى رشدهم ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِّنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا﴾ الآية [٣٦].

وعن أمثال هؤلاء الطغاة يقول تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ﴾ الآية [١٣١]. [التوبة].

ثالثًا - وعن دلائل التوحيد، تُلَفِّت السورة أنظار الملحدين إلى عظيم قدرة الله تعالى في الكون المنظور: من السماء والأرض، والماء والنبات، والثمر والطلع، والنخيل والزرع، وكلها براهين ناطقة بوحداية الخالق سبحانه ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ [الآيات: ٦-٨].

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمته الله: وقد تدبرْتُ هذه الأدلة، وأنا أرقُب الطعام الذي أتناوله، إن بعضاً منه يتحول إلى طاقة ترفع حرارة الجسم، كيف؟ لا أدري! وبعضٌ آخر يتحول إلى خلايا تسري فيها الحياة، ويتكون منها العظم واللحم، وتزدحم فيها خصائص الأجداد والأحفاد، كيف؟ لا أدري!!

ويصف علماء الحياة، الخلية بأنها: كائن يشبه مدينة بها ميادين، وبها حارات، وبها أسلاك كهرباء، ومواسير مياه!! مع أن الخلية لا تُرى بالبصر المجرد.

والجزء الباقي من الطعام يعود (بالصرف الصحي) إلى الأرض ليخرج منها مرة أخرى كيزان ذرة، أو سنابل قمح، أو شماريخ بلح، يأكلها الإنسان، ويجدد القصة التي شرحناها آنفاً! ففي كل جسدٍ موت ونشور، يتكرران في كل ساعة من ليل أو نهار، فهل أستغرب إذا قال الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْوَعْدَ الْوَعْدَ الْمَجِيدِ﴾ ﴿١١﴾ لتبعثن؟! لماذا تكون إعادة الخلق عجيبة؟ أليس هو الخالق الأول؟ إن في كل لحظة بعثاً، ولكن الكافر بليد ذاهل^(١).

وخُتِمت السورة بالحديث عن صيحة الحق التي يخرج الناس بها من القبور كأنهم جراد منتشر، ثم يُساقون للحساب والجزاء، لا يخفى على الله منهم أحد.

هذا: والموضوع الذي تتناوله سورة (ق) هو ترسيخ الإيمان باليوم الآخر، وما فيه من بعث وحشر ونشر وحساب وجنة ونار في نفوس الناس.

ويمكن تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع:

المقطع الأول: يتحدث عن المكذبين بالبعث والنشور والرد عليهم، وذلك في الآيات الخمس الأولى.

المقطع الثاني: يذكُر بعض الأدلة الكونية على إمكانية البعث، منها: السماء والأرض والجبال والنبات والنخيل، وذلك في الآيات من ٦-١١.

المقطع الثالث: ذكُر مصير الأقوام الذين كفروا بالله ورسوله، ولم يؤمنوا بالبعث والجزاء، كقوم نوح، وأصحاب البئر، وقوم عاد وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة

(١) «نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم» ص ٤٠٧ بتصرف.

وقوم تبع، وجاء هذا في آيات ثلاث من الآية ١٢ - ١٤.

المقطع الرابع: يتحدث عن أهوال يوم القيامة بدءًا بالخلق الجديد، وقُرْب الله تعالى إلى العبد من حبل وريده، وتسجيل الحفظة لأقوال الإنسان وأفعاله، ومن ثم إلى سكرات الموت، وحدث علامات الساعة الكبرى، وإتيان الملائكة بالعبد إلى ساحة المحشر، وهو بين السائق والشهيد، وشهادة القرين عليه، ثم إلى المصير المحتوم، الجنة أو النار، نسأل الله السلامة.

وفي **المقطع الخامس والأخير:** وهو من الآية (٢٦-٤٥) تذكرة وعبرة لأهل القرون الغابرة واللاحقة، وتسليّة للنبي ﷺ، وختامًا للسورة بما بدأت به من الحديث عن يوم القيامة، وبيان مهمة النبي ﷺ أنه مذكّر بهذا القرآن من خاف وعيد الله تعالى، وليس بمجبر لأحد على الهداية، وهذا ختام السورة.

حزب المفصل من القرآن الكريم:

وسورة (ق) هي أول حزب المفصل في القرآن الكريم على الصحيح:

عن عمر بن الخطاب أن النبي ﷺ قال: «من نام عن حزبه أو عن شيء منه فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كتب له كأنما قرأه من الليل»^(١).

والمراد بالحزب: المقدار الذي يقرأه كل ليلة قليلًا أو كثيرًا.

وعن واثلة بن الأسقع ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أعطاني السبع الطوال مكان التوراة، وأعطاني المئين مكان الإنجيل، وأعطاني مكان الزبور المثاني، وفضلني ربي بالمفصل»^(٢).

والمثون: هي ما ولي الطوال؛ وسميت كذلك لأن كل سورة منها تزيد على مئة آية.

(١) صحيح مسلم (٧٤٧) وصحح ابن حبان (٢٦٤٣) وصحح ابن خزيمة (١١٧١) وأبوداود (١٣١٣) وابن ماجه (١٣٤٣) والترمذي (٥٨١) والنسائي في الكبرى (١٤٦٤).

(٢) «المسند» (١٠٧/٤) (١٦٩٨٢) قال محققوه: إسناده حسن، والطبري (١٠٠/١) (١٨٧) عن واثلة بن الأسقع و«مجمع الزوائد» (١٥٨/٧) والطبراني (١٨٧) والبيهقي (٢٤٨٤، ٢٤٨٥) و«صحيح الجامع الصغير» (١٠٧٠) وجاء في الحديث عن ثوبان وأبي أمامة وأبي قلابه.

والمثاني: ما وَلِيَ المئين، وهي دون المئة آية.

والمفصل: ما وَلِيَ المثاني، وُسِّمِي مَفْصَلًا لِقَصْرِ سورهِ، وكثرة الفصل بين كل سورتين بالبسملة.

وفي حديث أوس بن حذيفة رضي الله عنه: أن النبي ﷺ كان يأتي على وفد ثقيف -عام الوفود- كل ليلة بعد العشاء يحدثهم، فأبطأ ليلة عن الوقت الذي كان يأتي فيه، فقالوا للنبي ﷺ: لقد أبطأت عنا الليلة؟ قال: «لأنه طرأ عليَّ حزبي من القرآن، فكرهتُ أن أجيء حتى أتمّه».

قال أوس: سألت أصحاب رسول الله ﷺ: كيف تُحزَّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل ^(١).

فهذه سبعة أقسام لسور القرآن الكريم في حديث (أوس)، وفي حديث (واثلة) قبله أربعة أقسام، وكلاهما تقسيم نبوي لسور القرآن الكريم، وهما من حالات المدة التي يستحب فيها ختم القرآن الكريم.

فتقسيم سور القرآن كما في الحديث الأول هكذا:

١- السبع الطوال: من البقرة إلى آخر الأعراف، والأنفال مع التوبة.

٢- المئون: من يونس إلى الأنبياء، وهي ما فوق المئة آية غالبًا.

٣- المثاني: من الحج إلى الحجرات. ٤- المفصل: من (ق) إلى الناس.

وهذا لمن ختم القرآن في أربع ليال.

أما التقسيم على الحديث الثاني فهو كالاتي:

١- ثلاث: البقرة وآل عمران والنساء. ٢- خمس: من المائدة إلى براءة.

٣- سبع: من يونس إلى النحل. ٤- تسع: من الإسراء إلى الفرقان.

٥- إحدى عشرة: من الشعراء إلى يس.

(١) أبو داود برقم (١٣٩٣) وابن ماجه برقم (١٣٤٥) و«المسند» (٩/٤) برقم (١٦١٦٦) عن أوس بن حذيفة بسند ضعيف كما قال محققوه، وابن أبي شيبة (٥٠١/٢) والطيالسي (١١٠٨) والبخاري في التاريخ الكبير (١٥٣٩)، وضعفه الألباني في «ضعيف سنن أبي داود» (٢٩٧).

٦- ثلاث عشرة سورة: من الصافات إلى الحجرات.

٧- المفصل: وهو ثلاثة أقسام:

(أ) من قاف إلى النبأ. (ب) ومن النازعات إلى الليل. (ج) ومن الضحى إلى الناس. وتقسيم القرآن إلى سور على النحو المذكور، تقسيم نبوي توقيفي.

وقد وردت أحاديث تشير إلى استحباب ختم القرآن في شهر.

كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «... اقرأ القرآن في كل شهر»^(١).

وقد تم تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع في زمن التابعين حيث قام به نصر بن عاصم بأمر الحجاج بن يوسف، ولكنه تقسيم حرفي لا يراعي المعنى.

ولنا عليه بعض الملحوظات بما يتم ربط المعنى من حيث القطع والبدء^(٢).

(١) «التجريد الصريح» ص ١٣٦ ومسلم بشرح النووي (٤٢/٨) وأحمد كما في «صحيح الجامع» (١١٦٨).
(٢) يُنظر هذا المبحث في الجزء الأول من كتابي «فن الترتيل وعلومه» ويُنظر تقسيم كامل للقرآن كله بالجزء والحزب والربع وفق المعنى في كتابي «تيسير علم التجويد». الطبعة الثالثة.

سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ (٥١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الذاريات) هي السورة الحادية والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والستون في ترتيب النزول، كما ورد عن جابر بن زيد.

نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

وسميت بسورة الذاريات؛ لأن هذه الكلمة لم تقع في غيرها من السور، وبعضهم^(١) يُثبت فيها الواو، على حكاية لفظ القرآن، وجمهور المفسرين على حذفها.

وهي سورة مكية باتفاق، وعدد آياتها: ستون آية باتفاق.

وعدد كلماتها: ثلاث مئة وستون كلمة، وعدد حروفها: ألف ومئتان وتسعة وثلاثون حرفاً.

والسورة تتحدث عن اليوم الآخر، وعن دلائل القدرة والوحدانية، وعن الوحي والرسالة، وهذه القضايا الثلاث هي عناصر القرآن المكي.

وتبدأ السورة بالقسم بأربعة من القوى الإلهية، من جنود الله تعالى في أرضه، وهي: الرياح، والسُّحُب، والسُّفُن، والملائكة المعبَّر عنها بـ: الذَّارِيَّاتِ، وَالْحَامِلَاتِ، وَالْجَارِيَّاتِ، وَالْمُقَسَّمَاتِ، وهذا القسم على أن البعث والنشور كائن لا محالة.

﴿إِنَّمَا نُوَدِّعُ لَصَادِقٌ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّ إِلَيْنَ لَوُفْعٌ ﴿٥١﴾﴾ .

ثم يُقسم الله تبارك وتعالى ثانية بالسماء المحبوبة، على أن المكذبين باليوم الآخر وبالرسول الخاتم، يتخبطون في أقوالهم المنكرة للبعث والرسالة، ثم تذكُر السورة مصير كل من المكذبين والمصدقين يوم لقاء الله، وتذكُر المؤهلات التي أهَّلت المتقين للنعيم المقيم.

وتسوق جانباً من الآيات الكونية التي يُستدل بها على وحدانية الله تعالى في سمائه وأرضه وجباله ووهاده، وفي خلق الإنسان وإبداع صورته.

(١) كالبخاري وابن عطية والقرطبي.

وتبيّن السورة أنه ينبغي على العبد أن يتخلص من تعلّق القلب بالبحث عن الرزق؛ كي يخلص إيمانه بالله تعالى.

وفي مقام الاستدلال على صدق النبوة، تذكّر السورة عددًا من رسل الله تعالى، وتوجز ما حلّ بأهم هؤلاء الرسل، من العذاب والهلاك، فتذكّر طرفًا يسيرًا من قصة كلّ من: إبراهيم، ولوط، وموسى، وما حلّ بقوم نوح، وعاد، وشمود، لَمَّا كذبوا رسل الله.

وتُختم السورة ببيان الغرض الذي خلق الله الإنس والجن من أجله، وهو أن يتعرفوا على رب الأرض والسماء، فيخصّصوه بالعبادة، ويُفردوه بالطاعة، ويُخلصوا له التوحيد، ولا يَكُنْ همهم طلب الرزق؛ فإن في هذا رفقًا وأسرًا للقلوب، وعليهم أن يتخلّصوا من هذا الرقّ والأسر، فقد ضَمِنَ الله رزقهم، وتكفّل به وهم في بطون أمهاتهم، وبعد طرُق الأسباب لا يأتيهم منه إلا ما قُدِّرَ لهم، وشدة الحرص عليه تضر ولا تنفع.

ويلحظ القارئ أن في هذه السورة ثلاثة مقاطع:

فالمقطع الأول: من أولها إلى الآية الثالثة والعشرين منها، وهذا المقطع يتضمن القسم خمس مرات على أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال والأقوال حق وصدق، وأن ما جاء به محمد ﷺ حق وصدق، وأن أقوال الناس في ذلك مضطربة، ولا يُصرف عن هذا الوحي المنزل إلا من حُرِمَ السعادة، وصُرف عن الهداية، من كل مُكذِّب بالقرآن والدار الآخرة، وهم لن يفيقوا من غفلتهم إلا حين يُعرضون على النار، ويقال لهم: ﴿ذُوقُوا فَنَّتَكُمْ﴾....

أما المتّقون الذين يقومون الليل، ويستغفرون بالأسحار، ويتصدقون ببعض أموالهم، فهم في دار الكرامة والنعيم، يُنعمون بما آتاهم ربهم ونجّاهم من عذاب السموم.

ويلفت السياق أنظار الخلق إلى دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، فهو مَقْطَع يشتمل على عناصر القرآن المكي الثلاثة، ففي الآيات من ١-١٤ حديث عن يوم القيامة ونعيم المتقين، وفي الآيات من ١٥-٢٣ بعض دلائل التوحيد، والذي أخبرنا بهذا هو الوحي المنزل على محمد ﷺ.

أما المقطع الثاني: فهو من الآية الرابعة والعشرين إلى الآية السادسة والأربعين، وقد

اشتمل هذا المقطع على إشارات وجيزة إلى ستة من رسل الله تعالى، اقتصرَت فيها السورة على بيان العبرة المستفادة من هلاك كل أمة من هذه الأمم بما يناسب المقام من قِصر السورة وما يراد منها، وكونها من المفصل.

أما المقطع الثالث والأخير: فهو من الآية السابعة والأربعين إلى نهاية السورة، وهو يعود على ما بدأت به السورة لدعم دلائل التوحيد في النفس والأرض والسماء، ووجوب الفرار إلى الله تعالى بتوحيده ونبذ الشرك وأهله، وأنه تعالى قد خلق الخلق لعبادته، وفيه تفنيد مزاعم مَنْ وَصَفَ الرسول ﷺ بالسحر أو الجنون...، وبيان ما ينتظر المكذِبين بالله ورسوله من نصيبهم في العذاب الأخروي، كما استحقَّه مَنْ سبق ذِكرهم في السورة من الأقوام الذين كذبوا رسل الله تعالى.

فهذا المقطع والمقطع الأول يدوران في فلك واحد هو مقصود السورة، من التركيز على جانب التوحيد واليوم الآخر والإيمان بخاتم المرسلين، والمقطع الذي بينهما فيه الأمثلة الحية ووسائل الإيضاح المفسرة لمصير من مات على كفره وشركه بالله تعالى ولم يتبع ما جاء به محمد ﷺ.

سُورَةُ الطُّورِ (٥٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الطور) هي السورة الثانية والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (نوح) وقبل سورة (المؤمنون).

وسميت سورة الطور لورود لفظ الطور فيها معرّفًا دون غيرها.

وعدد آياتها عند أهل الشام والكوفة تسع وأربعون آية^(١).

وعدد كلماتها ثلاث مئة واثنان عشرة كلمة، وعدد حروفها ألف وخمسة مئة حرف.

وهي سورة مكية باتفاق، وكان النبي ﷺ يقرأ بها كثيرًا في صلاته:

١- فعن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا -أو قراءة- منه^(٢).

٢- وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: شكوت إلى رسول الله ﷺ أنني أشتكي، فقال:

«طوفي من وراء الناس، وأنت راكبة» فطفئت ورسول الله ﷺ يُصَلِّي إلى جنب البيت، يقرأ بالطور وكتاب مسطور^(٣).

٣- وقد أسلم جبير بن مطعم لما سمع النبي ﷺ يقرأ بسورة الطور، فقد قدم جبير من مكة إلى المدينة بعد غزوة بدر، ليفاوض النبي ﷺ في شأن أسرى المشركين الذين عنده، وكان جبير مشركًا، فوقف خارج المسجد، والمسلمون اصطَفُوا وراء نبيهم لصلاة المغرب، واستمع إلى سورة الطور، فتغيرت نفسه، واهتزَّ الشرك في ضميره، وأحسنَّ كأن

(١) وعند أهل المدينة ومكة سبع وأربعون آية، وعند أهل البصرة ثمان وأربعون آية.

(٢) «صحيح البخاري» برقم (٧٦٥، ٤٨٥٤) و«صحيح مسلم» برقم (٤٦٣) ومالك (٨٧/١) وأحمد (١٦٧٣٥، ١٦٧٨٣) و«سنن النسائي الكبرى» (١٠٦٢) وابن حبان (٨١٣٣).

(٣) «صحيح البخاري» بأرقام (٤٦٤، ١٦١٩، ٤٨٥٣) و«صحيح مسلم» برقم (١٢٧٦) وأبو داود (١٨٨٢) وابن ماجه (٢٩٦١) و«سنن النسائي الكبرى» (١١٤٦٤، ٣٨٨٩) و«المسند» (٢٦٤٨٥) وابن حبان (٣٨٣٠).

الوحي المثلث يسحق بقايا الكفر في نفسه، ويكتسحها اكتساحاً.

قال جبير: سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣٥) كاد قلبي أن يطير^(١).

٤- وفي رواية قال: قدمت المدينة على رسول الله ﷺ لأكلمه في أسارى بدر، فذُفِعَتْ إليه وهو يصلي بأصحابه صلاة المغرب، فسمعتة يقرأ: ﴿وَالطُّورِ﴾ (١) إلى قوله: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ (٨) فكانما صدع قلبي... فأسلمت خوفاً من نزول العذاب! وما كنت أظن أن أقوم من مقامي حتى يقع بي العذاب^(٢).

لقد ترك الرجل عبادة الأوثان، وأسلم من فوره، وما أكثر الذين أخرجهم القرآن من الظلمات إلى النور!

والمحاور التي تقوم عليها السورة: هي غرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، والإيمان باليوم الآخر، والمحور الثالث: هو الإيمان بالنبي الخاتم، وهذه المحاور الثلاثة، هي موضوعات السور المكية، التي تلزم لمن لم يدخل في الإسلام، ومن هم حديثو عهد به في كل زمان ومكان، حيث يبدأ الداعية معهم بهذه الأصول الثلاثة، ثم تأتي مرحلة التكليف الشرعية، والأوامر والنواهي:

١- وتبدأ السورة بما يتعلق بالبعث والجزاء، فَتُقَسِّمُ بِخَمْسَةِ مِنْ عَظِيمِ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى، هي: جبل الطور، والتوراة التي نزلت فيه، والبيت المعمور، والسماء، والبحر المسجور على أن عذاب الله تعالى كائن لا محالة، وليس هناك ما يدفعه، وهو افتتاح مرهوب، يبعث على الخوف الشديد من عذاب أهل الجحيم، وأهوال الآخرة وشدائدها ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾ (٧) مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ (٨).

٢- ثم تُقَسِّمُ السورة الناس إلى قسمين:

الكفار المكذبين بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية الأولى إلى الآية السادسة عشرة، وهم أهل النار.

(١) البيهقي في «الأسماء والصفات» (٨٣٤)، والحديث في صحيح البخاري (٤٥٧٣).

(٢) يُنظَرُ هذا المعنى في: «صحيح البخاري» برقم (٤٨٥٤) و«المسند» (١٦٧٦٢، ١٦٧٨٥).

والمتمقين الأبرار، المؤمنين بالله ورسوله واليوم الآخر، وذلك من الآية السابعة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين وهم أهل الجنة.

فتتحدث آيات السورة أولاً: عن عذاب أهل النار في مشهد يزلزل ويرعب، فيه ويل وهول وفزع، ترجف له القلوب، وترتعب منه النفوس ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ (١٣) هَذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾.

وتتحدث آيات السورة ثانياً: عن نعيم المتقين، وأنواع السعادة التي أعدها الله لهم في الآخرة، وإلى من يرقى معهم في درجاتهم من زوجاتهم وذرياتهم من أهل الإيمان، من كل ما فيه أمن وأمان، وسعادة ورضوان.

٣- ويأتي الأصل الثاني بالحديث عن خاتم الرسل ﷺ وفيه الأمر من الله تعالى بالتذكير وإنذار الكفار، وألا يعبأ بما يقوله المكذبون الضالُّون، وفيه إبطال مزاعمهم المفتراة على النبي ﷺ، وهذا من الآية التاسعة والعشرين إلى الآية الرابعة والثلاثين.

٤- ثم تتحدث آيات السورة عن جانب التوحيد من الآية الخامسة والثلاثين إلى الآية السابعة والأربعين في مناظرة عقلية مع الكافرين، لا يملك معها كل ذي لب سليم إلا أن يقول: آمنت بالله رب العالمين.

إنها سورة تُبطل الشُّبُهَة والأضاليل، وتدحض الحجج والمعاذير، وتعرض الحقيقة بارزة واضحة بمنطق نافذ لا يحتمل التأويل.

٥- وقد جاء في آيات السورة خمسة عشر استفهاماً متعاقباً، كأنها خمس عشرة صدمة كهربائية تنقل المرء من حال إلى حال، وتُرغمه على التفكير في الحال والمآل، ولا يسع الكافر العاقل إلا أن يؤمن بالله تعالى رباً وبمحمد ﷺ نبياً وبالإسلام ديناً، وهذه المناظرة من الآية الثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين، منها جانب يتعلق بالرسالة، وجانب يتعلق بالتوحيد، وفيها دحض لأكاذيب الجاحدين، فتقذف بالحق الذي أوحاه الله إلى رسوله ﷺ على باطل المكذبين المعاندين فإذا هو زاهق، وتسوق ذلك بأسلوب ساحر خلَّاب.

٦- وآيات هذه السورة، ذات تأثير قوي على النفس البشرية، فهي تدحض كل شبهة، وكل عذر، وتُذلل كل عقبة في طريق الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر، فأياتها وفواصلها

كانها قذائف، أو صواعق، أو سياط لاذعة، من البدء إلى الختام، تَرْجُ القلب رجًا، وتُرْعِبُ الحسَّ رُعْبًا، وتهز المشاعر هزًّا، فتنسف الباطل نسفًا، وتُخرس لسان كل مكابر مجادل!

يجد القارئ ذلك في سياط العذاب المسلطة على أهل النار في مطلع السورة، وحلاوة النعيم المعد لأهل الجنة^(١).

يجد القارئ ذلك في هذه السورة وهي تطارد الهواجس والشبهات والأباطيل وتدحضها في استفهامات السورة الخمسة عشر، فتبطل مزاعمهم الفاسدة في شأن نبوة محمد ﷺ، وتردُّ عليهم بالحجج الدامغة والبراهين القاطعة التي تقصم ظهر الباطل، وتقيم الدلائل على صدق محمد ﷺ، وهذه الاستفهامات الخمسة عشر جاءت في قوله تعالى:

- ١- ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّبَرِئُ بِهٖ رَبِّبَ الْمُنُونِ﴾ ﴿٣١﴾.
- ٢- ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلُمُهُمْ بِهَذَا﴾ [٣٢]
- ٣- ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [٣٢]
- ٤- ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ﴾ [٣٣]
- ٥- ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ [٣٥]
- ٦- ﴿أَمْ هُمُ الْخَالِفُونَ﴾ [٣٥]
- ٧- ﴿أَمْ خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [٣٦]
- ٨- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَيْكِ﴾ [٣٧]
- ٩- ﴿أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ﴾ [٣٧]
- ١٠- ﴿أَمْ لَهُمْ سُمٌّ سَمَّ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ [٣٨]
- ١١- ﴿أَمْ لَهُ أَلْبَتَّ وَلَكُمْ الْبُنُونِ﴾ ﴿٣٩﴾.
- ١٢- ﴿أَمْ تَسْتَلْهُمُ أَجْرًا﴾ [٤٠]
- ١٣- ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ﴾ [٤١]
- ١٤- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ [٤٢]
- ١٥- ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [٤٣]

٧- وفي نهاية السورة ترسم مشهدًا محسوسًا يحمل التوبيخ والتقريع لكل معاند مكابر ﴿وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ﴾ ﴿٤٤﴾.

وتختتم السورة بتوجيه النبي ﷺ إلى التسليح بالصبر والتسبيح والصلاة، ففي ذلك العلاج الناجع لتخطي العقبات والتغلب على النكبات.

(١) يُنظر: «في ظلال القرآن» (٦/٣٣٩١).

سُورَةُ النَّجْمِ (٥٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (النجم) هي السورة الثالثة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الإخلاص) وقبل سورة (عبس).

وعدد آياتها اثنتان وستون آية عند أهل الكوفة، وإحدى وستون آية عند بقية علماء العدد.

وهي ثلاث مئة وستون كلمة، وألف وأربع مئة وخمسة أحرف.

وسميت سورة (النجم)؛ لأنها بُدئت بهذا اللفظ، وبعضهم أثبت الواو في أولها، على حكاية لفظ القرآن، كالبخاري والترمذي، وهي سورة مكية باتفاق.

وذكر بعضهم عن ابن عباس وقتادة أن آية ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِنْتِهَاءِ وَالْفَوَاحِشِ﴾ [٣٢] مدنية، وهو سند ضعيف.

قال ابن عطية: سبب نزولها أن المشركين قالوا: إن محمداً يتقوّل القرآن ويختلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك:

أَحَادِيثُ فِي سَجْدَةِ سُورَةِ النَّجْمِ:

١- قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن سورة النجم: هي أول سورة أعلن النبي ﷺ بقراءتها، فقرأها في الحرم، والمشركون يسمعون^(١).

٢- وقال أيضاً: أول سورة أنزلت فيها سجدة سورة ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فسجد رسول الله ﷺ وسجد الناس كلهم، إلا رجلاً رأيته يأخذ كفّاً من تراب فسجد عليه، فرأيتُه بعد ذلك قُتل كافراً، وهو أمية بن خلف^(٢).

(١) أخرجه ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٥/١٤) و«تفسير ابن عطية» (٥/١٥٧) وغيرهما.

(٢) يُنظَر: البخاري بأرقام (١٠٧٠، ٣٨٥٣، ٣٩٧٢، ٤٨٦٣) ومسلم برقم (٥٧٦) وأبو داود برقم (١٤٠٦)

والنسائي (١٦٠/٢) (٩٥٨) مختصراً وابن أبي شيبة (٧/٢).

٣- وعن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: أن النبي ﷺ سجد بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس^(١).

٤- وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ فقرأ: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد بنا فأطال السجود^(٢).

٥- وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قرأت النجم عند رسول الله ﷺ فلم يسجد فيها^(٣).

٦- وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يسجد في ﴿وَالنَّجْمِ﴾، فلما هاجر إلى المدينة تركها^(٤).

٧- وعنه أيضاً: أن رسول الله ﷺ لم يسجد في شيء من المفصل منذ تحوّل إلى المدينة^(٥).

٨- وعن المطلب بن أبي وداعة قال: قرأ النبي ﷺ بمكة: ﴿وَالنَّجْمِ﴾ فسجد وسجد من عنده^(٦).

أما موضوعات السورة:

١- فقد ابتدأت سورة (النجم) بالحديث عن الوحي والرسالة، من الآية الأولى إلى الآية الثامنة عشرة، فذكرت حقيقة الوحي وطبيعته، وذكرته مشهدين من مشاهده، وتحدثت عن معجزة المعراج، وبيّنت أن الرسول ﷺ رأى ليلتها من آيات ربه الكبرى، وأثبتت أن الرسول ﷺ صادق فيما يُبلغه عن ربه، وأنه منزّه عما ادّعاه المشركون، وأن القرآن وحي من الله تعالى بواسطة جبريل الأمين.

٢- ثم تحدثت السورة عن الشرك والمشرّكين، فأبطلت زعمهم أن الأصنام آلهة، وبيّنت

(١) «صحيح البخاري» برقم (١٠٧١، ٤٨٦٢) والترمذي (٥٧٥) وابن أبي شيبة (٧/٢) من طريق آخر.

(٢) البيهقي (٣١٤/٢) برقم (٥٤١٨) في السنن.

(٣) ابن أبي شيبة (٦/٢) وأحمد في المسند (١٨٣/٥) (٢١٥٩١) إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققه)، والبخاري برقم (١٠٧٢) وأبو داود برقم (١٤٠٤) والترمذي برقم (٥٧٦) والنسائي (١٦٠/٢) (٩٥٩) والطبراني برقم (٤٨٢٩).

(٤) ابن مردويه كما في «الدر المنثور» (٦/١٤).

(٥) أبو داود برقم (١٤٠٣)، وقد ضعفه الألباني (٥٨/٢).

(٦) «المسند» (١٥٤٦٤، ٢٧٢٤٦) وغيرهما، والنسائي (٩٥٧) والحاكم (٦٣٣/٣) قال محققو المسند: صحيح لغيره.

أنها أوهام لا حقيقة لها، وحذرت المعرضين عن توحيد الله تعالى ليُقلعوا عن شركهم، وذلك في الآيات من التاسعة عشرة إلى الثامنة والعشرين.

٣- ويُنِت الأسلوب الحكيم الذي ينبغي على الداعية أن يسلكه في دعوته حيال ما يلقاه من أذى وإعراض.

وأشارت السورة إلى الدار الآخرة، وما فيها من حساب وجزاء لمن أحسن أو أساء.

ويُنِت شيئاً من رحمة الله تعالى بعباده بغفران اللّمْ، وضربت مثلاً للجزاء العادل يوم القيامة، بأنه ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن العقوبة لا تتعدى المجرم، وهذا في الآيات من التاسعة والعشرين إلى الآية الثانية والثلاثين.

٤- وذكرت السورة جملة من آثار قدرة الله تعالى للدلالة على وحدانيته سبحانه، كالإحياء والإماتة، والبعث بعد الفناء، والإغناء والافتقار، وخلق الإنسان من نقطة... إلخ، وذلك من الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية التاسعة والأربعين.

٥- وخُتِمت السورة ببيان ما حلّ بالأمم الطاغية من العذاب والدمار تذكيراً لكل من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويؤمن بالرسالة الخاتمة إلى يوم القيامة، وزجراً لأهل الطغيان والضلال بالعذاب الذي ينتظرهم يوم لقاء الله، وذلك في الآيات من الخمسين إلى الثانية والستين.

سُورَةُ الْقَمَرِ (٥٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (القمر) هي السورة الرابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والسابعة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة (الطارق) وقبل سورة (ص).

وتسمى سورة القمر، وسورة ﴿أَقْرَبَ السَّاعَةِ﴾، لورودهما في الآية الأولى منها، وبالأول ترجم لها الترمذي، والثاني ترجم البخاري.

وهي خمس وخمسون آية باتفاق أهل العدد، وثلاث مئة واثنان وأربعون كلمة، وألف وأربع مئة وثلاثة وعشرون حرفاً.

وهي سورة مكية، واستثنى بعضهم ثلاث آيات، هي: ﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ﴾ (٤٤) **سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ** (٤٥) **بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ** (٤٦).

قيل: إنها نزلت يوم بدر، ولعل الصحيح أن النبي ﷺ تلاها يوم بدر ليستشهد بها، وكانت قد نزلت قبل ذلك، ويؤيده قول عمر ؓ إنه لم يكن يدرى ما معنى ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾ (٤٥) حتى فهم تأويلها يوم بدر.

وكان نزول سورة القمر سنة خمس قبل الهجرة، ففي الصحيح: عن عائشة ؓ قالت: أنزل على محمد بمكة، وإني جارية ألعب: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ﴾ (٤٦) (١).

وكانت عائشة ؓ قد عقد عليها في شهر شوال قبل الهجرة بثلاث سنين، أي: في أواخر سنة أربع قبل الهجرة، وكانت سنها يومئذ نحو ست سنوات، وكان انشقاق القمر سنة خمس قبل الهجرة غالباً.

قال ابن عباس ؓ: كان بين نزول آية ﴿سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدُّبْرَ﴾ (٤٥) وبين بدر سبع سنين.

وفي حديث أبي واقد الليثي ؓ: أن رسول الله ﷺ كان يقرأ بقاف، واقتربت الساعة،

في الفطر والأضحى^(١).

أحاديث في إنشقاق القمر:

وانشقاق القمر أمرٌ متفقٌ عليه بين العلماء، وأنه وقع في زمن النبي ﷺ، وكان إحدى معجزاته، ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

١- ما رواه أنس بن مالك ؓ قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ آية، فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾ إلى ﴿سَعَرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾^(٢).

٢- وعن عبد الله بن مسعود ؓ قال: انشقَّ القمر على عهد النبي ﷺ، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة، سحرَّكم، فقالوا: انتظروا ما يأتيكم به السُّفَّار، فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فجاء السُّفَّار فسألوهم، فقالوا: نعم قد رأينا، فأنزل الله: ﴿أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ﴾^(٣)، وابن أبي كبشة:

أ- رجل من خزاعة عبَدَ كوكب الشعرى، وخالف قريشًا في عبادة الأوثان، فشبهوا النبي ﷺ به في مخالفة عبادتهم.

ب- وقيل: إنه كان جد النبي ﷺ من جهة أمه.

ج - وقيل: إن أبا كبشة كنية زوج حليلة السعدية مرضعة النبي ﷺ.

٣- وعنه ؓ قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين، حتى نظروا إليه، فقال ﷺ: «اشهدوا»^(٤).

(١) «المسند» (٢١٨/٥) برقم (٢١٨٩٦، ٢١٩١١) حديث صحيح، (محققوه) والموطأ (١/ ١٨٠) وعبد الرزاق (٥٧٠٣) ومسلم (١٤/ ٨٩١) و«المستدرک» (٢/ ٤٦٥) على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وابن ماجه برقم (٨١٦). وأبوداود برقم (١١٥٤) والترمذي برقم (٥٣٤) وابن حبان (٢٨٢٠).

(٢) الترمذي (٣٢٨٦) وعبد الرزاق (٢/ ٢٥٧) و«المسند» (١٢٦٨٨، ١٣١٥٤) ومسلم (٤٧/ ٢٨٠٢) والبيهقي (٢/ ٢٦٢) وغيرهم.

(٣) الطبري (١٠٦/ ٢٢) وأبو نعيم (٢١١) والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٦) وهو في البخاري (٣٦٣٦) وغيره ومسلم (٢٨٠٣).

(٤) «أسباب النزول» للواحدي ومسند الطيالسي برقم (٢٩٥) بنحوه. وهو في البخاري (٣٨٦٩) ومسلم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٥) وابن حبان (٦٤٩٥) وأحمد (١/ ٣٧٧).

٤- وعن أنس رضي الله عنه أيضًا قال: انشقَّ القمر على عهد رسول الله ﷺ فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»^(١)، وعن ابن عمر بنحوه^(٢).

٥- وعن أنس رضي الله عنه: أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقَّتَيْنِ حتى رأوا حراء بينهما^(٣).

٦- وفي رواية عنه رضي الله عنه قال: فانشقَّ القمر بمكة مرتين^(٤).

٧- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ^(٥).

٨- وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خمس قد مضين: الدُّخان، والقمر، والروم، والبطشة، واللزام ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾^(٦) [الفرقان: ٧].

٩- وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: رأيت القمر وقد انشق، فأبصرت الجبل من بين فُرَجَتِي القمر^(٧).

وهكذا سجلت السورة مكابرة المشركين وعدم تصديقهم بمعجزات النبي ﷺ، وأمرته بالإعراض عنهم وعدم الاكتراث بهم، وأنذرتهم باقتراب الساعة، وما يلقونه فيها من عقوبات بسبب تكذيبهم بصاحب الرسالة الأخيرة، وذكَّرتهم بما حدث لأمثالهم، وأنذرتهم بعذاب دنيوي قريب، وأعلمتهم بأن الله تعالى محيط بهم وبأفعالهم، ومجازيهم بالسوء سوءًا وبالإحسان إحسانًا.

وكررت آيات السورة التنويه بشأن القرآن الكريم في فواصل القصص:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾^(٨).

(١) البخاري بأرقام (٣٦٣٦، ٣٨٣٩، ٤٨٦٤) ومسلم برقم (٢٨٠٠) والترمذي (٣٢٨٧) والطبري (١٠٥/٢٢).

(٢) مسلم برقم (٢٨٠١) والترمذي برقم (٣٢٨٨) والبيهقي في «الدلائل» (٢٦٧/٢) والحاكم (٤٧٢/٢) وأبو نعيم (٢٠٨).

(٣) البخاري برقم (٣٦٣٧، ٤٨٦٧، ٤٨٦٨) ومسلم برقم (٢٨٠٢) والطبري (١٠٥/٢٢).

(٤) «المسند» (٣/١٦٥) ومسلم برقم (٢٨٠٢).

(٥) البخاري برقم (٤٨٦٦).

(٦) البخاري برقم (٤٧٦٧) واللفظ له، وانظر (١٠٠٧) و«صحيح مسلم» (٢٧٩٨).

(٧) «المسند» (٣٩/٧) (٣٩٢٤) والطبري (١٠٦/٢٢) والحاكم (٤٧١/٢) قال محققو «المسند»: حديث صحيح.

وفي نهاية كل مشهد من مشاهد تعذيب المكذبين يأتي هذا التهديد ولفت النظر للاعتبار ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرٍ﴾ ﴿١٦﴾ وفي كل مشهد من مشاهد العذاب السبعة يتناثر الرعب والفرع والهول في سرعة تزلزل القلوب كأنها سياط تقصم الظهر وتأخذ بالأنفاس.

وكان النبي ﷺ يقرأ بسورة القمر مع سورة قاف في المحافل الكبار؛ لاشتمالها على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق وإعادته، والتوحيد وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة، وتحتوي سورة القمر على موضوعات السور المكية:

١- فتبدأ بمعجزة انشقاق القمر لإثبات جانب الوحي والرسالة للنبي ﷺ، وموقف المكذبين منها.

٢- وتتكلم السورة عن جانب البعث ومشاهد القيامة في أولها وآخرها، من الآية السادسة إلى الآية الثامنة، ومن الآية السادسة عشرة إلى الآية الخامسة والخمسين وهي نهاية السورة.

٣- وما بين ذلك من الآية التاسعة إلى الآية الثانية والأربعين تتحدث عن مصارع خمسة من المكذبين لرسول الله في الأمم الغابرة، في عرض سريع لمصارع قوم نوح، وقوم عاد، وقوم ثمود، وقوم لوط، وفرعون وملئه.

٤- ومن الآية الثالثة والأربعين وما بعدها تتحدث آيات السورة عن عقاب الطغاة ونعيم المتقين، والإنذار بقيام الساعة، والإخبار عن وقوع قتال في المستقبل يُهْزَم فيه الكفار في الدنيا، ولهم عذاب أشد في الآخرة.

وفي السورة غرْسٌ لعقيدة التوحيد في نفوس المؤمنين، ووعيد لمن كَذَّبَ بخاتم الرسل ﷺ ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكَكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ ﴿٤٣﴾.

وهكذا كل أمة ضالة سوف تلقى مصيراً مؤلماً ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ [الرعد: ٣١].

سُورَةُ الرَّحْمَنِ (٥٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة (الرحمن) هي السورة الخامسة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة والأربعون في ترتيب النزول على القول بأنها مكية، وهو الأرجح، فيكون نزولها بعد سورة الفرقان وقبل سورة فاطر، وهو قول جمهور الصحابة والتابعين، واستثنى بعضهم قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ (٢١) فقيل: إنها مدنية، والأصح أنها مكية كبقية السورة، بل إن السورة من أوائل ما نزل من القرآن.

فقد أخرج الإمام أحمد والطبراني، عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: سمعت رسول الله ﷺ وهو يصلي نحو الركن قبل أن يَضَع بما يؤمر، والمشركون يسمعون، يقرأ: ﴿فَيَأْتِي آيَةَ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾^(١).

وقيل: إن سورة الرحمن مدنية، وعلى هذا فهي الثامنة والتسعون في ترتيب النزول، كما قال الجعبري، ويكون نزولها بعد سورة الرعد وقبل سورة الإنسان، فهي من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية.

وعدد آياتها عند أهل الشام وأهل الكوفة ثمان وسبعون آية^(٢).

وهي ثلاث مئة وإحدى وخمسون كلمة، وألف وست مئة وستة وثلاثون حرفاً. وسميت سورة الرحمن، وهي أول كلمة فيها، وقيل: إنها تسمى أيضاً: عروس القرآن، ومن قال بهذا اعتمد على حديث ضعيف أخرجه البيهقي عن علي رضي الله عنه، وفيه:

(١) «المسند» (٣٤٩/٦) (٢٦٩٥٥) وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٢٠/٧): وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف، وحديثه حسن، وبقيّة رجاله رجال الصحيح، وضعّف إسناده محققو المسند (٥١٧/٤٤) وأخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٣١).

(٢) وعدّها أهل مكة والمدينة سبعاً وسبعين، وأهل البصرة ستاً وسبعين آية.

«لكل شيء عروس، وعروس القرآن سورة الرحمن»^(١).

أسباب النزول:

أ - وورد في سبب نزولها قول المشركين الذي حكاه الله تعالى عنهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: ٦٠].

ب - وقيل: إنها نزلت في صلح القضية عندما أبى سهيل بن عمرو أن يكتب بسم الله الرحمن الرحيم في شروط صلح الحديبية.

ج - وقيل أيضاً: إن سبب نزولها قول المشركين ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] فردّ الله تعالى عليهم بأن الرحمن هو الذي علّم النبي ﷺ القرآن:

في فضل سورة الرحمن:

١ - وفي الحديث: أن النبي ﷺ قام يصلي الصبح بنخلة، فقرأ سورة الرحمن، ومرّ النفر من الجن، فأمنوا به.

٢ - وعن قاسم بن عاصم المنقري، أنه قال للنبي ﷺ: اتل عليّ ما أنزل عليك، فقرأ عليه سورة الرحمن، فقال: أعدها، فأعادها ثلاثاً، فقال: إن له لحلاوة^(٢).

٣ - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن، من أولها إلى آخرها فسكتوا، فقال: «ما لي أراكم سكوتاً؟ لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كلما أتيث على قوله سبحانه: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ الْآلَاءُ رِيكًا تُكَذِّبَان﴾ قالوا: لاشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» برقم (٢٢٦٥) وإسناده ضعيف، لضعف علي بن الحسين بن جعفر، وأحمد بن الحسن بن علي بن الحسين، وضعفه الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١٣٥٠).

(٢) من «تفسير القرطبي» للسورة.

(٣) أخرجه الترمذي برقم (٣٢٩١) وصححه الحاكم (٢٧٣/٢) على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢٣٢/٢) وفي «الشعب» برقم (٢٢٦٤) ورجاله ثقات، والطبري (٧٢/٢٧) وغيرهم، وقال الترمذي عنه: هو حديث غريب، وفي سنده زهير بن محمد وقد ضعفه البخاري وأحمد بن حنبل، يُنظر: «التهذيب» (٣٤٩/٣) وأخرجه أبو الشيخ (١١١٨) وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٢٤) وأخرج البزار في «كشف الأستار» (٢٢٦٩) نحوه عن عبد الله بن عمر، وكذا الدارقطني والخطيب في تاريخه وابن المنذر كما في «الدر المنثور» (١٠١/١٤).

٤- وروى عروة بن الزبير رضي الله عنه قال: أول من جهر بالقرآن بمكة بعد النبي ﷺ عبد الله ابن مسعود، وذلك أن الصحابة قالوا: ما سمعت قريش هذا القرآن يُجهر به قط، فَمَنْ رجل يُسمعهم إياه؟ فقال ابن مسعود: أنا، فقالوا: نخشى عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه، فأبى، ثم قام عند المقام، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ ثم تَمَادَى رافعاً بها صوته، وقريش في أُنْدِيَتِهَا، فتأملوا وقالوا: ما يقول ابن أم عبد؟! قالوا: هو يقول الذي يزعم محمد أنه أنزل عليه، ثم ضربوه حتى أثروا في وجهه، وفي هذا دليل على أن السورة مكية^(١).

٥- وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً قال له: إني أقرأ المفصل في ركعة، فقال: أهدأ كَهَذَا الشعر؟ لكن النبي ﷺ كان يقرأ النظائر سورتين في ركعة: الرحمن والنجم في ركعة، واقتربت والحاقة في ركعة، والطور والذاريات في ركعة، و(إذا وقعت) و (ن) في ركعة، و عَمَّ والمرسلات في ركعة، والدخان وإذا الشمس كورت في ركعة، وسأل سائل والنازعات في ركعة، وويل للمطففين وعبس في ركعة^(٢).

٦- وأخرج ابن حبان عن ابن مسعود أيضاً أن رجلاً قرأ عليه سورة الرحمن بوجه من وجوه القراءات، فأنكر عليه وقال له: من أقرأك هكذا؟ قال: رسول الله، فذهبا إلى النبي ﷺ فأقرَّ كُلًّا منهما على قراءته، وتغيَّر وجهه ﷺ حين سمع الخلاف بينهما، فأمر عليّاً فقال: إن رسول الله ﷺ يأمركم أن يقرأ كل رجل منكم كما عُلِّم. قال ابن مسعود: فانطلقنا وكل رجل منا يقرأ حرفاً - أي: قراءة - لا يقرأ بها صاحبه^(٣).

(١) «تفسير القرطبي» (١٧/١٥١).

(٢) «صحيح سنن أبي داود» (١٢٤٤) قال الألباني: صحيح دون سرد السور، وهو في الصحيحين، وقال أبو داود: هذا من تأليف ابن مسعود، وأخرجه البيهقي (٦٠/٢) وقد جاء مختصراً في «المسند» (١٢/٤١٢) عن زِرٍّ: أن رجلاً قال لابن مسعود... الحديث.

(٣) انظر هذا المعنى في: «صحيح ابن حبان» (٧٤٧) وحسنه محققه، وأصل الحديث في البخاري بدون ذكر اسم السورة، وفيه أن النبي ﷺ قال: كلاهما محسن، البخاري (٢٤١٠، ٣٤٧٦، ٥٠٦٢).

آية الآلاء:

وقد ذُكرت آية ﴿فَإِيَّاءِ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة في السورة، في كل مرة لها معنى يختلف عن غيره، حيث يراد بالآلاء فيها: النعمة التي ذُكرت قبلها، وهي تختلف في كل آية عن الأخرى.

ومعنى ذلك: أن في السورة إحدى وثلاثين نعمة أنعم الله بها على الإنس والجن. وأول آية من ﴿فَإِيَّاءِ﴾ ذكر قبلها اثنتا عشرة آية، وهي تُذكر بين الصفة والموصوف. قال الزمخشري: أراد الله تعالى أن يقدم في عدد آلائه أسبق شيء، وأهم شيء في آلاء الله: أصناف نعمه، وقد قدّمت السورة نعمة الدين، وبدأت بأعلى مراتبه، وهي نعمة القرآن وتعليمه، وأخرت ذكر خلق الإنسان عن ذكر القرآن، ثم ذكرت الإنسان، وبيّنت ما تميّز به عن سائر الكائنات من أنواع البيان^(١).

وتبع ذلك التنويه بالنبي ﷺ، وبيان أن الله تعالى هو الذي علمه القرآن، ردًا على مزاعم المشركين الذين يقولون: ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ وقولهم: ﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ أو أنه سحر، أو أنه كلام كاهن أو شاعر.

ولأن القرآن الكريم هو المنّة الكبرى التي امتنّ الله بها على الإنسان، فقد تقدم ذكره على خلق الإنسان.

ثم استعرضت السورة صفحات الوجود الناطقة بآلاء الله وآثار قدرته، ومنها: الشمس، والقمر، والنجم، والسماء المرفوعة بلا عمد، وما فيها من عظيم المخلوقات، وخلق الأرض وما فيها، من فاكهة ونخل وحبٍ ورمان وريحان، وأنواع الزروع والثمار، والجن والإنس، والمشرقين والمغربين، والميزان، والبحرين والبرزخ الحاجز بينهما، وما يخرج منهما، وما يجري فيهما، ثم يأتي مشهد الفناء للخلائق، يقابله الوجود المطلق لوجه الله الكريم.

(١) «تفسير الكشاف» بتصرف (٤/٤٣).

وفي يوم القيامة الناس فريقان، حيث: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِمَتِهِمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَصِي وَالْأَقْدَامِ﴾ ﴿٤١﴾ ويقال لهم: ﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾ ﴿٤٢﴾.

أما الفريق الذي خاف هذا الموقف، فمنهم السابقون المقربون، وهؤلاء أعداء الله لهم جنتين من الدرجة الأولى.

ومنهم أهل اليمين من عامة المؤمنين، وقد أعد الله لهم جنتين من الدرجة الثانية. وللجنات الأربع مواصفات ومقاييس تعرف بأدنى تأمل في الآيات. فمثلاً: يقابل قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ للسابقين بـ ﴿عَيْنَانِ نَضَّاحَتَانِ﴾ لأهل اليمين. فالعين التي تجري ليست كالعين التي تضخ أو تنبع. ويقابل قوله تعالى: ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ ثَمَرٍ أَكْثَرُ مِمَّا يَحْتَسِبُ﴾ للسابقين بـ ﴿فِيهَا ثَمَرٌ وَنَخْلٌ وَنَخْلٌ﴾ لأهل اليمين، فالأولى أعم وأشمل.

ويقابل ﴿حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ لأهل اليمين بـ ﴿فِيهِنَّ قَصِيرَاتُ الْغُرُفِ﴾ للسابقين، فالمقصورات غير القاصرات، كما ترى في الدنيا امرأة عفيفة أو محجبة باختيارها من تلقاء نفسها، وأخرى مرغمة على ذلك، وهذا من باب التشبيه، وإلا فليست الحور العين مظنة للشبهات، كنساء الدنيا.

ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة فصول:

الأول: عن الخلق والإبداع، وهذا من أول السورة إلى الآية الخامسة والعشرين منها، وفيه خلق الإنسان، وتعليمه البيان، وتسخير الكون له برًا وبحرًا وجوًا وكواكب وأفلاكًا. والإنسان مكلف بإقامة العدل والميزان، ومستحق للثواب والعقاب.

الثاني: عن الفناء والبعث والجزاء المعد للمجرمين في الآخرة، وذلك من الآية السادسة والعشرين إلى الآية الخامسة والأربعين، وفيه فناء العالم، وإعادة الخلق بعد فنائه، ومظاهر فناء العالم، ثم أحوال الناس في المحشر، من يُسأل منهم عن ذنبه، ومن لا يُسأل عنه، بل يؤخذ من ناصيته وقدميه ويُقذف به في جهنم، فيلقى فيها العذاب ألوانًا.

والثالث: عن جَنَّتِي السابقين المقربين عند ربهم، وذلك من الآية السادسة والأربعين إلى الآية الحادية والستين، وفيه وصف لنعيم كُلِّ مَنْ خاف مقام ربه، وصف يشرح الصدور، وتقرُّ به العيون، لأصحاب الدرجات العلا والنعيم المقيم.

والرابع: عن جَنَّتِي أهل اليمين من عامة المؤمنين، وذلك من الآية الثانية والستين إلى الآية الثامنة والسبعين، وفيه وصف لنعيم جمهور أهل الإيمان، وما أعدّه الله لهم من الخُضرة، وعيون المياه، والفاكهة، والخيرات الحسان، والرفارف الخضر.

وختِمت السورة بتمجيد الله تعالى، والثناء عليه بما أنعم على عباده من مختلف النعم، وفيه تناسق مع بدء السورة في أروع صور البيان.

* * *

سُورَةُ الْوَاقِعَةِ (٥٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الواقعة هي السورة السادسة والخمسون في ترتيب المصحف، والسادسة والأربعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة طه وقبل سورة الشعراء، ولا يُعرف لها اسم غير سورة الواقعة.

وهي في العدد الكوفي الذي عليه رواية حفص، ست وتسعون آية^(١).

وعدد كلماتها ثلاث مئة وثمان وسبعون كلمة، وألف وسبع مئة وثلاثة أحرف.

قال ابن عطية: وهي سورة مكية بإجماع من يُعتدُّ به من المفسرين، واستثنى ابن عباس وقتادة قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾^(٨٢) فقد نزلت بالمدينة.

وقال الكلبي: إلا أربع آيات: اثنتان نزلتا في سفر النبي ﷺ إلى مكة، وهما قوله

تعالى: ﴿أَفِيْهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ﴾^(٨١) وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ^(٨٢).

واثنتان نزلتا في سفره إلى المدينة، وهما: ﴿ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾^(٢٩) وَثُلَّةٌ مِنَ الْآخِرِينَ^(٦٠).

قال ابن عطية: وهذا كله غير ثابت^(٢)، والصحيح أنها كلها مكية.

جاء عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا بكر رضي الله عن الجميع

قال: يا رسول الله، قد شُبِّتَ، قال: «شَبَّيْتَنِي هُودَ، والواقعة، والمرسلات، وعم يتساءلون، وإذا الشمس كورت»^(٣).

(١) وفي العدد البصري سبع وتسعون آية، وفي العدد المكي والمدني والشامي تسع وتسعون آية.

(٢) يُنظَرُ: «تفسير ابن عطية» (٢٣٨/٥) و«تفسير التحرير والتنوير» (٢٧٩/٢٧) و«تفسير فتح القدير» (١٤٦/٥) و«زاد المسير» (١٣٠/٨).

(٣) أخرجه الترمذي وقال: حسن غريب، برقم (٣٢٧٩) وصححه الحاكم على شرط البخاري ووافقه الذهبي

(٣٤٣/٢) وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٧٧٦) ورواه الطبراني في «الأوسط» من طريق مسروق عن أبي

بكر، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤٠/٧): ورجاله رجال الصحيح، وأخرجه الطبراني في «الكبير»

(١٠٠٩١)، وانظر: «العلل» للدارقطني (١٩٣/١) وابن أبي حاتم (١٨٢٦، ١٨٩٤).

وعن جابر بن سُمرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يصلي الصلوات كنحو من صلاتكم التي تصلون اليوم، ولكنه كان يُخفف، كانت صلاته أخف من صلاتكم، وكان يقرأ في الفجر بالواقعة ^(١).

وورد في سورة الواقعة أحاديث أخرى لم تصح.

قال مسروق: من أراد أن يَعْلَمَ نبأ الأولين والآخرين، ونبأ أهل الجنة، ونبأ أهل النار، ونبأ أهل الدنيا، ونبأ أهل الآخرة، فليقرأ سورة الواقعة ^(٢).

أغراض السورة

موضوع سورة الواقعة: هو اليوم الآخر، وأصناف الناس في الآخرة، وجزاء كل صنف منهم يوم لقاء الله، والحديث عن البعث والحساب والجزاء، وغرس عقيدة التوحيد في نفوس البشر، وهذا من خصائص القرآن المكي.

والواقعة اسم للسورة، وبيان لموضوعها، فليوم القيامة أسماء شتى، منها: الواقعة، والحاقة، والقيامة، والساعة، والقارعة، والصاخة، والطامة، والغاشية، والأزفة.

وتختص الآيات الست الأولى بحديث وجيز عن انتهاء العالم وبدء الحساب، فالقيامة تقوم بغتة، فتُخْرِسُ ألسنة المكذبين لها من الكافرين بها، وألسنة الملحدين المعاندين، والماديين والدهريين، وتُبَيِّنُ أن القيامة ستخفف رؤوسًا كانت عالية في الدنيا، وترفع رؤوسًا كانت مغمورة.

ومع قيام الساعة تهيج الزلازل التي تهدم كل شيء، وتُحوِّلُ الصخور الصلدة العالية إلى ذرات دقيقة، كالتّي نراها تَسْبَحُ في الشعاع، ولسنا ندري كم بقي من عمر الدنيا، وليس هذا هو المهم، إنما المهم أن يُعَدَّ المرء للسؤال جوابًا، ويستعدَّ بعمله الصالح للموقف العصيب.

(١) «المسند» (١٠٤/٥) (٢٠٩٩٥) قال محققوه: صحيح لغيره، وأخرجه عبد الرزاق (٢٧٢٠) وابن خزيمة

(٥٣١) وابن حبان (١٨١٣) والطبراني في «الكبير» (٤٠٣٦) والحاكم (٢٤٠/١).

(٢) أخرجه عبد بن حميد، وابن المنذر، كما في «الدر المنثور» (١٧٥/١٤).

فقد سأل رجل النبي ﷺ قائلاً: متى الساعة يا رسول الله؟ فأراد النبي ﷺ أن يرشده إلى ما هو أهم من السؤال، فقال له: «وماذا أعددت لها؟» فذكر الرجل أنه يؤدي الفرائض، وليس عنده رصيد كبير من النوافل، قال الرجل: غير أنني أحب الله ورسوله، فقال له النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت»^(١).

أصناف الناس يوم القيامة:

وبعد هذه المقدمة، فإن السورة تقسيم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: السابقين، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال. وتُفَصِّلُ النعيم الذي أعدّه الله للسابقين وأصحاب الميمنة، ثم تُفَصِّلُ العذاب المعدّ لأصحاب المشأمة، وهذا من الآية السابعة إلى الآية السادسة والخمسين. وفي نهاية السورة تتناول أيضاً هؤلاء الثلاثة تحت مسمى: المقربين، وأصحاب اليمين، والمكذّبين الضالين، فتبيّن ما أعدّ الله لهؤلاء الثلاثة في الآخرة وعند الاحتضار من نعيم وعذاب على وجه الإجمال. وبين التقسيمين الأول والأخير، ذكرت السورة أربعة أدلة متنوعة من آفاق الكون وتجارب الناس، على أن البعث حق، وهي في الوقت نفسه دلائل على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته.

وهذه الأدلة الأربعة تتمثل في بديع صنعه تعالى وخلقه للإنسان، وإخراج النبات، وإنزال الماء، وما أودعه الله في النار من قوة.

وجاءت هذه الأدلة في الآيات الأربع التالية، وما يتبع كل منها، وهي قوله تعالى:

١ - ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

(١) من حديث أنس في «المسند» (١٢٠٧٥، ١٤٠٧٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، وعن أبي ذر (٢١٣٧٩، ٢١٤٦٣)، ورواه البخاري عن أنس (٣٤٨٥)، وأخرجه مسلم (٥٥٧)، والترمذي (٣٥٣)، وابن ماجه (٩٣٣)، وابن خزيمة (٩٣٤).

٢- ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

٣- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٥﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

٤- ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٦٧﴾ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

وهذه الأدلة من الآية السابعة والخمسين إلى الآية الرابعة والسبعين.

ثم نوهت السورة بشأن القرآن العظيم، وذلك من الآية الخامسة والسبعين إلى الآية الثانية والثمانين.

إن سورة الواقعة تحدثت عن الناس كلهم، مؤمنهم وكافرهم، ووصفت جزاء كلٍ منهم، بما لا يوجد في غيرها.

وزعم بعضهم أن أصناف الناس الثلاثة المذكورون هنا، وهم: السابقون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

وليس الأمر كذلك؛ لأن الثلاثة الذين هم في آية سورة فاطر كلهم من المسلمين ومن حملة القرآن، بدليل أول الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢].

أما الآيات التي في سورة الواقعة فهي تحدثت عن قسمين من المؤمنين، هما: السابقون بالخيرات، والفائزون بقدر راجح من الحسنات، وما بقي من أصناف الناس، فهم: الكافرون أصحاب الشمال، الذين هم في سموم وحميم، وظل من يحموم.

نسأل الله العفو والعافية، والسلامة من النار، والفوز بالجنة.

تقسيم السورة إلى شطرين:

ومع أن موضوع السورة واحد، هو البعث والحساب والجزاء، وبيان اختلاف أحوال الناس فيه، إلا أنه يمكن تقسيمها إلى شطرين:

الشرط الأول: من أولها إلى الآية السادسة والخمسين، فإن السورة في هذا الشرط، تبدأ بما يقطع الطريق على منكري البعث، القائلين: إن هي إلا أرحام تدفع، وأرض

تبلع، وما يهلكنا إلا الدهر، وتقطع الطريق على من يُقسِمون بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت، وعلى القائلين: ﴿مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُتَّقِينَ﴾ [الجمعة: ٣٢] وعلى من قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [الكهف: ٣٦، وفصلت: ٥٠].

إنها تخرس السنة هؤلاء وأولئك، فتقطع كل شك في قيامها، وتزيل كل لبس في ذلك، وتسييها بالواقعة، وليس لهذا الوقوع من مكذب!

ثم تصف السورة القيامة بأوصاف تُشعر بالجزم، وتزلزل النفس، وتذكر أصناف الناس يوم الحشر والنشر، وتُفَصِّل مصير كل منهم تفصيلاً دقيقاً وافياً كأنه معروض للعيان، لاسيما مصير المكذبين أصحاب الشمال، حيث توضح السورة أسباب سوء المصير، بأنهم كانوا في الدنيا من المترفين البطرين، المصيرين على الكفر والإشراك بالله تعالى، وكانوا ممن يستبعدون البعث بعد الموت لهم ولآبائهم الأولين.

أما الشطر الآخر من السورة، فهو من الآية السابعة والخمسين إلى الآية السادسة والتسعين في نهاية السورة.

وهذا الشطر يتكلم عن الخلق الأول من مَنِيَّ يُمْنَى، ويقرر النشأة الأولى للإنسان، ويجعل هذه المقدمة تتصدر خمسة أدلة على البعث والنشور.

فتتناول نشأة الحياة في صور أربع، وكلها صور للنشأة الأولى، وللحياة من العدم.

١ - وهي خلق الإنسان من مَنِيَّ يُمْنَى، والله تعالى هو الخالق لهذا المني، وهو الذي يُمَيِّتُنَا بعد حياتنا.

٢ - ومن ذلك حياة الزرع والحراث، من الأرض الميتة.

٣ - وحياة كل كائن حي بالماء الذي أنزله الله تعالى من المزن، وليس لمخلوق دَخُلٌ في ذلك، ولو شاء الله تعالى لجعله أجاجاً لا يُنبِت نباتاً ولا يُخرج كلاً.

٤ - ومن ذلك النار، وأصلها الذي تنشأ منه، وهي تذكّر الناس بنار الآخرة، وكلها صور مألوفة في حياة الناس وواقعهم، ولا سبيل لإنكارها.

وبعد التنويه بشأن القرآن العظيم، تناول السورة مشهد الاحتضار عند الموت، وما ينتظر كل صنف من أصناف الناس من النعيم أو العذاب، في لمسة عميقة الأثر في النفوس حين يقف الطب عاجزاً أمام المحتضر، ويقف الأهل والمال والأحباب مكتوفي الأيدي، لا يملكون أن يزيدوه لحظة من العمر فوق عمره، ولا نفساً فوق أنفاسه.

وقد لخص آخر السورة ما جاء في أولها من المصير الذي أعده الله تعالى للسابقين وأهل اليمين والمكذبين الضالين، وسواء صدق بعض الناس ذلك أو كذّبوه فإن هذا لن يغير من الواقع شيئاً ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ (٩٥) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ (٩٦).

* * *

سُورَةُ الْحَدِيدِ (٥٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١. (سورة الحديد) هي السورة السابعة والخمسون في ترتيب المصحف، والخامسة والتسعون في ترتيب النزول، على أساس أنها سورة مدنية، ويكون نزولها في هذه الحالة بعد (سورة الزلزلة) وقبل (سورة محمد)، وعلى القول بأنها سورة مكية، يكون نزولها قبل (سورتي الحجر وطه) وبعد (سورة غافر).

وسورة الحديد من السور المختلف فيها بين كونها مكية أو مدنية.

وذكر ابن عطية عن النقاش إجماع المفسرين على أن سورة الحديد مدنية.

والأظهر: أن الآيات من أول السورة إلى الآية التاسعة مكية، وبقية السورة منها المكي، ومنها المدني، ومن المدني: الآية السادسة عشرة، والآيتين الأخيرتين في السورة، وفيهما دعوة أهل الكتاب إلى الدخول في الإسلام.

وقد ورد أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيفُونَ﴾ الآية: ١٦ إلا أربع سنين^(١).

ولما ورد أن عمر رضي الله عنه دخل على أخته قبل أن يُسلم، فإذا صحيفة فيها أول (سورة الحديد)، فقرأها حتى بلغ ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقِضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُتَخَلِّفِينَ فِيهِ﴾ الآية: ٧ فأسلم^(٢).

(١) رواه مسلم برقم (٣٠٢٧)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٦٨)، وابن ماجه برقم (٤١٩٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٣٨٠) بإسناد حسن.

(٢) رواه الطبراني والبخاري في كشف الأستار (٢٤٩٣)، وفيه أسامة بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف كما في مجمع الزوائد (٦٣/٩)، ورواه أبو نعيم في الحلية (٤١/١)، والبيهقي في الدلائل (٢١٦/٢)، وابن عساكر (٣١/٤٤).

وفي رواية أخرى أن الصحيفة التي قرأها عمر رضي الله عنه كان فيها صدر (سورة طه).

٢. وتسمى سورة الحديد: لورود لفظ (الحديد) فيها في قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية ٢٥.

ولما كانت قصة أهل الكهف أبرز من كلمة الحديد التي وردت في سورة الكهف فقد سُميت باسم القصة ولم تسم سورة الحديد، مع ورود لفظ الحديد فيها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَهَ الْإِلَهِاتِ وَالْهَدْيَ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَشْفَادُ مِنَ الْأَعْنَاقِ وَتُجْعَلُ الْأَنْفُسُ كَالْهَدْيِ الْمُسَبِّحِ لِلَّهِ عَلَى كُلِّ مَسْجِدٍ وَنُحْمًا يُسَبِّحُ بِهِ ثَمَرَاتُ الْأَجْنَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقُوا سِوَا اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الكهف: ٩٦].

٣. وعدد آيات السورة تسع وعشرون آية عند أهل الكوفة والبصرة، وثمان وعشرون آية عند بقية علماء العدد.

وهي خمس مئة وأربع وأربعون كلمة، وألفان وأربع مئة وستة وسبعون حرفاً.

٤. ومما ورد في فضلها مع غيرها من السور المفتحة بالتسبيح: ما رواه العرباض بن سارية رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بالمسبحات قبل أن يرقد ويقول: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية»^(١).

والمسبحات سبع سور، وهي: سور الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن والإسراء والأعلى.

أغراض السورة:

١- تبدأ الآيات الست الأول من سورة الحديد، فتذكر بجلال الله تعالى، وصفاته العظيمة، وسعة علمه وملكوته، وتذكر اثنان وعشرون دليلاً وصفة من أسماء الله الحسنى بعد الاسم العلم ﴿سَبِّحَ لِلَّهِ﴾ للدلالة على وحدانيته سبحانه، ومن هذه الأسماء: العزيز، الحكيم، المحيي، المميت، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، له ملك هذا الكون، وهو العالم بكل شيء.

(١) النسائي في السنن الكبرى (٨٠٢٦)، وأبوداود (٥٠٥٧)، والترمذي برقم (٨٤٠٦)، والمسند (١٢٨/٤) برقم (١٧١٦٠) باسناد ضعيف لجهالة ابن أبي بلال وقد ضعفه الألباني أيضاً في ضعيف سنن أبي داود (١٠٧٣).

فهو سبحانه خالق السموات والأرض ومالكهما، يعلم ما يدخل فيهما وما يخرج منهما، وما ينزل منهما، وما يصعد إليهما، وتبعاً لذلك فإنه سبحانه يُدخل الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل، وهو قادر على كل شيء، وعلمه محيط بكل شيء، فهو سبحانه خالق كل شيء ومبدعه.

وهو الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، والظاهر بآثار مخلوقاته، والباطن الذي لا يُعرف كُنه حقيقته أحد، وهو الخالق لكل ما في الكون، والمتصرف فيه كيف يشاء، وكل ما في هذا الكون من ملك وإنس وجن وحيوان وشجر ومدر وجماد، كل شيء يسبح بحمد الله تعالى، فالكل يشهد بوحدانيته تعالى، ويشهد بعظمته.

٢ - ثم تضع السورة عنصران رئيسان للأمة الإسلامية حتى تؤدي رسالتها العالمية، وهما:

الإيمان بالله ورسوله، وهو عبادة قلبية، ويظهر أثره على الجوارح واللسان. والإنفاق من مال الله، وهو عبادة مالية ﴿إِٰمِنُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُّسْتَحْلِفِينَ فِيهِ﴾ الآية: ٧، وهذا الإنفاق للمال، لتحقيق عزة الإسلام ورفع شأنه، ينفق على التصنيع الحربي، وما يسلح الأمة في مواجهة عدوها بما يكافئ ماعنده من سلاح وعتاد، فلا بد للمؤمن من الجهاد بالنفس والمال واللسان، لينال التمكين والسيادة في الأرض، ومنه النفقة الواجبة والمستحبة، وبذلك ينال العبد السعادة في الدنيا والمثوبة في الآخرة، ولذا بينت السورة أن إنفاق المال في أوقات الأزمات والشدائد يفوق كثيراً الإنفاق في أوقات الرخاء والسعة، قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلٍ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَتْلُوا وَكَلَّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الآية: ١٠] ولذلك فإن السورة جعلت عطاء المؤمن بمثابة القرض الحسن لله عز وجل.

ولما سمع أبو الدحداح هذه الآية وكان له بستان فيه ست مئة نخلة، فقال: إني أقرضت ربي حائطي، اخرجني يا أم الدحداح أنت وعيالك، فقد أقرضت ربي حائطي،

فأجابته على الفور: ربح بيعك يا أبا الدحداح.

والسورة تُعنى بالتشريع والتربية والتوجيه، وتبني المجتمع الإسلامي على أساس العقيدة الصافية والخلق الكريم، والتشريع الحكيم.

٣ - وقد تحدثت آيات السورة عن أهل الإيمان، المنفقين أموالهم في سبيل الله، وبينت أن نورهم يوم القيامة يسعى بين أيديهم وبأيمانهم.

أما أهل النفاق فإنهم يتخبطون في الظلمات على الصراط يوم القيامة، كما كانوا يعيشون في الدنيا في ظلمات الجهل والغي والضلال.

والإيمان المقبول: أساسه معرفة الله تعالى، ونكران الذات، ورحمة الخلق، ورقة القلب. والإسلام يمقت القسوة والجفوة والصلف، وبهذا يعظ القرآن أهله ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الآية: ١٦] ولا يتشبهوا بغيرهم ممن طالت حياتهم في الدنيا ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثُرَ مِنْهُمْ فَسَقُونَ﴾ [الآية: ١٦].

٤ - ثم تتحدث آيات السورة عن الدنيا والآخرة، لتضع كلاً منهما في ميزان الحق، فالدنيا تتمثل في خمسة أهداف: لعب، ولهو، وزينة، وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد، فإذا أعطينا لكل من هذه الخمسة، ثمانية أعوام من بداية عمر الإنسان حسب تربيته، فسيبلغ إلى نهاية سن الشباب، فالطفل يلعب ثمانية أعوام، ويلهو ثمانية أخرى، ويتزين في سن المراهقة في الثمانية التي تليها، ويتفاخر فيما بين ٢٤-٣٢ من عمره، ويتكاثر في المال والولد من ٣٢-٤٠ سنة، وبذا يكتمل عقله ويستكمل شهواته، ولذا كان سن الأربعين هو سن النبوة، هذه هي رحلة الدنيا، كزرع أخصب، ثم ذبل، ثم صار هشياً يابساً.

أما رحلة الآخرة، فإنها تتطلب المسارعة، والتسابق إلى الجنات، والتنافس في الخيرات: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الآية: ٢١] والآخرة دار الخلود والبقاء، لا نصب فيها ولا تعب، ولا هم ولا شقاء.

٥ - ثم تبين آيات السورة أن رسالة الله تعالى إلى خلقه واحده جاء بها الرسل

جميعاً، وأيدهم الله بالمعجزات، وأنزل معهم الكتب، وأنزل مع الكتاب ميزان الأعمال والأقوال في شرع الله، ليقوم الناس بالقسط ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الآية: ٢٥] ولإقامة منهج الله في أرضه، لابد له من القوة الرادعة المهيمنة التي تلزم للمسلمين في السلم والحرب، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الآية: ٢٥].

ومن الحديد يكون التصنيع الحربي الذي يغنينا عن عدونا، ويحمي دعوتنا وأرضنا، وينصرنا الله بسببه على من اعتدى علينا، وندفع به الصائل، ونحرس به الحدود، وتُصنع الطائرات والدبابات والمدافع والسفن، ونشر كلمة التوحيد والرسالة الأخيرة، ومن الحديد تُبنى الجسور، والأنفاق، وتُشيد المباني والسدود، وتُقام الحضارات، ويكون العمران والبنيان والمواصلات.

إننا نعيش في عصر العلم، عصر غزو الفضاء وشبكة المعلومات، والفضائيات وطائرات التجسس، وأسلحة الدمار الشامل، وإذا لم يأخذ المسلمون بوسائل العلم المعاصر المكافئة لعدوهم، أو الوسائل المتاحة في حدود الإمكان، فلن تقوم لهم قائمة، ولن تتحقق لهم السيادة في دينهم وأرضهم. وديار المسلمين غنية بالمال، وغنية بالعقول العلمية، ولا يحتاج الأمر إلا إلى التجرد والتوجه الصحيح.

وبهذا يتبين أن الله تعالى قد وضع للبشر القوة المعنوية، وهي تتمثل فيما جاءت به الرسل من المنهج العملي لتحقيق العبودية والخلافة في الأرض.

وَوَضَعَ لَهَا الْقُوَّةَ الْمَادِيَّةَ، الممثلة في الحديد، لحماية الدعوة وإقامة العدل بين الناس. وتُختتم السورة بتوصية المسلمين بالعودة إلى الله تعالى، والاقتراء برسوله ﷺ فإذا أعاد المسلمون علاقتهم بربهم، ومَشَوْا وراء نبيهم، فإن الله تعالى ناصرهم على عدوهم بمشيئة الله سبحانه.

هذا: ويمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: يتناول جانب التنزيه لله تعالى ودلائل التوحيد، وذلك في الآيات الست الأول من السورة، وفيه اثنان وعشرون صفة ودليلاً على وحدانية الله تعالى.

المقطع الثاني: هو موجبات الإيمان والنفاق، ومصير المؤمنين الصادقين، والكافرين المكذبين، وذلك من الآية السابعة في السورة، إلى الآية التاسعة عشرة فيها.

فالمؤمنون لهم أجر كريم، والمنافقون في العقيدة، مأواهم النار وبئس المصير.

والمقطع الثالث: يتناول رحلة الدنيا والآخرة، فالدنيا لعب ولهو.. والآخرة تنافس وتسابق إلى وسائل النجاة، وهذا من الآية العشرين إلى الآية الرابعة والعشرين.

المقطع الرابع: حديث عن الرسل والرسالات، ووسائل التمكين في الأرض، ودعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بخاتم النبيين، وذلك من الآية الخامسة والعشرين إلى الآية التاسعة والعشرين وهي نهاية السورة، وفي هذا المقطع بيان أن إقامة منهج الله تعالى في أرضه لا بد له من قوة تحميه، فالقوة المعنوية تحتاج إلى قوة مادية تساندها وتحقق لها البقاء في الأرض، والحديد عنوان هذه القوة، وقد جاءت الرسل بما يريد الله من خلقه.

* * *

سُورَةُ الْمُجَادِلَةِ (٥٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المجادلة) هي السورة الثامنة والخمسون في ترتيب المصحف، والثالثة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة المنافقون)، وقبل (سورة التحريم والحجرات)، ويبدو أن (سورة المجادلة) قد نزلت قبل (سورة الأحزاب)، لأن قول الله تعالى فيها ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤] يقتضي أن تكون هذه الآية قد نزلت بعد إبطال حكم الظهار.

وتسمى (سورة المجادلة) بكسر الدال، إشارة إلى المرأة التي جاءت تجادل الرسول ﷺ في شأن زوجها وهو الأولى، لأن فيه إضافة الجدل إلى صاحبة الجدل، أما على فتح الدال فهو مصدر مأخوذ من فعل ﴿تُجَادِلُكَ﴾ المعبر عنه بالمحاوراة في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾.

ويقال لها: سورة (قد سمع) وسُمِّيَتْ في مصحف أُبَيِّ بن كعب (سورة الظهار)^(١). فهذه ثلاثة أسماء لها: المجادلة، وقد سمع، والظهار.

وهي سورة مدنية، قال ابن عباس: نزلت سورة المجادلة بالمدينة^(٢). وكذا جميع سور الجزء الثامن والعشرين، كلها مدنية.

وعدد آياتها اثنتان وعشرون آية في العدد الكوفي والبصري والشامي، وإحدى وعشرون آية في العدد المدني والمكي.

وعدد كلماتها أربع مئة وثلاث وسبعون كلمة، وعدد حروفها ألف وسبع مئة واثنان

(١) تفسير التحرير والتنوير (٥/١٣).

(٢) البيهقي في الدلائل ١٤٣/٧ وغيره.

وتسعون حرفاً.

وشأن السور المدنية، أن تُعنى بأحكام التشريع وشؤون المجتمع المسلم. وقد اشتملت هذه السورة على أحكام الظهار والكفارة التي تجب على المظاهر، وحكم التناجي، وآداب المجالس، وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ، وعدم مودة أعداء الله تعالى، كما تحدثت عن المنافقين واليهود، وعن الذين يحادون الله ورسوله. وكل آية في هذه السورة، فيها اسم الجلالة مرة أو أكثر.

وقد كان المجتمع المدني مشتملاً على أصناف من الناس:

١- منهم المؤمنون الذين يُرييهم الوحي، ليحْمِلُوا دعوة الله تعالى إلى كافة الناس، في المشارق والمغارب.

٢- ومنهم الوثنيون الذين يقلّدون مَنْ سبقهم دون إعمال فكر ولا نظر، ويتعلّقون بذيل الليل المدبّر.

٣- ومنهم اليهود الذين يزعمون أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه! ويريدون فَرَضَ أهوائهم على العالم، والسيطرة على مقدّراته.

٤- ومنهم المنافقون الذي يَجْزُونَ وراء مصالحهم، ويظهرون في أَلْفِ لَوْنٍ.

موضوعات السورة: على النحو التالي:

أ- وفي الآيات الست الأولى تحدثت السورة عن الظهار وحكمه وكفارته.

ب- وفي الآية السابعة والثامنة تحدثت عن صورة من صور مكر اليهود، حتى في إلقاء التحية على المسلمين، والتناجي فيما بينهم وهم في مجالس المسلمين.

ج- وفي أعقاب ذلك تُوجّه السورة، ثلاث نداءات إلى المؤمنين، تنهاهم في أول نداء عن التشبه باليهود في التناجي بالإثم والعدوان.

وتأمرهم في النداء الثاني أن يفسح بعضهم لبعض في المجالس الخاصة والعامة.

وفي النداء الثالث تأمرهم بتقديم صدقة، عند مناجاة الرسول ﷺ بعد أن تكاثر عليه

الناس متوافدين إلى مجلسه، وذلك حتى الآية الثالثة عشرة.

د- ومن الآية الرابعة عشرة حتى الآية الحادية والعشرون، تحدثت السورة عن المنافقين الذين يوالون اليهود، ويتحالفون معهم ضد المسلمين، وينقلون إليهم أسرارهم، فتفضحهم وتكشف زيفهم.

هـ- وتُختم السورة ببيان حقيقة الحب في الله والبغض فيه، وتبين أن صلة الإيمان أقرب من صلة الدم، وأن المتحايين في الله هم حزب الله تعالى.

وهكذا: فقد بينت السورة حكم الظهار، فأبطلت ما كان شائعاً في الجاهلية من جعل المظاهر منها في حكم الأم، وشرعت له الكفارة، وبينت سوء عاقبة الذين يحادون الله ورسوله، وهم جماعة يعيشون في كبت وقهر في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب مهين، وقد أحصى الله عليهم أعمالهم التي نسوها، وبينت أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن الله تعالى يشهد كل نجوة في خلوة وجلوة.

وحذرت آيات السورة من عاقبة التعاون على الإثم والعدوان، وما يكون من التناجي في هذا المقام، ورغبت في التعاون على البر والتقوى.

وساقت آيات السورة ألواناً من الآداب التي يجب على المؤمنين أن يتحلّوا بها، وبشرتهم برضى الله تعالى متى أخلصوا له الطاعة والعبادة.

ومن ذلك أدب السماحة والتوسع في المجالس، لاسيما مجالس العلم والذكر، وأدب السؤال والحديث.

وبقية السورة تتحدث عن المنافقين الذين يتولّوا اليهود، ويتآمرون معهم على المسلمين، ويُدَارون تأمرهم بالهلف الكاذب، وهؤلاء يواجهون عذاب الله تعالى وغضبه، مع الذين يحادون الله ورسوله.

وقد كتب الله سبحانه أنه ورسله هم الغالبون، وأنه لا بد أن يتميز الصف المسلم من غيره، تحت راية الله تعالى والاعتزاز بدينه، وهذه هي الصورة الوضيئة لحزب الله تعالى،

في مقابلة الذين استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله.

وقد وردت روايات في أسباب نزول آيات الظهار، منها ما جاء:

١- عن عائشة رضي الله عنها قالت: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفي عليّ بعضه، وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي، ونثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني، اللهم: إني أشكو إليك، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾^(١).

٢- وفي رواية الإمام أحمد عن خويلة بنت ثعلبة قالت: والله فيّ، وفي أوس بن صامت، أنزل الله سورة المجادلة، قالت: كنت عنده، وكان شيخاً كبيراً، قد ساء خلقه وضجر، فدخل عليّ يوماً فراجعته بشيء فغضب، فقال: أنت عليّ كظهر أمي، قالت: ثم خرج، فجلس في نادي قومه ساعة، ثم دخل عليّ، فإذا هو يريدني على نفسي، فقلت: كلا والذي نفس خويلة بيده، لا تخلّص إليّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه، قالت: فوائبني وامتنعت منه، فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف، فألقيته عني، ثم خرجت إلى بعض جاراتي، فاستعرت منها ثيابها، ثم خرجت حتى جئت رسول الله ﷺ فذكرت له ما لقيت منه، فجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه، قالت: فجعل رسول الله ﷺ يقول: يا خويلة، ابن عمك شيخ كبير، فاتقي الله فيه، قالت: فوالله ما برحت حتى نزل في القرآن، فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه، ثم سرّي عنه، فقال لي: يا خويلة، قد أنزل الله فيك وفي صاحبك، ثم قرأ عليّ الآيات ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾

(١) أخرجه ابن ماجه برقم (٢٠٦٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٥٢/١) برقم (١٥٥) ورقم: (١٦٧٨)، وأخرجه البخاري معلقاً برقم (٧٣٨٥)، ووصله ابن حجر بسنده وصححه، تغليق التعليق (٣٣٨/٥)، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي من طريق الأعمش، المستدرک (٤٨١/٢)، والسنن الكبرى للنسائي برقم (١١٥٧٠)، وتفسير الطبري (٦٠٥/٢٨)، والبيهقي في سننه (٣٨٢/٧)، والواحدي في أسباب النزول (٣٠٤) قال ابن حجر في الفتح (٣٧٤/١٣): وهذا أصح ما ورد في قصة المجادلة وتسميتها.

إلى ﴿وَلْيَكْفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. فقال لي: مُريه فليعتق رقبة، قالت: فقلت: والله يا رسول الله ما عنده ما يعتق.

قال: فليصم شهرين متتابعين، فقلت: والله يا رسول الله، إنه شيخ كبير ما به من صيام. قال: فليطعم ستين مسكيناً وُسْقاً من تمر، قالت: قلت: والله يا رسول الله، ماذا عنده. قالت: فقال رسول الله: فإننا سنُعِينه بِعَرَقٍ من تمر، قالت: فقلت: وأنا يا رسول الله سأُعِينُهُ بِعَرَقٍ آخر، قال: قد أَصَبْتُ وَأَحْسَنْتُ، فأذهب فتصدقني عنه، ثم استوصي بأبن عمك خيراً، قالت: ففعلت»^(١).

والعَرَق: ستون صاعاً، وخويلة هي خولة بالتصغير، ويقال لها: بنت الصامت وبنت ثعلبة وهي امرأة أوس بن الصامت.

٣- وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان الرجل إذا قال لامرأته في الجاهلية: أنت عليّ كظهر أمي، حُرِّمَتْ عليه، فكان أول من ظاهر في الإسلام (أوس) ثم ندم، وقال لامرأته: انطلقني إلى رسول الله ﷺ فسليه، فأثته، فنزلت هذه الآيات^(٢).

٤- وفي رواية: قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان الظهار في الجاهلية يُحَرِّم المرأة على الرجل تحريماً مؤبداً، فجاءت خولة رسول الله ﷺ وذكرت له ذلك، فقال لها: حُرِّمَتْ عليه، فقالت للرسول ﷺ: إن لي صبية صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فقال: ما عندي في أمرك شيء، فقالت: يا رسول الله، ما ذكر

(١) المسند (٤١٠/٦) (٢٧٣١٩) قال محققوه: إسناده ضعيف، لجهالة معمر بن عبد الله بن حنظلة، فلم يزو عنه سوى محمد بن إسحاق، وذكره ابن حبان في الثقات، ورواه أبو داود مختصراً من طريق محمد بن إسحاق برقم (٢٢١٤)، والطبراني في الكبير (٦١٦)، والبيهقي (٣٩١/٧)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٤)، قال ابن كثير: هذا هو الصحيح في سبب نزول هذه السورة قلت: وفي الباب عن عائشة وابن عباس بإسناد صحيح وهو يؤيد ما قاله ابن كثير وتحسين الألباني له.

(٢) رواه البيهقي في السنن (٣٨٣/٧)، ونسبه السيوطي في الدر المنثور (١٧٩/٦) لابن مردويه والنحاس عن عكرمة، وفيه أبو حمزة الثمالي وهو ضعيف.

طلاقاً، وإنما هو أبو ولدي، وأحب الناس إليّ، فقال: حُرِّمْتُ عليه، فقالت: أشكوا إلى الله فاقتي وَوُجِدِي، وكلما قال رسول الله: حُرِّمْتُ عليه، هتفتُ وشكْتُ إلى الله، فأنزل الله الآيات ^(١).

وجميع الروايات التي استقصاها الطبري كلها متفقة على أن المرأة المجادلة هي: خولة، أو بالتصغير خويلة، أو جميلة، وزوجها: هو أوس بن الصامت، أخو عبادة بن الصامت، وجاء عن عمر بن الخطاب أنها خولة بنت حكيم، وقال أبو العالية والمهدوي: هي خولة بنت ذُلَيْج، وقال ابن إسحاق: هي خولة بنت الصامت، وقيل خولة بنت خويلد ^(٢).

والمشهور قول قتادة أنها خولة بنت ثعلبة ^(٣).

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور عدداً من الروايات في هذا المعنى.

٥- وعاشت هذه المرأة حتى خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقد ورد أنه مرَّ في خلافته على امرأة، وكان راكباً على حمار، والناس معه، فاستوقفته تلك المرأة طويلاً، ووعظته، وقالت له: عهدي بك يا عمر وأنت صغير، تدعى عُمَيْراً، ثم قيل لك: يا عمر، ثم قيل لك: يا أمير المؤمنين، فاتق الله يا عمر في الرعية، واعلم أن من أيقن بالموت خاف الفوت، ومن أيقن بالحساب خاف العذاب، وعُمِرَ واقف يسمع كلامها، فقيل له: يا أمير المؤمنين، أتقف لهذه العجوز هذا الوقوف، فقال: والله لو حبستني من أول النهار إلى آخره، لا زِلْتُ، إلا للصلاة المكتوبة، أتدرون مَنْ هذه العجوز؟! هذه (خولة بنت ثعلبة) التي سمع الله قولها من فوق سبع سموات، أسمع رب العالمين قولها ولا يسمعه عمر ^(٤)!

(١) رواه أبو داود في كتاب الظهار بسند صحيح (٢٢١٥)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٩٣٥).

(٢) ينظر: الإصابة (٦١٨/٧) وفتح الباري (٣٧٤/١٣).

(٣) ينظر: تفسير ابن عطية (٣٧٢/٥).

(٤) تفسير القرطبي (٢٦٩/١٧) ورواه الدارمي من طريق أبي يزيد عن عمر، وفيه انقطاع في السند، لأن أبا يزيد لم يدرك عمر، وأخرجه البيهقي في الأسماء والصفات برقم (٨٨٦) وابن أبي حاتم.

٦- وحدثت واقعة مماثلة لقصة خولة، حيث كان السائل فيها رجلاً، هو سلمة بن صخر الأنصاري، وكان قد جامع امرأته بعد أن ظاهر منها، وليس فيها أنها كانت سبباً للنزول، قال سلمة: إنه كان رجلاً قوي الشهوة، لا يصبر على ترك الجماع، فلما دخل شهر رمضان ظاهر من امرأته حتى ينتهي الشهر، وبينما كانت امرأته تخدمه في ليلة تكشف له منها شيء فجامعها، فلما أصبح ذهب للنبي ﷺ فأمره أن يعتق رقبة، قال: فضربتُ صفحة رقبتني بيدي، وقلت: والذي نفسي بيده ما أملك غيرها، قال: فصم شهرين، قلت: وهل أصابني ما أصابني إلا في الصيام، قال: فتصدق، فقلت: والذي بعثك بالحق، لقد بثنا ليلتنا هذه وخشاً - أي بدون طعام - ما لنا عشاء، قال: اذهب إلى صدقة بني زريق فقل له فليدفعها إليك، فأطعم عنك وسقا من تمر، ستين مسكينا، ثم استعن بسائرهما عليك وعلى عيالك، قال: فرجعتُ إلى قومي فقلت: وجدتُ عندكم الضيق وسوء الرأي، ووجدت عند رسول الله ﷺ السعة والبركة، قد أمر لي بصدقتكم، فادفعوها إلي، فدفعوها إليه ^(١).

* * *

(١) ينظر: نص الحديث في المسند (٣٧/٤) (١٦٤٢١) قال محققوه: حديث صحيح بطرقه وشواهده، وأبي داود برقم (٢٢١٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٩٣٣)، وابن ماجة برقم (٢٠٦٢)، والترمذي برقم (٣٢٩٩) وحسنه، والطبراني (٦٣٣٣)، والبيهقي (٣٩٠/٧)، وجمع الفوائد (١/٦٢٠)، والحاكم (٣٠٢/٢)، وهو في مصنف عبد الرزاق (١١٥٢٨) بنحوه، قال الترمذي: والعمل على هذا الحديث عند أهل العلم في كفارة الظهار.

سُورَةُ الْحَشْرِ (٥٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الحشر)، هي السورة التاسعة والخمسون في ترتيب المصحف، والثامنة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة البينة، وقبل سورة النصر، في السنة الرابعة من الهجرة، وكان نزولها عقب إخراج بني النضير من القرية التي كانوا يسكنون فيها، واسمها (الزُّفْرَة) في ضواحي المدينة، وكان اليهود قد ذهبوا إلى المدينة، قرب هجرة النبي ﷺ إليها، انتظارا لقدومه، كما كانوا يقرؤون في التوراة، فلما جاءهم محمد ﷺ بأوصافه وعلاماته التي عرفوها في كتبهم كفروا به، فلعنة الله على الكافرين.

وتسمى (سورة الحشر)، لوقوع لفظ الحشر في أولها، ويسمى ابن عباس: سورة بني النضير، لأن قصتهم ذُكرت فيها.

فعن سعيد بن جبير، قال: قلت: لابن عباس رضي الله عنهما: (سورة الحشر، قال: قل: بني النضير) ^(١).

وفي البخاري عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: سورة التوبة؟ قال: التوبة هي الفاضحة، مازالت تنزل: ومنهم، ومنهم، حتى ظنوا أنها لم تُبق أحدا منهم إلا ذُكر فيها، قال: قلت: سورة الأنفال؟ قال: نزلت في بدر، قال: قلت: سورة الحشر؟ قال: نزلت في بني النضير ^(٢). وقد أراد ابن عباس أن يكون للسورة اسمين.

وسماها النبي ﷺ سورة الحشر كما في حديث معقل بن يسار ؓ عند الترمذي وغيره أن النبي ﷺ قال: «من قال حين يصبح ثلاث مرات: أعوذ بالله السميع العليم من

(١) صحيح البخاري برقم (٤٠٢٩، ٤٨٨٣).

(٢) البخاري برقم (٤٨٨٣)، وصحيح مسلم برقم (٣٠٣١).

الشیطان الرجیم، وقرأ ثلاث آیات من آخر سورة الحشر وَكَلَّ اللَّهُ بِهِ سَبْعِينَ أَلْفَ مَلَكٍ يُصَلُّونَ عَلَيْهِ حِينَ يَمُوتُ، وَإِنْ مَاتَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ مَاتَ شَهِيداً، وَمَنْ قَالَهَا حِينَ يَمُوتُ كَانَ بِتِلْكَ الْمَنْزِلَةِ»^(١).

وهي سورة مدنية باتفاق، وعدد آياتها أربع وعشرون آية باتفاق علماء عدّ الآي. وعدد كلماتها: أربع مئة وخمس وأربعون كلمة، وهي ألف وتسع مئة وثلاثة عشر حرفاً. **أغراض السورة:**

بدأت السورة بتمجيد الله تعالى وتنزيهه، فالكون كله يشهد بوحداية الله تعالى وعظيم قدرته، والمحور الرئيس الذي تدور عليه السورة: هو قصة يهود بني النضير، الذين أجلاهم النبي ﷺ عن المدينة، فأخرجهم من حصونهم وقلاعهم المنيعة، بعد أن نقضوا عهد النبي ﷺ وكانوا يرون أنه لا تُردّ له راية، فلما كانت محنة يوم أحد ارتابوا في شأنه، وتحالفوا مع قريش وغدروا، فلما رجع النبي ﷺ من غزوة أُحُد تبين له معتقد بني النضير وغدرهم ومولاتهم للكفار، فحاصروهم وعاهدتهم على أن يُجلبهم عن أرضهم فارتحلوا إلى خيبر والشام وغيرهما.

وتَبَعَ ذلك موضوع الفياء والغنيمة وما يتعلق بهما من شروط وأحكام، ومن ذلك أن الفياء - وهو الذي حصل للمؤمنين بدون حرب ولا قتال - يختص بالفقراء دون غيرهم. وفي أعقاب ذلك نُوِّهت السورة بفضل المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان. وفي مقابل ذلك تحدثت السورة عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام، فبينت جُبْنَ اليهود، وضربت للمنافقين أسوأ الأمثال، حيث مثّلتهم بالشیطان الذي يُغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتبرأ منه.

ووجهت السورة نداء إلى المؤمنين تأمرهم فيه بتقوى الله تعالى، وترهبهم من اليوم

(١) المسند (٢٦/٥) برقم (٢٠٣٠٦) بإسناد ضعيف؛ لضعف خالد بن طهمان، ضعفه ابن معين، وانظر آخر السورة وأخرجه الترمذي برقم (٢٩٢٢) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا مال ولا بنون، وتبين أن مصير السعداء والأشقياء لا يستويان، وأن الفارق كبير بين أهل الجنة وأهل النار، وتنهاتهم عن التشبه بالفاسقين الذين خرجوا عن طاعة ربهم فكان عاقبة أمرهم خُسرًا.

وختمت السورة بذكر نحو عشرين اسمًا من أسماء الله الحسنی، وصفاته العليا، وفيها تنزيه الله تعالى عن كل نقص، حتى يتناسق بدء السورة مع ختامها.

هذا: وقد تحدثت الآيات الخمس الأولى من السورة عن قصة إجلاء بني النضير.

وتحدثت الآية السادسة والسابعة عن حكم الفيء وكيفية توزيعه.

وتحدثت الآية الثامنة عن المهاجرين، والآية التي بعدها تحدثت عن الأنصار، أما

الآية العاشرة فتحدثت عن التابعين ومن بعدهم من أهل الإيمان.

والسبع آيات التي تتوسط السورة من الآية ١١-١٧ تناولت الحديث عن المنافقين

الذين لا يرون حرجاً في أن يعيشوا مع اليهود، ويقاسموهم حياة خشنة أو ناعمة ويطلبون علاقاتهم بهم.

وتبرز السورة، طبيعة اليهود التي لا تختلف في الحاضر والمستقبل عن الماضي،

فهم ناقضون للعهود دائماً ﴿أَوْكُلَمَا عَهْدُوا عَهْدًا بَدَّهٖ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٠] يُعَرِّزُونَ

بمن تحالف معهم ويخذلونه، وشأنهم شأن غيرهم من الكفار، والنار عاقبة كل منهم.

ويأتي التعقيب في آخر السورة على أحداث اليهود ومن سار في ركبهم، بتوجيه

الخطاب للمؤمنين أن يتقوا الله تعالى ويعملوا ليوم الحساب والجزاء، ولا يكونوا

كغيرهم ممن نسوا الله تعالى فأنساهم أنفسهم، لأن أهل النار وأهل الجنة لا يستويان.

وتشير الآية الحادية والعشرون إلى أن لهذا القرآن أثر كبير في النفوس، فهو يهزُّ

القلب هزًّا، ويحرك الضمير والوجدان، ولو نزل على الصخرة الجامدة لتأثرت به

وخشعت له.

وفي الآيات الثلاث الأخيرة عود على ما بدأت به السورة من تسبيح الله تعالى في

ظلال نخبة من أسماء الله الحسنی وصفاته العليا.

قصة بني النضير:

بنو النضير: هم جماعة من اليهود، من ذرية الكاهن بن هارون، هم وبنو قريظة، وكان يقال للقبيلتين: الكاهنان^(١).

والكاهن هو الذي يحفظ الديانة بيده ويد ذريته، وكان هارون عليه السلام يحفظ الملة الإسرائيلية، وكان هؤلاء اليهود قد نزلوا المدينة على إثر فتن في بني إسرائيل، انتظاراً منهم لمقدم محمد ﷺ^(٢).

سبب تواجد اليهود في المدينة:

وذلك أن موسى عليه السلام كان قد أرسل طائفة من بني إسرائيل لقتال العمالق فتقاعسوا، فلما مات موسى عليه السلام رجعوا إلى أريحا وما حولها، فقال لهم قومهم: أنتم عصيتُم أمر موسى فلا تدخلوا بلادنا، ولما كانوا يعلمون بظهور نبي جديد كما في كتبهم، خرجوا إلى موطن هجرته ﷺ ليقيموا فيها حتى يظهر النبي الخاتم، فيكونوا أول من يؤمن به، فلما ظهر النبي ﷺ كانوا أول من كفر به، فلعنة الله على الكافرين، وكانوا قد نزلوا في قرية يقال لها: الزَّهْرَة، قُرب المدينة في شمال قباء، وصار لهم فيها نخل وأموال كثيرة، وكان لهم فيها ستة حصون.

ولما بُعث النبي ﷺ وهاجر إلى المدينة، كتب كفار قريش إلى عبد الله بن أبي بن سلول وغيره يهددونهم بسبب إيوائهم للنبي ﷺ وأصحابه، ويتوعدونهم بالحرب، هم والمسلمون معهم، فنصحهم النبي ﷺ بأن قريشا تريد أن تجعل بأسهم بينهم، فلما كانت غزوة بدر وانتصر المسلمون، قال بنو النضير: إنه النبي الأمي الذي نجد نعتَه في التوراة، وكان النبي ﷺ حين قدم إلى المدينة، كتب بينه وبينهم صلحا على أن يكونوا محايدين، ليسوا معه ولا عليه.

(١) تفسير ابن عطية (٢٨٣/٥).

(٢) تفسير فتح القدير (١٩٢/٥).

جبريل يأمر الرسول بقتل كعب بن الأشرف:

فلما وقعت غزوة أحد، ارتاب اليهود في شأن النبي ﷺ ونقضوا العهد الذي بينهم وبينه، وأظهروا العداوة للنبي ﷺ فخرج كعب بن الأشرف، ومعه أربعون رجلاً إلى مكة، وحالفوا قريشاً عند الكعبة، ورجع كعب إلى المدينة، ونزل جبريل، فأخبر النبي ﷺ بما تعاقد عليه كعب وأبوسفيان وأمره بقتل كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مسلمة غيلة في حصنه، وكان أخاً له من الرضاع.

تآمر اليهود على قتل النبي ﷺ:

وكان النبي ﷺ قد اطلع على خيانة منهم حين أتاهم في دية المسلمين اللذين قتلها عمرو بن أمية الضمري بعد انصرافه من غزوة بئر معونة التي استشهد فيها سبعون من قراء الصحابة، ونجا عمرو من القتل، وأسرهُ المشركون، فأطلقه عامر بن الطفيل، ولمّا كان في طريقه إلى المدينة، قتل عمرو رجلاً من بني عامر، يظن أنه يثار بهما، وكان لبني عامر عقد أمان، مع النبي ﷺ فلما قدم عمرو، وأخبرَ النبي ﷺ بذلك، قال له: لقد قتلت قتيلين، وسوف أدفع ديتهما، فخرج إلى بني النضير يطلب منهما المشاركة في دفع دية الرجلين بمقتضى ما بينهما من اتفاق، فتآمروا على الغدر بالنبي ﷺ وهو عندهم.

- ١ - وقال: عمرو بن جحاش: أنا أظهر على البيت الذي يجلس تحته، فأطرح عليه صخرة، فجاء جبريل وأخبر النبي ﷺ بما أراد القوم، فنهض من مجلسه متوجهاً إلى المدينة، وكان سلام بن مشكم قد قال لهم: لا تفعلوا فوالله ليُخْبِرَنَّ بما هممتم به، وإنه لنقض للعهد الذي بيننا وبينه.
- ٢ - ومرة أخرى بيّتوا نية الغدر بالنبي ﷺ حيث طلبوا منه أن يخرج إليهم في ثلاثين من أصحابه، ثم رأوا أن هذا العدد كثير، فطلبوا تعديله إلى ثلاث، قالوا: ويلقاك ثلاثة من علمائنا، فإن آمنوا بك اتّبعناك، ففعل، واشتمل اليهود الثلاثة على الخناجر، فأرسلت امرأة من بني النضير إلى أخ لها من الأنصار، مسلم، تخبره بأمر بني النضير، فأخبر أخوها النبي ﷺ قبل أن يصل إليهم، فرجع، وأرسل إليهم محمد بن مسلمة، يطلب منهم الخروج، وأمهلهم عشراً.

حصار بني النضير وخروجهم من المدينة:

وفي ربيع الأول سنة أربع من الهجرة، سار إليهم النبي ﷺ والمسلمون معه، وأمرهم أن يخرجوا من قريتهم، ولا يساكنوه فيها، وقال لهم: قد أمهلتكم عشراً، فمن وجدته بعد ذلك ضربت عنقه، وأخذوا يتجهزون للخروج، فأرسل إليهم زعيم المنافقين عبدالله ابن أبي يقول لهم لا تخرجوا وسوف أمدكم بألفين، يدخلون معكم حصنكم، فيموتون دونكم، وتنصركم قريظة وحلفاءكم من غطفان، فاشتد ساعدهم، وقال رئيسهم حُيي بن أخطب: إنا لن نخرج، واصنع ما بدا لك، فحاصرهم النبي ﷺ يحمل اللواء علي بن أبي طالب، ولم ينصرهم أحد ممن وعدوهم أن يكونوا معهم، فلما رأوا ذلك قذف الله في قلوبهم الرعب، فطلبوا من النبي ﷺ الصلح، فأبى إلا الجلاء عن ديارهم، فأخذوا يُخربون بيوتهم بأيديهم، ويحملوا معهم ما يتفعون به من الأبواب والأخشاب، فحمل كل ثلاثة أبيات، حُمْلَ بعير، وخرجوا، فمنهم من لحق بخير، ومنهم من لحق بأريحا وأذرعات، وخرج قليل منهم إلى الحيرة.

ولم يَسْلَمْ من بني النضير إلا أهل بيتين هما: آل أبي الحقيق، وآل حُيَّ بن أخطب، فإنهم لَحِقُوا بخير، ولحقت طائفة منهم بالحيرة.

وأسلم من بني النضير رجلان هما: يامِن بن عُمَيْر، وأبوسعد بن وهب، وترك بنوا النضير خمسين درعاً، وخمسين بيضة، وثلاث مئة وأربعين سيفاً، وقد قسمها النبي ﷺ على المهاجرين دون الأنصار، لأنهم هم الذين تركوا ديارهم وأموالهم، وأصبحوا بحاجة إلى المعونة، ولم يُعط من الأنصار إلا ثلاثة أظهروا حاجتهم وهم: سهْل بن حُنَيْف، وأبو دَجَانة، والحارث بن الصَّمة، أما النخيل فقد خص الله به رسوله ^(١).

(١) ينظر في هذا: أبوداود برقم (٣٠٠٤)، وفتح الباري (٢٥٥/٧) عن ابن مردويه بإسناد صحيح عن الزهري، وشرح المواهب اللدنية للزرقاني (٩٥/٢)، وطبقات ابن سعد (٥٧/٢)، وابن هشام (١٩٠/٢)، وتفسير الطبري (٢٨/٢١)، والبداية لابن كثير (٧٥/٤).

قال عروة بن الزبير رضي الله عنهما: كانت بني النضير بعد بدر بستة أشهر^(١).

هذا: ولم يُخمس النبي ﷺ أموال بني النضير، بل جعلها خالصة له يُنفقها في مصالح المسلمين، لأن الله تعالى قد أفاء عليه بها، ولم يوجف المسلمون عليها من خيل ولا ركاب، وكان النبي ﷺ قد استولى على أرضهم وديارهم، وأخرجهم من حصونهم صاغرين مُهانين.

وهكذا كان اليهود أذلاء في مقابلة المسلمين لا شوكة لهم ولا قوة، ولا عزة لهم ولا منعة، فما بالهم اليوم يشمخون بأنوفهم ويشترطون على المسلمين أصحاب الأرض في فلسطين ما يشاؤون، ولا يريدون أن تقوم لهم قائمة، ولا أن يعود اللاجئون إلى ديارهم، ولا يكون لهم كيان ولا قوة، إنه لمن عجائب الزمن أن يُصبح العدو المحتل هو سيد الموقف الذي يُملئ شروطه. وأن يكون صاحب الأرض تحت رحمة المغتصب^(٢)!!

* * *

(١) البخاري مع الفتح (٣٢٩/٧).

(٢) في ٢١ / ٦ / ١٤٣٠ هـ أعلن رئيس وزراء الكيان الصهيوني (نتنياهو) أن القدس عاصمة أبدية لإسرائيل، وأنه لا عودة لللاجئين الفلسطينيين، وأن على أهل فلسطين أن يعترفوا بالدولة اليهودية العبرية، وأنه يوافق على قيام دولة فلسطينية منزوعة السلاح على ساحة الأرض التي يريدونها بعد الاعتراف بهم! فاللهم ارحم ضعفنا، واجبر كسرنا، وغيّر ما بنا، وهيء لنا أسباب النصر.

سُورَةُ الْمُمتَحِنَةِ (٦٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الممتحنة) هي السورة الستون في ترتيب المصحف، والثانية والتسعون في ترتيب النزول عند جابر بن زيد، نزلت سنة ست من الهجرة، بعد (سورة العقود) وقبل (سورة النساء).

وهي سورة مدنية خالصة، وعدد آياتها ثلاث عشرة آية باتفاق، وهي ثلاث مئة وثمان وأربعون كلمة، وألف وخمس مئة وعشرة أحرف.

وتُسمَّى سورة الممتحنة، بفتح الحاء، أي سورة المرأة التي امتُحنت في إيمانها، وهي التي حملت كتاب حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة، ويشير إلى هذا أول آية في السورة. ويقال: سورة الممتحنة، بكسر الحاء، أي السورة التي امتحنت المهاجرات في إيمانهن، فأُشيد الامتحان إلى السورة، كما سُمِّيَتْ سورة براءة، الفاضحة، أي التي فضحت المنافقين، وينظر في هذا المعنى إلى الآية العاشرة من السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ﴾.

وقال السخاوي في كتابه جمال القراء: وتسمى سورة الامتحان، وسورة المودة. فهذه أربعة أسماس.

موضوع السورة:

إن الوفاء للعقائد والمبادئ، يفرض الولاء لمن يواليها، والبراء ممن يعاديها، واعتراض من يعترضها، وهكذا فعل أتباع الأنبياء في كل عصر ومصر.

ومن الناس من يرفض الاستسلام، ويصبر ويصابر حتى يتحقق له النصر، ومنهم من يستبعد طريق الكفاح، فيقبل الواقع المر، ويسقط أمام عدوه، ويمدُّ إليه يده حرصاً على

سلامته وسلامة أهله.

وموضوع هذه السورة هو الولاء والبراء، فهي تنهى عن موالاة غير المسلمين، واتخاذهم أصدقاء وأحباباً وأمناء من دون المؤمنين، وتبين أن غير المسلم لا يصفوا للمسلم أبداً، وأنه إن ظفر به ظهرت له عداوته.

والسورة تدعو إلى التأسي بإبراهيم عليه السلام في وجوب الولاء والمحبة بين من جمعتهم كلمة التوحيد.

وتدعو إلى عدم موالاة غير المسلمين في شيء، أما حسن معاملة غير المحاربين منهم، فهو شيء آخر يأمر به الإسلام، والولاء غير حسن المعاملة. وينسحب هذا الحب في الله والبغض في الله، على كل قريب وبعيد في النسب والصلة. وبينت السورة أن الإنسان لا ينفعه إلا عمله الصالح، وأن أقاربه وأصهاره لن تغني عنه من الله شيئاً.

كما ذكرت السورة مبايعة النبي ﷺ للنساء، وشروط هذه البيعة.

وفي السورة ثلاث نداءات للمؤمنين:

النداء الأول: ينهى عن موالاة غير المسلمين الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية.

والنداء الثاني: يبين حكم النساء المؤمنات اللاتي يتركن أزواجهن من غير المسلمين، وما يتعلق بذلك من وجوب الفراق بينهما، وتحريم الزواج من المشركات الوثنيات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ الآية.

والنداء الثالث للمؤمنين: ينهى عن موالاة أعداء الله وأعداء المؤمنين مرة أخرى في ختام السورة كما في بدايتها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾.

وفيه نداء خاص للنبي ﷺ وهو يبايع النساء كما يبايع الرجال ويأخذ عليهن العهود على طاعة الله تعالى والبعد عن محارمه ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يَبَايِعُكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ

يَا اللَّهُ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقَنَّ وَلَا يَزْنِيَنَّ ﴿١﴾ الآية.

وللربط بين أول السورة وآخرها، فقد خُتمت السورة بما بدأت به عن الولاء والبراء، ليتناسب الكلام في البدء والختام.

قصة حاطب بن أبي بلتعة:

جاء في هذه القصة روايات كثيرة في كتب الحديث والتفسير والسِّير والتاريخ وأسباب النزول ونحوها، وسوف أقصر في قصة حاطب بن أبي بلتعة على بعض روايات القصة، وبعض روايات سبب النزول:

أولاً: مما جاء في قصة حاطب:

١ - في الصحيحين وغيرهما عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عليٍّ ؓ قال: بعثني رسول الله ﷺ وأبا مَرْثَدَ، والزيير بن العوام، وكلنا فارس، وقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها امرأة من المشركين، معها كتاب من حاطب إلى المشركين» فأدركناها تسير على بعير لها، حيث قال رسول الله ﷺ فقلنا: الكتاب؟ فقالت: ما معي كتاب، فأنخناها، فالتمسنا فلم نَر كتاباً، فقلنا: ما كَذَب رسول الله ﷺ لَتُخْرِجَنَّ الكتاب أو لَنُجَرِّدَنَّكَ، فلما رأت الجِدَّ أهوت إلى حُجْزتها، وهي مختجزة بكساء فأخرجته، فانطلقا بها إلى رسول الله ﷺ فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني لأضرب عنقه، فقال النبي ﷺ لحاطب: «وما حملك على ما صنعت؟» قال حاطب: والله ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، أردت أن تكون لي عند القوم يد، يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلا له هنالك من عشيرته من يدفع الله به عن أهله وماله، فقال النبي ﷺ: «صدق، ولا تقولوا له إلا خيراً» فقال عمر: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلاضرب عنقه، فقال «أليس من أهل بدر؟» فقال: «لعل الله قد اطلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجب لكم الجنة، أو: قد غفرت لكم،

فَدَمَعْتُ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ»^(١).

٢ - وفي رواية عمر بن الخطاب ؓ قال: كتب حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين بكتاب، فجاء به إلى النبي ﷺ فقال: «يا حاطب، ما دعاك إلى ما صنعت؟» قال: يا رسول الله، كان أهلي فيهم، فخشيت أن يضرهموا عليهم، فقلت: أكتب كتاباً لا يضر الله ورسوله، فقال عمر: أضرب عنقه يا رسول الله فقد كفر؟ فقال ﷺ: «وما يدريك يا ابن الخطاب أن الله اطلع على أهل هذه العصابة من أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٢).

٣ - وفي حديث أنس ؓ أن النبي ﷺ أَمَّنَ النَّاسَ يَوْمَ فَتَحَ مَكَةَ إِلَّا أَرْبَعَةً: عَبْدَ الْعُزَّى بْنَ خَطْلٍ، وَمُقَيْسَ بْنَ ضُبَابَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَعْدِ بْنِ أَبِي سَرْحٍ، وَأُمَّ سَارَةَ وَهِيَ الْمَرْأَةُ الَّتِي حَمَلَتْ كِتَابَ حَاطِبٍ إِلَى قُرَيْشٍ، وَلَمَّا أَدْرَكَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْكَرَتْ وَفَتَشَاهَا وَلَمْ يَجِدْ شَيْئاً، وَلَمَّا هَدَّ دَاها بِالسَّيْفِ أَخْرَجَتْ الْكِتَابَ مِنْ قُرُونٍ شَعْرَهَا فَدَفَعَتْهُ إِلَيْهِمَا^(٣).

قال الحافظ ابن حجر: قلت: قد ذكروا أن النبي ﷺ كان أهدر دمه ثم أمنها يوم الفتح. قال ابن حجر: وهي أم سارة التي أعطاها حاطب بن أبي بلتعة الكتاب إلى قريش فنزلت فيه ﴿لَا تَنْخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أُولَئِكَ﴾ سَمَّاها قتادة عن أنس في حديث مختصر أخرجه ابن مندة من طريق عن قتادة عن أنس، أن أم سارة أمة لقريش، أتت النبي ﷺ فشكت إليه الحاجة، ثم إن رجلاً بعث معها كتاباً إلى أهل مكة ليحفظوا عياله، فنزلت

(١) صحيح البخاري برقم (٤٨٩، ٣٠٠٧، ٣٩٨٣)، وصحيح مسلم برقم (٢٤٩٤)، وينظر: المسند (١/٧٩) (٦٠٠، ٨٢٧، ٤٨٩، ٣٠٠٧) وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وأبوداود برقم (٢٦٥١)، والترمذي برقم (٣٣٠٥)، والنسائي في السنن الكبرى برقم (١١٥٨٥)، والطبري (٣٨/٢٣)، وابن حبان (٦٤٩٩)، والبيهقي (١٥٢/٣)، وعبد بن حميد (٨٣).

(٢) أخرجه أبويعلى كما في المطالب العالية (٤١٥٢)، والحاكم (٧٧/٤)، والضياء المقدسي (١٧٥-١٧٧)، وقال الحافظ: إسناده صحيح.

(٣) ينظر: تمام الحديث عند ابن مردويه كما في تخريج أحاديث الكشاف للزيلعي (٤٥١/٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ قال أبو نعيم: ذكرها في الصحابة ونسبها إلى الإسلام^(١). وقوله (أمة لقريش) أي لعمر بن هاشم بن المطلب.

ثانيا: جاء في أسباب النزول: أن الآية الأولى من هذه السورة نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وذلك أن سارة مولاة أبي عمرو بن صيفي بن هاشم، أتت رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة، ورسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فقال لها: أمسلمة جئت؟ قالت: لا، قال: فما جاء بك؟ قالت: أنتم الأهل والعشيرة والموالي، وقد احتججت حاجة شديدة، فجئت إليكم لتعطوني، قال لها رسول الله ﷺ: «فأين أنت من شباب أهل مكة؟» وكانت مغنية، فقالت: ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر، فحث رسول الله ﷺ بني عبد المطلب، فكسوها، وحملوها، وأعطوها، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة، فكتب معها كتاباً إلى أهل مكة، وأعطاهما عشرة دنانير، على أن تُوصِّل الكتاب إلى أهل مكة، وكتب في الكتاب: من حاطب إلى أهل مكة، إن رسول الله يريدكم، فخذوا حذرکم، فخرجت به سارة، ونزل جبريل عليه السلام، فأخبر رسول الله ﷺ بما فعل حاطب.

فبعث رسول الله ﷺ علياً، وعماراً، والزبير، وطلحة، والمقداد، وأبا مرثد، وقال: «انطلقوا، حتى تأتوا روضة خاخ - وهي مكان قريب من المدينة - فإن فيها طعينة - أي امرأة مسافرة - معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فخذوه منها، وخلّوا سبيلها، فإن لم تدفعه لكم فاضربوا عنقها»، فخرجوا حتى أدركوها، فقالوا لها: أين الكتاب؟ فحلفت بالله ما معها من كتاب، ففتشوا متاعها فلم يجدوا شيئاً، فهتّوا بالرجوع، فقال علي: والله ما كذبنا، ولا كذبنا، وسلّ سيفه، وقال: أخرجي الكتاب، وإلا ضربت عنقك، فلما رأت الجدّ أخرجته من ذؤابتها - أي من ضفيرة شعرها - فخلّوا سبيلها، ورجعوا بالكتاب إلى رسول الله ﷺ فأرسل إلى حاطب، فأثاه، فقال له: (هل تعرف الكتاب؟) قال: نعم، قال: «فما حملك على ما صنعت؟» فقال: يا رسول الله، والله ما كفرْتُ منذ أسلمت، ولا

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (١٤/ ٣٧٤) رقم (١٢١٧٨).

غَشَّشْتُكَ مِنْذُ نَصْحَتِكَ - أي منذ أخلصت لله - ولا أحببْتُهم مِنْذُ فَارَقْتُهُمْ، ولكن، لم يكن أحد من المهاجرين إلا وَلَهُ بِمَكَّةَ مِنْ يَمْنَعِ عَشِيرَتَهُ، وكنتُ غريباً فيهم، وكان أهلي بين ظهرائِهم، فخشيتُ على أهلي، فأردتُ أن أتخذَ عندهم يداً، وقد علمتُ أن الله يُنزل بهم بأسه، وكتابي لا يُغني عنهم شيئاً، فصدَّقه رسول الله ﷺ وعذَرَهُ.

ونزلت هذه السورة تنهي حاطباً عما فعل، وتنهاي المؤمنين أن يفعلوا كفعله، فقام عمر ابن الخطاب فقال: يا رسول الله، دغني أضرب عُنُقَ هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «وما يدريك يا عمر، لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(١).

ورد أن حاطباً كتب إلى قريش يقول لهم: إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم في مثل الليل والسيل، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لُنْصِرَ عليكم، فكيف وهو في جمع كثير^(٢). ولنا مع قصة حاطب أربع وقفات:

الأولى: أن أول سورة الممتحنة نزلت أولاً في شأن حاطب، حليف بني أسد بن عبد العزى، وكان من المهاجرين، ومن أهل بدر، وكان مُلْصَقاً بقريش، ولم يكن منهم، ولكن الحكم عام في كل من يُوالي أعداء الله تعالى، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

الثانية: أن المرأة التي حملت الكتاب، جاء في بعض الروايات أنها أم سارة كَنُود، أمة

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول (٣١٥) ولم ينسبه لأحد، وقد ذكره ابن الجوزي في زاد المسير (٢٣١/٨)، وهو في تفسير الخازن (٢٥٥/٤)، والألوسي (٦٥/٢٨)، وغيرهم، والقصة عند السيوطي في الدر المنثور ٢٠٢/٦ وممن نسبها إليهم: الحميدي، وعبد بن حميد، وأبي عوانة، وابن حبان (٤٧٩٧)، وابن المنذر، وابن مردويه، والبيهقي، وأبي نعيم في الدلائل، وهذا بالإضافة إلى ما سبق ذكره في الحاشية السابقة، وانظر: رواية جابر بن عبدالله في المسند برقم (١٤٧٧٤) بإسناد صحيح على شرط مسلم، وأبي يعلى (٢٢٦٥).

(٢) تفسير ابن عطية (٢٩٣/٥).

لقريش، وفي بعض الروايات أنها سارة مولاة عمرو بن هاشم بن المطلب التي كان معها كتاب حاطب، أمنها النبي ﷺ يوم الفتح^(١)، وهكذا فقد اختلف في اسمها وكنيتها، وكانت امرأة مُشركة مُغنية في مكة، وأن هذه المرأة جاءت مُتجسدة.

الثالثة: أما الوقت الذي حدث فيه هذه القصة، فقيل: إنه كان قبل فتح مكة، وقيل إنه كان قبل صلح الحديبية، وهو الأرجح، لِمَا في رواية الحارث عن عليّ عند الطبري: أن النبي ﷺ لَمَّا أراد أن يأتي مكة أفسى في الناس أنه يريد خير، وأسرَّ إلى ناس من أصحابه، منهم حاطب، أنه يريد مكة، فكتب حاطب إلى أهل مكة، وكَوَّنه ﷺ أفسى أنه يريد خير، يدل على أن ذلك كان قبل عمرة الحديبية، لا قبل فتح مكة، لأن خير فُتحت سنة سبع، أي قبل فتح مكة، ويؤيده أن هذه المرأة التي أرسل معها حاطب كتابه، قدِمَتْ إلى المدينة بعد غزوة بدر بسنتين، كما رواه الطبري^(٢).

الرابعة: إن سعة صدر النبي ﷺ جعلته لم يتعجل في عقاب حاطب، وإنما سألَه وعذَرَه على لحظة ضعفه الطارئة فقال له: (ما حملك على ما صنعت؟) وأقال عثرته، والتمس له العذر، ليعينه ويجعله ينهض من عثرته...

جاء عن الحسن أن حاطباً قال: أما والله إني لمؤمن بالله وبرسوله، وما كفرْتُ منذ أسلمت، ولا شككت منذ استيقنت، ولكني كنت امرأة لا نسب لي في القوم، فكتبتُ إليهم أذراً عن أهلي ومالي، وقد علمتُ أن ذلك لن يغني عنهم من الله شيئاً^(٣).

(١) كذا قال ابن حجر العسقلاني في الإصابة (١٣/ ٤٥٥) برقم (١١٤٠٥).

(٢) تفسير التحرير والتنوير (١٣/ ١٣٠)، وتفسير الطبري (٢٣/ ٣٨)، وابن كثير (٨٤/ ٨).

(٣) وأخرجه عبد بن حميد عن الحسن كما في الدر المنثور (١٤/ ٤٠٧).

سُورَةُ الصَّفِّ (٦١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الصف) هي السورة الحادية والستون في ترتيب المصحف، والثامنة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التغابن) وقبل (سورة الفتح). وهي سورة مدنية عند الجمهور، كان نزولها بعد وقعة أحد. وعدد آياتها أربع عشرة آية باتفاق أهل العدد. وهي مئتان وإحدى وعشرون كلمة، وتسع مئة حرف. وتُسَمَّى سورة الصف، لوقوع لفظ ﴿صَفًّا﴾ فيها، وهي التسمية المشتهرة من عهد النبوة، وذكر السيوطي والألوسي أنها تسمى أيضاً (سورة الحواريين)، لذكر لفظ الحواريين فيها. فقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحواريين بالمدينة.

ومما ورد في سبب النزول أن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: قعدنا نفراً من أصحاب رسول الله ﷺ فتذاكرنا، فقلنا: لو نعلم أي الأعمال أحب إلى الله تعالى لعملناه، فأنزل الله سورة الصف، قال عبد الله بن سلام: فقرأها علينا رسول الله ﷺ ^(١). ومن ذلك ما جاء عن مقاتل: أن المؤمنين قالوا: لو علمنا أحب الأعمال إلى الله لعملناه، ولبدلنا فيه أموالنا وأنفسنا، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي

(١) سنن الترمذي برقم (٣٣٠٩)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٣٦)، وبنحوه في المسند (٤٥٢/٥) برقم (٢٣٧٨٩، ٢٣٧٨٨) وهو إسناده صحيح على شرط الشيخين (محققوه)، والحاكم في المستدرک (٤٨٦/٢) وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، والدارمي في سننه (٢٠٠/٢) برقم (٢٣٩٠)، قال ابن حجر في الفتح (٤١٩/٨): وإسناده صحيح، وأخرجه ابن حبان برقم (١٥٨٩)، والبيهقي في الشعب برقم (٣٩٠٧)، والسنن (١٥٩/٩).

سَبِيلِهِ صَفًا ﴿٤﴾ الآية: ٤ وأنزل ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ يَحْرَمٍ تُجِيبُكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية: ١٠.

ولما ابتلاهم الله بيوم أحد وَلَوْأ مدبرين، وكرهوا الموت، وأحبوا الحياة، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾﴾^(١) الآيتان: ٢، ٣.

وقد نزل الأمر بالجهاد في سور أخرى قبل نزوله في هذه السورة.

ويكاد يكون موضوع السورة، هو الجهاد في سبيل الله، فهو الذي تدور حوله أسباب النزول.

وقد بدأت السورة بتنزيه الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله، ثم حذرت المؤمنين من خُلف الوعد، وعدم مطابقة الأقوال للأفعال.

وبعد أن ذكرت السورة جانباً مما قاله موسى ﷺ لقومه، وما قاله عيسى ﷺ لقومه، أتبعَتْ

ذلك ببيان ما جُبِل عليه الكافرون من تكذيبٍ للحق، ومن كراهية لظهور نور الإيمان.

وقد استهدفت السورة أمرين هامين:

الأمر الأول: من أول السورة إلى الآية التاسعة، وفي هذا المقطع إشارة إلى المنهج

الإلهي للبشر الذي جاءت به الرسالات الثلاث الرئيسة: اليهودية والنصرانية والإسلام.

أما اليهود فقد آذوا موسى عليه السلام وأتعبوه، وفقدوا الشجاعة في مقاتلة عدوّه،

وضيّعوا كتاب الله تعالى الذي نزل عليهم..

أما عيسى عليه السلام فهو صاحب رسالة محدودة الزمان والمكان، وقد أرسله الله تعالى

ليمهد للرسالة العامة التي تهدي البشر كلهم إلى توحيد الله تعالى، وكان لولادة عيسى

عليه السلام على نحو فريد من نوعه، سبب في انتشار رسالته في طول الأرض وعرضها.

وقد انتهت هذه الخطوات إلى استقرار دين الله تعالى في أرضه على يد رسوله

الآخر ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَىٰ الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ الآية: ٩.

أما الأمر الآخر، فهو من الآية العاشرة إلى نهاية السورة، وهو مقطع يتكلم عن القوة

(١) أخرجه ابن أبي حاتم كما في الدر المنثور (٤٤٥/١٤).

التي لا بد منها لمساندة الحق ودعمه، فالجهاد ماضٍ إلى يوم القيامة.

وقد حفلت السورة بآيات الجهاد في سبيل الله لإعزاز دينه، وإعلاء كلمته، وعَدَّتْ ذلك بعد الإيمان بالله ورسوله، هو التجارة الرباحة التي يتحقق بها سعادة المرء في الدنيا والآخرة، وعلى المجاهدين في سبيل الله أن يكونوا يداً واحدة، وصفاً واحداً، ضد عدو الله وعدوهم، وأن يقتدوا في بذل النفس والنفس، لنصرة دين الله تعالى، بالحواريين في نُصرتهم لنبي الله عيسى عليه السلام.

وقد شرع الإسلام الجهاد لتأمين نشر الدعوة، ولمنع الحيلولة بين الناس وبين ظهور دين الإسلام على الديانات التي سبقته ومهدت له في أطوارٍ من تاريخ البشرية، ولإقامة منهج الله تعالى في أرضه إلى قيام الساعة، بعد أن انحرف أتباع الرسالات السابقة عن توحيد الله تعالى وزاغت قلوبهم عن الحق..

ولذا: فقد ذكرت السورة مثليْن على ذلك هما رسالة موسى ورسالة عيسى عليهما السلام، وكانت رسالة عيسى، امتداداً لرسالة موسى عليهما السلام، وقد انتهت قوامه قوم موسى على دين الله، لما زاغوا وانحرفوا وضلُّوا عن سبيله، ولم يعودوا أمناء على شرع الله تعالى.

وقد جاء عيسى عليه السلام ليصل بين الدين الكتابي الأول، والدين الكتابي الأخير، فيمهد للرسالة الأخيرة ويبشر بها، ويُسلِّم أمانة الوحي الإلهي التي حملها موسى وعيسى عليهما السلام إلى الرسول الذي بشر به، وهو محمد ﷺ.

وقد خُتِمت السورة بدعوة أهل الإيمان إلى نصره دين الرحمن، كما فعل الحواريون مع عيسى عليه السلام حين دعاهم إلى نصره دين الله، فاستجابوا له ونصروا دينه..

سُورَةُ الْجُمُعَةِ (٦٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

سورة الجمعة هي السورة الثانية والستون في ترتيب المصحف، والسادسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت غالباً دفعة واحدة سنة ست من الهجرة بعد سورة التحريم وقبل سورة التغابن.

وسميت سورة الجمعة: لورود لفظ يوم الجمعة فيها، ولا يُعرف لها اسم غير ذلك، وهي سورة مدنية عند الجمهور، وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق علماء العدد، وهي ثمانون كلمة، وسبع مئة وعشرون حرفاً.

وكانت صلاة الجمعة قد فرضت قبل نزول هذه السورة، وصلى النبي ﷺ أول جمعة بعد يوم الهجرة في دار لبني سالم بن عوف، كما أن أهل المدينة صَلُّوا الجمعة قبل قدوم النبي ﷺ إليها مهاجراً.

ومن الأحاديث الواردة في القراءة بها مع غيرها في صلاة الجمعة وغيرها:

١- حديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في صلاة الفجر، يوم الجمعة ﴿الْم ١﴾ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ [السجدة]، ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ ١﴾ [الإنسان] وأن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة بسورة الجمعة والمنافقين^(١).

٢- وعن جابر بن سمرة ؓ قال : كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة المغرب ليلة الجمعة: ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ١﴾ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١﴾ وكان يقرأ في صلاة العشاء الآخرة ليلة الجمعة : سورة الجمعة والمنافقون^(٢).

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٩)، وأبوداود برقم (١٠٧٤، ١٠٧٥)، والترمذي برقم (٥١٩)، وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه برقم (١١١٨)، والنسائي (١١١/٣)، والبيهقي (٢٠٠/٣)، وابن أبي شيبة (١٤٢/٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٧٣٥).

(٢) ابن حبان برقم (١٨٣٨) والبيهقي (٢٠٠/٣) وهو عند البزار (٣٧٥٩) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩١/٢) وفيه أبو مهدي سعيد بن سنان وهو ضعيف.

٣- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيدين، وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ﴿١﴾ قال: وإذا اجتمع العيد والجمعة في يوم واحد يقرأ بهما في الصلاة^(١)

٤- وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿١﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ ﴿١﴾^(٢).

٥- وعن عبيد الله بن أبي رافع قال: استخلف مروان أبا هريرة على المدينة، وخرج إلى مكة، ف صلى بنا أبو هريرة الجمعة، فقرأ بعد الحمد: سورة الجمعة في الأولى، و﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنْفِقُونَ﴾ في الثانية، قال: فأدركت أبا هريرة حين انصرف فقلت له: إنك قرأت بسورتين كان علي بن أبي طالب يقرأ بهما في الكوفة، فقال أبو هريرة: إني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ بهما يوم الجمعة^(٣).

موضوع السورة:

١- الآيات الأربع الأول من السورة تتناول بعثة خاتم الرسل، محمد ﷺ وتبين أنه الرحمة المهداة، الذي أنقذ الله به الناس من الشرك والضلال إلى العلم والإيمان، وأن هذه الرسالة كانت من بين العرب الأُميين، ولكنها ليست خاصة بهم، بل هي لهم وللناس جميعاً، من كان موجوداً منهم على وجه الأرض وقت بعثته ﷺ في شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها، ومن يأتي بعدهم من الأجيال المتتابعة على مدى التاريخ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) صحيح مسلم برقم (٨٧٨) وأبوداود (١١٢٢) وابن ماجه (١٢٨١) والترمذي (٥٣٣) والمسنَد (١٨٣٨٣) وهو حديث صحيح وانظر (١٨٣٨١) وابن حبان (٢٨٢١) والنسائي في الكبرى (١٧٥٠).

(٢) أخرجه أبوداود (١١٢٥) والنسائي في الكبرى (١٧٨٧، ١٧٥١) والمسنَد (٢٠١٥٠) بإسناد صحيح ورجال ثقات وابن حبان (٢٨٠٨) والطيالسي (٨٨٨) وابن خزيمة (١٨٤٧) والطبراني في الكبير (٦٧٧٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٨٧٧) وأبو داود (١١٢٤) وابن ماجه (١١١٨) والترمذي (٥١٩) والمسنَد (٩٥٥٠) وإسناده صحيح على شرط مسلم ورجاله ثقات، وأخرجه ابن خزيمة (١٨٤٣) والنسائي في الكبرى (١٧٣٥).

وسورة الجمعة تقرر أن أمة الإسلام: هي الأمة المختارة لحمل الرسالة إلى عموم الجن والإنس إلى أن تقوم الساعة، وذلك بعدما تخلّى بنو إسرائيل عن حقل هذه الأمانة، فخانوها بالتحريف والتغيير، وانقطعت صلتهم بالسماء، وصاروا كالذي يحمل أسفارا، وهذه الحقيقة تحدثت عنها صدر السورة ووسطها، فبينت أن الله تعالى صرف الرسالة العامة عن أهل الكتاب، وابتعث الرسول الخاتم من بين العرب الأميين، ليلبلغ رسالته إلى العالمين، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء.

٢- وكان في هذا توطئة لذم اليهود الذين جاء ذكرهم في الآيات الأربع التالية، لأنهم حسدوا هذه الأمة على تشريفهم بحمل راية هذا الدين، وفيه إبطال لزعمهم أنهم أولياء الله، وبيان أنهم لما انحرفوا عن دين الله ولم يعملوا بما في التوراة شبههم القرآن بالحمار الذي يحمل أسفارا، لأنه لا يعلم ماذا فيها، ولا يعمل بها.

ومن جملة ما حسد اليهود المسلمين عليه : أن الله تعالى أعطاهم يوم الجمعة، بعد أن كان يوم السبت هو المفضل في الأسبوع.

والسورة تطلب من اليهود أن يدعوا على أنفسهم بالموت إن كانوا شعب الله المختار كما يزعمون، مع أن الموت آت لا محالة، فلا فرار ولا مهرب منه لكل مخلوق.

٣- ومن أول أغراض السورة التي نزلت من أجله: هو التحذير من التخلف عن صلاة الجمعة، وتزك كل ما يُشغل عنها عند النداء لها، فإن ما عند الله تعالى خير من اللهو ومن التجارة، والله خير الرازقين، وقد دعت السورة في الآيات الثلاث الأخيرة منها إلى المسارعة لأداء صلاة الجمعة، وحرّمت عليهم العمل حين ينادى لها.

فصلاة الجمعة هو موضوع السورة الأساس، ولعل افتتاحها بالتسبيح تحريضا للمؤمنين على أداء الفريضة وسماع الخطبة، فيوم الجمعة فيه الاجتماع الحاشد للمسلمين، وفيه ساعة مباركة لا يوافقها عبد مقبل على الله تعالى بدعوة أو عبادة أو تسبيح إلا تقبل الله منه وغفر له، واستحب الإسلام الغسل والطيب لهذا اليوم. وفي الآيات توبيخ لمن ينشغل عن صلاة الجمعة لسبب من الأسباب غير مشروع.

سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ (٦٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المنافقون) هي السورة الثالثة والستون في ترتيب المصحف، والثانية بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحج) وقبل (سورة المجادلة)، وكان ذلك سنة خمس من الهجرة، في أعقاب غزوة بني المصطلق على الأصح.

وهي سورة مدنية بالإجماع، وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق أهل العدد.

وهي مئة وثمانون كلمة، وتسع مئة وستة وسبعون حرفاً.

وسميت (سورة المنافقون) - بالرفع، على حكاية اللفظ الذي في أولها - لأنها تختص بذكر أحوال المنافقين وصفاتهم، وهكذا جاء اسمها في كتب التفسير والحديث، ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في صلاة الجمعة بسورة الجمعة، فيحزّض بها المؤمنين، وفي الثانية بسورة المنافقين فيقرّع بها المنافقين^(١).

وفي حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: فلما أصبحنا - وكانوا في سفر - قرأ رسول الله ﷺ سورة المنافقين^(٢).

وقد فضحت هذه السورة أحوال المنافقين، وكشفت عن صفاتهم الذميمة، ومقالاتهم الشنيعة في شأن الإسلام وأهله، وبيّنت دخائل نفوسهم، وحقدهم على الإسلام وأهله. وحذّرت السورة في نهايتها الذين آمنوا أن لا يشوبهم شائبة من النفاق - ولو في أدنى درجاته - ويكون ذلك بالتجرد إلى الله تعالى، وعدم الغفلة عن ذكره سبحانه لأي

(١) قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٤/٢) رواه الطبراني في الأوسط (٩٢٩٧) وإسناده حسن، ومحمد بن عمار هو الوازعي، وهو وشيخه عبد الصمد من أهل الرأي، وثقهما ابن حبان وأخرجه البزار (٣٧٥٩) والطبراني في الكبير (٩٢٧٩) ورواه مسلم بنحوه (٨٧٧).

(٢) أخرجه الترمذي برقم (٣٣١٣) من حديث طويل، قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح.

سبب من الأسباب، وعدم التقاعس عن البذل في سبيل الله، قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه الندم، وذلك لأن النفاق ازدواج في الشعور والسلوك، حيث يلقي صاحبه الناس بوجهين، يُظهر وجهاً ويبطن آخر، ولا يزال ينمو النفاق في نفسه حتى يصطبغ بألوان شتى يستخدمها حسب المقام، والحلف الكثير والكذب من أول أخلاق المنافقين.

حديث القرآن عن المنافقين:

وقد كثر الحديث عن النفاق والمنافقين في كثير من سور القرآن المدنية، كما في سورة البقرة، بدءاً من الآية الثامنة إلى الآية العشرين، وما يتخلل السورة من الآيات الكثيرة.

وفي (سورة آل عمران) توبيخ شديد لمن تقاعسوا من المنافقين يوم أحد وثبّطوا همم المؤمنين عن الجهاد في سبيل الله.

وفي (سورة النساء) آيات كثيرة تتحدث عن قبائحهم وتحاكمهم لغير الله ورسوله، وتذنبهم بين الكفر والإيمان، ثم تُبين أنهم في الدرك الأسفل من النار يوم لقاء الله رب العالمين.

ومعظم (سورة التوبة) تتحدث عن المنافقين، وتفضحهم، وتكشف عن مكنون صدورهم، وثبّع أسرارهم، ولذا سُميت (الفاضحة) فلا زالت تقول : ومنهم، ومنهم، ومنهم، حتى أتت على جميع أحوالهم، وكشفت زيفهم وفضحت سرائرهم.

وهكذا لا تخلو سورة مدنية من الحديث عنهم وعن سوء أحوالهم وسلوكهم. وقد ظهرت حركة النفاق في المدينة بعد أن قوّي المؤمنون وانتصروا في غزوة بدر، وأصبح لهم شأن ودولة، وقد استمر النفاق في عصر التنزيل إلى قرب وفاة النبي ﷺ وهو لم ينقطع على مدى التاريخ وإن تغيّرت مظاهره ووسائله بين الحين والحين.

والنفاق من أخس الصفات، وكثرة الحلف والكذب من مظاهره المتكررة، والمواقف لا تدع النفاق مستوراً، بل تكشفه في فلتات اللسان ولحن القول وتقاسيم الوجه، والتعليق المفاجيء على الأحداث.

وهذه السورة تحمل الاسم الخاص بالمنافقين، وهو يدل على موضوعها، فقد فضحت زعماء النفاق في عصر التنزيل، وسجّلت عليهم ما حاولوا الفرار منه، فقد حملت عليهم حملة عنيفة كشفت عن دسائسهم ومُناوراتهم، وقد كانوا حريصين على أن تكون صورهم جميلة، ومظاهرهم خلاّبة، لتستُرّ خباياهم، ولكن حقدهم غلبهم، فخرج منهم ما يسيء إلى المهاجرين والأنصار، ممّا سجّله الله عليهم في كتابه إلى يوم القيامة. وتُختم السورة بما يجعل العقلاء يُؤثرون ما عند الله، ولا يَنْزِلون إلى حُطام الدنيا الفاني، فما عند الله خير وأبقى.

سبب نزول السورة:

يدور سبب نزول هذه السورة على أمر تافه في حد ذاته، كثيرًا ما يقع بين بعض الخدم، ولكنه يكشف عن خبايا المنافقين، ويظهر مكنون صدورهم تجاه الإسلام وأهله. وذلك: أن عبد الله بن أبيّ بن سلول ومعه جمع من المنافقين خرجوا مع النبي ﷺ إلى «المُرَيْسِع» وهو مكان به ماء لبني المِضَطْلِق، وقد خرجوا طلباً للغنيمة، لا رغبة في الجهاد، وكانت مسافة السفر قصيرة، فلما فرغ النبي ﷺ من الغزوة، ازدحم الناس على الماء، ومنهم أجير لعمر بن الخطاب اسمه «جهجاه بن سعيد» وحليف لعبد الله بن أبيّ، اسمه «سنان الجهني» ودار بينهما كلام، فرفع (غلام عمر) يده ولطم بها (الجهني)، فصرخ الأول قائلاً: يا للمهاجرين، وصرخ الثاني قائلاً: يا للأنصار، فأقبلوا، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ غضب وقال: «ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها متنة» أي اتركوا هذه العصبية لعشيرتكم، فقد أعزكم الله بالإسلام، ووحد صفكم، وجمع كلمتكم، وأصلح الأمر بينكم. ولما بلغ الخبر عبد الله بن أبيّ، قال: وعنده جماعة من المنافقين: أَوْ قَدْ فَعَلُوهَا، والله ما مثلكم ومثّل هؤلاء الرهط من قريش، إلا كما قال الأول: (سَمَنَ كَلْبُكَ يَأْكُلُكَ) فقد أويتموهم في منازلكم، وأنفقتم عليهم أموالكم، ولو أمسكتهم أيديكم عنهم لتفرقت جموعهم، أمّا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، ويعني بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ.

زيد بن أرقم يرد على زعيم المنافقين :

وكان في القوم «زيد بن أرقم» غلام صغير، فقال لعبد الله بن أبي: أنت والله الذليل القليل، وأخبر النبي ﷺ بما قال، فعرض عليه عمر أن يضرب عنقه، فقال ﷺ: «إذن ترتعد له أنفٌ كبيرة»، أي يغضب من أجله قوم كبار، فالنبي ﷺ يدفع دائما بأخف الضررين، ويرجح المصلحة العامة، ولذا فإنه ﷺ قال لعمر بعد أن انتهت أحداث القصة، «أي عمر، أكنت قاتله لو أمرتك بقتله»؟ قال: نعم، فقال ﷺ: «والله لو قتلته يومئذ لرغمت أنوف رجال، لو أمرتهم اليوم بقتله امثلوا» قال عمر: فإن كرهت أن يقتله رجل من المهاجرين، فمُر سعد بن عباد، أو محمد بن مسلمة، أو عباد بن بشر، فليقتله، فقال ﷺ: «إذن يتحدث الناس أن محمداً يُقتل أصحابه».

فأرسل النبي ﷺ إلى عبد الله بن أبي، فأتاه، فقال: «أنت صاحب هذا الكلام؟» قال: والذي أنزل عليك الكتاب، ما قلتُ شيئاً من هذا، وإن زيدا لكاذب.

وقال الحاضرون: إنه غلام صغير، فعذره رسول الله ﷺ ولام الناس زيدا، وأراد النبي ﷺ أن يطفىء نار الفتنة، فمشى بالناس يوما وليلة ليشغلهم عن الحديث الذي كان بالأمس. وقال أسيد بن الحضير للنبي ﷺ: ارفق به يا رسول الله، فوالله لقد جاء الله بك، وإننا لننظم له الخرز لتتوجه ملكاً، وإنه ليرى أنك قد استلبته ملكه. فأنزل الله تعالى هذه السورة في ابن أبي تكذبه وتصدق زيدا.

فلما نزلت قال ﷺ لزيد: يا غلام إن الله قد صدقك وكذب المنافقين، وفرك النبي ﷺ أذن زيد وضحك في وجهه، قال زيد: فما كان يسرني أن لي بها الخلد في الدنيا. وقيل لعبد الله بن أبي: لقد نزلت فيك آيات شداد، فاذهب إلى رسول الله يستغفر لك؟ فلوى رأسه، وقال: لقد أمرتموني أن أومن فأمنت، وأمرتموني أن أزكي فزكيت، وما بقي لي إلا أن أسجد لمحمد.

عبد الله بن عبد الله بن أبي :

وكان لعبد الله بن أبي ولد صالح من خيار الصحابة هو (عبد الله بن عبد الله بن أبي) فجاء إلى النبي ﷺ يقول له: والله لقد عَلِمْتُ الخزرج، ما كان لها من رجل أبر بوالده مني، وأني والله لا أصدق عيني في وجهه هيبة له، ولقد بلغني ما كان من أبي، وبلغني أنك تريد قتله، فإن كنت فاعلاً، فمرني، فأنا أحمل إليك رأسه، فإني أخشى أن يقتله غيري، فلا تدعني نفسي حتى أقتل قاتله، فأكون قد قتلْتُ مسلماً بكافر فأدخل النار، فقال ﷺ: «بل تحسن صحبته ما بقي معنا» فخلَّ سبيله حتى يصل إلى منزله.

الابن يرفع السيف في وجه أبيه نصرة لرسول الله ﷺ :

ولما رجع الناس إلى المدينة وقف عبد الله (الابن) على باب المدينة واستلَّ سيفه فجعل الناس يمرون عليه، فيتركهم، فلما جاء أبوه قال له: وراءك قال: ويلك، ما لك؟ قال: والله لا تجوز من ها هنا، حتى يأذن لك رسول الله ﷺ فإنه العزيز وأنت الذليل. وكان الرسول ﷺ يسير في مؤخرة الجيش، فلما وصل إلى مدخل المدينة، اشتكى إليه عبد الله (الأب) ما يفعله الابن، فقال عبد الله : والله يا رسول الله، لا يدخلها حتى تأذن له، فأذن له النبي ﷺ فقال عبد الله (الابن): أما إذ أذن لك رسول الله، فجز الآن. ولم يلبث عبد الله بن أبي إلا أيتاماً حتى اشتكى ومات^(١).

ولما مات (ابن أبي) جاء ابنه (عبد الله) إلى النبي ﷺ يطلب قميصه ليكفنه فيه برأً بأبيه، وخوفاً عليه من عذاب النار، فأعطاه النبي ﷺ قميصه، ثم طلب منه أن يصلي عليه، فصلى عليه النبي ﷺ ومشى معه، وقام على قبره حتى فرع منه، رغم معارضة عمر رضي الله عنه.

(١) ينظر فيما سبق: السيرة النبوية لابن هشام (٢/١٠٥، ٢٩٠) وتفسير الطبري (٧١/٢٨) والطبراني (٥٠٤١) والحاكم (٤٨٨/٢) والبيهقي في الدلائل (٤/٥٤) وابن عساكر (٢٦٩/١٩) وصحيح سنن الترمذي (٢٦٤٠) وصحيح البخاري برقم (٤٩٠٢، ٤٩٠٧) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٤، ٢٧٧٢٤) وسنن الترمذي برقم (٣٣١٤) وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩٤) والمسند (٣/٣٩٢، ٤/٣٧٣) برقم (١٩٢٨٥، ١٩٢٩٥) والواحدي في أسباب النزول: ٣٢١ وكلها من طرق متعددة.

وذلك تطييباً لخاطر ولده، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِّنْهُمْ مَّتَّ أَبَدًا وَلَا تُقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَسِقُونَ﴾ (٨٤) [التوبة] فما صلى رسول الله ﷺ بعده على منافق، ولا قام على قبره حتى قبضه الله عز وجل^(١).

خطورة النفاق:

وشأن (عبد الله بن أبي) شأن سائر المنافقين في العقيدة، في عدم جواز الصلاة عليهم، وعدم الدعاء لهم أو الترحم عليهم، ومع هذا فإن النبي ﷺ لم يخرج المنافقين من الصف الإسلامي، ماداموا يظهرون الإسلام، ويؤدون فرائضه في الظاهر، لأن الله وحده هو الذي يعلم ما في القلوب وهو الذي يحاسب على ما فيها.

وكان النبي ﷺ يعرف المنافقين بلحن القول، وما يبدو على ألسنتهم من أساليب الالتواء والمداراة، ولم يعرفهم الله له بأسمائهم وأعيانهم إلا قرب وفاته ﷺ.

وكان حذيفة بن اليمان صاحب سر النبي ﷺ فعرفه بهم واحداً واحداً، وكتب حذيفة ذلك ولم يفشه بين الناس، حتى إن عمر رضي الله عنه على جلالة قدره، كان يأتي حذيفة ليطمئن منه على نفسه من أن الرسول ﷺ لم يسمه له ضمن المنافقين! فكان يقول له: يا عمر، لست منهم، ولا يزيد! وكان الصحابة يعرفون المنافق عندما يرون النبي ﷺ لا يصلي عليه إذا مات. ولما مات النبي ﷺ كان حذيفة رضي الله عنه لا يصلي على من عرف أنه منهم. وكان عمر رضوان الله عليه لا ينهض للصلاة على الميت إلا إذا رأى حذيفة قد قام للصلاة عليه.

وذكر بعض أهل العلم أن هذه السورة نزلت في غزوة تبوك، في السنة التاسعة للهجرة، وهو قول ضعيف، لأن المنافقين وقتها قد زالت دولتهم وضعف شأنهم، ولم يكن لهم جرأة على مثل قولهم الذي قالوه عن النبي ﷺ وأصحابه.

(١) ينظر مسند الإمام أحمد برقم (٩٥) بإسناد حسن، ورجال ثقات، وانظر البخاري برقم (٤٦٧٢) ومسلم برقم (٢٧٧٤) والترمذي برقم (٣٠٩٨) وقال: حسن صحيح والنسائي برقم (٢٤٤) وابن ماجه برقم (١٥٢٣)، وانظر القصة في سورة التوبة عند الآية (٨٤)، من هذا التفسير.

سُورَةُ التَّغَابُنِ (٦٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التغابن) هي السورة الرابعة والستون في ترتيب المصحف، والسابعة بعد المئة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الجمعة) وقبل (سورة الصف)، على القول بأنها سورة مدنية، ولعل الأصح أن الآيات الثلاث الأخيرة من السورة مدنية، نزلت في قوم أسلموا وأرادوا الهجرة من مكة فأبى أزواجهم وأولادهم:

أخرج النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة التغابن بمكة إلا آيات من آخرها نزلت بالمدينة، في عوف بن مالك الأشجعي، شكا إلى رسول الله ﷺ جفاء أهله، فأنزل الله الآيات^(١).

والسورة من أولها يبدو عليها طابع القرآن المكي، فهي تتحدث عن دلائل التوحيد واليوم الآخر، وتضرب الأمثال بالقرون الماضية والأمم الخالية، التي كذبت رسل الله، وتبين ما حلّ بالمكذبين من الهلاك والدمار نتيجة كفرهم وضلالهم. وسميت سورة التغابن لورود هذا اللفظ فيها، ولم يُذكر في غيرها من السور. وعدد آياتها ثمان عشرة آية باتفاق.

وهي مئتان وإحدى وأربعون كلمة، وألف وسبعون حرفاً.

مقاصد السورة:

ومن مقاصد السورة: غرس حقيقة التوحيد في قلوب البشر، وتنزيه الله تعالى عن الشركاء، وتقوية الصلة بين الخالق والمخلوق، فكل ما في هذا الكون يسبح الله تعالى ويقدسه، وينزهه عن جميع النقائص، لأنه الخالق الرازق، الجدير بالحمد والشكر.

(١) تفسير الشوكاني (٢٣٢/٥) وينظر: تفسير الطبري (٨١/٢٨) وهو عند النحاس (ص ٧٤٥).

والآيات تشير إلى قدرة الله المطلقة، وتبين أثر هذه القُدرة في خلق الإنسان، وإبداع صورته، واختيار توجهه، وأثرها في إبداع خلق السموات والأرض، وتبين إحاطة علمه تعالى بجميع ما في الكون. هذا ما تضمنته الآيات الأربع الأولى من السورة. وفي هذا المقطع: تذكير بمصارع الغابرين من المكذبين لرسول الله، المعترضين على بشرية الرسل، آية ٦، ٥.

وبعد ذلك يأتي ذكر المكذبين للبعث والنشور، وتوثيق الرد عليهم بالآيمان المغلظة، ومن ثم إلى بيان ما في يوم القيامة من بعث وحساب وجزاء على الأعمال وذلك من الآية ٧-١١.

وفي أعقاب ذلك دعوة الخلق جميعاً إلى طاعة الله تعالى ورسوله آية ١٢، ١٣ فإن أرادوا النجاة، فليؤمنوا بالله وحده، وليصدقوا برسوله ﷺ وبالكتاب الذي نزل عليه، ويؤمنوا بالبعث والحساب والجزاء، ثم تحذر الآيات من فتنة الأزواج والأبناء والأموال. وتُختم السورة بالدعوة إلى تقوى الله تعالى قدر الطاقة، والسمع والطاعة، وبذل المال في سبيل، الله وقاية للنفس من الشح والبخل، فإن في هذا، الفوز والفلاح، وهذا من الآية ١٤-١٨.

وهكذا فإن سورة التغابن فيها ثلاثة مقاطع:

١- ففي الآيات الست الأولى تسييح الله تعالى، تنبيهاً على شذوذ المعصية، ووضاعة مرتكبيها، فالكون كله يعرف ربه وينقاد لأمره.

أما الناس: فمنهم من يجحد حقوق الله تعالى ويحارب رسله، مع أن الله تعالى قد خلقه وأحسن صورته، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

ومنهم المؤمن المعترف بربه المسيح بحمده، المطيع لله والرسول.

وللجاحدين المكذبين عبرة وعظة فيمن سبقهم بما نزل بهم من عذاب دنيوي،

فيرجعوا إلى ربهم ويثوبوا إلى رشدهم.

٢- وفي الآيات السبع بعدها قَسَمَ على أن البعث حق لا بد منه، سواء أقرّ به الجاحدون أم أنكروه، فكثير من الناس في زحمة الحياة وحضارتها لا يوجد لليوم الآخر مكان في قلوبهم بالاستعداد له.

٣- وفي الآيات الخمس الأخيرة، بيان أن الضلال والعدوان يحتاجان إلى توضيحات ينبغي أن يتحملها أهل الإيمان بصبر ومصابرة وجلد، ومقاومة إغواء الأبناء والأزواج، وضرورة البذل والكفاح ...

وهكذا: فإن السورة تحدثت عن العقيدة في مطلعها، وتلا ذلك الحديث عن الوحي والرسالة في الآيتين الخامسة والسادسة، ثم تحدثت عن اليوم الآخر بدءاً من الآية السابعة، وهذه العناصر الثلاثة هي عناصر القرآن المكي.

وفي نهاية السورة دعوة إلى طاعة الله ورسوله، وألاً يشيهم عن ذلك فتنة المال والجاه والولد، والله تعالى لم يكلّفنا فوق الطاقة بل أمرنا بالسمع والطاعة والاستجابة الفورية لأمر الله ورسوله، ومن ذلك الإنفاق في سبيل الله، وعلاج الشح والبخل في النفس البشرية، والله تعالى يضاعف الأجر والجزاء لمن يُقرض الله قرضاً حسناً، ويغفر لهم ذنوبهم، ويكفر عنهم سيئاتهم، والله شكور حلِيم، يعلم ما غاب وما شوهد، وهو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم في تدبير شؤون خلقه.

* * *

سُورَةُ الطَّلَاقِ (٦٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الطلاق) هي السورة الخامسة والستون في ترتيب المصحف، والسادسة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الإنسان) وقبل (سورة البيّنة). وهي سورة مدنية خالصة.

وسُمِّيَتْ سورة الطلاق: لأنها صُدِّرَتْ بلفظ الطلاق، وسماها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سورة النساء القصرى^(١) والمراد الصغرى والأخيرة، وهذا في مقابلة سورة النساء الكبرى التي بعد سورة آل عمران، لأن كليهما تتحدثان عن الأحكام الخاصة بالنساء غالباً. وهي إحدى عشرة آية في المصحف البصري، وثلاث عشرة آية في الحمصي، وفيما عداهما اثنتا عشرة آية، وهم: الحجازيون والكوفي والدمشقي. وعدد كلماتها مئتان وتسع وأربعون كلمة، وهي ألف وستون حرفاً.

موضوع السورة:

هي سورة كاملة، موقوفة على تنظيم أحكام الطلاق وما يترتب عليه، مع ربط ذلك بأضخم حقائق الإيمان في المجال النفسي والكوني، وهذا يدل على خطورة شأن الأسرة في الإسلام، وقد أودع الله سبحانه في سورة الطلاق جملة أحكام تتصل بالأسرة، وتقيم كيانها على أسس سليمة، وتعالج ما قد يَعرِض لها من علل ومتاعب. وأسلوب السورة كلها وحدة موضوعية مترابطة الآيات، متماسكة السياق، جديرة بالتأمل العميق، فهي تتناول أحكام الطلاق، والإشهاد عليه وعلى المراجعة، وتبين أحكام الطلاق السني والبدعي، ثم أحكام العدة، والإرضاع، والإنفاق، والسكن، ونَهَتْ

(١) صحيح البخاري (٥٠٢/٨) برقم (٤٥٣٢) ومعلقاً برقم (٤٩١٠)، والنسائي في الكبرى (٥٦٨٥، ٥٦٨٧،

السورة عن الإضرار بالمطلقات، والتضييق عليهن، وأمرت بالتشاور والائتمار في شأن الأولاد، وقد وضع الله لكل شيء حُكْمه، ولا يعجزه سبحانه تنفيذ أحكامه، وتخلل كل ذلك الأمر بتقوى الله تعالى بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى، لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين.

وتبين السورة حُسن عاقبة التوكل على الله تعالى، وتيسير تشريعاته، وأنه سبحانه لا يكلف نفساً إلا ما آتاها، وأعقبت ذلك بوجوب الاعتاض بالأُمم التي خالفت أمر ربها، وحذّرت من تعدّي حدود الله، وبينت السورة أن الله جل شأنه أرسل رسوله محمداً ﷺ يتلو عليهم آيات الله تعالى ويخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان. وختمت السورة بالإشارة إلى قُدرة الله تعالى في خلق السموات والأرض، وهما من البراهين الدالة على وحدانيته تعالى وعظيم قدرته.

والسورة بهذا تحتفي بالعلاقات الزوجية والعائلية احتفاءً كبيراً، وتهتم اهتماماً بالغاً بالأسرة في الإسلام، وتُبين أن الأصل في الرابطة الزوجية هو الاستقرار والاستمرار، وتضع السورة جميع الضمانات التي تكفل ذلك، للرفع من شأن الأسرة والمجتمع، وقيام العلاقات الإنسانية على أسس قويمة.

وتوزيع الموضوعات على آيات السورة هكذا:

- ١- الآيات الثلاث الأولى تتحدث عن الطلاق في الوقت المناسب، وعلى الوجه المشروع.
- ٢- الآية الرابعة والخامسة تتحدثان عن العدة وضبط أيامها لئلا تختلط الأنساب.
- ٣- الآيتان السادسة والسابعة تتحدثان عن السكن بالنسبة للمرأة المطلقة والنفقة للحمل والرضاع.
- ٤- الآيات الثلاث: ٨، ٩، ١٠ فيها تعقيب يحمل الوعيد لمن يخالف أمر الله تعالى.
- ٥- الآية الحادية عشرة تُثني على رسول الله ﷺ.
- ٦- والآية الأخيرة تبين جانباً من قدرة الله تعالى وشمول علمه.

أسباب النزول:

١- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه طلق امرأته وهي حائض، فذكر ذلك عمر لرسول الله ﷺ فتغيط رسول الله ﷺ ثم قال: ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض وتطهر، فإن بدا له أن يطلقها، فليطلقها طاهراً قبل أن يمسه، فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء، وقرأ صدر السورة^(١).

٢- وعن أنس رضي الله عنه قال: طلق رسول الله ﷺ حفصة، فأنت أهلها، فأنزل الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾ فقيل له: (راجعها فإنها صوامة قوامه، وهي من أزواجك في الجنة)^(٢).

وقيل: إن النبي ﷺ لم يطلق حفصة ولم يراجعها، إنما هي قضية الإيلاء، فقد آلى النبي ﷺ من نسائه، فقال الناس: طلق نساءه، ولما سأله عمر قال: لا، آليتُ منهن شهراً، وكان هذا بسبب حفصة.

سنة أحكام عامة في الطلاق:

أولاً: الأصل في الطلاق هو الحظر:

لقله تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْتُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٣٤].
ولما جاء في الأثر «أبغض الحلال إلى الله الطلاق»^(٣).

(١) صحيح البخاري برقم (٧٦١٠، ٥٢٥١، ٤٩٠٨)، وصحيح مسلم برقم (١٤٧١)، وأبوداود (٢١٨٥)، والنسائي (٦٢١، ٣٣٨٩)، وابن ماجه (٢٠١٩)، وأبي يعلى (٥٥٦١) والترمذي (١١٧٥)، والمسند (٥١٦٤)، ٥٢٩٩، ٦١٤١ بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وعبد الرزاق (١٠٩٥٢)، ومالك (٥٧٦/٢)، والشافعي (١٠٤)، والطيالسي (١٨٥٣)، وابن حبان (٤٢٦٣).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وجاء من طرق أخرى فيها ضعف عند ابن ماجه. قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٣٦/٤): رواه البزار وأبو يعلى ورجال أبي يعلى رجال الصحيح.

(٣) حديث مرسل أخرجه أبوداود عن ابن عمر برقم (٢١٧٨)، وابن ماجه (٢٠١٨)، والحاكم (١٩٦/٢)، والبيهقي (٣٢٢/٧)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (٤٧٢)، وضعيف سنن ابن ماجه (٤٤١)، وجاء عن معاذ عند عبد الرزاق (١١٣٣١)، وانظر ما قاله ابن الجوزي في العلل المتناهية (١٥٥/٢).

ووجه الدلالة في الآية: أن المرأة إذا كانت مطيعة، فإن طلاقها يكون ظلماً.

ووجه الدلالة في الأثر: أن بغض الشيء دليل على كراهيته، وإن كان الطلاق جائزاً في حد ذاته.

قال ابن عطية: الطلاق على الجملة مكروه، ونقل عن أنس رضي الله عنه قوله (ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق)^(١).

وعن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيا امرأة سألت زوجها الطلاق من غير ما بأس حرمت عليها رائحة الجنة»^(٢).

ثانياً: الطلاق على قسمين:

أحدهما: طلاق سني، وهو أن يطلق الرجل المرأة طليقة واحدة في طهر لم يجامعها فيه، أي وهي غير حائض، ولا نفّساء، ولا يطلقها بعد جماع لم تطهر بعده، وهذا معنى استقبالها للعدة.

ومن الطلاق السني: أن تكون المرأة حاملاً، قد استبان حملها.

فإذا أراد الرجل أن يطلق المرأة طلاقاً موافقاً للسنّة، انتظرها حتى تحيض وتطهر، فإن طهرت طلقها قبل أن يمسه، طليقة واحدة، وهذا هو الطلاق السني.

وطلاق الصغيرة، والآيسة، وغير المدخول بها، لا يوصف بأنه سني ولا بدعي.

وثانيهما: طلاق بدعي، وهو أن يطلق الرجل المرأة في أثناء الحيض أو النفاس، أو في أثناء طهر جامعها فيه، أو بلفظ الثلاث، مجموعة أو متفرقة.

فإن حدث الطلاق في شيء من هذه المخالفات، فإنه يقع مع الإثم، عند الجمهور.

(١) تفسير ابن عطية (٣٢٢/٥).

(٢) أبوداود (٢٢٢٦)، والترمذي (١١٧٨)، وابن ماجه (٢٠٥٥)، والطبري (١٥١/٤)، والحاكم (٢٠٠/٢)، والبيهقي (٣١٦/٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٦٧٢)، وهو في المسند (٢٢٣٧٩، ٢٢٤٤٠) حديث صحيح ورجال ثقات رجال الصحيح.

ثالثاً: وجوب شهادة عدلين على الطلاق والرجعة:

لقوله تعالى: ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ﴾ الآية: ٢.

أي أشهدوا رجلين عدلين على الإمساك وعلى الفراق، والإمساك هو الرجعة، والفراق هو الطلاق.

هذا هو ظاهر الآية، وقيل: بوجوب الشهادة على الرجعة، وأنها مندوبة عند الطلاق.

رابعاً: الطلاق يكون بائناً ورجعيّاً:

والطلاق البائن: هو ما لا يملك المطلق معه حق الرجعة، كمن طَلَّقَ امرأته ثلاثاً، أو انقَضَتْ عدتها وليس لها رجعة، أو طَلَّقَتْ قبل الدخول بها، أو حدث خُلْع.

والطلاق الرجعي: هو ما يملك الزوج معه حق المراجعة، وما كان دون الثلاث، ولم يطلقها على عوض.

خامساً: الطلاق الصريح والكنائية:

ومن الطلاق ما هو صريح لا يحتاج إلى نية، مثل: أنت طالق.

ومنه: ما هو كنائية يحتاج إلى النية، مثل: إلحقي بأهلك، اخْرُجِي من البيت.

ومنه الطلاق بلفظ الحرام، فهو يحتمل الظهار، فتحرم المرأة حرمة أبدية، ويحتمل الطلاق كل ذلك حسب نيته.

وفي الحديث عند مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما «إذا حرّم الرجل امرأته فهي يمين يُكفّرُها، وقال: لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة»^(١).

وفي لفظ عند البخاري «إذا حرم امرأته ليس بشيء»^(٢).

(١) من حديث ابن عباس في الصحيحين عند مسلم برقم (١٤٧٣)، وهذا لفظه وفي البخاري برقم (٤٩١١).

(٢) البخاري (٥٢٦٦)، ومسلم (١٤٧٣).

سادساً: الطلاق المنجز والمعلق:

ومن الطلاق ما هو منجز، يقع في الحال، كقوله: أنت مطلقة، ومنه ما هو معلق على فعل شيء أو تركه، يقع بعد وقوع الشيء المعلق عليه.

وعلى هذا فإن الحلف بالطلاق على فعل شيء أو تركه، يعود إلى نية الحالف، فإن كان يقصد الطلاق فعلاً إن حدث هذا الشيء، فهو طلاق إن تحقق المحلوف عليه، وإلا فلا، أي: وإن كان يقصد التهديد ومنع المرأة من فعل هذا الشيء أو يقصد حملها على فعل شيء معين، فهو بمثابة اليمين بالله تعالى، وفيه كفارة اليمين، وعلى هذا جرت الفتوى، ولا ينبغي التوسع في ذلك بحمله على الحلف بالله تعالى مطلقاً.

ومن زعم أن الحلف بالطلاق أعظم من الحلف بالله، أو أكثر تأثيراً منه في النفس، يكون قد أتى باباً من أبواب الشرك، ووقع في محذور أكبر من الطلاق.

* * *

سُورَةُ التَّحْرِيمِ (٦٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التحريم) هي السورة السادسة والستون في ترتيب المصحف، والخامسة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحجرات) وقبل (سورة الجمعة). وهي سورة مدنية باتفاق.

وسميت سورة التحريم لورود لفظ {لَمْ تُحَرِّمْ} في أولها. وتسمى (سورة النبي) وسماها ابن الزبير (سورة النساء). وعدد آياتها اثنتا عشرة آية عند غير الحمصي، وهي عنده ثلاث عشرة آية. وهي مثنان وسبع وأربعون كلمة، وألف وستون حرفاً.

أغراض السورة:

هذه السورة تَعْرِضُ في أولها، صفحة من داخل بيوت النبي ﷺ وتذكر الانفعالات الإنسانية بين بعض زوجاته، لمعالجة قضايا الأسرة، وتهيئة البيت الأمثل للأسرة المسلمة السعيدة.

تناولت السورة ما حرّمه الرسول ﷺ على نفسه مما أحله الله له، استرضاء لبعض زوجاته، فعاتبه الله تعالى على هذا، وبَيَّنَّ له أن الحلال لا يكون حراماً بتحريم الإنسان له، وَمَنْ فَعَلَ ذلك فعليه كفارة يمين.

وعَلَّمَ الله تعالى الزوجات ألا يضايقن أزواجهن حتى لا يؤدي ذلك إلى الفراق. وتناولت السورة أمراً خطيراً يهدد كيان الأسرة، وهو إفشاء السر الذي يكون بين الزوجين. وحملت السورة حملة عنيفة على من تُفشي أسرار الزوجية، وتوعدها الله تعالى باستبدالها بغيرها إن لم تتب.

وهكذا: فإن الآيات الخمس الأول من السورة تتناول جانباً خاصاً من حياة النبي ﷺ مع

زوجاته، وتُعطينا حُكماً عاماً، وهو أنه ليس لأحد أن يُحرّم على نفسه ما أحله الله له، وعندما يحدث مثل هذه الحالة، كمن يحرم الطعام على نفسه مثلاً، فإن عليه كفارة يمين.

وفي الآيات الأربع التي تليها أربع نداءات: اثنين للمؤمنين، ونداء واحد للكفار، ونداء للنبي ﷺ خاصة.

وفي الآيات الثلاث الأخيرة من السورة: ما ضربه الله تعالى مثلاً للذين كفروا بامرأة نوح وامرأة لوط، وللذين آمنوا بامرأة فرعون ومريم.

وبالجملة فقد وجهت السورة خمس نداءات:

نداءان للمؤمنين، ونداء للكافرين، ونداءان للنبي ﷺ:

١- أما نداء المؤمنين الأول فهو أن يحفظوا أنفسهم وأهلهم من عذاب الله تعالى يوم لقائه، وذلك بالثبات على الإيمان، ومداومة العمل الصالح، والبعد عما حرمه الله تعالى.

٢- والنداء الثاني للمؤمنين أيضاً: بالتوبة النصوح، الخالصة لله تعالى حتى يفوزوا بجنة النعيم.

٣- والنداء الثالث، هو النداء الوحيد للكفار في القرآن بلفظ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وهو لبيان أن الله تعالى لا يقبل منهم عذر عندما يرون يوم القيامة النار بأعينهم لأنهم ماتوا على الكفر.

٤- والنداء الرابع للنبي ﷺ أن يجاهد الكفار والمنافقين ويقاتلهم في كل زمان ومكان، وليشدّ وطأته عليهم، فإن مصيرهم جهنم وبئس المصير، وأمرته بعده مطالبة بهذا.

٥- أما النداء الخامس فهو أول آية في السورة، وفيها عتاب الله تعالى لرسوله ﷺ لأنه شدد على نفسه فمنعها مما هو مباح له.

وضربت السورة مثلين للزوجة الكافرة التي في عصمة الرجل المؤمن، ومثلين آخرين، أحدهما: للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الكافر، والآخر: للمرأة المؤمنة المفترى عليها، في إشارة إلى أنه في يوم القيامة لا يغني أحد عن أحد، ولا ينفع حسب

ولا نسب، إذا لم يكن عمل الإنسان صالحاً.

وختمت السورة بالثناء على مريم بنت عمران التي صانت نفسها وحفظت فرجها، فكافأها الله بأن حملت بكلمة الله تعالى وإرادته بعيسى عليه السلام، للدلالة على كمال قدرة الله تعالى في خلقه للإنسان بدون حاجة إلى تلقيح الذكر للأنثى، وأثنى الله تعالى على مريم بصفتي الصلاح والقنوت، وهو ختام رائع يماثل جوّ السورة وهدفها.

أسباب النزول:

وسبب نزول السورة حادثان حدثتا بين أزواج النبي ﷺ:

أحدهما: ما روثه عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يشرب عسلاً عند أم المؤمنين زينب رضي الله عنها ويمكث عندها، قالت: (فتواطأت أنا وحفصة على: أيثنا دخل عليها، فلتقل له: أكلت مغافير؟ إني أجد منك ريح مغافير، قال: لا، ولكني كنت أشرب عسلاً عند زينب بنت جحش، فلن أعود له، وقد حلفت، لا تخبري بذلك أحداً^(١).
والمغافير: صمغ خلّو، له رائحة كريهة، يخرج من شجر العُرفط أي الطلح، وكان النبي ﷺ يحب العسل والحلوى، ويكره أن يوجد منه رائحة كريهة.

وصح في الحديث أن ابن عباس رضي الله عنهما سأل عمر رضي الله عنهما (من المرأتان اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ فما أتممت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة^(٢)).

وهذا هو أصح الروايات في الباب، وأصل القصة ثابت، وإن اختلفت الرواية فيمن شرب النبي ﷺ عندها العسل، ومن تظاهرتا عليه، ويشهد لهذا أن النبي ﷺ سئل عن

(١) صحيح البخاري برقم (٤٩١٢، ٥٢٦٧، ٦٦٩١)، وصحيح مسلم برقم (١٤٧٤)، وبنحوه في المسند (٢٥٨٥٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وأبوداود برقم (٣٧١٤)، والنسائي (٦٢٨)، وفي الكبرى (١١٥٤٤، ٤٧١٨)، وابن حبان (٤١٨٣)، وابن سعد (١٠٧/٨).

(٢) صحيح البخاري برقم (٨٩، ٤٩١٤)، وصحيح مسلم (١٤٧٩)، وسنن الدارقطني (٤٠١٤)، والمسند (٣٣٩، ٢٢٢) مطولاً؛ بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٤٢٦٨)، وأبوداود (٥٢٠١)، والترمذي (٢٦٩١)، وابن ماجه (٤١٥٣) مطولاً ومختصراً.

شيء حَرَّمَهُ على نفسه، فقال: «عكة من غسل»^(١).

ثانيهما: ما جاء عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال لحفصة رضي الله عنها: لا تحدثي أحداً، وإن أم إبراهيم حرام عليّ، فقالت: أتَحَرِّم ما أحل الله لك؟ قال: فوالله لا أقربها، فلم يَقْرُبْها حتى أخبرت عائشة، فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾^(٢).

وكانت حفصة رضي الله عنها قد وجدت النبي ﷺ مع مارية رضي الله عنها في حجرتها. وتفصيل هذا الخبر ما رواه الدارقطني عن ابن عباس عن عمر رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ بأم ولده مارية في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها، فقالت حفصة: تُدخلها بيتي، ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك، فقال لها: (لا تذكرني هذا لعائشة، فهي عليّ حرام إن قُرْبَتْها) قيل: فقالت له حفصة: وكيف تَحْرُمُ عليك وهي جاريتك، فحلف لها أن لا يَقْرُبْها، فقال النبي ﷺ لحفصة: لا تذكره لعائشة، فذكرته لعائشة، فألَى أن يدخل على نسائه شهراً، فاعتزلهن تسعاً وعشرين ليلة، فأنزل الله هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها، فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حَرَّمَهَا، فأنزل الله ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ﴾^(٤).
والأمة هي أم إبراهيم (مارية القبطية) التي أهداها له عظيم مصر.

(١) أخرجه ابن سعد عن عبد الله بن عتبة (١٧١/٨)، وأخرجه عبد بن حميد كما في الدر (٥٦٩/١٤).

(٢) المختارة للضيء المقدسي برقم (١٨٩) من مسند الهيثم بن كليب، قال ابن كثير: وهذا إسناد صحيح لم يخرج أحد من أصحاب الكتب الستة (٥٩/٨)، وصححه ابن حجر في الفتح (٢٩٢/١١)، وأخرجه ابن سعيد بن منصور بإسناد صحيح إلى مسروق.

(٣) سنن الدارقطني (٧٦/٥) برقم (٤٠١٣)، وهو في أسباب النزول للواحي (ص ٣٥٨)، والسيوطي (٣٠٧)، وفي إسناده: عبد الله بن شبيب، وهو ضعيف، وأخرجه الطبري في جامع البيان (١٥٥/٢٨) بسند صحيح.

(٤) السنن الكبرى للنسائي برقم (١١٦٠٧)، وفي السنن برقم (٣٩٦٩)، والحاكم (٤٩٣/٢)، وإسناده صحيح ورجاله ثقات وصحيح سنن النسائي (٣٦٩٥).

قال الشوكاني: فهذا سببان صحيحان لنزول الآية، والجمع ممكن بوقوع القصتين: قصة العسل، وقصة مارية، وأن القرآن نزل فيهما جميعاً، وفي سبب كل منهما أنه ﷺ أسرَّ الحديث إلى بعض أزواجه^(١).

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله تعالى:
أمهات المؤمنين خيرة نساء الأمة، وأعلامن طُهرًا ومكانة وتقوى، وقد صحبن النبي الكريم وعاونته على أداء رسالته، وارتفعن إلى ما يتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة، وقد أخذهن الله بأمرين معروفين في السيرة:

الأول: اتفقهنَّ على طلب النبي ﷺ بالمزيد من النفقة، وضيقهنَّ بالمعيشة الناشئة التي التزمها، وقد رضين جميعاً بالبقاء معه عندما أكد لهن أنه مابُدُّ من هذه الحياة لمن يريد الله ورسوله والدار الآخرة.

أما الأمر الثاني: فإن النبي ﷺ كان لطيف العشرة، لين الجانب، دمث الأخلاق، فأطمع ذلك بعض نسائه في الجرأة عليه، وكانت الغيرة هي السبب، فزعمت إحداهن أنها شمت منه رائحة غير طيبعية، فقال: شربت عسلاً عند زينب! فقالت: لعل نحله وقع على نبات سييء فقال: لا أعود، ولا تخبري أحداً، ثم ظهر أن القصة مفتعلة وأنها مؤامرة لتزهيده في فلانة!! وغضب الرسول لِمَا وقع، وهجر نساءه جميعاً، حتى شاع أنه طلقهن، ونزلت سورة التحريم تطفئ هذه الفتنة، وتؤدب مَنْ أخرج الرسول، وأساء المسلك^(٢).

* * *

(١) فتح القدير (٢٥٠/٥).

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٤٦٨).

سُورَةُ الْمُلْكِ (٦٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الملك) هي السورة السابعة والستون في ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة المؤمنون) وقبل (سورة الحاقة). وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية في المصحف المكي، والمدني الأول، وثلاثون آية في غيرهما.

وعدد كلماتها ثلاث مئة وثلاثون كلمة، وهي ألف وثلاث مئة وثلاثة عشر حرفاً.

أَسْمَاؤُهَا:

- ١ - وسميت سورة الملك، لورود لفظ ﴿الْمُلْكُ﴾ في أولها.
- ٢ - وتسمى: (تبارك) ٣ - و(المانعة).
- ٤ - و(المنجية) ٥ - و(المجادلة) أخذاً من الآثار التي وردت فيها، لأنها تُنَجِّي قارئها من النار وتمنعه من العذاب، وتجادل عنه يوم القيامة.
- ٦ - وتسمى سورة (تبارك الملك) للفرق بينها وبين (تبارك الفرقان).
- ففي حديث أبي هريرة ؓ الآتي بعد قليل، أن النبي ﷺ سماها سورة ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾.
- وأخرج الطبراني عن ابن مسعود ؓ قال: كنا نسميها على عهد النبي ﷺ (المانعة)^(١).
- ٧ - وتسمى (سورة الواقية)، ٨ - و(المناعة) بصيغة المبالغة^(٢).

(١) الطبراني في الكبير (١٠٢٥٤)، وابن مردويه كما صححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧)، والسلسلة الصحيحة (١١٤٠)، وعن ابن عباس في الترمذي (٢٨٩٠)، والطبراني (١٢٨٠١)، والبيهقي (٤١/٧).

(٢) ينظر: الفخر الرازي في تفسيره لأول السورة

وفي تاريخ ابن عساكر عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سماها (المنجية)^(١).
وسماها ابن عباس (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها سؤال الملكين^(٢).
فهذه ثمانية أسماء لها - بدون المكرر - وردت فيها.
وسورة الملك سورة مكية باتفاق.

وجميع سور جزء ﴿تَبَارَكَ﴾ سور مكية، كما أن جميع سور جزء ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ سور مدنية.
ومطلع سورتي المدثر والمزمل من أول ما نزل من القرآن، كما أن سورة القلم نزلت
بعد البعثة بثلاث سنوات، أما سورة الجن فقد نزلت بعد عشر سنوات من البعثة، في
عودة النبي صلى الله عليه وسلم من الطائف بعد وفاة خديجة وأبي طالب.

ومما ورد في فضل سورة الملك، ما جاء:

- ١- عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن سورة من القرآن، ثلاثين آية،
شفعت لرجل حتى غُفر له ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدْرِءُ الْمَلَأُ﴾»^(٣).
- ٢- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها
حتى أدخلته الجنة ﴿تَبَارَكَ الَّذِي يَدْرِءُ الْمَلَأُ﴾»^(٤).

(١) الأثر عند ابن عساكر (٤٦/٦) وغيره من طرق متعددة.

(٢) جاء هذا في مسند عبد بن حميد (٦٠١)، والطبراني (١١٦١٦)، والحاكم (٥٦٥/١)، وقد جاء هذا المعنى

عند سعيد بن منصور عن عمرو بن مرة، وحسنه الألباني عن ابن مسعود عند الطبراني والحاكم.

(٣) المسند ٣٢١/٢ (٨٢٧٦، ٧٩٧٥) حسن لغیره، رجاله ثقات رجال الشيخين غير عباس الجشمي، فمن
رجال السنن وهو مقبول، وأبوداود برقم (١٤٠٠)، والترمذي برقم (٢٨٩١) وحسن متنه، وسنن النسائي
الكبرى برقم (١١٦١٢)، وابن ماجه برقم (٣٧٨٦)، والحاكم (٥٦٥/١)، (٤٩٧/٢)، والبيهقي في شعب
الإيمان (٢٥٠٦)، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١٢٤٧)، وفي صحيح الترغيب والترهيب
(١٤٧٤)، وقال: حسن لغیره.

(٤) المعجم الأوسط للطبراني (١٧٦/١) والمعجم الكبير (٣٦٥٤)، والمختارة للضياء المقدسي برقم
(١٧٣٩، ١٧٣٨)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٣٠/٧)، وحسنه الألباني في
صحيح الجامع الصغير (٣٥٣٨).

- ٣- عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «تبارك هي المانعة من عذاب القبر»^(١).
- ٤- وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿الْمَ تَزِيلُ﴾ [سورة السجدة]، و﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾^(٢).
- ٥- قال ابن مسعود رضي الله عنه: يُؤتى الرجل في قبره، فيؤتى من قِبَل رجله، فتقول رجلاه: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان يقوم علينا بسورة الملك، ثم يؤتى من قبل صدره فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان وعى في سورة الملك، ثم يؤتى من قِبَل رأسه، فيقول: ليس لكم على ما قبلي سبيل، قد كان يقرأ بي سورة الملك، فهي المانعة، تمنع من عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب^(٣). وفي النسائي مختصراً: من قرأ ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ كل ليلة، منعه الله عز وجل بها من عذاب القبر، وكنا في عهد رسول الله ﷺ نسميها (المانعة) وأنها في كتاب الله عز وجل سورة من قرأ بها في كل ليلة فقد أكثر وأطاب^(٤).

موضوعات السورة:

- وشأن هذه السورة شأن السور المكية في معالجة قضايا العقيدة، والرسالة، واليوم الآخر. وهي تقيم الأدلة والبراهين على عظمة الله تعالى وقدرته: فهو الذي خلق الموت والحياة، وخلق سبع سماوات طباقاً، وهو الذي خلق الطير صافات، وهو الذي يرزق خلقه، ولا يُمسك رزقه عنهم، وهو الذي يجري هذا الماء، وإن شاء جعله غوراً، فلا
-
- (١) النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠٥٤٧)، وصححه الحاكم (٤٩٨/٢) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٥٣٧)، والسلسلة الصحيحة (١١٤٠).
- (٢) سنن الترمذي برقم (٣٤٠٤، ٢٨٩٢)، والبخاري في الأدب المفرد (١٢٠٧، ١٢٠٩)، والمسند (١٤٦٥٩) وهو حديث صحيح (محققوه)، وسنن النسائي الكبرى (١٠٤٧٤-١٠٤٧٧)، والبيهقي في الشعب (٢٤٥٥)، وعبد بن حميد (١٠٤٠)، والبخاري (١٢٠٧، ١٢٠٨).
- (٣) الأثر بسند حسن في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٥)، وأخرجه الطبراني (٨٦٥١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٠٩)، والحاكم (٤٩٨/٢) وقال: صحيح الإسناد وغيرهم.
- (٤) صحيح الترغيب والترهيب (١/١٩٣) بإسناد حسن كما قال الألباني.

تستطيعون الحياة بدونه.

وفيما يتعلق باليوم الآخر: فإن الإيمان بالغيب جزء من عقيدة المسلم، وقد أعد الله للكفار عذاب نار السعير وهي تتقطع غيظاً وحنقاً على مَنْ كفر بالله ورسله، وعِلْمُ قيام الساعة عند رب العالمين، ويوم يرؤنها تسودّ وجوه الكفار ويقال لهم: هذا الذي كنتم به تكذبون.

وحذرت آيات السورة من سخط الله تعالى لئلا يخسف بهم الأرض، كما حذرت المكذبين برسل الله أن يهلكهم الله بعذابه، فلا يجدون لهم مجيراً ولا منجياً، والرسول ﷺ هو المبلغ عن ربه.

وعقيدة التوحيد هي المحور الذي تدور حوله السورة، فتسوق ثلاثة عشر دليلاً على وحدانية الله تعالى، سبعة منها بأسلوب الخبر، وهي:

- ١- خلق الموت والحياة.
- ٢- وخلق السموات السبع الطباق.
- ٣- وعِلْمُ السر والنجوى.
- ٤- وخلق الإنسان والإحاطة به.
- ٥- وتذليل الأرض له.
- ٦- وتحليق الطيران في الفضاء.
- ٧- ورزق الله تعالى للكائنات.

ويتخلل هذه البراهين مَشاهد من عذاب أهل النار وبيان نعيم أهل الجنة، وأن الكفر يحوّل النعم إلى نقم تتمثل في الخسف والزلازل والبراكين والريح الحاصبة.

وهكذا فسورة الملك، سورة زاخرة بالحديث عن وحدانية الله تعالى، وعظيم قدرته، ومظاهر فضله ورحمته بعباده، وبديع خلقه في الكون، إلى جوار الحديث عن أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، ووجوب التأمل والتدبر في ملكوت السموات والأرض، بالإضافة إلى مجموعة من الحجج والبراهين التي لَقَّنها الله تعالى لنبيه ﷺ ليَقْذف بها في وجوه المبطلين، وهي تلقينات تتعلق بخلق نعمة السمع والبصر والفؤاد، والاستدلال ببدء الخلق على إعادته، وبيان أن علم قيام الساعة عند الله تعالى لا يعلمها إلا هو، وأنه لا مفر من عذاب الكافر، وأن المؤمن جدير برحمة الله تعالى ورضوانه، ثم

التهديد بالحرمان من نعمة الماء الذي هو سبب الحياة لكل كائن حي.
وفي نهاية السورة أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يلقي أمتة ستة أدلة على وحدانية الله
تعالى من فروع المخلوقات بلفظ ﴿قُلْ﴾ وهي:

- | | |
|--|--|
| ١- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ | ٢- ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ﴾ |
| ٣- ﴿قُلْ إِنَّمَا أَلِمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾ | ٤- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكِنِي اللَّهُ﴾ |
| ٥- ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَا بِهِ﴾ | ٦- ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ |

* * *

سُورَةُ الْقَلَمِ (٦٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة القلم) هي السورة الثامنة والستون في ترتيب المصحف، والرابعة في ترتيب النزول على الأصح، فقد سبقتها سور: العلق، والمدثر، والمزمل. وعدد آياتها: اثنتان وخمسون آية باتفاق.

وهي ثلاث مئة كلمة، وألف ومئتان وستة وخمسون حرفاً.

وهي سورة مكية، من أوائل ما نزل بمكة على رسول الله ﷺ قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة ﴿تَّ وَالْقَلَمِ﴾ بمكة^(١).

وقيل: إن قصة أصحاب الجنة مدنية، وكذا الآيات: من ٤٨-٥٠ التي فيها ذكر صاحب الحوت عليه السلام، والأرجح أن السورة كلها مكية.

قال ابن عباس: (كانت إذا نزلت فاتحة سورة بمكة، كُتبت بمكة، ثم يزيد الله فيها ما يشاء، وكان أول ما نزل ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ثم ﴿تَّ﴾ ثم ﴿الْمَرْمَلُ﴾ ثم ﴿الْمَدْيَنُ﴾^(٢). وتسمى سورة ﴿تَّ وَالْقَلَمِ﴾ واقتصر بعضهم على تسميتها سورة ﴿تَّ﴾ وبعضهم يسميها سورة ﴿تَّ وَالْقَلَمِ﴾ فهذه ثلاثة أسماء لها.

مقاصد السورة:

المحور الأساس الذي تدور حوله السورة هو إثبات نبوة محمد ﷺ ورد الشبه التي يُثيرها أهل الباطل حول الرسالة الخاتمة، ومن أجل ذلك تبدأ السورة بالقسم على رفع قدر النبي ﷺ وعلو شأنه، وبرأته مما يلصقه به أعداء الإسلام.

وتبين السورة أن أعداء الحق يقفون دائماً في وجه الدعوة في كل زمان ومكان، ثم

(١) أخرجه النحاس (ص ٧٤٩)، والبيهقي (١٤٢/٧)، وأخرجه ابن مردويه عن عائشة.

(٢) تفسير الشوكاني (٢٦٥/٥) عن ابن الضريس (١٧).

يندمون على عداوتهم للإسلام، بعد أن تكشف لهم الأيام عن زيف باطلهم، وصدق الإسلام، وهذا ما تحمله قصة أصحاب الجنة، فقد ندموا على شحهم وبخلهم بعد أن أهلك الله ثمرهم، نتيجة الكفر بنعمة الله عليهم، وهكذا فقد أعز الله قريشاً بالإسلام بعد أن أهانهم بالكفر.

أما المصرون على باطلهم، فإنهم يتعلقون بأوهام وماديات ذاهبة، لا مستند لهم فيها من عقل ولا نقل، وأمامهم حساب شاق دقيق، يندمون فيه ولات ساعة مندم، ولا عذر للكافرين في هذا الموقف، فقد أعذرهم القرآن وأنذرهم، وأعطاهم فرصاً شتى فأضاعوها وعاندوا وأصرّوا على باطلهم.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالبلاغ والصبر على متاعب الدعوة وتحمل الأذى، فهو رسول أرسله الله للعالم أجمع، كما جاء ذلك في باكورة الرسالة ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ الآية: ٥٢.

وقد أشارت السورة إلى اليوم الآخر في عدم التسوية بين المسلمين والمجرمين. وتناولت موقف المكذبين للدعوة واتهامهم لصاحبها بالجنون، وذكر عرّضهم على النبي ﷺ أن يلين لهم ليلينوا له، كما يطلب أعداء الإسلام من أهل الدعوة في كل عصر ومصر: التخلي عن آيات الجهاد، وعن آيات الولاء والبراء، للتعيش السلمي وتطبيع العلاقات مع غير المسلمين، فالتاريخ يعيد نفسه!

ولو أن غير المسلمين قديماً وحديثاً فهموا تعاليم الإسلام الهادية للبشر، لَمَا وقفوا منه موقف العداء، فالفجوة بين الإسلام وبين الإلحاد والشرك والعلمانية .. فجوة كبيرة لا يفقهها من حُرّموا نور الإسلام، ومن هذه الفروق الجاهلية في القديم والحديث ما يلي: أولاً: الفجوة كبيرة بين التوحيد الذي جاء به الإسلام، وبين الشرك وتعدد الأرباب والآلهة بين كثير من أبناء الشعوب، ومنهم من نفي الألوهية والرسالات، وقال: بأن الدين أفيون الشعوب.

ثانياً: والفجوة كبيرة أيضاً بين أخلاق الإسلام، في حفظ الدين والمال والعقل والنسب وما إلى ذلك، وبين أخلاق الجاهلية في القديم والحديث، كالخمر والجنس، والشذوذ، وسيطرة القوي على الضعيف.

ثالثاً: والفجوة كبيرة كذلك بين المساواة بين الناس جميعاً إلا بالتقوى، وبين الاعتبار الاجتماعية، التي تُصنّف الناس إلى طبقات فيها سيّد ومُسود، وشريف ووضيع ..

هذه بعض أسباب التصادم بين هدي الإسلام وضلال أهل الجاهلية، وهذه الأسباب هي التي جعلت كفار قريش لم ينقادوا للدعوة فقالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] لأن النبي ﷺ لم تكن له رئاسة قبل البعثة، مع شرف نسبه وعلو مكانته، واشتهاره بالصدق والأمانة، وكانوا في قرارة أنفسهم يسلمون بصدقه وأمانته وعفافه، ولكنهم يرفضون ذلك لأنه من بني عبد مناف.

كما جاء في قصة أبي جهل، والأخنس، وأبي سفيان، حين خرجوا ثلاث ليال متتابعة، يستمعون إلى القرآن خفية، كل واحد منهم من وراء الآخر، فيلتقون صدفة ويتفقون على عدم العودة، ثم يعودون، فسأل الأخنس أباجهل، عن رأيه فيما سمع من محمد ﷺ فقال: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، أي قاتلوا فقاتلنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكُنَّا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه!

وهذه الأسباب نفسها هي التي جعلت بني إسرائيل يقفون من الدعوة موقف الرفض والعناد، حسداً منهم للنبي ﷺ بعد أن انتقلت الرسالة منهم إلى العرب، ومن بيت المقدس إلى مكة، لأنهم لم يعودوا أهلاً لها.

وسورة القلم تشير إلى هذا كله في عروض المشركين على النبي ﷺ للالتقاء في منتصف الطريق والتهادن فيما بينهم ﴿وَدُّوا أَن يُدْهِنُوا فَيُدْهِنُونَ﴾ الآية: ٩.

﴿وَلَا يَكَاذُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبَّ لَقَوْلِكَ بِأَنْصَرِيهِ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَنْجُوتٌ﴾ الآية: ٥١.

والسورة تردّ على المكذبين للنبي ﷺ بمثل هذه الآيات: ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ (٢) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٣)، ٤ وترد على السبّ الموجه للنبي ﷺ في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْطَعْ كُلَّ جَلْفٍ مَّهِينٍ﴾ (١٠) هَمَزَ مَشَاءَ بَنِيهِ (١١)، ١٠، ١١.

وثبّين السورة أنه لا يوجد لدى المكذبين بالرسالة دليل من عقل ولا نقل ولا عهود ولا مشاركة يستندون إليها في تكذيبهم للنبي ﷺ ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ (٣٧) ﴿إِنْ لَكُمْ فِيهِ لَمَّا تَخْبِرُونَ﴾ (٣٨) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْتَانُ عَيْنًا بِلَغَةً إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَمَةِ إِنْ لَكُمْ لَمَّا تَحْكُمُونَ﴾ (٣٩) ﴿سَلِّمُوا بِهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ (٤٠-٣٧).
وبعد نزول هذه السورة، تمضي الدعوة عشرين عاما، ثم تعم الأرجاء وتقود البشرية، ومن خرج من البشر عن هذا الإطار، فهو في ضلال مبين.

ويمكن تقسيم موضوعات السورة إلى تسعة أقسام:

١- الآيات التسع الأول، فيها القسم على تبرئة النبي ﷺ مما ألصقه به المكذبون من السفه والجنون، وبيان أخلاقه العظيمة ومناقبه السامية، وفيها بيان ما أعدّه الله تعالى للمجرمين من العذاب والنكال ..

٢- ومن الآية العاشرة إلى الآية السادسة عشرة، عن الوليد بن المغيرة وأمثاله إلى قيام الساعة.

٣- ومن الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين عن قصة أصحاب الجنة ذات الأشجار والزروع المثمرة، فقد أحرقها الله تعالى لَمَّا منع أهلها حق الله منها، وجعلها عبرة للمعتبرين.

٤- ومن الآية الثالثة والثلاثين إلى الآية الثالثة والأربعين في الرد على شبه المكذبين بالوحي المنزل وتفنيدهم بأباطيلهم.

٥- وبقيّة السورة لتسليّة النبي ﷺ وأمره بالصبر على أذى المعارضين، وعدم التبرم والتضجر مما يلقاه في سبيل تبليغ الدعوة، كما حدث من نبي الله يونس ﷺ حين ترك

قومه وسارع إلى ركوب البحر.

٦- وأشارت السورة في نهايتها إلى عالمية الإسلام، وأن هذه العالمية قد بدأت بأوائل آيات الوحي نزولاً بمكة المكرمة، ثم مرّت على النبي ﷺ ليالي كالحّة، عانى فيها من الحرج والألم ما يهز الجبال الرواسي، ولكنه ﷺ ثبت حتى أدى الأمانة وترك الرسالة تحملها أجيال الدعوة بعده فنشرها رب العالمين على أيديهم.

الحروف المقطعة في أوائل السور:

وسورة القلم هي آخر سورة في ترتيب المصحف افتتحت بحرف واحد من حروف الهجاء، وهي أول سورة في ترتيب النزول افتتحت بحرف واحد من حروف الهجاء. وقد وردت هذه الحروف تارة مفردة، وتارة مركبة من حرفين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة:

- ١- والسور التي بُدئت بحرف واحد هي ثلاث سور: ص، ق، ن.
 - ٢- والسور التي بدئت بحرفين، تسع سور هي: طه، يس، طس، حم في ست سور: هي (غافر وفصلت والزخرف والدخان والجاثية والأحقاف).
 - ٣- والسور التي بُدئت بثلاثة أحرف، ثلاث عشرة سورة هي: (الم) في ست سور هي: (البقرة وآل عمران والعنكبوت والروم ولقمان والسجدة).
 - و(الر) في خمس سور هي: (يونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر).
 - و(طسم) في سورتين هما (الشعراء والقصص).
 - ٤- وسورتان ابتدأتا بأربعة أحرف وهما: الرعد (الم) والأعراف (المص).
 - ٥- وسورتان بدتتا بخمسة أحرف وهما: مريم (كهيعص) والشورى (حم عسق).
- فيكون مجموع السور المفتحة بالحروف المقطعة تسعاً وعشرين سورة.
- وهذه الحروف ومنها حرف (ن) من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله.
- فقد سئل الشعبي عن فواتح السور فقال: إن لكل كتاب سرّاً، وإن سر هذا القرآن في

فواتح السور.

وفي رواية أخرى قال: سر الله فلا تطلبوه.

وقد اجتهد أهل العلم في تأويلها، فمنهم من قال: إنها أسماء للسور، كما في الأثر (من قرأ حم السجدة حُفِظَ إلى أن يُضْبَح) وقيل غير ذلك.

١ - ولعل الأقرب إلى الصواب: أن هذه الحروف هي أصل الكلام المركب الذي يتألف منه الكلام العربي، وقد تحدى الله به المشركين أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا، فدل هذا على صدق القرآن الكريم.

٢ - ثم إن تصدير السور بهذه الحروف يجذب أنظار المعارضين للقرآن إلى الإنصات له والتدبر فيه، لأنها ألفاظ غير مألوفة لديهم، فإذا لُفَّت أنظارهم إليها وتأملوها، ربما كان هذا سبباً في هدايتهم واستجابتهم للحق.

٣ - وهذه الحروف تجعل المسلم ينقاد لأمر ربه، فيتمثل أمره ويجتنب نهيه دون سؤال عن السبب والعلة، بل يقول: سمعنا وأطعنا، فإذا كان لا يفهم لهذه الحروف معنى واضحاً، فهو كذلك لا يفهم لبعض العبادات معنى أو سبب وعلة، فيعبد الله تعالى كما أمره، وينتهي عما نهاه، وإن لم يفهم للأمر ولا للنهي علة.

سُورَةُ الْحَاقَّةِ (٦٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الحاقة) هي السورة التاسعة والستون في ترتيب المصحف، والسابعة والسبعون في ترتيب النزول.

وعدد آياتها إحدى وخمسون آية في المصحف البصري والدمشقي، واثنان وخمسون آية في بقية المصاحف العثمانية.

وهي مثنان وست وخسون كلمة، وألف وأربعة وثلاثون حرفاً، نزلت بعد (سورة الملك) وقبل (سورة المعارج)، وهي سورة مكية باتفاق، نزلت في السنة الخامسة قبل الهجرة.

وهذه السورة سميت (سورة الحاقة) من العهد النبوي، باسم أول كلمة فيها، وسماها الجعبري (الواعية) أخذاً من قوله تعالى ﴿وَعِيبَا أَدْنُ وَعِيبَا﴾ [الآية: ١٢] وتسمى (سورة السلسلة) لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا﴾ [الآية: ٣٢] فهذه ثلاثة أسماء لها.

وعن أبي برزة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ونحوها ^(١).

ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرجت يوماً بمكة، أتعرض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فوقفت خلفه، فاستفتح سورة الحاقة، فجعلت أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر، فقرأ ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ [الآية: ٤١] قلت: كاهن، فقرأ ﴿وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا نَذْكُرُونَ﴾ ^(٢) ﴿نَزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الآيتان: ٤٢، ٤٣] إلخ السور، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع ^(٣).

(١) الطبراني كما في فتح الباري (٢/٢٥٢).

(٢) رواه أحمد في المسند ٢٦٢/١ (١٠٧) وقال محققوه: إسناده ضعيف لانقطاعه، شريح ابن عبيد، لم يدرك عمر. وأوره الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٦٢)، وقال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله ثقات، إلا أن شريح بن عبيد لم يدرك عمر.

وقد أسلم عمر بعد الهجرة إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة سنة خمس، قبل الهجرة إلى المدينة^(١).

مقاصد السورة :

١- وشأن (سورة الحاقة)، شأن السور المكية، في تثبيت العقيدة والإيمان من خلال الحديث عن اليوم الآخر وذكر مصارع الأمم المكذبة، وعقاب الله تعالى لها في الدنيا، قوما بعد قوم، وجماعة بعد جماعة، وجاء ذلك من أول السورة إلى الآية الثانية عشرة.

٢- ثم تحدثت آيات السورة عن القيامة، وما يسبقها من خراب العالم، مع بيان حال السعداء والأشقياء، أو الناجين والهالكين، وذلك من الآية الثالثة عشرة إلى الآية السابعة والثلاثين.

٣- ثم تحدثت آيات السورة عن إثبات صدق الرسول الخاتم، وصدق كتابه المنزل عليه، وأنه ليس بشعر ولا سحر ولا كهانة، وذلك من الآية الثامنة والثلاثين إلى آخر السورة. وهذه العناصر الثلاثة: التوحيد، والبعث، والوحي، هي مهمة السور المكية.

ولكن المحور الأساس الذي تهتم به السورة هو اليوم الآخر، وقد بدأت السورة بذكر أحد أسمائه وهو ﴿الْحَاقَّةُ﴾ ثلاث مرات، وأتبع ذلك بالإشارة إلى العقوبة الدنيوية التي لحقت بمن كذب بالبعث والنشور ليكون لنا فيهم عبرة وعظة فنؤمن باليوم الآخر ونتزود له بالإيمان والعمل.

فهي سورة رهيبة تهز الأعماق هزاً، وتُلقي في النفس قوة إحساس بأن هذا الدين حازم وجازم، لا مجال للهزل فيه، وأن عقاب الله تعالى صارم لا يفلت منه مستحق له، حتى ولو كان سيد الخلق ﷺ فيما يخص أمانة التبليغ وصدق الوحي والرسالة: ﴿وَلَوْ نَقُولَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِيزٍ ۝٤٧﴾ [الآيات: ٤٤-٤٧] وتُصور آيات السورة نهاية الكون المروعة، بالنفخ في الصور، فتعم

(١) ينظر: تفسير الألوسي (٢٨/٢٩)، وتفسير التحرير والتنوير (١١٠/٢٩).

العالم العلوي والسفلي خراب ودمار، يتمثل في دك الأرض والجبال، وانشقاق السماء، وحفوف الملائكة بها.

ثم تُصور السورة مشهد الحساب، فالأبرار يأخذون كتب أعمالهم بأيمانهم ويطلبون من غيرهم قراءتها، والدنيا لا تسع فرحتهم وسعادتهم، والفجار يأخذون كتب أعمالهم بشمالهم، والحسرة تملأ قلوبهم، فلا المال نفعتهم، ولا السلطة أو الجاه شفع لهم، وتتسابق الخزنة إلى تنفيذ القضاء الرهيب فيهم، وهو مشهد تنخلع له النفوس، ويرتعث له الحس والوجدان ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴾ (٣٠) ﴿ثُمَّ لَئَجِمَ صَلْوَهُ﴾ (٣١) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿[الآيات: ٣٠-٣٣].

إنها مشاهد مروعة ومتعددة، فيها مشهد الناجي، ومشهد الهالك، مشهد الملائكة وحملة العرش، ومشهد الأرض وهي تدك، والسماء وهي تنشق، ومشهد العرض والحساب، فداوم - أيها الرسول ويا أيها المؤمن - على تسيحك لله وحده واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

سُورَةُ الْمَعَارِجِ (٧٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المعارج) هي السورة السبعون في ترتيب المصحف، والثامنة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الحاقة) وقبل (سورة النبأ).

وعدد آياتها أربع وأربعون آية، ماعدا المصحف الدمشقي. فهي ثلاث وأربعون آية عنده. وعدد كلماتها مئتان وأربع وعشرون كلمة، وتسع مئة وتسعة وعشرون حرفاً. وسميت سورة المعارج في المصاحف، وفي كتب السنة والتفسير، وتسمى أيضاً سورة ﴿سَالَّ سَالٍ﴾ وذكر السيوطي في الإتقان، أنها تسمى سورة (الواقع) وهذه الأسماء الثلاثة مقتبسة من كلمات وقعت في الآيتين من أول السورة، وهي سورة مكية باتفاق، ويمكن تقسيم السورة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هو الرد على منكري البعث والنشور، بما في ذلك ذكر أهوال القيامة وما فيها من راحة ونصب، وسعادة وشقاء، وذكر أحوال المؤمنين والمجرمين في دار الجزاء والخلود، لاسيما حال المجرمين في ذلك اليوم الذي تتفطر فيه السماء، وتتطاير فيه الجبال في الهواء، وذلك بسبب استهزاء المكذبين بالدعوة والرسالة.

وقد جاء هذا من أول السورة إلى الآية الثامنة عشرة.

والقسم الثاني: يتحدث عن طبيعة الإنسان، وجزعه عند الشر، ومنعه للخير، وبطره للنعمة، ثم تستثني السورة من ذلك المؤمنين، وتصفهم بتسع صفات، هي:

- ١- المداومة على الصلاة.
- ٢- وإخراج الزكاة.
- ٣- والإيمان بالبعث والنشور.
- ٤- والخوف من الجليل.
- ٥- وحفظ الفرج.
- ٦- وأداء الأمانة.
- ٧- والوفاء بالعهد.
- ٨- وعدم كتمان الشهادة.
- ٩- والمحافظة على الصلاة.

وَتُعَقَّبُ السُّورَةُ بِذِكْرِ الْكَافِرِينَ بَعْدَ الْمُؤْمِنِينَ، لِبَيَانِ حُرْمَانِهِمْ مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَهَذَا مِنَ الْآيَةِ التَّاسِعَةِ عَشْرَةَ إِلَى الْآيَةِ الْحَادِيَةِ وَالْأَرْبَعِينَ.

وَالْقِسْمُ الثَّالِثُ: فِيهِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ لِلْمُضِيِّ فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ، وَشَحْذُ هِمَّتِهِ لِمُوَاجَهَةِ مَصَاعِبِهَا وَعَنْتِ الْمَكْذِبِينَ لَهَا، وَتَزْكِيهِمْ فِي بَاطِلِهِمْ حَتَّى يَلْقَوْا رَبَّهُمْ فَيَجَازِيَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ. وَخَتَمَتِ السُّورَةَ بِالْقَسَمِ عَلَى أَنْ الْبَعْثَ وَالْجِزَاءَ حَقٌّ لَا رَيْبَ فِيهِ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ خَلْقًا آخَرَ، هُمْ أَطْوَعُ لِلَّهِ تَعَالَى وَأَكْثَرُ اسْتِجَابَةً مِمَّنْ كَذَبَ بِالْبَعْثِ وَالنَّشُورِ.

* * *

سُورَةُ نُوحٍ (٧١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة نوح) هي السورة الحادية والسبعون في ترتيب المصحف، والثالثة والسبعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النحل) وقبل (سورة الطور)، أو إبراهيم. وعدد آياتها في العدد الكوفي ثمان وعشرون آية^(١). وهي مثنان وأربعة وعشرون كلمة، وتسع مئة وتسعة وتسعون حرفاً. وسميت سورة نوح: لعدم اشتغالها على موضوع آخر سوى قصة نوح عليه السلام. وهي سورة مكية باتفاق. وقد وردت قصة نوح مع قومه في سور: الأعراف ويوسف وهود والشعراء والعنكبوت والقمر.

وجاء ذكر اسم نوح في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعاً. وقد تكلمت بالتفصيل عن قصة نوح في سورتي الأعراف وهود بما أغنى عن إعادته. ومن المشتهر أن نوحاً عليه السلام كان يسكن أرض الكوفة بالعراق، وهناك أرسل، واسم نوح غير عربي، ويتهيئ نسبه إلى شيث بن آدم عليهم السلام. وهو من كبار الرسل وأولي العزم منهم وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

موضوع السورة:

وسورة نوح كسورة يوسف في وحدة الموضوع، ففيها تفصيل لقصة نوح عليه السلام منذ بدء دعوته إلى حادثة الطوفان وإغراق المكذبين، فذكرت جهاده وصبره

(١) وفي العدد المكي والمدني والحمصى ثلاثون آية، وفي العدد البصري والشامي تسع وعشرون آية.

وتضحيتها في سبيل تبليغ الرسالة، ودعوته لقومه ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، في أطول مدة للرسالة، بلغت تسعة قرون ونصف، وهو زمن طويل، يتسع لازدهار دُول وانهارها، ويتسع لظهور مبادئ وزوالها، ومع ذلك فإن قوم نوح ﷺ ظلوا على ضلالهم، لا يتوبون، ولا يفكرون في توبة، وكان الرجل منهم يأخذ بيد ولده، ويذهب به إلى نوح ﷺ ويقول لابنه: احذر هذا، فإنه كذاب، وإن أبي حذرني منه.

وبعد هذه القرون الطويلة التي أمضاها نوح ﷺ في البلاغ والتذكير، أعلمه ربه أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن، وأنهم لن يلدوا إلا فاجراً كفاراً، فدعا عليهم نوح بالهلاك، فأغرقهم الله بالطوفان.

وفي أثناء دعوة نوح لقومه، ظهرت عبادة الأصنام، وبدأ منشؤها في العالم، وكان من وسائل الإيضاح التي استخدمها نوح عليه السلام في دعوة قومه، أن عرض عليهم بعض دلائل التوحيد وآثار قدرة الله تعالى في هذا الكون، وهي موجبة لتوحيده جل شأنه ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ۖ ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ۖ ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ۖ ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ۖ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ۖ ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۖ﴾ [الآيات: ١٥-٢٠].

وقد أرست سورة نوح أصول العقيدة وثبتت قواعد الإيمان، وأشارت إلى عذاب القبر واليوم الآخر، وقد بين نوح ﷺ لقومه أن توحيد الله تعالى هو الأصل والأساس في دعوة الرسل، فذكر لهم خمسة من آثار قدرته تعالى وهي:

١- مغفرة الذنوب. ٢- تهيئة أسباب الرزق.

٣- وكثرة الأموال والأولاد. ٤- وكثرة المزارع والبساتين.

٥- وتفجير المياه العذبة من الأنهار والعيون.

ثم أقام نوح لقومه سبعة أدلة على وحدانية الله تعالى وهي:

١- تدرج خلقهم. ٢- وخلق السبع الطباق.

٣- وجعل القمر نوراً. ٤- والشمس ضياء.

٥- وإخراجهم من الأرض. ٦- وعودتهم إليها.

٧- وتمهيد الأرض للسعي في مناكبها.

وقد تلونت حكاية أقوال نوح، وأقوال قومه، وأقوال الله تعالى في السورة، وبلغ مجملها ثمانى مقالات وهي:

١- ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ﴾ [الآية: ١].

٢- ﴿قَالَ يَقُومُوا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الآية: ٢].

٣- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ [الآية: ٥].

٤- ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ [الآية: ١٠].

٥- ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّمَا عَصَوْتَ﴾ [الآية: ٢١].

٦- ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [الآية: ٢٤].

٧- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [الآية: ٢٦].

٨- ﴿رَبِّ آغْفِرْ لِي وَلِوَلَدَيَّ﴾ [الآية: ٢٨].

هذا: وإن وحدانية الله تعالى أمر مركوز في فطر البشر، بمقتضى الميثاق المأخوذ عليهم وهم في عالم الذر، ولكن هذا الإيمان يحتاج إلى جهد بشري لإقراره في النفوس، وقد اختار الله تعالى لهذه المهمة صفوة من البشر، أرسلهم إلى خلقه، عندما انحرف الناس عن هذه الفطرة.

وقوم نوح عليه السلام هم أول من عبد الأصنام، وكان الناس قبل ذلك أمة واحدة على دين واحد، هو التوحيد، ثم بدأ الاختلاف في التوحيد من عهد نوح عليه السلام، وكانت المدة بين آدم ونوح عليهما السلام نحو ست مئة عام، وكان عدد الناس وقتئذ لا يتجاوز بضعة آلاف.

سُورَةُ الْجِنِّ (٧٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الجن) هي السورة الثانية والسبعون في ترتيب المصحف، والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الأعراف) وقبل (سورة يس).

وهي ثمان وعشرون آية باتفاق، وممتان وخمس وثمانون كلمة، وثمان مئة وسبعون حرفاً. وسميت سورة الجن: لأنفرادها بالحديث عنه.

وتَرْجَمَ لها البخاري في كتاب التفسير: سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾.

وهي سورة مكية باتفاق، أخرج ابن مردويه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: نزلت سورة ﴿قُلْ أُوحِيَ﴾ بمكة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت سورة الجن بمكة^(١). نزلت سنة عشر من البعثة، عندما ذهب النبي ﷺ إلى سوق عكاظ، وصلى بأصحابه صلاة الفجر في نخلة، واستمع إليه فريق من الجن، فرجعوا إلى قومهم يقولون ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ كما سيأتي.

وحدث مثل ذلك عندما سافر النبي ﷺ إلى الطائف يطلب النصرة من ثقيف، فأذوه وأعرضوا عنه، وفي عودته إلى مكة، أرسل الله إليه نفراً من الجن، يستمعون إليه، ويجيبون دعوته، وكان هذا تطبيقاً لخاطر النبي ﷺ وتعويضاً له عن إعراض أهل الطائف عنه، وكأن الله تعالى يقول له: إن أعرض عن الإيمان بك عالم الإنس، فقد أرسلت لك عالماً آخر - هو عالم الجن - يؤمن بك ويصدقك.

موضوع السورة: وفي ذلك ستة مباحث:

أولاً: سورة الجن تعالج موضوعات القرآن المكي الثلاث: وهي الوحداية، والرسالة،

(١) أخرجه ابن الضريس (١٧)، والنحاس (ص ٧٤٩)، والبيهقي في الدلائل (١٤٣/٧).

والبعث والجزاء، وقد جاء ذلك في صورة موجهة إلى الجن، كما جاء في سور أخرى كثيرة موجهة إلى الإنس، للدلالة على أن محمداً ﷺ قد أرسل إلى الجن كما أرسل إلى الإنس، فهو رسول الثقلين.

١- أما ما يتعلق بالتوحيد فقد جاء في هذه السورة في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ- ﴿وَلَنْ تَشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الآية: ٢].

ب- وقوله ﴿وَأَنَّهُ، تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الآية: ٣].

ج- وقوله ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الآية: ١٨].

د- وقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ [الآية: ٢٠].

هـ- وقوله ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُخِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا﴾ [الآية: ٢٢].

٢- أما ما يتعلق باليوم الآخر، فقد جاء في هذه السورة في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ- ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾ [الآية: ٧].

ب- وقوله ﴿وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الآية: ١٥].

ج- وقوله ﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾ [الآية: ١٧].

د- وقوله ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا﴾ [الآية: ٢٣].

٣- أما ما يتعلق بالرسالة والوحي، فقد جاء في مثل قوله تعالى على لسان الجن:

أ- ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [الآية: ١].

ب- ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمَدَىٰءَ آمَنَّا بِهِ﴾ [الآية: ١٣].

ج- ﴿وَأَنَّهُ، لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الآية: ١٩].

د- ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ﴾ [الآية: ٢٧].

ومحور السورة الأساس يدور حول عالم الجن، وما يتعلق بهم، وقد بدأت ذلك بالإخبار عن استماع فريق منهم للقرآن، وتأثرهم به، وإيمانهم بخاتم المرسلين، ودعوتهم أقوامهم إلى الإيمان به، وتمجيدهم لله تعالى. وإفرادهم له بالعبادة، ومنعهم

من استراق السمع، بإرسال الشهب عليهم وإحراقهم، وبينت السورة أن الجن منهم المؤمنون ومنهم الكافرون ومنهم الأذكياء والأغبياء.

وبمقتضى الآيات السابقة، فإن في هذه السورة شهادة من الجن بوجوب إخلاص التوحيد والعبادة لله وحده، ووجوب الإيمان برسالة محمد ﷺ وبالיום الآخر وما فيه من ثواب وعقاب.

وقد كان العرب يعتقدون أن للجن سلطاناً في الأرض بالنفع والضرر، وأنهم يعلمون الغيب، فصحح القرآن هذه المفاهيم.

وقد أعطت السورة صورة واضحة عن عالم الجن، وصححت عقيدتهم التي أخذوها عن النصارى، في جعل المسيح ابناً لله، أو إلهاً معه، أو ثالث ثلاثة. فقد انتشرت هذه الفرية، في أرجاء الأرض، وبلغت الجن فعرفوها، ثم إنهم لما استمعوا إلى القرآن عرفوا ما يناقضها، وعرفوا أن الله تعالى واحد أحد، ليس له والد ولا ولد، فآمنوا بربهم قائلين ﴿وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الآية: ٢].

ولما عرفوا خطأ ما كانوا يعتقدونه، رجعوا عنه مقرين أن الله تعالى ليس له زوجة وليس له ولد: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الآية: ٣].

ولكن رجالاً من الإنس، استمعوا إلى هذا اللغو الذي ينطوي على عقيدة التثليث أو البنوة، فنشروه في الأرض، وضللوا به الجماهير الغفيرة.

يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: والواقع أن الخطأ إذا سلَّحَتْه الدولة بعنفوانها، وأقامت له أبراجاً تدرسه وتحميه، تركَّ ظلاله في النفوس، واستقرت أوضاعه قروناً، وقد نشر الاحتلال الروماني عقيدة التثليث، واستطاع بالرغبة والرغبة أن يوطئ لها الأكناف، ولولا أن محمداً ﷺ درَّع الحق الذي بُعث به، وفداه بالنفس والمال، لجعله الرومان في خبر كان، ومن أين كان يَعلم الجن أن الله واحد، لا ولد له ولا والد، لولا الدعاة الذين حملوا الكتاب هنا وهناك، وقرعوا به الأذان^(١).

(١) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٤٨٢).

وقد ختمت السورة ببيان اختصاص الله تعالى بعلم الغيب، وإحاطته بجميع ما في الكائنات والتبرىء إلى الله تعالى من الحول والطول.

وتنتهي السورة بما بدأت به من إخلاص التوحيد لله تعالى، فقد بُعث النبي ﷺ لمجاهدة الشرك والخرافة ومقاومة الضلال والانحراف.

ثانياً: عالم الجن:

وعالم الجن من المخلوقات الخفية اللطيفة، فهو عالم غير مرئي لنا، مخلوق من عنصر ناري، وله حياة وإرادة وإدراك، وهو منتشر في أماكن مجهولة، ليست على سطح الأرض ولا في السموات، وهو من عالم الغيب، لا تراه الأبصار، ولا تدركه الأسماع في العادة، وقد أعطى الله الجن قدرة على التشكل بأشكال مختلفة.

وكان العرب يعتقدون في الجن، وينسبون إليهم بعض التصرفات، فيعتقدون أن لهم سلطة وقدرة على النفع والضرر، ولذا فقد كانوا يتَّقونهم، ويتعوذون منهم، ويذبحون لهم القرابين، ويعتقدون أن الكاهن تأتيه الجن بالخبر من السماء، وأن الشاعر له شيطان يوحى إليه بالشعر، ومن العرب من زعم أن الملائكة بنات الله، أمهاتهم سرّوات الجن - أي أشرافهم - وهم قريش وجُهيّنة وبنو سلمة وخزاعة وبنو مُلَيْح.

وبعض مجوس العرب عبدوا الشيطان، وزعموا أنه إله الشر، والتاريخ يعيد نفسه، فها نحن نجد عبدة الشيطان في زماننا، قالوا: مادام الشيطان يوسوس للإنسان ويتسلط عليه، فلماذا لا نرضيه ونعبده؟!

قال القرطبي: واختلف الناس في أصل الجن، فعن الحسن البصري: أن الجن - أي المتمردون منهم - ولد إبليس، والإنس ولد آدم.

ومن هؤلاء، وهؤلاء مؤمنون وكافرون، وهم شركاء في الثواب والعقاب، فمن كان مؤمناً فهو ولي الله، ومن كان كافراً فهو شيطان.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن الجن هم ولد الجان، وليسوا بشياطين، ومنهم

المؤمن والكافر، والشياطين هم ولد إبليس، لا يموتون إلا مع إبليس^(١) عند النفخة الأولى. وقد أخبر الله تعالى أن الجن خلقوا من مارج من نار، وأن منهم الصالح والطالح، والعاقل والأبله، ومنهم المسلم والكافر، كما جاء على لسانهم: ﴿كَأَطْرَاقٍ قَدَدًا﴾ [الآية: ١١] وهم قادرون على الأعمال الشاقة، وعلى فعل الخير والشر.

وقد سخر الله الشياطين لسليمان، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات، ومنهم مرده الجن، كمردة الإنس، ومنهم الشيطان المارد، العات الطاغية، ومنهم العفريت سريع الحركة والتنقل، وهم يأكلون ويشربون، ويتناكحون ويتناسلون كالإنسان.

ثالثاً: رسول الثقلين:

وقد بُعث النبي ﷺ إلى الجن، كما بعث إلى الإنس، فدعاهم إلى التوحيد، وأنذرهم، وبلغهم القرآن، وبلغهم أنهم محاسبون على أعمالهم يوم القيامة كما يحاسب الناس، كما صرح بذلك الكتاب والسنة، مما يفيد القطع بأن الجن والشياطين موجودون، متعبدون بالأحكام الشرعية، وأن من دخل منهم في الإسلام فهو من المؤمنين، ومن لم يدخل فيه فهو من الكافرين.

وقد تعددت الروايات في لقاء النبي ﷺ بالجن، منها ما يفيد أنهم استمعوا إليه صُدفة دون أن يراهم، ومنها ما يفيد أنه التقى بهم قَصداً وقرأ عليهم القرآن.

قال الألوسي: وقد دلت الأحاديث على أن وفادة الجن على النبي ﷺ كانت ست مرات، ويُجمع بذلك بين اختلاف الروايات في عددهم، وأسمائهم، وأماكن الالتقاء بهم، وأنه كان تارة قصداً، وتارة مصادفة.

رابعاً: من الأحاديث الواردة في قصة الجن:

١- ما جاء في الصحيحين عن علقمة أنه سأل عبد الله بن مسعود ؓ عن لقاء

(١) تفسير القرطبي (٥/١٩).

النبي ﷺ بالجن، فقال: كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه فالتمسناه في الأودية والشعاب، وقلنا: إنه اغتيل، فبتنا شرّ ليلة، فلما أصبحنا إذ به قدم علينا من جهة جبل حراء، فلما سألناه قال: «أتاني داعي الجن، فذهبتُ معهم، فقرأتُ عليهم القرآن»، ثم أخذهم النبي ﷺ فأراهم آثارهم، وسألوه عن زادهم فقال: «كل عَظْمُ ذُكْرٍ اسم الله عليه، يقع في أيديكم أو فر ما يكون لحما، وكل بغرة أو رُوثة، عُلِّفَ لدوابكم» قال ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»^(١) فالعظم يتحول في أيدي الجن إلى لحم.

وهذا الحديث يفيد أن النبي ﷺ كان وحده حين قرأ القرآن على الجن وأن هذه الحادثة مختلفة عما:

٢- جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه: أن الشياطين كانوا يسترقون السمع من السماء، فلما بُعث النبي ﷺ مُنعوا من استراق السمع، وأُرسلت عليهم الشُّهب، فلما حدث ذلك قال لهم سيدهم: لا بدّ وأن يكون قد حدث أمر، حال بينكم وبين خبر السماء، فانطلق الشياطين في مشارق الأرض ومغاربها ينظرون ما حدث؟ فتوجَّهوا إلى تهامة، فوجدوا رسول الله ﷺ قد قصد سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه الفجر، في مكان اسمه نخلة بين مكة والطائف، فلما سمعوا القرآن، تسمَّعوا له، فقالوا: هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فرجعوا إلى قومهم يقولون لهم ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ وأنزل الله سورة الجن^(٢).

٣- وأخرج الترمذي وغيره عن ابن عباس رضي الله عنها قال: كان الجن يصعدون إلى السماء يسمعون الوحي، فإذا سمعوا الكلمة زادوا فيها تسعاً وتسعين، فأما الكلمة

(١) ينظر الحديث في صحيح مسلم برقم (٤٥٠، ١٥١)، والبخاري (٣٨٥٩)، وأبوداود (٨٥)، والترمذي (٣٢٥٨)، والكبرى للنسائي (١١٥٥٩، ٣٩)، والمسند (٤١٤٩)، وابن حبان (١٤٣٢).

(٢) ينظر الحديث في صحيح البخاري برقم (٤٩٢١، ٧٧٣)، وصحيح مسلم (٤٤٩)، والترمذي برقم (٣٣٢٣، ٤٢٧)، والمسند بتصحيح أحمد شاكر برقم (٢٤٣١)، وبتحقيق د/ التركي وغيره (٢٢٧١)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦٢٤، ١١٥٦٠)، والحاكم (٥٠٣/٢)، والطبراني في الكبير (١٢٤٤٩).

فتكون حقاً، وأما ما زاد فيكون باطلاً، فلما بُعث رسول الله ﷺ مُنعوا مقاعدهم، فذكروا ذلك لإبليس، ولم تكن النجوم يُرمى بها قبل ذلك، فقال لهم إبليس: ما هذا إلا أمر قد حدث في أرض، فبعث جنوده، فوجدوا رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين جبلين، أراه قال بمكة، فأتوه فأخبروه فقال: هذا الذي حدث في الأرض^(١).

٤- وروى الترمذي وغيره عن جابر ﷺ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقرأ عليهم سورة الرحمن إلى آخرها فسكتوا، فقال: «لقد قرأتها على الجن فكانوا أحسن رداً منكم، كلما أتيت على قوله تعالى: ﴿فَإِنِّي إِلَآءَ رَبِّكُمْ أَتَكْذِبُونَ﴾ قالوا: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»^(٢).

٥- وعن عبد الله بن مسعود ﷺ أن الجن هبطوا على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة، فلما سمعوه قالوا أنصتوا، وكانوا تسعة، أحدهم زوبعة، فأنزل الله آية الأحقاف^(٣). قال عبد العزيز بن عمر: أما الجن الذي لقوه بنخلة، فجن نينوى، وأما الجن الذين لقوه بمكة، فجن نصيبين^(٤).

٦- وأخرج ابن المنذر عن عبد الملك قال: لم تُحرَس السماء في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام، فلما بعث الله محمداً ﷺ حُرِسَت السماء الدنيا، ورُمِيت الجن بالشهاب، فاجتمعت إلى إبليس فقال: لقد حدث في الأرض حدث، فتعرَّفُوا، فأخبرونا ما هذا الحدث؟ فبعث هؤلاء النفر إلى تهامة، وإلى جانب اليمن، وهم أشراف الجن وسادتهم، فوجدوا النبي ﷺ يصلي صلاة الغداة بنخلة، فسمعوه يتلوا القرآن ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ

(١) سنن الترمذي (٤٢٧/٥) برقم (٣٣٢٤)، والنسائي (٦٤٦)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٤٦)، وصححه محققو

المسند (٢٤٨٢)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٢٨٨/١٤)، والنسائي في الكبرى (١١٥٦٢)، والطبراني (١٢٤٣١).

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٢٩١)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٢٧٣/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي في الشعب (٢٢٦٤)، وفي الدلائل (٢٣٢/٢) ورجاله ثقات.

(٣) رواه الحاكم في المستدرک (٤٥٦/٢) من طريق أبي بكر بن أبي شيبة، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) تفسير ابن كثير (٢٩٦/٨).

قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ ﴿٢٩﴾ يعني بذلك أنه فرغ من صلاة الصبح ﴿وَلَوْأَ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩] مؤمنين، لم يشعر بهم حتى نزل ﴿قُلْ أَوْحَىٰ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أي: سبعة من أهل نصيبين^(١).

٧- وفي سيرة ابن إسحاق وابن هشام: ثم إن رسول الله ﷺ انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة حين يس من ثقيف، حتى إذا كان بنخلة، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن الذين ذكرهم الله تعالى، وهم - فيما ذكر لي - سبعة نفر من جن نصيبين، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته، وَلَوْأَ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ، قد آمنوا، وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله خبرهم عليه.

فهذه الروايات إلى جوار غيرها، مما هو في الباب، تفيد كثرة التقاء النبي ﷺ بالجن، لدعوتهم إلى الإسلام، وأن أعدادهم كانت تختلف في كل مرة، وكان النبي ﷺ يقصد دعوتهم أحياناً، وكانوا يستمعون إليه مصادفة أحياناً أخرى، ويخبره ربه بذلك، كما يَظْهَرُ من مطلع هذه السورة.

والأحاديث يفسر بعضها بعضاً، فالرواية التي تقول (ما قرأ رسول الله ﷺ على الجن ولا رآهم)^(٢) توضحها الروايات الأخرى، بتعدد لقاءه بهم ووفادتهم عليه ﷺ. والمعنى: أن النبي ﷺ لم يكن عنده علم حين استمع الجن إليه وهو يقرأ القرآن، فهو لم يره ولم يقصد القراءة عليهم في هذه المرة.

خامساً: مصير الجن:

واختلفوا في جزاء الجن يوم القيامة:

فقال أبو حنيفة: ليس للجن ثواب، إلا أن يُجَازَوْا من عذاب النار، ثم يقال لهم: كونوا تراباً، مثل البهائم.

(١) الدر المنثور (٦/١٥)، وأخرجه الطبري (١٦٤/٢١)، والبيهقي في الدلائل (٢٤١/٢)، وكلاهما عن ابن عباس.

(٢) كما جاء في رواية ابن عباس عند الترمذي (٤٢٦/٥)، وصححه الألباني وأحمد شاكر في المسند (٢٤٣١) وسبق تخريجه في آخر سورة الأحقاف.

وقال مالك والشافعي: كما يُجْزَوْنَ على الإساءة، يُجْزَوْنَ على الإحسان، ويدخلون الجنة^(١).

سادساً: لا يوجد رسل من الجن:

ورسل الله تعالى إلى الإنس والجن، لا يكونون إلا من الإنس، ولم يثبت أن الله تعالى أرسل رسلاً من الجن إلى البشر، ولا إلى الجن ورسالة النبي ﷺ إلى الجن من خصائصه ﷺ.

ومعنى قوله تعالى: ﴿يَمَعَشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠] أي رسل تعرفونهم وتسمعونهم، و﴿مِّن﴾ في قوله تعالى ﴿مِّنكُمْ﴾ ليست للتبعيض، وإنما هي ﴿مِّن﴾ الاتصالية، مثل قولهم (لست مني ولست منك).

* * *

سُورَةُ الْمَزْمَلِ (٧٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة المزمل) هي السورة الثالثة والسبعون في ترتيب المصحف، وهي السورة الثالثة في ترتيب النزول على الأرجح، نزلت بعد (سورة المدثر) وقبل (سورة القلم). وعدد آياتها عشرون آية في العدد الكوفي^(١)، وهي مئتان وخمس وثمان مئة كلمة، وثمان مئة وثمانية وثلاثون حرفاً، ولم يُعرف لها اسم آخر سوى سورة المزمل. وهي سورة مكية بما فيها الآية الأخيرة على الأرجح، فقد قيل إنها نزلت بعد سنة، من نزول بقية السورة قبلها، وقيل: نزلت بعد عشر سنين.

٢ - موضوع السورة:

أ - تناولت السورة في أولها جانباً من تبثّل النبي ﷺ في قيام الليل قبل أن تُفرض الصلاة عليه وعلى أمته، وقد تضمن ذلك طول تلاوة النبي ﷺ للقرآن في صلاته، وحُسن ترتيله له، واغتنام ساعات الليل في التهجد والعبادة، فهي ممارسة شاقة على النفس، تُروّضها وتُهدّبها، وتشدّ عزمها، وتشحذ همتها.

وفي النهار وقت طويل متسع لشؤون الدنيا، وقد جاء هذا في الآيات التسع الأولى من السورة.

ب - وبعد هذا الإعداد الروحي والبدني، أمر الله رسوله أن يصبر على أذى المكذبين له، ويترك أمرهم لربه، فإنه المتكفل بنصره عليهم، والله تعالى سيتولى جزاءهم الذي توعدّهم به من النكال والعذاب يوم القيامة، فعند الله تعالى: ﴿أَنكَالًا وَحِجْمًا ۝١٣﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿[الآيتان: ١٢، ١٣] ويتم هذا في يوم ترجف فيه الأرض والجبال، وتشيب فيه رؤوس الأطفال، وتتفطر فيه السماء.

(١) وتسع عشرة آية في العدد المكي والبصري والشامي، وثمانية عشرة آية في العدد المدني.

فآمنوا - أيها الناس - بالله ورسوله حتى لا يصيبكم مثل ما أصاب فرعون وقومه من العذاب بالغرق، حين كذبوا نبيهم موسى عليه السلام.

وقد جاء هذا من الآية العاشرة في السورة إلى الآية التاسعة عشرة.

والآية الأخيرة نزلت لتخفيف قيام الليل على الأمة، وتقليل القراءة فيه، وجعله نافلة بعد أن كان فريضة، والاكتفاء بقيام بعض الليل، مراعاة لمختلف أحوال الناس كالمرضى، والمجاهدين في سبيل الله، والساعين على أرزاقهم، ووعد الله تعالى بالجزاء العظيم على فعل الخيرات من فرائض ونوافل.

٣ - سبب النزول:

أ - جاءت روايات مشتركة بين سورتي المدثر والمزمل في سبب النزول، تتحدث عن نزول الوحي، وذلك أن النبي ﷺ كان يتعبد شهر رمضان من كل عام في غار حراء بجبل النور، قبل البعثة بثلاث سنوات، وبينما هو نائم ﷺ ذات ليلة، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام، ومعه كتاب في نمط من ديباج، فقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، فضمه جبريل إليه حتى بلغ منه الجهد، ثم أرسله وقال له: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، أي لا أعرف القراءة، فأعاد ذلك للمرة الثالثة، ثم قال له: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥] قال: فقرأتها، وابتعد جبريل، فسمعتُ صوتاً من السماء يقول: يا محمد، أنت رسول الله، وأنا جبريل، فكلما رفعتُ رأسي في الأفق وجدتُ جبريل، فما زلتُ واقفاً في مكاني حتى بعثتُ خديجة في طلبي، فرجعتُ، فقالت: يا أبا القاسم: أين كنت؟ فحدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشُر يا بن عم واثبت، فوالذي نفس خديجة بيده: إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، وفتح الوحي مدة، إلى أن جاء مرة أخرى، فأدركتني رجفة، ورجعتُ إلى أهلي أقول: زملوني، دثروني، ففعلوا وهو يرجف، وإذا بجبريل يناديه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُرْمَلُ﴾ وقيل ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدَّثَرُ﴾^(١).

(١) مختصراً من رواية ابن إسحاق عن وهب بن كيسان عن عبيد، ومن الروايات الواردة في بدء نزول الوحي في الصحيحين وغيرهما.

ب - وورد أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة تُدبّر كيداً للنبي ﷺ فاغتم لذلك، والتف بثيابه، وتزقل ونام مهموماً فنزل عليه جبريل بالسورة^(١) ما عدا الآية الأخيرة منها فقد تأخر نزولها عاماً كاملاً، بعد أن تورمت قدما النبي ﷺ من طول القيام، للتخفيف عنه وعن أمته^(٢).

ج - وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «جاورتُ بحراء، فلما قضيتُ جوارِي، هبطت، فنوديت، فنظرتُ عن يميني فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فرفعتُ رأسي، فإذا الذي جاءني بحراء، جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرجعتُ فقلت: دثروني، زملوني»^(٣).

وهذه الرواية تفيد أن جبريل عليه السلام نزل هذه المرة بعد أن قضى النبي تحنثه في غار حراء، وأنه ﷺ قد بنىء بـ ﴿أَقْرَأْ﴾ كما في الرواية الأولى، وأرسل بـ ﴿الْمَدِّثُ﴾ كما في هذه الرواية.

٤ - قيام الليل له معنيان:

الأول: قيام الليل، بمعنى صلاة التراويح في شهر رمضان، وهو سنة مستحبة، منذ كان، ولم يفرض هذا القيام قط، لما جاء في الحديث أن النبي ﷺ قام ليلة في رمضان خلف حصير احتجره، فصلّى، وصلى بصلاته ناس، ثم كثروا في الليلة القابلة، ثم غص المسجد بهم في الثالثة أو الرابعة، فلم يخرج إليهم، فغصوا ببابه، فخرج مغضباً، وقال: «إنما تركت الخروج لأنني خفت أن يفرض عليكم»^(٤).

(١) جاء هذا عن جابر عند البزار (٢٢٧٦)، كشف، والطبراني في الأوسط (٢٠٩٦)، وأبونعيم في الدلائل، كما في الدر المنثور (٣٥/١٥)، وفي سنده مقال، ينظر: مجمع الزوائد (١٣٠/٧).

(٢) جاء هذا في صحيح سنن أبي داود (١١٥٧)، وعند ابن أبي شيبة (١١٨/١٤)، والطبري (٣٥٨/٢٣)، والطبراني (١٢٨٧٧)، والحاكم (٥٠٥/٢)، والبيهقي في السنن (٥٠٠/٢) عن ابن عباس.

(٣) ينظر صحيح البخاري (٤٩٢٢) وما بعده، وصحيح مسلم (١٦١).

(٤) ينظر الأحاديث في صحيح مسلم عن عائشة (٧٨٢، ٧٦١)، والبخاري (٧٣٠، ١١٢٩، ٥٨٦١، ٧٢٩).

أما اجتماع الناس لها، فكان ذلك بالمدينة بعد أن فُرض الصيام في السنة الثانية الثاني: أما قيام الليل بمعنى صلاة التهجد، فقد فُرض على الأمة في الأصح بنزول أول سورة المزمل، ثم خفف الله عنهم بعد عام أو أكثر، فجعله تطوعاً، وخفف من وقته، وكان هذا بمكة قبل أن تفرض الصلاة،

وارتباط أول السورة بآخرها يشير إلى أن قيام الليل كان مفروضاً على الأمة أيضاً، لأن الله تعالى قال فيها ﴿وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ﴾ [الآية: ٢٠].

ولم يمت النبي ﷺ إلا وقد كان القيام تطوعاً، وقبل ذلك كان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى ثلثه، فيقوم الليل كله حتى يصبح، مخافة ألا يتم القدر المطلوب، واشتد ذلك عليهم، حتى انتفخت أقدامهم، فرحمهم الله وخفف عنهم.

وكان بين نزول أول السورة وآخرها، سنة، أو ستة عشر شهراً، على قول، فنسخت فَرُضِيَّةُ قيام الليل بالنسبة للأمة، وَبَقِيَتْ هذه الفرضية بالنسبة للنبي ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزل أول المزمل، كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها نحو من سنة^(١).

وفي حديث سعد بن هشام، أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن قيامه ﷺ بالليل فقالت: أليست تقرأ: يا أيها المزمل؟ إن الله افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام رسول الله ﷺ وأصحابه حَوَلاً، حتى انتفخت أقدامهم، وأمسك الله ختامها في السماء اثني عشر شهراً، ثم أنزل التخفيف، في آخر هذه السورة، فصار قيام الليل تطوعاً من بعد الفريضة^(٢).

(١) أبو داود (١٣٠٥)، وقد حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (١١٥٧)، والبيهقي في السنن (٥٠٠/٢)، والطبراني (١٢٨٧٧)، والحاكم (٥٠٥/٢)، وابن أبي شيبه (١١٨/١٤).

(٢) من حديث طويل في صحيح مسلم برقم (٧٤٦)، والمسند (٥٤/٦)، وأبي داود (١٣٤٣، ١٣٤٢)، والنسائي (١٦٠٠)، والبيهقي في السنن (٣٥٨/١).

ووصف الله قوام الليل بقوله: ﴿نَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [السجدة: ١٦].
 وبأنهم ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (٧) ﴿وَالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨].
 ونفى القرآن التسوية بينهم وبين غيرهم في قوله ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ ءَاءَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].
 وعدّهم سبحانه من عباد الرحمن فقال ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].
 هذا: وصلاة التراويح تخصّ شهر رمضان وتكون بعد صلاة العشاء، أما صلاة التهجد أو صلاة القيام فتكون بعد منتصف الليل، ويطلق عليهما صلاة الوتر، لأن النبي ﷺ لم يزد في رمضان ولا في غيره عن أحد عشر ركعة، إلا أنها كانت صلاة طويلة، فمن زاد في عدد ركعاتها كان ذلك نظراً لخفة الصلاة وقلة القراءة فيها، والله أعلم.

٥ - ومن الأحاديث الواردة في فضل قيام الليل:

أ - عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه فقلت له: لم تصنع هذا يا رسول الله؟ وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»^(١).

فصلاة الليل من شكر المنعم سبحانه على ما أسبغ الله على العبد من نعم ظاهرة وباطنة.

ب - وصلاة الليل هي أفضل النوافل بعد الفريضة لحديث أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «أفضل الصيام بعد الفريضة، شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل»^(٢).

ج - وفي الليل ساعة إجابة: عن جابر ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه الله إياه، وذلك كل ليلة»^(٣).

(١) صحيح البخاري (٤٨٣٧)، وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٠)، وعن المغيرة بن شعبة برقم (٢٨١٩)، والبخاري (٤٨٣٦، ١١٣٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٣، ١١٦٢).

(٣) صحيح مسلم برقم (٧٥٧).

- د - ويبدأ المسلم صلاة الليل بركعتين خفيفتين:
- عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إذا قام أحدكم من الليل فليفتح الصلاة بركعتين خفيفتين»^(١).
- هـ - وقيام الليل مسؤولية الزوجين: كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «رحم الله رجلاً قام من الليل، فصلّى وأيقظ امرأته، فإن أبت نضح في وجهها الماء، ورحم الله امرأة قامت من الليل فصلت، وأيقظت زوجها، فإن أبى نضحت الماء في وجهه»^(٢).
- و - وقد ربط النبي ﷺ بين الثناء على العبد وبين صلاة الليل:
- فعن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نعم الرجل (عبد الله) لو كان يصلي من الليل»، قال سالم: فكان (عبد الله) بعد ذلك لا ينام من الليل إلا قليلاً^(٣).
- ز - وتزيد عدد الركعات أو تنقص حسب طول الصلاة وقصرها:
- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بت عند خالتي ميمونة، فقام النبي ﷺ يصلي من الليل، فصلّى ثلاث عشرة ركعة، منها ركعتا الفجر، فحرزْتُ قيامه في كل ركعة بقدر ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾^(٤).
- ح - وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره، عن إحدى عشرة ركعة^(٥)، وهذا بالنسبة لصلاة الوتر.
- ٦ - الحياة الجادة:

وقد حددت آية سورة الأنعام سيرة النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

(١) صحيح مسلم برقم (٧٦٨)، وأبوداود (١٣٢٣، ١٣٢٤).

(٢) أبوداود برقم: (١٣٠٨)، وابن ماجه برقم (١٣٣٦)، وابن حبان برقم (٦٤٦)، والمسند (٧٤١٠) بإسناد قوى (محققه)، وأخرجه ابن خزيمة (١١٤٧)، والحاكم (٣٠٩ / ١)، والبيهقي في السنن (٥٠١ / ٢).

(٣) البخاري برقم (١١٢١، ٣٧٤٠)، ومسلم برقم (٢٤٧٩)، والنسائي (٢٥٣ / ٣).

(٤) صحيح سنن أبي داود (١٢١٦)، والبيهقي في السنن (٨ / ٣)، وسنن أبي داود (١٣٦٥).

(٥) البخاري (١١٤٧، ٣٥٦٩)، ومسلم (٧٣٨).

وَمَحْيَا وَمَمَاتٍ لِلرَّبِّ الْعَلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ [آية: ١٦٢].

فإذا كانت حياة بعض الناس خليط من الحق والباطل، والجد والهزل، والراحة والتعب، فإن النبي ﷺ كانت حياته كلها كدحاً موصولاً، وسبحاً طويلاً، ولم يكن ذلك استكمالاً لأعجاد النبوة، بل كان لتكوين جيل يغيّر مسار البشر إلى يوم الساعة، ويقيم للحق مناراً لا تطفئه العواصف.

إن السنوات التي قضاها النبي ﷺ في هذه الدنيا لم تكن لإصلاح عصر معين، بل كانت لإعداد رجال يحرسون عقيدة التوحيد في كل زمان ومكان.

إن محمداً ﷺ كان أخشى الناس لله، وأشدّهم إحساساً بقرب لقاء ربه، وكان الجيل الذي يحفّ به يتأسى به، ويحيى على غراره، فليس غريباً أن يقوم الليل مثله، ويشد أزره في مكافحة الضلال.

ولكن الله سبحانه رحم الأمة، واستبقى فريضة قيام الليل على نبيه خاصة، واكتفى من المؤمنين بما تيسر^(١).

قال الفخر الرازي: وإنما كُلف رسول الله ﷺ وأصحابه بقيام الليل، ليكون ذلك حافزاً لهم على الاستعداد الكامل لمجابهة خصوم الدعوة، وتربيتهم التربية الجسمية والروحية، على أكمل الوجوه، حتى يصبروا على تحمل المشاق والصعاب، وتجشّم الأهوال والأخطار، ويستفيدوا من هذه التربية بما يجعلهم يتغلبون على كل أمر عسير يعرض لهم، وقد كان من أثر هذه التربية الروحية، أن ملّك المسلمون مشارق الأرض ومغاربها بجهادهم وصبرهم وتحملهم للأذى في سبيل الله^(٢).

* * *

(١) ينظر: نحو تفسير موضوعي لسور القرآن (ص ٤٨٥).

(٢) التفسير الكبير (٣/١٧١).

سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ (٧٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المدثر) هي السورة الرابعة والسبعون في ترتيب المصحف، والثانية في ترتيب النزول، فلم ينزل قبلها إلا صدر (سورة العلق) في غار حراء، وبها نبىء النبي ﷺ، ثم نزلت (سورة المدثر)، وبها أرسل ﷺ وكان نزولها في السنة الأولى من البعثة. وسميت سورة المدثر، باسم ثاني كلمة فيها، وهي سورة مكية باتفاق. وعدد آياتها ست وخمسون آية عند أهل البصرة والكوفة والمدني الأول، وخمس وخمسون آية عند المكي والدمشقي والمدني الأخير. وهي مئتان وخمس وخمسون كلمة، وألف وعشرة أحرف. سبب النزول:

في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فِتْرَةِ الْوَحْيِ قَالَ: «فِينَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ، فَرَفَعْتُ بَصْرِي قِبَلَ السَّمَاءِ، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحَرَاءِ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ، فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي، فَقُلْتُ: زَمَلُونِي، زَمَلُونِي، فزَمَلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ إِلَى ﴿فَاقْبِضْ﴾ ثُمَّ حَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ»^(١).

والحديث ينطق أن الوحي قد نزل بالمدثر بعد فترة انقطاع من نزول أول سورة العلق، وأن هذه هي المرة الثانية له، وكانت بعد أربعين يوما على الأرجح. وفي حديث جابر أيضاً أن رسول الله ﷺ قَالَ: «جَاوَرْتُ بِحَرَاءِ، فَلَمَّا قَضَيْتُ جَوَارِي هَبَطْتُ، فَتَوَدَّيْتُ، فَنَظَرْتُ عَنْ يَمِينِي فَلَمْ أَرْ شَيْئًا، وَنَظَرْتُ عَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرْ شَيْئًا،

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم: (٢٥٥، ١٦١) وصحيح البخاري برقم: (٤٩٢٤، ٤٩٢٦، ٤٩٥٤) والترمذي (٣٣٢٥) وأحمد في المسند (١٤٢٨٧) وعبد الرزاق (٣٢٧/٢) وابن أبي شيبة (٢٩٤/١٤) وابن حبان (٣٥، ٣٤).

ونظرت أمامي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فرأيت شيئاً، فأتيت خديجة، فقلت دثروني، وضَبُّوا عليّ ماءً بارداً، قال: فدثروني، وضَبُّوا عليّ ماءً بارداً، قال: فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَدْيَنُ ۝١ قُفْ أَنْذِرِ ۝٢ وَرَبِّكَ فَكْثِرِ ۝٣﴾^(١).

فهي أول ما نزل بعد فترة الوحي، وقد جاء جبريل هذه المرة وهو جالس على كرسي بين السماء والأرض.

ونزل فيهما بالرسالة على النبي ﷺ، أما المرة الأولى فقد نزل فيها بالنبوة، وكان ذلك في غار حراء.

موضوع السورة في خمس نقاط:

١- المحور الأساس الذي تدور حوله السورة، هو تكليف النبي ﷺ بأعباء الرسالة، والقيام بالتبليغ، وإنذار المشركين بالله تعالى، للإقلاع عن شركهم، والصبر على الأذى في سبيل الله، والاستعداد لهذا الكفاح الشاق بترك النوم والتدثر، وذلك في الآيات السبع الأول من السورة.

٢- وفي الآيات الثلاث التي تليها حديث عن يوم القيامة، تشير إلى النفخ في الصور وغُسر هذا اليوم على الكافرين، وقد تحدثت السورة عن تهديد ووعيد الجاحدين المنكرين للتوحيد، المكذبين للرسالة، بيوم عاصب يشتد عذابه وأهواله وشدائده.

٣- والآيات من (١١ - ٣٠)، تتحدث عن الوليد بن المغيرة، الذي اغتر بماله وجاهه وولده، فكذب القرآن، وأنكر خاتمة الرسالات، وزعم أن القرآن من السحر الذي تعرفه البشر، فكانت ﴿سَقَرُ﴾ نهايته.

٤- ثم تحدثت آيات السورة عن النار التي توعد الله بها الكفار، و تحدثت عن زبانيته وخزنتها وعددهم، وبينت الحكمة في تخصيص هذا العدد، وأقسم سبحانه

(١) ينظر: صحيح البخاري برقم: (٤٩٢٢، ٣٢٣٨) وصحيح مسلم (٢٥٦-٢٥٨) والطيالسي (١٧٩٣) والبيهقي في الدلائل (١٥٥/٢) وأبونعيم في الدلائل (٢١٥/١).

وتعالى بالقمر والليل والصبح، على أن النار أكبر البلايا وأعظم الدواهي التي يُنذر الله بها البشر، وذلك في الآيات من واحد وثلاثين إلى السابعة والثلاثين.

٥ - وبينت آيات السورة أن كل نفس مرهونة بعملها عدا أصحاب اليمين، فذكرت الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين عن أسباب استحقاق المجرمين لعذاب جهنم وهي أربعة أمور:

أ - عدم الصلاة. ب - وعدم إطعام المسكين.

ج - والخوض مع الخائضين. د - والتكذيب بيوم القيامة.

وأنهم استمروا على ذلك حتى الموت، وكان هذا من الآية السابعة والعشرين إلى الآية السابعة والأربعين.

٦ - وختمت السورة ببيان أسباب إعراض المكذبين، وعدم استجابتهم للحق، فبين تعالى أنهم لم ينتفعوا بالمواعظ، فانصرفوا عنها كالحُمر الوحشية، وحسدوا صاحب الرسالة، فطمعوا أن يكونوا مثله في الوحي والرسالة، وهم فضلاً عن ذلك لا يؤمنون بالبعث والنشور. ولذا: فإنهم لا ينتفعون بشفاعاة أحد يوم لقاء الله، وهذا من الآية الثامنة والأربعين إلى نهاية السورة.

وبهذا فإن السورة تناولت موضوعات القرآن المكي، فأمرت بوحداية الله تعالى، والتطهير من الشرك، وترك عبادة الأوثان، وهذا هو جانب التوحيد. وتحدثت عن الوحي والرسالة: فأمرت النبي ﷺ أن يبلغ رسالة ربه، وهذا هو الجانب الثاني.

وتناولت اليوم الآخر وما فيه من نعيم لأهل اليمين، ونار سقر للمجرمين، وهذا هو الجانب الثالث من موضوعات القرآن المكي.

سُورَةُ الْقِيَامَةِ (٧٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة القيامة) هي السورة الخامسة والسبعون في ترتيب المصحف، والحادية والثلاثون في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة القارعة) وقبل (سورة الهُمزة). وعدد آياتها في المصحف الكوفي والحمصي أربعون آية، وتسع وثلاثون آية في بقية المصاحف.

وهي مئة وتسع وتسعون كلمة، وست مئة واثنان وخمسون حرفاً. وتسمى (سورة القيامة) لذكر هذا اللفظ في أولها، وسماها بعضهم (سورة لا أقسم). وهي سورة مكية خالصة، نزلت في أوائل العهد المكي.

موضوع السورة:

١- المحور الأساس للسورة: هو الحديث عن يوم القيامة وما فيه من بعث وحساب وجزاء على الأعمال والأقوال، وما يلقاه الناس، لاسيما الكافر، من الأهوال والشدائد، ومن علامات هذه الأهوال: خُسْف القمر، وتَحْيِر البصر، وجمع الشمس والقمر. والإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، والحديث عنه من علامات القرآن المكي. إلى جوار الحديث عن الوحي والرسالة في قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَتَّبِعَ بِهِ ۝١٦﴾ [١٦-١٩].

﴿إِنَّا عَلَيْنَا جَمْعُهُ وَقُرْآنُهُ ۝١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبَعْثْهُ، ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانُهُ [الآيات: ١٦-١٩].

وتخلص السورة إلى توحيد الخالق سبحانه في قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يُنْخِئَ الْوَلَقَ﴾ [الآية: ٤٠].

وهذه العناصر الثلاثة، هي مكونات القرآن المكي.

٢- وقد بدأت السورة بالقسم بالقيامة، والقسم بالنفس اللوامة، عن أن البعث حق لا ريب فيه، ومضت الآيات في الحديث عنهما من مطلع السورة إلى ختامها، وفي ثانيا

ذلك ذكرت السورة، ثلاثاً من علامات الساعة، هي: تحيّر البصر، وذهاب نور القمر، وطلوع الشمس والقمر معاً من المغرب.

وفي ثانيا السورة أيضاً أربع آيات عن اهتمام النبي ﷺ بتلقي الوحي، وإجهاد نفسه في متابعة جبريل عليه السلام. واهتمام النبي ﷺ بتلقي القرآن عند تلاوة جبريل عليه حرصاً على حفظه وضبطه، فأمره ربه ألا يسرع في تلقيه، ولا يعجل في ذلك.

٣- وفيما عدا ذلك فقد بينت السورة أن القيامة حق، وأن الإنسان يُنبأ فيها بما قدم وأخر، وأن الناس فيها إما سعداء، تتلألاً وجوههم نوراً، ويَحْظُونَ بالنظر إلى وجه الله الكريم، وإما أشقياء، وجوههم قاتمة مظلمة يعلوها الذل والقثرة.

٤- وتحدثت آيات السورة عن وقت الاحتضار، والإنسان يعالج سكرات الموت، ويبحث الناس له عن علاج دون جدوى، حيث تيقن أنه مفارق للدنيا، مقبل على ربه.

﴿وَالْفَتَى السَّقِطُ السَّقِطُ﴾ [الآية: ٢٩] إلى أين؟ ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَوْمَئِذٍ السَّقِطُ﴾ [الآية: ٣٠].

فإن كان المحتضر من الكافرين، فإنه يلقى من الشدائد عند خروج الروح، ومن العذاب يوم القيامة، ما لا يعلمه إلا الله، ذلكم لأن الإنسان لم يُخلق عبثاً في هذه الحياة، بلا هدف ولا غاية، فقد أوجده الله تعالى من العدم، ومنحه نعمة الحياة، وقال له: افعل، ولا تفعل، لئلا يستوي يوم القيامة من أطاع ومن عصى، ومن آمن، ومن كفر، والذي بدأ خلقه من نطفة، قادر على إعادته بعد الموت، للحساب والجزاء، حيث يكون الناس فريقان: سعداء وأشقياء، إلى جنة أو نار.

٥- قال عمر بن الخطاب ؓ: من سأل عن القيامة، أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها، فليقرأ هذه السورة^(١).

وقال المغيرة بن شعبة ؓ: يقول الناس: القيامة، القيامة، وإنما قيامة المرء موته^(٢).

(١) من تفسير ابن عطية (٤٠١/٥).

(٢) من تفسير ابن عطية (٤٠١/٥).

وحضر ابن جبير جنازة رجل، فقال: أما هذا فقد قامت قيامته^(١).

وقد ذكر لفظ ﴿الْإِنْسَنُ﴾ في السورة خمس مرات.

وهكذا فإن السورة تعرضت إلى حقائق خمس:

أولها: حقيقة النشأة الأولى، حيث لا يدعي أحد ممن يكذب باليوم الآخر أنه خلق الإنسان، أو شارك في صنعه ﴿أَلَمْ يَكُنْ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُنْثَىٰ؟﴾ [الآية: ٣٤].

ثانيها: أهوال القيامة، ومشاهد خراب العالم عند قيامها، وما يعتري الإنسان من الاضطراب والحيرة في مواجهة أحداث القيامة.

ثالثها: أدب تلقّي الوحي، والتأني في الاستماع إليه، واتباع تلاوته في صفة قراءة القرآن بإقامة حروفه وحركاته، وصفة الأداء المتواتر، وهو ما عُرف فيما بعد بالغنة والمد والقصر والإخفاء والإدغام، وما إلى ذلك.

رابعها: التعرض لحقيقة الموت التي لا تخطيء الإنسان، والنهاية المحتومة لجميع البشر، وهي حقيقة تتكرر كل يوم، ويواجهها الكبار والصغار، والفقراء والأثرياء، والرؤساء والمرؤوسين، ويقف الجميع من الموت موقفاً واحداً، فلا حيلة ولا وسيلة لدفعه أو تفاديه!

خامسها: مشهد أصحاب النفس المطمئنة واللوامة والأمانة، يوم لقاء الله تعالى، وهو يتمثل في حال السعداء والأشقياء، يوم تبيضّ وجوه وتسود وجوه.

ومع أن الناس قد تقدموا كثيراً في مجال العلم التجريبي والحضارة المادية في القرن الأخير، إلا أنهم فيما يتعلق بالعلم بالله تعالى والدار الآخرة والاستعداد لها شيء لا يذكر، فهم في علم ضحل، وغفلة وإهمال!

وقد ختمت السورة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية.

(١) من تفسير ابن عطية (٤٠١/٥).

سُورَةُ الْإِنْسَانِ (٧٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الإنسان) هي السورة السادسة والسبعون في ترتيب المصحف، والثلاثون أو الحادية والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت قبل (سورة القيامة) وبعد (سورة الرحمن). وعدد آياتها إحدى وثلاثون آية باتفاق، وهي مثنان وأربعون كلمة، وألف وأربعة وخمسون حرفاً.

أ - وسميت سورة ﴿هَذَا أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ في زمن الصحابة، وبهذا جاء حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقرأ في الفجر بـ (الم السجدة) و﴿هَذَا أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ ^(١).

ب - واقتصر السيوطي على تسميتها بـ (سورة الإنسان).

ج - وتسمى في بعض المصاحف: (سورة الدهر).

ولفظاً: الإنسان، والدهر: وردا في الآية الأولى من السورة.

د - وسمها بعضهم (سورة الأمشاج). هـ - وسمها آخرون (سورة الأبرار).

فهذه خمسة أسماء لها هي: ﴿هَذَا أَقَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ والإنسان، والدهر، والأمشاج، والأبرار. وهي من السور المختلف في كونها مكية أو مدنية، وقد وردت آثار عن الزبير تفيد أنها مدنية ^(٢).

والأصح أنها مكية كما جاء عن ابن عباس ^(٣) فإن موضوعها ومقاصدها من خصائص السور المكية.

(١) صحيح مسلم برقم (٨٨٠)، وصحيح البخاري (١٠٦٨، ٨٩١)، وابن ماجه (٨٢٣)، والنسائي في الكبرى

(١١٣٢٩، ١٠٢٩)، والمسند (٩٥٦١)، وهو عن ابن عباس في مسلم (٨٧٩)، وأبي داود (١٠٧٤)، وابن ماجه

(٨٢١)، والترمذي (٥٢٠)، والكبرى للنسائي (١١٥٧٥، ١٠٣٠)، والمسند (١٩٩٣)، وابن حبان (١٨٢٠).

(٢) كما في الدر المنثور (١٤٢/١٥).

(٣) وأخرجه النحاس (ص ٧٥٧).

موضوع السورة:

١- بدأت السورة ببيان قدرة الله تعالى في خلق الإنسان أطواراً، وتهيئته وإعداده ليقوم بما كُلف به من أنواع العبادة، وقد زوّده الله تعالى بالسمع والبصر وسائر الحواس وأرشده إلى طريقي الهدى والضلال.

والمحور الأساس الذي تدور حوله السورة، هو اليوم الآخر، حيث تتناول بوجه خاص: المتقين الأبرار في دار الخلد والإقامة، فهم في جنة يتكئون فيها على الأرائك، تدنو منهم الظلال والقطوف.

وتسرد آيات السورة نعيمهم في الجنة من مأكّل ومشرب وملبس وخدمة مستمرة. وذكرت السورة أهل السعادة بإسهاب، فوصفتهم: بالوفاء بالنذر، وإطعام الفقراء ابتغاء مرضاة الله تعالى، خوفاً من عذابه، وأشادت بما لهم عند الله تعالى من الأجر والكرامة في دار النعيم، وبينت ما حباهم الله به من الفضل والنعيم يوم الدين. وقد استغرقت هذه المعاني المتعلقة باليوم الآخر من الآية الرابعة إلى الآية الثانية والعشرين، وهو ثلاثة أرباع السورة غالباً.

٢- أما الآيات الثلاث الأولى من السورة، فإنها تمهد للحديث عن اليوم الآخر، فتبدأ بلمسة عن الإنسان، أين كان قبل أن يجيء؟ من الذي أوجده؟ ومن الذي جعله يسمع ويبصر؟ ومن الذي جعل له ذكر في هذا الوجود، ولم يكن له وجود من قبل؟ فإذا سأل الإنسان نفسه: أين كان قبل مئة عام؟ وأين كان هذا الجيل الذي هو فيه قبل مئتي عام؟ أدرك أنه لم يكن شيئاً مذكوراً.

وكما نحن نعيش فوق هذه الأرض، فإن أهل القبور كانوا مثلنا، وغداً نكون معهم، وهكذا دواليك إلى انتهاء الدنيا، وهذا ما تشير إليه الآية الأولى، أما الآية الثانية: فهي تتحدث عن أصل نشأة نسل الإنسان الأول، وحكمة الله في خلقه، وتزويده بالطاقات والمدارك.

وتشير الآية الثالثة: إلى سلوك الإنسان بعد أن أصبح سمياً بصيراً، واختياره إما

طريق الهدى وإما طريق الضلال.

وتشير الآية الرابعة: إلى المصير المؤلم الذي ينتظر أهل الضلال في الآخرة من السلاسل والأغلال والسعير.

وتمضي السورة بعد ذلك في وصف نعيم أهل الجنة وصفاتهم في ثماني عشرة آية تليها.

٣- وتتوجه السورة في أربع آيات بعدها إلى تثبيت النبي ﷺ والرباط على قلبه، والاستعانة على جهاد الدعوة، بالإكثار من ذكر الله تعالى والسجود له وتسبيحه ليلاً طويلاً.

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ ﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء، وحُق لها أن تتط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملك واضع جبهته ساجداً لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعداء تجأرون إلى الله»^(١).

ولما سمع ابن مسعود رضي الله عنه هذه الآية ﴿هَذَا أَنَّى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ الآية قال: يا ليتها تمت، فعوتب في قوله هذا، فأخذ عوداً من الأرض فقال: يا ليتني كنت مثل هذا^(٢).

وهكذا تذكر السورة حقيقة أن الإنسان لم يكن له وجود مدة من الزمن، ثم تذكر حقيقة أصل الإنسان ونشأته وتزويده بالطاقات والمدارك، ثم تتحدث عن هدايته إلى الطريق وعونه على الهدى.

وبعد هذه النقاط الثلاث تحذره من النار وترغبه في الجنة، وتذكر العذاب والنعيم الذي أعده الله لكل منهما.

٤- وتُختم السورة بالتذكير باليوم الثقيل، وبيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلب يعي، وفكر ثاقب يستضيء بنوره.

(١) أخرجه أحمد (٢١٥١٦)، وهو حديث حسن لغيره، لأن (مُؤَرِّق) لم يسمع من أبي ذر، وأخرجه ابن ماجه (٤١٩٠)، والحاكم (٥١٠/٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٨٨٢)، وهو في الترمذي (٢٣١٢)، والحاكم (٥١٠/٢)، وأبي الشيخ (٥٠٩).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة (٢٩٨/١٣).

سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ (٧٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المرسلات) هي السورة السابعة والسبعون في ترتيب المصحف، والثالثة والثلاثون في ترتيب النزول.

نزلت بعد (سورة الهُزْءة) وقبل (سورة ق)، عندما كان النبي ﷺ مختفٍ في غارِ بمنى مع بعض أصحابه.

وسُميت في العهد النبوي (سورة والمرسلات عرفاً):

١- كما في الصحيحين وغيرهما عن ابن مسعود ؓ قال: بينما نحن مع رسول الله ﷺ في غارِ بمنى، إذ نزلت عليه (سورة والمرسلات عرفاً) فإنه ليتلوها، وإنني لأتلقاها من فيه، وإن فاه لرطبُ بها، إذ وثبت علينا حية فقال ﷺ: اقتلوها، فابتدرناها، فذهبت، فقال ﷺ: «وُقِيتْ شَرُّكُمْ، كما وقِيتُم شرها»^(١).

٢- وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قرأت (سورة والمرسلات عرفاً) فسمعتني أم الفضل (امراًة العباس) فبكت وقالت: (يا بُنَيَّ أذكّرني بقراءتك هذه السورة، إنها لآخر ما سمعتُ من رسول الله ﷺ يقرأُ بها في صلاة المغرب)^(٢).

٣- وجاء في رواية أبي داود عن ابن مسعود ؓ تسميتها بسورة المرسلات قال: كان النبي ﷺ يقرأُ النظائر، السورتين في ركعة: (الرحمن والنجم، في ركعة، واقتربت

(١) المسند (٣٧٧/١) برقم (٣٥٨٦)، والبخاري (٣٣١٧، ١٨٣٠)، ومسلم (٢٢٣٤)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٥٧٨، ٣٨٥٢)، وغيرهم.

(٢) الموطأ (٧٨/١)، والبخاري (٤٤٢٩، ٧٦٣)، ومسلم (٤٦٢)، وابن ماجه (٨٣١)، وابن أبي شيبة (١٥٧/١)، والمسند (٢٦٨٦٨)، وأبو داود (٨١٠)، والترمذي (٣٠٨)، وابن حبان (١٨٣٢)، وعبد بن حميد (١٥٨٥)، وعبد الرزاق في المصنف (٢٦٩٤).

والحاقة، في ركعة، وعم يتساءلون والمرسلات، في ركعة^(١).

وفي هذه الأحاديث بيان لفضل السورة.

وتسمى أيضاً سورة العُزف، لقوله تعالى ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ فهذه ثلاثة أسماء لها:

١- والمرسلات عرفاً، ٢- المرسلات، وهو الأشهر، ٣- العُزف.

وهي سورة مكية، وعدد آياتها خمسون آية باتفاق، منها عشر آيات ﴿وَلْيَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾

وهي مئة وثمانون كلمة، وثمان مئة وستة عشر حرفاً.

موضوع السورة:

١- (سورة المرسلات) كسائر السور المكية، تعالج أمور العقيدة، وتقيم دلائل الوحداية والقدرة، وتركّز على اليوم الآخر بوجه خاص.

وقد ابتدأت السورة بخمسة أنواع من القسم: بالرياح وتقلباتها، أو بأنواع الملائكة المكلفين بتدبير شؤون الكون، والمقسم عليه، أن البعث حق، والثواب والعقاب حق، وأن الهلاك واقع على المكذبين لا محالة.

ثم تذكر السورة أربعة من مظاهر القيامة، والوقت الذي يكون فيه قيام الساعة، والعذاب الذي وُعد به المجرمون، وهو اليوم الذي يكون فيه: طمس النجوم، وتصدّع السماء، ونسف الجبال، وموعد الفصل والقضاء بين الرسل والأمم، وهذا من أول السورة إلى الآية الرابعة عشرة منها.

٢- وقد ذُكر في السورة ﴿وَلْيَوْمِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ عشر مرات، يأتي كل منها بعد مقطع من مقاطع السورة، وفي كل مقطع منها إخبار عن شيء من أحوال الآخرة، وتذكير بأحوال الدنيا، فناسب ذلك أن يذكر عقب كل مقطع منها تهديد ووعد بالويل والعذاب للمكذبين، وهذه المقاطع العشرة هي:

(١) أبوداود برقم (١٣٩٦)، وهو في المسند برقم (٣٩٦٨، ٣٦٠٧)، وهو حديث صحيح، وأخرجه الطبراني في الكبير (٩٨٥٥، ٩٨٥٧).

المقطع الأول: جاء ذكره في أربعة عشر آية، ذكر فيها خمسة أنواع من القسم على أن البعث حق، وأن مشاهد يوم الفصل حق، وهذا من [الآية ١-١٤].

والمقطع الثاني: فيه ذكر مصارع الغابرين، وهذا من [الآية ١٦-١٩].

والمقطع الثالث: فيه ذكر النشأة الأولى وتكوين خلق الإنسان، وهذا من [الآية ٢٠-٢٤].

والمقطع الرابع: فيه ذكر الأرض وهي تضم أبنائها إليها في حياتهم وبعد مماتهم، وهذا من [الآية ٢٥-٢٨].

والمقطع الخامس: فيه بيان ما يلقاه المكذبون من عذاب وتأنيب في يوم الفصل، وهذا من [الآية ٢٩-٣٤].

والمقطع السادس: فيه بيان عدم الإذن للكفار في النطق يوم القيامة، وعدم قبول الاعتذار من المكذبين، وهذا من [الآية ٣٥-٣٧].

والمقطع السابع: فيه تحدى المنكرين المكذبين بخاتم النبيين، وبيان ما أخبرهم الله به من البعث والنشور، إن كان لديهم حيلة للتخلص من عذاب يوم الدين، وهذا من [الآية ٣٨-٤٠].

والمقطع الثامن: فيه ذكر المتقين وما أعد الله لهم من نعيم، وهذا من [الآية ٤١-٤٥].

والمقطع التاسع: فيه تأنيب المكذبين على موقفهم من الدعوة، وهذا في [الآيتين: ٤٦، ٤٧].

والمقطع العاشر: فيه ذكر السبب في عذاب المجرمين، وهذا من [الآية ٤٨-٥٠].

حديث المقاطع العشرة عن اليوم الآخر:

في المقاطع العشرة بيان قدرة الله تعالى على إحياء الناس بعد موتهم: فقد استدلت آيات السورة على ذلك كما يأتي.

أولاً: بمصارع الغابرين، ومن بعدهم ممن يلحق بهم وهو على شاكلتهم.

واستدلت السورة ثانياً ببدء خلق الإنسان من ماء مهين، ومروره بأطواراً الخلق إلى أن صار بشراً سوياً بقدرة الله تعالى.

واستدلت ثالثاً على أن الله تعالى جعل هذه الأرض تضم أبنائها إليها، أحياء وأمواتاً، وقد ثبتها الله تعالى بالجبال، وأجرى فيها المياه لحياة الإنسان والحيوان.

وقد تخلل هذه النقاط الثلاث: الويل لمن كذب بكل منها.

واستغرق هذا من الآية الخامسة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين من السورة.

٣ - ثم تحدثت آيات السورة عما يلقاه المكذبون بيوم الفصل، من عذاب في نار جهنم، وبينت أن الشرارة التي تتطاير منها كالقصر العظيم، إلى جوار ما يلقوه من التائب والتوبخ، وعدم السماح لهم في النطق والاعتذار، ثم يقال لهم: هذا يوم الفصل والعقاب، فإن كان لديكم حيلة في الخلاص من العذاب فافعلوا.

وفي أثناء الحديث عن المكذبين المجرمين تأتي السورة بالوجه المقابل لاستحضار صورة المتقين، وهم على النقيض من أهل الجحيم، فهم في ظلال وعيون، وفواكه وتمتع. ثم تعود الآيات إلى استكمال جزاء المجرمين، ومن ثم إلى بيان السبب فيما يلقونه من عذاب، وهو أنهم كانوا لا يصلُّون وهم في الدنيا، ولا يؤمنون بهذا القرآن وما فيه، وإذا كانوا لم يؤمنوا به، فبأي كتاب آخر يؤمنون؟ ويتخلل كل فقرة مما سبق: الوعيد لمن كذب بقاء الله تعالى.

وكما اهتمت سورة الإنسان فأطنبت في ذكر أوصاف المتقين ونعيمهم في الدار الآخرة، فإن هذه السورة أطنبت في ذكر أوصاف الكفار وعذابهم، إلى جوار ذكر الطرف المقابل بصورة مجملّة موجزة في كل منهما.

وختمت السورة ببيان أسباب امتناع الكفار عن عبادة الواحد القهار، وهو عدم الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر، وبخاتم المرسلين.

وهي سورة زاخرة بالحديث عن أهوال القيامة، وعن مظاهر قدرة الله تعالى، وعن حسن عاقبة المتقين.

سُورَةُ النَّبَأِ (٧٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النبأ) هي السورة الثامنة والسبعون في ترتيب المصحف، وهي بداية الجزء الثلاثين، والسورة الثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة المعارج) وقبل (سورة النازعات).

ولها خمسة أسماء أشهرها الأول، والثالث، فتسمَّى: سورة النبأ، وسورة عَمَّ يتساءلون، وسورة عَمَّ، وسورة التساؤل، وسورة المعصرات، وكل هذه الألفاظ وَرَدَتْ فيها، وهي سورة مكية خالصة.

وعدد آياتها إحدى وأربعون آية في العدد المكي والبصري، وأربعون آية في غيرهما، وهي مئة وثلاث وسبعون كلمة، وتسع مئة وسبعون حرفاً.

موضوع السورة وفصولها الخمسة:

يدور محور السورة حول إثبات البعث الذي يجحده المكذبون، وتوبيخ من ينكر يوم القيامة، وتهديدهم بسوء المصير إن ظلوا على زعمهم. وتتكون السورة من خمسة فصول:

الفصل الأول: يبدأ بالإجابة على تساؤل المكذبين بالقرآن وبالיום الآخر، ويهددهم بسوء العقاب يوم لقاء الله، جزاء جحودهم وإنكارهم.

ثم تقيم آيات السورة تسعة أدلة على إمكانية البعث، تُبرز قدرة الله تعالى في الإنسان والكون، وهذه الأدلة تشمل خلق الأرض، والجبال، والإنسان، وكون النوم قَطْعًا للعمل، والليل راحةً للبدن، والنهار سعيًا للمعاش، وخلق السموات الشداد، والسراج الوهاج، ونزول المطر من السحاب.

فهذه تسعة أدلة في عشر آيات، جاءت إجابة على التساؤل عن النبأ العظيم، وجاء التهديد به في خمس آيات قبلها.

الفصل الثاني: وصف موجز ليوم الحساب وبداياته، بالنفخ في الصور، وانفراج السموات، وتسيير الجبال.

وجاء هذا في أربع آيات تلي الآيات الستة عشر السابقة.

الفصل الثالث: في وصف العقاب الذي ينتظر المجرمين يوم القيامة، وقد جاء ذكره في عشر آيات، من الآية العشرين إلى الآية الثلاثين، فجهم ترصد الطاغين، وهم يقيمون فيها أزماناً غير متناهية، لا يبزُد فيها حرٌّ سعيها، ولا شرابهم، وطعامهم صديد أهل النار، وهذا العذاب جزاءً موافقاً لكفرهم باليوم الآخر، وتكذيبهم بآيات الله تعالى.

الفصل الرابع: في وصف النعيم الذي ينتظر المؤمنين الصالحين، وجاء ذلك في ست آيات بعد الآيات الثلاثين السابقة، فهم في بساتين، وفواكه وزوجات، وشراب غير ضار، وليس في الجنة لغو ولا كذب، ويُكَال لهم فيها العطاء من الله تعالى حتى يكتفوا تمامًا، ويقول كل منهم: حسبي، حسبي.

الفصل الخامس: في وصف يوم القيامة وأهواله، فهو يوم لا يُسمح فيه لأحد بالكلام ولا بالشفاعة إلا بإذن الله تعالى، وأن يكون المشفوع له أهلاً للشفاعة.

ويوم القيامة يوم فظيع الأهوال، يتمنى فيه الكافر أن يكون مصيره كمصير البهائم حين تكون ترابًا بعد أن يُقتَصَّ لها ويُقتَصَّ منها، وقد جاء هذا في الآيات الخمس الأخيرة.

وهذا الجزء الأخير من القرآن يشتمل على سبع وثلاثين سورة، كلها مكية سوى سورتي: البينة، والنصر، وكلها تتميز بِقَصْرِ الآيات، وتُرَكِّز على النشأة الأولى للإنسان، وعلى مشاهد القيامة العنيفة فهي: الطامة، والصاخة، والغاشية، والقارعة، كما تركّز على مشاهد الحساب والجزاء، والثواب والعقاب، وأهوال الساعة عند قيامها.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ (٧٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النازعات) هي السورة التاسعة والسبعون في ترتيب المصحف، والحادية والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة النبأ وقبل سورة الانفطار. وتسمى سورة النازعات، وهو الأشهر، وسميت سورة الساهرة، وسورة الطامة. وهي سورة مكية باتفاق. وعدد آياتها عند أهل الكوفة ست وأربعون آية، وخمس وأربعون آية عند بقية علماء العدد.

وهي مئة وسبع وتسعون كلمة، وسبع مئة وثلاثة وخمسون حرفاً.

موضوع السورة:

١- أُنْزِلَ ما تتميز به السورُ المكية: إرساء قواعد التوحيد، والإيمان بالنبى الخاتم، والإيمان باليوم الآخر، وقد اهتمت هذه السورة بترسيخ التصديق بالبعث والحساب والجزاء، وبيان مآل المتقين، ومآل الفجار، بالإضافة إلى نصب دلائل الوجدانية، والإيمان بخاتم الرسل ﷺ.

٢- وقد بدأت السورة بالقسم بخمسة طوائف من الملائكة هي: النازعات، والناشطات، والسابحات، والسابقات، والمدبرات، وجواب القسم أن البعث حق، وهذا البعث يأتي ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ﴾ الآية ٦: فتضطرب الأرض، ويُفْخ في الصور، ويقوم الناس لرب العالمين، وأبصار المنكرين للبعث منكسرة، خاشعة ذليلة، وقلوبهم ترجف من الفزع والخوف لأنهم كانوا يستبعدون هذا اليوم ويُكْذِبُونَهُ، وقد صَوَّر القرآن حالهم ليعتبر الناس فيعملوا لذلك اليوم.

٣- ثم تضرب آيات السورة مثلاً لمن جحد وحدانية الخالق سبحانه، فطغى وتجبّر

في الأرض، وأنكر اليوم الآخر ومافيه، وهو فرعون الطاغية الذي أنكر رسالة موسى عليه السلام، وادّعى الربوبية والألوهية، فأخذه الله أخذاً وبيلاً، وفي ذلك عبرة لمن يخاف لقاء ربه، وينتفع بما حدث لغيره.

٤- ثم تمضي آيات السورة في الحديث عن القيامة، وتُقدّم لذلك بيان أن مُحيي الناس بعد موتهم، هو خالق السموات والأرض، والليل والنهار، والمياه والجبال، وكلها من أعظم المخلوقات، وعند مجيء الطامة، يُعرض على الإنسان عمله، وتبرز جهنم للناظرين، ويكون الناس فريقان: فتسوء خاتمة من تجبرّ واتبع هواه، وآثر الحياة الدنيا على الآخرة، وتحسن خاتمة من خاف لقاء ربه ونهى نفسه عن هواها السيء.

٥- وتُختم السورة ببيان أن علم قيام الساعة عند الله وحده، وأن الرسول ﷺ - فضلاً عن سائر البشر - لا علم له بها، وعندما تقوم الساعة يتصور الإنسان أنه لم يلبث في الدنيا أو في قبره وبرزخه إلا عشية أو ضحاها.

وهكذا فإن السورة تأخذ بيد الإنسان إلى الدار الآخرة، بدءاً بخروج الروح من الجسد، إلى المشهد الأول من مشاهد القيامة، حيث القلوب الواجفة، والأبصار الذليلة المنكسرة، لمن أنكر لقاء الله تعالى ولم يتزوّد لمعاده. ومن ثم تعرض بعض آيات السورة مصرعاً من مصارع المكذبين بالله ورسوله واليوم الآخر، لكبير من أكابر المجرمين، هو فرعون الطاغية، فتذكر عاقبته الوخيمة لمن أراد أن يذكر أو يخشى.

ومن صفحة التاريخ إلى كتاب الكون المفتوح في مشهد يطوف بالعبد من السماء إلى الأرض والجبال، والليل والنهار، والماء والمرعى، ليستدل بذلك على أن القادر على خلق هذه المخلوقات أقدر على ما دونها، وهو إحياء الناس بعد موتهم، وبعد هذه التمهيدات يأتي مشهد الطامة الكبرى وما يصاحبها من جزاء على ما كان في الدنيا من قول وفعل.

ثم يعود السياق إلى المكذبين بقيام الساعة وسؤالهم عن موعدها برّد علمها إلى الله تعالى، ولكنها وشيكة الوقوع، وهي تأتي فجأة، وعلى المرء أن يستعد لها بالإيمان

والعمل الصالح، فإن متاع الدنيا لا يساوي غمسة واحدة في نار جهنم، والدنيا تمرّ سريعاً كأنها لحظة من ليل أو نهار، والعاقل من لا يُضيّع مستقبله الدائم بلحظات عابرة، لا يبقى لها أثر في النفس، بل تمضي وراءه وكأن شيئاً لم يكن!

وعلى هذا فيمكن تقسيم السورة إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: من أول السورة إلى الآية الرابعة عشرة وهذا المقطع يُقسّم على أن البعث حق، وأن القيامة تقوم على المكذبين بها، المنكرين لها، فلا يسعهم إلا الإيمان بها حين يروا أنفسهم في عرصات القيامة، بعد أن لفظتهم الأرض للعرض والحساب والجزاء.

المقطع الثاني: من الآية الخامسة عشرة إلى الآية السادسة والعشرين، وهذا المقطع يتناول جانباً من قصة موسى مع فرعون الذي ادّعى الربوبية فأغرقه الله في اليمّ، وجعله عبرة لمن يتعظ.

المقطع الثالث: من الآية السابعة والعشرين إلى الآية الثالثة والثلاثين، وهو مقطع يتناول جانباً من آثار قدرة الله في الكون، يتمثل في خلق السماء والأرض والمياه والنبات والمرعى والجبال، وهي نعم متّع الله بها الإنسان والحيوان.

المقطع الرابع: من الآية الرابعة والثلاثين إلى نهاية السورة، وهويتناول اليوم الآخر وما فيه من نعيم وشقاء أعدهما الله لمن خاف مقام ربه، ولمن طغى وفضل دنياه على آخرته، وهذا يحصل عند قيام الساعة، ولا يعلم موعدها إلا رب العالمين، وعندما يراها الناس كأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار.

سُورَةُ عَبَسَ (٨٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة عبس) هي السورة الثمانون في ترتيب المصحف، والرابعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النجم) وقبل (سورة القدر).
ومما ورد في أسمائها: سورة ابن أم مكتوم، وسورة الأعمى، وسورة الصاخة، وسورة السفرة، فهذه خمسة أسماء، سميت بها لورود هذه الألفاظ فيها، وأشهرها: الأول ﴿عَبَسَ﴾ وهي سورة مكية باتفاق، وهي أول سورة من أواسط المفصل.
وعدد آياتها اثنتان وأربعون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني الأول، وأربعون آية في العدد الدمشقي، وإحدى وأربعون آية في العدد البصري والحمصي والمدني الأخير.
وهي مئة وثلاثون كلمة، وخمس مئة وثلاثة وثلاثون حرفاً.

موضوع السورة:

١- تناولت السورة قضية الوحي والرسالة في قصة عبد الله بن أم مكتوم رضي الله عنه، حين كان النبي صلى الله عليه وسلم مشغولاً بدعوة كبار قريش إلى الإسلام، لأنهم إذا اهتدوا، استنّ بهم غيرهم من جماهير الناس، ولما جاء ابن أم مكتوم يطلب التحدث معه صلى الله عليه وسلم ظل مهتما بدعوة الزعماء، فعاتبه ربه في ذلك.

وكان عبد الله إذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك قام إليه وأحسن استقباله، وبسط له رداءه، وقال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي، وإذا غاب عن المدينة بعد الهجرة ولّاه عليها.

٢- وتمضي الآيات فتشرح طبيعة البلاغ الإلهي بأنه آيات تُسمع للتذكرة، وتُقرأ من صحف ملائكة كرام بررة، يدونها كتبة الوحي، ويستظهرها حفظة القرآن، وعلى من يبلّغه الوحي أن يتدبر ويعمل، ويفرّ إلى الله تعالى، ويستعدّ للقائه.

وكم من إنسان مُغلق الذهن، يضرب الأرض بقدميه، ولا يدري كيف جاء إلى الدنيا، ولماذا خُلق، وما مصيره بعد الموت؟ ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ﴾ [الآية: ١٧].

٣- وتتناول السورة جانب العقيدة، فتقيم جملة من دلائل الوجدانية، ممثلة في خلق الإنسان من نطفة، ثم موته بعد استغراق منهج حياته، وقد يسر الله للإنسان سبل العيش، فصّب له الماء، وشق له الأرض، وأنبت له الزرع وأخرج له الضرع، كما يسر له الطريق إلى الإيمان وهداه إليه.

٤- ثم تناولت السورة الجانب الثالث من عناصر القرآن المكي، وهو الحديث عن يوم القيامة، فبينت حال المؤمنين وحال الكافرين يوم يكون كل إنسان مشغولاً بنفسه عن غيره، ولو كان ابنه فلذة كبده، وذلك حين تبيضّ وجوه وتسودّ وجوه! وهكذا بدأت السورة بعلاج حادثة معينة تتعلق بالضعفاء والفقراء وذوي العاهات، للرفق بهم في مجال الدعوة إلى الله تعالى وعدم الإعراض عنهم، أو تفضيل الأثرياء وذوي الجاه عليهم.

ثم عالجت جحود الإنسان وكفره، فذكرته ببدايته ونهايته وأصل نشأته، وتيسير حياته، ومقابلة ذلك بالتقصير وعدم شكر المنعم سبحانه.

ثم عزّجت آيات السورة على أمّس شيء بالإنسان، يتعلق بطعامه وشرابه وتدبير أموره وتقديرها.

وفي نهاية السورة حديث عن الصاخة وأهوالها، وأحوال الناس فيها، وذ هول كل إنسان عن غيره لأنه مشغول بنفسه، وفي هذا دعوة للاستعداد لها في وقت الرخاء.

إن البشر اليوم مشغولون بالدنيا، وقليل منهم من يصرف بعض همه للأخرة، ومن المؤسف أن التقدم العلمي يبيح مكانه، ولا يريد أن يعرف ما أمامه.

نبذة عن ابن أم مكتوم

٥- عبد الله بن أم مكتوم: هو ابن خال السيدة خديجة رضي الله عنها، واسمه: عمرو ابن قيس، كان كفيف البصر، وأم مكتوم: كنية أمه، نُسب إليها لشرفها وشرف قومها

واسمها: عاتكة بنت عبد الله المخزومية.

وقد استخلفه النبي ﷺ على المدينة في خروجه إلى الغزوات ثلاث عشرة مرة، وقيل مرتين^(١).

فكان النبي ﷺ يوليه إمارة المدينة حتى يعود، مع أنه كيف البصر. وهو من المهاجرين الأولين: كان مؤذناً للنبي ﷺ هو وبلال، ومن ذلك حديث عبد الله بن عمر أن النبي ﷺ كان يقول: «إن بلالاً يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم، وهو الأعمى الذي أنزل الله فيه ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ وكان يؤذن مع بلال، وكان رجلاً ضرير البصر، فلم يك يؤذن حتى يقول له الناس»^(٢).

قيل: إنه مات شهيدا بالقادسية يوم فتح المدائن، في خلافة عمر رضي الله عنه سنة أربع عشرة^(٣). وفيه نزل قوله تعالى: ﴿غَيْرُأُولِي الضَّرَرِ﴾ [النساء: ٩٥].

قال أنس: رأيته يوم القادسية، وعليه درع، ومعه راية^(٤).

مقاطع السورة:

- ١ - فالآيات العشر الأول من السورة تتحدث عن ابن أم مكتوم.
- ٢ - والآيات الست بعدها تتحدث عن الوحي والرسالة.
- ٣ - ومن الآية السابعة عشرة إلى الآية الثانية والثلاثين تتحدث عن جانب العقيدة وأدلة التوحيد، وهي تتمثل في خلق الإنسان وموته، وتتمثل في طعام الإنسان والحيوان ومراحل تكوينه.
- ٤ - والآيات الأخيرة من الثالثة والثلاثين إلى نهاية السورة تتناول جانب الإيمان باليوم الآخرة، يوم يفر المرء من أقرب الناس إليه، ويكون الناس قريقان: فريق في الجنة وفريق في السعير.

(١) وهو الذي جاء عند ابن سعد (٢٠٩/٤).

(٢) انظر الحديث في صحيح مسلم (١٠٩٢) والبخاري (٧٢٤٨، ٦١٧) والترمذي (٢٠٣) والكبرى للنسائي

(١٦١٣) والمسند (٤٥٥١) وابن حبان (٣٤٦٩-٣٤٧١).

(٣) ينظر: تفسير الألوسي (٣٩/٣٠) وابن عاشور (١٠٤/٣٠).

(٤) تفسير الخازن (٣٥٣/٤) وابن عطية (٤٣٦/٥).

سبب النزول:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أنزلت ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى﴾ في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى رسول الله ﷺ فجعل يقول: يا رسول الله، أرشدني، وعند رسول الله ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل رسول الله ﷺ يُعرض عنه ويُقبل على الآخر، ويقول: أترى بما أقول بأساً، فيقال: لا، ففي هذا أنزل^(١).

وابن أم مكتوم كان ممن أسلم قديماً، وقد رأى النبي ﷺ أن من لم يدخل في الإسلام أحوج إلى الإقبال عليه، لاسيما إذا كان ممن يقتدي به غيره. وإلى جوار اجتهاد النبي ﷺ فإن ابن أم مكتوم كان رجلاً أعمى، لا يرى ما كان مشغولاً به النبي ﷺ من دعوة أشراف قريش.

قال ابن عطية وغيره عن ابن أم مكتوم: وهو رجل أعمى، جاء يقوده رجل آخر، فأوماً رسول الله ﷺ إلى قائده أن يؤخره عنه، ففعل، فدفعه عبد الله نحو رسول الله ﷺ وقال: علمني مما علمك الله، وكان رسول الله ﷺ مع الرجل المذكور يقرأ عليه القرآن، ويقول له: أترى بما أقول بأساً؟ فيقول الرجل: لا، والأصنام، فلما ألح عليه عبد الله، عبس النبي ﷺ وأعرض عنه، وانصرف الرجل، فلما ذهب النبي ﷺ إلى بيته، لوى رأسه وشخص بصره فأنزل الله عليه السورة^(٢). وفهم الآيات التالية يتوقف على معرفة سبب النزول هذا.

وابن أم مكتوم هو الذي قال للنبي ﷺ: إني أسمع النداء، ولعلي لا أجد قائداً، فقال ﷺ: «إذا سمعت النداء فأجب»^(٣).

(١) صححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٦٥١)، وهو في الترمذي برقم (٣٣٣١)، وأخرجه ابن حبان في الإحسان برقم (٥٣٥) بتصحيح الأرناؤوط، كما صححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرک (٥١٤/٢) وكلاهما من طريق آخر.

(٢) تفسير ابن عطية (٤٣١/٥)، ورواه مالك في الموطأ مرسلًا عن هشام بن عروة عن أبيه ومسنَد أبي يعلى (٢٦١/٨) وتفسير الطبري (٣٢/٣٠).

(٣) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة عن كعب بن عُجرة برقم (١٣٥٤)، وهو عند الطبراني في الكبير برقم (٣٠٤).

سُورَةُ التَّكْوِيرِ (٨١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة التكوير) هي السورة الحادية والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفاتحة) وقبل (سورة الأعلى)، فهي من أوائل ما نزل من القرآن. وتسمى سورة التكوير، وهو المشهور ويقال: سورة كُورَت، وعُنُونُ لها البخاري والترمذي والطبري (سورة إذا الشمس كورت) وهي سورة مكية باتفاق. وعدد آياتها تسع وعشرون آية عند الجميع، إلا المدني الأخير، فهي عنده ثمان وعشرون آية، وهي مئة وأربع كلمات، وخمس مئة وثلاثون حرفاً. وسورة التكوير على نصفين:

النصف الأول يتحدث عن يوم القيامة ومقدماته. وجاء ذلك في الأربعة عشر آية الأولى من السورة.

والنصف الآخر يتحدث عن أن القرآن الكريم وحى من عند الله تعالى، وأنه بلاغ وتذكارة لمن شاء أن يستقيم من العالمين. وجاء ذلك من الآية الخامسة عشر إلى نهاية السورة. أما النصف الأول فهو يتناول حقيقة القيامة وما يصاحبها من تغيير لمعالم الكون في العالم العلوي والسفلي، فقد جاء عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من سره أن ينظر إلى يوم القيامة كأنه رأي عين، فليقرأ: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾»^(١).

(١) المسند (٣٦/٢) (٥٧٥٥، ٤٨٠٦) بإسناد حسن (محققوه)، والترمذي (٣٣٣٣) وقال: حسن غريب، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٥٣) بتصحيح الألباني له، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرك (٥٧٦/٤)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٤/٧): رواه أحمد بإسنادين ورجالهما ثقات، ونقله عن الطبراني، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم (١٠٨١)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (١٤٧).

وأخرج الطبري وغيره بسند جيد عن أبي العالية قال: حدثني أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال: ست آيات قبل يوم القيامة، بينما الناس في أسواقهم، إذ ذهب ضوء الشمس، فبينما هم كذلك، إذ تناثرت النجوم، فبينما هم كذلك إذ وقعت الجبال على وجه الأرض، فتحركت واضطربت واحترقت، وفزعت الجن إلى الإنس، والإنس إلى الجن، واختلطت الدواب والطيور والوحوش، وماجوا بعضهم في بعض ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ قال: اختلطت، و ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ قال: أهملها أهلها ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ قال: قالت الجن للإنس: نحن نأتيكم بالخبر، قال: فانطلقوا إلى البحار، فإذا هي نار تتأجج، قال: فبينما هم كذلك إذ تصدعت الأرض صدعة واحدة إلى الأرض السابعة السفلى، وإلى السماء السابعة العليا، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءتهم الريح فأماتتهم^(١).

وقد ذكرت سورة التكوين في الأربعة عشر آية الأولى، اثني عشر حدثاً، ستة منها تقع في آخر الحياة الدنيا، تصاحب قيام الساعة، وعودة الناس إلى ربهم للحساب الكبير، وهذه الأحداث هي:

- ١ - توقّف إشعاع الشمس، و مجيء الظلام الذي يسود العالم ﴿وَإِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [التكوين: ١].
- ٢ - تساقط النجوم واختلال نظامها ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوين: ٢].
- ٣ - نسف الجبال وتفتتها ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوين: ٣].
- ٤ - توقف الإنسان والحيوان عن الإنجاب، وتوقف عجلة الحياة عن الحركة، وامتناع نزول المطر ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ [التكوين: ٤].
- ٥ - تلاقي الوحوش من مقارها البعيدة ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ [التكوين: ٥].
- ٦ - امتلاء البحار وفيضانها، وانفجارها حتى تطارد الإنسان والحيوان، وتؤجج بالنار ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوين: ٦].

(١) تفسير الطبري (٤٣/٣٠)، وابن أبي الدنيا (٢٣)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٣٥٣/٨)، ونقله السيوطي في الدر (٢٥٩/١٥) عن عبد بن حميد وابن المنذر.

وستة أخرى تحصل في الآخرة وهي:

- ١- عودة الأرواح إلى أبدانها بعد فراقها أمداً بعيداً، وتلاقي كل نظير بنظيره.
﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير: ٧].
- ٢- تطيب خاطر المؤودة وتبكيك وائدها: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ ﴿٨﴾ يَأْتِي ذَنْبٌ قُنِلَتْ﴾ [التكوير: ٨ - ٩].
- ٣- نشر الصحف، وتسلم كل إنسان كتاب أعماله بما فيه من خير أو شر.
﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ [التكوير: ١٠].
- ٤- محو معالم السماء، بعد أن فُتحت أبواباً لعروج الملائكة، إلى أن يتم الفصل والقضاء ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ [التكوير: ١١].
- ٥- استقبال جهنم للمجرمين ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِرَتْ﴾ [التكوير: ١٢].
- ٦- وتقريب النعيم من أهل الجنة ﴿وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ [التكوير: ١٣].
فهذا تلخيص لما يقع عند قيام الساعة، وتوزيع للناس على مصيرهم المحتوم بعد قيامها.
وقد شمل هذا التغيير: الشمس، والنجوم، والجبال، والبحار، والأرض، والسماء، والأنعام، والوحوش، والبشر.
وبدئ كل منها بلفظ ﴿إِذَا﴾ لأن كل حدث منها مستقل بنفسه.
وجواب الشرط في الجميع قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أُخْضِرَتْ﴾.
أما النصف الثاني: من السورة، فهو يتناول حقيقة الوحي وما يتعلق به، من صفة الملك الذي يحملُه، وصفة النبي الذي يتلقاه، وصفة القرآن المنزل عليه، وشأن القوم المخاطبين به.
فيبدأ هذا النصف بالقسم بالنجوم، وبالليل والصبح، على أن كتاب الله تعالى، هو الكتاب الحق الوحيد الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.
وقد حمل هذا الوحي إلى الأرض ملك أمين عليه، مقرب عند الله تعالى، صاحب قوة وبطش، وصاحب ثبات في تنفيذ أمر الله تعالى، وقد رآه النبي ﷺ على صورته الحقيقية حين نزل عليه أول مرة بالأفق المبين.

وهذا النبي الكريم منزّه عما يصفه به المكذبون من السحر والجنون، وقد جاء بكتاب يُنذِر البشر أجمعين ويأمرهم بالانخراط في طريق الاستقامة والحق والإيمان، وهذا الكتاب يقرر عالمية الرسالة، والذين يَخْرُجُونَ عنه عاقِبُونَ لَوْحِي السماء.

وقد خُتِمت السورة ببطلان مزاعم المكذِبين المعارضين للقرآن، في أنه ليس من عند الله تعالى، وإنما ينتفع به من فَتَحُوا قُلُوبَهُم للحق، ولم يُعْطَلُوا حواسهم ومداركهم عما خُلِقَتْ لأجله.

والسورة تهزّ النفس البشرية هزاً عنيفاً، وتروّع الآمن، وينخلع لها القلب، ويقشعر لها البدن، فتأخذ بيد الإنسان إلى الملاء الآمن في كنف الله تعالى، وتجعله يأوي إلى حِمَاه، ويطلب عنده الأمن والطمأنينة.

* * *

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ (٨٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الانفطار) هي السورة الثانية والثمانون في ترتيب المصحف وترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النازعات) وقبل (سورة الانشقاق). وتشتهر بأنها (سورة الانفطار)، وفي حديث ابن عمر الآتي (سورة إذا السماء انفطرت) وربما سميت (سورة انفطرت)، أو (المنفطرة)، أي السماء المنفطرة. فهذه خمسة أسماء لها أشهرها الأول. وهي سورة مكية باتفاق.

وعدد آياتها تسع عشرة آية باتفاق، وهي ثمانون كلمة، وثلاث مئة وسبعة وعشرون حرفاً. وسورة الانفطار ذات مقاطع ثلاث:

المقطع الأول: يبين فيه سبحانه شيئاً من مشاهد القيامة، وما يحدث في هذا اليوم من أحداث جسام، فقد كان الإنسان وهو في الدنيا ينظر فوقه فما يجد في خلق الرحمن من تفاوت، السماء محبوبة الأطراف، فلا فتور ولا شقوق، والكواكب تتهادى فلا تتعطل ولا تتوقف.

وعند قيام الساعة، يتغير كل شيء: الشقوق تملأ الآفاق، وأبواب السماء تُفتح فيما بينها وبين أرض المحشر، لنزول الملائكة وصعودهم، والكواكب ينفرط عقدها، ويختل توازنها، فلا يمسكها نظام، والبحار تَطْعَى على الشواطىء، وتتأجج بالنيران، وأهل القبور يستعدّون للخروج، وهم شاعرون بالخرج والحيرة! وتقف كل نفس على ما عملت من خير أو شر. وهذا من أول السورة إلى الآية الخامسة.

أما المقطع الثاني من السورة في الآيات الثلاث التي تليها فهو: عتاب مرير مؤسف، يتضمن الوعيد وسوء المصير، لمن جحد وخذانية الله تعالى، ولم يعرف قدر ربه، فقابل فضله ونعمه بالجحود والعصيان، فيقال له: ماذا فعلت بالأمس الفائت؟ وماذا قدمت

لمستقبلك الخالد؟

لقد كانت وصايا الله إليك أهون شيء عليك - أيها الإنسان - وكنت إذا كُلِّفْتَ بصلاة أو زكاة أو جهاد.. تقاعست واسترخيت ومرقت منها كما يمرق السهم من الرمية، ولم تشكر فضل ربك ونعمه عليك.

والمقطع الثالث: من الآية التاسعة إلى آخر السورة، وهي عشر آيات يقرر الله تعالى فيها علة الجحود والطغيان، فبعد أن بيّن سبحانه أن الدار الآخرة، سيكون فيها مفاجآت كثيفة لأغلب الناس، بيّن سبحانه أن التكذيب بيوم الحساب، هو الذي جعلهم يُهمَلون العمل للقائه، فسجّل عليهم الملائكة كل ما عملوه في دنياهم، ليواجهون به أمام ربهم في هذا اليوم، بلا زيادة ولا نقصان.

وبعد فصل القضاء، يذهب الخلائق إلى مستقرهم العتيد، في نعيم أهل الأبرار، أو جحيم أهل الفجار، وهو يوم عظيم يتفرد فيه رب العالمين بالحكم والسلطان، وتتجرد فيه النفوس من كل حَوْل وطَوْل، فالمُلْك يومئذ لله، وليس لسواه أدنى مُلْك ولا حُكْم ولو كان حكماً صورياً.

عن جابر رضي الله عنه قال: قام معاذ فضلى العشاء الآخرة فطَوّل، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت عن سبح اسم ربك الأعلى، والضحى، وإذا السماء انفطرت؟»^(١).

وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «من سرّه أن ينظر إلى يوم القيامة رأيي العين، فليقرأ ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ أَنْفَطَرَتْ﴾ و﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾»^(٢).

* * *

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٥٢)، والسنن (٩٩٦)، وهو في البخاري برقم (٧٠١، ٧٠٥)، ومسلم برقم

(٤٦٥)، وصحيح سنن النسائي (٩٥٣).

(٢) سنن الترمذي برقم (٣٣٣٣)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٦٥٣)، والمسند (٤٨٠٦، ٥٧٥٥) بإسناد حسن، والحاكم (٥١٥/٢)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبراني.

سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ (٨٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة المطففين) هي السورة الثالثة والثمانون في ترتيب المصحف، والسادسة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة العنكبوت) وقبل (سورة البقرة). وتسمى (سورة المطففين) وهو الأشهر، وسميت في كتب السنة وبعض التفاسير (سورة ويل للمطففين) والأول اختصاراً له.

وعدد آياتها ست وثلاثون آية باتفاق، وهي مئة وتسع وستون كلمة. وسبع مئة وثلاثون حرفاً.

وهي من السور المختلف بين كونها مكية أو مدنية على أقوال ثلاثة:

١- فمن قال: إنها مكية نظر إلى قوله تعالى: ﴿إِذَا نُتِيَ عَلَيْهِ ابْنَاءُ قَالَ أَسْطَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿١٣﴾

[الآية: ١٣] فَإِنَّ رَمَى الْقُرْآنَ بِهَذَا الْإِفْكَ كَانَ فِي مَكَّةَ، ومع هذا فإن تطفيف الكيل والميزان كان في مكة، كما هو في كل أمة وفي كل زمان، فهو أمر حاصل في كل بلد، لاسيما إذا كان أهلها كفاراً، وبهذا قال ابن عباس والسُّدِّي والنقاش^(١). ومنهم من قال هي آخر ما نزل بمكة^(٢).

٢- وقال مقاتل: هي أول سورة نزلت بالمدينة.

قال ابن عباس: لما قدم النبي ﷺ كانوا أخبرث الناس كيلاً، فأنزل الله تعالى ﴿وَيَلِّ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ فأحسنوا الكيل بعد ذلك^(٣).

(١) أخرجه ابن الضريس (١٨، ١٧) عن ابن عباس.

(٢) ينظر: تفسير ابن عطية (٤٤٩/٥).

(٣) ينظر: سنن النسائي الكبرى برقم (١١٥٩٠، ١١٦٥٤)، وسنن ابن ماجه برقم (٢٢٢٣)، قال البوصيري: هذا إسناد حسن، وهو عند ابن حبان (٤٨٩٨، ٤٩١٩)، والمستدرک (٣٣/٢)، وحسن إسناده الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (١٨٠٨)، وأخرجه الطبراني (١٢٠٤١)، والطبري (١٨٦/٢٤).

وقيل: إن النبي ﷺ لما قدم المدينة وبها رجل يقال له: أبوجهينة، ومعه صاعان يكيل بأحدهما، ويكتال بالآخر، فنزلت الآية^(١).

وبعض من قال: إنها مدنية، استثنى الآيات الثمانية الأخيرة فقال: إنها مكية. وقال القرطبي: كان بالمدينة تجاراً يطففون الكيل، وكانوا يتبايعون بالقمار ونحوه فأنزل الله الآية، فخرج النبي ﷺ إلى السوق وقرأها، وكانت عادة متفشية فيهم^(٢).

٣ - وقال بعضهم: نزلت السورة في الهجرة بين مكة والمدينة، وكان التطفيف متفشياً في البلدين، فأراد الله تعالى أن يطهر المدينة من فساد المعاملات التجارية، قبل أن يدخلها النبي ﷺ لئلا يشهد فيها منكرأ عاماً، في الأسواق والمبادلات، وهذا مقصد حسن، ولذا فقد قيل إنها آخر ما نزل بمكة، وأول ما نزل بالمدينة^(٣).

عن أبي هريرة ؓ قال: (قدمت المدينة والنبي ﷺ بخير، ورجل من بني غفار يؤمهم في الصبح، فقرأ في الأولى ﴿كَهَيْعَصَ﴾ وفي الثانية ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ وكان عندنا رجل له مكيالان، مكيال كبير، ومكيال صغير، يُعطي بهذا ويأخذ بهذا، فقلتُ: ويل لفلان^(٤).

موضوع السورة:

١- تأتي سورة المطففين بعد سورة الانفطار كأنها تكملها، فهي تُفصل ما أجملته عن الأبرار والفجار، وقبل ذلك فإنها تُطهر المجتمع المسلم من المعاملات التي لا تتفق مع مبادئ الإسلام السامية، فهي تُفصل علاقة العمل في الدنيا بالجزاء في الآخرة، كي يتدارك الإنسان نفسه قبل حلول الأجل، وانتهاء وقت العمل.

٢- وتبدأ السورة في آياتها الست الأول، بإعلان الحرب على المطففين في الكيل

(١) تفسير الخازن (٤/٤٥٩).

(٢) تفسير ابن عاشور (١٨٨/٣٠) وابن عطية وابن الجوزي.

(٣) زاد المسير (٥١/٩) وابن عاشور (١٨٧/٣٠).

(٤) صحيح ابن حبان (٧١٥٦)، قال محقق الإحسان: إسناده صحيح على شرط مسلم، وهو في البزار

(٢٢٨١) كشف، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٥/٧) رجاله رجال الصحيح.

والوزن، ونحو ذلك من كل ما هو معنوي أو محسوس، سواء في تعامل العبد مع ربه أو تعامله مع الناس.

فمن لم يطمئن في ركوعه وسجوده فهو مطفف في عبادته.

ومن ظلم غيره وتعالى عليه فقد طَفَّ الصاع.

والذي ينتقص من وقت العمل، أو لا يؤديه كما يجب، فقد نقص الكيل والوزن.

والذي يعامل الناس بمكيالين، لثراء وفقر، أو لسبب ما من الأسباب، فهو من المطففين.

والذي لم يَسَوِّ بين زوجاته ولا بين أولاده، فهو من المطففين.

والذي يغشُّ في البيع والشراء فهو من المطففين، وهكذا.

وقد وصف الله المطففين بأنهم لا يخافون حساباً ولا قياماً بين يدي رب العالمين.

٣ - ولأن مرتكبي جريمة التطفيف بكل صوره، يرتكبها الفجار الأشقياء، فقد

هَدَّاهم الله تعالى وتوعدهم بعذاب جهنم، وصوّرت السورة جزاءهم يوم القيامة، حيث

يساقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد، وهم محجوبون عن رؤية ربهم يوم لقائه

بسبب كفرهم بآيات الله تعالى، وبسبب كثرة وقوع الذنوب منهم حتى رانت على

قلوبهم، فطمست وطُبع عليها.

٤ - وبعد الحديث عن الفجار، تأتي الصفحة المقابلة للأبرار المتقين، وما أعده الله

لهم من النعيم المقيم، فتصف طعامهم وشرابهم ومساكنهم، ونُصْرَة وجوهم، وشرابهم

من رحيق ختامه مسك، ممزوج من عين التسنيم، وفي كل هذا جمع بين الترغيب

والترهيب، والوعد والوعيد.

٥ - وخُتِمت السورة ببيان جانب مما كان يُلْقَاهُ الأبرار من الفجار في الدنيا، حيث

كانوا يسخرون منهم ويستهزؤون بهم، ويغمزون ويلمزون ضعفاء المسلمين احتقاراً

لهم، وكانوا يظنون أنهم على حق، وأن هؤلاء الضعفاء من الأبرار المتقين في ضلال

بين، فإذا كان يوم القيامة فإن الجزاء يكون من جنس العمل، فكما ضحك الكفار من

المؤمنين في الدنيا، فإنهم يفعلون بهم كذلك يوم القيامة، وهم على أسرّتهم ينظرون إليهم ﴿هَلْ تُؤَبُّ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ (الآية: ٣٦).

نعم، لقد جُوزوا بمثل ما فعلوا في الدنيا أعدل الجزاء.

وعلى هذا فإن في السورة أربعة مقاطع:

المقطع الأول: عن المطففين في الكيل والميزان ونحو ذلك، من كل ما هو مادي أو معنوي، وذلك في الآيات الست الأول.

والمقطع الثاني عن ردع الفجار وزجرهم، وتهديدهم بالويل والهلاك.

وهذا من الآية السابعة إلى الآية السابعة عشرة.

والمقطع الثالث عن الأبرار ونعيمهم ونُصرة وجوهم، والرحيق الذي يشربون منه، والأرائك التي يجلسون عليها، وهذا من الآية الثامنة عشرة إلى الآية الثامنة والعشرين.

والمقطع الرابع فيما يحدث من سُخْرية الأقوياء من الضعفاء، واحتقارهم لهم في الدنيا، وعقاب الله لهم في الآخرة من جنس ما كانوا يصنعون.

وهذا من الآية التاسعة والعشرين إلى نهاية السورة، بالآية السادسة والثلاثين.

* * *

سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ (٨٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الانشقاق) هي السورة الرابعة والثمانون في ترتيب المصحف، والثالثة والثمانون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الانفطار) وقبل (سورة الروم). وهي خمس وعشرون آية في العدد الكوفي والمكي والمدني، وعند أهل البصرة والشام ثلاث وعشرون آية، وأربع وعشرون آية في العدد الحمصي. وهي مئة وسبع كلمات، وأربع مئة وثلاثون حرفاً. وتسمى (سورة الانشقاق) وهو الأشهر، ويقال: (سورة انشقت) اختصاراً، وسماها الجعبري (سورة كذح) وسميت في عصر الصحابة (سورة إذا السماء انشقت) كما في الأحاديث التالية، فهذه أربعة أسماء، أشهرها الأول: وهي سورة مكية باتفاق.

سجود التلاوة في آخرها:

ومما جاء في سجود التلاوة قُرْبَ آخرها ما جاء:

- ١- عن أبي رافع قال: (صليت مع أبي هريرة العتمة، فقرأ ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد، فقلت له: قال: سجدتُ خلف أبي القاسم ؓ فلا أزال أسجد بها حتى ألقاه^(١)).
- ٢- وعن أبي هريرة ؓ قال: سجدنا مع رسول الله ﷺ في: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ و﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾^(٢).
- ٣- وعن أبي سلمة أن أبا هريرة قرأ بهم ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ فسجد فيها، فلما

(١) صحيح البخاري برقم (٧٦٦، ٧٦٨، ١٠٧٢، ١٠٧٣، ١٠٧٨)، وصحيح مسلم برقم (٥٧٧، ٥٧٨)، وسنن أبي داود برقم (١٤٠٨)، وسنن النسائي (١٦١/٢) برقم (٩٦٧)، وابن أبي شيبه (٧/٢).

(٢) صحيح مسلم برقم (٥٧٨)، وصحيح البخاري (١٠٧٤)، وسنن أبي داود (١٤٠٧)، وسنن الترمذي برقم (٥٧٣)، وسنن النسائي (٩٦٦)، وفي الكبرى (١٠٣٥، ١١٥٩٦)، وابن ماجه (١٠٥٩)، وابن أبي شيبه (٦/٢).

انصرف، أخبرهم أن رسول الله ﷺ سجد فيها^(١).

فهذه أحاديث صريحة صحيحة في سُنية سجود التلاوة في أواخر سور المفصل. وكان النبي ﷺ يقرأ بها في صلاة الظهر، كما في حديث بريدة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾^(٢).

موضوع السورة:

يمكن تقسيم سورة الانشقاق إلى أربعة مقاطع:

المقطع الأول: في الآيات الخمس الأول، وهو يتناول الحديث عن بعض مشاهد القيامة، وأهوالها الجسام، فبدأ بانشقاق السماء، واستسلامها لأمر ربها في طوعية وخشوع ويُسّر.

والسما ليست هي القبة الزرقاء التي نراها فوقنا، ولا ندري شيئاً عن طباقها، ولا عن سُكّانها، ولا عن طبيعة الحياة فيها.

وقد أخبرنا الله تعالى في أول السورة بأن السماء ستشقق، ويظهر ذلك مع قيام الساعة. وثبت آيات السورة ببيان أن الأرض تتمدد يوم القيامة، وتتخلّى عما في باطنها من كل خسيس ونفيس، استجابة لأمر الله تعالى بخشوع وانقياد. وكان الله تعالى عند بدء الخليفة قال للأرض والسماء ﴿أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] وهما لا يملكان إلا السمع والطاعة.

وهذا التغير للسماء والأرض عند انتهاء العالم، سبق ذكره من هذا الجزء في سورة النبأ والتكوير والانفطار، ولكنه يتميز هنا ببيان استجابتهما لأمر الله تعالى، وانقيادهما له، تمهيداً لإلقاء الطاعة والخشوع في قلوب عباده الذين تتحدث عنهم الآية السادسة ﴿يَتَأْتِيهَا الْإِنْسَنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًا فَمُلْقِيهِ﴾.

(١) صحيح مسلم برقم (٥٧٨)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦٠)، وصحيح البخاري برقم (٧٦٦، ٧٦٨)،

والمسند (٩٣٤٨)، وابن حبان (٢٧٦١).

(٢) أخرجه ابن خزيمة برقم (٥١٢) قال محققه: إسناده صحيح، وأخرجه الضياء المقدسي في المختارة.

ولم يُذكر في هذه السورة من أحداث التغيير عند قيام الساعة سوى الأرض والسماء، فلم تُذكر الشمس ولا القمر، ولا النجوم، ولا الجبال، ولا البحار، ولا العشار، ولا القبور ولا غير ذلك، لأن المطلوب هنا هو هذا الطابع الخاص الذي تستسلم فيه السموات والأرض وما فيهما وما عليهما لإذن ربهما، كأنهما من ذوات الأرواح.

المقطع الثاني: يبين الله تبارك وتعالى فيه أن الدنيا دار تكليف، وامتحان شاق وجاد، فالإنسان يسعى في الأرض، يكّد ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه، ويجدّ ويجتهد فيما يُحصّله لآخرته وما يؤول إليه أمره، من خير أو شر، ليلقى في آخرته الجزاء العادل، وعلى المرء أن يختار ويحدّد مصيره، فإما أن يختار طريق السعداء، وإما أن يختار طريق الأشقياء، إذا أنكر وحدانية ربه، وأنكر ما في الآخرة من ثواب وعقاب، وقد استغرق هذا المعنى من الآية السادسة إلى الآية الخامسة عشرة من السورة.

المقطع الثالث: في الأربع آيات التالية، وفيها يُقسم ربنا سبحانه بالشفق، وهو حُمْرَةُ الأفق بعد غروب الشمس، وبالليل الذي يأوي الناس بظلامه ليسكنوا فيه، وبالقمر إذا تكامل نوره، وهذه الثلاث: الشفق، والليل، والقمر، مشاهد كونية تقع تحت عين الإنسان وبصره، يتقلب فيها ليل نهار، ويقسم ربنا بها على أن الإنسان تتطور أحواله وتتغير حالاً بعد حال، في الدنيا والآخرة:

١- ففي بطن أمه، يكون نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاماً، ثم لحماً، ثم إنساناً كامل الخلق، بشراً سوياً، بجسد وروح.

٢- وبعدها ينزل إلى الأرض، يكون طفلاً، ثم صيباً، ثم شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً.

٣- وتتغير عليه أحوال الحياة من فقر وغنى، وصحة ومرض، وحزن وفرح، ونصر وهزيمة، وسعادة وشقاء، وشدة ورخاء، وعسر ويسر، وقوة وضعف، وحياة وموت، وحساب وجزاء، وكلها أحوال دنيوية.

٤- أما أحوال الآخرة، ففيها: البعث، والحشر والنشر، والعرض والحساب، والميزان والصراط، وتطايير الصحف، ثم المصير المحتوم في النعيم، أو الجحيم.

٥- ومن تَطَوَّر حال الإنسان في الدنيا والآخرة، إلى تَطَوَّر المشاهد الكونية من شفق عند الغروب، إلى ليل يغطي الناس بظلامه، إلى قمر يبدو هلالاً، ثم يتكامل حتى يكون بدرًا، ثم يتراجع حتى يكون كالعرجون القديم، والآية محتملة لهذه المعاني.

ويتوقع الشيخ محمد الغزالي - رحمه الله - أن يكون المراد بالشفق في الآية: هو الإشارة إلى تاريخ المسلمين، وما يغتره من نصر وهزيمة، وعسر ويسر، قال: وقد بدا لي ذلك وأنا أطلع حديثاً رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً صلاة العصر»، ثم قام خطيباً، فلم يدع شيئاً إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، وكان فيما قال: «إن الدنيا خضرة حلوة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون؟» ثم قال ﷺ: «ألا لا يمتنع رجلاً هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه» ومضى ﷺ في خطابه الجليل، قال: أبوسعيد: وجعلنا نلتفت إلى الشمس، هل بقي من النهار شيء؟ فقال رسول الله ﷺ: «ألا إنه لم يبق من الدنيا - فيما مضى منها- إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»^(١).

هذا الأمد القليل الباقي قبل قيام الساعة، هو تاريخنا، وما ظهر من دول وما يبقى!! لقد جئنا في أصيل العالم، أو في شفقته، والغروب مؤشك. والسؤال الخطير: هل أدّينا رسالتنا، وأنصفنا الناس من أنفسنا؟ وركبنا طبقاً عن طبق، وانتقلنا من حال إلى حال؟ فهل اعتبرنا؟ فما لهم لا يؤمنون^(٢).

قلت: وهذا اجتهاد منه مشكور في توسيع نطاق معنى الآية.

أما المقطع الرابع والأخير في السورة: فهو في التعجب من حال الناس إن لم يؤمنوا،

(١) من حديث طويل في سنن الترمذي (٢١٩١)، قال أبو عيسى: وفي الباب عن المغيرة بن شعبة، وأبي زيد بن أخطب، وحذيفة، وأبي مريم، وذكروا: أن النبي ﷺ حدّثهم بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة، وهذا حديث حسن صحيح، وأخرجه البغوي في شرح السنة (٤٠٣٩)، والطبائسي (٢١٥٦)، والحميدي (٧٥٢). وانظر: مسند أحمد (١١٤٣ و ١١٥٨٧)، وفيه: ابن جدعان ضعيف، وبقيّة رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٢) نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم (ص ٥٠٧).

فيوبخهم القرآن على عدم إيمانهم بالله تعالى، مع وضوح آياته، وسطوع براهينه.
وقد حذرتهم السورة وهم في فترة المهلة، فإن أصروا على كفرهم وماتوا عليه،
فلهم سوء العاقبة في دار البوار والجحيم، وإذا كان هذا مصير الكافر، فإن المؤمن له
أجر لا ينقطع.

وهذا المقطع من السورة، في الآيات الست الأخيرة منها، أي من الآية العشرين إلى
الآية الخامسة والعشرين.

* * *

سُورَةُ الْبُرُوجِ (٨٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة البروج) هي السورة الخامسة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الشمس) وقبل (سورة التين). وهي اثنتان وعشرون آية باتفاق، ومئة وتسع كلمات، وأربع مئة وخمسة وستون حرفاً. وتسمى (سورة البروج) وهو الأشهر، وسميت في الحديث (سورة السماء ذات البروج) بدون واو قبلها، وهي سورة مكية باتفاق. وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ بها وبسورة الطارق في صلاة العشاء الآخرة^(١). وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر بـ ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ و﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ وشبهها^(٢).

موضوع السورة:

أ - تتحدث السورة عن التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، فتذكر قصة أهل الأخدود الذين شق لهم الطغاة شقوقاً في الأرض، وأوقدوا النيران، وأحرقوهم فيها على مرآى من الجموع المحتشدة، لمشاهدة مصارعهم، ولم يكن لهم من ذنب سوى أنهم آمنوا بالله العزيز الحميد.

(١) ورد ذلك في المسند (٣٢٦/٢، ٣٢٧) (٨٣٣٢، ٨٣٣٣)، (١٠٨٧٩)، وإسناده ضعيف لضعف يزيد بن سفيان أبو المهزم.

(٢) المسند (١٠٦/٥) (٢٠٩٨٢) قال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناده حسن، من أجل سماك بن حرب، وباقي رجال الإسناد ثقات، رجال الصحيح وابن أبي شيبه (٣٥٦/١) وأبوداود (٨٠٥) والترمذي (٣٠٧) والنسائي (١٦٦) وفي الكبرى (١١٥٩٨، ١٠٥٥) وابن جبان (١٨٢٤، ١٨٢٧) والبيهقي (٣٩١/٢)، والبغوي (٥٩٤)، والطيالسي (٧٧٤)، والدارمي (٢٩٥/١) وصحيح سنن الترمذي (٢٥٢) وصحيح سنن أبي داود (٧٢٢) والبخاري في القراءة خلف الإمام (٢٩٦).

وتبدأ السورة بثلاثة أنواع من القسم: فيقسم الله تبارك وتعالى فيها بالسماء ذات النجوم والمنازل، ويقسم بيوم الحساب والجزاء، ويقسم بكل شاهد يشهد، وبكل مشهود يشهد عليه، على أن أصحاب الأخدود ملعونون مطرودون من رحمة الله تعالى بسبب كفرهم وبغيهم.

ولله تعالى أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، وليس للعبد أن يقسم إلا بالله تعالى.
 ب - ثم تشير السورة إلى قصة تعذيب أهل الأخدود، وتُعقَّب عليها بالتهديد والوعيد الشديد لكل من يفعل مثل فعلتهم، ويموت على ظلمه دون أن يتوب ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْخَرِيقِ﴾ [الآية: ١٠] أي فلهم في الآخرة عذاب من جنس ما فعلوا بغيرهم.

أما المؤمنون الصالحون، فهم في جنات ونعيم وفوز عظيم، وكأن الله تعالى يقول لأهل الإيمان: اصبروا كما صبر السابقون من المؤمنين، واثبتوا كما ثبتوا، فإن العاقبة ستكون لكم، فالمقصود هو تثبيت المؤمنين على ما هم عليه من الإيمان، وتسليتهم عما لحقهم من تعذيب وأذى، وإعلامهم أن ما نزل بهم قد نزل أكبر منه بغيرهم.

ج - وفي نهاية الحديث عن أصحاب الأخدود وصف الله تعالى نفسه بأربعة أوصاف، فهو العزيز الحيمد، مالك الأرض والسماء، والشهيد على كل شيء ثم تأتي تعقيبات أربع:

يشير أولها إلى سنة الله تعالى في خلقه بالانتقام من الظالمين.
 ويشير التعقيب الثاني في السورة إلى بطش الله الشديد بالطغاة والمتجبرين، وفيه وصف الله تعالى بخمسة أوصاف.

فهو سبحانه شديد البطش، وهو يبدئ الخلق ويعيده، يغفر لعباده ويتوب عليهم ويتودد لهم، وهو صاحب العرش المجيد، يفعل ما يريد، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.
 ويشير التعقيب الثالث في السورة إلى سبب ما لحق بالطغاة من عقوبة.
 والتعقيب الرابع فيه ثناء على القرآن وتنديد بالمكذبين له.

د - وتُلَوِّحُ السُّورَةُ بِأَنَّ بَطْشَ اللَّهِ شَدِيدٌ لِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَانْتِقَامُهُ تَعَالَى يَنْتَظِرُ كُلَّ مَنْ بَغَى وَتَجَبَّرَ، وَلَهُمْ عِبْرَةٌ فِي قِصَّةِ فِرْعَوْنَ الطَّاغِيَةِ الْجَبَّارِ، وَمَا أَصَابَهُ مِنَ الْهَلَاكِ وَالْدمَارِ، وَكَذَا فِي قِصَّةِ قَوْمِ ثَمُودَ الَّذِينَ جَعَلَ اللَّهُ بَيْوتَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا، لَهُمْ فِيهِمْ عِبْرَةٌ وَعِظَةٌ، لِلْإِقْلَاعِ عَنْ ظُلْمِ النَّاسِ وَالتَّكْبَرِ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

قصة أصحاب الأخدود:

هذه القصة ليست قصة واحدة، فقد حدثت أكثر من مرة، في أكثر من بلد، وأكثر من زمن، لأكثر من قوم فُتِنُوا في إيمانهم، في القديم والحديث، وما أكثر أمثالها في عالمنا المعاصر وغير المعاصر:

- ١ - فقد عُذِبَ فِي الْأَخَادِيدِ قَوْمٌ اتَّبَعُوا النَّصْرَانِيَّةَ فِي بِلَادِ الْيَمَنِ، وَعَلَى هَذَا أَكْثَرُ الرِّوَايَاتِ.
 - ٢ - وَغُذِّبَ قَوْمٌ آخَرُونَ بِالْأَخَادِيدِ فِي بِلَادِ الْحَبَشَةِ.
 - ٣ - وَعُذِبَ قَوْمٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمِثْلِ عَذَابِهِمْ عَلَى يَدِ بَخْتَنْصَرٍ فِي أَرْضِ بَابِلَ بِالْعِرَاقِ.
- أما الطغاة الذين عَذَّبُوا الْمُؤْمِنِينَ فِي الْأَخَادِيدِ فَقَدْ:

- ١ - كَانَ مِنْهُمْ: (يُوسُفُ، ذُو نَوَاسٍ) بَنَجْرَانِ.
 - ٢ - وَكَانَ مِنْهُمْ (بَخْتَنْصَرُ) بِالْعِرَاقِ.
 - ٣ - وَكَانَ مِنْهُمْ (انْطَانِيُوسُ) الرُّومِي، بِالشَّامِ.
- قَالَ مِقَاتِلُ: كَانَتْ الْأَخَادِيدُ ثَلَاثَةً: وَاحِدَةً بَنَجْرَانِ بِالْيَمَنِ، وَالثَّانِيَةَ بِالشَّامِ، وَالثَّلَاثَةَ بِفَارَسِ.
- أما التي بالشَّامِ، فَهُوَ انْطَانِيُوسُ الرُّومِي، وَأما التي بِفَارَسِ فَهُوَ بَخْتَنْصَرُ.
- وَأما التي بِأَرْضِ الْعَرَبِ فَهُوَ: يُوسُفُ ذُو نَوَاسٍ.
- فَأما التي بِفَارَسِ وَالشَّامِ، فَلَمْ يَنْزِلِ اللَّهُ فِيهِمْ قُرْآنًا، وَأَنْزَلَ فِي الَّتِي كَانَتْ بَنَجْرَانِ^(١).
- وَقِصَصُ الْأَخَادِيدِ كَثِيرَةٌ فِي التَّارِيخِ.

(١) ينظر: تفسير ابن كثير (٨/٣٧٠).

والتعذيب بالحرق بالنار طريقة قديمة، ومنها: نار إبراهيم عليه السلام. وممن حرقّ بالنار دون شقّ الأخاديد (عمرو بن هند التميمي) فقد حرق مئة من بني تميم بالنار.

قال ابن كثير بعد أن ذكر جملة من الروايات:

ويحتمل أن ذلك وقع كثيراً في العالم، كما قال ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن جبيرة: ١- كانت الأخدود في اليمن زمان تُتبع.

٢- وفي القسطنطينية، زمان قسطنطين، حين صرف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتوناً، وألقوا فيه الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد. وفي العراق في أرض بابل، كان بختنصر، الذي وضع الصنم، وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباؤه، فأوقد لهم أتوناً، وألقى فيه الحطب والنار، ثم ألقاهم فيه، فجعلها الله عليهم برداً وسلاماً، وألقى فيها الذين بغوا عليه، وهم تسعة رهط، فأكلتهم النار.

وهذه أربع روايات من الروايات التي وردت في قصص أصحاب الأخدود: الرواية الأولى: أن ملك فارس شرب خمرًا ووقع على أخته وهو سكران، فلما أفاق قال لها: ويحك، أين المخرج؟ فقالت له: اجتمع أهل مملكتي، فأخبرهم أن الله عز وجل قد أحل نكاح الأخوات والبنات، فإذا مضى ذلك في الناس وتناسوه، خطبتهم مرة ثانية فحرمتهم، ففعل ذلك، فأطاعه أناس، وعصاه آخرون، فأبوا أن يقبلوا ذلك منه، فشق لهم أخاديد طويلة كالخنادق في الأرض، وأوقد فيها النار، وقذف فيها من أبي ذلك، وكان هذا الملك مجوسياً، أراد أن يحلل نكاح المحارم بين الناس^(١).

الرواية الثانية: عن عليّ رضي الله عنه أن أهل الأخدود كانوا بمزارع باليمن، وأن الذي شق الأخاديد هو ملك حمير، حيث اقتتل مؤمنوهم ومشركوهم، فغلب مؤمنوهم على

(١) تفسير الطبري (١٣٢/٣٠) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وانظر تفسير البغوي والخازن وزاد المسير للسورة.

كفارهم، ثم اقتتلوا، فغلب الكفار المؤمنين، فخذوا لهم الأخاديد وأخرقوهم فيها.
وقيل: إنهم كانوا من الحبشة، وفيهم كانت المرأة المؤمنة التي قادها الزبانية إلى
الأخدود، فتقاعست قليلاً من أجل ولدها، فقال لها الطفل: امضي إلى الأخدود، واثبتي
فأنت على الحق، فاقتحمت النار!!

الرواية الثالثة: وهي القصة التي أشار إليها القرآن الكريم، وقد جرت هذه القصة في
نجران، وهي أن الملك ذو نواس، كان له كاهن أو ساحر، وكان للساحر تلميذ اسمه
(عبد الله بن الثامر) فكان إذا مشى إلى الكاهن، وجد في طريقه صومعة فيها راهب،
يعبد الله تعالى على دين عيسى عليه السلام قبل رسالة محمد ﷺ وكان يقرأ الإنجيل،
وظهر لـ (عبد الله بن الثامر) كرامات، وكلما ظهر له كرامة اتبعه عدد من النصاري، فكثُر
المنتصرون في نجران.

وبلغ هذا الأمر الملك ذا نواس، وكان يهودياً، وكان أهل نجران مشركين، يعبدون
نخلة طويلة، فقتل الملك الغلام، وقتل الراهب، وأمر بشق أخاديد، وجمع الحطب لها،
وأمر بإشعال النار فيها، وعرض أهل نجران على النار، فمن رجع عن التوحيد تركه،
ومن ثبت على الدين الحق قذفه في النار، حيث سار إليهم ذو نواس بجنده، فدعاهم
إلى اليهودية، وخيّرهم بينها وبين القتل، فحرق بالنار في الأخاديد من لم يدخل في
اليهودية، وقتلهم بالسيف، ومثل بهم، حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفاً^(١).

قصة الأخدود في السنة:

ولعل هذا مجمل لما رواه صهيب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أن ملكاً كان له ساحر، فلما
تقدّمت السن بالساحر، طلب من الملك أن يعطيه غلاماً يعلمه السحر.

وكان بين الملك والساحر راهب، كان الغلام يجلس إليه ويعجب به، ويلقى الأذى
بسبب ذلك من الساحر ومن أهله، فرأى الغلام في طريقه ذات يوم دابة عظيمة قد

(١) ينظر: السيرة النبوية لابن هشام (٣٤/١) وما بعدها، بتصرف.

سدت الطريق وحبست الناس، ولم يستطيعوا اجتيازه، فأخذ الغلام حجراً، وقال: اللهم إن كان أمر هذا الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة حتى يمرّ الناس، ورمها بحجر فقتلها.

فأخبر الراهب بذلك، فقال له: أنت أفضل مني، وإنك ستبُتلى، فإن ابْتُليت فلا تدل عليّ، وقد أيد الله الغلام ببعض الكرامات، فكان يرى الأكمه والأبرص، وسائر الأدواء. وكان للملك جليس أعمى، فأتى الغلام بهدايا كثيرة، وقال له: اشفني، قال الغلام: إنما يشفي الله عز وجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن، فدعا الله فشفاه. ثم إن الملك سأله: مَنْ ردّ عليك بصرك؟ قال: ربي، قال: أولئك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دلّه على الغلام، فعذّبه. ثم دلّه على الراهب، فأُتي به، فقبل له: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقّاه.

وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرقه أيضاً. وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر من جنده يقذفونه من ذروة الجبل إن لم يرجع عن دينه، فلما علّوا به الجبل قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل وماتوا جميعاً.

ورجع الغلام إلى الملك، فبعث به مع نفر من جنده إلى البحر، وقال لهم: ألقوه في لجة البحر إن لم يرجع عن دينه، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فأغرقهم الله جميعاً، فرجع الغلام إلى الملك وقال له: إنك لست بقاتلي حتى تجمع الناس في صعيد واحد، وتصلبني على جذع، ثم تأخذ سهماً من كناتي وتقول: باسم الله رب الغلام، فإن فعلت ذلك قتلتنني، ففعل، ومات الغلام، فقال الناس: آمنا برب الغلام.

فلما آمن الناس كلهم، شقّ الملك أخاديد في أفواه السكك وأضرّم فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، ومن لم يرجع أقحموه فيها، فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، وتقاعت أن تلقيه في النار، فقال الصبي: اصبري يا

أماه، فإنك على الحق.

قيل: إن هذا الغلام وُجد في زمن عمر مدفوناً ويده على صدغه، كلما رُفعت خرج الدم من جرحه، وإذا تُركت أعيدت على الجرح^(١) وهذه الرواية تفصيل لما أجملته الرواية الثالثة.

الرواية الرابعة: جاءت عن الربيع بن أنس، أن أصحاب الأخذود، كانوا قوماً في زمن الفترة، وذلك أنهم لما رأوا ما وقع في الناس من الفتنة والشر، وصاروا أحزاباً، اعتزلوا الناس، وأقاموا على عبادة الله وحده، فسمع بخبرهم أحد الجبارين، فأرسل إليهم، يأمرهم بعبادة الأوثان، وإلا قتلهم، فأبوا فحفر أخايد، وقال لهم: اختاروا هذه النار، أو عبادة الأوثان، فقالوا: هذه النار أحب إلينا.

وكان فيهم نساء وذرية، ففزعن الذرية، فقال لهم: لا نار بعد اليوم، فقبض الله أرواحهم، بأن بعث عليهم ريحاً قبضتهم من قبل أن يمسخهم حرّها، وخرجت النار من مكانها، وأحاطت بالجبارين على جانبي الأخذود، فأحرقهم الله بها، وفي ذلك أنزل الله الآيات^(٢).

* * *

(١) ينظر هذا المعنى في صحيح مسلم برقم (٣٠٠٥)، والمسند (١٦/٦) برقم (٢٣٩٣١) بإسناد صحيح على شرط مسلم، رجاله ثقات رجال الشيخين غير حماد بن سلمة فمن رجال مسلم، والترمذي برقم (٣٣٤٠)، والنسائي في التفسير برقم (٦٨١)، وفي الكبرى (١١٥٩٧)، وعبد الرزاق في المصنف برقم (٩٧٥١)، والتفسير (٣٦٢/٢)، والبزار في مسنده (٢٠٩٠)، والطبراني برقم (٧٣١٩)، وابن أبي شيبة (٣١٩/١٠)، وابن حبان (٨٧٣).

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٨٨/٣٠) بتصرف.

سُورَةُ الطَّارِقِ (٨٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة الطارق) هي السورة السادسة والثمانون في ترتيب المصحف، والسادسة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة البلد) وقبل (سورة القمر).
- ٢- واشتهرت باسم ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ بدون الواو، ويقال: سورة ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في العشاء الآخرة بالسماء ذات البروج، والسماء والطارق^(١).

وغالباً ما تقتصر التسمية على (سورة الطارق) فهذه ثلاثة أسماء لها.

- ٣- وعدد آياتها سبع عشرة آية عند غير المدنى الأول، وهي عنده ست عشرة آية. وهي إحدى وستون كلمة، وممتان وتسعة وثلاثون حرفاً.
- ٤- وهي سورة مكية باتفاق، نزلت قبل سنة عشر من البعثة، كما في حديث عبد الرحمن بن خالد بن أبي أحمد العدواني، أنه (أبصر رسول الله ﷺ في سوق ثقيف، وهو قائم على قوس أو عصاً، حين أتاهم يبتغي عندهم الثُصرة، فسمعتُهُ يقول: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ حتى ختمها)، قال: فوعِثُها في الجاهلية، ثم قرأتها في الإسلام، قال: فدعِني ثقيف، فقالوا: ماذا سمعتَ من هذا الرجل؟ فقرأتها، فقال مَنْ معهم من قريش: نحن أعلم بصاحبنا، ولو كنا نعلم ما يقول حقاً لاتبعناه^(٢).

(١) المسند (٢٢٧/٢) وسنده ضعيف كما قال محققوه برقم (٨٣٣٣)، وانظر مقدمة سورة البروج.

(٢) المسند (٣٣٥/٤)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: (١٣٦/٧) عبد الرحمن، ذكره ابن أبي حاتم، ولم يخرج أحد غيره، وبقيّة رجاله ثقات، وأخرجه البخاري في التاريخ (١٣٨/٣) والطبراني في الكبير (٤١٢٨، ٤١٢٦) وضعفه محققوا المسند برقم: (١٨٩٥٨) لجهالة عبد الرحمن بن خالد العدواني، لم يوثقه غير ابن حبان.

وعن جابر رضي الله عنه قال: صلى (معاذ) المغرب، فقرأ البقرة والنساء، فقال النبي ﷺ: «أفتان أنت يا معاذ؟ أما كان يكفيك أن تقرأ بالسماء والطارق، والشمس وضحاها، ونحو هذا»^(١)؟
 ٥- ومدار سورة الطارق على إقامة الأدلة على توحيد الله تعالى، وكمال قدرته، وبليغ حكمته، وسعة علمه، وبطبيعة الحال، فإن القادر على البدء قادر على الإعادة من باب أولى، فأدلة البعث والنشور تملأ آفاق السورة.

وهي تبدأ بالقسم بذات الكواكب التي تَطْرُق، أي تظهر ليلاً وتختفي نهاراً، على أن كل نفس قد وكل الله بها مَنْ يَحْرُسُها، ويتعهد أمرها، ويحفظ عليها أعمالها.
 ٦- ثم تستدل آيات السورة على وحدانية الله تعالى، فهو الذي خلق الإنسان من ماء دافق، وهو القادر على إعادته بعد موته ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ﴾ [الآية: ٨].

وقد ساقَت السورة ثلاثة أدلة على البعث بعد الموت وهي:

أ- السماء والطارق، ب- وخلق الإنسان من نقطة، ج - وإحياء الأرض بعد موتها.
 ٧- وفي هذا اليوم العظيم تُهتَك الأستار، وتُكشَف الأسرار، حيث لا مُعِين للعبد ولا ناصر له إلا الله.

٨- وما جاء به القرآن من التوحيد، ووجوب الإيمان بالنبي الخاتم، ووجوب الإيمان بالبعث والثواب والعقاب، كل ذلك قد أودعه رب العالمين في كتابه، وهو حجة الله البالغة، ومعجزة محمد ﷺ القائمة إلى يوم الساعة، فهو حق وليس بهزل.

وقد وعد الله المؤمنين بالجنة، ووعد الكافرين بالنار، وهو سبحانه يمهّلهم ولا يمهّلهم.
 ٩- هذا: والآيات الأربع الأول من السورة، فيها قسم على أن الله تعالى وكل على كل نفس رقيب من الملائكة، يحفظ عليها ما تكسبه من خير أو شر، وتحصيها له في صحيفة أعماله.

(١) سنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٦٤، ٧٠٩)، وهو في البخاري (٧٠٥)، وأبوداود (٧٩٣، ٥٩٩)، وبنحوه في المسند (١٤١٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٤٠١، ٢٤٠٤).

والآيات الست التي بعدها فيها استدلال على أن القادر على خلق الإنسان من نقطة قادر على بعثه يوم تبلى السرائر فيُجْزَى بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً.

- ومن الآية الحادية عشرة إلى نهاية السورة فيها قسم من الله تعالى على أن القرآن حق وصدق، وأن كيد المكذبين له سيعود عليهم ، ويحل بهم عقاب الله إن عاجلاً أو آجلاً.

سبب النزول:

١٠- قيل: إن أبطالب أتى النبي ﷺ فأتحفه بخُبْزٍ ولبن، وبينما هو جالس يأكل إذ سقط نجم، فامتلاً ماءً ثم ناراً، ففزع أبطالب، وقال: أي شيء هذا؟ فقال النبي ﷺ: (رُمي به، وهو آية من آيات الله تعالى) فعجب أبطالب، فأنزل الله ﴿وَالنَّجْمُ وَالطَّارِقُ﴾^(١).

* * *

سُورَةُ الْأَعْلَى (٨٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة الأعلى) هي السورة السابعة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة أو الثامنة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التكويد) وقبل (سورة الليل)، ولم يسبقها في النزول سوى سور: العلق، والمدثر، والمزمل، والقلم، والمسد، والتكويد.
- وعن جابر بن زيد أن سورة الفاتحة نزلت بعد سورة المدثر، فسورة الأعلى من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، وقوله تعالى فيها ﴿سُقِّرْتُكَ فَلَا تَسْقَى﴾ [الآية: ٦] يشير إلى ذلك.
- ٢- وهي تسع عشرة آية باتفاق أهل العدد، واثنان وسبعون كلمة، ومئتان وإحدى وتسعون حرفاً.
- ٣- وهي سورة مكية عند جمهور أهل العلم، واستثنى ابن عمر وابن عباس رضي الله عنهم قوله تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّى﴾ (١٤) وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ [الآيتان: ١٤، ١٥] فقالا: إنها مدنيّتان، نزلتا في صلاة العيد وصدقة الفطر.
- ٤- واشتهرت السورة باسم (سورة الأعلى) وسُمِّتْها عائشة رضي الله عنها سورة ﴿سَبِّحْ﴾ كما سُمِّتْها بعض كتب السنة سورة ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فهذه ثلاثة أسماء، أشهرها الأول.
- ٥- والسورة تتضمن قواعد الإيمان في ثلاثة عناصر، هي مجموع عناصر القرآن المكي:
 - العنصر الأول: توحيد الله تعالى وتنزيهه عن كل ما لا يليق بجلاله، فهو الذي خلق فأبدع، وصوّر فأحسن، وأخرج العشب والنبات رحمة بالعباد.
 - جاء هذا في الآيات الخمس الأولى من السورة.
 - العنصر الثاني: إثبات الوحي الإلهي، وتقرير أن هذا القرآن من عند الله تعالى، وتبشير الرسول ﷺ بتيسير حفظه له بحيث لا ينساه، وتيسير العمل به، وهذا من [الآية ٦-٨].
 - العنصر الثالث: تقرير الجزاء الأخروي، ببيان أن من ينتفع بالقرآن ويستفيد من نوره، ويتعظ بهديه، هم المتقون المفلحون الذين آثروا الآخرة على الأولى، وطهّروا أنفسهم من الذنوب والآثام.

أما الفريق الآخر الذي تجنّب هُدي القرآن، ولم يُطهّر نفسه من الكفر والشرك، وآثر الدنيا على الآخرة، فإن لهم نار جهنم لا يموتون فيها ولا يَحْيَوْنَ، وهذه القواعد الإيمانية مقررة في صحف إبراهيم وموسى، وجاء هذا العنصر من [الآية ٩-١٩] آخرها. ورد في الأثر عن علي بن أبي طالب عليه السلام أن النبي صلى الله عليه وآله كان يحب هذه السورة^(١). يحبها لأنها تجعل الكون كله مَعْبُدًا يسبح بحمد الله تعالى ويمجّده ويتزّهه عن كل نقص. ويحبها لما تحمل له من البُشُريّات العظيمة، ومنها عدم نسيان الوحي وهدايته إلى أيسر الطرق وأقومها.

ويحبها لأن فيها توحيد الله تعالى، ومقومات العقيدة الصحيحة، وقواعد الإيمان الحقيقي. ٦- بعض ما ورد في سورة الأعلى من أحاديث:

١- ومما يدل على أن سورة الأعلى من أوائل ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله: ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه قال: أول مَنْ قدم علينا من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله (يعني بالمدينة) مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، فجعلنا يُقرآنا القرآن، ثم جاء عُمّار، وبلال، وسعد، ثم جاء عمر بن الخطاب في عشرين، ثم جاء النبي صلى الله عليه وآله فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء فرحهم به، حتى رأيت الولائد والصبيان يقولون: هذا رسول الله صلى الله عليه وآله قد جاء، فما جاء حتى قرأتُ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ في سور مثلها^(٢).

٢- وجاء في مشروعية التسبيح بها في السجود: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وآله كان إذا قرأ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: سبحان ربي الأعلى^(٣).

(١) جاء هذا في حديث عند أحمد برقم (٧٤٢)، والبخاري برقم (٧٧٥، ٧٧٦)، وضعفه محققو المسند لضعف ثوير بن أبي فاختة.

(٢) البخاري (٣٩٢٤، ٤٩٤١)، والمسند (٢٨٤/٤) برقم (١٨٥١٢، ١٨٥٦٨) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن أبي شيبه (٨٢/١٤)، وابن سعد (٢٣٤/١)، وسنن النسائي الكبرى (١١٦٠١، ١١٦٠٢)، والزبارة برقم (١٧٥٠).

(٣) قال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، كما في المستدرك (٢٦٣/١)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود برقم (٧٨٥)، وهو في المسند برقم (٢٦٦)، والطبراني (١٢٣٣٥)، والبيهقي (٣١٠/٢)، قال محققو المسند: صحيح موقوف، ورجاله رجال الشيخين، وأخرجه عبد الرزاق (٣٦٧/٢)، وابن أبي شيبه (٥٠٩/٢).

- ٣- وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه أنه لما نزلت ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: (اجعلوها في ركوعكم) فلما نزلت ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ قال: (اجعلوها في سجودكم) ^(١).
- ٤- وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يوتر بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ^(٢).
- ٥- وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقرأ في الوتر في الركعة الأولى بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ وفي الثانية ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ وفي الثالثة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين ^(٣). كما كان ﷺ يقرأ بها في العيدين والجمعة:
- ٦- وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ في العيدين وفي الجمعة بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ وإن وافق يوم جمعة، قرأهما جميعاً. وفي لفظ: وربما اجتمعا في يوم واحد فقرأهما ^(٤). وكان ﷺ يقرأها في صلاة الظهر:
- ٧- عن جابر بن سمرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ^(٥) وقراءة المفصل في الصلاة من باب التخفيف بها:

- (١) المسند (١٥٥/٤) (١٧٤١٤)، وأبوداود (٨٦٩)، وابن حبان (١٨٩٥)، والمستدرک (٤٧٧/٢)، والبيهقي (٨٦/٢) وسنده ضعيف، كما في ضعيف سنن ابن ماجة (١٨٦)، قال محققو المسند: وإسناده محتمل للتحسين، وأخرجه الطيالسي (١٠٠٠)، والترمذي (٢٦١) عن ابن مسعود.
- (٢) أبو داود (١٤٢٣)، والنسائي (٢٤٤/٣) (١٧٠٠، ١٦٩٨)، وابن ماجة (١١٧١)، والدارقطني (٣١/٢)، وصححه الحاكم (٢٥٧/٢) ووافقه الذهبي، وابن حبان (٢٤٣٦)، والبيهقي (٣٨/٣)، وصحيح سنن ابن ماجة (٩٦١) وإسناده صحيح.
- (٣) أبوداود (١٤٢٤)، والترمذي (٤٦٣) وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجة (١١٧٣)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين (٥٢٠/٢) ووافقه الذهبي، والبيهقي (٣٧/٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٦١) بإسناد صحيح، وهو في المسند عن ابن عباس (٢٧٢٥، ٢٧٢٠)، حديث صحيح (محققوه)، وأخرجه النسائي في الكبرى (٤٢٦)، وابن أبي شيبه (٢/٢٩٩)، وأبو يعلى (٢٥٥٥).
- (٤) المسند (٢٧١/٤) (١٨٤٠٩، ١٨٣٨٣) وهو حديث صحيح، ومسلم (٨٧٨)، وابن أبي شيبه (١٤١/٢)، والحميدي (٩٢٠)، وابن خزيمة (١٤٦٣)، وأبو داود (١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، والنسائي (١٤٣٣)، وفي الكبرى (١٧٣٨)، وابن ماجة (١٢٨١).
- (٥) صحيح مسلم (٤٦٠)، وابن أبي شيبه (٣٥٦/١).

- ٨- وفي الصحيح وغيره من حديث جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ: (هَلَّا صَلَّيْتَ بِ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ و ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ ^(١) .
وفي لفظ البخاري زيادة ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ^(٢) [العلق: ١].
- ٩- وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في الجمعة ب ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَنَشِيِّ﴾ ^(٣) .
- ١٠- وعن ابن عباس وسمرة بن جندب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ في العيدين ب ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ و ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَنَشِيِّ﴾ ^(٤) .
- ١١- وعن عمران بن حصين رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ صَلَّى الظهر، فلما سَلَّمَ قال: هل قرأ أحد منكم ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ فقال: رجل: أنا، قال: (قد علمت أن بعضكم خالَجَنيها) ^(٥) .
فهذه جملة من الأحاديث تفيد أن من السنة قراءة سورة الأعلى في صلاة الوتر، وفي العيدين، وفي صلاة الجمعة، وفي صلاة الظهر، بالإضافة إلى غيرها.
والسنة إذا التزمها المسلم بصفة دائمة كانت فرضاً، ولكي يُفَرَّقَ بين الفرض والسنة، فإنها تُترك أحياناً حتى لا تُشبه الفرض، وحتى لا يستنكر الناس عدم قراءتها أحياناً، وليستفيد المسلمون من تنوع ما يُقرأ عليهم، وحتى لا يكون الاستماع إليها مجرد عادة مكررة دون الانتباه إليها والتفكير فيها.

(١) صحيح البخاري (٦١٠٦)، وصحيح مسلم (٤٦٥)، وابن أبي شيبة (٣٥٩/١).

(٢) وعند ابن ماجه (٨٣٦)، كما في صحيح سننه (٦٨٢)، وهو في البخاري (٧٠٥)، والنسائي في الكبرى (١١٦٠٣)، والمسند (١٤١٩٠) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه)، وابن حبان (٢٤٠١)، والطيالسي (١٧٢٨)، وعبد ابن حميد (١١٠٢) من طرق أخرى.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٩١٩)، وعن سمرة بن جندب في المسند (٢٠١٦٤) ورجاله ثقات بإسناد صحيح (محققه)، والنسائي (١٤٢١)، وابن خزيمة (١٨٤٧)، وابن حبان (٢٨٠٨)، والطبراني (٦٧٧٥)، والبيهقي (٢٠١/٣)، والشافعي في مسنده (١٤٩/١)، وابن أبي شيبة (١٤٢/٢).

(٤) صحيح سنن ابن ماجه (١٠٦١)، وفي سنن ابن ماجه (١٢٨٣)، والمسند (٢٠٠٨٠) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققه)، والطبراني (٦٧٧٣) ومواضع أخرى .

(٥) مسلم (٣٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٥٧/١)، والبيهقي في السنن (١٦٢/٢).

سُورَةُ الْغَاشِيَةِ (٨٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة الغاشية) هي السورة الثامنة والثمانون في ترتيب المصحف، والسابعة والستون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الذاريات) وقبل (سورة الكهف). وهي ست وعشرون آية باتفاق، واثنان وتسعون كلمة، وثلاث مئة وإحدى وثمانون حرفاً.
- ٢- وشهرتها (سورة الغاشية) كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقرأ بـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ والغاشية، في صلاة العيد ويوم الجمعة^(١). وجاء تسميتها بـ (سورة هل أتاك حديث الغاشية) كما في رواية الموطأ وغيره أن الضحاك بن قيس سأل النعمان بن بشير رضي الله عنه: بم كان رسول الله ﷺ يقرأ في الجمعة مع سورة الجمعة؟ قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾^(٢). وعُنون لها ابن عطية في تفسيره بـ (سورة هل أتاك) اختصاراً. فهذه ثلاثة أسماء أشهرها الأول.
- ٣- وهي سورة مكية باتفاق.
- ٤- وقد اشتملت السورة على موضوعين:

الموضوع الأول: الحديث عن القيامة وأهوالها، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء، وما يلقاه المؤمن من السعادة والهناء.

وقد بدأت السورة برّد العباد إلى الله تعالى وحسابهم، في يوم تغشاهم فيه الداهية العظمى، وتغمرهم بشدائدها، فتغطي أفكارهم وتُدَوِّخُهم، فمنهم أصحاب الوجوه

(١) المسند (٢٧١/٤) (١٨٤٠٩، ١٨٣٨٣) وهو حديث صحيح، وصحيح مسلم برقم (٨٧٨)، وأبوداود

(١١٢٢)، والترمذي (٥٣٣)، وسنن النسائي (١١٢/٣)، وفي الكبرى (١٧٣٨).

(٢) أخرجه مالك (١١١/١)، ومسلم (٨٧٨)، وأبوداود (١١٢٣)، والنسائي (١٤٢٢)، وابن ماجه (١١١٩)،

وسنن النسائي الكبرى (١١٦٠٥، ١٧٤٩).

الكئيبة البائسة المرهقة، وهم في عقاب وخيم، وكرب عظيم، شرايهم ماء حار، يقطع الأمعاء ويشوي الوجوه، وطعامهم لا يسمن ولا يغني من جوع.

ومنهم أصحاب الوجوه الناعمة التي أرزقت ربها في الدنيا، فرضي الله عنها وأرضاها في جنة عالية قطوفها دانية، وهذا من أول السورة إلى الآية السادسة عشرة.

والموضوع الثاني: إقامة أربعة أدلة على وحدانية الله تعالى، وقدرته الباهرة.

وقد ضربت السورة هذه البراهين للرجل الأول الذي نزلت عليه هذه الآيات، فهو رجل بدوي يفرش الأرض، ويلتحف السماء، ويتركب الإبل، ويشرب من ألبانها، ويأوي إلى الجبال والكهوف.

بهذه البيئة الصحراوية خاطب القرآن الناس في عصر التنزيل، ولو خاطبهم بالذرة والفضاء وشبكة المعلومات، وناطحات السحاب، وطائرات التجسس وما إلى ذلك.. لما صدق الناس ذلك.

وفي الأثر عن علي رضي الله عنه موقوفاً عليه: (حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله)^(١).

ويستدل بهذه المخلوقات على أن الذي أوجدها من العدم، قادر من باب أولى على بعثهم بعد الموت.

فهي أدلة أربعة مطلوبة للإيمان بالبعث والنشور، وهذا من الآية السابعة عشرة إلى الآية العشرين.

وهكذا فقد بينت السورة أحوال الكافرين والمؤمنين يوم القيامة، كما لفت أنظار الناس إلى مظاهر قدرة الله تعالى في خلقه، لكي يتفكروا ويتدبروا، فيذكروا أن الخالق لهذا الكون هو المستحق وحده للطاعة والعبادة دون سواه، وأنهم سيعودون إلى ربهم للحساب والجزاء فيجازي كلاً بما قدمت يداه، ومهما طالت الأعمار أو قصرت، فالمصير إلى الله تعالى والمرجع إليه.

(١) صحيح البخاري (١٢٧)، كتاب العلم باب رقم (٤٩).

٥- وبعد هذا الوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، تختم السورة ببيان أن مهمة الرسول ﷺ وجميع الدعاة إلى الله من بعده، أن ينشروا دعوة الله تعالى بين الناس كافة، ليقموا دولة الإسلام على أرض المعمورة، ويحرروا العقول من رق العبودية لغير الله تعالى، وإخراج الخلق من عبادة الناس إلى عبادة رب الناس.

فليست دولة الإسلام دولة جنس ولا لون ولا لغة ولا نسب، ولا دولة تدق أعناق الناس، وتسلب خيراتهم ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (١١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿[الغاشية: ٢١، ٢٢].

ومن لم يتبع دعوة الإسلام من الخلق كافة يعذبه الله تعالى العذاب الأكبر، والمصير العادل إلى الله وحده ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ (١٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿[الغاشية: ٢٥، ٢٦].

وهذا من الآية الحادية والعشرين إلى نهاية السورة.

* * *

سُورَةُ الْفَجْرِ (٨٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الفجر) هي السورة التاسعة والثمانون في ترتيب المصحف، والعاشرة في ترتيب النزول، فهي من أوائل ما نزل من القرآن. نزلت بعد (سورة الليل) وقبل (سورة الضحى).

وعدد آياتها ثلاثون آية عند أهل الكوفة والشام^(١). وهي مئة وتسع وثلاثون كلمة، وخمس مئة وسبعة وتسعون حرفاً. ويقال: سورة ﴿وَالْفَجْرِ﴾ بالواو. وهي سورة مكية.

٢- عن جابر رضي الله عنه قال: صلى معاذ صلاة، فجاء رجل فصلى معه، فطَوَّلَ فصلى في ناحية المسجد، ثم انصرف، فبلغ ذلك معاذاً، فقال: منافق، فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، جئتُ أصلي، فطَوَّلَ عليّ، فانصرفْتُ، فصليتُ في ناحية المسجد، فعلفتُ ناضحي، فقال رسول الله ﷺ: أفتان أنت يا معاذ؟ أين أنت من ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَالْفَجْرِ﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾^(٢).

٣- وقد تحدثت آيات السورة عن ثلاثة أمور:

أولاً: بيان ما حل ببعض الأمم المكذبة لرسول الله من عذاب ونكال، كقوم عاد وثمود وفرعون، مع قوتهم وحضارتهم وطول أعمارهم، وكيف أنّ طغيانهم أوردتهم المهالك، كي يعتبر بهم كل من كذب خاتم الرسل ﷺ من أهل الغرب والشرق، والشمال والجنوب، وقد استغرق ذلك أربعة عشر آية من أول السورة.

(١) وتسع وعشرون آية عند أهل البصرة، واثنان وثلاثون آية في العدد المكي والمدني.

(٢) النسائي في التفسير (٦٩٣)، وفي السنن الكبرى برقم (١١٦٠٩، ٩٠٧، ١١٦٧٣)، والبخاري (٧٠٥)،

وأبوداود (٧٩٣)، والمسند (١٤١٩٠) بنحوه وإسناده صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٢٤٠٤)،

والطيالسي (١٧٢٨)، وعبد بن حميد (١١٠٢)، وجاء هذا الحديث من طرق كثيرة متقاربة الألفاظ.

ثانياً: تحدثت السورة عن طبيعة سيئة في بعض البشر الذين يغتروا بالحاضر وينسون الماضي والمستقبل، ولا يعرفون أن الله تعالى يداول الأيام بين الناس، فكثير منهم ينخدع بيومه الحاضر، فيغتر بغناه، ويجزع من فقره، ولا يدري أنه مُمتَحَن بالخير والشر، والنفع والضرر. إن الله تعالى يتلي بالغنى والفقر، والنصر والهزيمة، ولا يدل أي منهما على الرضى أو السخط من الله تعالى، إنه تقسيم يُمَحِّص الناس، ويحدد منازلهم يوم القيامة، والعاقبة للتقوى.

وقد وقع التفاوت بين أرزاق الناس من بدء الخليقة، ليواسي الغني المحتاج ويفرّج كربته، وليضبر الفقير، ويكافح في طلب الرزق، ويتربى على العفاف، ولا يبكي على دنيا فاته، أو يحسد أحداً على رزق الله له، وقد استغرق هذا المعنى ست آيات من [الآية ١٥-٢٠].

ثالثاً: تحدثت السورة في الآيات العشر المتبقية منها، عن الدار الآخرة وأحوالها وشدائدها، فالناس في الدنيا يلتمسون الحرية فلا يجدونها، ويبحثون عن العدالة فيفتقدونها، ولن يتحقق لهم ذلك إلا في يوم تُدَكُّ فيه الأرض، ويأتي ربك للفصل بين الخلائق، وتأتي الملائكة صفوفاً، وتبرز جهنم للناظرين، ويصيح الإنسان بالندم في يوم لا ينفع فيه الندم، ويكون الناس فريقان: أهل الشقاء، ممن لا يعذب عذابهم أحد، وأهل النفس مطمئنة التي تدخل جنة ربها راضية مرضية..

سُورَةُ الْبَلَدِ (٩٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة البلد) هي السورة التسعون في ترتيب المصحف، والخامسة والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة ق) وقبل (سورة الطارق). وعدد آياتها عشرون آية باتفاق. وهي اثنتان وثمانون كلمة، وثلاث مئة وعشرون حرفاً. سميت (سورة البلد) وترجم لها البخاري بـ (سورة لا أقسم). وهي سورة مكية عند الجمهور.
- ٢- ابتدأت السورة بقَسَمَيْنِ عَظِيمَيْنِ، على أن الله تعالى خَلَقَ الإنسان في شدة وعناء، يحمل أثقال التكاليف الشرعية، ولجام الحلال والحرام، الذي يحجز بينه وبين الشهوات، ولكن الإنسان قد يكفر، ويُنكر البعث والنشور، ويغترّ بما أوتي من جاه ومال وولد، وهو لا يُدرك أنه لا قيمة لهذه الموازين إذا لقي العبد ربه غُرِياناً، لا يكسوه إيماناً ولا صلاحاً، ولا يدري أن الله تعالى سائله عن ماله من أين اكتسبه، وفيم أنفقه؟
- ٣- ثم إن الله تعالى أفاض على الإنسان بنعم كثيرة كالعينين واللسان والشفَتين، فهلاً كسر قيود الكفر والتقليد الأعمى، واقتحم طريقه إلى الله تعالى، بإنفاق الأموال في وجوه الخير، بعد أن يكون مؤمناً متزوداً بصالح الأعمال، متواصياً بالصبر والرحمة، أما من أبى اقتحام العقبة فله عاقبة أخرى!
- ٤- وسورة البلد بيّنت أن الأنبياء العرب كهود وصالح وشعيب، قاموا بواجب الدعوة إلى الله في أطراف الجزيرة شمالاً وجنوباً، حتى جاء خاتم النبيين ﷺ فكوّن من وسط الجزيرة مَنْ حَمَلَ مشاعل العلم والدعوة إلى العالم أجمع.
- ٥ - هذا: والآيات الأربع الأول من السورة، فيها قسم مؤكد على أن الله تعالى خلق الإنسان الكافر في نصب وشقاء ومكابدة في الدنيا والآخرة.

وبقية السورة تصف هذا الإنسان بأوصاف الكفر وتذكره بنعم الله عليه، ولكنه لم يقتحم طريق النجاة، فكان من أصحاب الشمال الذين أطبقت عليهم نار جهنم. أما المؤمن الذي عمل الصالحات وأنفق أمواله في وجوه الخير، وكان من أهل التواصي بالصبر على طاعة الله وعن معاصيه، ومن أهل الرحمة بالناس والشفقة على ضعفائهم، فهو من أهل اليمين السعداء في دار النعيم.

* * *

سُورَةُ الشَّمْسِ (٩١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الشمس) هي السورة الحادية والتسعون في ترتيب المصحف، والسادسة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة القدر) وقبل (سورة البروج). وعدد آياتها ست عشرة آية في المصحف المدني الأول، قيل: والمكي. وخمس عشرة آية في بقية المصاحف. وهي أربع وخمسون كلمة، ومئتان وسبعة وأربعون حرفاً. وهي سورة مكية باتفاق. وتسمى (سورة الشمس) بدون واو، وعنون لها البخاري وغيره بسورة ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾.

موضوع السورة:

تناولت (سورة الشمس) موضوعين، ثانيهما: مَثَلٌ تطبيقي للأول: أما أولهما: فهو موضوع النفس الإنسانية، وما جُبلت عليه من خير وشر، وهُدًى وضلال، وذلك في الآيات العشر الأول منها، حيث أقسم سبحانه سبع مرات متتابعة في الآيات الثمانية الأول: بالشمس وضوئها الساطع، والقمر إذا أعقبها، والنهار إذا جلى ظلمة الليل، وبالليل إذا غطى الكائنات بظلامه، وبالسماء وبناءها بلا عمد، وبالأرض وبسطها، وبالنفس البشرية وما زينها به من الفضائل والكمالات. أقسم تعالى بهذا كله على شيء واحد هو: فلاح من زكى نفسه بالتقوى، وشقاوة من أتبع نفسه هواها، وأخلد إلى الأرض، فأخفى نفسه في المعاصي، ودسها فيها، فأشقاها في دنياها وأخرها. وهذا في الآيات العشر الأول من السورة. وثانيهما: مَثَلٌ لمن أهلك نفسه بالإسفاف والغفلة، فطغى وتجبّر، وخرج عن طاعة الله والرسول، وهذا يتمثل في قصة قوم ثمود لما كذبوا نبيهم صالحاً، وعقروا الناقة التي

هي معجزة الله لرسوله صالح عليه السلام، وقد فَجَرَتْ قَبِيلَةَ ثَمُودَ وَطَغَتْ، فكان عاقبتها أن جعلها الله مثلاً وعبرة لكل فاجر مكذب لله ورسوله، فأَمَسَتْ هَشِيماً تُدَاسُ بِالْأَقْدَامِ، وكان هذا المثل التطبيقي للنفس الشقيّة في الآيات الخمس الأخيرة من السورة. عن أبي بريدة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله كان يقرأ في صلاة العشاء بـ ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ وأشباهاها من السور^(١).

وفي حديث أنس رضي الله عنه أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أطال في صلاته وهو يؤم الناس فقال له النبي صلى الله عليه وآله «أفتان أنت؟ لا تُطَوِّلْ بِهِمْ، اقْرَأْ بِـ ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ ونحوها»^(٢).

إن سورة الشمس من قصار السور، تتضمن معاني وجيزة، وتوجيهات سريعة، ولكنها كافية شافية لمن يُكثر قراءتها في الصلوات الخمس، لتكون زاداً روحياً نافعاً.

* * *

(١) أخرجه أحمد (٢٢٩٩٤) بإسناد قوى ومتن صحيح، كما قال محققوه، وسنن الترمذي (٢٥٤)، والنسائي (٩٩٨)، والبغوي في شرح السنة (٦٠٠)، والنسائي (١٧٣/٢).

(٢) ينظر الحديث بطوله في سنن النسائي الكبرى (١١٦٧٤) والمسند (١٢٢٤٧) بإسناد على شرط الشيخين (محققوه)، وأخرجه الضياء في المختارة، والبخاري (٤٨١)، وعن جابر في المسند (١٤١٩٠)، وهو متفق عليه.

سُورَةُ اللَّيْلِ (٩٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الليل) هي السورة الثانية والتسعون في ترتيب المصحف، والتاسعة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الأعلى) وقبل (سورة القمر). وعدد آياتها إحدى وعشرين آية، باتفاق. وهي إحدى وسبعين كلمة، وثلاث مئة وعشرة أحرف. وتسمى (سورة الليل) بالواو، وبدونها، وعنون لها البخاري والترمذي سورة. ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾

وهي سورة مكية عند الجمهور، وقيل: إن قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ نزلت في أبي الدرداء الأنصاري، فقالوا: إن بعضها مدني، والصحيح أنها مكية خالصة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن هذه السورة نزلت في السماحة والبخل^(١).

موضوع السورة:

١- تُقرر (سورة الليل) حقيقة العمل والجزاء، وأن سعي الإنسان وكفاحه ونضاله في هذه الحياة، ثم نهايته إلى النعيم أو الجحيم، وفيها قسم بالليل حين يُغْطِي العالم بظلامه، وبالنهار وهو يكشف هذه الظلمة، وبخلق الذكر والأنثى، على أن سعي الخلق مختلف، وتوجُّهاتهم متباينة، فمع اختلاف الليل والنهار، يقضي الناس آجالهم، ويصنعون مستقبلهم إما إلى جنة، وإما إلى نار.

فالسعي الصالح يرشِّح صاحبه لمستقبل عظيم، والعمل السيء يمهّد لصاحبه نهاية مُخْزِية. وقد أساء قوم فهم القضاء والقدر، فجمّدوا طاقاتهم، ولاذّوا بالقعود عن العمل، ففشلوا وعجزوا، وفقدوا حاضرهم ومستقبلهم، هذا هو مضمون الآيات الأربع الأولى.

(١) فتح القدير للشوكاني (٥/٤٥١).

٢- وإنفاق المال مع إخلاص النية، والخوف من لقاء الله تعالى، وذم البخل بالمال مع الرياء، وعدم الخوف من لقاء الله تعالى، يرشمان الخط البياني لطالب السعادة وطالب الشقاء، ويُبينان صفات الأبرار والفجار، وكلاهما قد يَسِّر الله له طريق عمله، ووضَّح له طريق الهدى والضلال، وهذا هو مضمون [الآيات: ٥-١٣].

٣- ثم حذرت السورة وأندرت من كَذَب خاتم النبيين ﷺ وكَذَب الكِتَاب الذي نزل عليه، وكَذَب باليوم الآخر، وما فيه من بعث ونشور، فهذا الشقي المعرض عن هداية الله تعالى سوف يصلي ناراً حامية، فيذوق سعيها وجحيمها، أما من آمن بالله ورسوله وكتابه وجنته وناره، وعمل صالحاً، ولم ييخل بماله، وزكى نفسه من الذنوب وطهرها، من الشرك فهو الفائز بالجنة، المبعد عن النار، المَرْضِي عنه يوم لقاء الله تعالى. وبهذين المثليين لأهل الشقاء وأهل السعادة ختمت السورة.

عن جابر بن سَمُرَةَ قال: كان النبي ﷺ يقرأ في صلاة الظهر والعصر بـ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ونحوها^(١).

* * *

(١) ينظر: صحيح مسلم (٤٥٩) والبيهقي في سننه (٣٩١/٢).

سُورَةُ الضُّحَى (٩٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١ - (سورة الضحى) هي السورة الثالثة والتسعون في ترتيب المصحف، والحادية عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفجر) وقبل (سورة الانشراح). وعدد آياتها إحدى عشرة آية باتفاق. وهي أربعون كلمة، ومئة واثنان وسبعون حرفاً. وسميت (سورة الضحى) بإثبات الواو وحذفها. وهي سورة مكية باتفاق، وأول سورة من قصار المفصل.
- ٢ - والسورة تتحدث عن فترة تأخر نزول الوحي على رسول الله ﷺ بعد أن أشاع المشركون الشائعات الكاذبة حول سبب تأخر نزوله، وقد حدث ذلك في أوائل نزول الوحي على رسول الله ﷺ، وكان ذلك لأسباب طبيعية، لأن نزول الوحي على رسول الله ﷺ في أول الأمر، كانت تصحبه معاناة شديدة، بسبب مُلاَقاة المَلَك للبشر، فكان ﷺ يتدثر ويتزمل، ويشتد عليه الأمر، لذلك كان لابد من الاستجمام والراحة بعض الوقت، ليستأنف النزول بعدها، وقد حدث هذا مرة أو مرتين، وكان من آمن بالنبي ﷺ وقتئذ أفراد يُعَدُّون على الأصابع، وتتابع الوحي، واتسعت دائرة الدعوة بعد ذلك.
- وفي هذا الصدد يقسم تبارك وتعالى مرتين - لأن الخطاب لقوم مشركين منكرين للرسالة - على أنه سبحانه لم يهجر محمداً ﷺ ولم يَغْضُه كما زعموا، بل هو عنده رفيع القدر، جليل الشأن، ثم يشره بالعطاء الجزيل في الآخرة، ويذكره بما أنعم عليه في الصغر: من اليتيم، والفقر، والفاقة، والحيرة، فأواه ربه وأغناه، وأحاطه بعنايته ورعايته، فلا مجال للقول بالبغض أو الهجر.
- ثم إن الله تعالى وصّى نبيه ﷺ مقابل هذه النعم: أن يعطف على اليتيم، وأن يرحم المسكين، ويمسح دموعه البائس الفقير، ويتحدث بفضل الله عليه.

أسباب النزول:

أ - في الصحيحين وغيرهما عن جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال: دَمِيتُ إصْبَعُ رسول الله ﷺ فاشتكى، فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة، فقالت: يا محمد، إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أَرُهْ قَرَبَكَ منذ ليلتين أو ثلاث، فأنزل الله **﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝١﴾**.

والمرأة هي: أم جميل بنت حرب، زوج أبي سفيان.

فقد أخرج الحاكم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: لما نزلت **﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ إِلَى قَوْلِهِ: ۝٢ وَأَمْرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۝٣ فُقِيلَ لَامْرَأَةٍ أَبِي لَهَبٍ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ هَجَاكَ، فَأَتَتْ رسول الله ﷺ وهو جالس في الملاء، فقالت: يا محمد، علام تهجونني؟ قال: (إني والله ما هجوْتُك، ما هجَاكَ إلا الله) فقالت: هل رأيتني أحمل حطباً، أو رأيت في جيدي حبلاً من مسد؟ ثم انطلقت، فمكث رسول الله ﷺ أياماً لا ينزل عليه، فأثته فقالت: ما أرى صاحبك إلا وقد ودَّعَكَ وقلاك، فأنزل الله **﴿وَالضُّحَىٰ ۝١ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝١﴾**.**

ب - وفي رواية الترمذي عن جندب أيضاً من طريق ابن عيينة قال: كنت مع النبي ﷺ غازياً، فدَمِيتُ إصبعه، فقال: هل أنتِ إلا إصْبَعُ دَمِيتُ، وفي سبيل الله ما لقيتُ، قال: فأبطأ عليه جبريل، فقال المشركون: وُدَّعَ محمد، فأنزل الله:

(١) صحيح البخاري برقم (١١٢٥، ٤٩٥٠، ٤٩٨٣)، وصحيح مسلم برقم (١٧٩٧)، والمسند (١٨٧٩٦، ١٨٨٠٤)، والترمذي (٣٣٤٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١١٦١٧)، والطبراني في الكبير (١٧٠٩، ١٧١١)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٦٥)، وابن حبان (٦٥٦٥).

(٢) المستدرک (٥٢٦/٢)، وهو في البخاري (٤٩٥١)، ومسلم (١٧٩٧)، وأخرجه أحمد مختصراً في المسند (١٨٧٩٦) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، و(١٨٨٠١، ١٨٨٠٤) بأطول منه.

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾^(١).

قال الخازن: فلما نزل جبريل عليه السلام، قال محمد ﷺ: يا جبريل ما جئت حتى اشتقت إليك، فقال جبريل: إني كنت إليك أشد شوقاً، ولكنني عبد مأمور، ونزل: ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾^(٢) [مريم: ٦٤].

هذا: واحتباس الوحي عن النبي ﷺ وقع مرتين: أولاهما: كان بعد نزول سورتين أو ثلاث من القرآن. وفي هذه المرة خشي الرسول ﷺ أن يكون الوحي قد انقطع عنه، فرأى ﷺ جبريل عليه السلام على كرسي بين السماء والأرض.

وقيل: إن الوحي انقطع هذه المرة أربعين يوماً، وكان ذلك قبل أن يقوم الليل بالقرآن في مبدأ نزول الوحي، فلم يشعر بها المشركون.

وثانيهما: بعد نزول نحو ثماني سور من القرآن الكريم، وكان احتباس الوحي في هذه المرة اثني عشر يوماً، رفقاً بالنبي ﷺ كي تستجم نفسه، ويتعود على تحمّل أعباء الوحي. والظاهر أن هذه السورة (الضحى) نزلت بعد المرة الثانية التي فتر بعدها الوحي، بعد

(١) قال الترمذي: حديث حسن صحيح (٣٣٤٥) وفيه: كنت مع النبي ﷺ في غار، ولكن جندباً كان من صغار الصحابة، فلم يتفق له أن يكون مع النبي ﷺ في غار، قال أهل العلم: فلعلها تصحيف، وأن أصلها (كنت غازياً) كما أثبتّها في النص، والحديث في المسند (٨٧٩٧، ١٨٨٠٧)، بإسناد صحيح على شرط الشيخين، دون ذكر: كنت مع النبي ﷺ غازياً (محققوه)، وأخرجه الترمذي في الشمائل (٢٤٤)، بهذا الإسناد وأخرجه الطيالسي (٩٣٨)، والطحاوي في شرح المشكل (٣٣٣١)، والطبراني في الكبير (١٧٠٤)، وسعيد بن منصور (٢٨٤٦).

ومما قيل في أسباب النزول: أن تأخر جبريل كان بسبب وجود كلب صغير تحت سرير النبي ﷺ، قال ابن حجر في الفتح (٥٤٥/٨): في إسناده من لا يُعرف، وهو مردود بما جاء في الصحيح، وورد أن احتباس الوحي كان بسبب سؤال اليهود للنبي ﷺ عن ذي القرنين، وأصحاب الكهف، والروح، فقال: سأخبركم غداً، ولم يقل: إن شاء الله فاتحسب الوحي، وهذا أيضاً ليس سبباً لنزول السورة، لبعدهما بين القصتين في الزمان.

(٢) تفسير الخازن (٣٨٥/٤).

أن أخذ ﷺ يقوم الليل، وشعر به المشركون^(١).

التكبير في قصار المفضل:

٤- أما مسألة التكبير من أول أو آخر سورة الضحى التي قرأ بها الإمام ابن كثير من القراء السبعة وغيره، فإن هذا التكبير لم يرد في حديث صحيح.

ومن ذلك ما أورده ابن كثير في تفسيره، فهو غير صحيح، ولم يرد التكبير عن جمهور القراء، وقال به بعض الشافعية والحنابلة، ولم يقل به الحنفية والمالكية، وليس لأئمة الفقه مذهب فيما يتعلق بالقرآن.

هذا وقد ورد التكبير من طريق التلقي عن عشرات من أهل الأداء، عن ابن كثير المكي من أئمة القراءة، من آخر الضحى، أو أولها، كما ورد التهليل قبله والتحميد بعده.

ولم يرد التكبير عن غير المكيين من القراء من طريق صحيح، ومنهم حفص، والقراءة سنة متبعة تؤخذ عن طريق الرواية المتواترة، ولا تثبت القراءة بالحديث.

وقد ذكر ابن الجزري ثلاثين اسماً ممن رَوَوْا التكبير عن البزي في سور الختم، وهو أحد راويي ابن كثير المكي.

فالتكبير في آخر السورة بدءاً من سورة الضحى عند المكيين صح عن القراء بطريق التلقي، وكذا التهليل قبله والتحميد بعده.

وروى التكبير عن جميع القراء بين جميع السور من طريق طيبة النشر في القراءات العشر^(٢).

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٣٩٦/٣٠).

(٢) ينظر هذا البحث في كتابي فن الترتيل وعلومه، الجزء الثاني والحديث الذي أخرجه الحاكم في شأن التكبير (٣٠٤/٣) للإمام ابن الجزري، والبيهقي في الشعب (٢٠٧٩) غير صحيح، وينظر النشر في القراءات العشر.

سُورَةُ الشَّرْحِ (٩٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الشرح) هي السورة الرابعة والتسعون في ترتيب المصحف، والثانية عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الضحى) وقبل (سورة العصر). وعدد آياتها ثمانى آيات، باتفاق، وهي سبع وعشرون كلمة، ومئة وثلاثة أحرف. وهي سورة مكية باتفاق، وتسمى سورة: الشرح، والانشراح، وألم نشرح. ٢- وتتناول (سورة الشرح): مكانة الرسول العالية، ومقامه الرفيع، وما حباه الله به من شرح صدره بالإيمان، وتنوير قلبه بالقرآن، وتطهير ذنوبه وأوزاره، وتبيين رفعة مقامه في الدنيا والآخرة، وإعلاء منزلته في العالمين، وتبشيره بقرب الفرج والنصر، وتيسير العسير من الشدائد التي يلاقيها في سبيل الدعوة. وفي سورة الشرح أمر للنبي ﷺ ولأئمة بأن العبد إذا فرغ من عمله للدنيا، فليُنصَب في عبادة ربه، وكل هذا من باب إزالة الهم، ورفع الحرج عن النبي ﷺ. والسورة توحى بأن النبي ﷺ كان متأثراً مما قاله المبطلون في شأن تأخر نزول الوحي عنه، وأنه كان مُثْقَلًا بهموم الدعوة، فأراد الله سبحانه أن يخفف عنه العبء ويؤنسه ويطمئنه. والاستفهامات التي بدأت بها هذه السورة، تَكْمِلَةٌ للاستفهام المتتابع الذي خُتمت به السورة السابقة.

معجزة شق الصدر:

معجزة شق صدر النبي ﷺ وقعت له ثلاث مرات:

أ- شق صدر النبي ﷺ وهو طفل مسترضع في بني سعد:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله

في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (مرضعته) فقالوا: إن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره^(١).

ب - شق صدره ﷺ ليلة الإسراء والمعراج:

وعن مالك بن صعصعة ؓ أن النبي ﷺ قال: «بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان، إذ سمعتُ قائلاً يقول: أحد بين الثلاثة، فأتيْتُ بطست من ذهب، فيها ماء زمزم، فشرح صدري إلى كذا وكذا.

قال قتادة: قلت لأنس بن مالك: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطني، فاستُخرج قلبي، فغُسل بماء زمزم، ثم أعيد مكانه، ثم حُشي إيماناً وحكمة..»^(٢).

ج - شق صدره ﷺ وهو في الحادية عشرة من عمره:

وعن أبي بن كعب أن أباهريرة ؓ كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله، ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً وقال: «لقد سألت أباهريرة، إني لفي صحراء، ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان، حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مساً، فقال: أحدهما لصاحبه: أضجعه، فأضجعاني بلا قضر ولا هضر، فقال أحدهما لصاحبه: إفلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقها فيما أرى، بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغلّ

(١) صحيح مسلم برقم (١٦٢)، وصحيح البخاري (٣٥٧٠)، وعن قتادة (٧٥١٧، ٤٩٦٤).

(٢) قال أبو عيسى في سنن الترمذي: هذا حديث صحيح (٣٣٤٦)، وهو في المسند (١٧٨٣٣-١٧٨٣٧) بإسناد صحيح، ورجال ثقات، كما قال محققوه، والبخاري (٣٤٣٠، ٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤)، والنسائي (٤٤٧)، وفي الكبرى (٣١٣).

والحسد، فأخرج شيئاً كهية العلقة، ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة، ثم هزّ إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغدُ واسلم، فرجعتُ بها أعدوا، رقة على الصغير، ورحمة للكبير»^(١).

وهكذا جاءت روايات مختلفة في زمان ومكان معجزة شق الصدر، وكلها كانت بمكة:

١ - فقد شق صدر النبي ﷺ وهو مسترضع عند حليلة السعدية، كما سبق بيانه، مما جعلها تسارع بعودته إلى أهله.

٢ - وشق صدره ﷺ وهو ابن عشر سنين، كما في رواية عبد الله بن أحمد، وهي الرواية السابقة.

٣ - وشق صدره ليلة المعراج، كما في رواية مالك بن صعصعة. وهو شقٌ بدني لإعداد النبي ﷺ لأعباء الرسالة ولقاء الوحي وغزو الفضاء، واستخراج حظ الشيطان منه.

وفي عصر إجراء العمليات بالمنظار والليزر والليزك ونحو ذلك، ما يُقَرَّب ما جاءت به الأحاديث في موضوع شق الصدر، وهو من المعجزات الخارقة للعادة الخاصة برسول الله ﷺ.

* * *

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائد المسند (١٣٩/٥)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٢٢٢/٨): رجاله ثقات، وثقهم ابن حبان، وقد ضعف إسناده محققو المسند (٢١٢٦١)، لأن فيه مجهولاً، محمد بن معاذ ابن محمد بن أبي، وكذلك أبوه معاذ، وأخرجه ابن حبان (٧١٥٥)، والضياء المقدسي (١٢٦٢)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١٦٦)، والحاكم (٥١٠/٢)، وللحديث شواهد.

سُورَةُ التِّينِ (٩٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

أ- (سورة التين) هي السورة الخامسة والتسعون في ترتيب المصحف، والثامنة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة البروج) وقبل (سورة قريش). وعدد آياتها ثمانى آيات، باتفاق.

وهي أربع وثلاثون كلمة، ومئة وخمسة أحرف.

وهي سورة مكية، وسميت سورة التين بالواو، وبدونها.

ب - أقسم الله تعالى بأربعة أيمان متتابعة، هي الأماكن المشرفة التي خص الله بها بعض رسله بنزول الوحي عليهم وهي:

١- جبل الجودي، حيث كان يكثر التين فيه، وهذا إشارة إلى رسالة نوح عليه السلام.

٢- ثم أقسم بالزيتون، إشارة إلى بيت المقدس حيث رسالة عيسى عليه السلام.

٣- ثم أقسم سبحانه بجبل طور سيناء، موضع رسالة موسى عليه السلام.

٤- ثم أقسم بالبلد الأمين، مكة المكرمة، إشارة إلى رسالة خاتم الأنبياء ﷺ.

وجواب هذه الأيمان الأربعة، هو أن الله تعالى خلق الإنسان في أحسن صورة، وقامة معتدلة، واستقامة فطرة، ومع الحفاظ على هذه الفطرة يبقى الإنسان على الصلاح والتقوى.

أما إذا جفَّ الإيمان، وابتعد صاحبه عن الفطرة، فإنه يتكس ويتردى في الهاوية.

وفي هذا توبيخ للكافر على إنكار وحدانية الله تعالى، وإنكار البعث والنشور، بعد إقامة دلائل التوحيد وبراهين البعث.

وبعد الله تعالى في يوم الدين وغيره، يثيب المؤمنين ويعاقب الكافرين.

فبعد أن أشارت السورة إلى أماكن أكبر الرسالات السماوية، واشترакها في أصول الشرائع، يبيّن أن الله تعالى خلق الإنسان على الفطرة المستقيمة، ليعلم أن الإسلام هو دين

الفطرة كما قال تعالى: ﴿فَأَفْتَدِ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وما يخالف ذلك فساد وضلال.

ج - عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: (كان النبي ﷺ في سفر، فصلى العشاء، فقرأ في إحدى الركعتين بـ ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾ فما سمعت أحداً أحسن صوتاً، ولا قراءةً منه^(١). وعن عبد الله بن يزيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ في المغرب ﴿وَالَّذِينَ وَالَّذِينَ﴾^(٢).

د - فموضوع السورة التين: هو أن الله تعالى يقسم أربعة أيمان، على أنه خلق الإنسان مستعداً بفطرته إلى قبول الإيمان والاستقامة عليه، فإن هو عطل فطرته وأفسدها بتأثير العوامل الخارجية، فإنه يتردّى ويتكس إلى الدرك الأسفل من النار، أما المؤمنون العاملون للصالحات المؤمنون بالبعث والنشور، فأجرهم عند الله عظيم، والله سبحانه سوف يحكم يوم القيامة بين من آمن ومن كفر، ومن أطاع أو عصى، فيجازي كلاً بما يستحق.

* * *

(١) صحيح البخاري برقم (٧٦٧، ٤٩٥٢، ٧٥٤٦)، وصحيح مسلم (٤٦٤)، ومالك (٧٩/١)، وابن أبي شيبة (٣٥٩١/١)، وأبوداود (١٢٢١)، والترمذي (٣١٠)، والنسائي (٧٠٢)، وابن ماجه (٨٣٤، ٨٣٥)، ومسنند أحمد (١٨٦٣٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وانظر (١٨٥٦٦، ١٨٥٠٣).

(٢) ابن أبي شيبة (٣٥٨/١) في المصنف، وعبد بن حميد (٤٩٢) منتخب، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١١٨/٢)، قال الهيثمي: فيه جابر الجعفي، وثقه شعبة وسفيان، وضعفه بقية الأئمة.

سُورَةُ الْعَلَقِ (٩٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة العلق) هي السورة السادسة والتسعون في ترتيب المصحف، والأولى في ترتيب النزول، بمعنى أن الآيات الخمس الأولى منها هي أول ما نزل من القرآن مطلقاً، وفيها الأمر بالنبوة، وقد نزل بقية السورة بعد ذلك.

ثم أرسل ﷺ بعد ذلك بنزول سورة المدثر، وهي أول سورة نزلت بعد فترة الوحي الأولى وفيها الأمر بالرسالة.

ونزلت (سورة الضحى) بعد فترة الوحي الثانية.

أما أول سورة كاملة نزلت فهي (سورة الفاتحة).

٢- وسورة العلق تسع عشرة آية في المصحف الكوفي والبصري، والحمصى، وعشرون آية في المصحف المكي والمدني، وثمانية عشرة آية في المصحف الدمشقي. وهي اثنتان وتسعون كلمة، ومئتان وثمانون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق.

٣- وتسمى سورة العلق، وسورة اقرأ، أو ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ وسماها ابن عطية وأبو بكر ابن العربي (سورة القلم) أما السورة التي سميت بهذا الاسم فسميهاها (سورة ن). فهذه أربعة أسماء لها.

٤- وتحدثت سورة العلق عن بدء نزول الوحي على رسول الله ﷺ والحث على طلب العلم والتعلم من أول لحظة نزل فيها القرآن، ولفتت النظر إلى أصل خلق الإنسان، وذكر اسم الله تعالى على كل شيء.

وبينت السورة موقف الطغاة، وأهل الثروات، وأصحاب الجاه، من الدعوات الإلهية في كل زمان ومكان.

وضربت مثلاً على ذلك بأبي جهل - فرعون هذه الأمة - الذي وقف في وجه

الدعوة، ينهى عن المُضَيِّ فيها، ويتهدّد ويتوعّد، فتوعّده الله تعالى، وتوعّد أمثاله بالنهاية المخزية الأليمة، وأمر رسوله ﷺ أن يستمر في دعوته وطاعته لربه، وألا يأبه به وبأمثاله، فإن الله تعالى مؤيده وناصره، وهكذا شأن الدعاة إلى الله تعالى.

٥- وخُتِمت السورة بوعيد الطغاة بأشد العقاب إذا استمروا على ضلالهم وطغيانهم. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كانت ﴿أَقْرَأُ بِأَسِيرِكَ﴾ أول سورة أنزلت على محمد ﷺ^(١). وعن عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه قال: آخر كلام كلمني به رسول الله ﷺ إذ استعملني على الطائف أن قال: (خَفِّفِ الصَّلَاةَ عَلَى النَّاسِ) حتى وقَّت لي ﴿أَقْرَأُ بِأَسِيرِكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ وأشباهاها من القرآن^(٢).

فموضوع سورة العلق : يدور على بدء نزول الوحي على النبي محمد ﷺ، وبيان أن الدعوة إلى الله يقف في وجهها الطغاة والجبابرة في كل زمان ومكان، وعلى الدعاة إلى الله أن يَمْضُوا في طريقهم وأن يصبروا على أذاهم، فإن الله تعالى لهم بالمرصاد وسوف يعاقبهم على سوء صنيعهم، وهذا المثل التطبيقي لمحاربة الدعوة استغرق بقية السورة بعد الآيات الخمس الأول منها.

سبب النزول:

في الصحيحين عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بُدِئ به من الوحي، الرؤيا الصادقة في النوم، فكان ﷺ لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو في غار حراء، يتحنّث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله، ويتزوّد لذلك، ثم يرجع إلى خديجة، فيتزوّد لمثلها.

حتى جاءه الوحي وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارىء، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني

(١) ابن أبي شيبة (٥٤٢/١٠)، والحاكم (٢٢٠/٢)، وأبي نعيم في الحلية (٢٥٦/١)، والطبراني كما في مجمع الزوائد (١٣٩/٧)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

(٢) أخرجه ابن سعد (٥٠٩/٥)، وهو عند أحمد في المسند (١٧٩/٦) برقم (١٧٩١٦)، قال محققوه: إسناده قوي، وانظر (١٧٩١٤).

فغطني الثانية، حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة بنت خويلد، فقال: زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع، ثم قال لخديجة: أي خديجة، ما لي، وأخبرها الخبر، قال: لقد خشيت على نفسي.

قالت له خديجة: كلا، أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن عم خديجة، وكان أمراً قد تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً قد عمي، فقالت له خديجة: أي ابن عم، اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: (يا ابن أخي، ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أو أخرجني هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك، أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم يلبث ورقة أن توفي، وفتر الوحي).

زاد في رواية: حتى حزن النبي ﷺ حزناً، غدا منه مرارا كي يتردى من رؤوس شواهد الجبال، فكلما أوفى بذروة جبل لكي يلقي نفسه منه، تبدى له جبريل، فقال له: (يا محمد، إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، فيرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فيتبدى له جبريل)^(١).

قلت: وهذه الزيادة من بلاغات الزهري وهي واهية ليست بشيء^(٢).

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (١٦٠)، وصحيح البخاري برقم (٦٩٨٢، ٤٩٥٣، ٣٣٩٢)، والمسند (٢٣٢/٦) برقم

(٢٥٨٦٥، ٢٥٢٠٢، ٢٥٩٥٩)، وعبد الرزاق في المصنف (٩٧١٩)، والبيهقي في الدلائل (١٣٥/٢) وغيرهم.

(٢) ينظر: ما قاله محققو المسند في الجزء (٤٣) ص (١١٤) عند الحديث (٢٥٥٩).

نزول الوحي في غار حراء غير مجرى التاريخ:

كان النبي ﷺ يذهب إلى غار حراء بين الحين والحين، يخلو بنفسه بعيداً عن لَغَطِ الجاهلية، يعبد الله تعالى على الحنيفية السمحة - ملة إبراهيم عليه السلام - ويتأمل في هذا الكون الفسيح، يستشعر اليقين والخشوع أمام مبدع هذا الملكوت، لقد كان يَزْدَرِي الأصنام وعبادتها، ويكره ما يراه من مراسم وتقاليد جاهلية، ولكنه لا يملك لهم شيئاً، ولا يعرف أكثر مما ترفضه فطرته.

وبينما هو يتعبد في غار حراء بجبل النور في الليلة المباركة، وهي ليلة القدر من شهر رمضان، إذ نزل عليه جبريل عليه السلام بعد بلوغ النبي ﷺ الأربعين من عمره، وكان مع جبريل نمط من ديباج فيه كتاب، وطلب من النبي ﷺ أن يقرأ، فقال عليه السلام: أنا أُمِّي، لا أعرف القراءة، ويتكرر هذا ثلاث مرات، وفي كل مرة يضمه جبريل إليه برفق، مُدْخِلاً الطمأنينة والسرور على نفسه، ثم يقرأ عليه الآيات الخمس الأول من السورة .

وفيها بيان أن الله تعالى الذي خلق الإنسان من علق، قادر على أن يجعل هذا الأُمِّي عالماً عِلْمَ الأولين والآخرين، ولم يكن النبي ﷺ يتطلع إلى وحي أو رسالة، ولكنه فوجيء بذلك، ولم يكن له علم بالقراءة والكتابة كما قال تعالى: ﴿ قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِّن قَبْلِهِ مِّن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

وقال جل شأنه: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّن أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِّن عِبَادِنَا ﴾ [الشورى: ٥٢].

ولما نزل الوحي على رسول الله ﷺ غير مجرى التاريخ، وحول عقائد البشر وأخلاقهم، وعاش أهل الأرض في كنف الله ورعايته بتوجيه من الوحي الإلهي لهم بواسطة رسوله ﷺ وكان الصحابة يتوقعون في كل لحظة نزول جبريل عليه السلام، ويترقبون ما ينزل به، وظل

الوحي يتنزل ثلاثة وعشرين عاماً على رسول الله ﷺ أقام النبي خلالها دولة الإسلام، كانت الأرض أثناءها موصولة بالسماء، وآيات الله تنزل فيهم، تنقلهم خطوة خطوة من أحوال الجاهلية إلى الإسلام.

عرف الصحابة رضوان الله تعالى عليهم مذاق هذه الفترة، وأدركوا حلاوتها، وشعروا بقيمتها. ولما انتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وانتهت هذه الفترة، كان لذلك وقع شديد على نفوسهم لا يكاد العقل يتصوره:

عن أنس ؓ قال: قال أبو بكر لعمر، رضي الله عنهما، بعد وفاة النبي ﷺ: انطلق بنا إلى أم أيمن - حاضنة النبي ﷺ - نزورها، كما كان رسول الله ﷺ يزورها، فلما أتينا إليها، بكت، فقالا لها: (ما يُبكيك؟ أما تعلمين أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ قالت: بلى، إني لأعلم أن ما عند الله خير لرسول الله ﷺ ولكني أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَى الْبُكَاءِ، فَجَعَلَا يَبْكِيَانِ مَعَهَا^(١).

وتأثير هذا الوحي في البشر قائم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

طلب العلم هو المطلب الأول في الإسلام:

ولأمر هام كانت أول كلمة نزل بها الوحي على محمد ﷺ: الأمر بالقراءة والكتابة، لعلها لمحو الأمية التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي، والإشارة إلى أن طلب العلم هو المطلب الأول في الإسلام.

ولذا: قدم الله تعالى العلم على العمل في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

وجعل العلماء في المرتبة الثالثة بعد الله تعالى وملائكته في قوله تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

وبيّن سبحانه أن العالم والجاهل لا يستويان، فقال سبحانه: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ

وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

وبمعرفة العلم الشرعي والعلم التجريبي المرتبط بالخالق المبدع، تشتد معرفة العبد لربه، وخشيته منه سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨].

فقد جاءت هذه الآية بعد ذكر علم النبات، وعلم الأرض، والجبال والناس والدواب. والذي عنده علم من الكتاب وهو من الإنس، تفوق بعلمه على العفريت من الجن في الإتيان بعرش (بلقيس) مَلِكَة سبأ في طُرْفَة عين، بدلاً من نصف يوم. ومن سلك طريقاً يبتغي به علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة. والملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع.

والعلم هو ميراث محمد ﷺ فمن أخذه أخذ بحظ وافر، وساعة علم خير من عبادة سنة في نوافل العبادة.

ولقيمة العلم في الإسلام أقسم الله سبحانه بحروف الهجاء، وأقسم بأداة الكتابة وهي القلم، وأقسم بالكتابة نفسها فقال: ﴿تَ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١] كما أقسم سبحانه بالورق الذي يُستعمل في الكتابة فقال: ﴿وَكُنْتُمْ مَسْطُورِينَ﴾ (٢) فِي رَقٍّ مَشْهُورٍ [الطور: ٢ - ٣] والرق: هو الورق المفتوح للاطلاع والقراءة.

لابد من ربط العلوم التجريبية بخالق الكون:

والإنسان يبذل السبب في طلب العلم، ويُسند تحصيله إلى الله تعالى، فهو جل شأنه مصدر العلم، ومنه يُستمد، وهو الذي يعلم الإنسان ما لم يعلم، وكل علم غير متصل بالله تعالى لا خير فيه، وقد يضرُّ أكثر مما ينفع، فدراسة الطب لابد فيها من الربط بالخالق، وكذا الأدوية، والكيمياء، والإحياء، والحاسوب، والهندسة، والجيولوجيا، وعلم النفس والحيوان والنبات، وحسابات البنوك والشركات، والأمن الداخلي والخارجي للبلاد، وكذا العلاقات الداخلية والخارجية، والشرطة وحراسة الحدود، وما إلى ذلك، كل ذلك، لابد فيه من ربط علومه بخالق الكون، ودراسته على ضوء حكم الإسلام وتكييفه لها، فإذا دُرست هذه العلوم وغيرها على هذا النحو، فلن تجد في العالم مُلْحِداً، ولا علمانياً، ولا حائر متردداً بين الحل والحكمة في معاملات البنوك، وهكذا.

والدراسة على هذا النحو لا تكلفنا إلا تجريدتها من النظريات البحتة الغربية، وربطها

بالشرع، واتصالها بخالق الكون.

هذا: ولأن علم الأجنة أول العلوم التي تصل المخلوق بالخالق، لأن فيه أطوار خلق الإنسان وتكوينه ونشأته.. كان هذا العلم هو أول العلوم التي لفت القرآن النظر إليها في كونه سبحانه خلق الإنسان من علق، ودعا إلى التأمل في هذا الخلق، فقال:

﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

ولأن جميع العلوم لا بد أن ترتبط في دراستها برب هذا الكون، كانت أول لفظة وجه الوحي أنظارنا إليها هي قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ فأمر الله نبيه أن يبدأ قراءته باسم الله، وليس باسم مخترع الكهرباء ولا باسم رائد الفضاء، ولا باسم مخترع شبكة المعلومات، ولا باسم الشعب، ولا باسم الأمة.

ولأن فوق كل ذي علم عليم، والعلم كله مستمد من الله تعالى، ويوجد من علوم الغيب والكون، ما لا قبل لنا به إلا عن طريق الوحي، فإن الله تعالى وضح للإنسان هذا الأمر من أول لحظة، فأخبره بأنه جل شأنه علمه ما لم يعلم.

وأتى بوصف الربوبية، وهو الأليق في هذا المقام، لأنها تعني صفة الخلق، فهو سبحانه ﴿نَبِّ الْأَنِيمِ﴾ خالقهم ومربيهم بنعمه.

ولم يأت أمر القراءة بوصف الألوهية، إنما جاء باسم الرب، الذي ربي خلقه بنعمه (اقرأ باسم ربك) لأن المقام مقام خلق وُضِع وإبداع، وليس مقام عبودية وتوحيد.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

ولم يدع أحد من الخلق أنه خلق شيئاً في الكون، لا يوجد خلق بدون خالق.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

والمشركون كانوا يعترفون بأن الله تعالى هو الخالق الرازق، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] قال سبحانه: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ [النحل: ٧٨].

ولا فرق بين الرجل والمرأة في طلب العلم والتعلم.

استهلال السورة وافتتاح الأعمال والأقوال بذكر الله:

لقد كان افتتاح نزول الوحي على رسول الله ﷺ (باسم الله) وهذا منهج رباني يتعلم منه المسلم أن يبدأ كل شؤونه باسم الله، لا باسم الأمة، ولا باسم الشعب، ولا باسم الوطن، ولا باسم فلان.. ولا باسم مذهب من المذاهب، ولا نحو ذلك بل ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾ وحمده والثناء عليه، ابدأ كل تصرفاتك: أقوالها وأفعالها باسم الله وبحمده، ومن ذلك بعض ما علّمنا إياه رسول الله ﷺ:

- ١ - فكان إذا استيقظ من نومه قال: «الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور»^(١).
- ٢ - قالت عائشة رضي الله عنهما: وكان إذا هب من الليل، كبر عشراً، وحمد عشراً، وقال: سبحان الله وبحمده عشراً، وقال: سبحان الملك القدوس عشراً، واستغفر عشراً، وهلل عشراً، ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا، وضيق يوم القيامة، عشراً، ثم يستفتح الصلاة»^(٢).
- ٣ - قالت: وكان إذا استيقظ من الليل قال: «لا إله إلا أنت سبحانك، اللهم أستغفرك لذنبي، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب»^(٣).
- ٤ - وفي الحديث أن من استيقظ من الليل فقال: «لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، الحمد لله، وسبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، ثم قال: اللهم اغفر لي - أو دعاء آخر - استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»^(٤).

(١) من حديث حذيفة وأبي ذر والبراء بن عازب في البخاري (٦٣١٢، ٦٣١٤، ٦٣٢٥)، والترمذي (٤٣٠١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٦)، والمسند (١٢٦٦، ١٨٦٠٣، ٢٣٤٥٩).

(٢) أخرجه أبو داود (٥٠٨٥)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٧١)، وفي السنن (٢٠٩/٣)، و(٢٨٤/٨)، وفي سننه عمر بن جُعْثُم قال في التقريب: مقبول.

(٣) أبو داود (٥٠٦١) عن عائشة، وفي سننه عبد الله بن الوليد، لئن الحديث، وأخرجه النسائي في عمل اليوم والليلة (٨٦٥).

(٤) رواه البخاري برقم (١١٥٤) عن عبادة بن الصامت.

٥ - وقال ابن عباس رضي الله عنهما ليلة مَبِيته عند النبي ﷺ: إنه لما استيقظ رفع رأسه إلى السماء وقرأ العشر الأواخر من سورة آل عمران: ﴿إِن فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠] ثم قال: (اللهم لك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والنبون حق، ومحمد حق، والساعة حق، اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبأت، وبك خاصمت، وإليك حاكمت، فاغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت إلهي، لا إله إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم^(١)).

٦ - وقالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ إذا قام من الليل قال: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، إهديني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تحكم وتهدي من تشاء إلى صراط مستقيم^(٢)».

٧ - وكان ﷺ إذا أوتر ختم وتره بقوله: «سبوح قدوس رب الملائكة والروح»^(٣) ثلاثاً ويقول: «سبحان الملك القدوس»^(٤) ثلاثاً، ويمدّ صوته بالثالثة.

٨ - وكان ﷺ إذا خرج من بيته قال: «بسم الله، توكلت على الله، اللهم إني أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي»^(٥).

٩ - وفي الحديث عن أنس ؓ: «من قال إذا خرج من بيته: باسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: كُفيت، ووُقيت، وهُديت وتنحى عنه الشيطان».

(١) من حديث ابن عباس في مسلم (٧٦٩)، والبخاري (١١٢٠، ٦٣١٧، ٧٣٨٥، ٧٤٤٢، ٧٤٩٩).

(٢) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٧٧٠).

(٣) من حديث عائشة في صحيح مسلم (٤٨٧).

(٤) من حديث أبي بن كعب عند أبي داود (١٤٢٣)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٢٩) وغيرهما بإسناد صحيح.

(٥) من حديث أم سلمة عند أبي داود (٥٠٩٤)، والترمذي (٣٤٢٧)، والنسائي (٥٤٨٦)، وابن ماجه (٣٨٨٤) وهو في المسند (٢٦٦١٦) بإسناد ضعيف لعدم سماع الشعبي وهو عامر بن شراحيل من أم سلمة (محققه).

- زاد أبوداود: فيقول الشيطان لشيطان آخر: «كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووقي»^(١).
- ١٠ - وكان ﷺ إذا خرج إلى صلاة الفجر قال: «اللهم اجعل في قلبي نوراً، واجعل في لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أمامي نوراً، ومن فوقي نوراً، ومن تحتي نوراً، اللهم أعظم لي نوراً»^(٢).
- ١١ - ومن دخل المسجد فقال: «أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، قال الشيطان: حُفظ مني سائر اليوم»^(٣).
- ١٢ - وفي الحديث أيضاً «إذا دخل أحدكم المسجد، فليُصَلِّ وليُسَلِّم على النبي ﷺ وليُقُل: اللهم افتح لي أبواب رحمتك» فإذا خرج فليُقُل: «اللهم إني أسألك من فضلك»^(٤).
- وفي لفظ آخر أن النبي ﷺ كان إذا دخل المسجد صَلَّى على محمد ﷺ ثم يقول: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي أبواب رحمتك» فإذا خرج صَلَّى على محمد ﷺ ثم يقول: «اللهم اغفر لي ذنوبي، وافتح لي باب فضلك»^(٥).
- ١٣ - وكان ﷺ إذا صلى الصبح جلس في مُصَلَّاه حتى تطلع الشمس يذكر الله عز وجل، ثم يصلي ركعتين^(٦).

(١) من حديث أنس عند أبي داود (٥٠٩٥)، والترمذي (٣٤٢٦) وقال: حديث حسن صحيح، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٨٩) بسند صحيح.

(٢) من حديث سلمة بن كهيل عن كُريب عن ابن عباس في مسلم (٧٦٣)، والبخاري (٤٥٦٩، ٦٢١٥، ٧٤٥٢).

(٣) من حديث عبد الله بن عمرو في سنن أبي داود (٤٦٦) بإسناد جيد.

(٤) رواه مسلم من حديث أبي حميد أو أبي أسيد (٧١٣) بنحوه، وفي المسند (١٦٠٥٧) بإسناد على شرط مسلم، وأخرجه ابن حبان (٢٠٤٩)، وأبو عوانة (٤١٤/١)، وعبد الرزاق في المصنف (١٦٦٥) وغيرهم بزيادة أو نقص «فليُصَلِّ وليُسَلِّم».

(٥) ينظر: حديث أبي حميد أو أبي أسيد في صحيح مسلم (٧١٣)، وأبي داود (٤٦٥)، والنسائي (٧٢٩)، وابن ماجه (٧٧٢) وغيرهم كما في الحديث السابق.

(٦) رواه مسلم (٦٧٠) بنحوه، وأحمد عن جابر بن سمرة (٢١٠٣٧، ٢٠٨٢٠) بإسناد حسن دون أن يصلي ركعتين، وابن خزيمة (٧٥٧)، والطيالسي (٧٥٨).

١٤ - وكان ﷺ إذا أصبح يقول: «اللهم بك أصبحنا، وبك أمسينا، وبك نحيا، وبك نموت، وإليك النشور» وإذا أمسى قال: «اللهم بك أمسينا وبك أصبحنا وبك نحيا وبك نموت وإليك النشور»^(١).

١٥ - وفي لفظ مسلم عن ابن مسعود (أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، رب أسألك خيراً ما في هذه الليلة، وخيراً ما بعدها، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة، وشر ما بعدها، رب أعوذ بك من الكسل، وسوء الكبر، رب أعوذ بك من عذاب في النار، وعذاب في القبر، وإذا أصبح قال: ذلك أيضاً: أصبحنا وأصبح الملك لله.. الخ)^(٢).

١٦ - ولما سأل أبو بكر رسول الله ﷺ أن يأمره بكلمات يقولهن في الصباح والمساء قال: قل: «اللهم فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، رب كل شيء ومليكه، وأشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر نفسي، وشر الشيطان وشركه، وأن أقترب على نفسي سوءاً، أو أجره على مسلم، قال: إذا أصبحت وإذا أمست، وإذا أخذت مضجعتك»^(٣).

١٧ - وكان ﷺ إذا لبس شيئاً جديداً يقول: «اللهم لك الحمد، أنت كَسَوْتَنِي، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره، وشر ما صنع له»^(٤).

١٨ - وكان ﷺ إذا رجع إلى بيته قال: «الحمد لله الذي كفاني وآواني، والحمد لله الذي أطعمني وسقاني، والحمد لله الذي منّ عليّ، أسألك أن تُجيرني من النار»^(٥).

(١) من حديث أبي هريرة عند أبي داود (٥٠٦٨)، والترمذي (٣٣٨٨)، وابن ماجه (٣٨٦٨) بأسانيد صحيحة.

(٢) صحيح مسلم عن ابن مسعود برقم (٢٧٢٣).

(٣) رواه أحمد (٦٣، ٨١، ٥١) بإسناد صحيح ورجالة ثقات، وأبو داود (٥٠٦٧) والترمذي (٣٣٩٢).

(٤) من حديث أبي سعيد الخدري عند أبي داود (٤٠٢٠)، والترمذي (١٧٦٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣٠٩)، وإسناده صحيح.

(٥) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عند ابن السني (١٥٧)، وهو حديث حسن بشواهد كما في صحيح مسلم بمعناه عن أنس برقم (٢٧١٥) وعند ابن أبي شيبة والبزار عن عبد الرحمن بن عوف.

١٩ - وكان إذا دخل الخلاء يقول: «اللهم إني أعوذ بك من الخبث والخبائث»^(١).
وإذا خرج قال «الحمد لله الذي أذهب عني الأذى وعافاني»^(٢).

٢٠ - وكان إذا وضع يده في الطعام قال: باسم الله، ويقول: إذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله تعالى، فإذا نسي أن يذكر اسم الله في أوله فليقل: «باسم الله في أوله وآخره»^(٣).
وهكذا: فكتب الأذكار مليئة بمثل هذا في كل تصرف وكل حالة من حياة الإنسان.

مُصَادَرَةُ الدَّعْوَةِ مِنْ غَيْرِ الْمُسْلِمِينَ مِنْذُ فَجْرِ الرِّسَالَةِ:

يوجد في كل زمان ومكان من يضدّ الناس عن دين الله، ومن يقف في وجه الدعوة، ويؤذي الدعاة إلى الله تعالى، والأمثلة على ذلك قائمة مدى التاريخ، ومنها الحروب الصليبية المعروفة في السابق، والحروب الصهيونية الصليبية في العصر الحاضر.
وفي أول سورة نزلت من كتاب الله تعالى ذِكْرٌ لوقوف أول طاغية في وجه الإسلام، وصده صاحب الدعوة عن المضي في دعوته، بل ومنعه له من القيام بأداء الشعائر والعبادات، وتهيج الناس عليه، وقيامهم بالتجسس عليه لإيذائه ومنعه من العبادة، وهذه هي الحادثة الأولى في تاريخ الإسلام، وتتمثل في تصدي أبي جهل لرسول الله ﷺ لمنعه من القيام بالدعوة إلى الله تعالى، ومن عبادة ربه.

وقد استغرق هذا المثل، سورة العلق كلها، بعد الآيات الخمس الأول منها.
وكان الله تعالى يوجّه الأنظار في باكورة الدعوة، إلى أن الإسلام سيجد من يحاربُه ويقف في وجهه، ويمنع الناس من ممارسته، ويُعزِّق خطاه ليُحوّل دون وصوله إلى الناس.
وسوف أذكر هنا ما جاء في هذه الآيات من الأحاديث الصحيحة الموضحة لهذه

(١) من حديث أنس وهشيم في مسلم (٣٧٥)، وفي البخاري (٢٣٢٢، ١٤٢).

(٢) من حديث أنس في سنن ابن ماجه (٣٠١، ٣٠٠)، وبزيادة لفظ «غفرانك» في الأول عن عائشة عند أبي داود (٣٠)، والترمذي (٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٩)، وصحيح ابن ماجه (٢٤٤)، وصحيح أبي داود (٢٣).

(٣) من حديث أمية بن مَحْشِي الصحابي عند أبي داود (٣٧٦٨) والنسائي في عمل اليوم والليلة (٢٨٢)، وصحيح أبي داود (٣٢٠٢)، وصحيح ابن ماجه (٣٢٦٤).

المعاني، وهي تبين أسباب النزول، وتبين حماية الله تعالى للدعوة وصاحبها ﷺ:

١ - في صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة ؓ قال: قال أبو جهل: هل يُعَفِّرُ محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته! أو لأعقرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليظاً على رقبته، قال: فما فَجَّهْتُمْ منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي يديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخذقاً من نار، وهولاً وأجنحة، فقال: رسول الله ﷺ: «لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفْتُهُ الْمَلَائِكَةُ عَضُوءاً عَضُوءاً» قال: فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٌ﴾ (١).

٢ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمر به أبو جهل بن هشام، فقال: (يا محمد، ألم أنهك عن هذا؟ وتوعدده، فأغلظ له رسول الله ﷺ وانتهره، فقال: يا محمد، بأي شيء تهددني، والله إني لأكثر هذا الوادي نادياً؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ﴾ قال ابن عباس: لو دعا نادية لأخذته ملائكة العذاب من ساعته) (٢).

٣ - وفي رواية أخرى: أن أبا جهل قال: لئن رأيت رسول الله يصلي عند الكعبة لأتيته حتى أطا على عنقه، قال: فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لو فعل لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمتوا الموت لماتوا ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ لرجعوا لا يجدون مالاً ولا أهلاً» (٣).

(١) ينظر: صحيح مسلم برقم (٢٧٩٧)، وصحيح البخاري (٤٩٥٨)، وتفسير الطبري (١٦٥/٣٠)، وعبد الرزاق (٣٨٤/٢)، والمسند (٣٧٠/٢)، والنسائي الكبرى برقم (١١٦٨٣)، وأبونعيم في الدلائل (١٥٨)، والبيهقي في الدلائل (١٨٩/٢).

(٢) المسند (٣٢٩/١) برقم (٣٠٤٤، ٢٣٢١) بإسناد صحيح (محققه)، وسنن الترمذي برقم (٣٣٤٩) وقال: حسن صحيح، وتفسير الطبري (١٦٤/٣٠)، وابن أبي شيبة (٢٩٨/١٤)، والطبراني (١١٩٥٠)، والبيهقي (١٩٢/٢)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٦٨)، والنسائي في الكبرى (١١٦٨٤).

(٣) المسند (٢٤٨/١) برقم (٢٢٢٥)، وقد أخرج البخاري إلى قوله (عيانا) (٤٩٥٨)، والترمذي (٣٣٤٩، ٣٣٤٨)، والنسائي في الكبرى (١٠٩٩٥، ١١٦٢٠، ١١٦٢١)، وعبد الرزاق (٣٨٤/٢)، والطبري (٥٣٩/٢٤)، وأبونعيم (١٥٦)، والبيهقي (١٩١/٢).

سُورَةُ الْقَدْرِ (٩٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة القدر) هي السورة السابعة والتسعون في ترتيب المصحف، والخامسة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة عبس) وقبل (سورة الشمس)، على القول بأنها سورة مكية.

وبعد سورة المطففين وقبل (سورة البقرة)، على القول بأنها سورة مدنية. والجمهور على أنها مكية، وقال الواقدي: هي أول سورة نزلت بالمدينة. وسورة القدر خمس آيات في العدد المدني والبصري والكوفي، وست آيات في العدد المكي والشامي. وهي ثلاثون كلمة، ومئة واثنان عشر حرفاً.

٢ - وهي السورة التي تتحدث عن ليلة الاتصال بين الأرض والسماء، وتتناول الحدث الجليل الذي لم تشهد البشرية مثله، وهو نزول القرآن على خاتم النبيين ﷺ. وتشير السورة إلى الفيوضات الإلهية التي تتجلى في هذه الليلة المباركة من نزول الملائكة، وعلى رأسهم أمين الوحي جبريل عليه السلام، وتقرر أنها ليلة سلام وأمان إلى طلوع الفجر، فهي الليلة التي يتم فيها تقدير الأمور، وتدبير أحوال العباد من كل عام، بإيجادها في أيدي الملائكة الموكلة بها، وإظهارها لهم، ومن عظيم قدر هذه الليلة أنها أفضل عند الله تعالى من ألف شهر ليس فيها ليلة القدر.

وموضوع السورة: هو نزول القرآن الكريم في هذه الليلة المباركة، وبيان منزلتها وفضلها على سائر الليالي، وأن الملائكة تنزل فيها بالخيرات والرحمات وعلى رأسهم جبريل عليه السلام، وأنها ليلة سلام وأمان حتى مطلع الفجر.

٢ فضل ليلة القدر وإحيائها بالعبادة:

ورد في فضل ليلة القدر - فيما اطلعت عليه - اثنان وعشرون حديثاً، منها ما جاء:
أ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(١).

ب - وعنه ﷺ أنه: لما حضر رمضان قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، تفتح فيه أبواب الجنة، وتغلق فيه أبواب الجحيم، وتغلّ فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم»^(٢).
ج - وعن عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله ، إنّ وافقتُ ليلة القدر فما أدعو، قال: قل: «اللهم إنّك عفو تحب العفو، فاعف عني»^(٣).

د - وكان ﷺ يجاور العشر الأواخر من رمضان، ويقول: «تحرّوا ليلة القدر في الوتر من العشر الأواخر من شهر رمضان»^(٤) والمجاورة هي الاعتكاف في المسجد للطاعة والعبادة.
هـ - وكان ﷺ إذا دخل العشر الأواخر، أحيا الليل، وأيقظ أهله، وجدّ، وشد المئزر^(٥).

(١) صحيح البخاري برقم (٣٥٠١٩٠١)، وصحيح مسلم برقم (٧٦٠)، والبيهقي (٣٠٦/٤).

(٢) رواه أحمد (٢٣٠/٢) برقم (٩٤٩٧، ٧١٤٨)، وهو حديث صحيح، وإسناد رجاله ثقات رجال الشيخين (محققو المسند)، وسنن النسائي (١٢٩/٤) برقم (٢١٠٥)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي (١٩٩٢)، وهو عند ابن أبي شيبة (١/٣)، وأخرجه عبدالرزاق (٨٣٨٣)، وابن ماجه (١٦٤٢)، وابن خزيمة (١٨٨٣) وغيرهم.

(٣) رواه أحمد (٢٥٣٨٤، ٢٥٤٩٥) بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققو المسند)، وأخرجه البيهقي في الشعب (٣٧٠٢)، وسنن الترمذي (٣٥١٣)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٢٤، ٧٦٦٥)، وابن ماجه (٣٨٥٠).

(٤) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٠٢٠، ٢٠١٧)، وصحيح مسلم برقم (١١٦٩)، والمسند (٢٤٢٩٢، ٢٤٢٣٣)، والترمذي (٧٩٢)، وابن أبي شيبة (٥١١/٢).

(٥) من حديث عائشة في صحيح البخاري برقم (٢٠٢٤)، وصحيح مسلم برقم (١١٧٤)، والمسند (٢٤١٣١)، وابن حبان (٣٢١)، وأبوداود (١٣٧٦)، وابن ماجه (١٧٦٨)، وابن أبي شيبة (٧٧/٣).

و - وكان ﷺ يجتهد في العشر ما لا يجتهد في غيرها^(١).

ز - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أيضاً أن النبي ﷺ قال: «من صام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه»^(٢).

ح - وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده^(٣).

مما ورد في تعيين ليلة القدر:

أ - عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً من أصحاب النبي ﷺ أُرُوا ليلة القدر في المنام، في السبع الأواخر، فقال ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر»^(٤).

ب - وفي لفظ لابن عمر أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «إن ليلة القدر في السبع الأواخر»^(٥).

ت - وعن ابن سلمة قال: سألت أباسعيد - وكان لي صديقاً - فقال: اعتكفنا مع النبي ﷺ العشر الأوسط من رمضان، فخرج ليلة عشرين فخطبنا، وقال: «إني أريت ليلة القدر، ثم أنسيتهما - أو نسيتهما - فالتمسوها في العشر الأواخر من الوتر، وإني أريت أنني أسجد في ماء وطين، فمن اعتكف معي فليرجع، فرجعنا، وما نرى في السماء قرعة، فجاءت

(١) صحيح مسلم برقم (١١٧٥) عن عائشة، وابن أبي شيبة (٥١٥/٢)، والنسائي في الكبرى (٣٣٧٦)، وابن ماجه (١٧٦٧)، والترمذي (٧٩٦)، والمسنند (٢٤٩١٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٢٠١٤، ٣٥)، ومسلم (٧٦٠)، والبيهقي (٣٠٦/٤).

(٣) من حديث عائشة في البخاري برقم (٢٠٢٦)، ومسلم برقم (١١٧٢).

(٤) صحيح البخاري برقم (٢٠١٥، ١١٥٨)، وصحيح مسلم برقم (١١٦٥)، والموطأ (٣٢١/١)، والبيهقي (٣١٠/٤)، والمسنند (٤٤٩٩)، وابن حبان (٣٦٧٥).

(٥) مسلم (١١٦٥، ٢٠٦)، وأبوداود (١٣٨٥)، والنسائي في الكبرى (٣٣٨٦)، والمسنند (٤٨٠٨)، وابن حبان (٣٦٨١).

سحابة، فَمَطَرْتُ حتى سال سقف المسجد، وكان من جريد النخل، وأقيمت الصلاة، سورة القدر: في تعيين ليلة القدر في الماء والطين، حتى رأيت أثر الطين في جبهته»^(١).

ث - وفي رواية عند مسلم وغيره أن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (اعتكف رسول الله ﷺ في العشر الأول من شهر رمضان، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، فاعتكف العشر الأوسط، واعتكفنا معه، فأتاه جبريل فقال: إن الذي تطلب أمامك، ثم قام النبي ﷺ خطيباً صبيحة عشرين من رمضان، فقال: «من اعتكف معي فليرجع، فإنني رأيت ليلة القدر، وإنني أنسيتها، وإنها في العشر الأواخر في وتر، وإنني رأيت كأنني أسجد في ماء وطين» - وكان سقف المسجد جريداً من النخل - وما نرى في السماء شيئاً، فجاءت قزعة فَمَطَرْنَا، فصلى بنا النبي ﷺ حتى رأيت أثر الماء والطين على جبهة رسول الله ﷺ تصديق رؤياه»^(٢).

ج - وفي لفظ (في صبح إحدى وعشرين) بدل (ليلة عشرين).
قال أبو سعيد الخدري (بُصِرْتُ عينا رسول الله ﷺ على جبينه وأنفه أثر الماء والطين من صبح ليلة إحدى وعشرين)^(٣)

ح - وفي سنن الترمذي وغيره أن زَرَّ بن حُبَيْش قال لأبي بن كعب: إن أخاك عبد الله ابن مسعود يقول: من يقيم ليلة الحول يُصِيبُ ليلة القدر، فقال: يغفر الله لأبي عبد الرحمن، لقد علم أنها في العشر الأواخر من رمضان، وأنها ليلة سبع وعشرين، ولكنه أراد ألا يتكل الناس، ثم حلف لا يستثنى أنها ليلة سبع وعشرين، قلت له: بأي شيء تقول ذلك

(١) صحيح البخاري برقم (٢٠١٦)، وفي صحيح مسلم برقم (١١٦٧).

(٢) صحيح مسلم برقم (١١٦٧)، وصحيح البخاري برقم (٨٣٦، ٨١٣، ٦٦٩)، والمسند (١١٠٣٤)، والموطأ (٣١٩/١)، وابن ماجه (١٧٧٥)، وابن أبي شيبة (٧٦/٣).

(٣) ينظر: البخاري (٢٠١٦، ٤٠٢٠)، ومسلم (٢١٣-٢١٦)، وأبوداود (١٣٨٢)، وابن ماجه (١٧٧٥)، والنسائي في الكبرى (٦٨٦)، والمسند (١١٠٣٤)، وابن حبان (٣٦٨٤).

يا أبا المنذر؟ قال: بالآية التي أخبرنا رسول الله ﷺ أو بالعلامة: أن الشمس تَطْلُع يومئذ لا شُعاع لها^(١).

سورة القدر: في تعيين ليلة القدر

خ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان»^(٢).

د - وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «التمسوا ليلة القدر آخر ليلة من رمضان»^(٣).

ذ - وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوا ليلة القدر، ليلة سبع وعشرين»^(٤).

ر - وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «التمسوها في العشر الأواخر من رمضان، ليلة القدر، في تاسعة تبقى، في سابعة تبقى، في خامسة تبقى»^(٥).

ز - وعن عبد الله بن أنثيس أنه سئل عن ليلة القدر فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «التمسوها الليلة» وكانت الليلة: ليلة ثلاث وعشرين^(٦).

س - وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ ليُخبرنا بليلة القدر، فتلاحى رجلان من المسلمين، فقال: «خرجتُ لأخبركم بليلة القدر، فتلاحى فلان وفلان، فزُفِعَتْ، وعسى أن يكون خيراً لكم، فالتمسوها في التاسعة والسابعة والخامسة»^(٧).

(١) قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (٢٣٥١)، وأخرجه ابن أبي شيبة (٧٦/٣)، والمسند (٢١١٩٠، ٢١٢٠٩)، ومسلم (٧٦٢)، وأبوداود (١٣٧٨)، والنسائي في الكبرى (٣٤٠٨، ٣٤٠٦)، وابن حبان (٣٦٨٩)، والبيهقي (٣١٢/٤).

(٢) ابن أبي شيبة (٥١١/٢)، وهو عند مسلم (١١٦٥) وهذا لفظه.

(٣) ينظر: صحيح ابن خزيمة (٢١٨٩)، ومحمد بن نصر (ص ١٠٦)، وقال الألباني: حديث صحيح وهو في صحيح الجامع (١٢٥١).

(٤) المسند (٤٨٠٨) قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه عبد بن حميد (٧٩١) منتخب.

(٥) صحيح البخاري برقم (٢٠٢٢، ٢٠٢١)، وأبوداود (١٣٨١)، والبيهقي (٣٦٨٠).

(٦) ينظر: صحيح مسلم (١١٦٨)، وابن خزيمة (٢١٨٥)، والمسند (١٦٠٤٤-١٦٠٤٦)، وابن أبي شيبة (٥١٤/٢)، وينحوه عند مالك (٣٢٠/١)، والبيهقي في الشعب (٣٦٧٥).

(٧) صحيح البخاري برقم (٤٩، ٢٠٢٣، ٦٠٤٩)، والمسند (٣٤٠/٣٧)، وابن أبي شيبة (٥١٤/٢)، والبيهقي (٣١١/٤)، وفي الشعب (٣٦٧٩)، والطيالسي (٥٧٧) بإسناد صحيح.

والتلاحي هو الخصام والتزاع.

سورة القدر: في تعيين ليلة القدر العبد ليحرم الرزق بالذنوب يصيبه^(١).

وقوله ﷺ: (فرفعت) أي رفع تعيين وقتها، لا أنها رُفعت بالكلية.

وقوله ﷺ: «وعسى أن يكون خيراً لكم» لأنها إذا كانت غير مُعَيَّنة اجتهد الناس في الطاعة، لعلهم يصادفونها.

وعلى هذا: فليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وهي في ليالي الوتر منه أقرب، وفي ليلة السابع والعشرين أرجح، وعليه أقسم أبي بن كعب كما في صحيح مسلم وغيره^(٢).

ولكن ليلة السابع والعشرين ليست واحدة في جميع بلاد العالم، نتيجة اختلاف طلوع القمر وغيابه، فإن مطالع الهلال مختلفة، لاسيما بين البلاد المتباعدة، مختلفة الأطوال. وعليه: فإن ليلة القدر ليست ليلة معينة مطَّردة في كل السنين، وفي كل البلاد، بل هي تنتقل من عام إلى عام، ومن بلد إلى بلد، فقد تكون في عام ليلة واحد وعشرين من رمضان، وفي عام آخر تكون ليلة ثلاث وعشرين، وفي عام ثالث تكون ليلة تسع وعشرين، وهكذا، وقد تكون في ليالي الشفع من العشر الأواخر أيضاً. كما في الأثر عن أبي سعيد وبلال (ليلة القدر ليلة أربع وعشرين)^(٣).

(١) المسند (٢٢٣٨٦، ٢٢٤٣٨) بإسناد ضعيف لأن فيه عبدالله بن أبي الجعد، متكلم فيه، وابن ماجه (٤٠٢٢، ٩٠)، وابن حبان (٨٧٢)، وفي إسناده ضعف، وقد ورد بأطول من هذا بزيادة «ولا يرد القدر إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر» وإسناده حسن دون هذه الجملة.

(٢) صحيح مسلم برقم (٧٦٢)، والمسند (٢١١٩٠)، وأبوداود (١٣٧٨)، والترمذي (٧٩٣)، والنسائي في الكبرى (٣٤٠٦).

(٣) مسند الطيالسي برقم (٢١٦٧) عن أبي سعيد مرفوعاً، وفي الطبراني (١١٠٢)، والمسند (١٢/٦) عن بلال برقم (٢٣٨٩٠) وإسناده ضعيف، لأن فيه ابن لهيعة.

ولعل ليلة القدر التي نزل فيها القرآن على النبي ﷺ كانت ليلة أربع وعشرين من شهر رمضان:

كما جاء عن واثلة بن الأسقع أن النبي ﷺ قال: «أنزلت صحف إبراهيم في ثلاث مَضِين من رمضان، وأنزل إنجيل عيسى في ثلاث عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل زبور داود في ثماني عشرة ليلة مضت من رمضان، وأنزل سورة القدر: مناسبة السورة لما قبلها الرابعة والعشرين، لست بَقِين»^(١).

وإذا كان القرآن قد نزل في ثلاث وعشرين سنة، فإن صحف إبراهيم، والتوراة والإنجيل والزبور، نزل كل منها على النبي الذي أنزلت عليه جملة واحدة.

﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا بِهِ فُؤَادُكَ وَرَزَقْنَاهُ تَرْيَلًا﴾ [الفرقان: ٣٢].

مناسبة السورة لما قبلها:

سورة العلق تسع عشرة آية، وسورة البينة ثماني آيات، وقد وُضعت بينهما سورة القدر، وهي خمس آيات، وكأن العلة في ذلك هي: عَوْدُ الضمير في ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ إلى القرآن الذي ابتدأ نزوله بسورة العلق، ولذلك فقد بدأت سورة القدر بضمير العظمة في ﴿أَنزَلْنَاهُ﴾ واستُعْنِيَ به عن الاسم الظاهر، إشارة إلى أن القرآن حاضر في الذهن، سبق ذكره في أول سورة نزلت، بحيث لا يحتاج إلى إعادة.



(١) صححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٥٧٥)، وصححه الجامع الصغير برقم (١٥٠٩)، وصححه البنا في الفتح الرباني عن الإمام أحمد (٤٦/١٨)، وهو في المسند (١٦٩٨٤)، وقال محققوه: حديث ضعيف، تفرد به عمران القطان، وهو مما لا يحتمل تفرده، قلنا وبقية رجال الإسناد ثقات رجال الشيخين، قلت: إن عمران القطان قال عنه أحمد وابن معين: صالح الحديث، وقال عنه البخاري: صدوق يهيم، فلعله كما قال الشيخ الألباني والبنا، وأخرجه الطبراني في الكبير (١٨٥/٢٢)، وفي الأوسط (٣٧٥٢)، والبيهقي في الشعب (٢٢٤٨)، وفي السنن (١٨٨/٩)، والأسماء والصفات (ص ٢٣٣)، وابن عساكر وغيرهم.

سُورَةُ الْبَيِّنَةِ (٩٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة البينة) هي السورة الثامنة والتسعون في ترتيب المصحف، وواحد بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الطلاق) وقبل (سورة الحشر)، وكان ذلك في آخر سنة ثلاث أو أول سنة أربع هجرية.

و(سورة البينة) تسع آيات، في العدد البصري والشامي، وثمانى آيات في غيرهما، وهي أربع وتسعون كلمة، وثلاث مئة وتسعة وتسعون حرفاً، وهي سورة مدنية على الأرجح. والمشهور أنها تُسمى (سورة البينة) وذكر لها أسماء أخرى منها: ١- ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كما جاء في حديث أبي، ٢- و(سورة لم يكن) ٣- و(سورة القيمة). ٤- و(سورة أهل الكتاب)، ٥- و(سورة الانفكاك) فهذه ستة أسماء، أشهرها الأول. قال الألوسي: وتسمى سورة القيامة، وسورة البلد، وسورة المنفكين، وسورة البرية، فهذه أربعة أسماء أخرى. ومجموعها عشرة أسماء.

موضوع السورة:

١ - تقرر (سورة البينة) أن بعثة النبي ﷺ كان لابد منها، لتحويل الكفار - من: اليهود والنصارى وعبداء الأوثان والأصنام - عما هم فيه من الضلال والكفر والاختلاف إلى التوحيد والهداية، ولكنهم بعد أن جاءهم خاتم الرسل ﷺ بأوصافه وعلاماته التي عرفوها في كتبهم، وبعد أن سطع لهم الحق، وظهرت أنواره، كفروا به وكذبوه حسداً له، وعناداً وتكبراً بعد طول انتظار لمجيئه ﷺ.

فهم لم يختلفوا في شأن محمد ﷺ عن جهل وغموض، وإنما اختلفوا فيه بعدما جاءهم العلم الواضح أنه رسول الله.

وفي هذا توبيخ لهم على إصرارهم على الضلال، بعدما تبين لهم الحق، وتعجب من

تناقض أحوالهم، وفيه بيان أن كفرهم لم يكن لجهلهم بالحق وإنما لعنادهم وجحودهم وحسدهم للنبي ﷺ على ما آتاه الله من فضله، ولكي يسجل الله عليهم أنهم شرّ البرية، وأن المؤمنين هم خير البرية.

٢ - ثم تبين آيات السورة أن أصل هذا الدين واحد، وقواعده ليس فيها اختلاف، فقد أمر الله العباد كلهم في مختلف الشرائع بإخلاص العبادة له وحده، والتوجه إليه سبحانه بجميع الطاعات من الأقوال والأفعال.

٣ - وذكرت آيات السورة أن الذين كفروا بخاتم النبيين بعدما جاءتهم البينة، هم شر الخليقة، وجزاؤهم نار جهنم يخلّدون فيها، وقد كذّبتهم آيات السورة في دعواهم أن الله تعالى قد أوجب عليهم التمسك بما هم عليه من الباطل.

وبينت الآيات أن الذين آمنوا وتزوّدوا بالعمل الصالح، هم خير الخليقة، وأنهم يوم القيامة مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، جزاء طاعتهم وإخلاصهم لله تعالى. يأمر الله رسوله أن يقرأ سورة البينة على أبي بن كعب:

١ - عن أنس بن مالك ؓ أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَا يَكْفُرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: وسَمَّاني لك؟ قال: نعم، فبكى»^(١).

٢ - وفي لفظ آخر عن معاذ بن أبي عن أبيه عن جده عن أبي بن كعب ؓ أن النبي ﷺ قال: «يا أبا المنذر، إني أمرت أن أعرض عليك القرآن» قال: بالله آمنت، وعلى يدك أسلمت، ومنك تعلّمت، قال: فردّ النبي ﷺ القول، فقال: يا رسول الله، أذكّرتُ هناك؟ قال: «نعم، باسمك ونسبك في الملاء الأعلى» قال: فأقرأ إذا يا رسول الله^(٢).

(١) صحيح البخاري برقم (٣٨٠٩، ٤٩٥٩)، ومسلم برقم (٧٩٩، ١٢٢، ٤٩٦١)، والمسند (١٣٠/٣)

(٢) بإسناد صحيح على شرط الشيخين، وابن حبان (٧١٤٤)، والترمذي برقم (٣٧٩٢)،

والسنن الكبرى (١٤٠٣٢، ١٢٣٢٠)، وابن سعد (٣٤٠/٢)، والضياء في المختارة برقم (١١٦٢)، قال

محققه: إسناده صحيح، وقد أورد ابن كثير في تفسيره عدة طرق لهذا الحديث وكذا محققو المسند.

(٢) المعجم الكبير للطبراني (٢٠٠/١) وإسناده ضعيف.

٣ - وعن مالك بن عمرو بن ثابت الأنصاري قال: لما نزلت ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال جبريل: يا رسول الله، إن ربك يأمرك أن تُقرئها أبيّاً، فقال النبي ﷺ لأبي: «إن جبريل أمرني أن أقرئك هذه السورة؟» قال أبي: وقد ذكرتُ ثم يا رسول الله؟ قال: «نعم» فبكى أبي^(١).

٤ - وجاء في بعض الروايات أن أبي بن كعب قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إني أمرت أن أقرأ عليك سورة كذا وكذا» قلت: يا رسول الله، وقد ذكرتُ هناك؟ قال: «نعم» فقال (عبد الرحمن بن أنزى): فَفَرِحْتَ بذلك يا أبا المنذر؟ قال: وما يمنعني، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(٢) [يونس: ٥٨].

٥ - وعن الربيع بن أنس قال: قرأت القرآن على أبي العالية، وقرأ أبو العالية على أبي بن كعب قال: وقال أبي: قال لي رسول الله ﷺ: أمرت أن أقرئك القرآن، قلت: أو ذكرتُ هناك؟ قال: نعم، فبكى أبي قال: فلا أدري شوقاً أو خوفاً^(٣).

والمقصود من قراءة النبي ﷺ على أبي، أن يتعلم منه أبي صحة الأداء وحسن التلاوة، وضبط الألفاظ، لأن الله تعالى كان يُعَدُّ أبيّاً ليكون أقرأ الأمة كما يتضح هذا المعنى جلياً في الحديث الخامس في قوله (أمرت أن أقرئك القرآن).

وحتى لا يستنكف صاحب الرتبة العالية أن يقرأ على من دونه، وفي ذلك تشريف لأبي، ورفع لمنزلته.

* * *

(١) المسند (٤٨٩/٣) (١٦٠٠٠، ١٦٠٠١)، والطبراني (٣٢٧/٢٢) (٨٢٣)، وابن أبي شيبة (١/٥٢٠)، قال محققو

المسند: صحيح لغيره وهو عن أبي حبة البدر، وفيه ابن جدعان وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح.

(٤) المسند (١٢٣/٥) رقم (٢١١٣٧، ٢١١٣٦، ٢١١٣٢) وهو حديث صحيح، أخرجه الطيالسي (٥٤٥)، وأبو

داود (٣٩٨١)، وابن أبي شيبة (١٠/٥٦٤)، والبخاري في (خلق أفعال العباد) (٥٣٦)، والنسائي في

الكبرى (٧٩٩٨).

(٥) قال محققو المسند عند الحديث رقم (٢١١٣٦): وهذا إسناد حسن، وأخرجه الطبراني في الكبير (٥٣٩)،

وفي الأوسط (٤٤٧).

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ (٩٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الزلزلة) هي السورة التاسعة والتسعون في ترتيب المصحف، والرابعة والتسعون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة النساء) وقبل (سورة الحديد). وعددها ثمانين آيات في العدد الكوفي والمدني الأول، وتسع آيات عند غيرهما. وهي خمس وثلاثون كلمة، ومئة وتسعة وأربعون حرفاً. وتشتهر بأنها (سورة الزلزلة) وورد لها الأسماء التالية: (سورة إذا زلزلت) في كتب السنة و(سورة الزلزال) في بعض كتب التفسير و(سورة زلزلت) في مصحف كوفي قديم، وعند السيوطي وابن عطية، فهذه أربعة أسماء أشهرها الأول. وهي من السور المختلف في أنها مكية أو مدنية، ولكنها تُشبه القرآن المكي.

في فضل السورة:

١- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: أقرئني يا رسول الله: قال: (اقرأ ثلاثاً من ذوات الرائ) فقال الرجل: كبر سني، واشتد قلبي، وغلظ لساني، قال: (اقرأ ثلاثاً من ذوات حم) فقال مثل مقالته الأولى، فقال: (اقرأ ثلاثاً من المسبحات) فقال مثل مقالته الأولى وقال: ولكن أقرئني يا رسول الله سورة جامعة، فأقرأه ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ حتى فرغ منها، قال الرجل: والذي بعثك بالحق لا أريد غيرها، - وفي لفظ - لا أزيد عليها، ثم أدبر فقال ﷺ: «أفلح الرُّؤِينِجِل، أفلح الرُّؤِينِجِل»^(١).

(١) المسند (١٦٩/٢) (٦٥٧٥) بإسناد حسن (محققه)، وأبوداود برقم (١٣٩٩)، والنسائي في الكبرى برقم (١٠٥٥٢، ١٠٤٨٤، ٨٠٢٧)، وفي السنن (٢١٢/٧)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، المستدرک (٥٣٢/٢)، وهو عند البيهقي في الشعب برقم (٢٢٨٢)، والطبراني في الكبير (١٥٨)، وقد ضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود (١٣٠٠).

٢- وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل من أصحابه: (هل تزوجت يا فلان؟) قال: لا، والله يا رسول الله، ولا عندي ما أتزوج به، قال: (أليس معك ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: بلى، قال: (أليس معك ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: بلى، قال: (ربع القرآن) قال: (أليس معك ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ قال: بلى، قال (ربع القرآن) قال: أليس معك ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ قال: بلى، قال: (ربع القرآن) تزوج تزوج^(١).

٣- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن هذه السورة نزلت وأبو بكر قاعد، فبكى، فقال له النبي ﷺ ما يبكيك يا أبا بكر؟ فقال: أبكاني هذه السورة، فقال ﷺ: «لو أنكم لا تخطئون ولا تذنون، لخلق الله أمة بعدكم يخطئون ويزنوبون ويستغفرون فيغفر لهم»^(٢).

أغراض السورة:

هذه السورة تتحدث عن الزلزال العظيم الذي يكون بين يدي الساعة، حيث يندك كل صرح، وينهار كل جبل، وتبديل الأرض غير الأرض والسموات. وحين يحدث زلزال في هذه الدنيا في بقعة من العالم لمدة ثانية واحدة، أو جزء من الثانية، فإننا نشاهد الدمار والخراب الذي لا نظير له من جراء هذا الزلزال. وقد يستمر الزلزال بضع دقائق فيترك العواصم أنقاضاً، والقرى تراباً، وإذا اقترن الزلزال بثوران البراكين من باطن الأرض تضاعف العذاب، وعمَّ الخراب والدمار، فأتى على الحرث والنسل.

وقد يكون هذا عقوبة من الله تعالى لسبب من الأسباب، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْضِكُمْ أَوْ يَلْسِكُمْ سُيُوعًا وَيُذِيقَ بَعْضُكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]. والعذاب الذي من تحت الأرجل يكون بالرجفة والخسف والزلازل والبراكين.

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن، برقم (٢٨٩٥)، وأحمد في المسند (١٣٣٠٩) بإسناد ضعيف لضعف

سلمة بن وزدان، وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٥١٥)، وأبو يعلى (٤١١٨).

(٢) تفسير الطبري (٥٦٨/٢٤)، والبيهقي (٧١٠٣)، وابن أبي الدنيا (٨٦)، والطبراني (٨٧)، قطعة من الجزء

(١٣)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤١/٧): رواه الطبراني ورجاله ثقات.

قال سبحانه: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ
يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وإذا كان الأمر كذلك بالنسبة لزلزال الدنيا، فما بالنا بالزلازل العظيم الهائل الذي
يعم أرجاء الأرض عند قيام الساعة، حيث يفرع الناس فرعاً شديداً، فتذهل الأم عن
ولدها الذي أرضعته، وتسقط ما في بطنها من شدة الخوف والفرع، وترى الناس في
ذهول وفقدان للرشد والصواب، كأنهم سكارى، وما هم بسكارى بشرب خمر أو
مسكر، ولكنهم خافوا عذاب الله الذي ظهرت أماراته وبوداره.

وسورة الزلزلة مع أنها مدنية عند الجمهور، إلا أنها تتناول هذا الجانب المكي غالباً،
وهو الحديث عن القيامة ومقدماتها وأهوالها، ومآل الناس في الآخرة.
فتبين آيات السورة أنه قبل أن تقوم الساعة، يقع زلزال كبير يُدمر قارات الدنيا كلها،
فتنفض الأرض ما في جوفها، وتُخرج ما يُثقلها من أجساد ومعادن.
وفي لمحة خاطفة، ترى الخلق في أرض المحشر، ليواجهوا حسابهم وجزاءهم على
ما قدمت أيديهم.

فالسورة تتحدث عما يصاحب قيام الساعة من تغيير في الكون، وخروج الناس من
قبورهم ليواجهوا أعمالهم التي كانت في الدنيا، حيث تشهد الأرض بما اقترفته أيدي
الناس وهم على ظهرها، وبعد الحساب يكون الجزاء من جنس العمل، فيحصد العبد ما
زرعه في دنياه، ويَجْنِي ثمرته في النعيم المقيم، أو العذاب الأليم.
نسأل الله العفو والعافية والسلامة في الدنيا والآخرة، إنه سميع مجيب.

سُورَةُ الْعَادِيَّاتِ (١٠٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة العاديات) هي السورة تمام المئة في ترتيب المصحف، وفيها يبدأ ربع الحزب الأخير في المصحف، من قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾. وكان الأولى أن يبدأ هذا الربع من أول سورة القارعة، أو من أول سورة العاديات، لاسيما وأن تحزيب المصحف قد وُضع بعد القرن الثالث فهو ليس توقيفياً^(١). وهي السورة الرابعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة العصر) وقبل (سورة الكوثر).

وعدد آياتها إحدى عشرة آية، وهي أربعون كلمة، ومئة وثلاثة وستون حرفاً. وتسمى (سورة العاديات) بالواو، وبدونها.

وهي من السور المختلف فيها، بين كونها مكية أو مدنية.

وما جاء في سبب النزول عن قتادة يرجح كونها مدنية، وهو أن النبي ﷺ بعث سرية فيها خيل إلى بني كنانة، وأمر عليها (المنذر بن عمرو الأنصاري) فتأخرت شهراً، فقال المنافقون، قُتلوا جميعاً، فأخبر الله عنهم بقوله: ﴿وَالْعَدِيدِ صَبَحًا﴾ الآيات^(٢).

وفيها إعلام بأن السرية لم يُقتل منها أحد، وأن الخيل قد فعلت جميع ما ورد في وصفها في الآيات الخمس الأول من السورة.

(١) ينظر في هذا كتابي: فن الترتيل وعلومه، الجزء الأول، وكتابي: تيسير علم التجويد الطبعة الثانية والثالثة.

(٢) الواحدي في أسباب النزول ورواه الحاكم، وفي سنده حفص بن جميع، وهو ضعيف، كما في مجمع الزوائد (١٤٢/٧) وهو في مسند البزار (٢٢٩١) كشف الأستار، وفي تفسير القرطبي (١٥٥/٢٠) وعند عبد الرزاق (٣٩٠/٢) والطبري (٥٧١/٢٤).

وفيهما تنويه بشأن الخيل في الجهاد وإرسال السرايا لرد الاعتداء وإزالة العقبات من طريق الدعوة، وظهور النفاق، كان بالمدينة.

٢ - وآيات سور العاديات الأحد عشر، منها ثلاث آيات في أولها، تَحْمِلُ قَسْماً بأدوات الجهاد التي تختلف من وقت لآخر، وكان الخيل وقت التنزيل أعظم ما يُستخدم في الجهاد، وقد يضارعها في وقتنا: الصواريخ أو الطائرات أو الدبابات.. ولا تزال الخيل تُستخدم في بعض الحروب.

وتنويهاً بشأن الخيل أقسم الله تبارك وتعالى بها عندما تغدوا، وعندما تتردد أنفاسها في صدورها، وعندما ينقذ الشر من تحت سنانكها لشدة جزيها.

كما أقسم سبحانه وتعالى بالرجال الذين يقتحمون بالخيول ساحة المعركة، وهم يستقبلون الموت دفاعاً أو هجوماً، وهذا القسم على أن الإنسان كفور لأنعم الله عليه، جحود لفضله، مع شدة حبه للمال، ونسيانه الحساب والجزاء يوم القيامة، وتحصيل ما في الصدور يوم البعث والنشور، ونسيانه أن الله تعالى رقيب ومطلع على العبد في جميع أعماله.

وفي هذا القسم حث على صالح الأعمال، وإشادة بشأن الجهاد، فإن الجهاد يحرس العقيدة، ويحمي الحقيقة، ويصون البلاد والحرمات، فيران الجهاد كالسوائل المبيدة للحشرات، تحمي الزرع والضرع، والحق يحتاج إلى من يذود عنه، ويستبقيه على مرّ الأيام، والباطل يمتدّ كلما وجد فراغاً أمامه، فإذا وجد مقاومة ضعيفة اجتاحتها وبلغ غرضه، وأهل الباطل يسرقون العقائد والفضائل، ويفرضون الظلم على الناس، ويستولون على ثرواتهم وبلادهم وثراتهم.

وها نحن نعيش أحداث العراق وفلسطين وأفغانستان والبوسنة والهرسك والصومال والشيشان وكشمير، وغيرها، إن الحق لا يقوم بذاته، بل لابد له من قوة تحميه. ولذا كان الإسلام: مصحفاً وسيفاً، ودعوة وجهاداً، ومسجداً ومعركة.

٣ - إن الإسلام بحاجة إلى خيل وخيالة، يفضّلون الموت على الحياة، ويؤثرون الآخرة على الدنيا، ويجتذّبون طاقاتهم المادية والمعنوية لتصنيع السلاح المضارع لسلاح العدو، مع وجوب توحيد الكلمة وعدم الفرقة.

ولهذا فإن الله تعالى أقسم بالخيّل وبوصف حركاتها في أرض المعركة، تعظيماً لشأن الجهاد..

فأقسم تبارك وتعالى بثلاثة أشياء هي: العاديات، والموريات، والمغيرات، على ثلاثة أمور هي: جحود الإنسان، وشهادته على جحوده، وحبه للمال.

وعقب على ذلك بثلاثة أشياء هي: بعثت ما في القبور، وتحصيل ما في الصدور، وإحاطة علم الله تعالى بهم، فيجازيهم بما عملوا.

وللمفسرين في المراد بالعاديات والموريات والمغيرات، قولان: أحدهما: أنها الخيل، تغدوا في الغزو، وهو الذي عليه أكثر المفسرين.

وثانيهما: أنها الإبل تغدوا بالحجيج من عرفات إلى مزدلفة ومنى، وهذا القول مبني على أثر يحكي نقاشاً جرى بين عليّ وابن عباس رضي الله عنهما في معنى ﴿وَالْعَدِيَّتِ﴾ وأن عليّاً رضي الله عنه فسرها بأنها الإبل تعدو من عرفة إلى مزدلفة فترى النيران تحت سناكبها^(١).

وهذا وصف لها في بعض أحوالها وإلا فإن وصف الضبح وإثارة النقع، وتوسط الجموع المتقاتلة، كلها وصف للخيّل لا للإبل.

وهكذا تبدأ السورة بمشهد العاديات الضابحة، القادحة للشر، المثيرة للغبار، المغيرة على العدو في الصباح. ويعقب ذلك مشهد النفس الإنسانية وما فيها من الجحود وحب المال وشدة البخل، ويأتي علاج هذه الرذائل بالعمل لليوم الآخر، ويأتي ذلك عن طريق النظر والتأمل في بعثة القبور يوم البعث والنشور، وتحصيل ما في

(١) رواه الطبري في تفسيره (٧٦/٣٠)، وذكره الحاكم (١٠٥/٢)، وابن الأنباري في كتاب الأضداد (ص ٣٦٤)، وهو في فتح الباري (٧٢٧/٨)، وأخرجه ابن أبي حاتم وابن مرويّه.

الصدور مما خفي على العباد، وعَلِّمه عند رب العباد، ومن ثم إلى النهاية والاستقرار في الجنة أو النار.

ويمكن تقسيم السورة على هذا النحو:

- ١ - الآيات الخمس الأول هي مجموع القسم بالخيال حال إغارتها على العدو.
- ٢ - الآيات الثلاث بعدها هي المقسم عليه من أحوال الإنسان في منعه للخير وشهادته على ما يصرفه من نفسه وحبه الشديد للمال.
- ٣ - والآيات الثلاث الأخيرة في إحاطة علم الله تعالى بظاهر الإنسان وباطنه.

* * *

سُورَةُ الْقَارِعَةِ (١٠١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة القارعة) هي السورة الواحدة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثلاثين في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة قريش) وقبل (سورة القيامة). وعدد آياتها إحدى عشرة آية في المصحف الكوفي والمكي، وعشر آيات في المصحف المدني والمكي، وثمانين آيات في المصحف الشامي والبصري. وهي ست وثلاثون كلمة، ومئة واثنان وخمسون حرفاً. وهي سورة مكية، ولا يُعرف لها اسم آخر.
- ٢- والسورة تتحدث عن يوم القيامة، وبعض مشاهد أهوالها، حيث يتأثر بها الناس، فيكونون عند خروجهم من قبورهم وانتشارهم في ساحة الحشر والحساب في حيرة واضطراب، كأنهم فراش يتهافت على الهلاك، وهو لا يملك لنفسه شيئاً، فيذهب ويجيء، وهو في فزع ودهشة لا يعرف له هدفاً.
- كما يتأثر الكون كله بيوم القيامة ومنه: الجبال الرواسي، فتُنسَف وتطير في الهواء، وتكون في خفتها كالصوف المبعثر تتقاذفه الرياح، بعد أن كانت صخوراً صماء، كالأوتاد، تحفظ توازن الأرض لئلا تמיד في البحار.
- والناس يوم القيامة صنفان: فمن رجحت كفة حسناته، فقد فاز بجنة عالية، وعيشة هنيئة راضية، ومن رجحت كفة سيئاته، فملاذه النار، تحتضنه وتضمه، وتحرقه بلهبها.
- وهكذا يتساءل الله تبارك وتعالى عن يوم القيامة التي تفرع القلوب بأهوالها، فيأتي جواب السؤال بوصف أحوال الناس في هذا اليوم وأنهم يكونون في أرض المحشر والمنشر كأنهم فراش مبعثر هنا وهناك، وأن الجبال الشّم الرواسي كأنها صوف متناثر ممزق، ثم يكون العرض والحساب، والجنة أو النار، نسأل الله السلامة من النار والفوز بالجنة.

فالآيات الخمس الأول من السورة، فيها قسم بيوم القيامة وما يصحبها من فناء العالم. والآيات الست بعدها قسمت الناس إلى قسمين: أهل السعادة وأهل الشقاء، وبينت مصير كل منهم، من النعيم المقيم أو العذاب الأليم.

* * *

سُورَةُ التَّكَاثُرِ (١٠٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١- (سورة التكاثر) هي السورة الثانية بعد المئة في ترتيب المصحف، والسادسة عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة الكوثر) وقبل (سورة الماعون). وهي ثماني آيات، وثمان وعشرون كلمة، ومئة وعشرون حرفاً. وتشتهر بأنها (سورة التكاثر) ويقال: (سورة ألهاكم) وسماها بعضهم (سورة المقبرة) وهي سورة مكية على الأصح.
- ٢- عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ ألف آية في كل يوم؟ قالوا: ومن يستطيع أن يقرأ ألف آية كل يوم؟ قال: أما يستطيع أحدكم أن يقرأ ﴿أَلْهَكُمْ التَّكَاثُرُ﴾^(١).
- ٣- اشتملت سورة التكاثر على ذم التفاخر والتكاثر بالمال والبنين وغيرهما، والاستمرار على ذلك حتى الموت، وحثت على العمل بما ينجي الإنسان من الجحيم، وبينت أن العبد مبعوث يوم القيامة ومسؤول عن إهمال شكر النعم.
- وحذرت السورة من الاستغراق في حب الدنيا حتى لا يفاجئهم الموت وهم لاهون غافلون، فقد ترى في هذه الحياة شخصاً محبوباً من رؤسائه، ناجحاً في أعماله، مُجِدِّداً في أداء واجبه، نشيطاً بين أقرانه، حائزاً لأعلى الدرجات العلمية، حاصلاً على منصب مرموق، ومكانة عالية، ساعياً في جدِّ واجتهاد للترقي في الوظيفة، قد أخذ العمل جُلَّ وقته، فهو مشغول دائماً:

(١) صححه الحاكم (٥٦٦/١) وقال: رُواة الحديث كلهم ثقات، وعُقبه، غير مشهور، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب برقم (٢٥١٨، ٢٢٨٧) ورجاله موثقون، وضعفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب (٨٩١).

إِنْ قُلْتَ لَهُ: هَلَمْ إِلَى الصَّلَاةِ، اعْتَذِرْ بِأَنْ عَمَلَهُ وَشُغْلُهُ الْمُسْتَمِرَّ لَا يَسْمَحُ لَهُ.
 إِنْ قُلْتَ لَهُ: خُذْ مِنْ يَوْمِكَ بَضْعَ دَقَائِقٍ أَقْرَأْ فِيهَا بَضْعَ أَسْطَرٍّ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ حَدِيثٍ مِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ طَالِعٍ حُكْمًا فِقْهِيًّا فِي كِتَابِ الْفَقْهِ، أَوْ احْضِرْ حَلْقَةَ عِلْمٍ، أَوْ مُحَاضِرَةً عِلْمِيَّةً لِعَالَمٍ بَارِزٍ، أَوْ أَقْرَأْ بَعْضَ أَذْكَارِ الصَّلَاةِ، أَوْ أَذْكَارِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، أَوْ تَابِعْ أَوْلَادَكَ فِي تَعَوُّدِهِمُ الذَّهَابَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَتَعْلِيمِهِمْ مَا لَا بَدَّ مِنْهُ مِنْ أَحْكَامِ الشَّرْعِ.. أَوْ ..
 أَوْ .. الخ. فَإِنَّهُ يَعْتَذِرُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لَا يَوْجَدُ لَدَيْهِ مِنَ الْوَقْتِ مَا يَسْمَحُ لَهُ بِذَلِكَ.

فَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ اجْتِمَاعَاتٌ تَتَعَلَّقُ بِعَمَلِهِ، مَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَتَخَلَّفَ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ مُحَاضِرَاتٌ وَنَدَوَاتٌ لَهَا صَلَةٌ بِوُضُوءِهِ أَسْرَعَ وَبَادَرَ إِلَيْهَا، وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ سَهَرَاتٌ أَوْ حَفَلَاتٌ فِيهَا اخْتِلَاطُ رِجَالٍ بِنِسَاءٍ وَشَبَّهَ ذَلِكَ، كَانَ لَدَيْهِ مِنَ الْوَقْتِ مَا يَتَسَعَّ لِذَلِكَ أَلْفَ مَرَّةٍ، وَإِنْ كَانَتْ هُنَاكَ طَرِيقَةٌ لَجَمْعِ الْمَالِ، أَوْ بِنَاءِ الْعِمَارَةِ، أَوْ مُشَاهَدَةِ مَبَارَاةٍ، أَوْ مُشَاهَدَةِ فِيلْمٍ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْوَقْتِ لَدَيْهِ يَكُونُ كَافِيًا.

وَيُظَلُّ هَكَذَا شُغُوفًا بِحُبِّ الدُّنْيَا، مُشْغُولًا عَنِ الْعَمَلِ لِلْآخِرَةِ، فَهُوَ فِي لَهْوٍ مُسْتَمِرٍّ، حَتَّى يَأْتِيَهُ الْمَوْتُ، وَهَذَا هُوَ مَا تُحَذِّرُ مِنْهُ السُّورَةُ، كَمَا تُحَذِّرُ مِنَ التَّفَاخُرِ بِالْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ وَمِنْ عَدَمِ شُكْرِ الْمُنْعَمِ سُبْحَانَهُ.

٤- وَبَعْدَ هَذَا التَّحْذِيرِ، يَأْتِي الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ، وَالرَّدْعُ وَالزَّجْرُ عَمَّا فِيهِ هَذَا اللَّاهِي، بِأَنْ أَمَامَهُ نَارُ جَهَنَّمَ يَرَاهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَمِّ رَأْسِهِ، فَيُخَلَّدُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيَأْخُذُ الْعَاصِي مِنْهَا عَلَى قَدْرِ مَعَاصِيهِ.

أَمَّا هَذِهِ النِّعَمُ الَّتِي كَانَ مُنْغَمَسًا فِيهَا فِي دُنْيَاةٍ فَإِنَّهُ يُسْأَلُ عَنْهَا سُؤَالَ شُكْرِ لَهَا أَوْ كَفْرِ بِهَا، هَلْ هُوَ مِمَّنْ حَفِظَ نِعْمَةَ اللَّهِ وَأَدَّى مَا عَلَيْهِ فِيهَا أَمْ هُوَ مِمَّا أَبْطَرَتْهُ النِّعْمَةُ فَلَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ عَلَيْهَا وَلَمْ يُوَدِّ خَقَّ اللَّهَ فِيهَا، وَكَانَ مِمَّنْ أَذْهَبَ طَبِيبَاتِهِ فِي حَيَاتِهِ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعَ بِهَا؟ ﴿ثُمَّ لَنَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾

سُورَةُ الْعَصْرِ (١٠٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة العصر) هي السورة الثالثة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثالثة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الشرح) وقبل (سورة العاديات). وهي ثلاث آيات باتفاق، وأربع عشرة كلمة، وثمانية وستون حرفاً. وتسمى (سورة العصر) بإثبات الواو وحذفها، وهي سورة مكية عند الجمهور. وهذه السورة إحدى ثلاث سور، تتكون من ثلاث آيات هي: العصر والكوثر والنصر. أغراض السورة:

وسورة العصر على وجازتها لخصت عواقب النشاط الإنساني كله، على امتداد الزمان والمكان، وبيّنت أن من انقطعت صلتهم بالله تعالى هم حطب جهنم، وأن من اتصلوا بالله تعالى هم الذين فازوا في معترك الحياة. وقد اشتملت السورة على عناصر أربعة هي أسس السعادة في الدنيا والآخرة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. وقد اتخذ الصحابة سورة العصر شعاراً لهم في لقاءاتهم، فكان الرجال إذا التقوا لم يفترباً إلا إذا قرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم عليه^(١). إن الحق مُرٌّ، والصبر عليه مطلوب حتماً، نظراً للاضطرار الذي يلحق القائم به، والتشبث بالإيمان عند بعض الناس رجعية، فلا بد من عزيمة وجلد حتى يَكْسِبَ المؤمنون المعركة. إنها سورة قصيرة، ذات آيات ثلاث، في سطرين اثنين، ومع هذا فهي تضع منهجاً متكاملًا لحياة البشر، وترسم لهم دستوراً واضحاً، وتبين مهام الأمة الإسلامية ووظيفتها

(١) المعجم الأوسط للطبراني برقم (٥٠٩٧)، وفي الكبير برقم (٥١٢٤)، ورجاله رجال الصحيح غير ابن عائشة وهو ثقة كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٣٠٧/١٠)، وأخرجه البيهقي في الشعب برقم (٩٠٥٧).

على مر العصور والأجيال، وتأخذ بيد الإنسان إلى سعادتي الدنيا والآخرة، وتوضح له أسباب الخسران والهلاك في الدارين.

وللأزمنة معالم متميزة تُعرف بها، وتضاف إليها، فيقال: عصر الصحابة، وعصر الذرة، وعصر الفضاء، لمن يظلمهم زمن واحد، يتشابهون في معاشهم وتقاليدهم، ولكنهم يختلفون في المصير الأخروي حسب إعدادهم له، فرب رجلين عاشا في زمن واحد، بل في بيت واحد، فذهب أحدهما إلى النعيم، والآخر إلى الجحيم، وسيُرَى الإنسان مع الغرائز والأهواء ينتهي إلى الخسران.

وَحَقُّ لِلإمام الشافعي أن يقول: لو ما أنزل الله تعالى على خلقه حجة إلا هذه السورة لكفتهم.

فقد بينت السورة حال الناس في عصر النبوة وما بعدها، وبينت أن المؤمنين منهم قد استوفوا أعمارهم في تحصيل أصول التجارة الرباحة.

عن عمرو بن ميمون قال: شهدتُ عمر رضي الله عنه حين طُعن، فأَمَّنَّا - في الصلاة - عبدُ الرحمن بنُ عوف، فقرأ بأقصر سورتين في القرآن، بـ (العصر) و (إذا جاء نصر الله) في الفجر^(١).

وهكذا: فإن الله تعالى يقسم على أن جنس الإنسان في هلاك وخسران، ويستثنى من ذلك من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وعمل صالحاً، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وصبر على جهاد الدعوة، وتواصى مع إخوانه المسلمين على كلمة الحق، والصبر على الأذى في سبيلها، فإن من اتصف بهذه الصفات الأربع، لن يخسر دينه ولا آخره، بل يفوز بالجنة ورضوان الله تبارك وتعالى.

(١) أخرجه ابن سعد (٣/٣٤٩).

سُورَةُ الْهُمَزَةِ (١٠٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الهمزة) هي السورة الرابعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثانية والثلاثون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة القيامة) وقبل (سورة المرسلات). وهي تسع آيات باتفاق، وثلاثون كلمة، ومئة وثلاثون حرفاً، وهي سورة مكية. وتسمى (سورة الهمزة) وهو الأشهر، وأُطلق عليها: (سورة الحطمة) و (سورة ويل لكل همزة).

موضوع السورة:

تحدث (سورة الهمزة) عن الذين يعيبون الناس بالطعن في أعراضهم، وازدراءهم، وبالسخرية منهم، والاستخفاف بهم، وتذم من يفترون بأموالهم وسلطانهم، فيترفعون على الناس ويتقصونهم، وتبين أنهم من أهل الشقاء الذين استوجبوا عذاب جهنم. وفي صدر الإسلام وجدت جماعة نصّبوا أنفسهم لِلْمَزِ المسلمين وسبّهم، والتنقيص من شأنهم، ومن هؤلاء: الوليد بن المغيرة، وأمّية بن خلف، وأبيّ بن خلف، وجميل بن مَعْمَر - وقد أسلم يوم الفتح - والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأخنس بن شريق، وكل هؤلاء من أهل الثراء والوجاهة بين الناس.

ومن الناس في كل عصر ومصر من يخلف هؤلاء في التنقيص من شأن الإسلام والمسلمين، وهذا من الحروب التي يشنها المجرمون على أصحاب الرسالة الأخيرة، لِفَضِّ الناس من حولهم، وغالباً ما يكونون من أهل الجاه والثراء، فيتناولونهم بالكلمة، وبالحرّة، وفي المسلسلات والأفلام والمسرحيات والروايات وبالرسم الهزلي في الصحف.

وقد نُظِّمَت هذه الحروب في العصور الأخيرة، عبر وسائل الإعلام المختلفة، ومنها: الصحف، وشبكة المعلومات، والفضائيات، وغيرها.

وقد أعد الله تعالى الويل لهؤلاء في الدنيا بفضحهم وكشف تدبيرهم وخزيهم.
ووصفت آيات هذه السورة عذاب نار الحطمة الذي أعده الله لهم في الآخرة بأربعة
أوصاف هي:

- ١- إنها نار موقدة، شديدة الاستعار واللهب.
- ٢- ومن شدة حرها أنها تنفذ من مسام الجسم إلى القلب، فتطلع عليه وتحرقه.
- ٣- وهي نار مغلقة عليهم لا يخرجون منها.
- ٤- ولهذه النار أبواب محكمة قد شُدَّتْ بأعمدة وأوتاد من حديد، بحيث لا يمكن
لمن بداخلها أن ينفكَّ منها. نسأل الله العفو والعافية والمعافة الدائمة في الدنيا والآخرة.
وهكذا: فإن الله تبارك وتعالى قد توعّد بالويل والهلاك كل همّاز لمّا ز جامع للمال.
ثم بينت آيات السورة عذاب من اتصف بهذه الأمور الثلاث يوم لقاء الله، وذلك في
الآيات الخمس التي تليهما.

* * *

سُورَةُ الْفِيلِ (١٠٥)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١- (سورة الفيل) هي السورة الخامسة بعد المئة في ترتيب المصحف، والتاسعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الكافرون) وقبل (سورة الفلق) أو (قريش). وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وستة وتسعون حرفاً، وهي سورة مكية. والمشهور أن اسمها (سورة الفيل) ويقال: (سورة أَلَمْ تر). قال عمرو بن ميمون: صَلَّيْتُ الْمَغْرِبَ خَلْفَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه فَقَرَأَ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ ﴿الَّذِ نَزَّ﴾ و﴿لَا يَلْنَفُ قُرَيْشٍ﴾. واستدل بعضهم بهذا على أنهما سورة واحدة، لأن الصحابة لم يكونوا يقرؤون في الركعة الواحدة من الفريضة سورتين^(١). قلت: الصحيح أنهما سورتان، فَصَلَّتِ الْبَسْمَلَةَ بينهما، ولا يلزم من قراءتهما في ركعة واحدة أن يكونا سورة واحدة.

موضوع السورة:

تحدثت سورة الفيل عن قصة (أصحاب الفيل) حين قصَّدُوا هَذِمَ الْكَعْبَةِ، فَرَدَّ اللَّهُ كَيْدَهُمْ فِي نَحْوِهِمْ، وَأَرْسَلَ عَلَى جَيْشٍ «أَبْرَهَةَ» أُسْرَاباً مِنَ الطَّيْرِ، تَحْمِلُ فِي أَرْجُلِهَا وَمَنَاقِرُهَا حِجَارَةً صَغِيرَةً، أَهْلَكَهُمْ اللَّهُ بِهَا، وَأَبَادَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ، بَعْدَ أَنْ شَعَرَ أَهْلُ مَكَّةَ بِالْعِجْزِ عَنْ مَقَاوِمَةِ هَذِهِ الْحَمَلَةِ، فَفَرَّوْا إِلَى رُؤُوسِ الْجِبَالِ، تَارِكِينَ بَيْتَ اللَّهِ وَبُيُوتَهُمْ لِحِمَايَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ. ومن مقاصد هذه القصة: تذكير الناس جميعاً وأهل مكة بوجه خاص، بأن من أراد هذا البيت بسوء، قصمه الله، ولا يمنع هذا من حدوث العدوان على الكعبة بعد حادثة الفيل مرة أخرى أو مرات، فإن عقاب الله له بالمرصاد في الدارين، والله تعالى يتوَعَّدُ من

(١) تفسير التحرير والتنوير (٣٠/٥٤٣).

يُقدم على ذلك بالهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

ولم تتكرر هذه القصة في القرآن لأمرين:

أحدهما: إن إهلاك أصحاب الفيل ليس لأجل تكذيب الرسول.

وثانيهما: ألا يغترّ المشركون، فيتوهمون أن لهم مكانة عند الله تعالى، كما توهم من كانوا يقومون منهم بسقاية الحجيج، وعمارة المسجد الحرام، بأن لهم منزلة عند الله وهم يصدّون الناس عنه.

وتبدأ سورة الفيل بتوجيه خطاب للنبي ﷺ في صورة استفهام تقريرية تعجّبي على حادثة لم يشهدها النبي ﷺ حال وقوعها، وكانت معروفة مشهورة لدى العامة والخاصة. ويأتي هذا الأسلوب التقريري في صورة امتنان من الله تعالى على رسوله ﷺ، وعلى قومه وأمته، بأن حمى الله بيته وصانه من مكّر الماكرين، ليكون مثابة للناس وأمناً إلى أن تقوم الساعة، وليكون نقطة انطلاق للرسالة الإلهية الخاتمة، وليكون إرهاباً بين يدي رسالة محمد ﷺ.

وفي هذا بشرى بأن الله تعالى يحفظ بيته دائماً من كل مكّر يراد به، ليظل البيت الحرام آمناً من عبث العابثين، وكيد الماكرين، كما يحفظ حرم رسوله ﷺ بحول الله وقوته ومشيتته.

عام الفيل:

جرت العادة أن الناس يؤرخون بالأحداث الهامة في حياتهم، ومن ذلك عام الفيل، نظراً لما لحادثة الفيل من أهمية كبرى لتعلقها ببيت الله الحرام، فقد كان الناس يؤرخون بها قبل الإسلام، وقد وقعت حادثة الفيل عام ٥٧٠ ميلادية وهو العام الذي ولد فيه النبي ﷺ وكانت هذه الحادثة من أعظم الإرهابات الدالة على صدق نبوته ﷺ.

سبب الحادثة:

لم يكن للعرب قبل الإسلام شأن يُذكر في دنيا الناس، وكان معظمهم تحت النفوذ الأجنبي:

١- وكانت الحبشة قد استولت على اليمن، بعد واقعة الأخدود التي عذّب فيها

الملك ذو نواس، النصراني، وفرض سلطانه على اليمن، وكان أبرهة الأشرم أميراً على اليمن من قبل النجاشي، وقد أراد أبرهة أن يتقرب إلى النجاشي - النصراني - ليصرف العرب عن مكة وقبلتها، وذلك ببناء كنيسة يتوجه إليها الناس عوضاً عن الكعبة، وكان النجاشي قد غضب عليه وحلف ليطأن أرضه وليُجزّن ناصيته.

٢ - ولما رأى أهل الحبشة استمرار رحلات أهل اليمن في مواسم الحج إلى مكة، خافوا على اقتصادهم، فأرادوا أيضاً أن يصرفوا الناس عن هذه الرحلات التجارية، ليتحول اقتصاد الجزيرة وتجارته إلى بلادهم.

٣ - وكانت فئة من قريش، قد خرجت في تجارة، ونزلوا في طريقهم إلى جوار معبد للنصارى يسمونه الهيكل، فأوقدوا ناراً لحاجتهم، فلما ارتحلوا من المكان هبت ريح عاصفة فاحترق المعبد، فاستشاط القوم غضباً، وأتوا إلى أبرهة، وقرروا إحراق الكعبة وهدمها، وسبّوا أهل مكة.

فهذه ثلاثة أسباب دينية وسياسية واقتصادية، وأهمها السبب الديني الأول.

كنيسة القليس باليمن:

وقد كان أهل الحبشة يدينون بالمسيحية، فأرادوا نشر هذا الدين في جزيرة العرب، بعد أن استولوا على اليمن، ولما رأوا تقديس العرب لمكة وللمسجد الحرام، بدأ أبرهة - القائد الحبشي على اليمن - في بناء كنيسة بصنعاء نقل إليها الأعمدة والحجارة الذهبية من قصر بلقيس، وبذل فيها جهداً كبيراً، ودعا العرب إلى حجّها بدلاً عن البيت الحرام، فغضب العرب لذلك.

وأقسم رجل من بني مالك ليغشّن بهذه الكنيسة، فقدم اليمن، ودخل الكنيسة، ولطّخ جدرانها بالقاذورات، ولما علم أبرهة بذلك حلف ليهدمن الكعبة، فكتب إلى النجاشي بذلك وطلب تزويده بالفيلة.

خرج أبرهة قاصداً مكة، ومعه ثلاثة عشر فيلاً، منها: فيل كبير جسيم، يدعى «محمود» هو فيل النجاشي.

سمع العرب بذلك، فتصدّوا لقتاله: وخرج إليه ملك من ملوك اليمن، يقال له: ذو نفر، وقاتلته، فهزمه أبرهة.

ولما وصل بلاد خثعم خرج إليه بعض منهم ومن القبائل الأخرى وقاتلوه، فهزمهم أبرهة. ولما وصل الطائف خرج إليه رجال من ثقيف، وأرادوا أن يصرفوه عن بيتهم الذي بنوه، وهو (اللات) وبعثوا معه من يدلّه على الكعبة.

فلما كان أبرهة بالمغمّس - مكان بين مكة والطائف - بعث أحد قواده فجمع إليه أموال أهل الحرم، وفيها مئتا بعير لعبد المطلب، وجرت مفاوضات بين أبرهة وعبد المطلب، انتهت بأن يرّد أبرهة إبل عبد المطلب.

وكان عبد المطلب سيد قريش تعلّوه المهابة والوقار، فأعظمه أبرهة، قال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه ويحميه، فرد أبرهة قائلاً: ما كان ليمنع مني، فأجابه: أنت وذاك..

وانطلق عبد المطلب إلى قريش يخبرهم، ثم تعلق بحلقة الكعبة وأستارها في ضراعة الخائف الوجل، وإنابة العائد المستغيث، وأخذ ينشد أبياتاً مشهورة يطلب فيها عون الله تعالى وحمايته لبيته.

وكان عبد المطلب قد عرض على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن هدم البيت، ولكنه أبى وأصر، فعاد عبد المطلب مردداً:

يارب لا أرجو لهم سواك يارب فامنع منهم حماك

إن عدو البيت من عاداك

وأمر عبد المطلب أهل مكة أن يتركوا البلد، وأن يلوذوا برؤوس الجبال بنسائهم وأطفالهم، كي لا يلحق بهم شيء من أذى القوم القادمين لتخريب الكعبة وهدمها.

وتحرك جيش أبرهة، وتهايأ لدخول مكة، فبرك الفيل الكبير «محمود» وأبى أن يتّجه نحو مكة، فضربوه ضرباً شديداً، فلم ينهض، ثم وجهوه إلى اليمن والشام، فقام يهرول، ثم وجهوه إلى الحرم فبرك.

ولما كانوا في وسط وادي مُحَسِّر، وإذا بفرقٍ من الطير فرقة بعد أخرى، تُرْسِل على ذلك الجيش حجارة صغيرة الحجم، ما إن تَسْقُط على أحدهم حتى تُهْلِكُه ويتناثر لحمُه. وأصيب أبرهة، فجعل جِسْمُه يتناثر ويتساقط حتى انصدع صدره ومات بصنعاء. وهكذا حَمَى الله بيته من عدوان الظالمين، وهكذا يحميه رب العالمين من كل كيد، ومن كل مكر إلى يوم الدين، وماتت الفيلة إلا الفيل الذي أبى التوجه إلى مكة.

سند الحادثة:

وهذه الحادثة ثابتة بقول النبي ﷺ يوم الحديبية حين بركت ناقته (القصواء) قال: خلأت القصواء، فقال ﷺ في حديث المسور بن مخرمة «ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل»^(١).

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال يوم فتح مكة: «إن الله حبس عن مكة الفيل، وسلط عليها رسول الله والمؤمنين، وإنه قد عادت حرمتها، كحرمتها في الأمس، ألا فليبلغ الشاهد الغائب»^(٢).

دلالة الحادث: والعبرة المستفادة من هذا الحادث:

١ - أن الله تعالى لم يُرد أن يكلَّ حماية بيته العتيق إلى المشركين، حتى لا يكون لهم سابقة فضل، ولا يداً في حماية بيته الحرام، وفي هذا كرامة لبيت الله الحرام، وإنعام على قريش بدفع العدو عنهم.

٢ - وكان من أثر ذلك أن بادرت قريش وسائر العرب إلى الدخول في دين الله، حين جاءهم به محمد ﷺ حيث كانت هذه الحادثة من إرهابات النبوة، وتبشير النبي ﷺ بأن

(١) رواه البخاري في صحيحه في كتاب رقم (٥٦) باب (٥٩) عن المسور قبل الحديث رقم (٢٨٧١) وهو كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط، ينظر البخاري مع الفتح (٣٢٩/٥)، وراجع رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) في الصحيح.

(٢) رواه البخاري في كتاب العلم، باب كتاب العلم، انظر البخاري مع الفتح (٢٠٥/١)، وهو في البخاري برقم (١١٢)، وفي مسلم برقم (١٣٥٥) عن أبي هريرة ؓ.

الله تعالى كفيل برعايته ونصره على أعدائه، كما نصر أهل مكة على أبرهة وجيشه.

٣ - ولم يشأ الله سبحانه أن يحطّم أبرهة وجنوده البيت الحرام، أو يسيطروا على البلد الحرام، ليبقى البيت مصوناً محفوظاً بحفظ الله تعالى، حتى تثبت العقيدة الإسلامية دون مهيمن عليها، ليهيمن الإسلام على جميع الأديان، وليقود البشرية ولا يقاد.

وجاءت نواة الإسلام وطليعته في مكة، ثم في المدينة، ثم في أرجاء المعمورة.

وأصبح للمسلمين قوة عالية، اكتسحت الممالك، وحطّمت العروش، وتولّت قيادة البشر، وهي التي كانت من قبل دون كيان ولا سلطان، تخضع لحكم هذا وذاك، فكانت حادثة الفيل مؤشراً إلى هذه المعاني، وإرهاصاً دالاً عليها.

* * *

سُورَةُ قُرَيْشٍ (١٠٦)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١ - (سورة قريش) هي السورة السادسة بعد المئة في ترتيب المصحف، والتاسعة والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التين) وقبل (سورة القارعة). وهي خمس آيات في العدد المكي والمدني والحمصي، وأربع آيات عند بقية أئمة العدد. وهي سبع عشرة كلمة، وثلاثة وسبعون حرفاً. وسورة قريش سورة مكية عند الجمهور، مستقلة عن سورة الفيل بالإجماع. وشهرتها (سورة قريش) وتسمى (سورة لإيلاف قريش).
- ٢ - موضوع السورة:

تحدث هذه السورة عما أنعم الله به على أهل حرمه، بأن هياً لهم رحلتي الشتاء والصيف، في وقت كانت تتعذر فيه وسائل الاتصالات، ويصعب العيش فيه بين جبال مكة، دون طعام ولا شراب، وَيَقِلُّ الأَمْنُ فيها، نظراً لطبيعتها الجبلية الصحراوية فجعل سبحانه بلادهم آمنة، وأوقع قُدُسيتها في قلوب الناس حتى في الجاهلية، لتهيأ لهم سبل الحياة، وجَلَبَ إليهم الثمرات والخيرات من كل بلاد العالم:

إن جزيرة العرب تقع بين أوروبا وآسيا، وقد اشتغل أهلها بالتجارة بين هاتين القارتين، وكانوا همزة وصل بين الرومان في الشام، والهنود في الجنوب، وانتظمت رحلاتهم، تنقل السلع بين هؤلاء وأولئك، وقد امتن الله على العرب - في مكة وما حولها - بهذا الوضع الذي انتفعوا منه كثيراً.

وكلمات (سورة قريش) تشير إلى استتباب الأمن، وانتفاء الجوع، وهما أساس الحرية السياسية، كما أن وفرة الأقوات، وسهولة التبادل، هما أساس الحرية الاقتصادية، وكذا وجود السوق الدولية المشتركة.

وفي السورة تذكير بنعم الله تعالى على جميع خلقه، وعلى أهل مكة بوجه خاص، حيث مكّٰنهم من السير والتنقل، دون خوف من عدوّ يعدّوا عليهم، في وقت لا يوجد فيه من يقوم على حماية الأمن في البلاد، كي يعبدوا ربهم فيقلعوا عما هم فيه من الشرك، وعبادة الأوثان، إلى عبادة رب العالمين، فهو المستحق للعبادة دون سواه.

والذي سنّ لهم هاتين الرحلتين: هاشم بن عبد مناف، وقد حمّله على ذلك: الجوع القاتل الذي تعرّض له أهل مكة، حتى كادوا يموتون جوعاً، فوقف فيهم خطيباً وجمعهم، ونظّم لهم رحلتين، وقسّم أرباح التجارة بين الغني والفقير.

٣- أصل تسمية قريش:

أ- وقريش هو: فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وهو لقب يجمع بطوناً كثيرة، وقد سأل النبي ﷺ: مَنْ قريش: فقال: «مَنْ وَلَدَ النَّضْرَ» وجميع أهل مكة من قريش، وكان بنو كنانة يسكنون بالخيف، في منى.

ب- وأخرج البيهقي أن معاوية سأل ابن عباس رضي الله عنهم: لم سميت قريشاً؟ قال: بدابة تكون في البحر، أعظم دوابّه يقال لها: القُرْش، لا تمرّ بشيء من الغث والسمين إلا أكلته^(١).

ج- وقال عبد الملك بن مروان: سمعتُ أن قُصياً كان يقال له: القُرْشِيّ، ولم تُسمّ قريش قبله^(٢).

د- وتسمية قريش جاءت من التقاريش، وهو الجمع والتكسب. فهذه أربعة أسباب لهذه التسمية.

فضل قريش:

ومما ورد في فضل قريش من أحاديث:

(١) البيهقي في الدلائل (١/١٨٠).

(٢) أخرجه ابن سعد (١/٧١).

- ١- عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم»^(١).
- ٢- وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الناس تبع لقريش في الخير والشر إلى يوم القيامة»^(٢).
- ٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الناس تبع لقريش في هذا الشأن، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم»^(٣).
- ٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم أذق أول قريش نكالا، فأذق آخرهم نوالا»^(٤) والنكال هو العناء والمشقة، والنوال هو العطاء والخير.
- ٥- قال معاوية سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الناس تبع لقريش في هذا الأمر، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والله لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بما لخيارها عند الله» قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسوة ركنن الإبل، صالح نساء قريش، أزعهن على زوج في ذات يدهن، وأخناه على ولد في صغره»^(٥). قلت: وركوب الإبل في زمانهم يعني قيادة سائر المركبات في زماننا، والحديث نص في جواز ذلك للمرأة.
- ٦- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه في النار، ما أقاموا الدين»^(٦).

(١) صحيح مسلم برقم (٢٢٧٦) وهذا لفظه، وهو في المسند (١٦٩٨٧)، والترمذي (٣٦٠٥)، والبيهقي في الدلائل (١٦٥/١).

(٢) صحيح مسلم برقم (١٨١٩)، والمسند (١٤٥٤٥، ١٥٠٥٠)، وابن أبي شيبة (٦٧/١٢)، وابن حبان (٦٢٦٣).

(٣) البخاري برقم (٣٤٩٥)، ومسلم برقم (١٨١٨)، والمسند (٧٥٥٦) قال محققوه: صحيح، وأخرجه ابن أبي شيبة (١٦٨/١٢).

(٤) قال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب (٣٩٠٨)، وهو في صحيح سنن الترمذي (٣٠٦٧).

(٥) ابن أبي شيبة (١٦٩/١٢)، والمسند (١٦٩٢٨، ١٦٩٢٩) قال محققوه: إسناده صحيح.

(٦) صحيح البخاري (٧١٣٩، ٣٥٠٠)، وانظر حديث أحمد في المسند (٢٧١٥٨) عن قتادة بن النعمان.

٧- وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان» وحرك إصبعيه^(١).

٨- وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «الملك في قريش، والقضاء في الأنصار، والأذان في الحبشة والسرعة في اليمن»^(٢).

وجاءت الآثار بأن الله تعالى قد فضل قريشاً: بالنبوة والخلافة والسقاية والحجامة والسدانة، ونصرهم يوم الفيل، وأنزل فيهم هذه السورة^(٣).

٤ - الأسباب والمسببات مخلوقة لله تعالى:

السبب والمسبب مخلوقان لله تعالى، والمسبب مرتب على السبب، فالنصر على العدو الذي وعد الله به المؤمنين، مرتب على الجهاد في سبيل الله، والشفاء من المرض، مرتب على الأخذ بأسباب العلاج، وحصول الرزق للعبد، مرتب على السعي والبحث عنه من طرقه المشروعة، فالسما لا تمطر ذهباً ولا فضة، والرزق لا يأتي للطيور وهي ساكنة في أوكارها، بل إنها تسعى لرزقها في الصباح الباكر وهي جائعة، ثم تعود بعد أن حصلت على رزقها فازتوت وشبعت.

- ولما كانت مكة المكرمة قبل الإسلام وادياً مُجْدِباً لا زرع فيه ولا ضرع، كما وصفها رب العالمين على لسان الخليل إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧].

- لما كان الأمر كذلك، فإن قريشاً كان لها رحلتان في كل عام للتجارة، رحلة في الشتاء إلى اليمن لأنها أدفاً، ورحلة في الصيف إلى الشام، يجلبون فيهما الميرة والطعام والثياب

(١) صحيح البخاري (٧١٤٠، ٣٥٠١)، وصحيح مسلم (١٨٢٠)، والمسند (٤٨٣٢، ٥٦٧٧، ٦١٢١)، والطيالسي (٢٠٦٨).

(٢) صحيح سنن الترمذي (٣٠٨٨)، والمسند (٨٧٦١) قال محققوه: رجاله رجال الصحيح غير أبي مريم فقد روى له أبو داود والترمذي وهو ثقة، واختلف في رفعه ووقفه والموقوف أصح وأخرجه ابن أبي شيبة (١٧٢/١٢)، وهو في الترمذي (٣٩٣٦).

(٣) ينظر: الطبراني (٩٩٤)، والحاكم (٥٤/٤)، ومجمع الزوائد (٢٧/٧)، والدر المنثور (٦٧٠/١٥) وما بعدها، وقد حسنها الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (١٩٤٤)، وحسناها الحافظ العراقي.

إلى مكة عن طريق البحر في السفن إلى جدة، وعن طريق البر على الإبل وغيرها. وهكذا كانت الأرزاق تصل إلى بلادهم، فكانت سفن الحبشة تصل إلى ميناء جدة، محملة بالطعام لبيعوه هناك، وكان رجال قريش يخرجون إلى جدة بالإبل والحمير، كي يشترون الطعام، وكذلك كان أهل اليمن يحملون الطعام على الإبل لبيعوه في مكة، وكان عندهم سوق عكاظ ومجنة وذى المجاز.

وكانوا يُقسّمون ربح تجارتهم بين الغني والفقير، حتى كان غنيهم كفقرهم على حد سواء.

وكانت القافلة المحملة بالبر والدقيق والزيت والثياب وغيرها تُستقبل بالفرح والبشر والترحاب، لأنها تحمل طعامهم وكساءهم لمدة نصف العام. ولم يكن يتعرض لهم أحد بسوء في رحلتهم، لأنهم سكان حرم الله الآمن، وؤلاة بيته العتيق.

وكانت العرب جميعاً تكرم قريشاً وتعظمها وتعزّزها لهذا الشرف الذي حباها الله به، وهو خدمة بيته الحرام، وكونهم من سكان الحرم.

ورحلة الشتاء والصيف، ضرب من السعي إلى المعاش بالتجارة والربح، وفيها بذل السبب المأمور به في تحصيل الرزق.

قال ابن عباس رضي الله عنهما عن نعمتي قريش وإيلافهم: كانوا يُشتون بمكة ويُصَيِّفون بالطائف، وقرأ السورة^(١).

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى (١١٦٣٥)، وقد تفرد به من بين الكتب الستة.

سُورَةُ الْمَاعُونِ (١٠٧)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

- ١ - (سورة الماعون) هي السورة السابعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والسابعة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة التكاثر) وقبل (سورة الكافرون). وهي سبع آيات في المصحف المكي والبصري والحمصى، وست آيات في غيرهم. وخمس وعشرون كلمة، ومئة وخمسة وعشرون حرفاً. والمشهور أن اسمها (سورة الماعون) وورد فيها خمسة أسماء أخرى هي:
 - ١- (سورة أرأيت). ٢- (سورة أرأيت الذي). ٣- (سورة الدين).
 - ٤- (سورة التكذيب). ٥- (سورة اليتيم).
 وهي سورة مكية عند الجمهور، وقيل: إن الآيات الثلاث الأولى مكية، وبقيتها مدني.
- ٢ - أسباب النزول وموضوع السورة:

وَرَدَ أَنَّ أَبَاسْفِيَانَ بْنَ حَرْبٍ - قَبْلَ إِسْلَامِهِ - كَانَ يَنْحَرُ جَزْوَراً كُلَّ أُسْبُوعٍ، فَجَاءَهُ مَرَّةً يَتِيمٌ، فَسَأَلَهُ شَيْئاً مِنَ اللَّحْمِ، فَفَرَعَهُ بِالْعَصَا. وَقِيلَ: إِنَّ أَبَاجَهْلَ، كَانَ وَصِيّاً عَلَى يَتِيمٍ، فَأَتَاهُ غُرْيَانًا، يَسْأَلُهُ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ، فَدَفَعَهُ دَفْعاً شَنِيعاً.

وهكذا كان شأن العاص بن وائل السهمي، والوليد بن المغيرة المخزومي، وعمرو ابن عائذ المخزومي^(١) وغيرهم.

وفي هذه السورة ستة أوصاف: ثلاثة منها للكافرين، وثلاثة أخرى للمنافقين. وهكذا فقد ذكرت السورة ثلاث صفات ذميمة متتابعة للكفار وهي:

(١) ينظر: تفسير ابن عاشور وابن الجوزي والخازن والبغوي وغيرهم للسورة.

١ - التّكذيب بيوم القيامة.

٢ - إهانة اليتيم.

٣ - عدم إطعام المسكين وعدم الحث على إطعامه.

ثم ذكرت ثلاث صفات أخرى للمنافقين وهي:

١ - تأخير أداء الصلاة عن وقتها.

٢ - الرياء.

٣ - البخل بقضاء الحوائج اليسيرة.

والسورة عامة في كل مَنْ كان هذا شأنه.

ويمكن أن تكون الصفات الخمس بعد الصفة الأولى، صفات لكل مكذب بالإسلام، ومكذب باليوم الآخر، وهو الذي سنسير عليه في شرحنا للسورة.

ومن شأن أهل الدين أنهم يتعرفون على حاجات الآخرين، ويسارعون في قضائها، فالدين مع الضعيف حتى يقوى، ومع الفقير حتى يستغني، ومع اليتيم حتى يكبر، ومع الهائم حتى يستقر، ومع الضال حتى يهتدي.

ولو أن أهل الدين ارتبطوا بدينهم، وساروا به سيرة حسنة، ما ظهرت الشيوعية ولا الرأسمالية ولا غيرهما، فالإسلام يرى أن إعانة المحتاج شرط في الإيمان، وأن العبادة الصورية لا تصل العبد بربه.

وهكذا فإن السورة تنطبق على الكافر الجاحد لأنعم الله، المكذب بالحساب والجزاء، وتنطبق على المنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله تعالى، بل يراني في أعماله وصلاته، وتوعدت الفريقين بالويل والهلاك وتعجبت من أحوالهم.

سُورَةُ الْكَوْثَرِ (١٠٨)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة الكوثر) هي السورة الثامنة بعد المئة في ترتيب المصحف، والخامسة عشرة في ترتيب النزول. نزلت بعد (سورة العاديات) وقبل (سورة التكاثر). وهي ثلاث آيات باتفاق، وعشر كلمات، واثنان وأربعون حرفاً. وتسمى (سورة الكوثر) وفي البخاري والترمذي (سورة إنا أعطيناك الكوثر). وسماها بعضهم (سورة النحر). فهذه ثلاثة أسماء لها: وهي سورة مكية، وعن الحسن ومجاهد وقتادة وعكرمة أنها مدنية، نزلت في صلح الحديبية تطيباً لخاطر النبي ﷺ. قلت: وهو الأظهر، لما فيها من الإشارة إلى ذكر صلاة عيد الأضحى وذبح الأضحية. وهي أقصر سورة في القرآن في عدد كلماتها وعدد حروفها. وهي سطر واحد كسورة الإخلاص، ولكن سورة الإخلاص تزيد في عدد الكلمات، وعدد الحروف، وعدد الآيات. وتتفق مع سورة العصر وسورة النصر في كونها ثلاث آيات ولكنها أكثر كلمات، وأكثر حروفاً منهما.

موضوع السورة:

وسورة الكوثر تتحدث عن فضل الله تعالى على رسوله ﷺ بإعطائه الخير الكثير، والنعمة العظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها: القرآن العظيم، والحوض المورود، والشفاعة العظمى. وفي ذلك تطيب لخاطر النبي ﷺ لِمَا حدث له يوم الحديبية حين صدّه المشركون عن المسجد الحرام. ولِمَا قاله المشركون حين مات أبناء النبي ﷺ الذكور، ولم يبق إلا الإناث.

فنزلت هذه السورة تهنئ النبي ﷺ وتبشره بالعطاء الواسع في الدنيا والآخرة، والثناء الجميل في العالمين، ومضاعفة الأجر، ورفع الذكر، إنه ﷺ أسعد المخلوقات، فهو سيد ولد آدم، وإمام الأولين والآخرين.

عن عمرو بن ميمون قال: لما طعن عمر ﷺ وهاج الناس، تقدم عبد الرحمن بن عوف، فقرأ بأقصر سورتين في القرآن ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَكَ الْكَوْثَرَ﴾ ﴿١﴾ و﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ﴿١﴾^(١).

حول سبب النزول:

(سورة الكوثر) تعكس صورة من الكيد والأذى للنبي ﷺ من المشركين في صدر الدعوة، لصرف الناس عن الحق الذي جاءهم به من عند الله، وكان من عادات العرب السيئة أن الرجل منهم إذا مات أبناءه الذكور، عيروه وأظهروا الشماتة به، وقالوا: بتر، يعني انقطع ذكوره، ولم يبق له أثر.

فلما مات أبناء النبي ﷺ الذكور في حياته: كالقاسم وإبراهيم، قال سفهاء قريش، كالعاص بن وائل، وعقبة بن أبي معيط، وأبي جهل وغيرهم: إنه أتر - إشارة إلى موت أولاده ﷺ في حياته ومعنى ذلك أن ذكره سينقطع - ولا يبقى له أثر - على حدّ زعمهم - . وقال أحدهم: دغوه فإنه سيموت بلا عقب - أي بلا ذرية - وينتهي أمره، فأنزل الله سبحانه هذه السورة^(٢).

وهذه جملة من الآثار في هذا المعنى :

١ - جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان أكبر ولد النبي ﷺ القاسم، ثم زينب، ثم عبد الله، ثم أم كلثوم، ثم فاطمة، ثم رقية، فمات القاسم، وهو أول ميت من أهله وولده، ثم مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع أثره، فهو

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٥٦/٢).

(٢) انظر سبب النزول في تفسير الطبري، وابن كثير، وفي زاد المسير في علم التفسير، وفي مسائل نافع بن الأزرق (٢٧٠).

أبتر، فأنزل الله السورة^(١).

٢ - وبعد أن توفي القاسم وعبد الله، رأى المشركون رسول الله ﷺ مع العاص بن وائل عند باب بني شيبه بالمسجد الحرام، فلما وصل إليهم العاص قالوا له: من الذي كنت تتحدث معه؟ قال: ذلك الأبتر، وكانوا يصفون من لا ولد له بالأبتر، فنزلت السورة^(٢).

٣ - وعن ميمون بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: ولدت خديجة من النبي ﷺ عبد الله، ثم أبطأ عليه الولد من بعده، فبينما رسول الله ﷺ يكلم رجلاً، والعاص بن وائل ينظر إليه، إذ قال له رجل: من هذا؟ قال: هذا الأبتر، يعني النبي ﷺ وكانت قريش إذا وُلِدَ للرجل ولدٌ، وأبطأ عليه الولد من بعده، قالوا: هذا الأبتر، فأنزل الله ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(٣) أي أن مبغضك هو الأبتر، الذي بُتر من كل خير^(٤).

٤ - وهكذا قال عقبه بن أبي معيط: إنه لا يبقى للنبي ﷺ ولد، وهو أبتر^(٥).

٥ - وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال: لما قدم كعب بن الأشرف مكة، قالت قريش: أنت خير أهل المدينة وسيدهم؟ قال: نعم، قالوا: ألا ترى إلى هذا المنبتر من قومه، يزعم أنه خير منا؟ ونحن أهل الحجيج، وأهل السدانة، قال: أنتم خير منه، فنزلت ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾^(٦) ونزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ وَأَلْفَعُونَ﴾^(٧) إلى قوله: ﴿فَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾^(٨) [النساء: ٥٢].

ولعل هذه المقالة تركت أثراً في نفس النبي ﷺ أو مسّته بشيء من الغم، فكانت هذه السورة تطيباً لخاطره صلوات الله وسلامه عليه، وتسرية عنه، وترويحاً عن نفسه، ثم

(١) أخرجه ابن سعد (٧/٣)، وابن عساكر (١٢٦/٣)، وهو في تفسير فتح القدير (٥/٥١٠)، وفي إسناده الكلبي وهو ضعيف.

(٢) تفسير البغوي (٤/٥٣٤).

(٣) أخرجه ابن عساكر (١٢٨/٣).

(٤) تفسير الطبري (٢٤/٦٩٩).

(٥) النسائي في السنن الكبرى (١١٦٤٣)، والبخاري في التلخيص (٢٢٩٣)، والطبراني في الكبير (١١٦٤٥)، وابن حبان (٦٥٧٢)، والطبري (١٤٢/٧)، وابن أبي حاتم (٣/٩٧٣).

هي تُبَيِّن حقيقة البشر والقطع، وأنه ليس كما زعم هؤلاء الجهال، فأثار الشخص بما يُقَدِّم لأُمته، وإنَّ ذِكْرِي النبي ﷺ باقية على رؤوس الأشهاد، وشُرْعَه قائم على رقاب العباد، مستمر دوام الآباد، إلى يوم الحشر والمعاد، وقد أعطاه الله تعالى الخير الكثير في الدنيا والآخرة، بما يُخَلِّد أثره، وينفع أُمته، ويتعدى نفع هذا الخير من الثقلين إلى العالمين، فهو ﷺ مرسلٌ رحمة للعالمين.

وهكذا فإن السورة تهنئة سريعة وبشرى حسنة للنبي ﷺ تبشره بوسع العطاء، والاصطفاء على العالمين، والثناء عليه في الأرض والسماء، فما من لحظة تمرّ إلا وصلاة تنبعث من ملك مقرب، أو عبد صالح، تضاعف أجره، وترفع ذكره.

* * *

سُورَةُ الْكَافِرُونَ (١٠٩)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الكافرون) هي السورة التاسعة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثامنة عشرة في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الماعون) وقبل (سورة الفيل). وهي ست آيات، وست وعشرون كلمة، وأربعة وتسعون حرفاً، وهي سورة مكية. أ - وتسمى (سورة الكافرون) بالرفع، على حكاية لفظ القرآن، وسماها بعضهم: (سورة الكافرين) على الإضافة.

ب - وعُنوان لها البخاري بـ (سورة قل يا أيها الكافرون).

ج - وتسمى (سورة الإخلاص) فتشترك مع (قل هو الله أحد) في هذا الاسم.

د - كما تسمى هي، وسورة الإخلاص، وسورة براءة (المقشقة) لأن السور الثلاث تُقَشِّشُ، أي تُبْرِئُ من الشرك والنفاق.

هـ - ويقال لها أيضاً: (سورة العبادات) و (سورة الدين) فهذه ستة أسماء^(١).

٢ - موضوع السورة:

و(سورة الكافرون) هي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والكفر، وفيها قطع أطماع غير المسلمين أن يدخل المسلمون في دينهم، فإن العقائد المختلفة لا تتوحد، ومن الخير أن تقوم العلاقات الدولية، على الاعتراف بتعدد الشرائع وفتح المجال للمناظرة والحوار، والجدال الحسن، فالإسلام لا يُكره أحداً على الدخول فيه، ولكنه يطرح مبادئه ومحاسنه في الساحة العالمية، لمن يرغب في الدخول فيه، ويدعو المسلمين على أن يُعرِّفوا شعوب العالم بالإسلام في وسائل الإعلام المختلفة بلغاتهم.

(١) ينظر: تفسير التحرير والتنوير (٥٧٩/٣٠).

وقد شرع الجهاد منعاً للفتنة، وإزالةً للعقبات التي تمنع الناس من الدخول في الإسلام، كما شرع ردّاً للعدوان، وشرع الجدل بالتي أحسن بالنسبة لغير الظالمين من أهل الكتاب.

وفي سورة هود نبذة من تاريخ البشر، تبين الصراع بين المؤمنين والكافرين على مدى العصور، وفي نهايتها يقول الله تعالى لنبيه: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَرَالُونَ تَخَلُّفِينَ﴾ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿هود: ١١٨ - ١١٩﴾.

والسورة التي بين أيدينا تُشبه قول الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتِهِمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ١٤٥].

٣ - توحيد الربوبية يقربه غير المسلمين:

كان الكفار يقرّون ويعترفون بالله تعالى، ولا يجحدون وجوده سبحانه، وقد ذكر القرآن الكريم أنهم كانوا يعترفون بالله رباً، خالقاً للسموات والأرض، مسخراً للشمس والقمر، رازقاً للكون، منزلاً للماء من السماء، يدبر الأمر، يحيي ويميت، يملك السمع والأبصار، بيده ملكوت كل شيء، يجير ولا يجار عليه.. الخ.

١- كما قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦١].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

٣- وقال جل شأنه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [يونس: ٣١].

٤- وقال عز وجل: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴿[المؤمنون: ٨٤ - ٨٥].

ومع هذا الاعتراف فهم يعبدون غير الله، وهذا تناقض، فإن الخالق الرازق المدبر،

هو الذي يُعبد، وهو الذي يُدعى ويُسأل، وهو أقرب إلى خلقه من جبل الوريد، لا يحتاج إلى شريك ولا وسيط.

٤ - من الشرك بالله: اتخاذ وسائط تقرب إليه سبحانه:

والمشركون مع إقرارهم بالله رباً، فإنهم في الوقت نفسه يتقربون إلى الله تعالى بأصنامهم، ويتوسلون بها إليه سبحانه، وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن بينه وبين الجنة نسباً، وكانت لهم شعائر وتقاليد حيث يجعلون لآلهتهم نصيباً مزعوماً في زرعهم وأنعامهم وأولادهم، يقدمونه لهم، وغير ذلك، كتحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

ولم يزل يوجد هنا وهناك، من يتوسل ويتقرب إلى الله تعالى بالأضرحة، وينذر لها، ويذبح لها، ويدعوها، ويسألها الخير ودفع الضر، ويطلب منها المدد والعون، ويزعم أنه لو لم يف بنذره، أو بعادته، فإن صاحب الضريح سيضره!! ونحو ذلك كثير، وهذا هو عين ما كان عليه أهل الجاهلية، ممن قاتلهم النبي ﷺ واستحل دماءهم وأموالهم.

ومع أن المشركين يزعمون أن الملائكة بنات الله، وأن بينه وبين الجنة نسباً، فهم يزعمون أنهم أهدى من اليهود الذين يقولون: عزير ابن الله، وأهدى من النصارى الذين يقولون: المسيح ابن الله، ويعتقدون أنهم على دين إبراهيم، فلما جاء محمد ﷺ وقال: إنه على دين إبراهيم، قالوا نحن على دين إبراهيم، ولا حاجة بنا لأن نترك ما نحن عليه، وأخذوا يحاورون النبي ﷺ ليضعوا حلاً وسطاً، فطلبوا منه أن يسجد لآلهتهم مقابل أن يسجدوا لإلهه، وهذا ما تحدث عنه هذه السورة.

٥ - سورة الكافرون في السنة النبوية:

هذه جملة من الأحوال التي تُقرأ فيها سورة الكافرون:

أولاً: إن فيها البراءة من الشرك لمن قرأها:

١ - قال الإمام أحمد: عن مهاجر أبي الحسن، عن شيخ أدرك النبي ﷺ قال: خرجت مع النبي ﷺ في سفر، فمر رجل يقرأ؟ ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: «أما هذا فقد برىء من

الشرك» قال: وإذا آخر يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: النبي ﷺ: «بها وجبت له الجنة»^(١).

٢- وعن جابر بن عبد الله أن رجلاً قام فركع ركعتي الفجر، فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فقال النبي ﷺ: «هذا عبد عرف ربه» وقرأ في الثانية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال النبي ﷺ: «هذا عبد آمن بربه»^(٢).

ثانياً: يستحب قراءتها عند النوم في ختام أعمال اليوم:

أ - سأل فزوة بن نوفل الأشجعي، عن أبيه، سأل رسول الله ﷺ ماذا يقول عند منامه؟ فقال: «اقرأ عند منامك ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ثم نم على خاتمتها، فإنها براءة من الشرك»^(٣).

ب - وعن عبد الرحمن بن نوفل الأشجعي عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، إني حديث عهد بشرك، فمُرني بآية تُبرّني من الشرك، فقال: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ قال: «فما أخطأها أبي من يوم ولا ليلة حتى فارق الدنيا»^(٤).

ثالثاً: فيها شفاء من لدغ العقرب مع المعوذتين:

عن علي رضي الله عنه قال: (لَدَغَتِ النَّبِيَّ ﷺ عقرب، وهو يصلي، فلما فَرَغَ قال: «لعن الله

(١) قال الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا في الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد: وسنده جيد، وجهالة الصحابي لا تضر، راجع الفتح الرباني (٣٣٩/١٨)، تفسير سورة الكافرون وقال محققو المسند: حديث صحيح وهو برقم: (٢٣١٩٤، ١٦٦١٧، ١٦٦٠٥)، والحديث أخرجه الدارمي (٢/ ٤٥٨)، والنسائي في الكبرى (٨٠٢٨)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٥/٧)، ورواه أحمد بإسنادين في أحدهما شريك، وفيه خلاف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) ابن حبان (٢٤٦٠) قال محققه: إسناده قوي وأخرجه أيضاً البيهقي (٢٥٢٤).

(٣) قال في الفتح الرباني: ورواته ثقات، فلا يضره مخالفة من أرسله، والسائل هو: فزوة بن نوفل الأشجعي عن أبيه، راجع النص الكامل للحديث في المسند: (٤٥٦/٥) (٢٣٨٠٧)، وابن أبي شيبة (٦٥٧٩)، وأبي داود (٥٠٥٥)، والنسائي (٧٢٩)، والترمذي (٣٤٠٣)، وصححه الحاكم (٥٣٨/٢)، ووافقه الذهبي والبيهقي في الشعب برجال ثقات (٢٢٩٠)، وهو في صحيح سنن أبي داود (٤٢٢٧).

(٤) قال محقق سنن سعيد بن منصور: سنده صحيح (١٢٨)، وأخرجه أيضاً ابن أبي شسبة (٧٤/٩) (٢٤٩/١٠).

العقرب، لا تَدْعُ مُصَلِّياً ولا غيره»، ثم دعا بماء وملح فجعل يمسح عليها ويقول: ﴿قُلْ يَتَّيْنَاهُ الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١).

رابعاً: قراءتها في السفر:

ورد في الأثر استحباب قراءتها مع ما بعدها من السور الخمس في السفر، فإنها تكون سبباً في حسن الهيئة وكثرة الزاد لقارئها^(٢).

خامساً: القراءة بها مع سورة الإخلاص في الصلاة:

ورد أن النبي ﷺ قرأ بها، وَقُلْ هو الله أحد، في ركعتي الطواف، وفي ركعتي الفجر (السنة) وفي صلاة المغرب، وفي الركعتين بعد المغرب، وفي السفر، وفي صلاة الوتر، وكان يكثر من ذلك:

١- فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان يقرأ في المغرب ﴿قُلْ يَتَّيْنَاهُ الْكَافِرُونَ﴾ و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾^(٣).

٢- وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا طاف بالبيت ثم صلى ركعتين، قرأ فيهما بهما^(٤).

٣- وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قرأ بهما في ركعتي الفجر^(٥) أي في صلاة السنة.

٤- وقال ابن عمر رضي الله عنهما: رمق النبي ﷺ خمساً وعشرين مرة - وفي لفظ:

(١) رواه الطبراني في الصغير بإسناد حسن (٢٣/٢)، راجع مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للحافظ نور الدين الهيثمي (ج ٥ ص ١١١) الطبعة الثانية (١٩٦٧م)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨).

(٢) ورد هذا في حديث أخرجه أبويعلى عن جبير بن مطعم برقم (٧٤١٩)، قال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٣٣/١٠): وفيه من لم أعرفهم.

(٣) صحيح سنن ابن ماجه (٩٥٧)، ومشكاة المصابيح (٨٥٢)، والترمذي (٤٣٢).

(٤) من حديث طويل في صحيح مسلم (١٢١٨)، والبيهقي في السنن بسند صحيح (٩١/٥).

(٥) صحيح مسلم (٧٢٦)، والبيهقي في السنن (٤٢/٣)، وأبوداود (١٢٥٦)، وابن ماجه (١١٤٨)، والنسائي في الكبرى (١٠١٩، ١١٦٤٤)، وعن عائشة في صحيح سنن ابن ماجه (٩٤٤)، وابن أبي شيبة (٢٤٢/٢)، وابن حبان (٢٤٦١)، والبيهقي في الشعب (٥٢٥٢).

شهرًا - كان يقرأ بهما في الركعتين قبل الفجر، والركعتين بعد المغرب^(١).
سادساً: كونها تعدل ربع القرآن:

فقد جاء في الأثر أن هذه السورة تعدل ربع القرآن^(٢).

ووجه ذلك: أن القرآن مشتمل على الأمر والنهي، وكل منهما يتعلق بعمل القلوب أو الجوارح، فهي أقسام أربعة، وسورة الكافرون مشتملة على النهي عن عبادة غير الله تعالى، وهو جانب اعتقادي من أعمال القلوب، فكانت لهذا تعدل ربع القرآن.
وقيل: لأن القرآن يشتمل على التوحيد، والرسالة، وأحوال الدنيا، وأحوال الآخرة.
وهذه أقسام أربعة، والسورة اقتضت على التوحيد لتضمينها البراءة من الشرك، والتدين بدين الحق، وهذا هو التوحيد والدين الخالص^(٣).

٦- سبب النزول:

قال الواحدي وغيره: نزلت في رهط من قريش، قالوا: يا محمد، اتَّبِعْ دِينَنَا وَتَتَّبِعْ دِينَكَ، تعبد آلهتنا سنة، ونعبد إلهك سنة، فإن كان الذي جئت به خيراً مما بأيدينا، قد شركناك فيه، وأخذنا بحظنا منه، وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك، فقد شركت في أمرنا، وأخذت بحظك، فقال: مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ أَشْرِكَ بِهِ غَيْرَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ ۝١﴾ الخ فغدا رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وفيه الملاء من قريش، فقرأها عليهم حتى فرغ من السورة، فأيسوا منه عند ذلك وآذوه وأصحابه، وأمعنوا في

(١) صحيح سنن الترمذي (٣٤١) بإسناد صحيح (الألباني)، والمسند (٥٦٩١، ٤٩٠٩) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه)، وابن أبي شيبة (٢/٢٤٢)، والنسائي (٩٩١)، وابن ماجه (٩٤٣)، وابن حبان (٢٤٥٩)، ومصنف عبد الرزاق (٤٧٩٠)، والمشكاة (١/٢٦٨).

(٢) في حديث عند أحمد وغيره من رواية أنس، قال في الفتح الرباني عند سورة الزلزلة: وفي إسناده سلمة ابن وردان ضعفه أحمد وغيره، وحسنه الترمذي، ولعل تحسين الترمذي له لكثرة طرقه، وجاء أيضاً عن أبي هريرة وسعد بن أبي وقاص كما في الطبراني الصغير (١/٦١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٧).

(٣) ينظر: الفتح الرباني لترتيب المسند (ج ١٨) (ص ٣٣٢).

ذلك فقالوا له: دع ما أنت عليه ونحن نُؤمِّلُكَ ونزوِّجُكَ من شئت ونُملِّكَك علينا، وإن لم تفعل فلتعبد آلهتنا ونعبد إلهك حتى نشترك^(١).

وهؤلاء الرهط هم: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمية بن خلف، قالوا للنبي ﷺ فلتعبد ما نعبد، ونعبد ما تعبد، فإن كان ما نحن عليه أصح، كنت قد أخذت منه حظاً، وإن كان ما أنت عليه أصح كنا قد أخذنا منه حظاً، فأنزل الله السورة^(٢).

والمعنى يشمل كل كافر على وجه الأرض، ويشمل كل مDAHنة ومتابعة ومناصرة وملاطفة للكفار في مجال العقيدة، أو الرضى بعقيدتهم، والمشاركة في طقوسهم وأعيادهم الدينية.

والكفر كله ملة واحدة، وكل من لم يؤمن بمحمد ﷺ نبياً ورسولاً فهو كافر، من أهل الكتاب أو من غيرهم.

* * *

(١) تفسير البغوي (٥٣٥/٤)، وتفسير القرطبي (٢٢٥/٢٠)، وتفسير الطبري (٧٠٣/٢٤)، والطبراني في الصغير

(٢٦٥/١)، وفي إسناده أبوخلف عبد الله بن عيسى، متكلم فيه.

(٢) ينظر: تفسير الطبري (٧٠٣/٢٤)، وأسباب النزول للواحدي النيسابوري.

سُورَةُ النَّصْرِ (١١٠)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

(سورة النصر) هي السورة العاشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والرابعة عشرة بعد المئة في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة براءة، ولم ينزل بعدها سورة كاملة. وهي ثلاث آيات، وسبع عشرة كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً. وهي أطول من سورة الكوثر في عدد الكلمات، وأقصر من سورة العصر، والسور الثلاث متفقة في عدد الآيات، ولكنها مختلفة في الطول والقصر. وشهرتها (سورة النصر) ولها ثلاثة أسماء أخرى هي:

أ - (سورة إذا جاء نصر الله والفتح) كما جاء في صحيح البخاري.

ب - (سورة الفتح) كما جاء في جامع سنن الترمذي، فتشترك مع سورة الفتح في هذا.

ج - (سورة التوديع) كما في الإتيان للسيوطي عن ابن مسعود رضي الله عنه، فهذه أربعة أسماء. وهي سورة مدنية، باعتبار أن كل ما نزل من القرآن بعد الهجرة فهو مدني، وإلا فقد نزلت في (منى) أيام التشريق في حجة الوداع، قبل موت النبي ﷺ بنحو ثلاثة أشهر، كما قال ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنه.

وقيل: إنها نزلت مُنْصَرَفَ النبي ﷺ من خيبر، أي سنة سبع^(١) وهو قول مردود.

٢- موضوع السورة:

نزلت هذه السورة في أواخر عُمرِ النبي ﷺ لتهنئته ﷺ بفتح مكة، ودخول الناس في دين الله أفواجا، بعد أن سقطت الأصنام وذهبت دولتها، وامتألت الآفاق بالمؤمنين يُعلنون ليلاً ونهاراً أن الله تعالى واحد أحد، وأن الحجارة التي كانت تُعبد من دون الله قد تصلح لرصف الطريق أو بناء الدور!

لقد انتشر الإسلام، وتقلّمت أظافر الشرك والضلال، وارتفعت راية الدعوة بدخول

(١) رواه الطبري (٢١٥/٣٠)، والطبراني عن ابن عباس، المعجم الكبير (٣٢٨/١١) بسند مرسل فيهما.

الناس في دين الله أفواجاً.

لقد أدى محمد ﷺ رسالته بعد جهاد طويل، ومحا الخرافات التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي.

وبعد أن قام النبي ﷺ من الليل حتى تورّمت قدماه، بسبب استغراقه في عبادته ومناجاة ربه، مع أن الله تعالى قد وعده أن يغفر له مغفرة تامة، لا مؤاخذه عليه بعدها، في شيء مما كان يختلج في نفسه، من تقصير أو مخالفة الأولى ونحو ذلك.

لم يبق لرسول الله ﷺ بعد ذلك إلا أن يعود إلى ربه، لينعم بجواره مع المرسلين الأولين والملائكة المقربين، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، ليجزيه خيراً عن جهاده الطويل.

٣ - آخر سورة نزلت:

فسورة النصر آخر سورة كاملة نزلت على رسول الله ﷺ نزلت بمنى أو وسط أيام التشريق في حجة الوداع^(١) ونزل في حجة الوداع أيضاً آية ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] وعاش النبي ﷺ بعدها سبعاً وثمانين يوماً، وقيل غير ذلك.

وآخر آية نزلت من القرآن: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] وعاش النبي ﷺ بعدها واحداً وعشرين يوماً^(٢).

عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: قال ابن عباس رضي الله عنها: أتدرى آخر سورة نزلت من القرآن، نزلت جميعاً؟ قلت: نعم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال: صدقت^(٣).

٤ - سورة التوديع:

وسورة النصر تسمى سورة (التوديع) لما فيها من الدلالة على توديع الدنيا:

(١) سنن البيهقي (١٥٢/٥)، وفي الدلائل (٤٤٧/٥)، وعبد بن حُميد (٨٥٦) منتخب، والبخاري في الكشف (١١٤١).

(٢) حكاها ابن عبد السلام، راجع تحقيق زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي (٢٥٦/٩).

(٣) صحيح مسلم برقم (٣٠٢٤)، وسنن النسائي الكبرى (١١٧١٣)، وفي ط الرسالة (١١٦٤٩)، والمعجم الكبير للطبراني (٣١٩/١٠)، والحديث عند ابن أبي شيبة (١٠٤/١٤).

- ١- لأنها دلّت على نعي النبي ﷺ ودُنُو أجله، وقد عرف الصحابة ذلك، حين خطب النبي ﷺ وقال: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللَّهِ»^(١).
- ٢- ولدلالة السورة على حصول التمام والكمال للدعوة الإسلامية، بحصول النصر والفتح، ودخول الناس في دين الله أفواجاً.
- ٣- ولأن الله تعالى قد أمر رسوله ﷺ بالتسبيح والتحميد والاستغفار، شُكراً لله تعالى على الفتح والنصر، وتبنيهاً له على أَنْ تبليغ الدعوة قد تم وكُمُل، وهذا يقتضي انقضاء الأجل.
- عن عائشة رضي الله عنها قالت (كان رسول الله ﷺ يُكثِر في آخر أمره من قول سبحان الله وبحمده، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ) قالت: فقلت: يا رسول الله، مَالِي أَرَأَيْكَ تَكْثُرُ مِنْ قَوْلٍ: سبحان الله وبحمده أَسْتَغْفِرُهُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ قَالَ ﷺ: «إِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ كَانَ قَدْ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتَهَا أَنْ أَسْبَحَ بِحَمْدِهِ وَأَسْتَغْفِرَهُ، إِنَّهُ كَانَ تَوَاباً»، فَقَدْ رَأَيْتَهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (١) الخ السورة^(٢).
- لقد كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان الناس، قلقاً على مستقبل الدعوة، فلما رأى ﷺ علامة ربه في الأمة، فَفُتِحَتِ الْبِلَادُ الْمَغْلُوقَةُ، وَالْقُلُوبُ الْمَقْفُولَةُ، أدرك ﷺ أن واجبه في الأرض قد كَمُل، وأنه سيلقى ربه قريباً، فأقبل على ربه يشكره ويُثْنِي عليه، ونزلت عليه سورة النصر، وكان في هذا نعيه ﷺ للناس، ودلالة على قرب أجله بتمام الفتح والنصر، والحق بالرفيق الأعلى بعد كمال الرسالة، فأسرَّ عليه الصلاة والسلام بذلك إلى فاطمة رضي الله عنها كما سيأتى في الحديث الرابع، وأكثر من الصلاة والتسبيح والتحميد والاستغفار، وأشار ابن عباس رضي الله عنهما إلى هذا في رواياته السابقة، وفيها توديع للدنيا بعد فتح مكة، ودخول الناس في دين الله جماعات جماعات.
- ٥ - السورة تنعي رسول الله ﷺ:

١ - يشهد لهذا ما صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عمر ؓ كان يُدخل ابن

(١) ينظر حديث أبي سعيد الخدري في البخاري (٤٦٦).

(٢) المسند (٣٥/١) برقم (٢٥٥٠٨) (٢٤٠٦٥) وهذا لفظه، وهو بإسناد صحيح على شرط مسلم ورجال ثقات (محققه)، وابن حبان (٦٤١١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٩) وغيرهم، وصحيح مسلم برقم (٤٨٤).

عباس وهو صغير على كبار الصحابة ويُجلسه معهم، فدعاه ذات يوم، وسأل شيوخ بدر: ما تقولون في قوله تعالى ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نُصِرْنَا وُفِّتْ عَلَيْنَا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً.
فقال عمر ما تقول يا ابن عباس؟ فقال: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ أَعْلَمُهُ له بظهور علاماته، وهو النصر والفتح، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول^(١).
ولما نزلت سورة النصر أخبر عليه الصلاة والسلام أن نفسه نُعيت إليه، وأنه مقبوض في تلك السنة.

٢- ولما نزلت السورة في منى بكى عمر والعباس رضي الله عنهما فُسَيْلاً عن السبب، فقالوا: فيها نعي رسول الله ﷺ فقال ﷺ: «صدقتما نُعيت إلي نفسي»^(٢).
٣- وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن عمر رضي الله عنهم سألهم عن قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قالوا: فَتَحَ المَدَائِنَ والقصور، قال: ما تقول يا ابن عباس: قال: أَجَلٌ، أو مَثَلٌ ضُرِبَ لمحمد ﷺ نُعيت له نفسه^(٣).
٤- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة، فقال: «إِنَّهُ نُعيت إلي نفسي» فبكّت، فقال لها: «لا تبك فإنك أول أهلي لاحق بي»، فضحكت..^(٤)

٥- وأخبر ابن عباس عن عكرمة أنه لما نزلت السورة اجتهد النبي ﷺ أشد ما يكون الاجتهاد في أمر الآخرة، وطلبه مرضاة ربه، وقال بعد ذلك: «جاء الفتح والنصر، وجاء أهل اليمن»، فقال رجل وما أهل اليمن؟ قال: «قوم رقيقة أفئدتهم، لينة قلوبهم، الإيمان

(١) راجع نص الحديث في صحيح البخاري برقم (٣٦٢٧، ٤٤٣٠، ٤٩٧٠)، والترمذي (٣٣٦٢)، والمسند (٣١٢٧)، وفي الفتح الرباني (ج ١٨) (ص ٣٤٠)، والطبراني (١٠٦١٦)، والبيهقي (١٦٧/٧)، وسنن النسائي الكبرى (٣٦٥٤، ٣٩٠٤، ٧٠٤٠، ١١٦٤٧).

(٢) ينظر الآثار الواردة في ذلك في الدر المنثور (٧٢٢/١٥) وما بعدها.

(٣) ينظر صحيح البخاري (٤٩٦٩) وأخرجه ابن مَرْدُوَيْهِ أيضاً.

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله رجال الصحيح غير هلال بن خباب وهو ثقة وفيه ضعف، انظر: الحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج ٩ ص ٢٣)، والبيهقي في دلائل النبوة (١٦٧/٧).

والفقه يمان، والحكمة يمانية»^(١).

٦- وكان عليه الصلاة والسلام قبل موته يكثّر من قوله: «سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك» فسألت أم سلمة: رسول الله ﷺ عن سبب ذلك، فأخبرها أنه أمر بذلك في سور النصر^(٢).

٧- قالت عائشة رضي الله عنها: ما سمعت رسول الله ﷺ منذ أنزلت هذه السورة إلا يقول مثلها «سبحانك اللهم ربنا ولك الحمد، اللهم اغفر لي»^(٣).

وهذا يفيد أن السورة نزلت بعد فتح مكة، لما في هذه الأدلة من قرب أجل النبي ﷺ بعد تحقيق فتح البلاد، والنصر على العباد، والأمر بكثرة التسبيح والاستغفار، والتهيؤ للقاء الله تعالى، وأن حياته الدنيوية قد أوشكت على الانتهاء، وبالتالي انتهاء أعمال الطاعات والقربات، فلم يبق إلا سؤال الله تعالى التجاوز عما يعرض للإنسان من استغلاله لبعض الحظوظ الدنيوية.

وطلاب الدنيا هم الذين ينشدون الاستمتاع بثمرات النصر الذي أحرزوه، ولكن النبي ﷺ وهو في قمة السلطة، وقد اندحرت جميع القوى أمام جيشه وانحسر المدّ الروماني وراء حدود الجزيرة، واستسلمت له المستوطنات اليهودية، ومع هذا فإنه ﷺ قد مات ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام أتى به لأهل بيته!!

(١) رواه الطبراني في الكبير (١١٩٠٣، ١١٩٠٤) والأوسط، وأحد أسانيد رجاله رجال الصحيح، المجمع (٢٣/٩)، وسنن النسائي الكبرى برقم (١١٦٤٨)، وفي السنن برقم (٧٣٢)، وفي المسند برقم (٧٧٠٩) بتصحيح أحمد شاكر، وفي الدارمي (٣٧/١)، والطبري (٣٣٢/٣٠)، وابن حبان (٧٢٩٨).

(٢) رواه الطبراني في الصغير ورجاله رجال الصحيح، المجمع (٢٣/٩)، وتفسير الطبري (٢١٦/٣٠)، وانظر الفتح الرباني (ج ١٨) (ص ٣٤١).

(٣) هذا لفظ ابن جرير (٧١٠/٢٤)، وبنحوه في البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤)، وابن حبان (٦٤١١)، والبيهقي في الشعب (٢٥٢٩) وغيرهم.

سُورَةُ الْمَسَدِ (١١١)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة المسد) هي السورة الحادية عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والسادسة في ترتيب النزول، نزلت في السنة الرابعة من البعثة بعد (سورة الفاتحة) وقبل (سورة التكويد).

وهي خمس آيات، وعشرون كلمة، وسبعة وسبعون حرفاً، وهي سورة مكية باتفاق. وتسمى (سورة المسد) و (سورة تبت) وسماها بعضهم (سورة أبي لهب) وعنون لها أبوحيان بـ (سورة اللهب)، فهذه أربعة أسماء.

٢- تحدثت السورة عن قصة أبي لهب، وقد كان شديد العداوة لرسول الله ﷺ يترك عمله ويتبع الرسول ﷺ ليضد الناس عنه، وقد توعدّه الله تعالى في هذه السورة تعالى بالنار الموقدة، واختص زوجته بلون خاص من العذاب، بتطويق عُقْطِهَا بحبل من ليف لثُجَذِبَ به إلى النار، فقد كانت امرأة شريرة متسلّطة، شديدة العداوة للنبي ﷺ.

وزوجة أبي لهب (أروى بن حرب) أخت أبي سفيان، وكنتيتها (أم جميل). وكان أبولهب أجراً الناس على رسول الله ﷺ وأسرعهم إلى تكذيبه، وقد انفرد من بين أعمام النبي ﷺ بالخصومة العنيفة له ﷺ ولزمها إلى أن مات.

وامتدت خصومته إلى بنات النبي ﷺ فأمر أولاده فطلّقوا زوجاتهم من بنات محمد ﷺ. وقد نزلت هذه السورة في الأيام الأولى للإسلام، وكان في وسع أبي لهب أن يكذّبها بالدخول في الإسلام، وأنّى له أن يفعل، وقد سبق علم الله تعالى بأنه لن يؤمن، وظل الرجل على عداوته للإسلام ورسول الإسلام، حتى مات، وصدق فيه قوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (٢).

فلم تغن عنه أمواله، ولم يغن عنه نسبه، ولم يغن عنه جاهه، وقد أعمى الله زوجته

عندما أرادت أن تؤذى النبي ﷺ فصرفت بصرها عنه، فلم تره وهو أمامها، وقد حفظ الله نبيه منها ومن زوجها، وتوعدهما الله تعالى بالعذاب الأليم يوم لقاء رب العالمين، نصرة لنييه وعبرة لأمثالهما إلى يوم قيام الساعة، من كل مَنْ وقف في وجه الدعوة إلى الله ومنع وصولها إلى الناس، ويؤذي صاحب الدعوة بشكل أو بآخر.

* * *

سُورَةُ الْإِخْلَاصِ (١١٢)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الإخلاص) هي السورة الثانية عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والثانية والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الناس) وقبل (سورة النجم). وهي خمس آيات عند أهل مكة والشام، وأربع آيات عند بقية علماء العدد وسورة المسد خمس عشرة كلمة، وسبعة وأربعون حرفاً.

وشهرتها (سورة الإخلاص) ولها أسماء أخرى كثيرة منها:

أ - (سورة قل هو الله أحد). ب - (سورة التوحيد).

ج - (سورة الأساس) لاشتغالها على أساس الإسلام وهو التوحيد.

د - (سورة الصمد). فهذه خمسة أسماء.

وقد ذكر الجمل والفخر الرازي لها عشرون اسماً منها: التجريد، والتفريد، والنجاة، والولاية، والمعوذة، والمانعة، والمنفرة، لأنها تنفر الشيطان، والمذكرة، والنور، والأمان. وهي سورة مكية عند الجمهور، وقال بعضهم: إنها مدنية، وقيل: إنها نزلت مرتين، مرة بمكة، ومرة بالمدينة، جمعاً بين روايات أسباب النزول، والصحيح أنها سورة مكية جمعت أصول التوحيد.

٢ - موضوع السورة:

و(سورة الإخلاص): سطر واحد، تعدل ثلث القرآن، لأنها لخصت أصول الاعتقاد، وتحدثت عن صفات الله تعالى الجامعة لصفات الجلال والكمال، وهو سبحانه المقصود على الدوام، الغني عما سواه، وهذه الصفات نزّهته سبحانه عن كل نقص، وعن المماثلة، ونزّهته عن المجانسة، وعن البنوة والتثليث.

ذلكم أن رب العالمين واحد، لا ثاني له، ولا ثالث، ولا والد له ولا ولد، فالقول

بغير هذا عبث وهراء:

- ١ - قال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ﴾ [النحل: ٥١].
 - ٢ - وقال سبحانه في الرد على القائلين بالتثليث: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].
 - ٣ - وقال جل شأنه في الرد عليهم أيضاً: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١].
 - ٤ - وقال عز وجل: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا الذَّهَبُ كُلُّهُ يَخْلُقُ بِمَا يَخْلُقُ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [المؤمنون: ٩١].
 - ٥ - وقال جل جلاله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].
- وهذه أدلة عقلية تجعل القول بتعدد الآلهة أو الشرك خرافة، وصفر على الشمال.
- والقائلون بالتثليث يرون أن الآلهة ثلاثة، وهذه الآلهة الثلاثة، إله واحد، مكون من الأب والابن والروح القدس، وهي معادلة عسيرة الفهم، إذ كيف يكون الواحد ثلاثة، والثلاثة واحداً، وإذا كان الثلاثة واحداً، وهذا الواحد قد صُلب - على حدّ زعمهم - فإن العالم يكون قد فقد إلهه حيناً من الدهر، وإن كان المصلوب هو الابن الوحيد، فإنه ليس بإله يقيناً، إذ كيف يصلب الإله؟ ولمن شاء أن يعتقد ماشاء، فالإسلام لا يحجر على إيمان أحد:
- أحاديث في السورة:

١ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يوشك الناس أن يتساءلوا بينهم، حتى يقول قائلهم: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فإذا قالوا ذلك، فقولوا: الله أحد، الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، ثم ليتفل عن يساره ثلاثاً، وليستعذ بالله من الشيطان»^(١).

٢ - وفي صحيح مسلم وغيره عن أبي هريرة وعن أنس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد

(١) سنن أبي داود (٤٧٢٢) وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود (٣٩٥٢) وابن السني في عمل اليوم والليلة (٦٢٧).

من ذلك شيئاً فليقل: آمنتُ بالله»^(١).

٣- وعن أبي هريرة أيضاً أن النبي ﷺ قال: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا وكذا؟ حتى يقول له: من خلق ربك؟ فإذا بلغ ذلك؟ فليستعذ بالله ولينته»^(٢).

٣- سورة الإخلاص في السنة النبوية:

أ- حُبُّ قِرَاءَتِهَا يُسَبِّبُ مَحَبَّةَ اللَّهِ تَعَالَى لِلْعَبْدِ:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «سلوه: لأي شيء يصنع ذلك؟» فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنا أحب أن أقرأ بها، فقال رسول الله ﷺ «أخبروه أن الله يحبه»^(٣).

ب- حب قراءتها يسبب دخول الجنة:

١- عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «حبك إياها أدخلك الجنة»^(٤).

٢- وفي رواية البخاري والترمذي عن أنس رضي الله عنه، أن رجلاً من الأنصار، كان يؤم الناس في مسجد قباء، وكان يقرأ بعد الفاتحة سورة الإخلاص في كل صلاة، ويقرأ بعدها ما تيسر من القرآن، فاعترض الناس عليه، فأخبروا النبي ﷺ فسأله عن سبب ذلك، قال: إني أحبها، قال ﷺ:

(١) صحيح مسلم (١٣٤)، وانظر (١٣٦)، والبخاري (٧٢٩٦).

(٢) صحيح مسلم (١٣٤)، وصحيح البخاري (٣٢٧٦).

(٣) أخرجه الشيخان والنسائي، انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث رقم (٣٤٦٩) (ج ٥)، وهو في البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣)، والنسائي (١٧٠/٢) (٩٩٢)، والبيهقي (٦٠٩، ٦١)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٣).

(٤) أخرجه الإمام أحمد والبخاري تعليقاً (٧٧٤)، والترمذي (٢٩٠١)، انظر الفتح الرباني لترتيب المسند (ج ١٨) (ص ٣٤٦)، وهو في المسند (١٤١/٣) (١٢٤٣٢)، وهو حديث صحيح بإسناد حسن (محققوه)، وكذا (١٢٥١٢، ١٢٤٣٣)، وصحيح سنن الترمذي (٢٣٢٣)، والبيهقي في سننه (٦٠/٢)، وعبد بن حميد (١٣٠٦)، وابن حبان (٧٩٢)، وابن خزيمة (٥٣٧).

«حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»^(١).

٣- وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختمها: فقال ﷺ: «وجب» قيل يا رسول الله ما وجبت، قال: «الجنة»^(٢).
ولا عجب في ذلك فمحبها موحد، مُخْلِصٌ لله في عقيدته، وهو مُحِبٌّ لتوحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة.

ج - فضل قراءتها مع المعوذتين:

١- عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: لقيني رسول الله ﷺ فابتدأني فأخذ بيدي فقال: «يا عقبة بن عامر: ألا أعلمك خير ثلاث سور أنزلت في التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم؟» قال: قلت: بلى جعلني الله فداك، قال: فأقرأني ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم قال: «يا عقبة لا تنساهن، وما بت ليلة قط حتى أقرأهن»^(٣).
٢- وعن عبد الله بن أنيس الأسلمي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ وضع يده على صدره، ثم قال: (قل) فلم أدر ما أقول، ثم قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم قال لي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ حتى فرغت منها، ثم قال لي ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ حتى فرغت منها، فقال رسول الله ﷺ: «هكذا نتعوذ، فما تعوذ المتعوذون بمثلهن قط»^(٤).

(١) راجع النص في جامع الأصول في أحاديث الرسول (ج ٥) حديث رقم (٣٤٦٨)، البخاري (٧٧٤)، والترمذي (٢٩٠١)، وقال: حسن غريب صحيح.

(٢) الموطأ (٢٠٨/١) والفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد الشيباني (ج ١٨) (ص ٣٤٧) وهو بإسناد صحيح ورجاله ثقات (٨٠١١)، والترمذي (٢٨٩٧) وقال: حديث حسن صحيح غريب، وصحيح سنن الترمذي (٢٣٢٠، ٢٢٣٩٠)، والحاكم وغيرهم سنده صحيح وهو في سنن النسائي (٩٩٣)، وفي الكبرى (١١٦٥١)، وقد صححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (١٤٧٨).

(٣) انظر المسند بأطول من هذا (١٧٤٥٢، ١٧٣٣٤) قال محققوه: حديث حسن.

(٤) النسائي في السنن الكبرى (٧٨٤٥)، والبزار (٢٣٠٠)، كشف الأستار قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١٤٩/٧).

٣- وعن عليّ عليه السلام قال: بينا رسول الله ﷺ ذات ليلة يصلي، فوضع يده على الأرض، فلدغته عقرب، فتناولها رسول الله ﷺ بنعله فقتلها، فلما انصرف قال: «لعن الله العقرب، ما تدع مصلياً ولا غيره، أو نبياً وغيره» ثم دعا بماء وملح فجعله في إناء، ثم جعل يضربه على إصبعه حيث لدغته ويمسحها، ويعوذها بالمعوذتين.

وفي لفظ: فجعل يمسح عليها ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾^(١).

وورد فضل قراءة سورة الإخلاص مع (سورة الكافرون) في صلاة المغرب، وسنة الفجر، والوتر، وركعتي الطواف، وغير ذلك كما سبق بيانه في تفسير سورة الكافرون.

د - مشروعية الرقية بسورة الإخلاص والمعوذتين عند المنام:

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ: (كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه، ثم نفث فيهما، وقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات)^(٢).

هـ - فضل قراءتها مع المعوذتين صباحاً ومساءً:

عن معاذ بن عبد الله بن خبيب عن أبيه قال: أصابنا عطش وظلّمة فانتظرنا رسول الله ﷺ ليصلي بنا فنخرج فأخذ بيدي فقال: «قل: فسكّ، قل: قل، قلت: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والمعوذتين حين تمسي وتصبح ثلاثاً، يكفيك من كل شيء»^(٣).

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٧٥، ٢٥٧٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٥٤٨).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٧)، وأبوداود (٥٠٥٦)، والترمذي (٣٤٠٢)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٦٢٤)، وابن ماجه (٣٨٧٥)، وابن أبي شيبة (٢٥٢/١٠).

(٣) من زوائد الإمام عبد الله بن الإمام أحمد على مسند أبيه (٢٢٦٦٤) بإسناد حسن، ورواه أبوداود (٥٠٨٢)، وصحيح سنن أبي داود (٤٢٤١)، والترمذي (٣٥٧٥)، والنسائي (٥٤٤٣)، وقال الترمذي صحيح غريب من هذا الوجه، انظر الفتح الرباني (ج ١٨، ٣٤٩)، وأخرجه ابن سعد (٣٥١/٤)، وعبد بن حميد (٤٩٣) منتخب.

أي أن قراءتها تكفي العبد في صباحه ومساءه من كل سوء وشر، فيظل محفوظاً بحفظ الله تعالى له، وفي مأمن من المحن والبلايا والآفات والشُرور.

و - كونها تعدل ثلث القرآن:

١- في صحيح البخاري وغيره: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقَالَها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها تعدل ثلث القرآن»^(١).
والرجل القارئ هو قتادة بن النعمان أخي أبي سعيد الخدري من أمه.

٢- وفي صحيح مسلم وغيره: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا» فاجتمعوا» فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبر جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله، ثم خرج النبي ﷺ فقال: «إني قلت لكم: سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن»^(٢).

٣- وعن أبي سعيد وأبي أيوب وأبي الدرداء رضي الله عنهم قالوا: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم» وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد، ثلث القرآن»^(٣).

٤- وعن أبي بن كعب وابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من قرأ

(١) البخاري (١٠٥/٦) باب فضل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وهو برقم (٧٣٧٤، ٥٠١٣)، وأبوداود (١٤٦١)، والنسائي

(١٧/٢)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٢)، وانظر صحيح الجامع (٤٢٨٠) عن ابن عباس.

(٢) صحيح مسلم (٥٥٧/١)، والترمذي (٢٩٠٠)، وصحيح الترغيب والترهيب (١٤٧٩).

(٣) المسند ٨/٣ (١١٠٥٣) ورقم (٢٧٥٢٤، ٢٧٥٢٢) عن أبي الدرداء، وهو في مسلم (٨١١)، والنسائي في

الكبرى (١٠٥٣٧)، والبخاري (٥٠١٥)، وصحيح الترغيب (١٤٨٠)، والترمذي (٢٨٩٦) وقال: حديث

حسن، وهو في صحيح سنن الترمذي (٢٣١٩)، وأخرجه عن ابن مسعود البزار (١٨٥٦٧)، والطبراني

(٧٠٧)، وفي الأوسط (٨٤٨٠)، قال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح غير عبد الله بن أحمد وهو ثقة إمام،

مجمع الزوائد (١٤٨/٧) وألفاظه متقاربة.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فكأنما قرأ ثلث القرآن»^(١).

٥- وعن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط أن النبي ﷺ سئل عن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال: «ثلث القرآن أو يعدله»^(٢).

٦- وعن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فلما رأى أنه قد شق عليهم قال: من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ليلة فقد قرأ ليلتئذ ثلث القرآن»^(٣).

والمعنى أنها تعدل ثلث القرآن في الثواب والأجر.

٧- وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا النبي ﷺ ذات يوم الفجر في سفر، فقرأ في الركعة الأولى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقرأ في الركعة الثانية ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكُفْرُوتُ﴾ فلما سلم قال: «قرأت بكم ثلث القرآن وربعه»^(٤).

وعدلت السورة ثلث القرآن، لأنها تناولت جانب العقيدة وهو يمثل ثلث ما جاء في القرآن، والثلث الثاني: أحكام، والثالث: أخبار، وهي بهذا تعدل في الثواب والأجر ثلث القرآن بالنسبة لقارئها.

(١) المسند (٢١٢٧٥)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٥٢١)، وأبو عبيد في فضائله (ص ١٤٣)، قال محققو المسند: صحيح لغيره وهذا إسناد رجاله ثقات رجال الصحيح وصححه الألباني عن ابن عباس في صحيح الجامع الصغير (٤٢٨٠).

(٢) المسند (٢٧٢٧٤)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٥٣١)، والطبراني في الأوسط (٨٥٦٢)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤٥)، قال محققو المسند: حديث صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح ومالك في الموطأ (٢٠٩/١).

(٣) صحيح سنن الترمذي (٢٣١٩)، والمسند (٢٣٥٥٤) وهو حديث صحيح لغيره (محققوه)، والنسائي (٩٩٥)، والبيهقي في الشعب (٢٥٤٤)، والترمذي (٢٨٩٦)، وعبد بن حميد (٢٢٢).

(٤) أخرجه ابن الضريس (٢٥٣) واللفظ له دون قوله «في سفر»، والطبراني في الكبير برقم (١٨٦) بنحوه، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٢٨١)، قلت: ولعل هذا كان قبل العرضة الأخيرة التي استقر فيها ترتيب السور.

ز - اسم الله الأعظم:

عن ابن بريدة عن أبيه قال: دخلتُ مع رسول الله ﷺ المسجد ويدي في يده، فإذا رجل يُصَلِّي يقول: اللهم إني أسألك بأنك أنت الله، لا إله إلا أنت، الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد له كفوا أحد، فقال رسول الله ﷺ: «لقد دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب»^(١).

ح - قراءتها تُسبِّب مغفرة الذنوب:

عن مُجَنَّ بن الأذَرع قال: دخل رسول الله ﷺ المسجد، فإذا هو برجل قد صَلَّى صلاته وهو يتشهد ويقول: اللهم إني أسألك بالله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، أن تغفر لي ذنوبي، إنك أنت الغفور الرحيم، فقال ﷺ: «قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له، قد غُفِرَ له»^(٢).

٤ - سبب النزول:

أ- عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا: يا محمد انشُب لنا ربُّك؟ فنزلت هذه السورة. زاد في رواية: لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت ولا يورث، ولم يكن له شبيه ولا عدل، وليس كمثله شيء^(٣).

(١) سنن أبي داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، والمسند (٢٢٩٥٢) من حديث طويل بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين (محققه)، وابن حبان (٨٩١)، والطحاوي في مشكل الآثار (١٧٣)، والنسائي في الكبرى (١١٦٥٢)، وأخرجه عبد الرزاق (٤١٧٨)، وابن أبي شيبة (٢٧١/١٠)، وابن حبان (٨٩١)، والحاكم (٥٠٤/١)، وهو في صحيح سنن ابن ماجه (٣١١١)، وفي السنن (٢٨٥٧).

(٢) صحيح سنن أبي داود (٨٦٩)، وهو في السنن (٩٨٥)، وابن خزيمة (٧٢٤)، والحاكم (٢٦٧/١)، والنسائي (١٣٠٠)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٩٧)، وهو حديث صحيح أخرجه أحمد (١٨٩٧٤) بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الصحيح كما قال محققوه.

(٣) المسند (١٣٣/٥) (٢١٢١٩) بإسناد ضعيف لضعف ابن ميسرة وأبي جعفر الرازي (محققه)، والترمذي (٣٣٦٥، ٣٣٦٤)، والطبري (٢٢١/٣٠)، وصححه الحاكم على شرط الشيخين ووافقه الذهبي (٥٤٠/٢)، وابن خزيمة في التوحيد (٤٥)، وابن أبي عاصم (٦٦٣)، وصحيح سنن الترمذي (٢٦٨٠)، والبيهقي (٤١٩/١)، وجاء هذا السبب بلفظ (انشب لنا ربك) فحسب عن جابر وابن مسعود، قلت: وبين التحسين والتضعيف شعرة في الجرح والتعديل.

ب - وقال عامر بن الطفيل لرسول الله ﷺ: إلام تدعوننا يا محمد؟ قال: إلى الله عز وجل. قال: صفه لي، أمّن ذهب هو، أو من فضة، أو من حديد، فنزلت هذه السورة.

ج - وسأل قوم من أحبار اليهود، قالوا: من أي جنس هو (أي الله عز وجل) وممن ورث الدنيا ولمن يورثها؟^(١).

د- وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، صف لنا ربك وانسبه، فإنه وصف نفسه في التوراة ونسبها، فارتعد رسول الله ﷺ حتى خر مغشيا عليه، ونزل عليه جبريل بهذه السورة^(٢).

٥ - وجه التسمية:

سميت بسورة الإخلاص: لأن فيها إخلاص التوحيد لله تعالى، وفيها إخلاص الصفات وتوحيدها، ومقتضى ذلك: إفراد الله تعالى بالعبادة، والخلوص من الشرك، وأنه هو المقصود وحده في قضاء الحوائج، وأنه سبحانه لا مثيل له ولا نظير، ولا والد له ولا ولد.



(١) راجع هذه الأسباب الثلاثة لابن الجوزي في تفسيره للسورة، في زاد المسير في علم التفسير، وفي الدر المنثور (٧٤٢/١٥) والطبراني (٣٧٢).

(٢) تفسير ابن عطية (٥٣٦/٥)، وابن عدي (١٥٦٦/٤)، وابن أبي حاتم كما في مجموع الفتاوى (٢٢٢/١٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٦٠٦) بإسناد ضعيف.

سُورَةُ الْفَلَقِ (١١٣)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الفلق) هي السورة الثالثة عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفيل) وقبل (سورة الناس). وهي خمس آيات باتفاق، وثلاث وعشرون كلمة، وأربعة وسبعون حرفاً. وتسمى (سورة الفلق) و(سورة قل أعوذ برب الفلق) ويقال لها مع سورة الناس: (المقشّقتين) لأنهما تُبرئان صاحبهما من النفاق، وهذا وصف مشترك بينهما وبين سورتي براءة، والكافرون، كما يقال للفلق مع الناس: (المعوذتان) ويقال لهما مع الإخلاص المعوذات.

وهي سورة مكية على الأصح، وقيل إنها مدنية لأن سبب نزولها سحر اليهود. ٢ - والغرض من السورة تعليم العباد أن يلجؤوا إلى ربهم، ويستعينوا بجلاله وسلطانه من شر الحاقدين والحاسدين، ففي ذلك حِصْنٌ وحماية لهم من المخلوقات الشريرة، ومن الأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، وسائر الأحوال الضارة، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهذه السورة وما بعدها، ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما، فدل هذا على أن التعوذ بهما سنة سنّها رسول الله ﷺ.

٣ - المعوذتان في السنة النبوية:

جاءت عدة أحاديث صحت روايتها عن عقبة بن عامر رضي الله عنه، في شأن المعوذتين، قال عنها الحافظ ابن كثير: فهذه طرق عن عقبة كالماتورة عنه، تفيد القطع عند كثير من المحققين في الحديث^(١).

(١) انظر تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (ج ٤ ص ٥٧٢).

١ - في فضل المعوذتين والاستعاذة بهما:

أ- عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: (ألم تر آيات أنزلت عليّ هذه الليلة، لم أر مثلهن قط **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾** و**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾**^(١)).

ب - وعنه رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أقرأ من سورة يوسف، وسورة هود، قال: «يا عقبة، اقرأ بأعوذ رب الفلق، فإنك لن تقرأ بسورة أحبّ إلى الله وأبلغّ عنده منها، فإن استطعت ألا تفوتك فافعل»^(٢).

ج - وعن ابن عباس الجهني رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «يا بن عباس، ألا أخبرك بأفضل ما تعوذ به المتعوذون؟» قال: بلى يا رسول الله، قال **﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾** و**﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾** هما المعوذتان»^(٣).

د - وفي رواية النسائي: «ما سألت سائل بمثلهما، ولا استعاذ مستعيز بمثلهما»^(٤).

هـ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لقد أنزل عليّ آيات لم ينزل عليّ مثلهنّ؛ المعوذتين»^(٥).

و- وعن عبد الله بن خبيب قال: كنت مع رسول الله ﷺ في طريق مكة فأصبحتُ خلوة من رسول الله ﷺ فدنوتُ منه، فقال (قل)، قلت: ما أقول، قال (قل)، قلت: ما أقول؟

(١) أخرجه مسلم (٨١٤)، والترمذي (٢٩٠٢)، وأبوداود، والنسائي (٩٥٣)، راجع جامع الأصول في أحاديث الرسول حديث (٦٢٧٠).

(٢) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (٥٤٠/٢) ووافقه الذهبي، وانظر في تصحيحه موسوعة فضائل سور وآيات القرآن (٥٠٩/٢)، والحديث في صحيح الترغيب والترهيب (١٤٨٥)، والبيهقي في الشعب (٢٥٦٦)، وفي المسند (١٧٤١٨) بإسناد صحيح (محققوه)، وأخرجه الدارمي (٣٤٣٩)، والطبراني في الكبير (٨٦٢٦/١٧).

(٣) سنن النسائي (٥٤٤٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي (٥٠٢٠)، وهو عند البيهقي (٢٥٧٤)، وابن سعد (٢١٢/٢)، وانظر الطبراني في الكبير برقم (٩٤٣) عن عقبة بن عامر.

(٤) جامع الأصول (ج ٨ ص ٤٩٢) وهو في النسائي (٥٤٥٣)، وهو في صحيح سنن النسائي (٥٠٢٦)، وابن أبي شيبه (٣٥٨/١٠).

(٥) أخرجه الطبراني في الأوسط (٢٦٥٨) بإسناد حسن، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٩/٧): رجاله ثقات.

قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ حتى ختمها، ثم قال: «ما تعوذ الناس بأفضل منهما»^(١).

٢ - قراءة المعوذتين في الصلاة:

أ- قال النبي ﷺ لعقبة بن عامر: «ألا أعلمك سورتين من خير سورتين قرأ بهما الناس؟» قلت: بلى، فأقرأه ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فأقيمت الصلاة فتقدم رسول الله فقرأ بهما^(٢).

ب - وقال رسول الله ﷺ: «يا عقبة بن عامر ألا أعلمك سورا ما أنزل في التوراة ولا في الزبور ولا في الإنجيل ولا في الفرقان مثلهن لا تأتي ليلة إلا قرأت بهن فيها ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»^(٣).

ج - وفي حديث عبد الله بن الشخير رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا أنت صليت فاقراً بهما»^(٤) أي بالمعوذتين.

٣ - قراءة المعوذتين دبر كل صلاة:

عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذتين في دبر كل صلاة^(٥).

(١) أخرجه النسائي في الاستعانة بإسناد حسن، انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول رقم: (٦٢٧١)، وهو عن جابر بن عبد الله أيضاً في النسائي (٥٤٥٦)، قال الترمذي (٢٩٠٢)، حديث حسن صحيح، وفي صحيح سنن النسائي (٥٠٢٩) بإسناد حسن صحيح، وانظر مسند أحمد (١٧٣٠٣) بإسناد صحيح على شرط الشيخين (محققه).

(٢) انظر جامع الأصول في أحاديث الرسول (ج ٨ ص ٤٠١)، وهو في صحيح سنن أبي داود (١٢٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٦٧/١)، والمسند (١٧٢٩٦) بإسناد صحيح ورجاله ثقات (محققه)، وأخرجه أبو يعلى (١٧٣٦)، والبيهقي في الشعب (٢٥٦٣) وغيرهم.

(٣) قال الهيثمي حديث عقبة في الصحيح وغيره باختصار عن هذا، رواه أحمد ورجاله ثقات، انظر مجمع الوائد ومنبع الفوائد (ج ٧ ص ١٤٨-١٤٩) وهو في المسند (١٧٣٣٤، ١٧٤٥٢) قال محققه: حديث حسن.

(٤) الحديث بإسناد صحيح ورجاله ثقات رجال الشيخين عند أحمد (٢٠٢٨٤، ٢٠٧٤٤، ٢٠٧٤٥) (محققه).

(٥) صحيح سنن الترمذي حديث رقم (٣٠٧٩)، والحديث عند أحمد (١٧٧٩٢)، وهو حديث صحيح وإسناده حسن (محققه)، وفي سنن أبي داود (١٥٢٣)، وصحيح سنن أبي داود (١٣٤٨).

٤ - قراءة المعوذتين عند النوم وعند الاستيقاظ:

في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان (إذا أوى إلى فراشه كل ليلة، جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات^(١).

وقال عليه الصلاة والسلام لعقبة بن عامر: «يا عقيب: اقرأ بهما كلما نمت وكلما قمت»^(٢).

٥ - الرقية بالمعوذتين في المرض ومن العين:

أ- عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذتين وينفث، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه بالمعوذات وأمسح بيده عليه رجاء بركتها^(٣).

ب - وكان ﷺ يأمر عائشة بأن تمسح بيده ﷺ على جسده لَمَّا ضَعُفَتْ يده على التنقل بنفسها، وكانت رضي الله عنها تلمس بركة يد النبي ﷺ بِرُقِيَّةٍ لنفسه لنفسه، وهي التي تقرأ المعوذتين لعدم قوته على ذلك^(٤).

ج- وعن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ (كان يتعوذ من أعين الجان وأعين الناس، فلما نزلت المعوذتان أخذ بهما وترك ما سواهما)^(٥).

٦ - قراءة المعوذات في الصباح والمساء:

قال عليه الصلاة والسلام لعبد الله بن حُباب رضي الله عنه: «قل، قال: ما أقول؟ قال: ﴿قُلْ هُوَ

(١) رواه البخاري (٦٣١٩، ٥٧٤٨، ٥٠١٧) في فضائل القرآن.

(٢) من حديث عقبة بن عامر في مسند الإمام أحمد، الفتح الرباني (ح ١٨ ص ٢٤٩) قال: ورجاله ثقات وهو في المسند (١٧٢٩٦)، وصحيح سنن أبي داود (١٢٩٨)، وابن أبي شيبة (٣٦٧/١).

(٣) أخرجه البخاري برقم (٥٠١٦، ٤٤٣٩)، ومسلم (٢١٩٢) ومالك.

(٤) تفسير ابن تيمية وابن القيم للمعوذتين والحديث في البخاري (٥٧٣٥)، ومسلم (٢١٩٢).

(٥) أخرجه الترمذي (٢٠٥٨) وقال الترمذي: حديث حسن صحيح والنسائي (٥٥٠٩) وهو في صحيح سنن النسائي (٥٠٦٩)، وعند البيهقي (٢٥٦٢).

اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ والمعوذتين، حين تمسي وحين تصبح «ثلاثاً» تكفيك من كل شيء»^(١).
وقد ذكرتُ في سورة الإخلاص طائفة أخرى من الأحاديث تشتمل على هذه المعاني ونحوها.

٧ - تَحْرِيمُ جَعْلِ الْمُعَوِّذَاتِ تَمِيمَةً:

رأى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في عنق امرأة من أهلها سيراً فيه تمائم فقطعه، وقال: إن آل عبد الله أغنياء عن الشرك، ثم قال التولة والتمايم والرقمي من الشرك، فقالت امرأة: إن إحدانا لتشتكي رأسها فتسترقني وتظن أن هذا ينفعها فقال ابن مسعود: إن الشيطان يخنس في رأسها، فإذا استرقت حُبس، فإذا لم تسترق نخس، فلو أن إحدانك تدعو بماء فتنضح به في رأسها ووجهها ثم تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، ثم تقرأ الإخلاص والفلق والناس، نفعها ذلك إن شاء الله^(٢).

والتَّوَلَّةُ هي السحر الذي يُحَبَّبُ المرأة إلى زوجها.
والتمايم ما يُكْتَبُ من آيات أو أذكار وأدعية فيجعل حجاباً ويعلق.
والرَّقْمِي غير المشروعة يُقَصَّدُ بها ما كان بغير أسماء الله تعالى وصفاته وما جاء في صحيح السنة وكلامه من ألفاظ شركية ونحوها فكل ذلك حرام.

ج - مَا نُسِبَ إِلَى ابْنِ مَسْعُودٍ فِي شَأْنِ الْمُعَوِّذَتَيْنِ:

نسب إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، وأنه كان يحكهما من المصحف، ويقول: إنما أمر رسول الله ﷺ أن يتعوذ بهما، والسبب في هذا أن ابن مسعود كان يرى النبي ﷺ يُعَوِّذُ بهما الحسن والحسين ولم يسمعه يقرأ بهما في شيء من صلاته، فظن أنهما للتعوذ فحسب، ولم يكن يقرأ بهما، ولم يتابع ابن مسعود على ذلك أحد من الصحابة، وثبت أن النبي ﷺ قرأ بهما في الصلاة كما تقدم في حديث

(١) أخرجه النسائي، جامع الأصول حديث رقم (٦٢٧١)، وهو في النسائي برقم (٥٤٤٣)، والترمذي (٣٥٧٥)، وصحيح سنن أبي داود (٤٢٤١).

(٢) ينظر هذا المعنى في صحيح سنن أبي داود (٣٢٨٨)، والمسند (٣٦١٥) بنحوه، والطبراني (٨٨٦٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠)، وهو في سنن أبي داود (٣٨٨٣).

عقبة، أنهما أثبتا في المصحف^(١).

والجواب على ذلك:

- ١- كما قال القاضي أبو بكر الباقلاني: أن ابن مسعود رضي الله عنه لم يُنكر قُرْآنَيْهِمَا، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، فإنه كان يرى ألا يُكْتَبَ في المصحف شيء إلا بإذن النبي ﷺ وكأنه لم يبلغه الإذن في ذلك، فليس فيه جَحْدٌ منه لقُرْآنَيْهِمَا وإنما هو مَبْلُغٌ علمه في شأنهما.
- ٢- وقال القسطلاني: ويحتمل أيضاً أنه لم يسمعهما من النبي ﷺ ولم يتواتر هذا عنده، ثم لعله قد رجع عن ذلك إلى قول الجماعة. فقد أجمع الصحابة عليهما وأثبتوهما في المصاحف التي بعثوها إلى سائر الآفاق.
- ٣- وكان أبي بن كعب رضي الله عنه يشهد بنزول جبريل بهما على النبي ﷺ^(٢).
- ٤- وعن زَرِّ بْنِ حُبَيْشٍ قال: قلت لأبي بن كعب: إن ابن مسعود كان لا يكتب المعوذتين في مصحفه، قال: أشهد أن رسول الله ﷺ أخبرني أن جبريل عليه السلام قال له: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ فقلتها، فقال: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ فقلتها، فنحن نقول ما قال النبي ﷺ^(٣). أقول:
 - ١- وبشهادة أبي بن كعب رضي الله عنه.
 - ٢- وثبوت قراءة النبي ﷺ بهما في الصلاة، كما صح ذلك من حديث عقبة بن عامر.
 - ٣- واحتمال أن ذلك لم يبلغ ابن مسعود عن طريق التواتر.
 - ٤- ولأنه لم يتابع ابن مسعود على قوله أحد من الصحابة على ذلك.
 - ٥- ولمَّا ورد أنه قد رجع عن قوله ذلك إلى قول الجماعة.

وبذلك تزول الشبهة فيما نُسب إلى ابن مسعود رضي الله عنه في ذلك.

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢١١٨٨)، والبخاري (١٥٨٦)، والطبراني (٩١٥٢، ٩١٤٨) قال محققو المسند: إسناده صحيح، وانظر الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد (ج ١٨ ص ٣٥١) باب (رأي ابن مسعود في المعوذتين).
 (٢) اللفتح الرباني (٣٥٢/١٨) عن الإمام أحمد رحمه الله، وأخرجه أيضاً الطبراني، قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح، انظر مجمع الزوائد ومنبع الفوائد (ج ٧ ص ١٤٩) باب ماجاء في المعوذتين.
 (٣) المسند (٢١١٨٦)، والبخاري (٤٩٧٧، ٤٩٧٦)، وابن حبان (٤٤٢٩، ٧٩٧) وشرح مشكل الآثار للطحاوي (١١٨).

سُورَةُ النَّاسِ (١١٤)

مُقَدِّمَةُ السُّورَةِ

١ - (سورة الناس) هي السورة الرابعة عشرة بعد المئة في ترتيب المصحف، فهي آخر سورة فيه، وهي الحادية والعشرون في ترتيب النزول، نزلت بعد (سورة الفلق) وقبل (سورة الإخلاص).

وهي ست آيات، عند المدني الأول والأخير، والعراقي (الكوفي والبصري) وسبع آيات عند المكي والشامي. وعشرون كلمة، وتسعة وسبعون حرفاً.

وتسمى (سورة الناس) وسماها ابن عطية (سورة المعوذة الثانية) وتسمى مع سورة الفلق (المعوذتان) والمقشّشتان، وتسمى سور: الإخلاص والفلق والناس: المعوذات. وهي سورة مكية على الصحيح.

٢ - موضوع السورة:

والسورة تأمر بالاعتصام بالله تعالى، والتحصن به من شياطين الإنس والجن، وما يُلقُونَه في الصدور من وساوس، ونحن لا ندري كيف يتصرف الجن، ولكننا نشعر بما يطلبوه منا، وبرغبتنا في تلبيته، فنلجأ إلى الله تعالى أن يحفظنا منه.

والإنس يتلذذ بإتيان الشهوة، والجن يتلذذ بإغوائه للإنس، وتزيين المعصية له.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وهذا هو معنى استمتاع الجن بالإنس، واستمتاع الإنس بالجن كما قال تعالى على لسان الإنس: ﴿رَبَّنَا أَسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

والشياطين ليست سُلطة تنفيذية، فهي لا تملك إلا الإغواء والوسوسة، والإنسان

يستجيب لها، والمؤمن المتحصن بالأذكار والأدعية في صباحه ومساءه لا يضره شيء بإذن الله تعالى، إنه يعيش داخل سور يحميه من هواجس الشيطان ووساوسه.

وَمَنْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَصَدَّقْ فِي إِيْمَانِهِ، وَكَانَ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ، لَمْ يَكُنْ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ سَبِيلٌ، فَإِنْ غَلَبَتْهُ نَفْسُهُ الْأَمَّارَةُ بِالسَّوْءِ، وَأَحَسَّ أَنَّ الشَّيْطَانَ اسْتَغْلَّ غَفْلَةَ قَلْبِهِ، فَاقْتَرَبَ مِنْهُ وَحَامَ حَوْلَهُ، فَعَلِيهِ أَنْ يُلْجَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَيَتَعَوَّذَ بِهِ، وَيَحْتَمِي بِحِمَاةِ، فَبَابِ اللَّهِ مُفْتُوحٍ، وَقَدْ أَمَرْنَا سَبْحَانَهُ أَنْ نُنْظِرَ لَيْلَ نَهَارٍ، فَهَذَا هُوَ الْمُلْجَأُ الْوَحِيدُ مِنْ إِبْلِيسَ وَذُرِّيَّتِهِ، وَمِنْ شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، الَّذِينَ يُزَيِّتُونَ لِلنَّاسِ الْمَعَاصِي وَالذُّنُوبَ عَنْ طَرِيقِ الشَّهَوَاتِ وَالشَّبَهَاتِ.

وأول مادة في تزيين المعاصي هي كشف العورات، فالشيطان: ﴿يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ تَعِيَهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٧].

والمادة الثانية هي الحسد والكبر ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]. وعن طريق هاتين المادتين أخرج إبليس آدم من الجنة، دار النعيم والاستقرار إلى دار الهم والغم والأوجاع والآلام، وأحاط إبليس بذرية آدم من كل جانب، وقعد له كل مرصد فقال: ﴿ثُمَّ لَا تَبِيتُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وقد فتح الله تعالى لنا ملجأ يحفظنا به من الشياطين: فلا ينالون منا، ووضع في أيدينا مفتاح الدخول في حماه بـ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾.

وهذه السورة تبرز ثلاث قضايا، فهو سبحانه:

١- رب الناس ٢- وملك الناس ٣- وإله الناس.

وكل مؤمن يعتقد بهذه القضايا الثلاث، ويعمل بمقتضاها.

والمشركون قديماً وحديثاً آمنوا بأنه سبحانه رب الناس ومليكهم فصدقوا بذلك واعتقدوه، وهذه هي القضية الأولى (توحيد الربوبية).

أما القضية الثانية فهي (توحيد الإلهية) وهذه القضية تصديق وعمل يستلزم اتباع منهج الله تعالى الذي وضعه لخلقه، لتحقيق السعادة في الدنيا والآخرة، بالتوجه إليه وحده في العبادة، ولكن هذه القضية أنكرها المشركون وخالفوها، وعمل بمقتضاها المؤمنون الصادقون.

فاللهم جنبنا وساوس الشيطان وهواجسه، ولا تجعل له علينا سبيل، واحفظنا بحفظك، واكلاًنا برعايتك يا أرحم الراحمين، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.
وصلّى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

أحمد بن أحمد محمد عبد الله الطويل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

الفهرس

الصفحة	فهرس السور والموضوع	الصفحة	فهرس السور والموضوع
٥٢	من خصائص الآية الأولى في السورة	٥	مقدمة
٥٣	تطهير المجتمع المسلم من رواسب الجاهلية	٧	سورة الفاتحة (نزولها والتعريف بها)
٥٥	أربع وعشرون حكماً تشريعياً في السورة	٩	فضل سورة الفاتحة ومنزلتها
٥٥	حديث السورة عن اليهود	١١	الرقية بالفاتحة وبالتسمية وحدها
٥٦	حديثها عن المنافقين	١٣	رقيا جبريل للنبي ﷺ - تلازم وعلاج
٥٧	حديثها عن النصارى	١٥	مقاصد سورة الفاتحة خمسة
٥٨	تقسيم موضوعات السورة	٢٠	سورة البقرة (فضلها)
٥٩	سورة المائدة (مقدمة السورة)	٢٣	مقدمة سورة البقرة والتعريف بها
٦٢	خمس نداءات لأهل الكتاب في السورة	٢٥	بدء الحديث عن اليهود
٦٤	قصة تخاذل اليهود وقصة ابني آدم	٢٥	اثنتا عشرة وصية لهم بعد النداء الأول لهم
٦٥	التعدي على خصائص الألوهية	٢٦	عشر من نعم الله تعالى على اليهود بعد النداء الثاني
٦٦	سته عشر نداء للمؤمنين في السورة	٢٧	اثنان وثلاثون مخالفة من اليهود
٦٩	سورة الأنعام (مقدمة السورة)	٣٣	خمسة أدلة محسوسة على البعث في السورة
٧٠	معالجة السورة لتصحيح العقيدة بأسلوب التقرير والتلقين	٣٤	أربعون حكماً تشريعياً في النصف الثاني من السورة
٧٣	قضايا السورة الثلاث وأدلتها	٣٧	دعائم الاقتصاد الإسلامي
٧٥	تفنيد شبهات المشركين	٣٨	سورة آل عمران (المقدمة وسبب النزول)
٧٨	سورة الأعراف (مقدمة السورة)	٣٩	قصة وفد نصارى نجران
٨٠	أسلوب التذكير وأسلوب التخويف	٤٣	موضوعات السورة ثلاثة
٨١	ذكر الأمم التي تمرّدت على وحي الله تعالى	٤٩	فضل سورة آل عمران مع سورة البقرة
٨٣	الصبر على تبليغ الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى	٥٠	سورة النساء (المقدمة)
٨٤	سورة الأنفال (مقدمة السورة وموضوعها)	٥١	ثماني آيات في السورة خير من الدنيا وما فيها

١٢٥	مثل الحق والباطل	٨٦	سورة بدر
١٢٦	سورة إبراهيم (مقدمة السورة وعناصرها الثلاث)	٨٨	أسباب النزول
١٢٧	في السورة مقطعان	٩١	سورة التوبة (مقدمتها وأسمائها)
١٢٩	سورة الحجر (مقدمة السورة)	٩٣	ترك البسمة في أولها
١٣٠	في السورة خمس جولات	٩٥	مناسبة السورة لما قبلها ، محتويات السورة
١٣٤	سورة النحل (مقدمة السورة)	٩٧	لماذا لم يحج الرسول ^٨ قبل العام العاشر
١٣٥	قضايا السورة الثلاث	٩٨	نزول صدر سورة براءة لنقض عهد المشركين
١٣٩	سورة النعم	٩٩	المقاصد الإجمالية لسورة التوبة
١٤٣	سورة الاسراء (مقدمة السورة)	٩٩	١- نقض عهود من نقضوا العهد
١٤٤	موضوعات السورة	١٠٠	٢- معاملة أهل الكتاب
١٤٦	الأوامر والنواهي في الربع الثاني من السورة	١٠٢	٣- الكشف عن نوايا المنافقين
١٤٧	ذكر لفظ القرآن في السورة أحد عشر مرة	١٠٤	سورة يونس (مقدمة السورة)
١٤٩	حديث السورة عن يوم القيامة	١٠٥	قضايا السورة
١٥١	سورة الكهف (مقدمة السورة)	١٠٨	سورة هود (مقدمة السورة)
١٥١	فضل سورة الكهف	١٠٩	عناصر السورة ثلاثة
١٥٤	سبب نزول السورة	١١٠	قصص الأنبياء في السورة
١٥٥	أغراض سورة الكهف	١١٣	سورة يوسف (مقدمة السورة) الأسباط
١٥٧	موضوعات السورة	١١٤	ابتلاءات يوسف عليه السلام
١٥٩	تقسيم آيات السورة	١١٥	نبوة يوسف عليه السلام
١٦١	سورة مريم (مقدمة السورة وعناصرها)	١١٦	موضوعات السورة - شخصيات القصة ثمانية
١٦٢	ذكر اسم (الرحمن) في السورة ست عشرة مرة	١١٧	يوسف عليه السلام يعبر الرؤيا
١٦٤	مقاطع سورة مريم ثلاثة	١١٨	رحلات أربع لإخوة يوسف عليه السلام إلى مصر
١٦٦	سورة طه (مقدمة السورة)	١٢٢	سورة الزهد (مقدمة السورة وأغراضها)

٢٠٠	في السورة قصص أربع	١٦٧	مقاطع السورة ثلاثة
٢٠١	سورة القصص (مقدمة السورة)	١٦٨	قصة إسلام عمر ؓ
٢٠٢	في السورة قصتان	١٧٠	سورة الأنبياء (مقدمة السورة)
٢٠٥	سورة العنكبوت (مقدمة السورة)	١٧٢	موضوعات السورة
٢٠٦	عناصر السورة ثلاثة	١٧٤	سورة الحج (مقدمة السورة)
٢٠٧	سورة الروم (مقدمة السورة)	١٧٥	أغراض السورة في أربعة أشواط
٢٠٨	موضوع السورة (العقيدة والبعث والرسالة)	١٧٦	أبرز موضوعاتها
٢٠٩	استئنافات مبدوءة باسم الجلالة	١٧٨	سورة المؤمنون (مقدمة السورة)
٢١٠	تقسيم آيات السورة إلى أربعة أقسام	١٨٠	محتويات السورة
٢١١	سورة لقمان (مقدمة السورة والتعريف بها)	١٨٢	مقاطع السورة أربعة
٢١٢	مقاطع السورة أربعة	١٨٤	سورة النور (مقدمة السورة)
٢١٤	سورة السجدة (مقدمة السورة)	١٨٥	تطهير المجتمع من الرذيلة
٢١٤	قراءتها في فجر الجمعة وعند النوم	١٨٧	في السورة خمسة مقاطع
٢١٥	أغراض السورة	١٨٩	سورة الفرقان (مقدمة السورة)
٢١٧	سورة الأحزاب (مقدمة السورة)	١٨٩	عناصر القرآن المكي - عناصر السورة
٢١٨	تقسيم السورة إلى خمسة مقاطع	١٩١	شبهات المكذبين بالقرآن
٢٢٠	تلخيص أغراض السورة	١٩٢	دعوة إلى التأمل في ملكوت الله تعالى
٢٢٠	خمسة نداءات للنبي ﷺ في السورة	١٩٣	موضوعات السورة ومقاطعها
٢٢٢	سنة نداءات للمؤمنين في السورة	١٩٥	سورة الشعراء (مقدمة السورة)
٢٢٤	سورة سبأ (مقدمة السورة)	١٩٦	سبع من قصص المرسلين في السورة
٢٢٤	قضايا السورة الثلاث	١٩٧	تقسيم آيات السورة إلى ثلاثة أقسام
٢٢٦	مقاطع السورة وأقسامها وقصصها	١٩٨	سورة النمل (مقدمة السورة)
٢٢٨	سورة طه (مقدمتها وأغراضها ونداءاتها)	١٩٩	موضوعات السورة والتعقيب عليها

٢٦٩	سورة الدخان (مقدمة السورة)	٢٣٢	سورة يس (مقدمة السورة وأسمائها)
٢٧١	تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع	٢٣٣	أغراض السورة وعناصرها
٢٧٢	من الآثار الواردة في السورة	٢٣٦	سورة الصافات (مقدمة السورة وموضوعاتها)
٢٧٣	سورة الجاثية (مقدمة السورة)	٢٣٨	مقاطع السورة وقضاياها
٢٧٤	موضوعات السورة	٢٣٩	سورة ص (مقدمة السورة وسبب النزول)
٢٧٥	تقسيم السورة إلى مقطعين	٢٤٠	قضايا السورة الثلاث
٢٧٧	سورة الأحقاف (مقدمة السورة)	٢٤١	أصول الكفر وأصول الإيمان
٢٧٨	موضوعات السورة	٢٤٣	سورة الزمر (مقدمة السورة)
٢٧٩	مقاطع السورة وتقسيمها	٢٤٤	عناصر السورة
٢٨١	سورة محمد (مقدمة السورة)	٢٤٥	ذكر القرآن سبع مرات في السورة
٢٨١	اتباع الحق وأتباع الباطل	٢٤٦	ثلاثة عشر مقابلة بين المؤمن والكافر
٢٨٢	الجهاد ضرورة لرد العدوان وتبليغ الدعوة	٢٤٧	في السورة أربعة مقاطع
٢٨٤	مجمل ما جاء في السورة	٢٤٩	سورة شافر (مقدمة السورة وأسمائها)
٢٨٥	سورة الفتح (مقدمة السورة)	٢٥٠	سور (آل حم) السبع
٢٨٦	مقاطع السورة	٢٥١	موضوعات سورة غافر
٢٨٧	بعض ما ورد فيها من أحاديث	٢٥٣	في السورة أربعة مقاطع
٢٩٠	نبذة عن صلح الحديبية - شروط الصلح	٢٥٥	سورة فصلت (مقدمة السورة وموضوعاتها)
٢٩٢	تنازلات في صلح الحديبية لحفظ الدماء	٢٥٦	تقسيم السورة إلى مقطعين
٢٩٣	قصة أبي بصير	٢٥٧	سبب النزول
٢٩٦	سورة العجرات (مقدمة السورة)	٢٦٠	سورة الشورى (مقدمة السورة وموضوعاتها)
٢٩٦	خمسة نداءات للمؤمنين في السورة	٢٦٢	تقسيم السورة إلى قسمين
٢٩٧	أهل الطاعة وأهل المعصية	٢٦٥	سورة الزخرف (مقدمة السورة وموضوعاتها)
٢٩٨	تقسيم السورة إلى ثلاثة مقاطع	٢٦٨	مقاطع السورة وقضاياها

٣٣٠	تقسيم السورة إلى شطرين	٣٠٠	سورة ق (مقدمة السورة وفضلها)
٣٣١	خمس أدلة على البعث والنشور	٣٠١	محور السورة وأغراضها
٣٣٤	سورة الحديد (مقدمة السورة وأغراضها)	٣٠٤	تقسيم السورة إلى خمس مقاطع
٣٣٩	مقاطع السورة وعناصرها	٣٠٥	حزب المفصل من القرآن الكريم
٣٤٠	سورة المجادلة (مقدمة السورة)	٣٠٦	تقسيم سور القرآن الكريم
٣٤١	موضوعات السورة	٣٠٨	سورة الذاريات (مقدمة السورة)
٣٤٣	أسباب النزول	٣٠٩	مقاطع السورة وموضوعاتها
٣٤٧	سورة العنكبوت (مقدمة السورة)	٣١١	سورة الطور (مقدمة السورة)
٣٤٨	أغراض السورة	٣١١	إسلام جبير بن مطعم - أحاديث
٣٥٠	قصة بني النضير - سبب تواجد اليهود في المدينة	٣١٢	عذاب المكذبين ونعيم المتقين
٣٥١	تأمر اليهود على قتل النبي محمد ﷺ	٣١٤	الاستفهامات الخمسة عشر في السورة
٣٥٢	حصار بني النضير وخروجهم من المدينة	٣١٥	سورة النجم (مقدمة السورة)
٣٥٤	سورة المتعنة (مقدمة السورة وموضوعها)	٣١٥	أحاديث في سجدة سورة النجم
٣٥٥	ثلاث نداءات للمؤمنين في السورة	٣١٦	موضوعات السورة
٣٥٦	قصة حاطب بن أبي بلتعة - سبب النزول	٣١٨	سورة القمر (مقدمة السورة وموضوعاتها)
٣٥٨	وقفات أربع مع قصة حاطب	٣١٩	أحاديث في معجزة انشقاق القمر
٣٦١	سورة الصنف (مقدمة السورة وسبب النزول)	٣٢٢	سورة الرحمن (مقدمة السورة)
٣٦٣	مشروعية الجهاد لمساندة الحق ودفع الظلم	٣٢٣	أسباب النزول - في فضل سورة الرحمن
٣٦٤	سورة الجمعة (مقدمة السورة)	٣٢٤	آية الآلاء
٣٦٤	من الأحاديث الواردة في القراءة بها في الصلاة	٣٢٦	تقسيم السورة إلى أربعة فصول
٣٦٥	موضوع السورة	٣٢٨	سورة الواقعة (مقدمة السورة)
٣٦٧	سورة المنافقون (مقدمة السورة)	٣٢٩	أغراض السورة
٣٦٨	حديث القرآن عن المنافقين	٣٣٠	أصناف الناس يوم القيامة

٣٩٨	سورة العاقبة (مقدمة السورة ومقاصدها)	٣٦٩	سبب نزول السورة
٤٠١	سورة المعارج (مقدمة السورة وأقسامها)	٣٧٠	زيد بن أرقم يرد على زعيم المنافقين
٤٠٣	سورة نوح (مقدمة السورة وموضوعها)	٣٧١	عبد الله بن عبد الله بن أبي
٤٠٦	سورة الجن (مقدمة السورة وموضوعها في ستة مباحث)	٣٧٢	الابن يرفع السيف في وجه أبيه
٤٠٩	عالم الجن - رسول الثقلين	٣٧٢	خطورة النفاق
٤١١	من الأحاديث الواردة في الجن	٣٧٣	سورة التغابن (مقدمة السورة ومقاصدها)
٤١٣	مصير الجن - الرسل من الإنس	٣٧٤	مقاطع السورة
٤١٥	سورة المزمل (مقدمة السورة وموضوعها)	٣٧٦	سورة الطلاق (مقدمة السورة وموضوعها)
٤١٦	سبب النزول	٣٧٧	توزيع الموضوعات على آيات السورة
٤١٧	قيام الليل وفضله	٣٧٨	أسباب النزول - ستة أحكام عامة في الطلاق
٤٢٢	سورة المدثر (مقدمة السورة)	٣٧٩	الطلاق السني والبدعي - الشهادة على الطلاق والمراجعة
٤٢٣	موضوع السورة في خمس نقاط	٣٨٠	الطلاق البائن والرجعي والصريح والكتابة
٤٢٥	سورة القيامة (مقدمة السورة وموضوعها)	٣٨١	الطلاق المنجّز والمعلّق
٤٢٧	خمس حقائق تعرضت لها السورة	٣٨٢	سورة التحريم (مقدمة السورة وأغراضها)
٤٢٨	سورة الإنسان (مقدمة السورة وموضوعها)	٣٨٣	نداءان للمؤمنين ، ونداء للكافرين ، ونداءان للنبي محمد ﷺ
٤٣١	سورة المرسلات (مقدمة السورة)	٣٨٤	أسباب النزول
٤٣٢	موضوع السورة	٣٨٧	سورة الملك (مقدمة السورة وأسمائها)
٤٣٣	في السورة عشرة مقاطع	٣٨٩	فضل السورة وموضوعاتها
٤٣٥	سورة النبا (مقدمة السورة وفصولها الخمسة)	٣٩٠	ثلاثة عشر دليلاً على وحدانية الله سبحانه وتعالى في السورة
٤٣٧	سورة النازعات (مقدمة السورة وموضوعها)	٣٩٢	سورة القلم (مقدمة السورة ومقاصدها)
٤٣٩	مقاطع السورة أربعة	٣٩٤	الفجوة بين الإسلام والإلحاد
٤٤٠	سورة عبس (مقدمة السورة وموضوعها)	٣٩٥	موضوعات السورة في تسعة أقسام
٤٤١	نبذة عن ابن أم مكتوم ؓ	٣٩٦	الحروف المقطعة في أوائل السور

٤٨٧	حكم التكبير بين السورتين	٤٤٢	مقاطع السورة - سبب النزول
٤٨٨	سورة الشرح (مقدمة السورة، ومعجزة شق الصدر)	٤٤٤	سورة التكوين (مقدمة السورة وموضوعها)
٤٨٩	شق صدر النبي محمد ^٨ ثلاث مرات	٤٤٤	الحديث عن القيامة وعن الوحي
٤٩١	سورة التين (مقدمة السورة وموضوعها)	٤٤٥	سته أحداث في الدنيا وستة في الآخرة
٤٩٣	سورة العلق (مقدمة السورة وموضوعها)	٤٤٨	سورة الانفطار (مقدمة السورة ومقاطعها)
٤٩٤	سبب النزول	٤٥٠	سورة المطففين (مقدمة السورة وموضوعها)
٤٩٦	نزول الوحي في غار حراء غير مجرى التاريخ	٤٥٤	سورة الانشقاق (مقدمة السورة)
٤٩٧	طلب العلم هو المطلب الأول في الإسلام	٤٥٤	موضوع السورة ومقاطعها الأربع
٤٩٨	ربط العلوم التجريبية بخالق الكون	٤٥٥	حكم سجود التلاوة قبل آخرها
٥٠٠	استهلال السورة وافتتاح الأقوال والأعمال بذكر الله تعالى	٤٥٩	سورة البروج (مقدمة السورة وموضوعها)
٥٠٤	مصادرة الدعوى من غير المسلمين منذ فجر الرسالة	٤٦١	قصة أصحاب الأخدود وأبرز الطغاة فيه
٥٠٦	سورة القدر (مقدمة السورة وموضوعها)	٤٦٢	أربع روايات مختارة من القصة
٥٠٧	فضل ليلة القدر وإحيائها بالعبادة	٤٦٣	قصة الأخدود في السنة
٥٠٨	مما ورد في تعيين ليلة القدر	٤٦٦	سورة الطارق (مقدمة السورة وموضوعها)
٥١٢	مناسبة السورة لما قبلها	٤٦٩	سورة الأعلى (مقدمة السورة وعناصرها)
٥١٣	سورة البينة (مقدمة السورة وموضوعها)	٤٧٠	بعض ما ورد فيها من أحاديث
٥١٤	يأمر الله رسوله ﷺ أن يقرأ القرآن على أبي بن كعب ؓ	٤٧٣	سورة الفاشية (مقدمة السورة وموضوعها)
٥١٦	سورة الزلزلة (مقدمة السورة وفضلها وأغراضها)	٤٧٦	سورة الفجر (مقدمة السورة وموضوعها)
٥١٩	سورة العاديات (مقدمة السورة وموضوعها)	٤٧٨	سورة البلد (مقدمة السورة وموضوعها)
٥٢٣	سورة القارعة (مقدمة السورة وموضوعها)	٤٨٠	سورة الشمس (مقدمة السورة وموضوعها)
٥٢٥	سورة التكاثر (مقدمة السورة وموضوعها)	٤٨٢	سورة الليل (مقدمة السورة وموضوعها)
٥٢٧	سورة العصر (مقدمة السورة وأغراضها)	٤٨٤	سورة الضحى (مقدمة السورة وموضوعها)
٥٢٩	سورة الهمزة (مقدمة السورة وموضوعها)	٤٨٥	أسباب النزول - احتباس الوحي مرتين

٥٥٦	آخر سورة نزلت - سورة التوديع	٥٣١	سورة الفيل (مقدمة السورة وموضوعها)
٥٥٧	السورة تنعي رسول الله ﷺ	٥٣٢	عام الفيل - سبب الحادثة
٥٦٠	سورة المسد (مقدمة السورة وموضوعها)	٥٣٣	كنيسة القليس باليمن
٥٦٢	سورة الإخلاص (مقدمة السورة وموضوعها)	٥٣٤	سند الحادثة ودلالاتها والعبرة منها
٥٦٣	أحاديث في السورة - سورة الإخلاص في السنة	٥٣٧	سورة قريش (مقدمة السورة وموضوعها)
٥٦٤	فضل حب قراءتها	٥٣٨	أصل تسمية قريش - فضل قريش
٥٦٥	أفضل قراءتها مع المعوذتين	٥٤٠	الأسباب والمسببات مخلوقة لله تعالى
٥٦٧	كونها تعدل ثلث القرآن - غفران الذنوب	٥٤٢	سورة الماعون (مقدمة السورة وموضوعها - أسباب النزول)
٥٦٩	اسم الله الأعظم - سبب النزول	٥٤٤	سورة الكوثر (مقدمة السورة وموضوعها)
٥٧١	سورة الفلق (مقدمة السورة) المعوذتان في السنة	٥٤٥	سبب النزول - آثار في المعنى
٥٧٢	في فضل المعوذتين والاستعاذة بهما	٥٤٨	سورة الكافرون (مقدمة السورة وموضوعها)
٥٧٣	قراءة المعوذتين في الصلاة وفي دبرها وعند النوم	٥٤٩	توحيد الربوبية يقرُّ به غير المسلمين
٥٧٤	قراءة المعوذتين في الصباح والمساء والرقية بهما	٥٥٠	من الشرك: اتخاذ الوسائط إلى الله تعالى
٥٧٥	تحريم جعل المعوذتين تميمة - ما نسب إلى ابن مسعود في شأنهما	٥٥٠	سورة الكافرون في السنة النبوية: البراءة من الشرك
٥٧٧	سورة الناس (مقدمة السورة وموضوعها)	٥٥١	قراءتها في السفر وفي الصلاة وعند النوم ولدغ العقرب
٥٨٠	فهرس السور والموضوعات	٥٥٣	كونها تعدل ربع القرآن - سبب النزول
		٥٥٥	سورة النصر (مقدمة السورة وموضوعها)

رَفَعُ

عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

maderalvaten



100261

SR 0